

# المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية مُحَكَّمة / العدد الثاني والخمسون / خريف / ٢٠٢٥

مجلة فصلية ثقافية محكمة

المنافذ الثقافية

العدد الثاني والخمسون / خريف / ٢٠٢٥

عمر شبلي

من منا يرثي من؟

النقد الثقافي: قراءة في النشأة والذلالة والتجليات النصية

النشأة الثقافية في لبنان بين استمرارية الهوية وتحديات العولمة

أدونيس شاعر الإنسان: النون الأخضر ودلالته الزمنية

وسائل الإعلام وأشكال التواصل في العصر الجاهلي (٦٨-٦١٠ م)

الهوية الأدبية والتشكل الحضاري عند الكتاب التونسيين

أنثروبولوجيا التحوّل السوسولوجي والسيكولوجي في الخطاب السياسي

القيادة التربوية ودورها في تطوير المؤسسات التعليمية

المنهج الثقافي ونظرية الكشف عند علي مهدي زيتون

الخطاب التداولي في "وجهان ووجه أخرى" للكاتبة دزينة فريجات

D. Mélissa El Khoury

Les effets des crises sur les entreprises libanaises

Samar El Hachem

Bank Advertising in Lebanon: A Multimodal Approach



- موقف "المنافذ الثقافية"

من قضايا الانتماء الفكري  
والأدبي والروحي

للأمة العربية والاستجابة  
الإيجابية للتحدي



ISSN 2708-4302



9 772708 430007

المنافذ الثقافية  
مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

العدد الثاني والخمسون - خريف 2025

رئيس التحرير  
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التحرير  
أ. د. درية كمال فرحات

المدير المسؤول: علي حمود

الهيئة الثقافية والإدارية

|                                                                          |                          |                    |
|--------------------------------------------------------------------------|--------------------------|--------------------|
| د. هالة أبو حمدان                                                        | أ.د. عماد هاشم           | د. علي أيوب        |
| أ.د. عيدا زين الدين                                                      | أ.د. زهور شتوح (الجزائر) | أ.د. منى دسوقي     |
| د. دلال مهنا الحلبي                                                      | د. رضا العليبي (تونس)    | أ.د. جمانة أبو علي |
| د. منال شرف الدين                                                        | د. ندى الرمح             | د. سميرة طليس      |
| د. ربي شوكت محسن                                                         | د. أناند فرح             | د. رولا الحاج حسن  |
| د. زينب راضي                                                             | أ. حكمت حسن              | أ. سوزان زعيتر     |
| أ.رانية مرعي                                                             | أ. مروان درويش           |                    |
| تدقيق لغوي د. فاطمة البزال. د. سامي التراس / د. ربيعة الرزوق أ. سمر بحمد |                          |                    |
| مسؤولة القسم الانكليزي د. إيمان صالح                                     |                          |                    |

اللجنة المحكّمة

|                  |                      |                 |
|------------------|----------------------|-----------------|
| أ.د. ديزيره سقال | أ.د. حمدة فرحات      | أ.د. محمد فرحات |
| أ.د. فؤاد خليل   | أ.د. لارا خالد مخول  | أ.د. علي حجازي  |
| أ.د. جمال زعيتر  | أ.د. مها خير بك ناصر | أ.د. محمد عواد  |
| أ.د. عائشة شكر   | أ.د. أحمد رباح       | أ.د. يوسف كيال  |
| أ.د. ماغي عبيد   | أ.د. سعيد عبد الرحمن | أ.د. درية فرحات |

تصميم المجلة وإخراجها: دار النهضة العربية

ISSN 2708-4302



موقع المجلة الإلكتروني – [www.al-manafeth.com](http://www.al-manafeth.com)

تطلب المجلة من دار النهضة العربية – بيروت – شارع جامعة بيروت العربية

للمراسلات: 00961 1 833 270

[darnahdainfo@gmail.com](mailto:darnahdainfo@gmail.com)

الاشتراكات السنوية:

لبنان للأفراد 20 دولار – للمؤسسات 40 دولار

باقي الدول العربية:

للأفراد 100 دولار – للمؤسسات 200 دولار

للمراسلات: [chebli\\_omar@hotmail.com](mailto:chebli_omar@hotmail.com)

[almanafeth.2025@gmail.com](mailto:almanafeth.2025@gmail.com)

- مَن مِنَّا يرثي مَن؟  
 5..... عمر شبلي  
 -النقد الثقافي: قراءة في النشأة والدلالة والتجليات النصّية  
 8..... د. دويرين نصر  
 -المجتمع العربي في صدر الإسلام بين الرفاه وخطر اليهود  
 27..... د. جهينا محمود المصري  
 -السياحة الثقافية في لبنان بين استمرارية الهوية وتحديات العولمة: دراسة حالة دير القمر  
 51..... د. سنتيا نصر  
 -القانون الروماني تطوره التاريخي وإسهاماته في تشكيل النظم القانونية الحديثة  
 71..... د. هاني حسن حوماني  
 -أدونيس شاعر الإنسان: اللون الأخضر ودلالته الرمزية  
 110..... د. محمد حبص  
 -جوانب من نظرية الخطاب: تعريفه وفصاحته  
 133..... د. كميل أ. مخايل  
 -وسائل الإعلام وأشكال التواصل في العصر الجاهلي (610-268م)  
 164..... د. يوسف فيصل صقر  
 -استهلاك اللبنانيين في الأعياد وانعكاسه على التنمية الاجتماعية والاقتصادية  
 187..... د. لانا جرجي موسى  
 -المواطنة في لبنان بين المفهوم والمرجو والعوائق  
 238..... د. جورج عيد حرب  
 -الهوية الأدبية والتشكل الحضاري عند الكتّاب التونسيين  
 251..... د. الفاضل بن حميدة الكثيري

-أنثروبولوجيا التَّحَوُّل السُّوسِيُولُوجِيّ والسِّيكُولُوجِيّ في الخطاب السِّياسِيّ من القبيلة إلى الحزب (شيعَة عليّ وشيعَة معاوية)

278..... عباس أنيس حمزة

-القيادة التَّربويّة ودورها في تطوير المؤسَّسات التَّعليميّة: المفاهيم، الأنماط والتَّحدّيات

307..... خنساء أحمد حمدانيّة

-الصُّورة الشَّعريّة ووظيفتها الدَّلاليّة في «الدَّيوان الغربيّ» لجوزف الصَّايغ

337..... سيمونا بردويل

-المنهج النِّقافيّ ونظريّة الكشف: نحو تأصيل منهجيّ في ضوء المشروع النِّقديّ عند علي مهدي زيتون

364..... عارف مغامس

-الخطاب التَّداووليّ في مجموعة «وجهان ووجوه مختلفة» للكاتبة درّية فرحات

375 ..... مها المسلمي

-قراءة في غلاف «يوميات أمي» لجوزف لبّس

493..... مريم محمود سرور

تجليات الثَّورة في الشَّعر النِّسويّ: نازك الملائكة وفدوى طوقان أنموذجين

304 ..... الدكتور محمّد حبّص

-Les effets des crises sur les entreprises libanaises

**Dr. Mélissa El Khoury.....1**

-A Multimodal analysis of Two Commercial and CSR Online Bank Advertisements in Lebanon

**Samar El Hachem ..... 23**

-The impact of teaching stoichiometry using Phet simulation on the learning outcomes of grade 10 students in chemistry

**Ali Abdullatif Baydoun.....46**

## مَنْ مِّنَّا يَرِثِي مَنْ؟ «أَلْتَلُّنْ بِلْدَنَا عَم يَخْلَأُ جَدِيد»

### عمر شبلي

من كان يصدّقُ أنّ وطنًا تُمرّقه الحروب، وتطحنه المذاهب لتعجن منه خبزًا سامًا، وأنّ ساسةً لا يختلفون أبدًا عن التّجّار والمقاولين يلقون به في جحيم دانتي، وأسواق النّخاسة، ثم تراه فجأةً يلتئم ويتحرر، ويعجنُ خبزًا فيه روح الحياة، تعجنه بوحداً خالدةً ثلاثية الصّوت واللّحن والكلمة في عبقریات من صنع لبنان، في صوت فيروز الذي لا يمكن أن يغادر الأرواح، بل يعطيها مددًا روحيًا كلّما نضبت أرواحنا وجفّت غيوم العطاء، وفي ألحان الرّحابة التي تُحسّها وتعرف خالقها قبل أن يُلقى عليك اسم عاصي ومنصور وزياد وباقي الرّحابة النّادري التّكرار، ثمّ في الكلمة التي تذوب في موسيقى الرّحابة حتى تكاد ألاّ تميّز بين الكلمة واللّحن، وقتها تصبح الكلمة لحنًا واللّحن كلمة حيث تصبح الموسيقى والألحان فضلًا في المنطق «لم يقدر اللّسان على استخراجها فاستخرجته الطّبيعة بالألحان» كما يقول صاحب العقد الفريد.

هذه العبقرية أبعد من دُنُو الموت منها، إنّها سَفَرٌ مستمر بين الأرض والسّماء بإنسان لا يشبع من الخلود يستوحي خلوده من مسيح سافر من الأرض للسّماء وعاد إليها، ولا ندري حتى اليوم هل صليبه لا يزال نازفًا على شجرة زيتون فلسطينيّة، وحيث نرى من صُلِبَ عليه ماضيًا في «شوارع القدس العتيقة»، في زهرة المدائن، أم صار الصّليب عضوًا في جسد المسيح يذكرنا بأنّ النّزيف ضروريٌّ لدُنُو الأرض من السّماء؟

لبنان يصنعه الحبّ والغناء وفيروز منجبةً زياد الذي عبث بكلّ الأشياء ليعيد ترتيبها بتمردٍ يعرف كيف تكون الحرية ابنة التمرّد الذي يلعب بالكون ليعطي حركته معنى الجمال الذي لا يتكرّر مرتين إلّا وأضاف شيئًا من تمرّد الخالق. إنّ فرادة الجمال تلغي تقليده بل وتُعجز تقليده في أن يكون.



أنت يا زياد ألغيت بتمردك تكرار أبيك وأعمالك المبدعين لتكون أنت لا هم، وكم نخشى بموتك أن يهزل التمرّد ويصبح شكلاً ينافي الإبداع، وإنّ تزيّاً بلباسه، وقتها سأقول لك يا زياد: من منّا يرثي من؟!

أن تستطيع فيروز مع أسرتها الإبداعية إيجاد وطنٍ في زمنٍ أفولِه هذا هو الإبداع، لأنّ الخلق هو أرقى مهمّات الإبداع. إنّ وطن الإبداع الفيروزيّ الرّحبانيّ كان أبعد من جغرافيته، حيث استعمر بلاد العرب كلّها استعماراً لذيذاً شهياً محبباً تتمناه كلّ البلاد الحرّة وأتمنى ألا يبرؤوا من هذا النوع من الاستعمار المحبّب، إنك لا تشعر بلذّة الاستعمار إلّا وأنت ترى فيروز مهيمنة على كل محطات الوطن العربيّ حتى الحكوميّة منها. فتصوّر قدرة الإبداع على الاختراق، وقدرة العبقرية، وهي تخترق الفواصل والحدود. جغرافية لبنان الفيروزيّة الرّحبانية جعلت رئيس جمهورية الثقافة الفرنسيّة الرئيس ماكرون يأتي إلى لبنان ليتناول طعاماً ربّانياً على سفرة فيروز التي لا تُحدّ، ولا ترى سفرة أخرى تضاهيها لمعاناً في زمن ظلمات الأرواح.

ماذا يعني هذا الحزن الغامر في لبنان؟

أن يحزن لبنان كلّهُ، وبلا استثناء، لفقد عبقرية مولود من عباقرة وأنجبته أمّ عبقرية هذا يعني أنّ الموت كان في كلّ بيت، فما الذي حدث؟ لكن هل تموت العبقرية!!! كان كلّ واحدٍ منّا يروي شيئاً عن فيروز الذّكري، وهي جالسة أمام نعش يحمل جثة عبقرية يحاول أن يخرج من الآلة الحذاء. وهذا يثبت أنّ العدميّة لا تجرؤ أن تدنو من العبقرية: «أولتّلن بلدنا عم يخلق جديد»

هذا الحزن إذًا، كان حزناً لبنانيّاً، روحياً مارسه لبنان مع زياد ومع فيروز وهي حاضرة رافضة الموت الذي كان يُقدّم لها في أواني وأرواح النّاس جميعاً. كم كان عظيماً حضور الحياة في الموت، وهي تحيي ذاكرة وطن والموت ممّد أمامها في زيادها غير الناقص روحاً أبداً، كان حضورها يلغي الموت لأنّها أيقظت فينا ما كان ميتاً تماماً. لقد أحيت لبنان الذي كان ميتاً فينا، فاعجب لموت يُحضّر الحياة في كل تفاصيل الوطن الذي كان يشبه فيروز، كان صدى أغنية «سألوني النّاس عنك يا حبيبي» حاضراً بملحنه زياد

في كل من رأى حزن فيروز، كان الصدى الرّحباني يلغي سنوات ملأى بالغربة وموت الوطن. فأعجب لصوتٍ كان يُرى بمستوى سماعه. كانت الأمّ والابن معها في حضورٍ أزلّي يجعلنا نتساءل «أماَت الموت»؟ كان صوتًا يوقظ لبنانَ من رُفاته. كان صوتًا يوقظ فينا احتمال قدرتنا على إحياء الوطن.

مات زياد الرّحباني ولم يمت، إنّ عمر العبقرية أبعد من الرّمن وعصيّ على الزّوال. استرح، يا زياد في قلوبنا جميعًا، ومع ذلك أسألك: مَنْ مِنّا يرثي مَنْ؟



## النقد الثقافي: قراءة في النشأة والدلالة والتجليات النصية

Culture-based criticism: A Reading of Its Genesis, Significance, and

Textual Manifestations

د. دورين نصر<sup>1</sup>

Dr. Dorine Nasr

تاريخ القبول 2025/7/30

تاريخ الاستلام 2025/ 7/5

### الملخص

يُعدّ النقد الثقافي أحد أبرز التحوّلات المعرفيّة والمنهجية التي طالت الحقل النقديّ المعاصر؛ إذ لم يعد النصّ الأدبيّ يُقرأ بوصفه كياناً جمالياً مغلقاً على ذاته، بل بوصفه خطاباً متشابكاً مع البنى الثقافية والرمزية والاجتماعية التي تُنتجها وتؤوّلها. لقد أراح النقد الثقافيّ مركزيّة الأدب لصالح الثقافة، وتوسّع في أدواته ومجالاته ليشمل المقروء والمرئيّ، والمكتوب والمُتخيّل، جامعاً بين الخطابات الإعلامية والفنيّة والمرجعية.

تتمحور هذه الدراسة حول إضاءة عامّة على السياقات التي أفرزت النقد الثقافيّ ومفهومه كما تبلور في الفكر الغربيّ، ثمّ تجلياته النصيّة التطبيقية في أنموذجين: قصيدة «قارئة الفئان» لنزار قبّاني، ومشهد «موت عدلاً» في مسلسل بالدم. وقد انطلقنا فيه من فرضيّة مفادها أنّ النقد الثقافيّ لا يقوّض الأدب، بل يُعيد تموضعه ضمن شبكة المعاني والصراعات الرمزية التي تنتجها الثقافة.

**الكلمات المفتاحية:** النقد الثقافيّ، أنساق مُضمرة، قارئة الفئان، بالدم، المجتمع، السيميائية، الرموز.

### Abstract

Culture-based criticism represents one of the most significant epistemological and methodological shifts that have shaped contemporary critical discourse. Literary texts are no longer viewed merely as aesthetic objects enclosed within themselves, but as discourse embedded within the cultural, symbolic, and social structures that produce and interpret such

1- باحثة وأكاديمية لبنانية. حائزة شهادة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها في معهد الآداب الشرقيّة - جامعة القديس يوسف. تدرّس في جامعة البلمند وجامعة القديس يوسف.

works. Cultural criticism has displaced the primacy of literature in favor of culture, expanding its analytical tools and fields of inquiry to encompass both the readable and the visible, the written and the imagined—bridging media, artistic, and referential discourses.

This study provides a comprehensive overview of the contexts that gave rise to cultural criticism and examines how its conceptual framework crystallized within Western thought. It then investigates its practical textual applications through two models: Nizar Qabbani's poem \*"The kariaat Al fonjen"\* and the \*"Death of Adla"\* scene from the television series \*Bil Dam\*. The central hypothesis of this study is that cultural criticism does not diminish literature but rather repositions it within the complex network of meanings and symbolic tensions generated by culture.

**Keywords :** Cultural criticism, implicit systems, kariaat Al fonjen, Bil Dam, society, semiotics, symbols.

## المقدمة

يُعدّ النقد الثقافيّ (Cultural Criticism) واحداً من أبرز الأنشطة الفكرية العميقة التي تتكئ على الثقافة بمفهومها الواسع والعريض، حيث يتخذ أصحابه من الأنشطة الإنسانية العامة موضوعات للبحوث ومجالات للدراسة، محاولين بها ومن خلالها التعبير عن مواقف محدّدة تجاه تبدّلات الثقافة وتقلّبات السّلطة في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة.

وقد شغل أصحاب النقد الثقافيّ بتتبّع الأدوار الاجتماعية التي يمكن أن تؤدّيها الفنون والآداب المختلفة، كما اهتموا أيضاً ببحث الآثار المختلفة المترتبة على المزج بين الإبداع والفكر، وبشكل خاص في مجال الحراك الاجتماعيّ، وانتبهوا كذلك للقضايا المجتمعية مثل قضايا التعليم، والنموّ السكانيّ، والتحوّلات الاجتماعية والاقتصادية في أطر المجتمعات الرأسمالية الحديثة، وحتى الملابس والأزياء، فراحوا يولونها عناية خاصّة، وينشغلون بما تعكسه من دلالات ثقافية؛ كما بالغوا في اهتمامهم برصد فئات المهمّشين والشعبيّين والإقليميّين، وتتبعوا كلّ ما يختصّ بالأقلّيّات على نحوٍ عامّ، مع عنايتهم البالغة بالإبداعات الثقافية المختلفة لهؤلاء المهمّشين والشعبيّين والإقليميّين في مختلف أرجاء المعمورة.

ولم يقتصر اهتمام أصحاب النقد الثقافي على صور ما أسلفنا فحسب، بل تجاوزوا كل ذلك إلى ما هو أكبر وأشمل، وهو نقد الثقافة بمفهومها الواسع والعريض، وتحليل أنشطتها المؤسساتية، من خلال استعانتهم بمنهج مستقاة من مرحلة ما بعد البنيوية.

وفي ضوء ذلك، سنقسم هذا البحث إلى قسمين: قسم نظري نسلط فيه الضوء على مفهوم النقد الثقافي وجذوره ونشأته، يليه قسم تطبيقي نتوقف فيه عند قصيدة «قارئة الفجان» للشاعر نزار قباني بوصفها نصاً شعرياً يتقاطع مع أنساق الثقافة العربية في تمثيل المرأة والقدر، وعند مشهد «موت عدلا» من مسلسل «بالدم» باعتباره خطاباً بصرياً يجسد تمثيلات العنف والسلطة والطبقة في الموروث الجمعي.

وينطلق هذا البحث من الإشكالية الآتية:

هل يتيح النقد الثقافي، بوصفه منهجاً عابراً للتخصصات، تفكيك الأنساق المضمرّة والتمثيلات الرمزية للسلطة والهوية في النصوص الإبداعية؟

وتتفرّع عن هذه الإشكالية التساؤلات التالية:

- هل يمكن اعتبار البنية الجمالية للنص خطاباً ثقافياً يُعيد إنتاج الأنساق السلطوية أو يعمل على تفكيكها؟

- هل يمنح النقد الثقافي المتلقي سلطة التأويل بما يكشف عن تعددية المعنى ونسبيته؟

- كيف تتباين تمثيلات الجسد والهوية والسلطة في النصوص النوعية المختلفة (شعر، دراما) عند إخضاعها للقراءة الثقافية؟

أمّا المنهج المعتمد في هذه الدراسة فهو المنهج الثقافي النقدي (النقد الثقافي)، بوصفه منهجاً تفاعلياً، بينياً، يتقاطع مع العلوم الإنسانية والاجتماعية، ويهدف إلى تحليل النصوص بوصفها تجليات لخطابات ثقافية تنتجها بنى السلطة والمعرفة والهوية.

فما هو مفهوم هذا النقد؟ إلى متى تعود جذوره، وما هي مراحل نشأته؟ وكيف تجلّى تطبيقاً في الأنموذجين المختارين للدراسة؟

## أولاً- القسم النظري: إضاءة عامة على النقد الثقافي

إن مفهوم النقد الثقافي مصطلح معاصر يرتبط بتوجهات ما بعد الحداثة، يعمل في حقل واسع ومتعدد ومتنوع ومتداخل؛ فهو يفتح على مجالات فكرية ومعارف اجتماعية وإنسانية كنظرية الأدب والتحليل النفسي وعلم العلامات وغيرها. وقد اختلف النقاد حول النقد الثقافي بين من عدّه منهجاً نقدياً، وآخر رآه نشاطاً نقدياً، غير أنّ النقد الثقافي نشاط فكري وليس مجالاً معرفياً خاصاً بذاته، يهتم بالنصوص المهمشة التي لم يتناولها النقد الأدبي، ودراسة الأدب الفني والجمالي، كونه يمثل ظاهرة ثقافية.

### 1- مفهوم النقد الثقافي

النقد الثقافي منهج فكري غربي الأصل، ظهر في أوروبا في حدود القرن الثامن عشر الميلادي<sup>1</sup>، وكذلك عند الأميركيين، ويمثلهم فنسنت ليتش (Vincent Leitch) الذي دعا إلى نقد ثقافي «ما بعد بنويي»<sup>2</sup>. ويقصد بما بعد البنيوي «ما بعد الحداثة»، إذ إنّ النقد الثقافي يندرج ضمن الإطار الفكري لما بعد الحداثة. وكان الهدف بطبيعة الحال توسيع أفق ما بعد البنيوية، ليحتوي ذلك الزخم الجديد للنظرية في مختلف الاتجاهات، ويشمل مذاهب وتيارات نقدية متعددة، مثل: «ما بعد الكولونيالية والمادية، والنقائفة، والماركسيّة الجديدة، والتاريخية الجديدة، والنقد النسوي»<sup>3</sup>، والنقد الثقافي.

يقوم النقد الثقافي عند ليتش كما يرى الغدامي على ثلاث خصائص هي<sup>4</sup>:

- 1- يؤطر النقد الثقافي فعله تحت إطار التصنيف المؤسّساتي للنصّ الجمالي، بل يفتح على مجال عريض من الاهتمامات إلى ما هو غير محسوب في حساب المؤسّسة، وإلى ما هو غير جمالي في عرف المؤسّسة، سواء أكان خطاباً أم ظاهرة.
- 2- يستفيد النقد الثقافي من مناهج التحليل مثل تأويل النصوص ودراسة الخلفية

1- ينظر: ميجان الزويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي: إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً، ط3، الدار البيضاء، المركز الثقافي، 2002، ص 306.

2- الموضع نفسه.

3- الموضع نفسه.

4- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2000، ص 32.

التاريخية، إضافة إلى إفادته من الموقف النقدي والتحليل المؤسسي.

3- إن الذي يميز النقد الثقافي لما بعد البنيوي هو تركيزه الجوهري على أنظمة الخطاب كما هي لدى بارت (Barthes) ودريدا (Derrida) وفوكو (Foucault)، خصوصاً في مقولة دريدا أن لا شيء خارج النص، وهي مقولة يصفها ليتش بأنها بمثابة البروتوكول للنقد الثقافي لما بعد بنيوي، ومعها مفاتيح الشرح النصوي كما عند بارت، وحفريات فوكو. وبذلك تجاوز النقد الثقافي كل ما هو شكلاني، وتحول إلى البحث عن الأشكال الثقافية التي لم يهتم بها النقد القديم حسب ما يرى ليتش.

أما بالنسبة إلى آرثر أسا بيرغر (Arthur Asa Berger) فالنقد الثقافي هو «نشاط وليس مجالاً معرفياً خاصاً بذاته، وإن نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم والنظريات على الفنون الراقية، والثقافة الشعبية، والحياة اليومية، وعلى حشد من الموضوعات المرتبطة. فإن النقد الثقافي هو مهمة متداخلة، مترابطة متجاوزة متعددة. وإن نقاد الثقافة يأتون من مجالات مختلفة ويستخدمون أفكاراً ومفاهيم متنوعة»<sup>1</sup>. وهو يفتح على العديد من العلوم والنظريات ويفيد منها، وبمقدوره «أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد، وأيضاً التفكير الفلسفي، وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي، وبمقدوره أيضاً أن يفسر نظريات ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي، والنظرية الاجتماعية الأنثروبولوجية<sup>2</sup>...». فيكون بذلك شأنه شأن الدراسات الثقافية، لأن كليهما أفاد من نظرية الأدب والجمال وما إلى ذلك.

وفيه يقول الدكتور عبد الوهاب أبو هاشم: «إن النقد الثقافي هو منهج سبقنا إليه الغرب (أمريكا وفرنسا)، له أدواته للكشف عن المضمرة النسقي في العمل الأدبي»<sup>3</sup>.

يؤكد حفناوي بعلي أن هذا النقد الثقافي «نشاط وليس مجالاً معرفياً قائماً في ذاته، وأن الناقد الثقافي أو نقاد الثقافة، يطبقون المفاهيم والنظريات المتنوعة في تراكيب على الفنون

1- آرثر أسا بيرغر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، الكويت، ترجمة وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص 30، 31.

2- م. ن.، ص 31.

3- عبد الوهاب أبو هاشم، مشروع النقد الثقافي، جمعية الثقافة والفكر الحر، ملنقى الإبداع الأدبي، اللقاء الخامس، الخميس 17 أبريل 2003. أيضاً: نجاة أخصري، النقد الثقافي وواقعه في الجزائر: في سبيل مقارنة بينية حفناوي بعلي نموذجاً، الجزائر، جامعة سيدي بلعباس، ع 2، م 1، ديسمبر 2020، ص 68.

الرّاقية والثّقافة الشّعبيّة والحياة اليوميّة...، وبمقدور [هذا النّقد] أن يشمل نظريّة الأدب والجمال والنّقد والتّفكير الفلسفيّ وعلم العلامات والنّظريّة الاجتماعيّة والأنثروبولوجيّة<sup>1</sup>. وبالنتيجة، يتفق حفاوي بعلي مع آرثر أسا بيرغر على أن النّقد الثّقافيّ نشاط.

أمّا عبد الله الغذاميّ فقد عرّفه بأنّه «فرع من فروع النّقد النّصوصيّ العامّ...، معنيّ بنقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثّقافيّ بكلّ تجلياته وأنماطه وصيغته... [وهو يهتمّ] بكشف... المخبوء من تحت أقنعة البلاغيّ/ الجماليّ»<sup>2</sup>. فالغذاميّ بقوله هذا يستبعد الجماليّات من دائرة النّقد الثّقافيّ. والجدير بالذّكر أنّ هذا النّقد يدرس النّصوص والخطابات الأدبيّة التي تحمل أنساقاً وصوراً ثقافيّة وما إلى ذلك، سواء أكانت شعراً أم قصّة أم رواية أم مسرحيّة.

فالنّقد الثّقافيّ يواكب روح العصر، ويستلهم الواقع؛ لذلك يحتاج إلى تأنّ ودقّة ومراجعة عميقة وجادّة. وتبرز أهمّيّته في جرأته وإمكانيّته على التّجدّد والإنتاج، وهذا ما جعله نشاطاً فكريّاً، إذ «يتخذ من الثّقافة بشموليّتها موضوعاً لبحثه وتفكيره، ويعبر عن مواقف إزاء تطوّراتها وسماتها»<sup>3</sup>، فلم يكن النّقد الثّقافيّ بديلاً عن النّقد الأدبيّ بقدر ما كان محاولة منهجيّة تتمحور حول استكشاف الأنساق الثّقافيّة المضمرّة، سواء أكانت تلك الأنساق مهيمنة أم هامشيّة.

والعلاقة بين النّقد الأدبيّ والنّقد الثّقافيّ علاقة تكامل لا علاقة إلغاء أو تنافس؛ فالنّقد الثّقافيّ لا يحلّ محلّ النّقد الأدبيّ أو يلغيه، لأنّه يستعين بالمناهج كافّة ويفتح عليها، ومن ضمنها النّقد الأدبيّ. وقد تطوّر النّقد الثّقافيّ عن النّقد الأدبيّ الذي بقي على تقاليده في نقد النّصوص وتفسيرها، ثمّ إصدار الحكم النّقديّ عليها. وبالتالي، فقد عرف مراحل تطوريّة مختلفة.

## 2- مراحل تطوّر النّقد الثّقافيّ

ظهر النّقد الثّقافيّ في الغرب في القرن الثّامن عشر، لكنّه كمصطلح لم يكن موجوداً

1- حفاوي بعلي، مدخل في نظريّة النّقد الثّقافيّ المقارن، ط1، الجزائر، الدّار العربيّة للعلوم - ناشرون، 2007، ص 20 (ومن الملاحظ أنّ حفاويّ قد أورد تعريف آرثر أسا بيرغر للنّقد الثّقافيّ من دون الإشارة إليه).

2- عبد الله الغذاميّ، م. س.، ص 83، 84.

3- ميجان الرّويّليّ وسعد البازعيّ، م. س.، ص 305.

قبل منتصف القرن العشرين. ولم يكن بروزه وليد صدفة، بل جاء نتيجة سياقات مرتبطة بتطور الفكر الغربي منذ القرن التاسع عشر. وقد أتى ردّة فعل على محدودية النقد الأدبي التقليدي، متجاوزاً النصوص إلى تحليل الخطاب، والتمثيلات، والسلطة، والهوية. وتتمثل جذوره في عدّة محطات أساسية، من أبرزها:

## 2-أ- المرحلة الأولى: مدرسة فرانكفورت<sup>1</sup>

تُعدّ النواة الأولى للنقد الثقافي. ظهرت في ألمانيا بين الحربين العالميتين، وانتقلت لاحقاً إلى الولايات المتحدة الأميركية بعد صعود النازية.

أبرز المفكرين في هذه المرحلة: ثيودور أدورنو (Theodor Adorno)، وماكس هوركهايمر (Max Horkheimer)، وهيربرت ماركوزه (Herbert Marcuse).

ركّز هؤلاء على نقد الثقافة الجماهيرية، وربطوا الإنتاج الثقافي بالبنية الرأسمالية معتبرين الثقافة أداة أيديولوجية تُستخدم لإعادة إنتاج الأيديولوجيا السائدة وتخدير وعي الجماهير. وقد أسهموا في النقد الثقافي من خلال تقديم تحليل ثقافي للسلطة والرأسمالية من منظور ماركسي، ومهدّوا لفكرة أنّ الثقافة ليست حيادية بل بنية موجّهة أيديولوجياً.

## 2-ب- المرحلة الثانية: ما بعد البنيوية وتفكيك مركزية المبنى<sup>2</sup>

ظهرت ما بعد البنيوية في ستينيات القرن العشرين في فرنسا، رداً على البنيوية التي كانت ترى أنّ المعنى يُبنى داخل أنظمة مغلقة، كاللغة أو الأسطورة أو الثقافة. أمّا ما بعد البنيوية فقد أعلنت رفض الثبات، والنسق، والسلطة التفسيرية الواحدة، وهذا ما وُفّر أرضية خصبة لنشوء النقد الثقافي لاحقاً.

وقد طرح دريدا مفهوم «التفكيك» الذي لا يعني الهدم، بل إظهار تناقضات النصّ، وأكد أنّ المعنى غير ثابت، بل يتأجّل باستمرار بسبب انزلاقات اللغة، وشكّك في مركزية

1- أنظر: ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر، جدل التنوير، ترجمة حنا عبّود، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2005؛ هيربرت ماركوزه، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، دار الآداب، 1988.

2- أنظر: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة كمال بو منير، الجزائر، دار الاختلاف، بالتعاون مع منشورات ضفاف، بيروت، 2012؛ ميشال فوكو، أركيولوجيا المعرفة، ترجمة ماهر فريد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الفكر المعاصر، 2005؛ جان بودريار، المجتمع الاستهلاكي: أساطير وسلوك، ترجمة عبّود وآخرون، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2008.



الذات، والحقيقة، والعقل، ما أعاد تشكيل نظرنا إلى الخطابات الثقافية.

أما فوكو، فرأى أنّ الخطاب يُنتج المعرفة، وهو ليس أداة تواصل بريئة، بل نظام سلطة. وقد حلّل كيف تتحكّم المؤسسات (كالطبّ، الدين، السجون) في تشكيل الذات والمعنى، ممهّداً لنشوء نقد الخطاب في الدراسات الثقافية والنقد الثقافي.

وتحدّث جان بودريار (Jean Baudrillard) عن مفهوم المحاكاة والواقع الفائق (Hyperreality)، وهما من أبرز أسس النقد الثقافي في ما بعد الحداثة، إذ يقترح أنّ الثقافة تمرّ بأربع مراحل في علاقتها بالواقع:

- 1- الرّمز: يعكس واقعاً حقيقياً (مثل صورة طبق الأصل).
  - 2- التّشويه: الرّمز يشوّه الواقع الذي يمثّله.
  - 3- التّمثيل الذي يدّعي الواقعيّة من دون مرجعيّة: أي لا يعود لواقع بل لنسخة من واقع.
  - 4- المحاكاة: لا يوجد واقع أصليّ، بل الرّمز يصبح هو الواقع. فالمحاكاة هي إنتاج نسخ لا تحاكي شيئاً حقيقياً، بل تصنع وهماً بالواقع.
- مثلاً: الإعلام، والإعلان، والسّينما، ومواقع التّواصل، تُنتج عالماً من الصّور التي تحلّ مكان الواقع الأصليّ (مثال: في ديزني لاند تُصنع حقيقة خياليّة أكثر جاذبيّة من الواقع، ويُقبل النّاس عليها كأنّها الأصل).
- والواقع الفائق هو حالة اندماج المحاكاة مع الواقع بحيث لا يستطيع الإنسان التّمييز بين الحقيقة والصّورة، العالم مغمور بالصّور، والرّموز، والشّفرات التي تحلّ محلّ التجربة الواقعيّة.

النتيجة: انهيار المعنى، لأنّ كلّ شيء صار تمثيلاً لشيء آخر غير موجود.

وعليه، فهو يرى أنّ الثقافة الحديثة أصبحت خاضعة لمنطق السّوق والاستهلاك الرّمزيّ، والسّياسة، والإعلام، والحياة اليوميّة تتحوّل إلى عروض ومحاكاة للسلطة والمعنى.

من هنا، لا يقدّم بودريار فقط نقدًا للثقافة، بل يتنبأ بزوال الواقع نفسه في ظلّ هيمنة الصّور والمحاكاة. نقده جذريّ وحداثيّ بامتياز، وقد أثر في مجالات الإعلام، والسّيميولوجيا، والفكر الثقافيّ والسّياسي.

من هنا، يتلخّص أثر ما بعد البنيويّة في النّقد الثقافيّ كما يلي:

- تحرير النّقد من الحدود الأدبيّة الصّارمة نحو تحليل الخطابات.

- التّشكيك في الخطابات الكبرى: القوميّة، العقلانيّة، الإنسانيّة، الهويّة.

- تمهيد الطّريق لفحص التّمثيلات الثقافيّة بوصفها بنيات أيديولوجيّة.

## 2-ج- المرحلة الثالثة: الدّراسات الثقافيّة: التّحوّل إلى تحليل الحياة اليوميّة<sup>1</sup>

ظهر هذا التّيّار في ستينيّات القرن الماضي في بريطانيا مع تأسيس مركز الدّراسات الثقافيّة المعاصرة في جامعة برمنغهام، مع ريتشارد هوغارت (Richard Hoggart)، ثمّ راييموند ويليامز (Raymond Williams) وستيورات هول (Stuart Hall).

تحوّلت النظرة إلى الثقافة من كونها نخبويّة إلى كونها مجالاً للصّراع والممارسة اليوميّة. أبرز الخصائص التي تميّزت بها:

أ- التّركيز على الثقافة الشعبيّة، لا باعتبارها تافهة، بل كمرآة لأعمق البنى الاجتماعيّة والرّمزيّة.

ب- الدّمج بين الأدب والإعلام والجندر والعرق باعتبارها حقولاً مترابطة داخل الحياة اليوميّة.

ج- نقد الهيمنة الثقافيّة (هيمنة المعنى) بالاعتماد على مفهوم غرامشي للهيمنة<sup>2</sup>، ودراسة كيف تفرض الثقافة السائدة تصوّراتها على الأفراد.

د- دور المتلقّي: لم يعد المتلقّي سلبيّاً، بل أعاد إنتاج المعنى من موقعه الطّبقيّ

1- انظر: راييموند ويليامز: الكلمات المفتاحيّة: مفردات الثقافة والمجتمع، ترجمة عبد السّلام بنعبد العالي، الدّار البيضاء، دار تويقال، 2007؛ ستيورات هول، التّمثيل: الثقافة والتّمثيلات الثقافيّة، ترجمة سعيد بو كرامي وآخرون، القاهرة، المركز القوميّ للترجمة، 2019.

2- نظريّة الهيمنة عند غرامشي تعني قيادة مجموعة اجتماعيّة مثل الطّبقة الحاكمة، مجموعات أخرى، ليس بالقوّة والإكراه فقط، بل من خلال القيادة الفكرية والأخلاقيّة والثقافيّة.

والثقافي.

أبرز المفكرين في هذه المرحلة:

-رايموند ويليامز: الثقافة عملية اجتماعية حية.

-ستيوارت هول: تحليل التفسير والتفكيك في الإعلام، ودراسة تمثيل العرق والهويات.

-ريتشارد هوغارت: مؤسس مفهوم الثقافة الحية المرتبطة بالطبقات الكادحة.

في هذه المرحلة لم يعد النقد مقتصرًا على النصوص، بل انتقل إلى تحليل العادات، والموضة، والتلفزيون، واللغة اليومية، وأنماط الاستهلاك، بوصفها نصوصًا ثقافية مشبعة بالسلطة والرمزية.

فتح هذا المجال أفقًا واسعًا للنقد الثقافي لفهم الإنسان المعاصر في بيئته المعيشية لا في برجه النصي العاصي.

بعد هذا العرض الموجز لمراحل تطوّر النقد الثقافي، من تنظيرات مدرسة فرانكفورت في تفكيك السلطة والهيمنة، إلى تفكيك ما بعد البنيوية البنّى المعرفية واللغوية، وصولًا إلى تحليل الحياة اليومية كما بينت الدراسات الثقافية البريطانية، يبدو واضحًا أنّ النقد الثقافي تجاوز مهمته التحليلية البحتة ليغدو عدسة فاحصة للرموز في كلّ تمثلاتها.

ولعلّ التحديّ الأكبر لا يكمن في توصيف هذه المراحل، بل في اختبار فاعليتها التحليلية عند مقارنتها لنصوص أدبية تحتكم إلى تعقيدات اجتماعية وتاريخية وجمالية متشابكة.

هنا تتجلى الوظيفة الحية للنقد الثقافي، ليس فقط بوصفه ممارسة فكرية، بل كونه أداة لفهم كيف يُعاد إنتاج السلطة والمعنى والهوية في النصوص الثقافية.

## ثانيًا - القسم التطبيقي: أنموذجان تطبيقيان في ضوء النقد الثقافي

تتيح الدراسة التطبيقية فهمًا أوسع للنقد الثقافي، كونها تُخضع النصّ لمبضع التحليل على ضوء نظريات هذا المنهج، ما يكشف عن الأبعاد الدلالية والأنساق الثقافية التي يتضمنها، ويكسب البحث ديناميكية وحيوية.

وعليه، ارتأينا توظيف النقد الثقافي في الشعر، من خلال تحليل قصيدة «قارئة الفنجان» للشاعر نزار قبّاني، وفي الدراما، من خلال تحليل مشهد «موت عدلا» في مسلسل «بالدم».

## 1- تحليل قصيدة «قارئة الفنجان»

تمثّل قصيدة «قارئة الفنجان» للشاعر نزار قبّاني أنموذجاً تحليلياً، لا لنتناول قضية «المرأة - الجسد» كما يوحي ظاهرها، بل لتفكيك البنية الثقافية التي تنتج خطاباً جديداً يحكم علاقة الرجل بالزمن والمصير.

### 1-أ- النصّ

جلست والخوفُ بعينيهما  
تتأملُ فنجانِي المقلوب  
قالت: يا ولدي... لا تحزنْ  
فالحبُّ عليك هو المكتوب  
يا ولدي، قد ماتَ شهيداً  
مَنْ ماتَ على دين المحبوب  
فنجائك دنيا مُرعبةٌ  
وحياتك أسفارٌ وحروبٌ  
ستحبُّ كثيراً يا ولدي  
وتموتُ كثيراً يا ولدي  
وستعشقُ كلَّ نساء الأرض  
وترجعُ كالملكِ المغلوبِ  
بحياتك يا ولدي امرأةً

عيناها، سُبحانَ المعبودُ  
فمُها مرسومٌ كالعنقودُ  
ضحكتُها موسيقى وورودُ  
لكنَّ سماءَكَ ممطرةٌ  
وطريقَكَ مسدودٌ... مسدودُ  
فحبيبَةُ قلبِكَ.. يا ولدي  
نائمةٌ في قصرٍ مرصودُ  
والقصرُ كبيرٌ يا ولدي  
وكلابٌ تحرسُهُ... وجنودُ  
وأُميرةٌ قلبَكَ نائمةٌ  
مَنْ يدخلُ حُجرتَها مفقودُ  
مَنْ يطلبُ يَدَها...  
مَنْ يدنو من سورِ حديقَتِها... مفقودُ  
مَنْ حاولَ فكَّ ضفائِرها...  
يا ولدي...

مفقود... مفقود  
بَصَرْتُ... ونَجَمْتُ كثيرًا  
لكِنِّي... لم أقرأ أبدًا  
فنجانًا يشبهُ فنجانَكَ  
لم أعرف أبدًا يا ولدي...

أحزانًا تشبه أحزانك

مقدورك... أن تمشي أبدًا

في الحب... على حدّ الخنجر

وتظلّ وحيدًا كالأصداف

وتظلّ حزينًا كالصفصاف

مقدورك أن تمضي أبدًا...

في بحر الحبّ بغير قُلوع

وتحبّ ملايين المرات...

وترجع كالملك المخلوع.

إنّ قراءة هذه القصيدة من منظور النّقد الثّقافيّ تتجاوز البُعد الرّومانسيّ لتلامس عمق البنية الذّكوريّة العربيّة، والتي تلجأ إلى الأنثى بوصفها وسيلة للكشف عن المجهول. من هنا، يصبح السّؤال المركزيّ: كيف تعيد القصيدة إنتاج خطاب الهيمنة الذّكوريّة من خلال استعارتها لسلطة قارئة الفنجان؟ وهل يمكن للنّص أن يُقرأ باعتباره مساحة صراع ثقافيّ خفيّ بين العاطفة والسّلطة؟

### 1-ب- القصيدة في ضوء النّقد الثّقافيّ

بالاعتماد على مسارات النّقد الثّقافيّ، وتحليل الخطابات الرّمزيّة والسّلطويّة داخل النّصوص، يمكن تفكيك قصيدة «قارئة الفنجان» وفق الآتي:

#### - الخطاب القدريّ والهيمنة الرّمزيّة

القصيدة مشبعة بخطاب قدريّ يُنزّه الحبّ ويجعله قوّة غيبيّة لا مفرّ منها: «فالحبّ عليك هو المكتوب». هذا الاستسلام للقدر يُعيد إنتاج تصوّر ثقافيّ عربيّ يرى في الحبّ مصيرًا حتميًّا، لا تجربة إنسانيّة قابلة للتشكيل. هنا، تتسحب الفاعليّة من الذات، وتُستبدل بها صياغة الهوية العاطفيّة للرجل.

## -حضور المرأة كونها كاهنة وقدرًا

لا تُستحضر المرأة في القصيدة كامرأة حقيقية، بل كرمز مزدوج: فهي «قارئة الفنجان» التي تمتلك سلطة النبوءة، وهي في الوقت نفسه «أميرة» نائية، ومجموعة، ومحروسة. في كلا الدورين، تُفرغ المرأة من إنسانيتها، ويُحمل جسدها رمزية ثقافية فائضة: فتارة هي من تكشف المستقبل، وطورًا يستحيل الوصول إليها. وهي مفارقة تُرسخ نمط «الأنثى الغامضة/ المقدسة»، الشائع في الثقافة العربية الذكورية.

## -خطاب الحصار والاستحالة

«نائمة في قصرٍ مرصود... وكلابٌ تحرسه... وجنود»، «من يدخل حجرتها مفقود». هذه العبارات تشكّل تمثيلًا ثقافيًا لحصار الرغبة، وتُعيد إنتاج خطاب الإحباط، لا بوصفه مشكلة نفسية، بل ثقافة تُرسخ استحالة الحب، وتعذيب الرغبة، وكأنّ العشق محكوم بنظام منع، وتابوهات طبقية أو جنسية.

## -بنية البكائية وتكريس الرجولة الجريحة

الشاعر يصوغ هوية رجولية مأزومة، مصلوبة على خشبة الحنين والانكسار. «وتحبّ ملايين المرات... وترجع كالملك المخلوع». الرجولة لا تحتفل بالاختيار، بل تتمركز حول الخسارة، ما يعكس مركزية «الرجل الضحية» في الثقافة العربية، وهو عنصر بالغ الأهمية في نقد بنية الذكورة الشرقية.

## -غياب البعد السياسي/ الاجتماعي الظاهر

رغم الطابع العاطفي للقصيدة، فهي تستبطن تمثيلات ثقافية للسلطة والحصار الاجتماعي، خصوصًا في بناء العلاقة بين الحب والحرب، بين العشق والموت، بين المرأة والسلطة. لذا، يمكن تأويل النصّ بوصفه مرآة تُعيد إنتاج تصورات المجتمع عن الحب والقدر، لا باعتبارها أحوالاً فردية، بل تمثّلات ثقافية.

وعليه، فإنّ قصيدة «قارئة الفنجان» نصّ مشبع بدلالات ثقافية عميقة، تُعيد إنتاج أنماط سلطوية تحت غطاء الجمال الشعري. وهنا تتجلى وظيفة النقد الثقافي: زعزعة

ما يبدو شعرياً محضاً لكشف ما هو رمزيّ، وبنويّ، ومهيمن. القصيدة تمنح المرأة سلطة ظاهرة، لكنها في العمق تركز ثنائيتي السيطرة والفقد، الحضور والغياب، المقدس والممنوع، وتثبت خطاباً قديماً يُحاكي القهر الجمعيّ المقمّط في رداء الحبّ.

## 2- تحليل مشهد «موت عدلا»

تناول مسلسل «بالدم» الذي عُرض على إحدى المحطات التلفازيّة اللبنانيّة في شهر رمضان المنصرم، العديد من القضايا الاجتماعيّة التي يعاني منها المجتمع العربيّ، ومنها قضية الشرف، وتهميش المرأة، والاتجار بالأطفال... وهي من القضايا التي غالباً ما يتمّ السكوت عنها في الخطاب العامّ.

### 2-أ- انعكاس المجتمع في الخطاب الثقافيّ

تناول المسلسل، كما أشرنا، ضمن القضايا التي طرحها، قضية تجارة الأطفال، وتعمّق في وصف تداعياتها على الأشخاص والمجتمع. ولعلّ الشخصيّة التي مثّلت هذا الدور خير تمثيل هي «عدلا»، الشابة البسيطة التي لجأت إلى حيّ شعبيّ عندما كانت حاملاً، هرباً من عائلتها، ومكّنت في منزل القابلة القانونيّة المتورّطة في الاتجار بالأطفال، ما يضعها في موقع اجتماعيّ هشّ ومعرّض للاستغلال والعنف، ويبرز مدى محدوديّة خياراتها، وانعدام شبكات الدّعم الأمنيّة لها. فهروب «عدلا» من عائلتها بسبب الحمل خارج إطار الزواج يسلّط الضّوء على الخطابات الثقافيّة المحافظة التي تفرض وصمة عار اجتماعيّة قاسية على النّساء اللّواتي يخرجن عن التقاليد. حملها ووضعها كأمراة وحيدة يجعلانها عرضة للتهميش والاستغلال في مجتمع ما يزال يحمل أحكاماً مُسبقة تجاه هذه الفئة.

والجدير بالذّكر أنّ ارتباط «عدلا» بالطفّل المفقود من خلال الدّمية «غدي» يحمل دلالات عميقة حول الأمومة المهمّشة والفقد، لأنّ هذا الارتباط المرضيّ بالدّمية يكشف عن أثر الصّدمة في سياق التّهميش الاجتماعيّ. فهل يُعدّ هذا الارتباط بالدّمية نوعاً من المقاومة الصّامّة للظّروف القاسية؟ وما الدّلالات الاجتماعيّة التي يمكن استنتاجها من مشهد «موت عدلا»؟



## 2-ب- الدلالات الاجتماعية التي يحملها مشهد «موت عدلا»

حملت شخصية «عدلا» ولا سيما مشهد موتها، أنساقاً ثقافية ترجمت الأوضاع الاجتماعية في المجتمعات العربية، نذكر منها:

### -النسق الثقافي الذكوري

لعلّ المشهد الأشدّ وقعاً في النفس والأكثر إيلاماً، كان احتفال «عدلا» بعيد ميلاد «غدي» قبل مقتلها، ما يؤكّد عمق جرحها وحرمانها، فيتحوّل طفلها الافتراضي «غدي» علامة على الحنين إلى أمومة. وليس مقتل «عدلا» على يد أخيها في جريمة شرف إلا تجسيداً مُروّعاً للعنف الذكوري وسلطة العائلة الأبوية في المجتمعات التي ما تزال تتبنّى مفاهيم الشرف القائمة على قمع حريّة المرأة وحياتها. هذا المشهد يكشف عن النسق الثقافي الذكوري الذي يمنح الذكور الحقّ في التّحكّم بحياة الإناث ومعاقبتهنّ باسم الحفاظ على شرف العائلة. هكذا يصبح هذا المشهد أيقونة لظاهرة جرائم الشرف في المجتمعات العربية. أمّا دم «عدلا» المسكوب فعلمة مؤثّرة تحيل مباشرة إلى أنّ الروابط العائلية تُبنى أحياناً على العنف لا الحبّ. كما أنّ تصوير موت «عدلا» أمام ابنها «غدي» يشكّل علامة بصرية قويّة، حيث يُظهر المونتاج التباين بين براءة الطّفل وقسوة الجريمة، مُستحضراً سيميائية «الضحايا الصّامته». فالمشهد يُفكّك التناقض بين الاحتفال بعيد الميلاد (رمز الحياة) والقتل (رمز الموت)، كاشفاً عن الازدواجيّة الأخلاقية في المجتمع.

### - أبعاد التفاعل بين الحدث والمتلقي

الواقع، أنّ التفاعل الواسع للجمهور مع شخصية «عدلا» والتعبير عن الحزن لوداعها، والمطالبة بإطلاق أغنية المشهد وإطلاق البالونات التي ترمز إلى صعود الرّوح إلى السّماء، كلّ هذا يشير إلى قدرة هذه الشّخصيّة المُهمّشة على لمس قلوب المشاهدين، وإثارة تعاطفهم، ما يُمكن تحليله من منظور سوسيولوجيا التّلقّي، إذ رأى الجمهور في هذه الشّخصيّة انعكاساً لمعاناة الفئات المهمّشة في المجتمع.

هكذا يبدو النصّ مقروناً في تفاعلاته بالمجتمع، وتقاطعاته بأنظمة الإنتاج وأنظمة الاستقبال، وذلك للكشف عن التّعقيدات القائمة بين النصوص والجمهور، والقوى التي تتولّى إنتاج الوسائل، في حركة السيّاق الاجتماعيّ.

### -رمزية أغنية الختام: «نملة صغيرة»

إنّ اختيار أغنية «نملة صغيرة» للمشهد الختاميّ يضيف طبقة أخرى من التحليل الرّمزيّ، حيث يمكن للنملة الصّغيرة أن ترمز إلى الضّعف والصّبر، وهي صفات قد تكون مرتبطة بشخصيّة «عدلا». هذه الأخيرة التي تجاوزت كونها مجرد شخصيّة دراميّة لتصبح نظاماً من العلامات التي تفكّك الخطاب السائد حول الجندريّة (Gender)، والعنف والهويّة، عبر توظيف السيميائيّات البصريّة (المونتاج، الألوان)، والسّمعيّة (الأغنية)، والسّرديّة (المصير المأسويّ)، فتتحوّل «عدلا» إلى علامة ثقافيّة تطرح أسئلة نقدية حول المسكوت عنه في المجتمع.

فالسيميولوجيا تكشف أنّ الموت الدراميّ لـ «عدلا» ليس نهاية، بل بداية لتفكيك رموز القمع. واسم «عدلا» نفسه يحمل دلالة سيميائيّة: «عدلا» من العدل تُقتل ظلماً، ما يُظهر الانزياح بين الدالّ (الاسم) والمدلول (المصير) لتفضح غياب العدالة الاجتماعيّة.

## الخاتمة

النقد الثقافيّ هو مقارنة تحليليّة، يهدف إلى فحص الأنظمة والقيم والممارسات الثقافيّة في المجتمع وفهمها، ومعرفة كيفيّة تأثيرها في الأفراد والمجتمعات. وبناءً عليه، عمدنا إلى تحليل أنموذجين: شعريّ ودراميّ، وهما: قصيدة «قارئة الفجّان» للشاعر نزار قبّاني، ومشهد «موت عدلا» من مسلسل بالدّم، ضمن إطار النقد الثقافيّ، ما أتاح لنا استكشاف البنى العميقة الكامنة في اللّغة والرموز خلف التّصوص الجماليّة.

وقد مرّ هذا النقد بمراحل متشابهة، من جذور فلسفيّة واجتماعيّة، إلى مرحلة ما بعد البنيويّة، ثمّ إلى تفكيك الحياة اليوميّة، فوسّع مداركه من سلطة النّصّ إلى سلطة المعنى. لكن ما طرحناه في هذا البحث يتجاوز استعادة المسار ليقترح رؤية جديدة: الانفتاح على نقد ثقافيّ بينيّ-تفاعليّ-حيّ، ينصهر فيه تحليل الخطاب مع تحليل الأنساق المضمّرة، في قراءة جديدة للثقافة لا تكتفي بتفكيك السّلطة، بل تراقب إنتاجها، وتوزّعها، وتحولاتها عبر الزّمان والمكان.

إنّ المستقبل الحقيقيّ للنقد الثقافيّ لا يكمن فقط في تعدّد المناهج، بل في تحوّل النّاقِد نفسه إلى ذات متعدّدة التّخصّصات، واعية لاختلافات الحقول، ومؤمنة بإمكانات قرائيّة جديدة تتجاوز ثنائيّة الجماليّ/الإيديولوجيّ نحو أفق تفاعليّ متجدّد.

## قائمة المصادر والمراجع

1. -أبو هاشم (عبد الوهاب)، «مشروع النقد الثقافي»، جمعية الثقافة والفكر الحر، ملتقى الإبداع الأدبي، اللقاء الخامس، 17 أبريل 2003.
2. -أخصريّ (نجاة)، النقد الثقافي وواقعه في الجزائر، في سبيل مقاربة بينية، حفناوي بعلي نموذجاً، الجزائر، جامعة سيدي بلعباس، ع 2، ديسمبر 2020.
3. -أدورنو (ثيودور) وهوركهايمر (ماكس)، جدل التنوير، ترجمة حنا عبود، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2005.
4. -بعلي (حفناوي)، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ط1، الجزائر، الدار العربية للعلوم - ناشرون، 2007.
5. -بوديار (جان)، المجتمع الاستهلاكي: أساطير وسلوك، ترجمة عبده عبود وآخرون، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2008.
6. -بيرغر (آرثر أسا)، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة وفاء ابراهيم ورمضان بسطاويسي، ط 1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003.
7. -جابر (نادين)، مسلسل «بالدم»، إخراج فيليب أسمر، إنتاج شركة «إيغل فيلمز»، عُرض في موسم رمضان 2025.
8. -حمودة (عبد العزيز)، الخروج من التّيه: دراسة في سلطة النصّ، الكويت، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 289، نوفمبر 2003.
9. -دريدا (جاك)، الكتابة والاختلاف، ترجمة كمال بو منير، الجزائر، دار الاختلاف بالتعاون مع منشورات صيفاف، بيروت، 2012.
10. -الزويلي (ميجان) والبارعي (سعد)، دليل الناقد الأدبي: إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً، ط 3، الدار البيضاء، المركز الثقافي، 2002.
11. -الغدامي (عبد الله)، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2000.
12. -فوكو (ميشال)، أركيولوجيا المعرفة، ترجمة ماهر فريد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الفكر المعاصر، 2005.
13. -قّباني (نزار)، قصائد متوحّشة، 1970، (AlAdkawia.net) books-library.online.
14. -ماركوزه (هربرت)، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، دار الآداب، 1988.
15. -هول (ستيوارت)، التمثيل: الثقافة والتمثيلات الثقافية، ترجمة سعيد بو كرامي وآخرون، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2019.
16. -ويليامز (رايموند)، الكلمات المفتاحية: مفردات الثقافة والمجتمع، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال، 2007.

# المجتمع العربي في صدر الإسلام بين الرِّفاه وخطر اليهود

## The Arab Society in the Early Islam Era: Between Prosperity and the Threat of the Jews

د. جهينا محمود المصري<sup>1</sup>

Dr. Jouhayna Mahmoud Al Masri

تاريخ القبول 2025/7/30

تاريخ الاستلام 2025 / 7 / 2

### الملخص

لم تكن الحياة الاقتصادية والسياسية منتظمة في جاهلية العرب، مثلما آلت إليه في صدر الإسلام، بعد أن أرسى قواعد الرسول الكريم (ﷺ)، وبتوسّع الفتوحات، وتدقّق أموال البلاد التي عمّها الإسلام بنوره.

وباعتماد المنهج التاريخي الذي يسلط الضوء على معطيات البيئة وعامل الزمن؛ تكشف هذا البحث بالملاحظة والتحليل عن أنّ هذه الوفرة الاقتصادية التي نعم بها العرب جميعاً، لم تكن بمنأى عن كيد الكائدين من المشركين واليهود الذين ناصبوا الإسلام العداء منذ أن هلّت بشائره، وقد حققت عدالة نسبية بين الناس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية وانتماءاتهم القبلية التي ألّف بينها الإسلام.

**الكلمات المفتاحية:** الأسس الاقتصادية، الإسلام، الرسول والصّحابة، الفتوحات، اليهود، نكث العهود، الوفرة المالية، المهاجرون والأنصار، المصاعب والمساواة.

### Abstract

Economic and political life was not as regular in pre-Islamic Arab times as it became at the beginning of Islam, after its foundations were laid by the Noble Messenger (peace be upon him), and with the expansion of conquests and the flow of money from the countries that Islam spread with its light...

By adopting the historical approach that sheds light on environmental data

1- جامعة الجنان/ مكتب التدقيق اللغوي Email:jouhayna.masri1234@gmail.com

and the factor of time; Through observation and analysis, this research reveals that this economic abundance that all Arabs were blessed with was not immune from the machinations of the polytheists and Jews who were hostile to Islam ever since its tidings came, and that it achieved relative justice among people regardless of their social classes and tribal affiliations. He united Islam among them. key words Economic foundations, Islam, the Messenger and the Companions, conquests, the Jews, breaking covenants, financial abundance, the immigrants and the Ansar, hardships and equality.

**Keywords:** Economic foundations, Islam, the Prophet and his companions, conquests, Jews, broken covenants, financial abundance, immigrants and helpers, hardships and equality.

## المقدمة

يشكل صدر الإسلام مرحلة تأسيسية في التاريخ العربي والإسلامي، انسمت بتحوّلات كبرى في البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للجزيرة العربية. فقد انتقل العرب من واقع الجاهلية الذي غلبت عليه القبليّة وتباين أنماط المعيشة، إلى كيان موحد تحكمه مبادئ العدل والمساواة، وقد أرسى دعائمها الرسول الكريم ﷺ، مدعوماً بحركة الفتوحات التي فتحت أمام المسلمين آفاقاً واسعة من الرّفاه والاستقرار؛ غير أنّ هذا الازدهار لم يكن بمنأى عن التّحدّيات، إذ واجهت الدّولة الإسلاميّة الناشئة محاولات معارضة متعدّدة، كان أبرزها موقف اليهود في المدينة وما حولها، فقد رأوا في الرّسالة المحمّديّة تهديداً لمكانتهم الدّينية ونفوذهم الاقتصادي والاجتماعي.

وبأتى هذا البحث ليتناول، في ضوء المنهج التاريخي القائم على التحليل والاستقراء، ملامح الحياة العربيّة في صدر الإسلام بين الوفرة الاقتصادية وخطر اليهود، مبرزاً أبعاد التّفاعل بين الاستقرار الداخلي والتّحدّيات الخارجية، ومسّطاً الضّوء على طبيعة العلاقات التي نشأت بين المسلمين واليهود، وما شابها من معاهدات ونقض للعهد وصدامات، كان لها أثر بارز في مسار التّجربة الإسلاميّة الأولى.

## المجتمع العربي في صدر الإسلام بين الرّفاه وخطر اليهود

كان العرب قبل الإسلام بدوًا وحضرًا، ومن البديهي أن يختلف أسلوب معيشتهم في الحياة الاقتصادية والسياسية، ولكن الحياة الاجتماعية كانت ذات نظام واحد، هو نظام القبيلة بروابطها وعُرفها وقيمها الخلقية.

وجاء الإسلام بمثل جديدة واتّجاه جديد، وأحدث ثورة دينية فكرية، رافقتها تطورات أدّت إلى ثورة في حياة العرب الاقتصادية، وفي وضعهم المعيشي؛ فقد تجاوز الإسلام الحدود القبلية إلى أفق جديد حين نادى بفكرة الأمة، ثم وحد العرب بعد الرّدة في نطاق أمة واحدة، ووجّههم إلى الجهاد، فأخرجهم من مواطنهم إلى آفاق جغرافية جديدة، وصحب ذلك تنظيم بشكل يحقق فكرة الجهاد والتّوسّع.

وأدّت الفتوحات إلى انتشار العرب وتوسّعهم في الأرض والزّرق، وقد خرجوا في موجة ازدادت تدفقًا بازدياد الانتصارات ثمّ بتوسّع الفتوح، ولقيت حركة الهجرة حماسًا بسبب جفاف الجزيرة وتوقّف الغزو وتوفّر الثروة في البلاد الجديدة، وشملت هذه الهجرة البادية والحاضرة على ما بينهما من تفاوت في القبلات والمستويات، وكان لذلك نتائج في الحياة العامة.<sup>1</sup>

وتلا الفتوح بصورة تدريجية انتشار الدّين الإسلامي، فدخله من آمن ومن تسنّر، وقوي هذا الاتّجاه على مرّ الأيام حتى أدّى إلى ظهور تيّار الموالي، وكان لهذه التّيارات - القبلي والحضريّ ثمّ تيّار الموالي - دور في التّطورات الاجتماعية فيما بعد.<sup>2</sup>

وخرج العرب إلى الفتوحات في هيئة قبائل، واستمرّوا في تكوين الجيش العربيّ الذي نُظّم في تقسيمات قائمة على الوحدات القبلية، من قبيلة إلى عشيرة، وسجّل العرب في الدّواوين المحليّة في الأمصار (وادي الجند) على أساس النّسب القبليّ، وانتظموا في السّكن على سكك ودروب وفق العشائر والأفخاذ؛ واستمرّت النّقايد والعادات القبلية سائدة بينهم في البادية، وبقي التّأكيد على رابطة النّسب قويًا؛ وهذا التّظيم القبليّ المنسجم في الظّاهر كان يخفي وراءه التّبّاين بين عناصر البادية والعناصر الحضريّة التجاريّة عن المدن وخاصّة مكة.

1- مقدّمة في صدر الإسلام، ص 87 - 88.

2- م. ن.، ص 88.

وفي مرحلة الفتوحات وبعدها، تمكّن المكيّون من التّجّار وبعض عرب المدن من تنمية الثّروات التي حصلوا عليها؛ في المقابل، كان جهل البلاد بالأمر الماليّة واضحاً، إذ أسرفوا في الإنفاق، وطمع أنصار بعض الخلفاء في الثّراء. ومع تدفّق الأموال عليهم، أصبحوا معتادين على العطاء والرّزق الكبير، لكن عندما توقّفت الفتوحات، أفلسوا سريعاً، ووجدوا مواردهم ضئيلة مقارنة بما اعتادوه، فترعزع نمط معيشتهم.

وهذه التطورات زادت من حدة التباين بين رجال القبائل وأهل المدن القدماء، وأكسبته أبعاداً ظهرت آثارها جليّة في المرحلة الأولى؛ كما أكّد هذا الوضع المقلق تداخل الجانب الاقتصاديّ بالمشكلة السياسيّة؛ لكن السّؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل انتشر الإسلام بالدّعوة السّلميّة أو بالقوّة؟

يعتقد بعض المستشرقين، وبعض من لم تتح لهم الفرصة للتعمّق في الإسلام أو الدّراسات الإسلاميّة، أنّ القوّة كانت عاملاً رئيساً في انتشار الإسلام، مستندين في ذلك إلى الحروب التي وقعت في حياة الرسول (ﷺ) وبعد وفاته؛ وللردّ على هذا الرّأي والسّؤال، نوّكد بقوّة وإصرار أنّ الإسلام لم ينتشر بالسّيف، على الرّغم من وقوع بعض الهفوات مع بعض القبائل، بل انتشر بالدّعوة والبراهين؛ ولنقرأ آية تلو الأخرى في سلسلة من آيات القرآن، ومن ثمّ في سلسلة من الأحداث التاريخيّة بحيث لا يبقى للشكّ مجال.

فأمّا عن القرآن، فهناك قوله تعالى:

- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾ (البقرة: 256).
- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ﴾ (النحل: 125).
- ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۖ﴾ (الكافرون: 6).
- ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۚ﴾ (الرد: 40).
- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ﴾ (الغاشية: 21 و 22)

كان محمّد في مكّة هو وأصحابه مستضعفين، لا قوّة لهم على خصومهم من كفّار قريش؛ لذا كان يدعو النّاس بالوعظ والإنذار من طريق المسالمة؛ كما جاء في القرآن: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ (النحل: 125).



125)؛ فهذه الآية كانت شعارًا للدعوة في مكة، فدخلها مجموعة من عظماء الرجال الذين احتكموا إلى العقل والفكر معًا، من أمثال: علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير، ثم عمر؛ فهل يمكن القول إن هؤلاء دخلوا بالقوة، وأين القوة في ذلك الدعم؟

لقد اضطهدت قريش المسلمين في مكة اضطهادًا قاسيًا، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألوانًا من العذاب، وكانوا مغلوبين على أمرهم، مستضعفين، وكان أهل المدينة يسعون إلى الإسلام فيعتقونه، ويصير لهم ذوهم وأهلهم؛ فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بالقوة بين سكان المدينة؟!

ولكن عندما هاجر المكيون إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى والعقبة الثانية، قويت شوكتهم، واشتد جناحهم بالأنصار الذين بايعوا رسول الله (ﷺ) والمهاجرين الذين تبعوه، وبعد أن ذاقوا مصاعب كثيرة من سفك الدماء وقتل الأنفس وحرمانهم من أبسط مقومات الحياة قرن الرسول (ﷺ) دعوته بالسيف؛ ليدافع عن نفسه، وليقاتل خصوم دعوته من الكافرين، جريًا على ديدنه في جميع أمور الدعوة؛ وقد كان قرار الدفاع هذا تدريجيًا ومنطقيًا، متناسبًا مع حجم القوة الحربية التي كان يواجهها. ومن هنا، كانت الآية القرآنية التي نزلت في القتال في المدينة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢١) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ (٤٠) (الحج: 39 - 40)؛ فهذه الآية تضمنت أمرين: أحدهما الإذن بالقتال، أي جعله مباحًا لهم من غير أن يفرض عليهم فرضًا، والثاني أن الإذن لهم بالقتال إنما هو بسبب أنهم ظلموا، وأخرجوا من ديارهم بغير حق، فسياق الآية يدل على أن المأذون لهم بالقتال هم المهاجرون لا الأنصار؛ لأنهم لم يظلموا ولم يخرجوا من ديارهم، وإنما هم يقاتلون بحكم البيعة التي بايعوا بها محمدًا (ﷺ) على أن يحموه وينصروه، ويجوز أن يكون الإذن عامًا للمهاجرين والأنصار؛ وهذه أول خطوة خطاها رسول الله (ﷺ) في أمر القتال، ثم جعله فرضًا على المسلمين، ولكن لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، إذ قال عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم﴾ (١٩٠) (البقرة: 190)؛ وهذه هي الحروب الدفاعية.

تُظهر المصادر التاريخية بوضوح أن المرحلة التي شهدت أوسع انتشارًا للإسلام كانت فترة السلم التي أعقبت صلح الحديبية بين المسلمين وقريش، وامتدت قرابة سنتين. ويؤكد

المؤرخون أنّ عدد الداخلين في الإسلام خلال هاتين السنتين فاق بكثير عدد من أسلموا في نحو عشرين عاماً منذ بدء الدعوة حتى توقيع الصلح. ويكشف هذا المعطى التاريخي أنّ الانتشار الواسع للإسلام ارتبط بالسلام وأجواء الأمن، لا بالحرب أو الإكراه.

وانتشر الإسلام على نطاق واسع في مناطق شاسعة من العالم، مثل إندونيسيا وأفريقيا، فننتساءل: ما القوة التي مكنته من بلوغ تلك البلاد البعيدة وجذب قلوب الملايين؟

ولكن سرعان ما بدأ الإسلام ينتصر وينتشر، وسرعان ما تكونت في الجزيرة العربية دولة قويّة متّحدة، فإضافة إلى قوّتها واتّحادها كان لها مبادئ الدّين الجديد الذي اجتمع العرب حوله، وهذه المبادئ جعلت العرب يعشقون الجهاد في سبيل الله؛ لملاقاة إحدى الحُسنين: أن يموت المجاهد شهيداً، أو أن ينتصر مدافعاً عن الإسلام، وهذه المبادئ وحدت العرب، وألزمته الطّاعة لله وللرسول وأولي الأمر، وأن يتركوا لهم الرّأي عند النزاع؛ حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ﴾ (النساء: 59)

ومبادئ الإسلام واضحة في أنّ أيّ قتال إنما هو لردّ العدوان، كما سبق، وينص القرآن الكريم على أن المسلمين أن يلجأوا إلى السلم إذا لجأ إليه أعداؤهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ﴾ (الأنفال: 61)، وقال: ﴿أَعَزَّ لَكُمْ فَلََمْ يُقْنِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۖ﴾ (النساء: 90)؛ وهذه الآيات البيّنات، والأحداث التي مرّت على الإسلام، تؤكّدان بوضوح أنّ الإسلام سلك طريقه بالدعوة لا بالقوة.

### اليهود في المدينة والجزيرة العربية

لم يكن لليهود حماسة حقيقية لنشر دينهم، إذ انحصرت أدواتهم في القتال والسحر، والنفث، والرقية. وكانوا يعدّون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانيّة، ويتقنون أساليب الكسب والمعيشة؛ غير أنّهم في الواقع كانوا أهل دسائس ومؤامرات، يمارسون العنف والفساد، ويلقون العداوة والبغضاء بين القبائل العربية المجاورة التي كانت غارقة في حروب دامية متواصلة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۖ﴾ (آل عمران: 100)؛ والخطاب للأوس والخزرج،

إذ كان اليهود يريدون فتنّتهم، واللفظ في الآية عام.

وكان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود: بنو قينقاع، كانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل المدينة، وبنو النضير وبنو قريظة من حلفاء الأوس، وتقيم ديارهما في ضواحي المدينة

هذه القبائل عُرِفَتْ بإذكاء نار الصراع بين الأوس والخزرج منذ زمن بعيد، وشاركت في حرب بُعَاث<sup>1</sup> إلى جانب حلفائهم، وهي الحرب التي استمرّت لسنين طويلة. وهي تمثّل نموذجاً للموقف العام لليهود في تلك الحقبة؛ فاليهود أهل الفساد والجريمة، قاتِلو الأنبياء وسفّكو الدماء، واشتهروا بالغدر والخيانة؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ فَسَيَكُونُوا كَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتَ﴾ (البقرة: 61).

وكان اليهود في الجزيرة العربيّة، ولا سيّما يهود يثرب، يردّدون على أسماع العرب: «قد آن أوان بعثة نبيّ، وسننّبعه ونقوى به عليكم»... هكذا كان اليهود يخطّطون ويُمَنّون أنفسهم، ظانّين أنّه إذا جاء النّبيّ سيكون في صفّهم؛ غير أنّ مشيئة الله قضت أن يُبعث النّبيّ محمّد ﷺ، فما إن وصلت دعوته إلى يثرب، حتى سارعت الأوس والخزرج إلى مبايعته في بيعة العقبة الأولى والثانية، خشية أن يسبقهم اليهود إلى نصرته.

### العقبة الأولى

في موسم الحجّ من العام الثّاني في المدينة، وافى من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوا النّبيّ بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوا الله ورسوله (ﷺ)، وذلك قبل أن تُقرض عليهم الحرب<sup>2</sup>.

### العقبة الثّانية

رجع مصعب بن عمير إلى مكّة، وخرج مع الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم، من أهل الشّرك حتى قدموا إلى مكّة، فواعدوا رسول الله (ﷺ) بالعقبة من أوّسط أيام التشريق، وأراد الله به ما أراد من كرامته والنّصر لدينه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشّرك وأهله<sup>3</sup>.

1- يوم بُعَاث.

2- السيرة النبوية لابن هشام، 73 / 2 - 76.

3- المصدر السابق، 81 - 84. وراجع الطبقات لابن سعد، 219 / 1 - 229.

ولم يدخل في الإسلام من اليهود إلا عددٌ قليل جداً، مثل عبد الله بن سلام بن الحارث<sup>1</sup>؛ فغالبيتهم العظمى قابلت دعوة النبي ﷺ بالرفض. وقد سجّل القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ ﴾ (البقرة: 89)؛ وهنا لا بدّ لنا من التّساؤل: لماذا كفروا بنبيّ الإسلام مع أنّهم كانوا ينتظرونه؟ وربّما يكون الجواب: أنّهم أرادوه أن يكون منهم ولهم؛ ليظلّ سلطانهم على النّاس، ويعلي مكانتهم، ولكنّ الإسلام جاء على يد رجل من العرب وليس من اليهود، والإسلام سوّى بين النّاس، فلم يبقهم شعباً مختاراً، كما كانوا يأملون، ولهذا السّبب أسرع عرب يثرب ودخلوا الدّين قبلهم، إذ أصبح لا فائدة فيه لهم، بناءً على تفكيرهم.

ومع كلّ ما حصل وحدث، أحسن المسلمون معاملتهم، وعقدوا معهم معاهدة، وتركوا لهم حرّية العبادة، وأعطوهم الحقوق نفسها التي للمسلمين، ومقابل ذلك التزم اليهود بالتعاون مع المسلمين عسكرياً لحماية وطنهم المشترك إذا تعرّض لعدوان، والتزموا كذلك بالتعاون مادياً إذا حدث ما يحتاج إلى التّعاون المادّي، وكان روح المعاهدة هو العمل المشترك لهدف مشترك؛ غير أنّ اليهود، كما أشرنا سابقاً وأثبتت شواهد التاريخ، لم يكونوا مخلصين في عهودهم، ولم ينخرطوا في هذا العهد إلا مؤقتاً ريثما تتاح لهم فرصة أخرى تخدم مصالحهم. وقد بدا ذلك جلياً منذ اللحظة الأولى، إذ أدركوا أنّ دين محمد ﷺ جاء لينزع منهم ما القيادة الروحية القائمة على الصلة بالله عن طريق الوحي، وما ارتبط بها من فخرهم بكتاب مقدّس منزلٍ من عند الله.

وزاد حقّ اليهود حينما رأوا دين محمد ﷺ ينتشر انتشاراً واسعاً في أقصر مدّة عرفها التاريخ، فاليهود يعرفون كيف تعرّث اليهوديّة، وكيف حوربت المسيحيّة قروناً عدّة، ولكنّ انتصار محمد ﷺ بدأ يتحقّق في حياته، وبعد سنين قليلة من بدء دعوتِهِ، وبخاصّةٍ عندما حدثت الهجرة، وظهر الطّريقُ ممهّداً للنّجاح الكامل؛ فعقدوا العزم على المقاومة، واتّخذت مقاومتهم طرقاً متعدّدة، كان من أولها الجدل الذي اصطنعوه؛ ليشكّكوا النّاس، ويردّوا المسلمين عن الإسلام، وقد ذكر القرآن ذلك الموقف بقوله: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا ﴾ (البقرة: 109).

1- تهذيب الأسماء للتّووي، 1/ 271.

وأدرك اليهود أنّ هذا الطّريق لم يأتِ بفائدة، ولم يستطيعوا أن يفتتوا مسلماً عن دينه، ولم يستطيعوا أن يصدّوا النّاس عن دخول الإسلام، فتأكّدوا أنّ السّبيل الوحيد للقضاء على الإسلام هو قوّة الحسام وليس قوّة اللّسان، بعد أن اتّجهوا إلى قوّة السّيف إلى قريش؛ ليقضي العرب على العرب، وليتولّى العرب إخماد هذا الصّوت الجديد - وهو ما نعيشه الآن - فالعرب يقاتلون العرب، واليهود هم المتقرّجون والمستفيدون، وتأكّد لهم أنّ قريشاً اضمحلّت، وأنّ محمّداً (ﷺ) هاجر، وأصبح ذا قوّة وعصبية، وبات يستطيع أن يقاوم وأن يحمي دينه وأتباعه، والشّاهد على ذلك انتصار المسلمين في غزوة بدر، فأصبح لا مناص لليهود من أن يدخلوا ميدان النّضال بأنفسهم؛ ليرجّحوا كفة قريش عند اللّزوم، وليحملوا هم عبء هذا الكفاح والصّراع بينهم وبين المسلمين.

وابتدأ الصّراع بين المسلمين وبين بني قينقاع، أقوى جماعات اليهود الذين شملتهم المعاهدة مع المسلمين، وكانوا أوّل من نكث العهود، ويرون في ذلك أنّه بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين أبدى اليهود غضبهم وسخطهم على المسلمين، وكان بنو قينقاع أكثر اليهود سخطاً وغضباً واستهانةً بهذا النصر وتهويّاً من شأنه.

وحدث أن ذهبت امرأة من الأنصار إلى سوق الصّاعة، حيث يكثر اليهود، فتسلّل خلفها رجل يهوديّ وهي جالسة، وعقد طرف ثوبها إلى أعلاه، فلمّا وقفت المرأة انكشف ظهرها، فتضاحك اليهود وصرخت المرأة الشّاكية، فوثب رجل من المسلمين على اليهوديّ فقتله، وشدّ اليهود على المسلم فصرعوه، وأعلنوا نبذهم العهد واستعدوا للحرب<sup>1</sup>؛ ولمّا كلّمهم الرّسول في ذلك، وأنذرهم قالوا له: «يا محمّد إنّك تحسب أنّا كقومك، لا يغرّنك أنّك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصببت منهم فرصة، وإنّا والله لئن حاربتنا لتعلمنّ أنّا نحن النّاس»، وكان ذلك تهديدًا وإنذارًا بخيانة جسيمة، ونزل بعد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ﴾ (الأنفال: 58)؛ ويروى أنّ الرّسول قال عندما نزلت هذه الآية: (إنّي أخاف خيانة بني قينقاع).

وخرج الرّسول في جمع من أصحابه، وحاصر دُورهم، فقدف الله في قلوبهم الرّعب، فما استطاعوا الظّهور، ونزلوا على حكم الرّسول (ﷺ) وحينئذٍ تقدّم عبد الله بن أبيّ وكان حليفهم قبل الإسلام، فقال للرّسول: أنّي فيّ موالٍ، فتركهم الرّسول له، واكتفى بإبعادهم

1 - الكامل في التّاريخ لابن الأثير، 2/ 56.

عن المدينة، فخرجوا حتى نزلوا أذرعات الشام، ولم يلبثوا حتى هلك أكثرهم، وكانوا حوالي ستمائة، وكانوا يشتغلون بالصّاعة والتجارة<sup>1</sup>.

أما يهود بني النضير فكان بينهم وبين المسلمين حلف يقضي بالتّعاون بين الفريقين مادياً عند الحاجة؛ وحدث أن قتل أحد المسلمين رجلين بالخطأ، فوجب على المسلمين أن يدفعوا الدّية عنهما، وكان الذي قتلها عمرو بن أمية الضمري، وهو الوحيد الذي نجا من عامر بن الطفيل وأهل نجد، وكانوا قد قتلوا جميع المسلمين الذين أرسلهم الرّسول (ﷺ) لدعوة أهل نجد إلى الإسلام، وكانت الموقعة عند بئر معونة، وعندما كان عمرو بن أمية عائداً قابل رجلين من بني كلاب ابن ربيعة وبين الرّسول عهد لهم لم يعلمه عمرو، وقد خافهما هذا على نفسه فاغتالهما، فالتزم الرّسول بديتهما<sup>2</sup>. وأنقلت الدّية المسلمين؛ لأنّهم كانوا لم يستقرّوا بعد من الناحية الماليّة، بسبب كثرة المهاجرين الذين فرّوا من بيوتهم تاركين أموالهم وثرواتهم بمكّة، ورأى الرّسول أن يسأل بني النضير أن يُسهموا في دفع هذه الدّية، عملاً بالحلف السّابق، فذهب بنفسه إلى الحيّ الذي يسكنون فيه، وذكر لهم الخبر، فقالوا له: «نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت ممّا استعنت بنا عليه»، وطلبوا منه الجلوس ريثما يدبرون له المال الذي طلبه، فجلس الرّسول (ﷺ) بجانب جدار، ومعه أصحابه أبو بكر وعمر وعليّ.

وذهب اليهود؛ ليفكّروا فيما يدفعون من المال، ولكن سرعان ما هتف واحد منهم: إنكم لن تجدوا الرّجل على مثل حاله هذه. وقال آخر: من ممّا يعلو هذا الجدار فيلقي عليه حجراً فيريحنا منه؟ قال عمرو بن جحاش: أنا لذلك. وصعد عمرو، ولكن سرعان ما أوحى الله لمحمّد أنّ اليهود يأتمرون به؛ ليقتلوه، وطلب منه الانسحاب في صمت<sup>3</sup>؛ وانسحب الرّسول وانتظر أصحابه، وانتظر عمرو بن جحاش عودته؛ ولكن هيهات. فلحق أبو بكر وعمر وعليّ بالرّسول، وسألوه عن السّبب في أنّه تركهم، فذكره لهم، وأشيع خبر المؤامرة.

1- السيرة النبوية لابن هشام، 2/ 120، وراجع تاريخ الطبري - تاريخ الرسل والملوك، 2/ 172، وفتوح البلدان للبلاذري، ص 23.

2- فتوح البلدان للبلاذري، ص 23 - 24.

3- السيرة النبوية لابن هشام، 2/ 176.

فراح بعض اليهود يلوم بعضهم الآخر على هذه الجريمة الشنعاء؛ وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ﴾ (المائدة: 11).

وكان طبيعياً أن يعمل المسلمون على إخراج بني النضير من المدينة حتى يأمنوا في عقر دارهم من العدو الداخلي الذي يشكّل خطراً مع العدو الخارجي، وحتى يفرغوا لعدوهم الأكبر الذي أخذ يعدّ جموعه في مكة بعد غزوة أحد؛ ليقضي على المسلمين قضاء مبرماً، وفي النهاية حاصرهم المسلمون مدة ستة أيّام، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، فطلبوا من الرسول أن يسمح لهم بالخروج من المدينة ومعهم ما تحمل الإبل إلا الدروع<sup>1</sup>؛ فقبل الرسول منهم ذلك، وخرجوا، حيث نزل بعضهم خيبر، ونزل آخرون الشام، وكان من أشرفهم الذين نزلوا خيبر حُيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الزبيع<sup>2</sup>؛ وكانت هذه الحادثة في السنة الرابعة من الهجرة.

وإنّ الاكتفاء من بني النضير بالخروج من المدينة، ومعهم ثراؤهم الواسع، كان عملاً في منتهى التسامح، وقد تغلّب الباعث الإنسانيّ الذي قضى بهذا الحكم على الحق القانوني، وعلى الحرص اللازم لحراسة أمة ناشئة ودين جديد؛ على الرغم من أنّ بني النضير لم يبرهنوا على أنّهم جديرون بالعطف الذي عاملهم به الرسول، إذ إنّهم سرعان ما غدروا وأخذوا يجمعون الجموع، وينثرون الناس لمهاجمة المسلمين والقضاء عليهم، وقد استجابت لهم جماعات كثيرة، كان يربط بينها كراهية للإسلام والكيد له، ومن أهم هؤلاء قريش وغطفان وبنو مرة وغيرهم، وزحفت هذه الجماعات أو هؤلاء الأحزاب على المدينة في الغزوة التي سُميت بغزوة الأحزاب.

إنّ غزوة الأحزاب كانت من أشدّ ما عاناه المسلمون من ويلات، إذ جاعوا فيها حتّى ربطوا الحجارة على بطونهم، وعاشوا في سجن ضيق يحيط بهم الأعداء من كلّ جانب، ثمّ في هذه الحالة الرهيبة يتّصل حيي بن أخطب، أحد سادة بني النضير الذين هاجروا إلى خيبر بـ «كعب بن أسد» سيّد بني قريظة، ويدعوه أن ينقض عهده مع المسلمين، وأن ينضمّ هو وجماعته بني قريظة إلى الأحزاب، فاستجاب كعب إلى هتاف حيي، والأمل

1- فتوح البلدان للبلاذري، ص 24.

2- السيرة النبوية لابن هشام، 2/ 178.

يراد الاتنين أَنَّ في ذلك قضاءً نهائياً على المسلمين<sup>1</sup>؛ فقد أصبح جناحهم مهيباً بالهجوم الشامل عليهم من الخارج، ولم يبقَ إلا ضربة من داخل المدينة تنضم إلى هذه الضربات التي تنزل من الخارج؛ لتقضي على هذا الدين الناشئ. وقد صور القرآن الكريم حالة المسلمين أدق تصوير، فقال: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ (الأحزاب: 10 و 11).

وهكذا غدر بنو قريظة في أخرج الأوقات، ووجد المسلمون أنفسهم بين عدو من الأمام، وعدو من الخلف، ولما سمع الرسول بغدر بني قريظة أرسل لهم سعد بن معاذ سيّد الأوس، وسعد بن عباد سيّد الخزرج، وقابلا كعب بن أسيد، وسألاه وحذّراه، فسخر منهما وأظهر لهما الخشونة والبغي، ولم يسمع لرجاء منهما أو تحذير<sup>2</sup>؛ فيمكن أن نرى:

- كان ذنب بني قريظة عظيماً، ولولا عون الله لهلك المسلمون.

- رأى سعد بنفسه سخرية بني قريظة منه ومن صاحبه عندما ذهبوا إليهم راجين محذرين.

- العفو من بني قريظة وإخراجهم من المدينة سيعني بلا شك انضمامهم إلى بني النضير حيث يتضاعف الخطر اليهودي على المسلمين.

ولهذه الأسباب كان حكم سعد بديهياً، إذ حكم على الخونة الغادرين بالقتل، قتل الرجال وسبي النساء والأطفال، وكان ذلك في العام الخامس للهجرة إثر غزوة الأحزاب؛ قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ﴾ (المائدة: 82).

وقد برهنت الأحداث طوال القرون على شدة عداوة اليهود للمسلمين، لقد أساءوا حتى عندما أحسن المسلمون إليهم؛ ووجد الرسول أَنَّ جانبهم لم يعد مأموناً، فلم يكن بدّ من القضاء على هذا الخطر الداهم، هؤلاء الذين سبّبوا غزوة الأحزاب، فبدأوا يدبرون المؤامرات الأخرى للهجوم على المدينة، بعد أن فشلوا في غزوة الأحزاب؛ ولذلك نجد الرسول يعدّ العدة للزحف على يهود وادي القرى وفدك وتيّماء وخيبر، وكانت خيبر

1- م. ن.، 2/ 189 - 190.

2- م. ن.، 2/ 190.



أقوى حصون اليهود وأخطرها. ولذلك بدأ الرسول رُحْفَه على مناطق اليهود، وكان ذلك سنة 7هـ، بعد أن هدأت العداوة بين المسلمين وبين قريش، وعُقد بينهما صلح الحديبية، وحاصر المسلمون خيبر، وامتد الحصار وطال، وأخذت حصون اليهود بها تتساقط بسهولة أو بصعوبة في يد المسلمين<sup>1</sup>. ولم يجد اليهود بداً من أن يستسلموا، واتفق معهم المسلمون اتفاقاً سمحاً، مرة أخرى فقد اكتفى رسول الله (ﷺ) بمقاسمتهم الزرع والثمار<sup>2</sup>؛ وكان يقصد من ذلك أن يكون له الإشراف عليهم حتى لا يعودوا إلى ألوان الغدر مرة أخرى.

ولما تهاوت حصون خيبر اتفق يهود فدك على الشروط التي نزل عليها يهود خيبر<sup>3</sup>؛ أما يهود وادي القرى وتيماء فقد امتنعوا وقاتلوا فهزمهم المسلمون، ثم تركوهم على النخل والأرض على نظام خيبر<sup>4</sup>؛ وتكسرت بذلك شوكة اليهود، وإن كانت الشوكة لم تُزل نهائياً وبقيت حيناً، ومدمية كلما وجدت سبيلاً إلى الإيذاء.

وبما يتصل بخيبر أنه بعد الانتهاء منها، قدمت امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث بن سلام شاة مشوية للرسول، دسّت فيها السمّ، وأكثرته منه في ذراعي الشاة، حيث عرفت أن رسول الله (ﷺ) يحبّ من الشاة ذراعها، فلما وضعت الشاة بين يدي الرسول (ﷺ) تنازل الذراع، فلاك منها مضغة فلم يستسغها ولفظها، وكان يأكل معه بشر بن البراء، ولكنه تعجل فابتلع ما وضعه في فمه، وقال الرسول: «إنّ هذه الذراع لتخبرني أنّ الشاة مسمومة»، ودعا المرأة فاعترفت، فسألها الرسول:

- ما حملك على ذلك ؟ فقالت:
- بلغت من قولي ما لم يخف عليك: إن كان ملكاً استرحنا منه، وإن كان نبياً فسينجو.
- وقيل إنّها دخلت الإسلام، فعفا عنها الرسول، وقيل قتلها الرسول بالبراء الذي مات من هذا الطّعام<sup>5</sup>.

1- م. ن.، 2/ 239 - 240.

2- فتوح البلدان للبلاذري، ص 37.

3- م. ن.، ص 42 - 43.

4- م. ن.، ص 47.

5- السيرة النبوية لابن هشام، 2/ 240 - 242.

وامتدَّ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، وتجاوز أرض خيبر في طريقه إلى فارس والروم، وأصبح يهود خيبر في ظهر المسلمين، فخاف عمر خطرهم، وخشي أن يضربوا المسلمين من الخلف، كما فعلوا من قبل، ورأى ضرورة ضمان السلامة والوحدة في الجزيرة العربية، قبل أن تتعمق جيوشه خارج المدينة، وأنَّ الأوان قد آن لتنفيذ وصية رسول الله (ﷺ): «ألا يجتمع بجزيرة العرب دينان<sup>1</sup> وزيادة على ذلك يروي البلاذري<sup>2</sup>: «أنَّ يهود خيبر عاثوا في الإسلام وغشوه، فألقوا ابن عمر من فوق بيت ففدعوا يديه»؛ لذلك استقرَّ رأي عمر على إجلاء من لم يكن لديهم عهد من رسول الله (ﷺ)، فقمَّ أرضهم ومساكنهم ونخلهم ودفع لهم قيمتها وأجلاهم إلى الشام. أمَّا من كان له عهد من رسول الله (ﷺ) فقد بقي في موطنه وعلى دينه بالشروط التي ذكرت في هذه العهود<sup>3</sup>. وقال ابن إسحاق<sup>4</sup>:

وكان ممن تعوَّذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود من بني قينقاع: سعد بن حنيف وزيد بن اللصيت الذي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسوق بني قينقاع، وهو الذي قال حين ضلَّت ناقة رسول الله (ﷺ): يزعم محمدٌ أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقتة! فقال رسول الله (ﷺ) وجاءه الخبر بما قال عدو الله في رحله، ودلَّ الله تبارك وتعالى رسوله (ﷺ) على ناقتة: إنَّ قائلاً قال: يزعم محمدٌ أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقتة؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علَّمني الله، وقد دلَّني الله عليها، فهي في هذا الشعب، قد حبستها شجرة بزمامها، فذهب رجال من المسلمين، فوجدوها حيث قال رسول الله (ﷺ) وكما وصف.

ورافع بن حُرَيْمَة، وهو الذي قال له رسول الله (ﷺ) - فيما بلغنا - حيث مات: قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين. ورافعة بن زيد بن التابوت، وهو الذي قال له رسول الله (ﷺ) حين هبَّت عليه الريح وهو قافلٌ من غزوة بني المصطلق<sup>5</sup>، فاشتدَّت

1- المصدر السابق، ج 2، ص 249.

2- فتوح البلدان للبلاذري، ص 36 - 42.

3- تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، 6/ 172.

4- بسم الله الرحمن الرحيم. قال حدثنا أبو محمد عبدالله بن هشام، قال حدثنا زياد بن عبدالله البكائي، قال حدثنا محمد بن إسحاق المطلبي قال؛ السيرة النبوية لابن هشام، 2/ 174 - 176.

5- وتسمَّى أيضاً غزوة المريسيع، سمع النبي باجتماع قبيلة بني المصطلق استعداداً للإغارة على المدينة، فما كان منه (ﷺ) إلا أن جمع المسلمين وانطلق إليهم لرد شرهم، وكان خروجه من المدينة في 2 شعبان سنة 6 هـ حيث باغتهم عند منطقة تعرف بماء المريسيع، وعندها نصر الله نبيه وردَّ كيدهم وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً.

عليه حتّى أشفق المسلمون منها، فقال لهم رسول الله (ﷺ): لا تخافوا، فإنّما هبّت لموتٍ عظيمٍ من عظماء الكفّار. فلما قدّم رسول الله (ﷺ) المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التّأبوت مات ذلك اليوم الذي هبّت فيه الريح، وسلسلة من برّهام، وكنانة بن صوريا.

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناسٌ، فرأهم رسول الله (ﷺ) يتحدثون بينهم، خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله (ﷺ) فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً، فقام أبو أيّوب، خالد بن زيد بن كليب، إلى عمرو بن قيس، أحد بني غنم بن مالك بن النّجار - كان صاحب آلهتهم في الجاهليّة - فأخذ برجله فسحبه، حتّى أخرجه من المسجد وهو يقول: أخرجني يا أبا أيّوب من مزبد بني ثعلبة! ثمّ أقبل أبو أيّوب أيضاً إلى رافع بن وديعة، أحد بني النّجار، فلبّبه بردائه ثمّ نثره<sup>1</sup> نثراً شديداً، ولطم وجهه، ثمّ أخرجه من المسجد وأبو أيّوب يقول له: أف لك منافقاً خبيثاً! أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله (ﷺ). قال ابن هشام: أي ارجع من الطّريق التي جئت منها.

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو، وكان رجلاً طويل اللّحية، فأخذ بلحيته فقاده بها قوّاً عنيفاً حتّى أخرجه من المسجد، ثمّ جمع عمارة يديه فلطمه بهما في صدره لطمة خرّ منها. قال: يقول خَدَشْتَنِي يا عمارة، قال: أبعدك الله يا منافق، فما أعدّ الله لك من العذاب أشدّ من ذلك فلا تقربنّ مسجد رسول الله (ﷺ). قال ابن إسحاق:

وقام أبو محمّد، رجل من بني النّجار، كان بدرياً، وأبو محمّد مسعود بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد بن شعلبة بن غنم بن مالك بن النّجار، إلى قيس بن عمرو بن سها، وكان قيس غلاماً شاباً، وكان لا يعلم في المنافقين شاب غيره، فجعل يدفع في قفاه حتّى أخرجه من المسجد.

وقام رجل من بلخُدرة<sup>2</sup> بن الخزرج، رهط أبي سعيد الخُدري، يقال له عبد الله بن الحارث، حين أمر رسول الله (ﷺ) بإخراج المنافقين من المسجد إلى رجل يقال له:

1- نثره: جذبه

2- بلخُدرة، زيد بني الخُدرة: وقد ذكره أبو ذر في رواية أخرى على أنها في الأصل، فقال: (وقام رجل من بلخُدرة صوابه: من الأجر، يريد بني الأجر، فحذف كما بثأ - في بني الحارث: بلحارث. وقد يخرج ما ذكر علي نقل الحركة، ورواه بعضهم بلخُدرة، يريد بني الخُدرة.

الحارث بن عمرو، وكان ذا جُمّة فأخذ بجمته فسحبه بها سحباً عنيّفاً، على ما مرّ به من الأرض حتّى أخرجه من المسجد. قال: يقول المنافق: لقد أغلظت يا ابن الحارث، فقال له: إنك أهلٌ لذلك، أي عدوّ الله، لما أنزل الله فيك، فلا تقرّب مسجد رسول الله (ﷺ) فإنّك نجس.

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَي بن الحارث، فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيّفاً، وأنف منه<sup>1</sup>، وقال: غلب عليك الشيطان وأمره.

فهؤلاء من حضر المسجد يومئذٍ من المنافقين وأمر رسول الله (ﷺ) بإخراجهم<sup>2</sup>.

### صلح الحديبية

لم تخدم مشاعر المسلمين في المدينة شوقاً إلى مكّة التي حيل بينهم وبينها ظلماً وعدواناً، وما برحوا ينتظرون اليوم الذي تُتاح لهم فيه فرصة العودة إليها والطواف ببيتها العتيق، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي برز فيه النّبِيّ (ﷺ) على أصحابه؛ ليخبرهم برؤياه التي رأى فيها دخوله لمكّة وطوافه بالبيت، فاستبشر المسلمون بهذه الرؤيا؛ لعلمهم أنّ رؤيا الأنبياء حقّ، وتهيؤوا لهذه الرحلة العظيمة.

فلما نزل الرّسول بالحديبية أرسل عثمان رضي الله عنه إلى قريش وقال له: أخبرهم أنّا لم نأت لقتال، وإنّا جننا عُمّاراً، وادّعهم إلى الإسلام.

ولكنّ عثمان احتبسته قريش، فتأخّر في الرّجوع إلى المسلمين، فخاف الرّسول (ﷺ) عليه، وخاصّة بعد أن شاع أنّه قد قتل، فدعا إلى البيعة، فتبادروا إليه وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، وهذه هي بيعة الرّضوان التي أنزل الله فيها قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح: 18).

وأرسلت قريش عروة بن مسعود إلى المسلمين فرجع إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك - كسرى، وقبصر، والنّجاشي - والله ما رأيت ملكاً يعظّمه أصحابه كما يعظّم أصحاب محمّد محمّداً. والله ما انتخم نخامة إلّا وقعت في كفّ رجل منهم، فذلّك بها وجهه وجلده، وإذا أمر ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على

1- أنف منه: قال له أف.

2- السيرة النبوية لابن هشام، ج 2، ص 176 - 177.

وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، ثم قال: وقد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها.

ثم أسرع قريش في إرسال سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فلما رآه النبي (ﷺ) قال: قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فتكلم سهيل طويلًا ثم اتفقا على قواعد الصلح، وهي:

1. الأولى: رجوع الرسول (ﷺ) وأصحابه من عامه وعدم دخول مكة، وإذا كان العام القادم دخلها المسلمون بسلاح الراكب، فأقاموا بها ثلاثًا.

2. الثانية: وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس.

3. الثالثة: من أحب أن يدخل في عقد مع محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد مع قريش وعهدهم دخل فيه.

4. الرابعة: من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه ردّه إليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردّ إليه.

ثم قال الرسول (ﷺ): هات اكتب بيننا وبينك كتابًا، فدعا الكاتب - وهو علي بن أبي طالب - فقال:

اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: أمّا الرحمن فما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلّا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال (ﷺ): اكتب باسمك اللهم، ثم قال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال: إني رسول الله، وإن كذبتُموني، اكتب محمد بن عبد الله، ثم كتبت الصحيفة، ودخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله (ﷺ)، ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل، وقد خرج من أسفل مكة يرسف - يمشي مقيدًا - في قيوده، حتّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد! أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إليّ، فقال النبي (ﷺ): إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال: إذن، والله، لا أصلحك على شيء أبدًا. فقال النبي: فأجزه لي، قال: ما أنا بمجيزه لك.

قال: بلى، فافعل، قال: ما أنا بفاعل. قال أبو جندل: يا معشر المسلمين كيف أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله (ﷺ) لأصحابه: قوموا فانحروا، ثم احلقوا، وما قام منهم رجل، حتى قالها ثلاث مرات. فلما لم يبق منهم أحد، قام ولم يكلم أحداً منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً. ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ (الممتحنة: 10)؛ وفي مرجعه (ﷺ): أنزل الله سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَعْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ (٢) (الفتح: 1 و 2)، فقال عمر: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم، قال الصحابة: هذا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: 4 و 5)

ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - رجل من قريش - مسلماً، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهد الذي بيننا وبينك، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى بلغا ذا الحليفة. فنزلوا يأكلون من تمر لهم. فقال أبو بصير لأحدهما: إني أرى سيفك هذا جيداً. فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت، فقال: أرني أنظر إليه. فقتله بسيفه ورجع أبو بصير إلى المدينة، فقال: يا نبي الله! قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال (ﷺ): ويل أمه مسعر حرب، لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وتقلت منهم أبو جندل فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل - قد أسلم - إلا لحقه، حتى اجتمعت منهم عصابة. فما سمعوا ببغير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقاتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي (ﷺ) تتأشده الله والرحم أن من أتاه منهم فهو آمن.

وكان هذا الصلح فتحاً عظيماً ونصراً مبيناً للمسلمين، وذلك لما ترتب عليه من منافع عظيمة، حيث اعترفت قريش بالمسلمين وقوتهم، وتنازلت عن صدارتها الدنيوية

وزعامتها الدنيّة، فلا عجب إذاً أن يسمّيه الله تعالى فتحاً مبيناً<sup>1</sup>.

### معاهدات مع الأعداء من يهود

قال ابن إسحاق: «ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله (ﷺ) العداوة بغياً وحسداً، وضغناً لما خصّ الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج، ممّن بقي على جاهليّته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشّرك والتّكذيب بالبعث، إلّا أنّ الإسلام قبرهم بظهوره، واجتماع قومهم عليه، فأظهروا الإسلام، وناقفوا في السرّ، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النّبّي (ﷺ) وجحودهم الإسلام، وكانت أحبار يهودهم الذين يسألون رسول الله (ﷺ) ويتعنّونه (يشقون عليه) ويأتون باللّبس ليلبسوا الحقّ بالباطل، فكان القرآن يُنزل فيهم يسألون عنه إلّا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام، وكان المسلمون يسألون عنها»<sup>2</sup>. ومنهم: حيّ بن أخطب، وأخواه أبو ياسر بن أخطب، وجُدّي بن أخطب، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الزّبيع بن أبي الحقيق، وسلام بن أبي الحقيق، وأبو رافع الأعور، وهو الذي قتله أصحاب رسول الله (ﷺ) بخيبر، والزّبيع بن الزّبيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن جحّاش بن عمرو، حليف كعب بن الأشرف، وكزّدم بن قيس، حليف كعب ابن الأشرف، هؤلاء من بني النّضير.

ومن بني ثعلبة بن النّظيّون<sup>3</sup>: عبد الله بن صوريا<sup>4</sup> الأعور، ولم يكن من بني ثعلبة بالحجاز في زمانه أحد أعلم بالتّوارة منه، وابن صلّوبا ومُخَيَّرِيق، وكان حبّزهم فأسلم.

ومن بني قينقاع: زيد بن اللّصيت، ويقال: ابن اللّصيت، فيما قال ابن هشام، وسعد بن حنيف، ومحمود بن مسيحاه، وعزير بن أبي عنبر، وعبد الله بن صيف. قال ابن هشام: ويقال: ابن ضيف.

وقال ابن إسحاق: وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وفنحاص، وأشيّع، ونُعْمان بن أضا، وتجرّي بن عمرو، شاس بن عدي، وشأس بن قيس، وزيد بن الحارث، ونعْمان بن عمرو، وسُكين بن أبي سُكين، وعدي بن زيد، ونعْمان بن أبي أوفى، وأبو أنس، ومحمود بن دَحِين، ومالك بن صيف. قال ابن هشام: ويقال ابن ضيف.

1- السيرة النبوية لابن هشام، 3/ 331 - 337. وراجع تاريخ الطبري، 2/ 425 - 427.

2- السيرة النبوية لابن هشام، 2/ 160. وراجع كتاب السيرة النبوية لمحمد بكّار زكريّا، ص 102 - 104.

3- النّظيّون: كلمة عبرانيّة، وهي تطلق على كل من وُلّي أمر اليهود وملكهم.

4- صوريا: أي صوري.

قال ابن إسحاق: ورافع بن حارثة، ورافع بن حُوَيْمِلَة، ورافع بن خَارجَة، ومالك بن عوف، ورفاعة بن زيد، بن التَّابُوت، وعبد الله بن سلام بن الحارث، وكان حَبْرَهُمْ، وأعلمهم، وكان اسمه الحصين، فلما أسلم سمَّاه رسول الله (ﷺ) عبد الله، فهؤلاء من بني قينقاع.

ومن بني قريظة: الزَّبير بن باطا بن وهب، وغَزَّال بن شمدِين، وكعب بن أسد، وهو صاحب عقد بني قُريظة الذي نُقِضَ عام الأحزاب، وشمدِين بن زيد، وجبل بن عمرو بن سُكينة، والنَّحَام بن زيد، وكردم بن كعب، وهوب بن زيد، ونافع بن أبي نافع، وعدي بن زيد، والحارث بن عَوْف، وكردم بن زيد، وأَسَامَة بن حبيب، ورافع بن رُحَيْلَة، وجبل بن أبي قشير، وهوب بن يهودا. فهؤلاء من بني قريظة.

ومن يهود بني زُرَيْق: لبيد بن أَعْصَم، وهو الذي أخذ رسول الله (ﷺ) عن نسائه.

ومن يهود بني حارثة: كنانة بن صُورِيا.

ومن يهود بني عمرو بن عَوْف: مَزْدَم بن عمر.

ومن يهود بني النجار: سلسلة بن بَرْهَام.

فهؤلاء أحبار يهود، وأهل الشَّرور والعداوة لرسول الله (ﷺ).

ولم يَتَّجِه الرَّسُول (ﷺ) في بداية الأمر إلى سياسة إبعاد اليهود أو مصادرة أموالهم أو الخصومة معهم؛ وكان رسول الله (ﷺ) قد عاهد بني قريظة ألاَّ يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين فنقضوا العهد، وأعانوا عليه كفَّار مَكَّة بالسَّلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا، وأخطأنا مرَّة أخرى، فنقضوا ومالُوا الكفَّار يوم الخندق.

ومن أهمَّ بنود هذه المعاهدة:

1. أنَّ يهود بني عوف أمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وإلَّيْهِمْ وأنفسهم، كذلك لعمر بن عوف من اليهود.
2. وأنَّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.
3. وأنَّ بينهم النَّصر على مَنْ حارب أهل هذه الصَّحيفة.



4. وَأَنَّ بَيْنَهُم النَّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ، وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ.
  5. وَأَنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ.
  6. وَأَنَّ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ، أَوْ اشْتِجَارٍ يَخَافُ فُسَادَهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ).
  7. وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ قَرِيشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا.
  8. وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ، عَلَى كُلِّ أَنْاسٍ حَصَّتْهُمْ مِنْ جَانِبِهِمُ الَّذِي قَبْلَهُمْ.
  9. وَإِنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أَوْ آثِمٍ<sup>1</sup>.
- وبهذه الاتفاقية أصبح رئيس المدينة - إِنَّ صَحَّ التَّعْبِيرُ - رسول الله (ﷺ) والكلمة النَّافِذَةُ، والسُّلْطَانُ الغَالِبُ فِيهَا الْمُسْلِمِينَ، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حَقِيقِيَّةً لِلْإِسْلَامِ.
- وإلى جانب هذه الفئات العربيَّة التي واجهت الرُّسُولَ بمعارضتها ودمائها حين قدم إلى المدينة، وظهر بعض من آثاره في اجتماع السَّقِيفَةِ بعد وفاته، كانت الجماعات اليهوديَّة التي أدركت أَنَّ قدوم الرُّسُولِ إلى يَثْرِبَ هو فاتحة عهد جديد، لن تكون لهم فيه الكلمة الأولى، ولا المكان القيادي، فعملوا ما في وسعهم للتَّخَلُّصِ منه، والإيذاء بحياته، ولكنَّ نصر الله كان لكيدهم بالمرصاد.
- ونزل أبو بكر الصَّدِّيق رضي الله عنه على خُيَّيب بن إِسَاف، أحد بني الحارث من الخزرج بالسَّنَح، ويقول قائل: كان منزله على خارِجَة بن زيد، بن أبي زهير، أخي بني الحارث من الخزرج.
- وأقام عليّ بن أبي طالب عليه السَّلام بمكَّة ثلاث ليال وأيامها حتَّى أدى عن رسول الله (ﷺ) الودائع التي كانت عنده للنَّاس، حتَّى إذا خرج منها لحق برسول الله (ﷺ) فنزل معه على كلثوم بن هدم<sup>2</sup>.

1- السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وخاتم النبيين لمحمَّد بن بَكَّار زكريَّا، ص 102 - 104.

2- السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لابن هشام، 2/ 138.

وعلى الرغم من أهميّة المعارضة التي واجهها الرّسول من بعض العناصر السّكّانية في يثرب إبّان وصوله إليها، فقد ظلّت المشكلة الاقتصادية هي المشكلة الأهمّ والأكثر إلحاحاً، إذ نبتت من واقع أصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكّة، وغادروها مملّقين، لا أمل لهم في العودة، أو استرداد ما يملكون. واضطرّ النّبيّ (ﷺ) في سبيل حلّ هذه المعضلة أن يعمل بنظام المؤاخاة الذي هدف إلى جانب حلّ المشكلة الاقتصادية إلى تحسين الرّابطة بين المهاجرين والأنصار، وتوكيد وحدة المجتمع الإسلامي في المدينة، بشقيّه: الأنصار والمهاجرين، حتّى نظام المؤاخاة، على ما تذكر المصادر، نصّ على حقّ التّوارث بين المتأخّين دون الأرحام.

أخى بينهم على الحقّ والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وكانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار، وكان ذلك قبل بدر، فلمّا كانت وقعة بدر، وأنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥) (الأنفال: 75) فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاه في الميراث، ورجع كلّ إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه<sup>1</sup>. وعلى الرغم من أنّ العمل بهذا النّظام قد أوقف بعد غنائم بدر، وما أفاء الله على المسلمين من غنائم وأموال سدّت عوز المحتاجين، فإنّه يبدو واضحاً، أنّه لهدف آخر، وهو هدف تحسين الصّلة بين شقّي الجماعة الإسلاميّة، ظلّ دون المستوى الذي كان يريده له صاحب الرّسالة، وسيّد الجماعة، وأطلّ برأسه واضحاً قوياً حين انتقل إلى جوار ربّه.

وإذا تجاوزنا ما لقيه الرّسول (ﷺ) من معارضة بعض الفئات في المدينة، والمصاعب الاقتصادية التي عايشها بعض من صحابته، لوجدنا أنّه، بعد أن وطّد الأمور، ونلّ هذه الصّعاب، كانت تنتظره مهمّة أصعب، وهي: وضع الأسس التي لا بدّ منها لتنظيم العلاقات بين هذه العناصر السّكّانية التي لا تجمعها وحدة عصبية، أو وحدة عقائديّة أو وحدة المصلحة.

## الخاتمة

يتّضح من خلال مجمل ما سبق أنّ المجتمع العربيّ في صدر الإسلام شهد تحوُّلاً عميقاً شمل البنية الدّينيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة، وذلك بفضل ما رسّخه الإسلام من مبادئ العدل والمساواة، وما وفّرت الفتوحات من موارد مكّنت الدّولة النّاشئة من تثبيت أركانها. ومع ذلك، لم تكن هذه الوفرة الاقتصاديّة وهذا الاستقرار الاجتماعيّ بمنأى عن التّهديدات، وفي مقدمتها الخطر اليهوديّ المتمثّل في نقض العهود وإثارة الفتن والتّحالف مع أعداء المسلمين، الأمر الذي فرض مواجهة متدرّجة وحازمة بدأت بالمعاهدات والمسالمة، ثم انتقلت إلى الدّفاع المشروع، وصولاً إلى تحييد هذا الخطر سياسياً وعسكرياً.

كما بينت الدّراسة أنّ الإسلام لم يجعل القوة الماديّة وسيلة أساسيّة لنشر دعوته، بل اعتمد على الإقناع بالحجة والموعظة الحسنة، وكان السّلم والصّلاح - كما في صلح الحديبية - من أبرز المحطّات التي شهدت اتّساعاً ملحوظاً في دخول النّاس إلى الإسلام. وبالموازاة، أسهمت سياسات المؤاخاة وتنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار وإدارة شؤون المدينة في بناء مجتمع متماسك قادر على مواجهة التّحدّيات الدّاخلية والخارجيّة.

إنّ قراءة هذه المرحلة التّاريخيّة تكشف عن وعي القيادة النّبويّة بأهمية الجمع بين القيم الرّوحيّة والمرونة السياسيّة والحزم العسكريّ، بما يحقّق حماية الدّعوة واستمرار الدّولة. وتطلّ تجربة صدر الإسلام مثلاً بارزاً على أنّ نهضة الأمم لا تُبنى على الانتصارات العسكريّة أو الوفرة الاقتصاديّة وحدها، بل على منظومة قيمية وأخلاقيّة تحفظ وحدة الصّف وتصوغ هويّة الأمّة.

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

1. ابن الأثير، 1979م، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1.
2. ابن سعد، 1990م، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1.
3. ابن هشام، عبدالملك، (1955م)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ الشلبي، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2.
4. محمد بكار زكريا، السيرة النبوية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان 1417هـ / 1997م.
5. الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (1387هـ)، تاريخ الطبري - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب، القاهرة، دار المعارف 1962 م.
6. علي، جواد، (2001م)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، بيروت، ط 4.
7. الدوري، عبد العزيز، 2007م، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 2.
8. النووي، يحيى بن شرف، 1996م، تهذيب الأسماء واللغات، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج 1.

# السياحة الثقافية في لبنان بين استمرارية الهوية وتحديات العولمة: دراسة حالة دير القمر

Cultural tourism in Lebanon between the continuity of identity and the  
challenges of globalisation: the case study of Deir El Qamar

د. سنتيا نصر<sup>1</sup>

Dr Cynthia Nasr

تاريخ القبول 2025 /5 /30

تاريخ الاستلام 2025 /5 /3

## الملخص

يشكل التراث الثقافي ركيزة أساسية من ركائز الهوية اللبنانية، حيث تتلاقى فيه المكونات التاريخية والدينية والفنية لتكون لوحة حضارية فريدة. إلا أن هذا التراث، الذي يمثل القطاع السياحي الثقافي، يواجه اليوم تحديات جذرية بفعل العولمة وتسارع وتيرة التحوّلات الرقمية. يهدف هذا البحث إلى تحليل واقع السياحة الثقافية اللبنانية، مع إبراز التحديات التي تواجهها والفرص الممكنة، عبر استخدام منهج وصفي تحليلي مدعوم بمراجعة أدبية حديثة ودراسة حالة ميدانية لبلدة دير القمر. يعتمد البحث على أحدث المصادر الأكاديمية والتقارير الدولية لضمان تقديم قراءة معاصرة، ويخلص إلى ضرورة تبني استراتيجيات ذكية توازن بين حماية الهوية الثقافية والانفتاح الواعي على السياحة العالمية.

**الكلمات المفتاحية:** السياحة الثقافية، الهوية اللبنانية، العولمة، دير القمر، التنمية السياحية المستدامة.

## Abstract

Cultural heritage constitutes a fundamental pillar of Lebanese identity, where historical, religious, and artistic elements intertwine to form a unique

1- أستاذة مساعدة، الجامعة اللبنانية قسم الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني  
Cynthianasr33@hotmail.com

civilizational mosaic. However, cultural tourism in Lebanon faces profound challenges due to globalization and the accelerating pace of digital transformations. This research analyzes the current state of Lebanese cultural tourism, highlighting challenges and opportunities, through a descriptive analytical approach supported by a recent literature review and a field case study of Deir El Qamar. It relies on updated academic sources and international reports to provide a contemporary perspective. The study concludes that smart strategies balancing cultural identity protection with mindful openness to global tourism are essential for sustainable development.

**Keywords :** cultural tourism, Lebanese identity, globalization, Deir El Qamar, sustainable tourism development.

## المقدمة

في ظلّ تسارع العولمة الثقافيّة وتوسّع الرّقمنة السيّاحيّة، يتعرّض التّراث الثقافيّ اللبنانيّ لضغوط متنامية تهدّد بتقويض توازنه الرّمزيّ ووظيفته المجتمعيّة، ما يطرح تساؤلات ملحة حول قدرة المجتمعات المحليّة على صون أصالتها وهويّتها ضمن فضاء سياحيّ عالميّ يتّجه نحو التّوحيد والتّسليع الثقافيّ<sup>1</sup>. لم تعد السياحة مجرد نشاط اقتصاديّ عابر، بل غدت ساحة حيويّة يتقاطع فيها البعد الاقتصاديّ بالرّمزيّ، حيث تتشكّل العلاقات بين الإنسان ومكانه، وبين الزّائر والمُستضاف، وبين الماضي بوصفه إرثاً والزّاهن بوصفه تحدّيّاً.

نُطرح في هذا السياق إشكاليّة محوريّة: هل يمكن للسياحة الثقافيّة أن تؤدّي دوراً بنيويّاً في الحفاظ على الهويّة المجتمعيّة، أم أنّها، بفعل منطق السّوق والعرض، تصبح أداة لطمس الذاكرة وتحويلها إلى منتج استهلاكيّ قابل للتّداول؟ من هذه الإشكاليّة، ينطلق البحث الحاليّ من فرضيّة مركزيّة مفادها أنّ السياحة الثقافيّة، إذا ما أُديرَت برؤية نقدية قائمة على شراكة محليّة، يُمكن أن تتحوّل من مجرد نشاط ترفيهيّ إلى أداة استراتيجيّة لإحياء الهويّة وتعزيز الاستدامة الرّمزيّة والاقتصاديّة على حدّ سواء<sup>2</sup>.

1- توملينسون، جون. العولمة والثّقافة. ترجمة فايز الصياغ. بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة، 2005، ص. 44

2- أمين، سمير. العولمة والهويّة الثقافيّة. القاهرة، دار العين للنشر، 2002، ص 78.

وبيتمحور هذا المقال حول دراسة حالة بلدة دير القمر، تلك البلدة اللبانية العريقة التي شكّلت على امتداد قرون نموذجاً فريداً لتحولات الفضاء السياحي والثقافي. من موقعها كفضاء تراثي نابض بالحياة إلى انخراطها في منطق التسليع السياحي، تبرز دير القمر بوصفها مختبراً حياً يُجسّد التّوتر القائم بين الأصالة والانخراط في السوق السياحي المعولم<sup>1</sup>. وعليه، يهدف هذا البحث إلى تحليل المشهد الثقافي والسياحي في لبنان من خلال المقاربة النقدية لواقع دير القمر، بما يكشف عن التّحديات البنيوية التي تواجهها الهوية المحلية في زمن العولمة، والفرص الممكنة لتجاوزها. منهجياً، يعتمد البحث مقاربة وصفية تحليلية ذات بعد نقدي، ترتكز على مراجعة أدبية حديثة لمفاهيم السياحة الثقافية، والهوية، والعولمة، وتسليع الثقافة، كما وردت في الدّراسات الأكاديمية العربية والغربية المعاصرة<sup>2</sup>. وتتمّ تعزيز هذه المقاربة بتحليل كيفي لمضامين الخطابات، والتّحوّلات المجالية والاجتماعية المرتبطة بالمكان، استناداً إلى الملاحظة المباشرة، والمصادر المكتوبة، والمقاربات النظرية ذات الصلة. وقد تمّ اختيار دير القمر كدراسة حالة نظراً لما تمثّله من نموذج حيّ لتحولات السياحة الثقافية في لبنان، ولكونها تُجسّد بوضوح التّوتر الحاصل بين الحفاظ على التّراث والانخراط في السياحة المعولمة<sup>3</sup>.

## أولاً: الإطار النظري، العولمة الثقافية والسياحة

### أ. مفهوم العولمة الثقافية

تشير العولمة الثقافية إلى تلك العملية المتسارعة التي تنتقل فيها الرّموز والقيم والممارسات الثقافية بين المجتمعات، متجاوزة الحدود الجغرافية، بفعل التّوسّع الهائل في الإعلام، والاتّصالات، والاقتصاد الرّقمي. وقد أدّى هذا الانتقال إلى بروز أنماط عيش موحّدة ومعولمة، غالباً ما تُفرض على المجتمعات الصّغيرة، مهدّدة تنوّعها وتجذّرها المحلي<sup>4</sup>. يرى توملينسون أنّ العولمة الثقافية ليست مجرّد تبادل رمزيّ بريء، بل هي شكل من «التّوسّع الأفقيّ للرّموز المهيمنة»، حيث تتعرّض المجتمعات لضغوط رمزية

1- الجميل، بيار. الهوية اللبنانية والتّحديات المعاصرة. بيروت: دار النهار للنشر، 2008، ص 92.

2- أوسوالد، هنريتا. السياحة الثقافية والتّحديات المعاصرة. لندن: مطبعة جامعة كامبريدج، 2018، ص 113.

3- الجامعة اللبنانية الأمريكية. دراسة ميدانية حول السياحة الثقافية في لبنان: التّحديات والفرص. بيروت: الجامعة اللبنانية الأمريكية، 2020، ص 25.

4- أمين، سمير، العولمة والهوية الثقافية، القاهرة، دار العين للنشر، 2002، ص 51.

تُعِيد تشكيل ذاكرتها الجماعية وتؤثر في سرديتها الذاتية<sup>1</sup>.

تكتسب هذه الظاهرة أبعاداً أكثر تعقيداً حين تقترن بالمجال السياحي، إذ تُصبح الثقافة موضوعاً للتسويق والعرض، وتتحول المواقع التراثية إلى فضاءات استهلاكية مصممة وفق ذوق الزائر لا خصوصية المجتمع. وهنا تكمن المفارقة: الانفتاح السياحي الذي يُفترض به أن يُعرف الآخر على الثقافة المحلية، قد يتحول في غياب التوازن إلى آلية طمس رمزيّ وتسويق سطحي<sup>2</sup> في الحالة اللبنانية، تتجلى العولمة الثقافية بشكل حاد في القرى والمناطق ذات الخصوصية التراثية، حيث تُفرض نماذج تمثيل جاهزة للثقافة المحلية، منقوصة من عمقها التاريخي والرمزي. وتتحول الهوية إلى أداء مكرر قابل للتسويق، بينما تتراجع قدرة المجتمعات على التحكم في سرديتها الذاتية. يطرح هذا الواقع تحديات جدية أمام السياحة الثقافية التي باتت، أكثر من أي وقت مضى، بحاجة إلى مقاربات تحمي التعدد وتحفظ الذاكرة من الاجتثاث الرمزي.

#### ب. التسليع الثقافي

يُقصد بمفهوم «التسليع الثقافي» تلك العملية التي تتحول بموجبها العناصر الثقافية من طقوس، وممارسات، ورموز، وأزياء، وموسيقى، وأطعمة، وحتى اللغة إلى سلع قابلة للترويج والتداول ضمن السوق السياحي، خارج سياقاتها الأصلية<sup>3</sup>. هذا التحول لا يحدث بشكل فجّ أو قسريّ دائماً، بل يتسلّل تدريجياً بفعل ضغط السوق، وتوقعات المستهلك، وآليات الترويج التي تُعيد تقديم الثقافة بوصفها «مادة جذابة» أكثر منها تجربة حية. يحذر كوهين من خطورة هذا المسار، ويرى أنّ تقديم الثقافة المحلية كمنتج مُعدّ مسبقاً يفصلها عن جذورها الاجتماعية والرمزية، ويُفرضها من مضمونها الحقيقي. ما يبدو للزائر كاحتفاء بالتراث، قد يكون في الواقع شكلاً من أشكال نزع الحياة عن هذا التراث، حين يُقدّم في عروض فولكلورية أو في مهرجانات ترفيهية أُعدت خصيصاً للإيهار، لا للتعبير الصادق عن الحياة اليومية<sup>4</sup>. ويُضيف أنّ التسليع لا يؤثر فقط في طريقة عرض

1- جون توملينسون، العولمة والثقافة، ترجمة فايز الصياغ، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005)، ص 42.

2- أويسوالد، هنريتا، السياحة الثقافية والتحديات المعاصرة. لندن، مطبعة جامعة كامبريدج، 2018، ص 129.

3- غرينوود، ديفيد، "الثقافة بالوزن: منظور أنثروبولوجي للسياحة كتسليع ثقافي". المضيفون والضيوف: أنثروبولوجيا السياحة، تحرير فالين سميث، فيلادلفيا، دار نشر جامعة بنسلفانيا، 1989، الصفحات 171-185.

4- كوهين، إريك. "الأصالة وتسليع الثقافة في السياحة". حوليات أبحاث السياحة، ج. الهوية السياحية الديناميكية، المجلد 15، العدد 3، 1988، ص. 371-386.



الثقافة، بل يعيد تشكيل مفهوم الهوية المحلية ذاتها، بحيث تُعاد صياغتها وفق أدواق خارجية استهلاكية، لا انطلاقاً من عمقها التاريخي.<sup>1</sup>

في السياق اللبناني، تبدو مظاهر التسليع واضحة في عدّة قرى ومواقع تراثية، حيث يتم تحويل البيوت التقليدية إلى مطاعم أو بيوت ضيافة دون مراعاة السياق المعماري والاجتماعي، وتُستبدل الممارسات الشعبية العفوية بنسخ معدّة للتصوير. ويُلاحظ أن بعض هذه المبادرات، رغم نواياها الحسنة، تُساهم في إنتاج «ثقافة بلا سياق»، تُعرض وتُستهلك بسرعة، وتفقد أثرها التفاعلي الحقيقي. وبذلك، لا تقتصر خطورة التسليع على تزييف التجربة السياحية، بل تتعداها إلى تهديد حقيقي للهوية المجتمعية. إذ تتحوّل المجتمعات من فاعلة إلى مؤدية، ومن راوية للقصص إلى ديكور خلفي للعرض. ويستدعي هذا الواقع مراجعة عميقة للسياسات السياحية، لإعادة الاعتبار للمجتمعات بوصفها شريكة في بناء التجربة، لا مجرد أداة للعرض أو الاستهلاك. في مقابل التصورات النقدية المتشائمة بشأن أثر العولمة والتسليع على الثقافة، تبرز أطروحة أكثر توازناً مفادها أن الهوية ليست معطى ثابتاً أو جوهراً ساكناً، بل هي بناء اجتماعي ديناميكي يتشكّل باستمرار من خلال التفاعل، والسرد، والنمثيل<sup>2</sup>. بهذا المعنى، يمكن للسياحة الثقافية أن تكون فرصة لإعادة صياغة الهوية وتعزيزها، لا فقط تهديداً لها، شريطة أن تُدار التجربة السياحية بمشاركة فعّالة من المجتمعات المحلية، و باحترام حقيقي للسياق الاجتماعي والثقافي.

يُعد ماكانيل من أبرز المنظرين الذين قدّموا هذه الرؤية البديلة، حيث يرى أن السائح لا يكتفي باستهلاك مشهد ثقافي جامد، بل يبحث عن تجربة تفاعلية قائمة على المعنى، واللقاء، والانغماس في الثقافة<sup>3</sup>. من هنا، تصبح السياحة فضاءً للتفاوض الرمزي بين المحلي والعالمي، لا مسرحاً لهيمنة أحد الطرفين. ويقترح ماكانيل مقارنة «السياحة كتجربة»، بدلاً من «السياحة كعرض»، حيث يتم إشراك المجتمع المحلي في بناء وتقديم

1- كوهين، إريك. "الأصالة وتسليع الثقافة في السياحة". حوليات أبحاث السياحة، ج. الهوية السياحية الديناميكية، المجلد 15، العدد 3، 1988، ص 377.

2- هول، ستيفارت. "الهوية الثقافية والشتات". في: الهوية: المجتمع، الثقافة، الاختلاف، تحرير: جوناثان رذرفورد. لندن: لورانس وويشارت، 1990، الصفحات 222-237.

3- ماكانيل، دين. السائح: نظرية جديدة للطبقة الترفيهية. بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1976، ص. 13.

التجربة الثقافية. تُعزّز هذه الرؤية الدراسات الحديثة في مجال السياحة الذكية، والتي تؤكد أنّ التكنولوجيا حين تُستخدم بوعي لا تُقصي الثقافة، بل قد تعمّقها. وقد أظهرت أبحاث غريترل وزملائها أنّ التطبيقات الرقمية، مثل الجولات التفاعلية أو الحكايات السمعية، يمكن أن تساهم في نقل التجربة الثقافية بطرق أكثر تأثيراً، دون أن تُختزل في صورة أو مشهد مرئي وحسب<sup>2</sup>. هذه الأدوات تسمح للزائر بفهم أعمق للمكان، وللمجتمع المحلي بالمشاركة في صناعة المعنى، مما يُعيد التوازن إلى العلاقة بين المستضيف والزائر. في السياق اللبناني، يمكن أن تمثل هذه الرؤية أفقاً حقيقياً لتطوير السياحة الثقافية، حيث تُقدّم الهوية لا كموروث ساكن، بل كمجموعة من الممارسات الحية، والعلاقات الاجتماعية، والسرديات المتغيرة التي تعكس الحياة اليومية بقدر ما تعكس الماضي. شرط ذلك أن تُبنى التجربة بمشاركة مجتمعية فعلية، لا بوصفات تسويقية جاهزة.

## ثانياً: التحديات الكبرى أمام السياحة الثقافية اللبنانية في عصر العولمة

### 1. تهमيش الأصالة لصالح المتطلبات الاستهلاكية

أدت ضغوط العولمة السياحية إلى إعادة تشكيل الثقافة المحلية في لبنان لنتناسب مع أذواق الزوّار وتوقعاتهم، لا مع منطق المجتمع وذاكرته. فقد باتت المجتمعات مضطّرة إلى «إعادة تقديم» موروّثها الثقافي في قوالب تجارية سهلة الهضم، مهدّدة بذلك المعنى الأصلي والممارسة الأصيلة. ويحدّر كوهين من هذا المنحى، مؤكداً أنّ التبسيط التجاري للممارسات الثقافية يؤدي إلى اختزالها في «صور نمطية» قابلة للتسويق، لكنها خالوية من دلالتها.<sup>3</sup>

في السياق اللبناني، يتجلّى هذا التحوّل في العديد من المهرجانات والمناسبات الشعبية، التي تحوّلت من فضاءات احتفال بالتراث الحي إلى عروض فولكلورية مُعدّة سلفاً، تُقدّم كخلفيات بصرية مبهرة تصلح للتصوير والنشر، لا كفضاءات للتفاعل الإنساني العميق.

1- مكاويل، دين. السائح: نظرية جديدة للطبقة الترفيحية. لوس أنجلوس: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1976، ص. 29.

2- غريترل، أولريكه، ماريا سيغال، تشيلين شيانغ، ونشولموكو. "السياحة الذكية: الأسس والتطورات." الأسواق الإلكترونية، المجلد 25، العدد 3، 2015، الصفحات 179-188.

3- كوهين، إريك. "الأصالة وتسليع الثقافة في السياحة." حوليات أبحاث السياحة، ج. الهوية السياحية الديناميكية، المجلد 15، العدد 3، 1988، ص. 375.

ويشير تقرير حديث صادر عن منظّمة اليونسكو إلى أن هذا «التّحوير الاستهلاكيّ للثقافة» يُضعف الرّابط الوجدانيّ بين المجتمع وتراثه، ويُفرغ التّجربة السّياحيّة من بعدها الرّمزي<sup>1</sup>. وي طرح هذا الواقع تحدّيًا مزدوجًا: فمن جهة، تسعى المجتمعات لجذب الزوّار لضمان مردود اقتصاديّ، ومن جهة أخرى، تُجبر على تقديم نفسها ضمن منطق سوقيّ يُنتج تمثيلات لا تُعبّر عنها فعليًا، بل قد تُشوّه صورتها الحقيقيّة أمام الزّائر.

## 2. العولمة الرقمية وأثر وسائل التّواصل الاجتماعيّ

لم تعد التّجربة السّياحيّة، في ظلّ التّحوّلات الرّقميّة المتسارعة، مقترنة بالحضور الفيزيائيّ في المكان فقط، بل باتت مشروطة بممارسات النّشر الفوريّ والمشاركة البصريّة عبر وسائل التّواصل الاجتماعيّ. لقد تغيّر مفهوم «زيارة الموقع الثّقافيّ» من كونه لحظة تفاعل مع الذاكرة والرّمز إلى كونه فرصة لالتقاط صور جذابة قابلة للمشاركة. يُشير الباحثون إلى أنّ هذه النزعة الرّقميّة الجديدة أسهمت في تحويل السّياحة الثّقافيّة من تجربة معرفيّة وشعوريّة إلى لحظة فوتوغرافيّة مختزلة، تُعرض لا تُعاش<sup>2</sup>. وقد لاحظت غريتنزل وزملاؤها أن حضور الزّائر بات موجّهًا أكثر نحو البحث عن «زاوية تصوير مثاليّة» بدلاً من اكتشاف معنى المكان<sup>3</sup>. في هذا السّياق، تراجعت أهميّة الحوار مع المجتمع المحليّ، أو الاستماع إلى سرديّاته، لصالح التّفاعل مع الصّور والمرئيّات التي يُنتجها الفضاء الرّقميّ. وتؤكد تقارير اليونسكو أنّ هذا السّلك أدّى إلى تآكل تدريجيّ في العلاقة بين الزّائر والمكان، وتفريغ المواقع التّراثيّة من محتواها التّربويّ والوجداني<sup>4</sup> في لبنان، تأثّرت العديد من المواقع التّراثيّة لا سيما في القرى الجبليّة بهذا المنطق، إذ باتت تُصمم وتُروّج وفق معايير جماليّة رقميّة، لا ثقافيّة. وغالبًا ما تُقصى عناصر من التّراث المحليّ لأنّها «لا تصلح للتّصوير» أو «غير قابلة للانتشار». بهذا، تتحوّل التّجربة الثّقافيّة إلى تفاعل بصريّ سطحيّ، تُختزل فيه الذاكرة الجماعيّة إلى مشهد قابل للنّشر الفوريّ، لا للممارسة أو التأمّل.

1- اليونسكو. الثقافة في أوقات الأزمات: تقرير عالمي. باريس: منظّمة الأمم المتّحدة للتّربية والعلم والثقافة، 2022، ص 47.

2- أوري، جون، ولارسون، يونا. نظرة السّائح 3.0. لندن: منشورات ساج، 2011، الصفحات 18-19.

3- غريتنزل، أولريكه، ماريا سيغال، تشيلين شيانغ، وتشولمو كو، "السّياحة الذكيّة: الأسس والتطوّرات". الأسواق الإلكترونيّة، المجلد 25، العدد 3، 2015، ص 182.

4- اليونسكو، الثقافة في أوقات الأزمات: تقرير عالمي. باريس: اليونسكو، 2022، الصفحات 55-56.

### 3. غياب السياسات الثقافية المتكاملة

تعاني السياحة الثقافية في لبنان من غياب واضح لاستراتيجية وطنية شاملة تدمج بين القطاعات المعنية، كالثقافة، والتعليم، والسياحة، والاقتصاد. ويتجلى هذا النقص في ضعف التنسيق المؤسسي، وتضارب الصلاحيات، وغياب خارطة طريق موحدة تحدد الأهداف، وآليات التنفيذ، ومؤشرات المتابعة<sup>1</sup>. ويبرز البنك الدولي في تقريره الإقليمي أن صون التراث الثقافي، كمدخل للتنمية المستدامة، لا يمكن أن يتحقق في غياب بنية مؤسسية متكاملة تُشجّع على الشراكة بين الدولة والمجتمع المدني والقطاع الخاص<sup>2</sup> في لبنان، ما تزال العديد من المبادرات الثقافية والمشاريع السياحية ذات طابع فردي أو محلي ضيق، وتفتقر إلى استمرارية أو دعم مؤسسي حقيقي. وغالباً ما تكون تلك المبادرات موسمية، أو مدفوعة باعتبارات انتخابية، لا بأفاق تنموية طويلة المدى. يُضاف إلى ذلك أن القرى والمواقع التراثية التي تُعدّ خزانات رمزية وسياحية لا تحظى بدعم كافٍ في مجالات التدريب، والتسويق، والبنية التحتية، مما يعيق قدرتها على جذب الزوار أو تطوير منتجات سياحية نوعية<sup>3</sup>. هذا الغياب للسياسات المتكاملة ينعكس أيضاً على البرامج التعليمية، التي قلما تُدرج مفاهيم السياحة الثقافية، أو تدمج الطلاب في مشاريع تراثية ميدانية. كما أن ضعف الاستثمار في رأس المال البشري من خلال تدريب أدلاء محليين، أو تطوير المحتوى الثقافي يحدّ من قدرة لبنان على تحويل تراثه المتنوع إلى مورد سياحي مستدام.

### 4. التحديات السياسية والأمنية

لا يمكن فهم واقع السياحة الثقافية في لبنان دون الأخذ بعين الاعتبار السياق السياسي والأمني المتقلب، الذي يُلقي بظلاله على جميع أشكال الاستثمار والتنمية، بما في ذلك السياحة<sup>4</sup>. فالصراعات المتكررة، والأزمات الحكومية، والانقسامات الطائفية، والانهايات الاقتصادية المتلاحقة، تُنتج مناخاً من عدم الاستقرار يجعل من الصعب التخطيط لبرامج سياحية طويلة الأمد. ويؤكد بيرمان أن الجهات السياحية التي تعاني من اضطرابات

1- الجميل، بيار، الهوية اللبنانية والتحديات المعاصرة، بيروت، دار النهار للنشر، 2008، ص 133.

2- البنك الدولي، السياحة والثقافة من أجل التنمية المستدامة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، واشنطن العاصمة: مجموعة البنك الدولي، 2019، ص 28.

3- أوسولد، هنريتا، السياحة الثقافية والتحديات المعاصرة، لندن، مطبعة جامعة كامبريدج، 2018، ص 147.

4- الخطيب، محي الدين، تاريخ لبنان السياسي، بيروت، دار العلم للملايين، 2004، ص 211.

سياسية مزمنة غالباً ما تفقد ثقة المستثمرين، كما يتراجع فيها الطلب السياحي لصالح أماكن أكثر أمناً واستقراراً.<sup>1</sup>

في لبنان، انعكست هذه الأزمات بشكل مباشر على المشاريع الثقافية والتراثية، حيث تم تعليق عدد كبير من مشاريع الترميم والتأهيل، أو إلغاؤها بالكامل بسبب غياب التمويل أو غموض الأفق السياسي. كما أدى ذلك إلى فقدان عدد من الكفاءات المحلية المؤهلة في مجالات الإدارة الثقافية، نتيجة الهجرة أو تدهور أوضاع القطاع العام.

وعلاوة على ذلك، تُوظف الثقافة أحياناً في الخطاب السياسي اللبناني بوصفها رمزاً للهويات المتنافسة، لا كجسر جامع بين مكونات المجتمع. هذا التسييس للثقافة يُعيق بناء سردية وطنية شاملة قادرة على الترويج للسياحة الثقافية بوصفها مساحة حوار وانفتاح، بدلاً من أن تُختزل في مهرجانات ذات طابع فئوي أو مناطقي. ويُساهم غياب خطاب ثقافي جامع في تضيق جمهور السياحة الثقافية الداخلي، ويحدّ من فرص انفتاح لبنان خارجياً على أسواق جديدة.<sup>2</sup> وبهذا، تصبح السياحة الثقافية في لبنان رهينة لسياق سياسي متوتر، لا يتيح لها النضج أو التحول إلى رافعة تنمية مستدامة، بل يُعيد إنتاج هشاشتها، ويجعلها تابعة للظروف لا صانعة لها.

## ثالثاً: دير القمر نموذج حي للسياحة الثقافية اللبنانية

### 1. الجذور التاريخية والثقافية

تقع بلدة دير القمر في قضاء الشوف بجبل لبنان، وتُعدّ من أبرز القرى اللبنانية ذات الطابع التراثي المتجانس، نظراً لتاريخها العريق، وعمارته التقليدية، ومكانتها السياسية والثقافية.<sup>3</sup> فقد كانت في القرن السادس عشر عاصمةً لإمارة جبل لبنان خلال عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، الذي اتخذها مقراً لحكمه، ممّا منحها دوراً محورياً في التشكّل السياسي والرمزي للكيان اللبناني الناشئ آنذاك.<sup>4</sup> تتميز البلدة بتخطيط عمراني متكامل يعكس نمط الحياة اللبنانية التقليدية: ساحات مرصوفة بالحجر، أزقة ضيقة

1- برمان، بروس، السياسة والسياحة في العالم العربي، بيروت، دار الساقي، 2017، ص 65.

2- اليونسكو، الثقافة في أوقات الأزمات، تقرير عالمي، باريس، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، 2022، ص 91.

3- بو خليل، شفيق. التراث والسياحة الثقافية في الوطن العربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010، ص 145.

4- الخطيب، محيي الدين، تاريخ لبنان السياسي. بيروت، دار العلم للملايين، 2004، ص 117.

تتخلّلها أقواس مقنطرة، ومبانٍ من الطراز العثماني المحليّ. ومن أبرز معالمها: قصر الأمير يوسف الشهابيّ، كنيسة سيّدة التّلة، وساحة فخر الدّين، وهي مواقع ما تزال تحتفظ بأصالتها المعماريّة، وتشكّل مجتمعة نواة الهويّة المعماريّة للبلدة.<sup>1</sup> وقد حظيت دير القمر باعتراف دوليّ بأهمّيّتها التراثيّة، إذ أدرجت ضمن عدد من برامج الحماية والصّون الثقافيّ التابعة للمجلس الدّوليّ للمعالم والمواقع (ICOMOS)، كما نُفّذت فيها مشاريع ترميم بتمويل من اليونسكو، ما يعكس مكانتها كموقع رمزيّ في مشهد السّياحة الثقافيّة اللبنانيّة<sup>2</sup> لكن الأهم من المكوّن المعماريّ هو البعد الاجتماعيّ والثقافيّ الذي تحتفظ به البلدة، فهي ليست مجرد «متحف مفتوح»، بل مجتمع نابض بالذاكرة الحيّة والعلاقات العائليّة المتجدّرة، ما يجعل من تجربة زيارتها فعل تواصل مع طبقات متعدّدة من التاريخ والرمز.

## 2. تحولات السّياحة الثقافيّة في دير القمر

مع نهاية الحرب الأهليّة اللبنانيّة وعودة الاستقرار النّسبيّ في السّبعينيّات، شهدت دير القمر إقبالاً متزايداً من الزوّار، سواء من اللبنانيين أو الأجانب، الباحثين عن تجربة تراثيّة «أصيلة»، تجمع بين الطّابع المعماريّ، والمشهد الطّبيعيّ، والهدوء الرّيفيّ<sup>3</sup>. في بداياتها، كانت الزّيارات ذات طابع عائليّ أو تروييّ، تتمحور حول التّجول في السّاحات الحجريّة، أو زيارة الكنائس القديمة، أو التّعرّف على تاريخ الأمراء الشّهابيّين. غير أنّ هذا الطّابع تغيّر تدريجيّاً مع انتشار وسائل التّواصل الاجتماعيّ، وتضاعف ظاهرة «السّياحة الفوتوغرافيّة»، حيث بات كثير من الزوّار يأتون بهدف التقاط صور في زوايا معيّنة من البلدة، أكثر من رغبتهم في التّفاعل مع تاريخها أو سكّانها. وتحوّلت تجربة الزّيارة من تواصل ثقافيّ إلى ممارسة بصريّة موجهة نحو «المشاركة الرّقميّة»، ما أضعف البعد التّفاعليّ للزيارة<sup>4</sup>. يصف غريتل وزملاؤها هذا النّمط من الاستهلاك الثقافيّ السّريع بـ«الانزلاق من التّجربة إلى التّمثيل»، حيث يُصبح الفعل السّياحيّ مؤطّراً

1- الجميل، بيار، الهويّة اللبنانيّة والتّحدّيات المعاصرة، بيروت، دار النهار، 2008، ص 189.

2- اليونسكو والمجلس الدّوليّ للمعالم والمواقع (إيكوموس)، التراث العالميّ ومشاركة المجتمعات، دراسة حالة من لبنان، باريس، منشورات اليونسكو، 2021، ص 32.

3- الجامعة اللبنانيّة الأمريكيّة، دراسة ميدانيّة حول السّياحة الثقافيّة في لبنان، التّحدّيات والفرص، بيروت، الجامعة اللبنانيّة الأمريكيّة، 2020، ص 19.

4- غريتل، أولريكه وآخرون، «السّياحة الذكيّة: الأسس والنظورات». الأسواق الإلكترونيّة، المجلد 25، العدد 3، 2015، الصفحات 179-180.

بقواعد العرض على المنصّات الرّقمية، لا بحبّ الاكتشاف أو الفضول المعرفي<sup>1</sup>. في هذا السياق، فقدت بعض عناصر التّراث في دير القمر معناها الحيّ، لتُعاد صياغتها كخلفيّة جماليّة تلبي حاجات الزّائر الرّقمية، بينما تراجع دور السّكان المحليّين من فاعلين إلى عناصر صامتة في مشهد الاستهلاك. وقد انعكس هذا التّحول على العلاقة بين الأهالي والزوّار، إذ عبّر عدد من السّكان عن شعورهم بأنّ البلدة «أصبحت مسرحاً للعرض»، لا مجتمعاً تُحترم ديناميّاته الخاصّة. هذا الواقع يطرح تساؤلات حول حدود الفائدة الاقتصاديّة للسياحة إذا ما أُنت على حساب البنية الاجتماعيّة والمعنى الرّمزيّ للتّراث.

### 3. العولمة الثقافيّة والمخاطر المحدقة

تُحدّر دراسات حديثة في مجال التّراث والسياحة من أنّ إدماج القرى التّراثيّة في مسارات السياحة العالميّة دون رؤية نقدية واستراتيجيّة حماية متماسكة، قد يؤديّ إلى تحويل هذه المواقع من فضاءات معيشة وذاكرة إلى «مشاهد استهلاك سياحيّ» تفقد تدريجيّاً روحها الأصليّة<sup>2</sup>. وتشير هذه الدّراسات إلى أنّ «النّجاح السياحيّ السّريع» في بعض القرى قد يُخفي في طيّاته عمليّة تآكل تدريجيّ للهويّة، نتيجة الاستجابة غير المدروسة لمتطلّبات السّوق<sup>3</sup>. في دير القمر، برزت خلال العقدین الأخيرين مؤشّرات واضحة على هذا التّحول، منها افتتاح منشآت تجاريّة ذات طابع تجميليّ لا يعكس روح المكان، أو إقامة فعاليات موسميّة ترفيهيّة لا تمتّ بصلّة إلى السياق الثقافيّ المحليّ، بل تستجيب لأذواق جماهيريّة متنوّعة، بعيدة من البيئة الاجتماعيّة الأصليّة للبلدة. كما تمّ تحويل بعض الأبنية التّراثيّة إلى مطاعم أو صالات استقبال، ما أفقدها طابعها السّكني الرّمزي<sup>4</sup>. يتفق كوهين وماكانيل على أنّ هذا النّوع من «التّسليع القسريّ» للثقافة لا يفرّغ المكان من رمزيّته فحسب، بل يُعيد تشكيله ليناسب صورة ذهنيّة جاهزة في مخيلة السّائح، لا في وعي

1- غريتلز، أولريكه، وتازيم جمال، "سلوك المستهلك في السياحة: المفاهيم، التأثيرات، والفرص". في: دليل روتليدج لإدارة وتسويق تجربة السياحة، تحرير: نويهوفر وآخرون، لندن، روتليدج، 2018، ص 154.

2- أوزوالد، هنرييتا، السياحة الثقافيّة والتّحدّيات المعاصرة، كامبريدج، مطبعة جامعة كامبريدج، 2018، ص 171.

3- ريتشاردز، غريغ، "السياحة الثقافيّة، مراجعة للأبحاث والاتّجاهات الحديثة". مجلة إدارة الضّيافة والسياحة، المجلّد 36، 2018، الصّفحات 12-14.

4- بو خليل، شفيق، التّراث والسياحة الثقافيّة في الوطن العربيّ، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 2010، ص 152.

المجتمع المحلي<sup>1</sup>. وهنا يكمن الخطر الأكبر: أن تتحوّل البلدة من نسيج اجتماعي متجذّر إلى صورة جامدة، ومن فضاء للذاكرة إلى «ديكور تراثي» قابل للتصوير، لا للعيش. وفي ظل غياب تشريعات واضحة أو أدوات رقابية فاعلة، تتجّه بعض القرى اللبنانية ومنها دير القمر إلى الوقوع في فخ «التمثيل السياحي المفرط»، الذي يخضع التراث لمتطلبات العرض، ويجعل من أصالة المكان رهينة لجاذبيته الاستهلاكية، لا لقيّمته الثقافية الفعلية.

#### 4. المبادرات المجتمعية للحفاظ على الأصالة

رغم التحدّيات المتعدّدة التي تواجه السياحة الثقافية في دير القمر، برزت في السنوات الأخيرة مبادرات مجتمعية محلية تهدف إلى صون التراث المعماري والرمزي، وتعزيز الانتماء الهوياتي في وجه تيارات العولمة والتسليع. هذه المبادرات، التي غالباً ما تتبع من المجتمع الأهلي أو من منظمات غير حكومية بالتعاون مع المؤسسات الدولية، تعبّر عن وعي متزايد لدى السكّان بأهمية الحفاظ على طابع البلدة كمجتمع حي، لا كمشهد تصويري عابر.<sup>2</sup>

من بين أبرز هذه الجهود يمكن الإشارة إلى مشروع ترميم ساحة الأمير فخر الدين، الذي نُفّذ بدعم من اليونسكو عام 2021، مستهدفاً إعادة إحياء الساحة كمركز تفاعلي مجتمعي لا مجرد معلم معماري<sup>3</sup>. كما نُظّمت مهرجانات محلية تُركّز على الفنون الشعبية كالذبكة والموسيقى التقليدية، بعيداً عن الاستعراضات الاستهلاكية التي تُشاهد في بعض المناسبات التجارية الكبرى. إلى جانب ذلك، أطلقت جمعيات محلية حملات توعية موجّهة للأطفال والشباب، تسعى إلى غرس مفاهيم التراث والذاكرة والهوية في الأجيال الصاعدة. وتُظهر دراسة صادرة عن الجامعة اللبنانية الأمريكية أنّ مشاركة السكّان المحليين في تصميم وتقديم التجربة السياحية لا تعزّز الاستدامة فقط، بل تُعيد الاعتبار للسكّان كمشاركين فاعلين في صياغة سرديّتهم الخاصة<sup>4</sup>. ويؤكد تقرير البنك

1- مكايل، دين، السائح: نظرية جديدة للطبقة الترفيهية. بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1976، الصفحات 45-46.

2- الجامعة اللبنانية الأمريكية، دراسة ميدانية حول السياحة الثقافية في لبنان، التحدّيات والفرص، بيروت، الجامعة اللبنانية الأمريكية، 2020، ص 27.

3- اليونسكو، مبادرة إعادة تأهيل التراث الثقافي في دير القمر، تقرير داخلي، باريس، اليونسكو، 2022، ص 14.

4- اليونسكو، مبادرة إعادة تأهيل التراث الثقافي في دير القمر، تقرير داخلي، باريس، اليونسكو، 2022، ص 19.



الدّوليّ أنّ المجتمعات التي تُشارك فعليّاً في إدارة السّياحة، تُظهر قدرة أكبر على مواجهة الضّغوط الخارجيّة، وحماية تراثها من الاستغلال التجاريّ<sup>1</sup>. هذا ما يجعل من المبادرات المجتمعيّة في دير القمر نموذجاً يُحتذى، وإن كان بحاجة إلى دعم مؤسّساتي مستدام، وإلى ربط هذه الجهود المحليّة بسياسات وطنيّة متكاملة تعترف بقيمة التّراث الحيّ بوصفه مورداً استراتيجيّاً للتّمنية.

## رابعاً: رؤية نقدية لاستدامة السّياحة الثقافيّة اللبنانيّة

### 1. إعادة تحديد دور المجتمع المحليّ

تشير تقارير اليونسكو إلى أن استدامة السّياحة الثقافيّة لا تكتمل عبر حماية المباني والمعالم فقط، بل تستلزم إشراك المجتمع المحليّ في إنتاج التجربة السّياحيّة، ليس كمستضيف سلبيّ، بل كحامل للمعرفة والهويّة والذاكرة<sup>2</sup>. بهذا المعنى، لم تعد الثقافة مجرد مورد للعرض، بل أصبحت مسألة تمكين اجتماعيّ، حيث تُعيد المجتمعات تعريف ذاتها من خلال آليات التّفاعل مع الزّائر، لا من خلال الانغلاق أو التّمثيل التجاريّ. في لبنان، تعاني العديد من القرى التّراثيّة من غياب هذا التّمكين، حيث تُفرض عليها نماذج عرض ثقافيّة جاهزة من دون أن تُستشار في كينيّة تقديم سرديّاتها أو تفسير رموزها. وكثيراً ما يُوظّف السّكان كـ«خلفيّة بشريّة» لمهرجانات أو أنشطة سياحيّة لا تعبّر عنهم. ويعيد هذا الواقع إنتاج التّفاوت بين من يتحكم في الخطاب الثقافيّ ومن يُستخدم فيه<sup>3</sup>. وتوصي الأدبيّات الحديثة في السّياحة الثقافيّة بتطبيق مبدأ «التّمكين التّشاركيّ»، والذي يُمكن المجتمعات المحليّة من أن تكون طرفاً فاعلاً في صناعة التجربة، وليس مجرد وسيلة للزّيح أو التّجميل<sup>4</sup>. ويبرز في هذا السّياق النموذج المغربيّ في فاس، حيث تمّ إشراك الحرفيّين المحليّين في تصميم المسارات السّياحيّة وتحديد سرديّة الحيّ التّاريخيّ، ما أدّى إلى خلق علاقة تفاعليّة بين الزّائر والمجتمع<sup>5</sup>. مثل هذا النّموذج قد يُلهم

1- البنك الدّوليّ، السّياحة والثّقافة من أجل التّمنية المستدامة في منطقة الشّرق الأوسط وشمال أفريقيا، واشنطن العاصمة، مجموعة البنك الدّوليّ، 2019، ص 42.

2- اليونسكو، الثّقافة، مستقبل حضريّ - تقرير عالميّ حول الثّقافة من أجل التّمنية الحضريّة المستدامة، باريس، اليونسكو، 2016، ص 93.

3- أوسولد، هنريتا، السّياحة الثقافيّة والتّحدّيات المعاصرة، لندن، مطبعة جامعة كامبريدج، 2018، ص 165.

4- تيموثي، دالنجي، التّراث الثقافيّ والسّياحة، مقدّمة، بريستول، منشورات تشانل فيو، 2011، الصّفحات 104-107.

5- ثابت، ياسمين، «تمكين الحرفيّين المحليّين في السّياحة الثقافيّة، حالة مدينة فاس»، تخطيط وتطوير السّياحة، المجلد 18، العدد 2، 2021، الصّفحات 134-149.

المبادرات اللبنانية الناشئة، خصوصاً في مواقع مثل دير القمر، بشرط أن يُدعم بإرادة سياسية ورؤية مؤسسية واضحة.

## 2. إدماج التكنولوجيا بذكاء لخدمة الأصالة

رغم ما تثيره الأدوات الرقمية من مخاوف تتعلق بالتسطيح والتّمثيل السطحي للتراث، تشير دراسات متقدمة إلى أنّ التكنولوجيا، إذا ما استخدمت بوعي نقديّ، يمكن أن تُشكّل رافعة قوية لحماية الأصالة وتعزيز التفاعل الثقافي<sup>1</sup>. فالتقنيات مثل الواقع المعزّز، والجولات السمعية التفاعلية، والتطبيقات المخصصة لرواية القصص المحلية، قد تُعيد تشكيل تجربة الزائر على نحو يعمّق فهمه للمكان ويُحترم فيه السياق الثقافي المحلي<sup>2</sup>. وتؤكد غريتل وزملاؤها أنّ «السياحة الذكية» لا تعني استبدال العنصر الإنساني بالتقنية، بل توظيف الرقمية لتوسيع أفق الإدراك والتفاعل<sup>3</sup>. فبدلاً من النقاط الصّور العابرة، يستطيع الزائر من خلال تقنية الواقع المعزّز أن يتعرّف على قصص السّكان، أو تفاصيل البناء، أو الأحداث التاريخية التي شهدتها الموقع، ما يحدث توازناً بين الحضور البصريّ والحضور المعرفي. في السياق اللبناني، يُعد هذا التوظيف الذكي للتقنية فرصة واعدة، خصوصاً في ظل جاذبية الهواتف الذكية لدى فئات الشّباب. ويمكن، على سبيل المثال، تطوير تطبيق خاصّ بدير القمر يُوفّر محتوى صوتياً متنوعاً، يُروى بصوت أبناء البلدة، يتناول الحكايات العائلية، والعادات، وطقوس الحياة اليومية، ما يجعل من الزائر مشاركاً في تجربة سردية حيّة لا مستهلكاً صامتاً لصور سريعة. لكن لتحقيق ذلك، لا بدّ من توافر بنية تحتية رقمية، وتدريب محليّ، وتعاون فعليّ بين المطوّرين التكنولوجيين والمجتمعات المحلية، لتفادي تحويل الأدوات الرقمية إلى مجرد وسيلة أخرى للسطحية والانبهار الخاوي.

## 3. تبني سياسات ثقافية سياحية وطنية متكاملة

تعاني السياحة الثقافية في لبنان من غياب سياسة وطنية موحّدة تتسق بين مختلف

1- سيغالا، ماريانا، "وسائل التّواصل الاجتماعيّ والسياحة الثقافيّة"، في، وسائل التّواصل الاجتماعيّ في السّفر والسياحة والضيافة، تحرير، سيغالا وآخرون، لندن، روتليدج، 2014، ص 273.

2- غريتل، أولريكه، تازيم جمال وآخرون، "خلق تجارب سياحية معززة من خلال التكنولوجيا"، منظورات في إدارة السياحة، المجلد 23، 2017، الصفحات 83-86.

3- غريتل، أولريكه وآخرون، "السياحة الذكية: الأسس والتّطوّرات"، الأسواق الإلكترونيّة، المجلد 25، العدد 3، 2015، ص 185.

الوزارات والمؤسسات المعنية، مثل وزارات السياحة، والثقافة، والتربية، والاقتصاد، ما يؤدي إلى تشتت الجهود، وتكرار المبادرات، وانعدام الرؤية الشمولية لتفعيل التراث كأداة للتنمية<sup>1</sup>. ويُشير البنك الدولي إلى أن استدامة السياحة الثقافية تتطلب تكاملاً أفقياً بين القطاعات، وتنسيقاً عمودياً بين المستويات المركزية والبلدية، إضافة إلى تمكين المجتمعات المحلية<sup>2</sup>. في النموذج المغربي، على سبيل المثال، ساهم إنشاء «اللجنة الوطنية للتراث» التي تضم فاعلين من القطاعين العام والخاص، في وضع خارطة طريق وطنية لصون التراث الثقافي وربطه بالتنمية السياحية<sup>3</sup>. بالمقابل، يفتقر لبنان إلى جهاز تنسيقي مماثل، ما يجعل من المبادرات الثقافية رهينة مزاجية سياسية، أو مرهونة بتمويلات خارجية غير مستدامة. كما أن غياب التكامل بين التعليم والثقافة يُعد من أبرز مكامن الخلل، إذ ما تزال البرامج المدرسية خالية من أي تدريب ممنهج على التراث أو السياحة الثقافية، ما يُضعف علاقة الناشئة بالهوية المحلية. ويُوصي تقرير اليونسكو الأخير بضرورة إدماج الثقافة في المناهج، وتفعيل برامج التوأمة بين المدارس والمواقع التراثية، لتنشئة جيل واع بهويته وقادر على التعاطي النقدي مع الزائر، بدلاً من أداء دور المنقّج أو المؤدي<sup>4</sup>. أخيراً، فإن ربط السياحة الثقافية بالسياسات الاقتصادية أمر بالغ الأهمية. إذ إن التراث، حين يُدمج في الخطط التنموية الشاملة، يمكن أن يتحوّل إلى مصدر دخل حقيقي، ومجال لخلق فرص عمل محلية، لا سيّما في المناطق الريفية المهمشة. ولتحقيق ذلك، لا بدّ من رؤية مؤسّساتية تؤمّن بأنّ الثقافة ليست كماليات، بل استثمار طويل الأمد في رأس المال الرمزي والاجتماعي.

#### 4. بناء سرديات ثقافية أصيلة وحديثة

أحد أبرز التحدّيات التي تواجه السياحة الثقافية في لبنان هو تقديم الهوية المحلية بوصفها «أثراً من الماضي»، منزوعة من سياقها الاجتماعي الحي، وعرضها كصورة جامدة تُروّج

1- الجميل، بيار، الهوية اللبنانية والتحدّيات المعاصرة، بيروت، دار النهار، 2008، ص 202.  
2- البنك الدولي، السياحة والثقافة من أجل التنمية المستدامة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، واشنطن العاصمة، البنك الدولي، 2019، ص 4.  
3- خليل، إيمان، "سياسة التراث الوطني والتنمية الثقافية في المغرب"، المجلة الدولية للسياسات الثقافية، المجلد 26، العدد 4، 2020، الصفحات 471-483.  
4- اليونسكو، الثقافة في أزمة، توصيات سياساتية من أجل التعليم الثقافي، باريس، اليونسكو، 2022، الصفحات 61-62.

من خلال المعالم المعماريّة أو المناسبات المتحفية<sup>1</sup>. غير أنّ المفهوم المعاصر للهويّة كما تطرحه الأدبيّات الحديثة يشدّد على أنّها ليست تراكمًا للماضي فقط، بل ممارسة حيّة تتجدّد من خلال الحياة اليوميّة، والعلاقات، والطّقوس، واللّغة، والتّفاعل المستمر بين الأفراد والمكان.<sup>2</sup> في هذا الإطار، يقترح ماكانيل تجاوز الرّؤية التّقليديّة التي تساوي بين الهويّة والتّراث المادّي، لصالح رؤية تعتبر الهويّة سرّدًا حيًّا، يُعاد بناؤه من خلال التّجربة والمشاركة<sup>3</sup>. فبدلًا من عرض «البيت القديم» بوصفه كائنًا منفصلًا عن الحياة، يمكن تقديمه كمجال معاشٍ تتداخل فيه قصص العائلة، ونمط الضّيافة، وطريقة الطّهو، وطقوس المناسبات الاجتماعيّة. هذا ما يخلق علاقة أكثر عمقًا وصدقًا بين الزّائر والمكان. في دير القمر، يمكن أن تُبنى التّجربة السيّاحيّة على هذا المنطق السّرديّ، حيث يتاح للزّائر الاستماع إلى روايات السّكان حول تاريخ بيوتهم، أو التّعرف على كفيّة صناعة الخبز التّقليديّ، أو المشاركة في جلسة قهوة عائليّة في فناء قديم. هذه التّفصيل، التي قد تبدو هامشيّة في أعين المخطّطين، هي بالضّبط ما يُعطي للمكان روحه، وبمنحه معنى يتجاوز الصّورة. وتُبرز أبحاث السيّاحة التّجريبية أنّ مثل هذا التّمط السّرديّ لا يعزّز فقط تجربة الزّائر، بل يُسهم في تعزيز انتماء السّكان أنفسهم، ويُعيد لهم موقع الفاعل في رواية الذات، بدلًا من تمثيلها بطريقة مسطّحة أو مفروضة<sup>4</sup>. وهكذا، تصبح السيّاحة التّقافيّة أداة مزدوجة: للمعرفة والانتماء، ولإدراك والتّمكن.

#### خامسًا: خاتمة وتوصيات

أظهر هذا البحث، من خلال تحليل نقديّ لدراسة حالة بلدة دير القمر، أنّ السيّاحة التّقافيّة ليست مجرد نشاط اقتصاديّ أو ترفيهيّ، بل مجال حيويّ تتقاطع فيه السياسات، والسّرديات، والرّموز، والضّغوط العالميّة، لتُعيد تشكيل العلاقة بين المجتمع وتراثه. وقد بيّن هذا التّحليل أنّ الهويّة التّقافيّة اللّبنانيّة ليست كيانًا ثابتًا، بل هي بناء متجدّد،

1- ريتشاردز، غريغ، "السيّاحة التّقافيّة، مراجعة للأبحاث والاتّجاهات الحديثة"، مجلّة إدارة الضّيافة والسيّاحة، المجلّد 36، 2018، ص 11.

2- هول، ستيوارت، "الهويّة التّقافيّة والشّتات"، في، الهويّة، المجتمع، الثقافة، الاختلاف، تحرير، جوناثان رذرفورد، لندن، لورانس وويشارت، 1990، ص 226.

3- ماكانيل، دين، السائح: نظرية جديدة للطبقة الترفيهية، بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1976، الصفحات 50-52.

4- باين، بي، جوزيف، وجيلمور، جيمس إتش، اقتصاد التجربة: العمل كمسرح وكل مشروع خشبة مسرح، بوسطن: مطبعة كلية هارفارد لإدارة الأعمال، 1999، الصفحات 86-87.

يُعاد إنتاجه باستمرار تحت تأثير العولمة السياحية، والرقمنة، والتسليع الرمزي.<sup>1</sup> وفي حين تُواجه السياحة الثقافية تهديدات حقيقية تتراوح بين طمس الأصالة، وتفريغ الممارسة من معناها، والتهميش المجتمعي، فإنها في الوقت نفسه تفتح آفاقاً لإعادة إحياء الذاكرة الجمعية، وتعزيز الانتماء، وتحقيق تنمية قائمة على الثقافة، بشرط أن تُدار برؤية نقدية تشاركية، تُعيد للسكان المحليين موقع الفاعل لا المفعول به.<sup>2</sup> تُجسد دير القمر نموذجاً حياً لهذا التوتر الخلاق بين الهوية والتسويق، بين الماضي والحاضر، بين العمق والسطحية. فرغم الضغوط التي تعاني منها البلدة، لا تزال تحتفظ بروحها المعمارية والاجتماعية، ما يجعل منها مختبراً فعلياً لتجريب مسارات جديدة في إدارة السياحة الثقافية.

انطلاقاً من ذلك، يقترح البحث التوصيات الآتية:

1. وضع استراتيجية وطنية متكاملة للسياحة الثقافية، بمشاركة وزارات الثقافة والسياحة والتعليم، مع تعزيز دور البلديات.
2. تمكين المجتمعات المحلية من تصميم وتقديم سردياتها الثقافية ضمن التجربة السياحية، عبر آليات تشاركية لا رمزية.
3. إدماج أدوات التكنولوجيا الذكية لتوسيع الفهم وتعزيز التفاعل، شرط عدم اختزال التجربة إلى تمثيلات بصرية سطحية.
4. تحفيز السياحة البطيئة القائمة على العمق والتفاعل، بدل منطق السرعة والصورة الفورية.
5. تعزيز التعاون الدولي مع منظمات مثل اليونسكو و ICOMOS لضمان صون التراث ضمن رؤية استدامة طويلة الأمد.

### سادساً: آفاق البحث المستقبلية

يفتح هذا البحث المجال أمام عدد من الأسئلة البحثية التي ما تزال بحاجة إلى دراسات

1- هول، ستيوارت، "الهوية الثقافية والشتات"، في: الهوية، المجتمع، الثقافة، الاختلاف، تحرير: جوناثان رذرفورد، لندن: لورانس وويشارت، 1990، ص 228.

2- تيموثي، دالنجي، التراث الثقافي والسياحة: مقدمة، بريستول: منشورات تشانل فيو، 2011، الصفحات 193-195.

ميدانية ومعقدة، خصوصاً في ظلّ التحوّلات المتسارعة التي يشهدها قطاع السيّاحة الثقافيّة في المنطقة العربيّة عموماً، وفي لبنان خصوصاً. ويمكن اقتراح المحاور الآتية كامتداد طبيعيّ لمسار البحث الزّاهن:

1. كيف تؤثر الرّقمنة المتزايدة في إدراك السيّاح للهويّة الثقافيّة في القرى اللبنانيّة؟  
 فمع هيمنة المنصّات البصريّة وتطبيقات التّوجيه الذّكيّة، يبدو أنّ العلاقة بين الزّائر والمكان أصبحت خاضعة لأنماط تمثيل محدّدة سلفاً، ما يستدعي تحليلاً سوسيوولوجياً لآليات الاستقبال وإنتاج المعنى.
  2. ما نوع العلاقة التي يطرّوها السّكان المحليّون مع الزّائر في ظلّ سياسات السيّاحة الثقافيّة؟  
 هل هي علاقة تعاقدية؟ تعبيرية؟ رمزيّة؟ وهل تتغيّر هذه العلاقة حين يُشرك المجتمع في صناعة التّجربة؟
  3. هل يمكن تصميم مسارات سياحية قائمة على سرديات السكان المحليين بدل الخطابات الرّسميّة والمؤسّساتيّة؟  
 وهذا يتطلّب أدوات منهجيّة جديدة تعتمد على الإثنوغرافيا التّشاركيّة، وتحليل الخطاب، وتقنيّات الاستماع المجتمعيّ.
  4. كيف يمكن مقارنة التّجربة اللبنانيّة بتجارب دول متوسّطيّة مشابهة مثل تونس، المغرب، أو إيطاليا؟  
 إذ إنّ بعض هذه الدّول قطعت شوطاً في إدماج السيّاحة الثقافيّة ضمن رؤية شموليّة للتنمية، ما يُتيح مقارنات مفيدة لفهم نقاط القوّة والقصور في النّموذج اللبناني<sup>1</sup>.
- فتح هذه المسارات لا يعني التّشكيك في الجدوى الحاليّة للسيّاحة الثقافيّة، بل يعني إعادة طرح الأسئلة حول ما نعدّه «هويّة» و«تراثاً» و«أصالة»، داخل عالم سريع التّغير، تُعاد فيه صياغة المفاهيم بقدر ما تُعاد صياغة المواقع.

1-سميث، ميلاني ك، وريتشاردز، غريغ، السيّاحة الثقافيّة في عالم متغير: السياسة والمشاركة والتمثيل، كليفيدون: منشورات تشانل فيو، 2006، الصّفحات 216-220.

## المصادر والمراجع

1. -أمين، سمير، (2002)، العولمة والهوية الثقافية، القاهرة، دار العين للنشر.
2. -أوسوالد، هنري، Cultural Tourism and Contemporary Challenge (2018)، لندن: مطبعة جامعة كامبريدج.
3. -بيرمان، بروس، Politics and Tourism in the Arab World. (2017). بيروت، دار الساقى.
4. -بو خليل، شفيق، (2010)، التراث والسياحة الثقافية في الوطن العربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
5. -تابت، ياسمين، (2021)، مكن الحرفيين المحليين في السياحة الثقافية، حالة مدينة فاس، التخطيط السياحي والتنمية، 18(2)، 134-149.
6. -توملينسون، جون، (2005)، العولمة والثقافة (فايز الصياغ، المترجم)، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.
7. -تيموثي، دالن ج.، Cultural Heritage and Tourism: An Introduction. (2011). بريستول، مطبعة تشانيل فيو.
8. -الجميل، بيار، (2008)، الهوية اللبنانية والتحديات المعاصرة، بيروت، دار النهار.
9. -الخطيب، محيي الدين، (2004)، تاريخ لبنان السياسي، بيروت، دار العلم للملايين.
10. -خالد، إيمان. (2020). "سياسة التراث الوطنية والتنمية الثقافية في المغرب". المجلة الدولية للسياسات الثقافية، 26(4)، 471-483.
11. -سميث، ميلاني كاي وريتشاردز، غريغ (محرران)، Cultural Tourism in a Changing World: Politics, Participation and (Re)Presentation. (2006). مطبعة تشانيل فيو.
12. -سيغالا، ماريانا. (2014). "وسائل التواصل الاجتماعي والسياحة الثقافية". في وسائل التواصل الاجتماعي في السفر والسياحة والضيافة، لندن، روتليدج، ص 273-288.
13. -غريتلز، أولريكه وآخرون، "Smart Tourism: Foundations and Developments". الأسواق الإلكترونية، 25(3)، 179-188. (2015).
14. -غريتلز، أولريكه وجمال، تزيم وآخرون، "Creating Augmented Tourism Experiences with Technology". وجهات نظر في إدارة السياحة، 23، 83-86. (2017).
15. -غريتلز، أولريكه وجمال، تزي، "Tourist Consumer Behavior: Concepts". (2018).

- روتلينج. "Opportunities" and Influences. في دليل روتلينج لتجربة السياحة وتسويقها. لندن: روتلينج.
16. كوهين، إريك. "Authenticity and Commoditization in Tourism". (1988). *حوليات أبحاث السياحة*، 15(3)، 371-386.
17. ماكانيل، دين. (1976). *The Tourist: A New Theory of the Leisure Class*. بيركلي، مطبعة جامعة كاليفورنيا.
18. ماكغرينود، دافيد. (1989). "Culture by the Pound: An Anthropological Perspective on Tourism's Commoditization of Culture". *أنثروبولوجيا السياحة*، فيلادلفيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا ص 171-185.
19. هال، ستيوارت. (1990). "Cultural Identity and Diaspora". في الهوية، المجتمع، الثقافة، الاختلاف، تحرير جوناثان رذرفورد، لندن، لورانس وويشوارت ص 222-237.
20. يونسكو، (2016)، الثقافة، مستقبل المدن، باريس، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة.
21. يونسكو (2019). *Tourism and Culture for Sustainable Development in the MENA Region*. واشنطن: مجموعة البنك الدولي.
22. يونسكو، (2022)، الثقافة في أوقات الأزمات، تقرير عالمي، باريس، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة.
23. يونسكو، (2022)، الثقافة في أوقات الأزمات، توصيات سياسية من أجل التعليم الثقافي، باريس، اليونسكو.
24. يونسكو، (2022)، مبادرة ترميم التراث الثقافي في دير القمر، تقرير داخلي، باريس، يونسكو.
25. يونسكو والـ ICOMOS. (2021). *التراث العالمي ومشاركة المجتمعات: دراسة حالة لبنان*. باريس: منشورات يونسكو.
26. يوري، جون ولارسون، يونس، (2011)، *The Tourist Gaze 3.0*، لندن: منشورات ساج.



# القانون الروماني تطوره التاريخي وإسهاماته في تشكيل النظم القانونية الحديثة

## The Roman Law Its Historical Development and Contributions to the Formation of Modern Legal Systems

د. هاني حسن حوماني<sup>1</sup>

Dr. Hani Hassan Houmani

تاريخ القبول 2025 /6/24

تاريخ الاستلام 2025 /6 /5

### ملخص

هذا الموضوع يتناول المقدمة ثم يبحث في التعرف على القانون الروماني ويبين إسهاماته في تشكيل النظم القانونية، ثم يستعرض مراحل تطوره التاريخي وانتشاره عالمياً، كما يتناول عدة مواضيع منها مفهوم القانون وأهميته التاريخية التي يشرحها البحث من عدة أوجه وهي الأسباب التي جعلت من القانون الروماني ذا أهمية دولية، ثم يشرح البحث التطور التاريخي للقانون الروماني الذي يتناول أيضاً المراحل في العصور المختلفة، منها العصر الملكي والجمهوري والإمبراطوري، كما يتناول ذلك التطور بتعمق أكبر، وكيف يتميز من مرحلة إلى أخرى في القانون القديم وفي العصر العلمي وكذلك في مرحلة تجميع القانون الروماني، كما يتناول البحث مصادر القانون الروماني لمختلف العصور والذي يشرح العرف والتشريع وقانون الشعوب والقانون البريتوري والفقه الروماني، ثم يتناول البحث بعض أنظمة القانون الروماني التي تشرح قانون الألواح الإثنى عشر ومجموعة جستنيان القانونية وبعض أنظمة القانون الروماني.

**كلمات مفتاحية:** القانون الروماني، التطور التاريخي، النظم القانونية الحديثة والمقارنة، التأثير الروماني.

1- دكتور محاضر في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة الإسلامية.

## Abstract

This study begins with an introduction, followed by an exploration of Roman law and an explanation of its significance. It then presents the historical stages of its development and its global dissemination. The study addresses several topics, including the concept of law and its historical importance, explained from various perspectives that clarify the reasons behind Roman law's international relevance.

The research also examines the historical evolution of Roman law, covering different periods such as the Monarchical, Republican, and Imperial eras. It delves deeper into how each phase is distinguished, from the archaic period to the classical age, and finally to the phase of legal codification.

Furthermore, the study discusses the sources of Roman law across different historical eras, elaborating on custom, legislation, the Law of Nations, praetorian law, and Roman jurisprudence. It also highlights specific legal systems within Roman law, including the Law of the Twelve Tables, the Justinian Code, and other Roman legal systems.

The research concludes with a summary of findings, recommendations, and a list of references.

**Keywords:** Roman Law, Historical Development, Modern and Comparative Legal Systems, Roman Influence.

## المقدمة

إنّ تاريخ القانون بصفته علماً يعدّ جزءاً لا يتجزأ من المنظومة القانونيّة وأحد المصادر الأخرى للقانون المدني، حيث أظهر ابن خلدون آراءه في الأحداث التاريخيّة المتتابعة والواقعات المتتالية على مرّ الأجيال، أنّ الجانب الفلسفيّ في فكره يتمحور من خلال الشّكل والمضمون، أي من حيث الذات والموضوع والجوهر والظّاهر والصّيرورة والتطوّر في إطار واقعيّ وعقلانيّ في تطوّر المجتمعات<sup>1</sup>، لذلك نجد أنّ نشأة القانون الرّومانيّ كغيره من القوانين القديمة مرّت بعدة مراحل متأثراً بالبيئة الاجتماعيّة في مدينة روما ثم

1- إبراهيم عبدا الله عيسى، المنهجية المعاصرة لابن خلدون، الطبعة الأولى، صنعاء، ٢٠٠٦م، ص ٥٦.

انتشر إلى إيطاليا ثم إلى معظم الإمبراطورية الرومانية حتى أصبح مصدرًا لكثير من القوانين العالمية في العصر الحديث ومنها في اسكتلندا وإفريقيا الجنوبية، وعليه سوف نتناول البحث على النحو الآتي:

### الإشكالية

ما مدى تأثير تطوّر القانون الروماني عبر العصور في تشكيل وتأسيس المبادئ الجوهرية للنظم القانونية الحديثة، وما أوجه التشابه والاختلاف بينه وبين تلك النظم؟

### أهمية الدراسة

تظهر الأهمية للقانون الروماني في اهتمام الجامعات في مختلف البلدان، فالقانون الروماني تميّز عن غيره من القوانين المعاصرة بطبيعته القانونية التي طبقت في العصور القديمة.

ثالثًا: أسباب اختيار موضوع الدراسة

إنّ الحاجة لمعرفة القانون الروماني تكمن في الآتي:

إعطاء مفهوم وتعريف للقانون وتبيان مراحل تطوّره التاريخي.

– إسهاماته في تشكيل النظم القانونية

– أسباب انتشاره السريع عالميًا.

– إظهاره كمصدر لكثير من القوانين الغربية.

### أهداف الدراسة

1. دراسة أحد أهم القوانين القديمة ومعرفة مراحل تطوّره الحضاري.

2. التّعرف على مدى تأثره وتأثيره في القوانين وعلى الأفراد والشعوب لتلك الحضارات القديمة.

3. استعراض القواعد القانونية المختلفة وما يميّزها عن القوانين خلال مراحل التاريخ الحضاري

4. الأخذ به كمرجعية للقوانين القديمة ومصدر للقوانين الغربية.

5. عرض الأسباب العمليّة والعلميّة التي جعلته أكثر ازدهارًا و قابلية بين الشّعوب.

### منهج الدّراسة

اعتمدتُ على المنهجية المتبعة للبحث العلميّ والأكاديميّ وخاصة المنهج التّاريخيّ البحثيّ والاستنباطيّ.

### خطة الدّراسة

يتألّف هذا البحث من مقدمة وأربعة عناوين رئيسة وخاتمة وتوصيات وقائمة بالمراجع، ولأجل التّوصل إلى معرفة القانون الرّومانيّ لابد لنا أن نحدد تعريفه وأهميته وتطوّره ومصادره وأنظّمته وذلك على النّحو الآتي:

أولاً : تعريف القانون الرّومانيّ وأهمية إسهاماته.

ثانيًا: التطوّر التّاريخيّ للقانون الرّومانيّ.

ثالثًا: مصادر القانون الرّومانيّ.

رابعًا: أنظمة القانون الرّومانيّ.

### أولاً: تعريف القانون الرّومانيّ

يعرف بأنّه مجموعة من القواعد القانونيّة التي تحكم سلوك الأفراد في الجماعة التي يتعيّن عليهم الخضوع لها ولو بالقوّة إذا لزم الأمر، ومنذ إنشاء روما العام 754 ق.م حتى القرن السّادس الميلاديّ حيث توفي الإمبراطور جستنيان العام 565 ق. م .

### أ - إسهامات القانون الرّومانيّ

إنّ دراسة القانون الرّومانيّ في الجامعات في العالم دليل على تلك الأهمية التي تكمن في قواعده القانونيّة، وهذه الأهمية تبرز المكان والمصدر القانونيّ لكثير من قوانين العالم مثل قوانين فرنسا وألمانيا، وهناك دول أخرى أخذت بالقانون الرّومانيّ، خاصة القوانين المدنيّة التي تأثّرت بعض الدّول العربيّة وخاصة في الحقبة الاستعماريّة والتي أخذت به إلى جانب إحكام الشريعة الإسلاميّة بالدرجة الأساسيّة، فإذا نظرنا إلى المجموعة القانونيّة المدنيّة المصريّة الصّادرة في سنة 1948م يظهر أنّها أخذت بالقانون الفرنسيّ

المستمد من القانون الروماني، وكذلك أيضاً بالقوانين الجرمانية كالقانون المدني الألماني والقانون السويسري اللذين تأثرا بالقانون الروماني<sup>1</sup>.

## ب - أسباب أهمية القانون الروماني

تكمن الأسباب على النحو الآتي:

### 1. القانون الروماني أسباب علمية

تمكن الفقهاء الرومان أن يضعوا علماً يختلف عن بقية العلوم الاجتماعية، كالدين والفلسفة والأخلاق حيث عدوا القانون علماً مستقلاً وذلك من خلال الأسس العلمية التي تقوم عليها دراسة القانون، وما زالت هذه الدراسات هي العماد التي تقوم عليه الدراسات القانونية الحديثة<sup>2</sup>.

### 2. أسباب عملية

ما زالت كثير من الدول الأوروبية المعاصرة تطبق القانون الروماني سواء من حيث المدلول والصياغة والمصطلحات، وإن المبادئ الجرمانية والانجلوسكسونية أو نظم العصور الوسطى إلى القانون الروماني، وظل إلى إن ظهرت متغيرات أدت إلى وجود تعديلات، وخاصة في القرن الثاني عشر ظهرت مجموعة جستنيان والتي تأثرت بها أوروبا واقتبست منها قوانينها<sup>3</sup>.

وتعرض للسقوط وخاصة في الدول الرومانية الشرقية عندما سقطت معظم أجزائها في أيدي المسلمين في القرن السابع الميلادي حتى وصول المسلمين إلى كل الدول التي كانت خاضعة للرومان مثل آسيا الصغرى وغيرها<sup>4</sup>.

## ثانياً: التطور التاريخي للقانون الروماني

تختلف كل مرحلة من مراحل تطور القانون الروماني عن المرحلة الأخرى بسميزات عديدة، وفي الغالب يسود كل مرحلة جديدة أسلوب الأفضلية عن سابقتها وذلك بوجود

1-Reinhard Zimmermann, The law of Obligations: Roman Foundations of the Civilizing Tradition, Oxford University Press, 1996, Page. (1004 – 1100).

2-Alan Watson, the spirit of Roman Law, University of Georgia Press, 1995, p.51.

3-A. Watson, The Spirit of Roman Law, p) 101 – 150)

4-صوفي أبو طالب ، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1975م، ص 298.

صبغة جديدة ومميزة، وهذا ما عكس على المجتمع تطورا في القاعدة القانونية الجديدة، ولو نظرنا إلى نظام الحكم الملكي كيف تحول إلى جمهوري ثم إلى نظام حكم مطلق وهذا يكفي كدليل للتطور القانون الذي لامس الواقع الاجتماعي، وقد خصص هذا لدراسة تطور القانون الروماني، وذلك على النحو الآتي:

#### – لمحة تاريخية لتطور القانون الروماني

يبدأ هذا العصر بنشأة روما وقيام النظام الجمهوري العام 509 ق.م وهذا ما سوف نتناوله على النحو الآتي:

#### أ – العصر الملكي

تعدّ العشيرة هي الوحدة الاجتماعية والسياسية الأولى، فالشعب الروماني يتكوّن من عدّة عشائر وذلك قبل الغزو الاتروسكي لهم وتأسيس المدينة، وكلّ عشيرة تتكوّن من عدد من الأسر ويسمون بأفراد العشيرة وتحت اسم واحد هو مؤسس العشيرة ولكل فرد اسم آخر يحمل صفاتهم التي تميزه عن غيره من الناس، وعدّت العشيرة الرومانية الأفراد الذين تم الاستيلاء عليهم سواء بحرب أو بغيره، والذين يعدّون عبيد وموال وأجانب وغرباء أعداء ومهزومين وتابعين للعشائر طالما هم في أوساط المجتمع الروماني، حيث أدى ذلك إلى ظهور نظام المدينة الذي ظهر عندما استولى الاتروسك الرومان جعلوا من روما وحدة سياسية ومكانا للسلطان ومجمع لجميع العشائر، ومن ثم ظهر نظام العصر الملكي، وظهرت فيه ثلاث هيئات تحكم روما وهي: الملك، ومجلس الشيوخ، ومجلس الشعب، نتناولها على النحو الآتي:

#### ب – الملك

يعدّ الملك رأس السّلطة في المدينة، وصاحب السّلطة العامة فيها ويتولّاها مدى الحياة وإن اتفق أنّ الملك ليس بالوراثة بل كان الملك يعين بواسطة سلّطة، فإذا لم يقم الملك بتعيين من يخلفه في الحكم، يتم هذا التّعين بواسطة مجلس الشيوخ ويسمّى بالوسيط بحيث يقوم مجلس الشيوخ بانتخابه لهذه المهمة وكان الملك يعيّن أحد أعضاء مجلس الشيوخ ملكاً بعد وفاته<sup>1</sup>.

1-Joseph A. C. Thomer, Textbook of Roman law, North Holland Publishing Company, 1976, p 321 – 400

## ج - صلاحيات الملك

يعدّ الملك هو الرئيس الأعلى وله الرئاسة الدينيّة والقضائيّة ويقود الجيش والسلطات الإداريّة ويدعو المجلسين إلى الانعقاد وهو من يقوم بدور المرشد للعبادة الدينيّة للمدينة وهو الوحيد الذي يستلم الأشياء المقدسة ويعدّ أيضاً الرئيس القضائيّ الذي يعاقب على الجرائم العامة أما المنازعات المدنيّة فلها هيئة خاصة تختص بالحكم في المنازعات المدنيّة تسمى هيئة التحكيم الخاص<sup>1</sup>.

## د - مجلس الشيوخ

كان أعضاء هذا المجلس على الأرجح من بين رؤوسا العشائر ويزداد أعضاؤه بنفس عدد العشائر وقد وصل عدد الأعضاء إلى ٣٠٠ عضواً وهذا المجلس يتولّى التصديق على قرار مجلس الشعب الذي لم تكن قرارته ملزمة إلا بعد مصادقة مجلس الشيوخ عليها، ويعدّ هذا من أهم اختصاصات مجلس الشيوخ في العهد الملكيّ حتى فقد كثيراً من هذه الاختصاصات تدريجياً منذ بداية العصر الجمهوري<sup>2</sup>.

## هـ - مجلس الشعب

يتكوّن هذا المجلس من سكان المدينة الأحرار والقادرين على حمل السلاح للدّفاع عن الوطن، وكان يطلق عليهم الشعب الرّومانيّ الأصيل أي الذي يتكوّن من القبائل الثلاث التي تكوّنت منها المدينة وقد انقسم الشعب إلى ثلاثين وحدة وكان لكل قبيلة وحدات اجتماعيّة، وهذه الوحدات كانت أساس النّظام السياسيّ والإداريّ والعسكريّ، والرّاجح بين شارح القانون الرّومانيّ أنّه لم يكن لتلك المجالس اختصاص في تعيين الملك كما لم يكن لها اختصاص تشريعيّ، ولكن موافقة مجلس الشعب كانت واجبة، وهذا المجلس في الإشراف للعامة وبعد أن تطوّرت المدينة بدأ يحصل تعديل حتى أصبح العامة لهم الحقّ في العضويّة<sup>3</sup>.

1-W.W. Buckland, A Textbook of Roman law from Augustus to Justinian, Cambridge University Press, Reprint edition, 2007, p. (121 - 200).

2-توفيق حسن فرج : القانون الروماني، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، بيروت 1985م، ص 16.  
3-R. Zimmermann, The law of Obligations., p. (902-1003)

## 1. العصر الجمهوري

يتحدّد هذا العصر في المدة الواقعة بين العام 509 ق.م 27م حيث تشير الدّراسات إلى أن تسمية هذا العصر لا تتوافق مع العمر الزّمنيّ لأن مصطلح الجمهوريّ من المصطلحات الحديثة إلا أنّها قد تعود إلى اسم شخص يدعى (جمهور) الذي أحدث ثورة شعبيةً وخلال هذه الحقبة تحوّل النظام من ملكي إلى جمهوري، ما أدى إلى انكماش سلطة الملك وسلطة الحكام المختارين من الشعب حتى ظهرت أجهزته التي تدير النظام السياسيّ في هذا العصر وهي على النحو الآتي:

## 2. القنصلان

يتم اختيار القنصلين من مجلس الشعب ومدة ولايتهما سنة واحدة فقط ويتساوى القنصلان في المهام إلا أنّ الحاجة إلى وجود حكام آخرين كانت مسألة ضرورية، وذلك بسبب اتساع الدولة بالسكان أدى إلى توسعة المجالس الشعبية وتكليفهم اختصاصات تتعلق بالشؤون الإدارية والقضائية والسياسية والعسكرية وأولئك الحكام يتم اختيارهم من المجالس الشعبية وهم على النحو الآتي :

## 3. حكام الإحصاء

يتم انتخاب اثنين فقط من مجلس الشعب لهذه الوظيفة لمدة خمس سنوات وتحدّد اختصاصاتهم بإحصاء كل المدن والقرى والهدف من ذلك رصد الضرائب ومعرفة العمر لأجل الاستفادة من الشباب في الخدمة العسكرية التي تعدّ شرفاً كبيراً للروماني ولا يسمح لغيرهم في هذا الشرف كما يعملون على إحصاء كل من ارتكب الجرائم العديدة من الرومان، ويحرم من هذا الشرف والأداء الوطني المقدس (الخدمة العسكرية)<sup>1</sup>.

## 4. الحاكم المدقّق

يتم انتخاب الحكّام عن طريق المجالس الشعبية على أن يكون عددهم أربعة يعملون في هذه الوظيفة حتى تطوّر العدد إلى عشرين موظف، ويتم لمدة سنة فقط وتحدّد وظائفهم في التّحقيق الجنائيّ والمسائل الجنائيّة.

1-A.Waston, The Spirit Roman Low, p 160.



## 5. الحاكم القضائي (البريتور)

يختصّ هذا الحاكم في النّظر في القضايا المدنيّة حيث كانت هذه الوظيفة محدّدة لحاكم واحد فقط يسمى بريتور المدينة إلا أنّه تمّ تعيين بريتور آخر يختصّ لقضايا الأجانب وتستمر مدة الوظيفة ثمانية عشر شهراً كما يعد بريتور المدينة حاكم قضائي للولاية.

## 6. حكام الأسواق

أنشئت هذه الوظيفة لأجل إدارة أعمال الشرطة في المدينة والإشراف على الأسواق والملاعب العامة ومراقبة بيع العبيد والمواشي، كما يحقّ لهم فرض العقوبات وخاصة الغرامة المالية لمخالفي القانون.

## 7. حكام آخرون

يتم اختيارهم من المجالس الشّعبيّة حكما آخرين بوظائف الحماية الأمنيّة لمدنيين ومراقبة الغش وجباية الضرائب والغرامات والحفاظ على خزانة الدّولة وتنظيم النفقات<sup>1</sup>.

## أ. العصر الإمبراطوريّ

إنّ التّطوّرات التي حصلت في الأنظمة الرّومانيّة قد أظهرت نموّاً جديداً في المصطلحات القانونيّة مثل الإمبراطور، وهذه الكلمة تعني العظيم، وجا الإمبراطور بديلاً عن القنصلين اللذين يحكمان الدّولة حتى صارت السّلطة لشخص واحد هو الإمبراطور الذي ينفرد بالمهام السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة كافة وفرض سلطاته على الناس جميعهم، إلا أنّ مجلس الشيوخ مازال كما هو لم يتغيّر، وبعدّ الشريك في الحكم، ولكن أصبحت صلاحيّاته أقلّ مما كانت عليهم من مهام، أي أنّ الإمبراطور وضع قانوناً حدّد الاختصاصات التشريعيّة والإداريّة والماليّة، وظهر في هذا العهد تطوّر جديد على نطاق قانون العقوبات وخاصة على الرّزاني والملحد، وطبق قانون الوصية وجعل من طبقة الملاك بالمرتبة الأولى في المجتمع<sup>2</sup>.

1-صاحب عبيد الفتلاوي، تاريخ القانون، مكتبة الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 1998، ص 115 - 116.  
2-غسان رباح، تاريخ القوانين والنظم الاجتماعيّة، الطبعة الأولى، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 1956، ص 56.

## ب. مراحل تطوّر القانون الروماني

المراحل التي مرّ بها تاريخ تطوّر القانون الروماني نستعرضها من خلال تقسيم هذه المراحل إلى ثلاثة تقسيمات وهي على النحو الآتي:

### - المرحلة الأولى: القانون القديم

تشمل هذه المرحلة مدّة العصر الملكي والعصر الجمهوري فقد كان القانون ينسب إلى الملوك ويظهر بصورة بدائية، حيث اعتمد في بادئ الأمر على الرعي والزراعة واتّسم بالقوة ومن ثم ظهر قانون الألواح الإثنى عشر الذي يتضمّن مائة مادة قانونية وسوف نستعرض هذا القانون بالتفصيل لاحقاً.

### - المرحلة الثانية: العصر العلمي

سمي هذا العصر بالعلمي نسبة إلى ظهور كثرة العلماء فيه، وهذا لم يأت إلا بعد تطوّر سمي ملحوظ في كافة المجالات من ازدهار وغيره ومن القوانين التي ظهرت في هذه المدّة قانون إيبوتا وانتهت بحكم الإمبراطور (دقلديانوس) العام 284م، والذي أدخل نظام الدّعى الكتابية والتّخلص من الشكليات التي وجدت على القانون الروماني وخاصة في تقسيم القوانين وبيان الحلول للمشكلات.

### - المرحلة الثالثة: تجميع القانون الروماني

تبدأ هذه المرحلة من العام 565م بوفاة الإمبراطور جستنيان حيث تدهور الوضع الثقافي والقانوني وابتعد رجال القانون عن الاجتهاد وسادت الروح العسكرية وساد مبدأ الديكتاتورية (مركز السّطة) وأصبحت إرادة الأباطرة هي القانون، حيث ظهرت الصورة الديكتاتورية على نمط الحكم مما أدى إلى انهيار المجتمع من الداخل والخارج وبالتالي ظهرت مجموعة لإنقاذ القانون والعمل على تجميعه ومن بين القوانين التي تم تجميعها هي مجموعة جستنيان القانونية<sup>1</sup>

### ثالثاً: مصادر القانون الروماني لمختلف العصور

من أهم المصادر الأساسية للقانون الروماني المعاصر قانون الألواح الإثنى عشر ومجموعة الإمبراطور جستنيان القانونية وسوف نشير عنها لاحقاً حيث تشير الدّراسات

1- منذر الفضل، تاريخ القانون، الطبعة الأولى، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 1996م، ص 116.

القانونية أنّ مصادر القانون الرّومانيّ كانت متعدّدة ويمكن حصرها على العصر الملكيّ والجمهوريّ والإمبراطوريّ<sup>1</sup> وسوف نتناول النّقاط التّالية:

## أ. العرف

كان العرف لدى الرّومان مثل بقية الشّعوب القديمة وهو أقدم وأهم مصادر القاعدة القانونية حيث ظل العرف يحتفظ بهذه المكانة العالية حتى بداية عصر الإمبراطورية السّقلى حينما أصبح للتّشريع المقام الأول بين مصادر القانون وعليه فإننا سوف نتناول النّقاط التّالية:

### 1. العرف في العصر الملكيّ

تكوّن العرف من مزيج من العادات والتّقاليد القبليّة التي استوطنت روما وخاصة التّقاليد التي تأتي من طبقة الأشراف الرّومانيّة دون تقاليد العامة على أن تكون وثيقة بالدين كحاصل لها، حيث كان الجزاء على من يخالف العرف وتطبق عليه العقوبة المتعارف عليها في العرف وتكون الأحكام في سرّيّة من قبل رجال الدين فقط، ومن ثم أخذ العرف يتطوّر بسبب كثرة المساحة السّكانيّة ومن ثم تطوّر في طبيعة الصّيغة القانونية التي أسبغ عليها الكهنة صفات سرّيّة ودينيّة إلى أن ظهر هناك تطوّر في المجتمع أدّى إلى تعديل العرف.

### 2. العرف في العصر الجمهوريّ

بظهور قانون الألواح الإثنتي عشر في منتصف القرن الخامس ق. م أدى تطوّر القانونيّ إلى تغيير طبيعة الالتزام في القاعدة العرفيّة فلم تكن القاعدة العرفيّة تستمدّ قوّتها الإلزاميّة من أصلها الدينيّ بل من رضا النّاس عنها وأصبح الجزاء الذي كانت تفرضه بواسطة أصلها الدينيّ إلى الطابع المدنيّ، ومن يخالف ذلك يترتب عليه الجزاء، وأيضاً لم تعد تخصّ طبقة الإشراف بل العامة أيضاً، وفي هذا العصر أسهم الفقهاء في تطوير الصّيغة القانونية وأسلوب الدّعاوي، ومن أشهر هذه المجموعات مجموعة (فلافيوس) العام 304 ق. م ثم شملت القواعد التّشريعيّة أيضاً وهذا بدوره أدّى إلى تطوير القاعدة العرفيّة<sup>2</sup>.

1- Borry Nicholos, An Introduction to Roman Law, Oxford University Press, 1962, P(1 – 30).

2- B. Nicholer, An Intro to Remon Law ,P(61 – 120)

### 3. العرف في عصر الإمبراطورية العليا

ظلّ العرف كما هو في العصر الجمهوري أيضاً في عصر الإمبراطورية العليا، إذ ظهر فيه من استطاع أن يعمل على التعديل، ففي هذا العصر تم استحداث وتعديل وإلغاء كثير من القواعد ومثال على ذلك ظهور الأعراف المحلية بجانب الأعراف العامة.

### 4. العرف في عصر الإمبراطورية السفلى

لم يكن هناك مصادر أخرى غير إرادة الإمبراطورية التي استطاعت بقوتها عدم إعطاء الحق للأقاليم في التعديل أو الإلغاء أو ما إلى ذلك، ويطبق العرف إذا لم يتعارض مع إرادة الإمبراطور وقراراته.

#### ب. التشريع

يفهم التشريع بأنه: قاعدة قانونية محددة وصادرة من سلطة مختصة بالتشريع والتي أدت دوراً بارزاً في تطوير القانون الروماني حتى عصر الإمبراطورية السفلى، وحينئذ أصبح التشريع المصدر الوحيد للقانون والعرف لا يعدّ مصدرًا إلا عند العودة إليه في حالة خلو التشريع من القاعدة القانونية<sup>1</sup> وسوف نتناول التشريع في العصرين الملكي والجمهوري وذلك النحو التالي:

#### 1. التشريع في العصر الملكي

لم تشر الدراسات إلى التشريع القديم وإنما إلى التشريع الجديد الذي أدى دوراً في تطوّر القانون حيث أشارت الدراسات إلى أن صدور تشريعات ملكية كانت غير مألوفة، ولكن صدورها على أرض الواقع شكّل لها أهمية اجتماعية وإن كان في طابعها الشكل الديني، وهي عبارة عن أوامر ملكية صدرت من الملك بصفته يعد رأس الكهنة وهي أعلى مرتبة دينية لا يتقلدها غير الملك<sup>2</sup>

#### 2. التشريع في العصر الجمهوري

اتّخذ مجلس الشعب التشريع كمصدر أساسي للقانون حيث قدّم هذا كمقترح إلى مجلس الشيوخ وطالبهم بالمصادقة عليه على أن يصدر باسم الحاكم، وينقش ذلك على ألواح

1- R. Zimmerman, The law of Obligations, P. (1-25)

2- صوفي أبو طالب، مرجع سابق، ص 326.

خشبيّة أو الأحجار أو البرونز ويعلّق في ساحة الإعدام، حيث عرف في ذلك العصر شكل القانون حيث اشتمل كل قانون على ثلاثة أجزاء وهي المقدمة والنّص المقدم وهو التّعريف بالقانون ثمّ الجزء، ففي المقدمة ديباجة متعارف عليها عند أهل القانون والعرف القانوني ومن ثمّ اسم الملك والحكام من مجلس الشيوخ والشعب وأيضًا يضعون تاريخ الإصدار وعدّ ذلك نموذجًا في الأحكام التي تصدر في المحاكم<sup>1</sup> وفي ذلك العصر ظهرت كثير من القوانين وهي على النّحو الآتي:

- قانون كانوليا: صدر هذا القانون العام 245 ق م وأباح حرية الزّواج بين طبقة الزّواج وطبقة الإشراف وطبقوه العامة.
- قانون بركيليا: الذي صدر العام 204 ق م وقيد هذا القانون من حالات إلقاء اليد والتنفيذ على جسم المدين.
- قانون اكوبيليا: صدر العام 286 ق م ونظم هذا القانون جريمة الاعتداء على مال الغير أي فيما يتعلق بالمسؤولية التقصيرية.
- قانون ايوتياء: وهو من أهم القوانين التي صدرت في العصر القنصلي فقد أدخل هذا النّظام المرافعات الكتابيّة القائم على نظام البرنامج وهو عبارة عن محور يحزّره الحاكم القضائي ويحدّد فيه موضوع النّزاع ومهمة القاضي بناء على طلب الطّرفين وكان لهذا القانون أثر كبير على تقدم القانون الخاص.

ذكر المؤرخون في عصر الإمبراطوريّة بعض القواعد المنظمة للعلاقات الفرديّة في هذا العصر، حيث كانت تصدر من مجلس الشعب أو مجلس الشيوخ إلى جانب القرارات التي تصدر عن القناصل، وكانت تلك القرارات تأخذ شكل إعلان يرجع إليه أفراد الشعب ويعملون به، وهذه القرارات لا تعدّ إلزاميّة لأنها لا تتضمن أي جزاء للشخص الذي يخالفها، والفتاوى في ذلك يصدرها الحكام والملوك هي صدر من صدور الدساتير الإمبراطوريّة وهي تتضمن الآراء الفقهيّة وهذه الآراء تكون فقط ملزمة للقاضي. وفي هذا العصر بدأ التّشريع يتراجع عن أهميته حيث فقدت المجالس العامة اختصاصاتها بالتّشريع منذ أواخر القرن الميلادي الأول وانتقل هذا الاختصاص إلى مجلس الشيوخ ثمّ انتقل في أوائل القرن الثّالث الميلادي إلى الإمبراطوريّة ثم فقد التّشريع صلاحياته تمامًا

1- صاحب عبيد الفتاوى، تاريخ القانون، مكتبة الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 1998، ص 134.

عندما أصبح المصدر الأساسي هو إرادة الإمبراطور<sup>1</sup>.

## 1. قانون الشعوب

كان ثمة اعتقاد خاطئ لدى الرّومان من ناحية الأجانب ولذلك كان الأجانب لا يتمتعون بأي حماية قانونية ولا قيمة لهم في نظر الرّوماني ولا يطبق عليهم القانون الرّوماني لأنه مقصور على المواطنين الرّومان فقط، وبعد تطوّر العلاقات ذات الطّابع الدبلوماسية أصبح للأجانب بعض الحماية ثم تطوّرت الحماية الأجنبية بعد عصور عديدة، حيث كان الأجنبي يعقد اتفاق مع الرّوماني ويظل تحت حمايته.

خلال العصر الجمهوري عقدت روما بعض المعاهدات مع الدّول المجاورة حيث اعترفت فيها برعاية الأجانب في روما وتشمل هذه الرعاية مثل حق التقاضي وحق الزّواج من الرّومان ، وفي العام 242 ق . م تم تعيين بريطور خاص للأجانب وقضاياهم وعلاقتهم مع الرّومان ، وأخذت الأمور في هذا المنحى حتى أواخر القرن الميلادي الأول اكتسب كل أبناء إيطاليا الجنسية الرّومانية وافترق مدلول الأجنبي على سكان الإمبراطورية خارج إيطاليا حتى العام 212 ق . م ومنح الجميع الجنسية الرّومانية ولم تكن هناك تفرقة بين الأجنبي والرّوماني، أما الأشخاص الذين لا ينتمون إلى الإمبراطورية الرّومانية فكان يطلق عليهم البرابرة أي الأعاجم مثل الجرمان وسكان شمال إفريقيا وأولئك لا يستحقون أية حماية قانونية داخل الإمبراطورية الرّومانية<sup>2</sup>.

## 2. لقانون البريتوري

كانت السّلطة الخاصة بالبريتور هي السّلطة الإدارية والأوامر إلى الأفراد بحكم أنه الحاكم العام للسّلطة القضائية التي تتمثل بإحالة النزاع إلى القاضي المختص لغرض الفصل فيها دون أن يكون للبريتور الحق في منع أو رفض دعوى لا يقرها نظام الدّعاوي غير أنه بصدر قانون ايبوتيا العام 130 ق.م ازدادت سلطات البريتور القضائية بفضل وجود نظام المرافعات الكتابية والذي أجاز فيه للأفراد اللجوء إلى هذا القانون أو إلى نظام الدّعاوي، ثم تم تعديل هذا القانون عندما استطاع البريتور أن يدخل بعض المبادئ الجديدة بواسطة منشوره الذي عد من أهم المصادر للقانون الرّوماني خلال المدّة التي

1-W.W. Buckland, A Textbook of Roman Law from Augustus to Justinian, p

2- علي محمد جعفر، تاريخ القوانين والشرائع، الطبعة الأولى، دار المسيرة للطباعة والنشر، بيروت 1982، ص

تلت صدور قانون ايبوتيا حتى أوساط عهد الإمبراطورية العليا<sup>1</sup>.

### 3. الفقه الروماني

احتكر رجال الدين الفقه في العصور الأولى القانون الروماني حتى لا يعلمه أحد من العامة، واستشعارهم أن هذا القانون من المقدسات الإلهية التي لا يجوز معرفتها إلا من المقربين من الإله وبقي هذا الاعتقاد سائداً حتى القرن الرابع ق. م إذ بدأ الفقه المدني يحل محل الفقه الديني وكان ذلك بنشر صفة الدعاوي الرسمية التي كان يحتكرها رجال الدين، وكانت مهمة الفقهاء تنحصر في الوظائف الأساسية الآتية:

الإفتاء: هي الإجابة عن الاستشارات التي يقوم بها الأفراد أو الفقهاء أو الحكام أنفسهم، ولم تكن الفتاوى ملزمة للبريتور ولكنه كان من الناحية العملية يتبعها إذا صدرت من فقيه له مكانته<sup>2</sup>.

التوثيق: هو إرشاد المتقاضيين إلى كيفية تحرير العقود وجميع التصرفات القانونية التي كانت تستلزم استعمال عبارات معينة<sup>3</sup>.

المقاضاة: لم يقصد بها الدفاع عن الأفراد أمام القضاء إنما يقصد بها مساعدة الأفراد في صنع الدعاوي التي تحمي حقوقهم عن طريق تدعيم الفقيه لرايه الاستشاري الذي أبداه لصاحب المصلحة. وقد استطاع خلق قانون جديد يقوم كالقانون القديم على العرف، لكنه يتميز عنه بقابليته للتطور والتطبيق في حالات وظروف جديدة وأطلق عليه بقانون الفقهاء لأنه كان يقوم خاصة على الإفتاء. ظهر فقهاء القانون القديم ومن بينهم الفقيه باتيس والفقيه كاتو الذي نال شهرة واسعة في المجال السياسي والخطب السياسية وترك مؤلفات كثيرة في التفسير الفقهي والقانون المدني<sup>4</sup>.

ازدهر العصر العلمي بنشاط الفقهاء وخاصة من ناحية الإفتاء والتأليف وانقسم الفقهاء منذ عهد الإمبراطور أغسطس إلى مدرستين متنافستين هما مدرسة السابينين ومدرسة الروكوليين، واستمر هذا الانقسام أكثر من مائتي عام ولم تخف حدته إلا عندما

1-R. Zimmermann, The Law of Obligations, P. (1- 25).

2-A. Waston, The Spirit of Roman Law, P: 150.

3- R. Zimmermann, The Law of Obligations: Remon Foundations of the Cinction Tradition, P, 17

4-R. Zimmermann, The Law of Obligations. P. 999 – 1003.

جمع الإمبراطور هادريان زعماء المدرستين في مجلسه الاستشاري، ومؤسس المدرسة السابينية هو كايبتور ولكتها سميت باسم تلميذه سابينوس ومؤسس المدرسة البروكوليه هو الفقيه لابيوس وسميت باسم تلميذه بروكلوس ويرجع سبب الخلاف بين المدرستين إلى العقيدة السياسية لمؤسسي هاتين المدرستين فالأول يؤيد النظام الإمبراطوري الجديد والحفاظ على التقاليد وحرفية النصوص، أما الثاني فكان مؤيداً للنظام الجمهوري القديم وهو من دعاة التجديد من الناحية القانونية<sup>1</sup>.

### رابعاً: أنظمة القانون الروماني

تعدّ دراسة الأنظمة الرومانية مرجعاً لا بد منه لمعرفة المصادر القانونية -ليس للقانون الروماني بصفة عامة - بل لكل قانون على حدة حيث نجد أنّ الأنظمة التي سادت المجتمع الروماني تجدها تارة متطورة في قانون ومتخلفة في الآخر إلى أن تطوّرت بمراحل زمنية مختلفة مثل مرحلة القانون القديم ومرحلة العصر العلمي ومرحلة تجميع القانون الروماني، وعليه فإننا سوف نتناول فيه أبرز النقاط التالية:

#### أ. قانون الألواح الاثني عشر

إذا كان العرف في العصر الملكي قد لا يعدّ المصدر الأول للقانون الروماني إلا أنّه لم يعد يثق بأحكامه وذلك لعدم تدوينه ولما أحاط بتطبيقه دعا إلى المطالبة بتدوين القواعد العرفية في قانون مكتوب ومن ثم توصلوا إلى إصدار قانون الألواح الاثني عشر والذي عدّ أول قانون إلا أنه كان هناك كثير من الشك والغموض في قواعده العرفية، حيث أظهر القانون التقسيم الاجتماعي فرجال الدين لهم طبقه وكذلك طبقة الإشراف طبقة مستقلة عن طبقة العامة<sup>2</sup>.

عدّ قانون الاثني عشر كأول قانون دون العادات والأعراف الرومانية شأنه شأن القوانين المدونة القديمة إلى أن داسته أقدام الغزاة فلم يتبق من أصوله شيء في حينه وذلك بسبب الحريق الذي حدث سنة 390 ق م على يد قبائل الغال وهذا الحريق التهم كل شيء من ذلك القانون، إلا أن نصوص القانون أعيدت من جديد وتم صياغتها بصيغة أكثر عصرية عما كانت عليه دون المساس بأحكامه الموضوعية ومبادئه الجوهرية وخلال

1- عباس العودي، تاريخ القانون ، دار الثقافة للنشر والتوزيع الأردن ، الطبعة الأولى 1998، ص 196.

2- توفيق حسن فرج ، مرجع سابق، ص 26.



العصر العلمي تم اخذ آراء المؤرخين والخطباء الرّومان الذين كان لديهم نصيب ملحوظ في دنيا القانون وعلى رأسهم الفيلسوف شيشرون وقد جمعت نصوص هذا القانون المتناثرة تحليلات فذة من جانب الفقهاء الرّومان المحدثين.

في مجال إبراز فكرة الرّبط ما بين القوانين المدونة القديمة حيث إنّ واضعي قانون الألواح الاثني عشر ذهبوا إلى أثينا وأطلقوا قانون صولون وضمنوا قانونه كثيرا من أحكامه وقد ذكرنا من قبل أن صولون استلهم كثيرا من أحكام قانونه من قانون بوكخريس وأنّ هذا القانون استمد بعض قواعد من قانون حمو رابي، هذا من جهة ومن جهة أخرى رأي يقول بأن الرّومان سمعوا عن القانون المصري وخاصة قانون بوكخريس حيث أشادوا به كثيرا من قبل الفيلسوف هيرودوت الإغريقي الذي نشر ذلك في احتفالات الاولمبية فقاموا بالتّعرف على القانون ومن ثم اقتبسوا كثيرا من نصوصه وقواعده إلا أنهم عدوه أول قانون مدون لديهم هو قانون الألواح الاثني عشر<sup>1</sup> وسوف نتناول هذا القانون على النّحو الآتي:

### ب. الأحكام الخاصة في قانون الألواح الاثني عشر

يعد قانون الألواح الاثني عشر أساس القانون الخاص والعام عند الرّومان وقد استمر كذلك حتى وضع مجموعة جستنيان القانونيّة حيث اتخذ أساسا لتلك المجموعة. وفي هذه الأثناء كان للعرف أيضًا دور ظهر في أحكام القانون الاثني عشر وبصفة أساسية في القانون الخاص وإذا استثنينا بعض النصوص المتعلقة بالقانون العام والأحكام الدنيّة (الجرائم العامة والمراسيم الواجبة الخاصة بالجناز). ركز القانون على المرافعات والنّظام والقضايا والدّعوى المدنيّة أما بشأن نظام الأسرة هناك نصوص قليلة وكذلك اهتم القانون بالحقوق والذمة الماليّة وكيفية انتقالها من المتوفى إلى الآخرين عن طريق الوصية والميراث والأموال التي تنتقل عن طريق الخلافة، وكذلك ركّز القانون على تنظيم الملكيّة الرّاعيّة<sup>2</sup>.

### ج. نظام الدّعاوي لقانون الاثني عشر

يقوم نظام الدّعاوي على الرّسميّة إذا كان يتعين على الخصوم التّفوه ببعض العبارات

1- محمود السقا، فلسفة وتاريخ النظم الاجتماعية، دار الفكر العربي جامعة القاهرة، 1978م، ص 135  
2-B. Nicholos, An Introduction to Romon Low, p. 160-220.

الرسمية وتأدية أشارات شكلية بحيث إنه إذا أخطأ أحدهم في أدائها تترتب على ذلك ضياع حقوقه التي يطالب بها ومن ثم كان الناس يلجأون إلى أولئك قبل القضاء لمعرفة ماذا يترتب على نوعية الدّعى المطالب بها، وفي هذا يقوم القاضي بسماع الادعاءات الرسمية التي يقرها الطرفان مع مراقبة الإشارات التي حصل عليها من قبل رجال الدين مسبقا ومن ثم القاضي يفصل في النزاع بين الطرفين ومن ثم تنتهي للحكم للقاضي النهائي للبت فيها والتّطرق الرسمي وبذلك ظهر نوعان من الدّعاوي في قانون الألواح الاثنتي عشر وهي على النحو الآتي :

### 1. الدّعى التقريرية

هي دعوى القسم أو الرّهان أو دعوى طلب تعيين قاضي أو حاكم ثم أضيف إليها فيما بعد دعوى الإعلان وسوف نشرح ذلك بالتفصيل على النحو الآتي :

### 2. دعوى القسم أو الرّهان

هي دعوى عامة بمعنى أنها تعدّ الوسيلة العامة للدّفاع عن الحقّ وإجبار الخصم على الاعتراف به في كل حالة لا يوجد فيها نص قانونيّ يوجب إتباع طريقة أخرى، وسميت بدعوى القسم لأنّ كل من الطرفين يلزم إن يقسم على صحة ادعائه ثم يقدّم برهان كل منهما على إن يقدّم كل منهما مبلغ من المال ويتحوّل إلى الخزنة العامة كإيداع عند الحكم تمنح عند مطالبة بالحقّ الشّخصيّ أو العيني ويترتب على هذه الدّعى الدّعاوي التالية:

### 3. دعوى الرّهان العينية

يستلزم النزاع إحضار شيء أمام الحاكم القاضي إذا حضر الطرفان ومعهما الشّيء المتنازع عليه والشّهود ثم يقف كل منهما أمام الآخر ويتلفظ بألفاظ رسمية ويقوموا بحركات وإشارات خاصة فإذا أخطأ أحدهم في لفظ منها سقطت دعواه حتى ولو كان الحقّ في جانبه، ومن ثم يتحوّل القاضي إلى اليمين لكلّ من المدعي بالحقّ حيث يقول كل منهما للأخر بما أنّك ادّعت بغير حق فأتي دعواك إلى تقديم النّذر وهو عبارة عن مبلغ أصبح يدفع للخزنة العامة بمثابة حكم ضده، ثم يعهد بأشياء مؤقتاً للطرف الذي كسب الحكم مع تقديم كفيل فإذا انتهت المراسيم السابقة اتفق الطرفين على القاضي الذي

ينظر إلى النزاع ويقوم الحاكم بإقرار ذلك رسمياً وبعد تعيين القاضي يشهد الحاضرون على خلاصة الجلسة التي تم فيها تثبيت وهو ما يسمى بالإشهاد أمام الحاكم حيث يعد الأمر عادياً من دون أي شكليات أو رسمية بحيث يسمع القاضي وعليه يتأكد من خلال الاستجواب ويحكم بالقضية ويحكم الأمر<sup>1</sup>.

#### 4. دعوى الرهان الشخصية

هذه الدعوى تختص بالمطالبة بالحقوق الشخصية غير الثابتة مقابل الجريمة التي وقعت في أثناء السرقة أو قطع الأشجار، وهنا يطلب من المدعي الإثبات فقط أمام القاضي فإذا لم ينجح خسر الرهان ودعواه أم إذا نجح في الإثبات فإن المدعي عليه ملزم بأن يخسر الرهان، وبصبح ملتزماً بتنفيذ الحكم الذي حكم به القاضي وإذا لم يقيم بالتنفيذ في حينه، فإن الأمر سيكون منتهياً تماماً ومنفذاً خلال ثلاثين يوم من بدأ الحكم سميت بدعوى القسم أو الرهان لأن الطرفين يقسمان على صحة دعواهم بيمين ثم استعيض عنها برهان كان يدفعه من خسر دعواه إلى الخزينة العامة<sup>2</sup>.

#### 5. دعوى طلب تعيين قاضي أو حكم

تختلف هذه الدعوى عن دعوى الرهان أو القسم في أنها دعوى خاصة على بعض الحالات التي حددها القانون كما أنها أبسط وأقل كلفة، إذ ليس هناك رهان ولا أموال تضيع لصالح الخزنة إذا خسر الشخص دعواه وتتمثل هذه الدعوى في الطلب شفويًا إلى الحاكم لتعين قاضي أو حكم وذلك بعد أن يكون الطرف الأول قد أعلن ما يدعي عليه ويدخل في هذا النوع من الدعاوي نوعان وهي على النحو التالي:

#### 6. الخصومات على أساس الحق

يتعلق هذا الأمر بوجود أو عدم وجود، الحق في هذه الحالة يستلزم الأمر بتعين قاض للفصل في أصل الحق على أن تتم الإجراءات الجوهرية بأن يطلب إلى الحاكم شفهيًا تعيين قاض ثم يقوم الحاكم بنفسه باختيار القاضي وتعيينه وبهذا يعد القاضي مفوضاً من قبل الحاكم ومن الحالات التي تستعجل فيها هذه الدعوى حالة الديون الناشئة من الاشتراط الشفهي.

1-R. Zimmermann, the tow of Obligations, p. 54-61.

2- B. Nicholas An Introduction to Romon Law, p,61-65

## - حدود الحقّ

هي تلك الحقوق التي يستعمل فيها الحقّ مثل الحدود بين الجيران والأراضي والبيع والأقارب عند النزاع في مسائل الميراث والتركات والأموال الشائعة ومن ثمّ لا يظهر هناك نزاع بسبب لا يوجد فيما يتعلّق بالحدود، وأيضاً يوجد نصوص قانونيّة تعالج مثل هذه القضايا<sup>1</sup>.

## - دعوى الإعلان

تمتاز هذه الدّعى بأنها أكثر دقة وحدثة من الطّرق المستعملة سابقاً لما لها من البساطة وعدم التّعقيد، وإنّها لا رهان فيها وتتم إجراءاتها بادعاء المدعي مثل وجود دين على المدعي عليه فإذا أنكر المدعي عليه يلزم المدعي بالحقّ إن يذره بالحضور إلى مجلس الحاكم القضائيّ وبعد ثلاثين يوماً يتم تعيين قاض للفصل في النزاع.

## 7. الدّعى التنفيذيّة

متى كان المدين معترفاً بالحقّ أو كان الحقّ ثابتاً ثبوتاً رسمياً، أمكن الالتجاء إلى الدّعاوي التنفيذيّة وطبقاً للإجراءات التي نظمها قانون الألواح الاثني عشر يتم التنفيذ على المدين، و بعض الأحيان يتم التنفيذ باستيلاء الدّائن على مال المدين كرهينة، وهذا هي الطّرق التي يلجأ فيها الشّخص إذ ما نوزع في حقّه إلى أخذ من خصمه دون تدخّل من السّلطة العامة، فهي دعاوي تحمل معنى الانتقام الفرديّ، وتتميّز على النّحو الآتي:

## 8. خصائص الدّعى التنفيذيّة ولها خاصيتان وهما على النّحو الآتي :

**الحالة الأولى:** بعد الوصول إلى موضوع الدّعوي يأتي تقييم الإجراءات الأخرى خارج مجلس الحاكم ولا مسوّغ في ظل هذا العدد للتفرقة بين دعوى أخذ رهينة ودعاوي إلقاء اليد، ومن ثمّ تنتهي إلى صدور الحكم.

**الحالة الثانية:** يحقّ للدّائن أن يقوم بأجراء معين في المنازعة والإكراه وبهذه الطّريقة يحصل المدين على الحكم ويبرؤه ويقضي على عدم مديونيته<sup>2</sup>.

1- R. Zimmermann, the power of Obligations, p. 26-145

2-w.w, Buckland, Atextbook of Romon Law from Augustus to Justinion, P, 191 - 200

## د. أنواع الدّعاوى التّفيذيّة

تكمّن على النّحو الآتي

### 1. دعوى إلقاء اليد

هي دعوى إلقاء اليد ووضع اليد على الشّخص بدعوى تنفيذية وقد قرّرها قانون الألواح الإثني عشر في حالتين هما:

- إذا كان هناك حكم سابق بالدين ولم يقم المدين المحكوم عليه بالتّفيذ ما عليه من ديون للدّائن.

- يقرّ أو يعترض أمام الحاكم بادعاء خصمه، كما أنا لدائن يقبض على المدين ويحبسه في بيته لمدة ستين يوماً ويأخذه كل ثلاث أيام مكبل في الأغلال إلى الأسواق العامة ويعلن أمام الناس أنّ هذا الرجل عليه ديون لي ومحكوم عليه بالتّفيذ، والهدف من ذلك لعلّ هناك من ينقذه من ديونه من أهله وأقربائه وعند اكتمال المدّة السّتين يوماً (ولم يظهر أحد ينقذه يتحوّل المحكوم ضده ومملوكاً للدّائن يفعل به ما يشاء، كما يحقّ لأيّ شخص آخر الاعتراض على هذا التّصرف وخاصة إذا رأى الدّائن يعذبه بدنياً) الإكراه المدنيّ وهذا الشّخص يسمّى بالمحرر إي من تحريره من سيده فيتحوّل الدّين عليه وترسى الإجراءات نفسها عليه عند تحرّر الآخر.

### 2. دعوى أخذ رهينة

هذه وسيلة ثانية من وسائل التّفيذ ويقصد من وراء ذلك حمل المدين على القيام بما التزم به وذلك عن طريق أخذ الدّائن مالاً أو بعضاً من الأموال المملوكة للمدين وحجزها عنده كرهينة حتى يقوم المدين بالوفاء بالدين ولم يكن للدّائن الذي يضع يده على المال أن يبيعه أو أن يملكه، وإنّما كان له فقط الاحتفاظ به حتى يقوم المدين بالوفاء، فإذا لم يتمّ الوفاء خلال مدة معيّنة كان للدّائن أن يقوم بالشّيء وقد كان للدّائن أن يقوم بنفسه دون حاجة إلى إتمامه أمام الحاكم القضائيّ بل ودون حاجة إلى أن يكون قد صدر حكم بالدين وإن كان على الدّائن أن يتلفظ بعبارات رسميّة لجعل فعله مشروعاً كما في حالة إلقاء اليد على المدين على نحو ما سلف، إلا أنّه كان من المحتمل أن يؤدّي هذا إلى

اتخاذ إجراءات لاحقة في صحة الإجراء<sup>1</sup>.

### هـ. مجموعة جستنيان القانونية

إنَّ أعظم أثر قانوني يذكر في تاريخ الإمبراطورية هي مجموعة جستنيان قانونية التي شملت القوانين الرومانية بشرطها وهي الدساتير والأحكام الإمبراطورية من جهة والقانون القديم، من جهة ثانية أي منذ أن تم تطوّر الحقوق في العصر الثاني ومطلع العصر الثالث حيث كان لهذه المجموعة من الأهمية والأثر الكبير حيث أراد الإمبراطور جستنيان بهذه المجموعة التي تحمل اسمه إلى تحقيق أمرين هي في غاية الأهمية وهما على النحو الآتي:

- تمكين وتيسير الإطلاع على قواعد القانون الرومانيّ دونما جهد أو تعب ودون حاجة إلى البحث في الكتب القديمة .
- حفظ هذا القانون كونه تراثاً عالمياً ينطق بعظمة وعبقورية أولئك الذين اشتغلوا بعلم القانون ووضع أصوله التي لا زالت موجودة.
- بدأ العمل في وضع المجموعة الرومانية العام (528 ق م) وانتهى العام (534 ق م) ويعود الفضل الأكبر الى الوزير (تريبيان)
- شكّل الإمبراطور جستنيان العام 529 ق م المجموعة الأولى، ثم بدأ الوزير تريبيان بتجميع القانون من كتابات شارح العصر العلميّ خلال مدّة ثلاث سنوات، وفي عام 533 ق م بدئ بتشكيل الموسوعة وسميت بـ *digesta*.
- نشر جستنيان قبل الموسوعة موجز الكتاب ، النّظم الفقهية غايوس ليسهل على الطلاب والاطلاع عليها وليلحل محل كتاب النّظم القديمة ويدعي هذا الكتاب الموجز المنظم<sup>2</sup>، وتكمن مجموعات جستنيان القانونية في المضامين الاتية :

### 1. مجموعة دساتير الإمبراطورية

تتضمّن هذه المجموعة دساتير يرجع أقدمها إلى القرن الثاني الميلاديّ على أن أكثر

1-توفيق حسن فرج، مرجع سابق ص 208 وما بعده .

2- محمود عبدالمجيد مغربي، الوجيز في تاريخ القوانين ، الطبعة الاولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت 1979 م

الدساتير التي وردت في هذه المجموعة ترجع إلى الإمبراطور ديو كليسيان ومن تلاه من الأباطرة حتى الإمبراطور جستنيان نفسه، وتضم هذه المجموعة اثني عشر كتاباً وقد رتبت الدساتير فيها زمنياً مع ذكر اسم الإمبراطور الذي أصدره ومن وجه إليه وتاريخ صدور الدستور ومكان صدوره.

## 2. الموسوعة

عدت الموسوعة العمل التشريعي الثاني الذي أمر بوضعه الإمبراطور جستنيان، وهي أهم كتاب قانوني للنظم القديمة وقد دون فيها الفقه في العصر العلمي وتتكون مجموعة الموسوعة من خمسين كتاباً، وينقسم كل كتاب على أبواب وفقرات وكل ما يلزم الكتاب.

## 3. النظم

في أثناء قيام لجنة الموسوعة بعملها قرر الإمبراطور جستنيان وضع كتاب لتدريس الحقوق على أن يعد في الوقت نفسه قوة القانون الذي ينظر إليه ويحل محل كتاب جايوس الذي يدرس للطلاب<sup>1</sup>.

إن هذه المجموعة التي وضعها جستنيان تسمى في العصر الحديث القانون المدني Droit civil وهي آخر الأعمال العلمية في العصر الروماني .

## و. بعض أنظمة القانون الروماني

حدّد القانون الروماني الموت المدني بأن الأصل في شخصية الإنسان تبدأ وتنتهي بالوفاة، غير أن بعضاً من الحالات التي قد تترادى في حياة الشخص الذي يحرم من بعض الحقوق دون أن يفقد أهليته أو شخصيته القانونية. وهناك حالات تتغير فيها أهلية الشخص وتظل الشخصية قائمة رغم حرمانه من بعض الحقوق العادية ومن هذه الحالات :

**الحالة الأولى:** عدم الجدارة بالشهادة وسببها نكول الشخص عن الشهادة أو قذف الغير بالكتابة<sup>2</sup>.

**الحالة الثانية:** الحكم بجريمة مخلة بالشرف.

1- منذر الفضل، تاريخ القانون، الطبعة الأولى، عمان، 1996 م، ص 134.

2- غسان رياح، مرجع سابق، ص 69.

**الحالة الثالثة:** ضياع السمعة كالاكتشاف لمهنة مخلة بالشرف ومنها السرقة والغش. وفي الموت المدني تتمثل في فقدان الحرية أو الوطنية أي يصير من الأجانب أو يفقد صفته كرب أسرة حالات تقابل الموت المدني<sup>1</sup> و بالتالي تميز القانون الروماني بخصائص قانونية معينة ارتبطت بالقانون السياسي التي عكست نفسها على بقية الأنظمة الأخرى وسوف نتناول فيه النظام التالي.

## 1. نظام الأسرة

يظهر أنّ نظام الأسرة في المجتمع الروماني كان بارزاً من بين القوانين الأخرى وسوف نتعرف على ذلك من خلال الفروع الآتية:

## 2. نظام الزواج

للزواج الروماني شروط معينة نجملها في الآتي

**الرضا:** يلزم رضا الوالدي العروسين لصحة زواجهما وإذا كان العروس مستقلاً أي بدون أب يعد ولي نفسه أما المرأة فلا يجوز لها ذلك وإن كانت مستقلة وإذا مات والدها قبل أن تتزوج فهناك الأقرب إليها كالوصي، ثم تطوّر الأمر إلى أن أصبح رضا الخاطب والمخطوبة كافيين لصحة الزواج.

**بلوغ سن الزواج:** لم يحدّد القانون الروماني في بادئ الأمر سناً للزواج وكان ينظر للأمر من الناحية الشكلية للجسد ثم تطوّر الأمر إلى أن تم تحديد سن بلوغ الفتاة باثني عشر عاماً والشباب بأربعة عشر عاماً وهذا كان في مدّة الإمبراطور جستنيان.

**أهلية الزواج:** أوجب القانون ضرورة الأهلية لإبرام الزواج وأن لا يكون هناك مانع، والقصد هنا أن يكون مماثلاً من حيث المستوى الطبقي فالزريق والمحكوم عليهم لا يملكون الحق في الزواج إلا بموافقة السيد وللزريق من رقيقة. وكذلك هناك مانع يأتي من القرابة والمصاهرة حيث يحرم الزواج بين الأصول والفروع إلى ما لا نهاية ويحرم الزواج بين أقارب الزوج والزوجة ومثال على ذلك لا يجوز أن يتزوج بأمّ زوجه ولا هي تتزوج بوالد زوجها أو بابنه وإذا طلقها فلا يجوز أن يتزوج بأخوات الزوجة .

1 – J. Thomas, textbook of Roman Law, p. 150



### 3. موانع الزّواج

يمكن لنا أن نجمل الموانع للأسباب التالية :

#### - منع الزّواج بسبب الظروف الاجتماعيّة

كان الزّواج يتم وفق المستوى الطّبقّي ثم منع هذا التّقليد فأصبح من الممكن أن يتم الزّواج بين الإشراف والعامة ثم صار مباحًا واقتصر المنع على طبقة مجلس الشيوخ و كذلك منع الزّواج بين الرقيق وسيدته.

#### - مانع الزّواج السابق

أشار القانون الرّومانيّ بعدم السّماح من تطبيق الزّواج (تعدد الزّوجات) ومع ذلك فإنّ في عهد الإمبراطوريّة السّقلي اكتشف أن هناك زواج ثانٍ ولكن يشترط فيه إبطال الزّواج الأوّل.

#### - الزّواج في مدّة العدة

أوجب القانون المرأة التي مات زوجها بإكمال مدّة العدة وهي عشرة أشهر ثم جعلت سنة في عهد الأباطرة المسيحيين حيث كانت الفكرة السابقة دينية والأخرى تهدف لمنع الاختلاط بين الأنساب وارتبط الأمر بالحامل حتى تضع والمطلقة طبق عليها هذا المبدأ.

#### - بطلان الزّواج

إذا ثبت أنّ المرأة قد أنجبت من الشّخص قبل زواجها منه بطل الزّواج ويعد الأولاد غير شرعيين ويتم معاقبة أبو أم الأولاد الغير شرعيين بعقوبات جنائية<sup>1</sup>.

حدد القانون الأحكام عن سلطة رب الأسرة وعن انتقال أموال الأسرة بالميراث أو الوصية وفقا للنّظام الأبويّ الذي كان سائدًا في حياة الأسرة الرّومانيّة، حيث كان رئيس الأسرة هو المالك الوحيد لأموالها ويخضع لسلطته زوجه وولده ورفيقه في مستوى قانوني واحد. وكانت القرابة قائمة على أساس التّفرع من الذكور، فهي قرابة العصبة<sup>2</sup>. نظّم

1- محمد نور عبدا الهادي شحاتة، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، دار النهضة العربية القاهرة، 1993، ص 517.

2 - J.T homas, Textbook of Roman Law, p. 401-480.

قانون الألواح الإثنى عشر أحكام الوصايا على القصر والنساء بعد وفاة رب الأسرة، كما نظم أيضاً أحكام القوامة والسفهاء إلا أنّ هذا التنظيم كان مقرراً لمصلحة الوصي أو الأسرة أكثر منه لمصلحة المشمول بالوصاية أو القوامة، وقد شرحنا بعض المسائل في نظام الأسرة في مطلب نظام السلطة الأبوية إلا أننا تركنا بعض من تلك المسائل المتعلقة بالزواج الروماني وأنواعه وهي نوعين زواج مع السيادة وتنقل الزوجة تحت سلطة الزوج صاحب السلطة، وزواج من دون سيادة تنتقل الزوجة إلى بيت زوجها ولكنها تظل تحت سيادة والدها ومستقلة بحقوقها، لذا فإنّ مفهوم الزواج الروماني هو: ارتباط بين الرجل والمرأة بمقتضاه يعيش الزوجان معاً. وسوف نتناول ذلك بأيضاح أكثر من خلال الآتي:

1. الزواج بالسيادة يمكننا أن نشرح هذا النوع من الزواج على النحو الآتي :

2. أنواع الزواج بالسيادة ويكمن ذلك على النحو الآتي:

**المعاشرة الزوجية:** هي وضع اليد على الزوجة لمدة سنة كاملة وبهذا تصبح الزوجة تحت سيطرة زوجها مالم فإن الزوجة تكون بمقام إحدى بناتها وذلك إذا خرجت من البيت لمدة ثلاثة أيام في بيت والدها تظلّ تحت سلطة أسرتها.

**الزواج الديني** يتم في المعبد على أن يقرباً قربانا للاله وعشرة شهود، ويقوما بترتيل بعض الأناشيد وهذا يتم دائماً مع طبقة الإشراف.

**الزواج بالشراء** وهذا يتم عن طريق شراء الرجل المرأة من والدها وبموافقتها وتتم فيه عبارات معينة تهدف إلى تحقيق الغرض.

**آثار زواج السيادة** حيث حدّد القانون الروماني المركز القانوني من حقوق المرأة وفقاً للخيار الذي تم اختياره وهو إذا كانت قد اختارت أن تكون تحت سلطة زوجها، فتكون حقوقها مثل ابن من أبنائه وإذا ظلّت تحت سلطة أسرتها فتترتب حقوقها من قبل رب أسرتها فقط<sup>1</sup>.

3. انحلال الزواج بالسيادة، ينحل الزواج بالسيادة بالأسباب الآتية:

- بموت الزوج والموت المدني لأحد الزوجين .

1 - Awatson, the Spirit of Romantic Law, (51-100).

- ينحلّ بالإرادة وهذا كان نادرًا إلا أنّه يتم في حالة إذا ارتكبت الزّوجة خطأ جسيمًا  
يترتب على ذلك أخذ السيّادة منها وكذلك من الأسرة وتطرد.

- الطّلاق بيد الزّوج

7. **اختفاء الزّواج مع السيّادة** وهنا يتعلّق الأمر بظهور الكراهية بعد الزّواج بالسيّادة  
فإنّ الأمر ينتهي بعد التّأكد من صحة الأسباب التي نتجت عن ذلك.

**الزّواج من دون سيّادة:** الأمر يتعلّق بزواج المرأة في ظلّ احتفاظها بسيّادة أسرتها  
عليها لا أن تكون تحت سلطة الزّوج ومن هنا نتعرّف على ما يتعلّق في هذا النّوع من  
الزّواج من دون سيّادة على النّحو الآتي:

- **انعقاد الزّواج من دون سيّادة** حيث أوجب القانون الاتفاق بين الرّجل والمرأة على  
الحياة المشتركة وأنّ التّراضي بين الطّرفين كان يكفي لانعقاد الزّواج إلا أنّ هذا النّوع من  
الزّواج يخلو من الرّسميات التي تظهر على النّوع الآخر وخاصة أمور الفرح والزّفة التي  
لا يتحصل عليها النّوع الثّاني، وأي شروط للزّوجة من مقتنيات ويكتفي الأمران تأخذ  
بصورة عادية إلى بيت الرّجل الذي اختارها بعد موافقة ربّ أسرتها وبعضًا من الشّهود<sup>1</sup>.

- **آثار الزّواج من دون سيّادة** ومن الآثار التي تظهر على الزّواج من دون سيّادة  
الآتي:

- لا تكون للزّوج أي سلطة على الزّوجة ولكن يحقّ له حمايتها مقابل احترامها له  
- حقّ للزّوج قتلها إذا زنت أو تعاقب بالقانون... بالمؤبد وهذا ظهر في عهد جستنيان  
- لا حقوق لها من تركة زوجها، إلى أنّ تطوّر القانون ووضع لها حقوق من قبل  
الأولاد

- ينحلّ الزّواج بالوفاة لكلّ منهما أو فقدان الحرّيّة.

- ينحلّ بالطلاق بالاتفاق بين الطرفين.

طلاق مباح وهو الطّلاق الذي يقع تحت إرادة الطّرفين لأسباب مشروعه ومنها إذا  
ظهر مرض لكل منهما أو عقم أو عجز أو ما شابه ذلك .

1- J. Thomas, Text book of Romon Lawr, p. 201-300

8. **الطلاق بسبب مشروع**، حيث أخذ القانون الروماني بالأسباب المشروعة للطلاق وركّز عليها مثل زنا الزوجة أو اعتدائها على حياة الزوج أو هجرها بيت زوجها أو ذهب للتنزه مع رجل آخر والأمر ينعكس أيضاً على الرجل إذا زنا أو اعتدى عليها.

1. **الطلاق من دون سبب شرعي**، وهو يعود لرغبة الطرفين بالانفصال ولكنه يتعرّض لعقوبات مالية وبدنية.

2. **أثار انحلال الزواج** أي لا يحقّ للزوجة المطلقة أو المتوفي عنها زوجها الزواج إلا بعد مضي عشرة أشهر الخاصة وبعد سنة يحقّ لها أن تتزوج<sup>1</sup>.

### ز. نظام الميراث في القانون الروماني

تشكّل الإرادة اللبنة الأولى في نظام الميراث في القانون الروماني فربّ الأسرة هو الوحيد الذي يمتلك الحقّ في تعيين من يخلفه من بعده في تولي رئاسة العائلة وللقيام بما عليه من الحقوق القومية والحربية، ولا يشترط في من يختاره ربّ الأسر لتولي منصب الخلافة أن يكون من الأبناء أو الأقارب فقد يختار شخصاً أجنبياً بشرط موافقة القبيلة لأنّ رب الأسرة كان يملك الأموال بوصفه وكيلاً للقبيلة وولياً للأسرة وقبول من يختاره لتولي الخلافة من بعده.

عرف القانون الروماني الوارث، بأنّه الشّخص الذي يحصل على ميراث لحظة الوفاة أو الموت المدني ومن قبل الموروث له وأن يكون متمتعاً بالشّخصية القانونية الرومانية وأن لا يكون جنيماً لم ير والده أو أمه<sup>2</sup> وهناك بعض المسائل التي تتعلّق في الميراث وهي على النّحو الآتي:

#### 1. مفهوم التركة

هو كلّ ما يتركه المتوفى من أموال وحقوق والتزامات فالتركة تعدّ امتداداً لشخصية المورث.

- **مفهوم الولاء** وهي قرابة حكمية نشأت بين المعتق والمعتق له بسبب العتق والاعتراف بالقرابة له وذريته ولا اعتبار الولاء المورث وخضوعه لسلطان رب الأسرة<sup>3</sup>.

1- محمد نور عبد الهادي شحاته، مرجع سابق، ص 526.

2-J. Thomas, test book of roman 20 low, p321-330

3- علي محمد جعفر، نشأة القوانين وتطورها، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت 2002، ص 282.

- حرمان الإرث يقوم الميراث في القانون الرّومانيّ على الأسس التالية:
- اعتمد القانون الرّومانيّ في تقسيم الإرث وفقاً لما يتطلّبه العرف حيث لا تصرف لإفراد الأسرة في ظل حياة ربّ الأسرة موجود ويمتلك الشّخصيّة والحرية والجنسيّة الرّومانيّة.
- استبقاء الثروة بيد العائلة الرّومانيّة وحفظها من التّفنيت لذا فهم يورثون أبناء الظهور دون أبناء البطون، وفيما يلي يتعلّق بميراث البنت من أبيها وبعد إلا عبارة عن حق الانتفاع فقط في التّركة التي آلت إليها من بعد أبيها ثم تعود بعد موتها على عصبته الذكور وهم أصل وفروع أبيها ولا يحقّ لأبنائها أن يورثوا من تركتها<sup>1</sup>.
- منح القانون ربّ الأسرة بأن يكون الخليفة وهذا يتم عن طريق عقد البيع وبواسطة هذه الطّريقة تنتقل السّلطة من رب البيت إلى الشّخص الذي يرغب فيه خليفته في المال والأبناء والزّوجة وكل ما يخضع لسلطته الأبويّة فإذا ما أنجز العقد.
- الخليفة ومن هذا الوقت يصبح هو المالك لهذه الأسرة وأموالها فله الحقّ في التّصرف قبل ما نقل إليه بعقد البيع في ظل وجود رب الأسرة إلا أنّ أرباب الأسر وجدوا أنّ في هذه الطّريقة حرّجاً ومشقة لهم ولأسرهم فعدلوا عن هذه الطّريقة.

## 2 - نظام الملكيّة

وردت بعض الأحكام المتعلّقة بالملكيّة ومصادر الالتزام وعلاقات الجوار في اللوحين السّادس والسّابع، وقد كانت الملكيّة جائزة على الأموال المنقولة والأموال الثّابتة وكانت الأموال مقسمة إلى أموال نفيسة وأموال غير نفيسة، والأموال النّفيسة هي الأموال التي تخصّ الأراضي الزراعيّة والأموال اللّازمة للزّراعة كالأرقاء وحيوانات الجر والحمل، وما عدا ذلك فهي أموال غير نفيسة بحيث تنتقل الأموال النّفيسة عن طريق الإشهاد أو الدّعوى الصّوريّة ويقوم الانتقال بإجراءات شكلية، ورسميّة بحضور الطّرفين المتصرّف والمتصرّف إليه، والشّيء المراد التّصرف فيه إذا كان منقولاً أو ما يرمز إليه إذا كان عقاراً، لذلك كان يتوجّب حضور خمسة من الشّهود الرّومان البالغين وحامل الميزان ويزن النّحاس أما الدّعوى الصّوريّة فهي من الطّرق الرّسميّة لنقل الملكيّة الرّومانيّة

1- عبد الودود السريتي، احكام الوصايا والأوقاف والموارث، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى 1997 م، بيروت، ص 7.

بحضور الطرفین أمام الحاكم القضائيّ، كان يدعي المتصرّف إليه (المشتري) بملكية المال المراد نقل ملكيته فيسلم المتصرّف (البائع) بطلب المتصرّف إليه ويصادق البريتور على هذا الأمر الذي يترتب عليه انتقال الملكية.

#### - طرق اكتساب الملكية في القانون الروماني<sup>1</sup>

يمكن تعريف اكتساب طرق الملكية، بأنّها تلك الأعمال القانونية أو الوقائع المادية التي يترتب عليها دخول حق الملكية في ذمة شخص ما، وسوف نستعرض طرق اكتساب الملكية على النحو الآتي :

#### - الطرق المنشئة للملكية

يعدّ الاستيلاء من أهم الطرق لاكتساب الملكية وهي طريقة من طرق قانون الشعوب ومفهوم الاستيلاء هو الحصول على المال المباح الغير مملوك بنية تملكه ولذلك له ثلاثة شروط هي:

- أن يكون هناك وضع يد.

- وجود نية للتملك.

- توفر المال المحدد في وضع اليد ومباحا.

وللاستيلاء صور عديدة مثل الاستيلاء على الأراضي والأحجار الكريمة والحيوانات الطليقة والغنائم التي تأتي من الحرب والأملاك المهملة، كإحياء الأرض المملوك والمرفوضة من صاحبها، وينطبق ذلك على الدار التي لا يسكنها أحد والدار التي آلت إلى السقوط وقد تحدث ضرراً، فالقاضي يحكم هنا اما بهدمها من قبل مالکها الأساسي أو تتحوّل ضمن أملاك الجار وهناك طرق اختيارية وإجبارية تكمن في الآتي :

- الطرق الاختيارية لها ثلاثة أوجه هي: الإشهاد والدعوى الصورية والتسليم، على أن تشترط فيها وجود الشخصية القانونية الرومانية الكاملة<sup>2</sup>.

1- J. Thomas, test book of roman 21 low, p251-320

2- ww.buckland, A textbook of roman law from Augustus to Justinian p 51-120

- مفهوم الإشهاد:

هي طريقة عقديّة من القانون المدنيّ والمقصورة على الرّومان وهذه الطّريقة تتم على شكل بيع صوري ومن شروطها حضور شهود لا يقلون عن خمسة رومانيين، ومنذ نهاية العصر العلميّ بدأ الإشهاد يفقد أهميته تدريجيا حتى انتهى به الأمر في عصر الإمبراطوريّة العليا.

- الدّعى الصّوريّة أو التّنازل القضائيّ

هي دعوى صوريّة، أي هي طريقة من طرق القانون المدنيّ في كيفية نقل الملكيّة التي نصّ عليها قانون الألواح الإثني عشر، وتتم إجراءاته عندما يتفق النّاقل والمنقول إليه على أن يكون من المواطنين الرّومان والحضور بصفتهم الشّخصيّة أمام القاضي ومعهم المال المراد نقل ملكيته أو ما يرمز به إن كان عقارا أو غير ذلك، فيقبض المكتسب المال المراد نقل ملكيته إليه على أن يقر ذلك بعبارة رسمية تهدف إلى أنه أصبح مالك للشي طبقا للقانون الرّومانيّ. ولا يترتب على هذه الدّعى التزام المتصرف بالضمان كما في الإشهاد فلم يكن المتصرف

يسأل إذا كان الشي مملوكا للغير.

- التسليم

هو طريقة نقل الملكيّة في إجراءات شكلية ورسمية كما هو الحال في الإشهاد والدّعى الصورية بل أنه كان يتم في اضيق حدوده من الشكلية إذا لم يكن الأمر يستلزم.... الأمر وتسليم الشي ولا يعد التسليم ناقلا للملكية إلا إذا جمع فيه ركنان هما : الركن المادي والركن المعنوي ويتمثل الأول في نقل الحيازة بينما الثّاني يتمثل في الاتفاق على نقل الملكيّة ويجب أن يكون التسليم صادر من المالك، والتسليم نوعان هما : التسليم الطويل أي الذي يرتسم عليه حدود طبيعة الملك حتى لا تترتب عليه نزاعات مع أطراف أخرى ، والتسليم الرمزي وهو الذي يحمل الصورة الشكلية ومتعارف عليه من قبل كافة الأطراف أي لا يشترط التأكيد من صحة حدوده، و هناك أنواع أخرى مثل التسليم القصير والتسليم الحكمي<sup>1</sup>.

1- منذر الفضل، مرجع سابق، ص 158

- **الطرق الإجبارية لنقل الملكية:** تظهر وسائل انتقال الملكية بصورة إجبارية لدى الرومان على النحو الآتي:

#### - نقل الملكية بناء على نص القانون

الشرط الأساسي في هذا النوع هو إن يكون النقل على شكل نص قانوني أي الشكل التشريعي وهو عمل من أعمال السلطة أو يأتي على شكل قاعدة عرفية وهذا ينطبق على الوصية أو نقل الملكية عن طريق المكافأة نظير أعمال قام بها المنقول إليه الملكية ، وهناك طرق أخرى لنقل الملكية من قبل السلطة ومثال على ذلك تمنح أرض الموات التي قام شخص تصلاحها وحولها إلى أرض زراعية إن كان لم يظهر لها مالك ، فإن الملكية تنتقل بهذا الإجراء وإذا ظهر لها مالك يكون بالاتفاق الذي ينتهي بالمعاوضة وهناك سوف نتناوله لاحقا وهو الملكية بالتقادم.

وهناك ملكية البيت المهجور والذي لا صاحب له، تتخذ الشكل القانوني لنقل ملكيته للشخص الذي قام بالاستيلاء عليه<sup>1</sup>.

#### - نقل الملكية بحكم القضاء أو بأمر من الحاكم القضائي

إذا اختلف الشركاء بالميراث وتقسيم التركة فإن التصرف القانوني يتم عن طريق رفع دعوى قضائية وتسمى دعوى حصر ورثة شرعيين، وبعد التأكد من صحة الدعوى يحكم القاضي في تقسيم التركة عن طريق حكم قضائي كما أن الأحكام القضائية تستطيع نقل الملكية ليس فحسب عن طريق انتقالها من الأصل إلى الفروع عن طريق الوفاة أو الموت المدني من الأصول إلى الفروع ، ولكن هناك صور أخرى للانتقال مثال على ذلك إذا كان هناك بيت آيل للسقوط ويهدد الجار بالخطر فإن في مثل هذه الحالة يلزم الجار برفع دعوى إلى القاضي وبإشعار مالك المنزل بتهديم المنزل وإذا لم ينفذ أصبح البيت الأيل إلى السقوط من ممتلكات الجار<sup>2</sup>.

#### - نقل الملكية بالتقادم (مرور الزمن)

وهو حصول الشيء المادي والمتروك من قبل شخص آخر ومنذ زمن لم ينتفع به، حيث

1- عبد المجيد الحفناوي، احمد ابراهيم حسن، تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية، الدار الجامعية بيروت 1989م ص 528.

2-J. Thomas, test book of roman 23 low, p 325-400



ورد في قانون الألواح الإثنى عشر أن المزارع الذي ترك أرضه دون أن يحراثها وتحولت إلى أرض بوار وقام شخصا آخر باستصلاحها يصبح مالكا لها بعد مرور سنتين من تملكها و للتقادم الروماني أنواع كثيرة و هي على النحو الاتي:

- التقادم بمضي المدة القصيرة وهي سنتان

- التقادم الطويل الذي تمتد مدته عشر سنوات

- التقادم الأطول الذي يمتد إلى أربعين سنة.

وفي عهد الإمبراطور جستنيان أصبح التقادم ثلاثين سنة بمجرد وضع اليد على الشيء الباسط عليه مالكا له<sup>1</sup>

### 3. نظام الرق في القانون الروماني

عدّ الرقيق من الأشياء المملوكة حيث وجد الرّق في روما منذ البداية حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية، فالرق في المجتمعات القديمة كان لا يتميز عن غيره من البشر بشيء أي إنه كان يماثل الحيوانات وظلّ هذا الحال حتى ظهور قانون الشعوب الذي أعطى بعض الحقوق لهم كما أنّ هناك الأجانب الذين تحولوا إلى عبيد نتيجة لعدم وجود معاهدات دولية مع بلدانهم والمرجح هم أولئك الهاريون من العقوبات في بلدانهم.

#### - مفهوم الرّق

الرقيق هو ذلك الشخص الذي لا يحقّ له أن يملك شيء من الحرية أو ما شابه ذلك طالما هو أحد ممتلكات سيده، حيث تسند إليه الأعمال كافة سواء كانت داخل البيت أو خارجه، كما أنّه يحقّ للسيد أن يفعل بعبده ما يشاء حتى الإعدام وكل ما يتعلّق بالعبد من زوجه و أولاد يعدون ملكاً للسيد ولا يستحق أي ذمة مالية ، كما أن العبيد هم من صنع الاقتصاد الزراعي وتنمية المدن بالبناء والتشييد، حيث لا يتحمل العبد أي مسؤولية قانونية أو يتقاضى في المحاكم إلا عن طريق سيده فإذا اعتدى أحدهم جسدياً على العبد فكأنما اعتدى على السيد، ومن ثم فإن السيد يقاضي المعتدي في القضاء ويحقّ له المطالبة بالتعويض، وهذا التعويض ليس للعبد بل للسيد أما إذا اعتدى العبد على الغير يختلف الأمر وذلك إما أن يدفع السيد لهذا العبد التعويض للطرف المعتدى عليه

1-ww.buckland, A textbook of roman law from Augustus to Justinian p 115-120

بالمال، أو يتخلى عن عبده للطرف الآخر يفعل به كما يشاء، وظلّ الرقيق يعاني هذا الاضطهاد حتى تطوّر القانون الذي فيه أعطي للعبد بعض الحقوق، ونتج عن ذلك تأسيس المركز القانوني للرقيق<sup>1</sup>.

### - أهمية المركز القانوني للرقيق

اهتم هذا المركز بالدفاع عن حقوق الرقيق من السادة الرومان حتى أصبح الرقيق لا يماثل الحيوان كما عرف سابقاً وأصبح هناك عقوبة على من يعامل الرقيق بوحشية من دون سبب ومن يعاقب رقيق بذلك يعاقب قانوناً بالعقوبة نفسها، وخاصة في العقوبة التي تصل إلى القتل، كما أنّ الملك يعطي الحرية للرقيق عند التأكد من إساءة السيد مع عبده، كما أعطى المركز اهتماماً كبيراً للرقيق وتعزيز ثقته في المطالبة بالحرية، وهذا يتم عن طريق مطالبة الرقيق من وكيل يدافع عنه أمام القاضي، وفي العصر العلمي أصبح العتق منتشرًا بين الرق وهذا يتم عن طريق التزام من قبل الرقيق لسيده على أن يقدم خدمات معينة يطلبها السيد ومن ثم يعتق، أما الرقيق الذي أصبح رقيقاً عن طريق العقوبة الجنائية فلا يتحرّر من العبودية.

- أسباب الرق: قد يولد الإنسان رقيقاً أو يصبح فيما بعد رقيق، ونذكر هنا بعض الأسباب التي أدت إلى لصق صفة الرق بالإنسان وهي على النحو الآتي:

. الميلاد : ذلك أنّ الطفل المولود من رقيقه يعد رقيقاً، حتى وإن كان والده يمتلك الحرية، وإذا كان العكس يمتلك الولد صف الحرية.

. الأسر: وهو ما يقع بعد الحرب من غنائم من ضمنها الأسرى.

. الرق بالعقوبة وهي نوع من أنواع العقوبة التي من خلالها يتحوّل الحرّ إلى عبد ومن ضمن مصنفات هذه العقوبة هي عدم استطاعة المعسر في الدين من الديون، فيصبح ملكاً لدائنه<sup>2</sup>.

• - العتق يتحرّر الرقيق لسبب من الأسباب وقد يكون بحكم قضائي أو بإرادة السيد وإذا لم يتحرّر فقد كان يتحصّل على بعض الحقوق، وهناك طرق معينة لاكتساب العتق وهي على النحو التالي:

1- محمد نور عبد الهادي شحاته، مرجع سابق، ص 470

2- أحمد أبو الوفاء، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، دار المطبوعات الجامعية، مصر، 1990 ص 194

- دعوى الحرية الصورية في هذه الدعوى يتم الاتفاق بين السيد وشخص آخري نوي عن الرقيق في رفع دعوى الحرية فيأتي هذا الآخر كمدافع للرقيق مطالباً القاضي بحرية هذا الرقيق فيأتي المالك ويمدّ عصاه بحركات كالمسّ على الرقيق فيحكم القاضي بحريته مع اعتراف السيد في ذلك.
- القيد في قوائم التعداد يقوم حاكم الإحصاء بتعداد كل خمس سنوات للرومان دون العبيد فإذا وافق السيد لحاكم الإحصاء في أن يحصي هذا الرقيق أصبح حراً.
- الوصية: إذا أوصى السيد قبل وفاته بعنق الرقيق يصبح حراً بعد الوفاة مباشرة شريطة أن يوافق على الوصية مجلس الشعب.
- تطوّر القوانين لمصلحة الرق: أصبح العنق يأخذ الصورة البسيطة من العنق وذلك يتم بمجرد إقرار من السيد أمام الحاكم دون أي رسميات ومن ثم أصبح من حقه الحصول على الجنسية الرومانية.

#### الآثار المترتبة على العنق : تكمن الآثار على النحو التالي:

- كان يترتب على العنق اكتساب المعتق صفة الحرية والصفة الوطنية، لكنه لا يتمتع بكلّ الحقوق التي يمتلكها الحرّ الأصل بل كان يعدّ أقل مرتبة.
- يحرم المعتق وأبناءؤه من المناصب السياسية ومن عضوية مجلس الشيوخ أو المجالس البلدية والخدمة في الجيش ولا له الحقّ في التصويت.
- يحرم عليهم الزواج من العامة والأصلي وظلّ هذا مستمر حتى زال في عهد الإمبراطور جستنيان فأصبح له الحقّ بالزواج من العامة فقط.
- يضلّ الولاء التقليديّ للسيد الذي اعتقه وهذا له شروط وهي على النحو الآتي:
- واجب الاحترام والإجلال للسيد وأسرته وهذا الواجب أيضاً واجب أخلاقي كاحترام وأن لا يسيى أي احد من أسرته أو يتجرأ رفع دعوى قضائية ضد سيده أو أسرته.
- واجب أداء الخدمات متى طلب منه ذلك.

- الإنفاق للسيد إذا كان معسراً، وإذا مات الرقيق دون أن يكون هناك من يرثه من أهله أو دون وصية، يتحوّل الورثة للسيد الذي اعتقه، وفي عهد جستنيان اختفت تلك

الشروط تماماً وظلّ الاحترام قائماً من الرقيق للسيد فقط.

## 1. مصادر الالتزام

الجرائم الخاصة والعقود هي مصدر الالتزام، ففي اغلب الجرائم الخاصة كان الجاني يعد مديناً للمجني عليه فإذا لم يعاقب بالغرامة أو الدية يصبح الجاني خاضعاً لسلطة المجني عليه أي أن يتحمل الالتزام في جسمه أو أن يدفع المبلغ من أموالها ويتم تسلّم الجاني للمجني عليه<sup>1</sup>.

وللمصادر شرطان على النحو الآتي

**عقد الشرط الشفوي:** ويتم بسؤال الدائن وموافقة المدين في صيغة رسمية.

**عقد القرض القديم أو عقد الاستدانة:**

يقصد به التزام يقع على جسم المدين أو أحد أفراد أسرته بحيث يبيع المدين نفسه بدلاً من الشيء بطريقة الإشهاد وأن يحتفظ الدائن بالشخص المباع كرقيق حتى العرض<sup>2</sup>.

## الخاتمة

في خاتمة بحثنا الذي تم التعرف من خلاله على القانون الروماني وأهميته التاريخية، والبحث المضني في المراجع المختلفة التي أظهرت كل ما كنا نسعى إليه من تحقيق الأهداف المرجوة التي يستفاد منها، أولاً الطالب الجامعي في كليات القانون، وثانياً بوصفه مرجعية قانونية ملهمة للقارئ القانوني والمهتم في التاريخ القانوني وخاصة القانون الروماني، لذلك أقدم في هذا البحث أهم ما جاء به القانون الروماني على النحو الآتي:

1 - صنّف القانون الروماني من القوانين المتطورة التي تأثر بها العديد من القوانين، وذلك أنّ تاريخ القانون الروماني هو عبارة عن مجموعة من الأعراف غير المكتوبة، أي هو عبارة عن تقاليد أسرية بيد الأب (النظام الأبوي) فظهرت عدة قوانين تنكر ذلك ومنظمة للحياة العامة.

2 - رأى الشعب الروماني أنّ الأعراف والتقاليد القديمة لا تلبي غاياتهم الاجتماعية

1-B. Nicholas, an introduction to roman law, p 160 -220

2-حبي قاسم السهل، السهل في تاريخ القانون، جامعة عدن، 2000 ص 111-110

والسياسية والقانونية، وعليه أصبح للنظام أشكال جديدة تخدم المصلحة العامة.

3 - يعدّ المصدر الأساسي للتشريعات الرومانية هو الأسرة الرومانية الأصلية التي تمثلت بوجود قواعد قانونية منظمة للمسائل كافة في المجتمع الروماني.

### التوصيات

في نهاية هذا البحث و بناءً على ما سبق:

- 1 - من أراد التعرف على القانون الروماني ومضمونه أن يلجأ إلى هذا البحث، أو يكتفي بقراءة مراحل تطوّر القانون الروماني وخصائصه وهذا يشتمل على العديد من المسائل التي تدرّس في كليات القانون عالمياً.
- 2 - أن المقارنة بين القانون الروماني والقوانين الأخرى التي ظهرت في المرحلة الزمنية نفسها، يشكل رافداً ومصدراً لكثير من القوانين الغربية، ويظهر أيضاً بعض القواعد التي تأثرت بقوانين الشرق وخاصة القوانين الفرعونية في عهد الملك بوكخوريس والتي تأثرت بقوانين حمورابي.
- 3 - كلّ ما كتب عن القانون الروماني يعدّ مرجعيه قانونية للقوانين الغربية، وقانوناً معرفياً وملزماً تدريسه في جامعات العالم.
- 4 - ضرورة الأخذ بهذا البحث الشمولي الذي يناسب المنهجية المتبعة في استعراض القانون.
- 5 - التّوصل إلى ما هو مناسب للجامعات العربية، واختصارها في دراسة مراحل تطوّر القانون الروماني والأهمية التاريخية ومصادر القانون وخصائصه.
- 6 - أن الضرورة تستدعي للمهتم بالتزود بالمراجع التي تخدم توسعة أفق المعرفة في هذا القانون.

## لائحة المصادر والمراجع

### المصادر والمراجع باللغة العربيّة

1. ابو الوفاء، أحمد، 1990، تاريخ النّظم القانونيّة والاجتماعيّة، دار المطبوعات الجامعية، مصر.
2. أبو طالب، صوفي، 1975م، تاريخ النّظم القانونيّة والاجتماعيّة، دار النهضة العربيّة، القاهرة.
3. ألعودي، عباس تاريخ القانون، 1998، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الأردن.
4. جعفر، محمد علي، 2002، نشأة القوانين وتطوّرها، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.
5. حسن فرج، توفيق، 1985م، القانون الرّومانيّ، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت.
6. الحفناوي، عبد المجيد، و حسن، أحمد إبراهيم، 1989م، تاريخ النّظم الاجتماعيّة والقانونيّة، الدار الجامعية، بيروت.
7. الديب، عبد العظيم، 1978م، فريضة الله في الميراث والوصية، الطبعة الأولى، دار الأنصار للطباعة والنشر، القاهرة.
8. رياح، غسان، 1956م، تاريخ القوانين والنّظم الاجتماعيّة، الطبعة الأولى، منشورات الحلبي الحقوقية،
9. السريتي، عبدالودود، 1997، أحكام الوصايا والأوقاف والمواريث، دار النهضة العربيّة، الطبعة الأولى بيروت.
10. السقا، محمود، 1978م، فلسفة وتاريخ النّظم الاجتماعيّة، دار الفكر العربي، جامعة القاهرة
11. السهل، يحي قاسم، 2000 م، السهل في تاريخ القانون، جامعة عدن.
12. شحاتة، محمد نور عبد الهادي، 1993، تاريخ النّظم القانونيّة والاجتماعيّة، دار النهضة العربيّة، القاهرة.
13. عبيد الفتلاوي، صاحب، 1998، تاريخ القانون، مكتبة الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
14. عيسى، إبراهيم عبدا لله، 2006 م، المنهجية المعاصرة لابن خلدون، الطبعة الأولى، صنعاء.
15. الفضل، منذر، 1996، تاريخ القانون، الطبعة الأولى، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان
16. محمد جعفر، علي، 1982م، تاريخ القوانين والشرائع، الطبعة الأولى، دار المسيرة للطباعة والنشر، بيروت
17. المغربي، عبد الحكيم علي، 1981م، المعاملات في الفقه الإسلامي الجزء الأول الطبعة الأولى، صنعاء.
18. مغربي، محمود عبد المجيد، 1979م، الوجيز في تاريخ القوانين، الطبعة الأولى المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.

## المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

1. Alan Watson, 1995, the spirit of Roman Law, University of Georgia Press.
2. Borry Nicholas, 1962, An Introduction to Roman Law, Oxford University Press.
3. Joseph A. C. Thomer, 1976, Textbook of Roman law, North Holland Publishing Company.
4. Reinhard Zimmermann, 1996, The law of Obligations: Roman Foundations of the Civilizing Tradition, Oxford University Press.
5. W.W. Buckland, 2007, A Textbook of Roman law from Augustus to Justinian, Cambridge University Press, Reprint edition.

## أدونيس شاعر الإنسان: اللون الأخضر ودلالاته الرمزية

### Adonis as the Poet of Humanity: The Symbolic Connotations of the Color Green

د. محمد حبص<sup>1</sup>

Dr. Mohammad Hoblos

تاريخ القبول 2025 / 7 / 30

تاريخ الاستلام 2025 / 7 / 1

#### الملخص

يتناول هذا البحث رمزية اللون الأخضر في شعر أدونيس، بوصفها مكوناً جمالياً وفكرياً يعبر عن رؤية حضارية شاملة. وقد انطلق من فرضية أنّ اللون الأخضر لا يُستخدم في الشعر العربي الحديث لغايات تزيينية فحسب، بل يُستثمر بوصفه رمزاً مركباً يدلّ على الحياة والبعث والتجدّد، ويشكّل مفتاحاً تأويلياً لفهم البنى العميقة في التجربة الشعرية.

سعى البحث أولاً إلى تتبع الجذور الثقافية لهذا اللون، مُبرّزاً طاقته الإيحائية في التراث الإنساني. ثمّ انتقل إلى دراسة تجليات اللون الأخضر في شعر أدونيس، متخذاً من المنهج الموضوعاتيّ البنيويّ أداة لتحليل السياقات النصّية واستكشاف المعاني الرمزية في علاقتها بالشكل والمضمون.

وقد أظهر التحليل أنّ اللون الأخضر يتجاوز في شعر أدونيس الوظيفة الوصفية أو الانفعالية، ليغدو حاملاً لرؤية وجودية، تعبّر عن توق الشاعر إلى خلاص ثقافيّ ولغويّ. فاللغة في نصوصه تنبعث عبر هذا اللون من رماد الجمود إلى آفاق التجدد، وتتحوّل إلى كائن حيّ ينفّث على المستقبل والتغيير.

بذلك، يُبرهن البحث على أنّ اللون الأخضر في التجربة الأدونيسية جوهر فلسفيّ يستبطن علاقة الإنسان بالعالم، ووسيلة لمقاومة العقم الروحيّ والنقافي، ورمزٌ للبديل الممكن في واقع مازوم.

1- أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الفرع الثالث.



## Abstract

This study explores the symbolism of the color green in the poetry of Adonis, considering it an aesthetic and intellectual component that expresses a comprehensive cultural vision. It is based on the premise that the color green is not used in modern Arabic poetry merely for decorative purposes, but rather as a complex symbol that signifies life, rebirth, and renewal, serving as an interpretive key to understanding the deeper structures of the poetic experience.

The research first traces the cultural roots of this color, highlighting its suggestive power within human heritage. It then examines the manifestations of the color green in Adonis's poetry, employing the thematic-structural approach as a tool to analyze textual contexts and explore symbolic meanings in relation to both form and content.

The analysis reveals that the color green in Adonis's poetry goes beyond descriptive or emotional functions to become a bearer of an existential vision, reflecting the poet's yearning for cultural and linguistic redemption. In his texts, language is revived through this color—from the ashes of stagnation to horizons of renewal—transforming into a living entity that opens toward the future and change.

Thus, the study demonstrates that the color green in Adonis's poetic experience represents a philosophical essence that encapsulates the human relationship with the world. It serves as a means of resisting spiritual and cultural sterility, and as a symbol of a possible alternative in a crisis-ridden reality.

**Keywords:** Green Color – Adonis – Resurrection – Symbol – Symbolism – Modernity.

## المقدمة

تحتلّ الرّمزيّة مساحة واسعة في شعرنا العربيّ الحديث، فهي كانت في منتصف القرن العشرين، وما زالت إلى يومنا هذا نهجاً شعريّاً ثابتاً يتّبعه شعراء كثيرون، قد وجدوا في الرّمزيّة ما يعينهم على وصف قضايا الأُمّة العربيّة خاصّة وقضايا الإنسان عامّة، وجدوا في الرّمزيّة القوّة التي تمنحهم اللّغة الجديدة والتّعبير الذي يستطيع مواكبة أحداث العصر والاتّصال بالحياة، وجدوا فيها ما يجعلهم، في التّعبير الشّعريّ، يبتعدون عن المألوف والمبتذل، وقد استخدم الشعراء العرب المحدثون أنواعاً كثيرة من الرّموز في كتاباتهم الشّعريّة، استخدموا الرّموز الواقعيّة، التّاريخية والجديدة، وكذلك الرّموز الأسطوريّة. ومن بين الرّموز التي حازت على حضور لافت في التّجربة الشّعريّة المعاصرة، رمز اللّون، بما يحمله من شحنة دلاليّة تُستثمر في تصوير الانفعالات والأفكار والرّؤى.

ويحتلّ اللّون الأخضر مكانة خاصّة في هذا السياق، إذ يتجاوز وظيفته التّزيينيّة إلى بعد رمزيّ عميق يمسّ الوجود والحياة والموت والتّجدّد والطّبيعة والمقدّس، وقد انشغل به عدد من الشعراء العرب، فحوّلوه إلى أداة تفكير شعريّ، لا مجرد عنصر جماليّ. ويأتي الشّاعر أدونيس في طليعة هؤلاء، إذ يستثمر اللّون الأخضر بوصفه بنية رمزيّة مركّبة، تتعدّد معانيها وتتقاطع مع رؤاه الكونيّة والفكريّة. لذلك فإنّنا في هذا البحث لن ندرس رمزيّة اللّون الأخضر دراسة دلاليّة مضمونيّة وحسب، بل سندرسها دراسة سياقيّة أيضاً، لكي نظهر القوّة الإبداعيّة لدى الشعراء العرب من خلال أدونيس.

من هنا، تتجلى أهميّة هذا البحث في كونه يحاول تفكيك حضور اللّون الأخضر في شعر أدونيس، بوصفه مفتاحاً تأويليّاً لقراءة البنى العميقة في تجربته، والولوج إلى تمثّلاته للكون والطّبيعة والذّات والآخر. فاللّون الأخضر لا يظهر عرضاً في نصوصه، بل هو علامة مشحونة بمدلولات حضاريّة وروحيّة وفلسفيّة، تحتاج إلى قراءة تتجاوز الظّاهر اللّغويّ إلى الباطن الرّمزيّ.

وينبثق من هذا الطّرح الإشكاليّة المحوريّة للبحث: كيف تتجلى رمزيّة اللّون الأخضر في شعر أدونيس؟ وما الدّلالات التي يكتسبها هذا اللّون في سياقات مختلفة من تجربته الشّعريّة؟ وهل تؤدّي هذه الرّمزيّة وظيفة جماليّة فقط، أم تتعدّها إلى أبعاد فكريّة ووجوديّة؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، اعتمدنا المنهج الموضوعاتي البنيوي، بوصفه منهجاً يُعنى بالكشف عن الثيمات المركزية في النصوص الشعرية، وتتبع بنيتها الداخلية، ورصد كيفية تشكّل المعنى عبر العلاقة بين الرّمز والسياق وبين الشكل والمضمون. ويتيح هذا المنهج فهم اللون الأخضر لا كمفردة معزولة، بل كبنية دلالية متشابكة تُسهم في بناء العالم الرّمزي والوجودي لدى أدونيس.

### أولاً- رمزية اللون الأخضر في الشعر العربي الحديث

لا جرم أنّ رمزية اللون الأخضر في الشعر العربي الحديث، هي رمزية متنوعة الدلالات، متعدّدة الوظائف، مكثّفة المعاني، وتؤدّي وظائفها في موضوعات كثيرة تتصل بحياتنا وقضاياها، وقد لجأ إليها الشعراء العرب المحدثون؛ ليعبروا عن أفكارهم التي ترفض العقم والجذب، وتؤمن بالحياة الخضراء التي تعني النماء والتجدّد والحيوية والاستمرار.

لجأ الشعراء العرب المحدثون إلى رمزية اللون الأخضر؛ لأنّها تجعلهم يخرجون، بواسطة الكلمة الشعرية، من واقعهم السياسي والاجتماعي الذي اعتراه اليأس؛ تجعلهم يعبرون عن حلمهم بمجيء الزمن الأخضر الذي تخضّر فيه العروبة في مجالات الحياة كافة؛ فالكلمة «هي وجود وحضور له كيان وجسم، وهي قطعة من الوجود أو وجه من وجوه التجربة الإنسانية، ومن ثمّ فإنّ لكلّ كلمة طعمًا ومذاقًا خاصًا»<sup>1</sup>.

ورمزية اللون الأخضر تعبّر عن تفاؤل الشعراء وإيمانهم القويّ بحتمية اخضرار الحضارة، والعلم، والثّقافة في دنيا العرب، بعد زمن من الاصفرار والذبول طال أمده. فكما اخضرار الشجرة يشير إلى ثمرها وعطائها المتجدّد، كذلك الاخضرار في القضايا الأخرى يحمل هذه المعاني؛ فاخضرار العلم يعني الانتشار والتّوسّع في ميادين متنوّعة، يعني التّقدّم المستمرّ في الاكتشاف والاختراع، ثمّ إنّ اخضرار الثّقافة يعني الزيادة المستمرة من الكتابة الإبداعية في الفكر والفلسفة والأدب.

إنّ الرّمز، حتّى يحمل دلالات متنوّعة، لا بدّ أن يندرج في سياق شعريّ رمزيّ جديد، أمّا إذا اندرج في سياق تقليديّ، فلا يحمل حينئذ سوى معناه، فإذا وصف الشّاعر عيونًا

1- إسماعيل، عزّ الدين، الشعر العربيّ المعاصر قضاياها وظواهره الفنّية والمعنويّة، دار الفكر العربي، ط 3، 2013م. ص 182.

خضراء، أو جنة خضراء بلغة تقليدية مباشرة، فإن اللون الأخضر يأتي في السياق حاملاً معناه المباشر، مجرداً من أية دلالة رمزية، ويأتي الوصف تقليدياً وعادياً يبين أن العيون لونها أخضر، وكذلك الجنة من دون أن يحمل أية إشارات رمزية، أما إذا استخدم الشاعر اللون الأخضر واصفاً العيون والجنة في سياق لغوي جديد، فحينئذ يحمل اللون الأخضر إشارات ودلالات رمزية، فيرمز إلى الخصب والنماء والحياة، فتصبح العيون الخضر لدى المرأة التي يعشقها الشاعر رمزاً إشارياً إلى الحياة والخصوبة. فالمرأة ذات العيون الخضراء هي خضراء ذات خصوبة بالحمل والإنجاب، وهي بعينها الخضراوين ترمز إلى اخضرار حياة الشاعر، ترمز إلى اخضرار كلماته وشعره وتجدد عطائه ونتاجه، وتصبح الجنة الخضراء رمزاً إشارياً إلى الخصب والنماء في الأرض والمواسم ما يجعل الشاعر مطمئناً في حياته على المستوى الفردي والوطني والقومي والإنساني. فاخضرار الجنة يعني استمرار حياة الشاعر والوطن والأمة والإنسان عامة؛ إذ إن الجنة الخضراء تعطي الإنسان المواسم والثمار، تعطيه مادة الحياة والغذاء والاستمرار، وتجعله متفائلاً ذا أمل، لا يعرف اليأس ولا يخاف المستقبل، تجعله يشعر بأن الوجود كله ينبض حياً في قلبه، وروحه، وكل خلية من خلايا جسده.

هكذا يتبين لنا الفرق الشاسع بين معنى اللون الأخضر في السياق التقليدي ومعناه في السياق الحديث، ويتبين لنا أن الكلمات، رموزاً كانت أو مفردات عادية، تستمد طاقتها الشعرية والإشارية من خلال اتحادها وتوأمها في سياقاتها النصية والإبداعية. فطاقة الرمز الشعرية والإشارية ليست موجودة فيه منفرداً، بل هي موجودة فيه مندرجاً في سياقه النصي الإبداعي، وما ينطبق على الرمز ينطبق على الكلمة.

### ثانياً - رمزية اللون الأخضر عند أدونيس

يعد أدونيس الشاعر رائداً بارزاً من رواد الحداثة الشعرية، ومن الذين أسهموا إسهاماً كبيراً في تفعيل حركتها، ومن الذين استخدموا الرمز الشعري - بنوعيه الواقعي والأسطوري - استخداماً متنوعاً، وفي موضوعات كثيرة، بغية الوصول إلى غايات شتى.

#### أ. اللون الأخضر درب الحياة والانبعاث

ومن بين الرموز التي استخدمها: اللون الأخضر الذي رمز في شعره إلى الحياة

والانبعاث؛ لأنّ هذا اللون هو في حقيقته نقيض العقم والجذب ونقيض الموت، وأدونيس هو شاعرٌ بعثيٌّ في تعبيره الشعريّ، وأعني بهذه العبارة أنّه يؤمن بفكرة البعث ويعبّر عنها، ويدعو إلى تحقيقها علمياً وحضارياً ولغوياً وإنسانياً، ولهذا شُغف باللون الأخضر واتّخذهُ رمزاً للتعبير عن فكرة البعث في قصائد كثيرة.

إنّه يرمز عنده إلى الأمل والتّفاؤل، يرمز إلى التّغلب على قوّة الجذب والبوار والموت؛ فاللون الأخضر يعطي أدونيس النّقة القويّة بالذّات، يعطيه العزم الشّديد، ويجعله يمشي على درب الحياة متفائلاً ومؤمناً بحتميّة النّصر على الجراح والألم؛ يقول: «أنا دربي خضراء لوّنها قلبي وغطّى جراحها تقبيلي»<sup>1</sup>.

إنّ اللون الأخضر في هذا البيت الشعريّ يرمز -كما أشرنا سابقاً- إلى التّفاؤل، يرمز إلى الخطوة الواثقة إلى الحياة الخضراء الرّاهية التي يمشي الشّاعر على دربها.

الدّرب الخضراء هنا ليست كأيّ درب أخرى من حيث الدّلالة الرّمزيّة، فهي تعني المسيرة المنتجة والمبدعة، مسيرة العطاء والعلم والتّجّاح، مسيرة التّجدّد والتّطوّر؛ أمّا الدرب السّوداء، فهي تعني الجهل وفقدان الرّؤية، تعني الضّياع والقلق على المصير في قلب المسيرة، وبهذه المقابلة بين الدّرب الخضراء والدّرب السّوداء تتجلّى لنا الوظيفة الرّمزيّة التي أدّاها اللون الأخضر في الشّاهد السّابق، فهي وظيفة مكّنت الشّاعر من التّعبير عن تفاؤله بالمستقبل الذي يمشي إليه، فهو - لا ريب - مستقبلٌ أخضر زاهٍ، مستقبلٌ متجدّد ومتطوّر، مستقبلٌ حافلٌ بالإنتاج والعطاء؛ لأنّ الدرب التي تُفضي إليه هي دربٌ خضراء.

إنّ الدّرب الخضراء توصل من يمشيها إلى الغايات الخضراء إلى المواسم والغلال، والدّرب السّوداء توصل من يمشيها إلى الفشل؛ لأنّ الرّؤية تتعدم عليها، إنّها توصل إلى حيث الجهل والتّخلف والضّياع والزّدى، فأدونيس حين أضفى على دربه صفة الاخضرار: «أنا دربي خضراء»، أراد أن يعبّر عن تفاؤله بمسيرته، وعن ثقته بخطوته التي يخطوها في سعيه إلى غاياته.

وكذلك أراد أن يُشير إلى ارتياحه وانبساط نفسه وسروره، فإذا كانت الدّرب خضراء، فإنّها حتماً ستوصل من يمشيها إلى المواسم والغلال إلى الحصاد والجنى. فالاخضرار

1- أدونيس: الديوان، قصيدة (قالت الأرض)، دار العودة، بيروت، ط 5، 1988. 26/1.

يعني الحياة والنماء، يعني البراعم والنفتح؛ ولهذا السبب المهم وجد الشاعر نفسه في سرور وطمأنينة، وهو يمشي على الدرب الخضراء، صار من دون أحزان ولا آلام: «وغطى جراحها تقبيلي».

كانت درب أدونيس من قبل مليئةً بالجراح التي تشير في هذه العبارة الشعرية إلى الصعاب والعثرات والعذاب والألم، كانت درباً مزروعةً شوكةً لكن قلبه المتفائل المليء حباً وخيراً، قلبه الأخضر النابض بالحياة والأمل جعلها خضراء، إذ أضفى عليها خضرته ولونها بلونه: «أنا دربي خضراء لونها قلبي وغطى جراحها تقبيلي»<sup>1</sup>. فالقلب في هذا الشاهد الشعري الأدونيسي يملك قدرة بعثية، يملك قوة الإخصاب، فهو كعشتار التي «تقوم بواجب آلهة الحب والخصب والرفاهية والازدهار»<sup>2</sup>.

هو قلبٌ مفعمٌ حياةً وطموحاً، وليس غريباً أن يمتاز بهذه المزايا، ويملك هذه القدرات؛ لأنه قلب شاعر استثنائي بعثي يؤمن بفكرة البعث، ويطلب تحقيقها في أفعال الناس؛ وذلك «حينما غدت الرؤيا الشعرية قفزة خارج المفهومات السائدة»<sup>(3)</sup>، فأدونيس صحيح أنه لم يستطع أن يحقق هذه الفكرة في الحياة والمجتمع، بيد أنه حققها في اللغة والشعر؛ والشاعر الذي يبعث اللغة من موتها وحطامها، ويبث في الشعر روح الحياة والتجدد والحداثة، هو شاعرٌ يملك قلباً استثنائياً قادراً على إخصاب الدرب وجعلها خضراء.

#### ب. القلب الخصيب: مصدر الرمزية والاختزال في التجربة الأدونيسية

إن قلب أدونيس، في البيت الشعري السابق، يبدو نبع الحياة ومصدر الاختزال والإخصاب، إذ استطاع أن يلون درب صاحبه باللون الأخضر، ويجعلها درباً حيةً بعد أن اعتراها العقم والجذب؛ فهي كانت من قبل درب الموت، فصارت بقوة الإخصاب الكامنة في القلب الأخضر، (قلب الشاعر)، درب الحياة، صارت درب السعادة والأمل بعد أن كانت درب الجراح والألم واليأس.

وفي سياق هذا التحليل الأدبي، تتبين لنا الوظيفة الرمزية التي يؤديها اللون الأخضر في التعبير الشعري الأدونيسي، فهي وظيفة إبداعية إخصابية قد أخصبت اللغة الأدونيسية

1- أدونيس، الديوان، قصيدة (قالت الأرض)، 26/1.

2- برندات، إيفلين كلنيكل، رحلة إلى بابل القديمة، ترجمة: د. زهدي الداودي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2009. ص 89.

3- أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط 3، 1983م. ص 9.

في البدء، ثم رمزت إلى إخصاب الدّرب وإخصاب مسيرة الشّاعر، وهذه القدرة الوظيفيّة الكامنة في اللون الأخضر هي قدرة خارقة؛ لأنّها نابغة من القلب الذي يُعدّ السّبب المباشر لحياة الإنسان، فإذا مات القلب مات الإنسان.

الدّرب الخضراء، في البيت الشعريّ السّابق، لم تكتسب اخضرارها من خيال الشاعر ومن إبداعه، بل اكتسبته من قلبه، وهنا نجد إشارة من أدونيس إلى أنّ الذي يريد أن يمشي دربه إلى أهدافه البعيدة والعظيمة من دون قلب يزوّده بالإيمان والثّقة والصّبر ينكفي في بداية المسيرة؛ لأنّ الذي يسير ولديه قلب قانط وميّت، تموت لديه الإرادة، وتغدو الدّرب أمامه سوداء مزروعة بالأشواك والجراح.

إنّ قلب أدونيس ليس آلة تضخّ الدّم في شرايينه وحسب، بل هو طاقة فاعلة تمنحه الأمل والطّموح، وتحثّه على المضيّ إلى الحياة الكريمة، هو طاقة فاعلة خلّاقة تلّون دربه باللّون الأخضر لون النّفاؤل والنّماء، مبشّرة إياه بالمستقبل الأخضر المليء بالمواسم والثّمار بعد مسيرة جهاديّة طويلة على الدّرب الخضراء، درب الحياة؛ والدرب -هنا- لا تعبّر عن مسيرة الشّاعر الذاتيّة وحسب، وإنّما تعبّر عن مسيرة الإنسان، هي تبشّرنا بمستقبل زاهر سوف تصل إليه الآدميّة جمعاء بعد حياة العقم والجذب التي لم تنتج سوى الحروب والقتل والخراب، تبشّرنا بالإنتاج العلميّ والازدهار الحضاريّ؛ ولهذا تُعدّ الصّورة الشعريّة في هذا الشّاهد الأدونيسيّ حصراً صورة تكمن فيها روح الحادثة؛ إذ لا تنحصر في إطار زمنيّ أو مكانيّ، بل هي مفتوحة على الزّمن والمكان معاً، وتعبّر عن تفاعل الإنسان بالمستقبل أينما وُجد في أيّ زمن وعلى أيّة أرض.

الحادثة توجب على القصيدة ألا ترتبط بصاحبها ارتباطاً ذاتيّاً؛ لأنّها تموت بموته، هي ترتبط بصاحبها فقط إذا كان يمثّل الإنسان معاناة وتجربةً وشعوراً وألماً، حينئذٍ تُكتب لها الحياة المستمرة، فتخلّد في ذاكرة الأجيال المتعاقبة.

الحادثة توجب على القصيدة أيضاً ألا ترتبط بزمن معيّن؛ لأنّها تموت بانقضائه؛ فإذا ارتبطت بزمن تتجرّد من روح الشّعر والإبداع، وتصبح نصّاً يؤرّخ حقبةً وينفصل عن المستقبل، وتتقطع علاقته بحركة الزّمن الجديد؛ ولهذا رأينا أنّ الدّرب الخضراء في الشّاهد الشعريّ الأدونيسيّ السّابق صورةً شعريّة تنبض فيها روح الحادثة وروح الإبداع؛ لأنّها ترمز إلى النّفاؤل والأمل، إلى الخصب والنّماء، إلى التّجدّد والحياة في أيّ زمن أو

أيّ مكان؛ لأنها تبشر الشّاعر خاصّة والإنسان عامّة بخصوبة الأيام الآتية التي ستكون أياماً مزهرة ومثمرة وغنيّة بالمواسم والغلل.

اخضرار الدّرب في العبارة السّابقة، هو اخضرارٌ في حركة الإنسان الحضاريّة، اخضرارٌ في سعيه وعمله وكفاحه، اخضرارٌ في مسيرته العلميّة والأدبيّة، اخضرار الدّرب هو اخضرار الكلمة الشّعريّة؛ لأنّ الدّرب الخضراء هي درب الشّاعر: «أنا دربي خضراء لونها قلبي وغطّى جراحها تقبيلي»<sup>1</sup>؛ فالشّاعر الذي تكون دربه خضراء لا بدّ من أن تكون كلمته خضراء أيضاً، لا بدّ أن يكون لديه التعبير الشّعريّ الأخضر الذي تُنتجه خصوبة اللّغة وخصوبة الخيال؛ إنّ الدّرب الخضراء هنا تأخذ دلالاتها من صاحبها الذي يمشي عليها، وهو الشّاعر، فلو كان من يمشي عليها فلاّحاً لكانت انتفت دلالاتها الرّمزيّة، وصار اخضرارها تقليديّاً مألوفاً، يعني اخضرار الأرض والزّرع، يعني الحصاد الحقيقيّ والثّمار الحقيقيّة، فالعلاقة بين الأرض الخضراء والشّاعر لها دلالاتها الرّمزيّة، ولها وظيفة شعريّة واحدة في سياق النصّ؛ فالاخضرار في درب الشّاعر يعني الاخضرار في كلماته وقصائده.

وهكذا يحمل اللون الأخضر في الدّرب الخضراء معاني خفيّة لا يمكن إدراكها إلّا بواسطة الفهم العميق للّغة الرّمزيّة الجديدة التي تُبنى عند الشّعراء المحدثين على أساس التّلميح والتّرميز؛ فالقارئ إذا أراد أن يفهم القصيدة الحديثة عليه ألاّ يكتفي بأن يفهم الكلمات وحسب، بل عليه أن يفهم اللّغة فهمًا كليّاً، وهي تُؤدّي في عباراتها؛ ولهذا نجد الدّرب الخضراء في سياقها اللّغوي تجاوزت رمزيّتها ضمن حدودها، تجاوزت رمزيّتها الكامنة في لفظها وصارت على علاقة رمزيّة مع الشّاعر.

### ج- الاخضرار الوجدانيّ والدّعوة إلى حبّ شمولي

ننتقل إلى شاهد شعري جديد يبدو فيه حبّ أدونيس حبّاً شاملاً مشعّاً، حبّاً يهدي النّاس الحيارى كالمنارة الخضراء؛ يقول: «أنابيب الضوء الذي لا يُضاء: قلقي شعلة على جبل النّيه وحبّي منارة خضراء»<sup>2</sup>.

1- أدونيس: الديوان، قصيدة (قالت الأرض)، 26 / 1.

2- أدونيس: الديوان، قصيدة (أوراق في الريح)، 112 / 1.



رمزية اللون الأخضر، في هذه العبارة، ترمز إلى الاخضرار العاطفي الوجداني، إلى اخضرار الشعور الإنساني عند أدونيس، أمّا في الدّرب الخضراء فيرمز اللون الأخضر إلى اخضرار الأمل والكلمات، وبالمقارنة بين الدّرب الخضراء والمنازة الخضراء عند أدونيس يتبيّن لنا الفرق بين الوظيفتين الرمزيّتين اللّتين أداهما اللون الأخضر في العبارتين؛ ففي العبارة الثّانية يبدو حبّ أدونيس مفتوحاً على العالم لا تحدّه حدود، حبّاً يرفض أن يكون له وطنٌ أو قوميّة أو انتماء سوى الإنسان، حبّاً نوارنياً مسخّراً لخدمة الحياة، هو يشبه المنازة الخضراء التي ترسل نورها الأخضر عبر الأفق والمدى المطلق، فتبتدّد الظّلمات التي تمنع الضّائعين الحائرين من الهداية والرّؤية.

حبّ أدونيس وفق هذا التحليل حبّ مجّانيّ مجرّد من أيّة غاية، هو النّور الذي يصل إلى النّاس كافّة من دون أن تمنع وصوله حدود وحواجز، هو حبّ غايته الوحيدة أن يهدي الإنسان المتخبّط في مستنقعات الجهل والأحقاد والحروب سبل الخير والرّشاد، غايته جمع أبناء الأدميّة على النّور والهداية بعد أن فرّقهم الظّلام والضّلال.

وهكذا تبدو لنا هنا رمزية اللون الأخضر رمزية تحمل معاني السّلام والحبّ والإخاء بين النّاس كافّة؛ فأدونيس في عبارته الشّعريّة السّابقة يدعو إلى الإخاء الإنسانيّ، هو يؤمن بأنّ كلّ الأمم والشّعوب هم إخوة في الأصل الأدميّ؛ ولهذا سخّر حبّه لهم جميعاً، سخّره لأجل جمعهم وتلاقيهم على الحبّ والأخوة... إنّه لا يكره أحداً، بل لا يعرف معنى الكره والعداء، من قلبه يتدفّق الحبّ عميماً، ينتشر في المدى المطلق كما ينتشر النّور من المنازة الخضراء؛ يقول: «وحبّي منارة خضراء».

والنّور الأخضر، في هذه العبارة الشّعريّة يرمز إلى الحبّ العميم المبيّث عبر المدى، إلى الحبّ الذي ينير درب الإنسان السّائر في ظلمات الجهل ومتاهات الصّراع العرقيّ والدّينيّ ولا يعرف إلى النّجاة سبيلاً، فمنارة الحبّ وحدها تمحو ظلمات الجهل وتجمع الناس كافّة على الإخاء بنورها العميم، وحدها تنتشر نور الحبّ عبر المدى، فتبتدّد البغضاء وتزيل أسباب العداء والصّراع. ومنارة الحبّ عند أدونيس هي الحلم والغاية في عصر يغشاه ليل العبوديّة والاستبداد والطّغيان، فهو يرى أنّ الشرّ لا يُقاوم بالشرّ، بل يُقاوم بالخير، وكذلك الكره والحقد يقاومان بالحبّ فالشرّ يصبح أكثر انتشاراً وأشدّ خطراً إذا قاومناه بشرّ مثله، وكذلك مقاومة الحقد بالحقد تشعل الحروب وتدمّر الحياة؛

لهذا اختار أدونيس الوسيلة الفضلى النّاجعة لمقاومة الشرّ والحقد المنتشرين بين النّاس، اختار الحبّ الذي يبني صرح السّلام، والمجتمع الإنساني البريء من علّة التّقاتل والتّشردم، اختار الحبّ الأخضر سلاحاً لمقاومة الشرّ والحقد من أجل التّأسيس لمستقبل أخضر ينعم فيه النّاس بالازدهار والرّفاه والطّمأنينة والسّلام؛ فسلّح الحبّ عند أدونيس صوناً للحياة وضمان للمستقبل، أمّا سلاح الشرّ فيدمّر الحياة ويقتل كلّ أمل بالمستقبل. فالإنسان لا يمكنه أن يستمرّ في درب الرّقّي والتّقّدّم والحضارة إلّا بالحبّ؛ وهذا هو أسلوب أدونيس الشعريّ بوصفه شاعراً حدثاً رائداً، هو أسلوبٌ تماهى مع معاني الفنّ والجمال والحبّ؛ لأنّ «الأسلوب هو النّصّ ذاته»<sup>1</sup>.

وانطلاقاً من هذه المعاني الوجدانيّة الصّافيّة السّامية، نفهم لماذا جعل أدونيس حبّه منارة خضراء، فقد أراد أن يكون الحبّ منتشرًا بين النّاس كافّة، يجمعهم على الأخوة، ويهديهم سبل الرّشاد والعلم. إنّ الشّاعر يبدو في الأبعاد الخفيّة الكامنة في الشّاهد الشعريّ السّابق ساخطاً على الحياة الرّديئة التي يحياها النّاس في التّباغض والتّقاتل، فاعتمد سلاح الحبّ كونه الوسيلة الوحيدة التي يدافع بها عن القيم الإنسانيّة والحضاريّة، قيم النّبيل والأخوة، قيم الحياة العظيمة.

الحبّ عند أدونيس هو الذي يشفي الإنسان من داء التّباغض والجشع، هو الدواء الفعّال النّاجع للعلل الاجتماعيّة والسّياسيّة التي تعرقل مسيرة الإنسان الحضاريّة في الحياة، من دون الحبّ لا يمكن أن تُبنى صروح الأخوة والفكر والحضارة، وقد أدرك الشّاعر هذه القوّة الهائلة في الحبّ فأراد توظيفه في خدمة الإنسان والحياة فجعله حبّاً شمولياً يعمّ الآدميّة جمعاء، إذ شبّهه بالمنارة الخضراء: «وحبّي منارة خضراء».

ونلاحظ هنا أنّ الدلالة الرّمزيّة الكامنة في اللون الأخضر لا تتفصل عن السّياق النّصّي الذي وردت فيه، بل هي نتيجة بديهية لاتّحاد كلمة (الخضراء) مع الكلمات التي تجاوزها؛ فصفة الاخضرار أعطت المنارة في السّياق النّصّي معنى الحياة والتّجدّد والخصوبة، فصار نورها الأخضر يحمل معنى رمزيّاً جديداً، إذ لم يعد يحمل معنى الهداية وحسب، بل صار يحمل معنى البشارة إلى الإنسان، معنى البشارة بالحياة الخضراء والمستقبل الأخضر. والنور بلونه الأصفر المألوف يبدّد الظّلام، أمّا النّور

1- Riffaterre, M, La production du texte, seuil, Paris, 1979.

بلونه الأخضر فهو خروج عن التقليد؛ لأنه يعني انتشار الخصب والنماء، ويرمز إلى المواسم الغنيّة بالعطاء الإنسانيّ في مجالات العلم والفكر والحضارة، وكذلك أعطت المنارة الخضراء الحبّ معنى الشّمول ومعنى الحياة والتّجدّد الكامن في صفة الاخضرار، فصار حبّ أدونيس شموليًّا إنسانيًّا لا يستثني أحدًا أو شعبًا أو أمة، صار حبًّا أخضر يجعل الموت في المجتمع الآدمي حياةً والعقم ولادة جديدة.

وهكذا يتبيّن لنا أنّ اللّغة «تكون كلّ واحدًا، إنّها نظام، وقيمة كلّ عنصر لا تتعلّق به بسبب طبيعته أو شكله الخاصّ ولكن بسبب مكانه وعلاقاته ضمن المجموع»<sup>1</sup>، إنّ اللون الأخضر في العبارة الشعريّة السابقة له علاقة وثيقة وموضوعيّة مع المنارة والنّور، وكذلك مع الحبّ. فالحبّ يعيد إلى المجتمع الآدمي الخصب والنّماء بعد أن قتله العقم والجذب، فيصير مجتمعًا حيًّا منتجًا وذا عطاء مستمرّ، والنّور الأخضر المشعّ ينشر الحبّ بين الشّعوب ويجعله حبًّا عميقًا، خلّاقًا، يستطيع أن يجمع الشّعوب المتقاتلة والمتنافرة على معانيه السّامية، معانيه التي تدعو إلى نبذ الحقد والعداء والعمل بدأب وتقانٍ من أجل صناعة السّلام. فكما النّور الذي تنشره المنارة عبر الأفق، عبر المدى لا تحدّه حدود، فهو يصل إلى النّاس كافّة من دون تخصيص أو تمييز، كذلك الحبّ الأدونيسيّ يكتسب هذه الصّفة، فهو يستطيع أن يتجاوز كلّ الحدود العرقية والدينيّة والسياسيّة، ويصل إلى الإنسان.

### ثالثًا - اللّغة الخضراء عند أدونيس/ اخضرار اللّغة عند أدونيس

#### أ. اللّغة الخضراء بوصفها لغة الحياة والتّجدّد والبعث

أمّر بديهي من أدونيس الذي يؤمن بفكرة البعث، ويسعى إلى تحقيقها في الحياة والمجتمع أن يعبر عن إيمانه باللّغة الخضراء، ويستخدمها في كتابته الشعريّة، «انبثاقًا من نضجه الثقافيّ المتحرّر المستقلّ، وهو المصرّح: «أحبُّ هنا أن أعترف بأنني كنت بين من أخذوا بثقافة الغرب، غير أنّي كنت كذلك بين الذين ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك، وقد تسلّحوا بوعي ومفاهيم تمكّنهم من أن يعيدوا قراءة موروّثهم بنظرة جديدة، وأن يحقّقوا استقلالهم الثقافيّ الذاتيّ»<sup>2</sup>؛ إذ لا يمكنه أبدًا أن يصل إلى أهدافه البعثيّة باللّغة

1- جبرو، ببير، علم الدلالة، ترجمة: د. منذر عياشي، دار طلاس، دمشق، 1992 م. ص 129.

2- أدونيس، الشعريّة العربيّة، دار الآداب، بيروت، ط 2، 1989 م. ص 76.

الصّفراء، يقول أدونيس:

«ظَلّ ملأت به أرضي يطول، يرى، يخضرّ، يحرق ماضيه ويحترقُ/ مثلي ونحيا معاً نمشي معاً وعلى شفاها لغة خضراء واحدة لكن أمام الضّحي والموت نفترق»<sup>1</sup>.

اللّغة الخضراء في هذا الشّاهد الشعريّ ترمز إلى اللّغة الحيّة التي تمنح الشّاعر قدرة التّعبير عن الحياة والتّجدّد، عن الولادة والخصب والنّماء. فاللّون الأخضر في دلّالته الرّمزيّة العامّة يعني الحياة ف «الأخضر هو لون مملكة النّبات معيداً إثبات ذاته من المياه المتجدّدة والطّاهرة التي تدين إليها المعموديّة بكلّ معناها الرّمزيّ. الأخضر هو صحوّة المياه الأوّليّة، الأخضر هو يقظة الحياة»<sup>2</sup>.

وانطلاقاً من هذا التعريف الذي يظهر الدّلالة الرّمزيّة التي يحملها اللّون الأخضر، يتبيّن لنا أن اللّغة الخضراء هي اللّغة الحيّة عند أدونيس، هي اللّغة التي تستطيع أن تصوّر الحياة وتخطبها، وتعبّر بقوة عن قضاياها ومشكلاتها وإلاّ تكون لغة صفراء لغة ميتة لا تستطيع أن تحمل رسالة الشّاعر البعثيّ، والبعث في حقيقته هو سرّ الحياة وروحها، وهكذا تظهر لنا العلاقة الوثيقة بين فكرة البعث التي طالما عبّر عنها أدونيس في شعره واللّغة الخضراء التي عدّها لغته الخاصّة.

فاللّغة الخضراء وفقاً للدّلالة الرّمزيّة التي يحملها اللّون الأخضر، تستطيع أن تمنح الشّعر روح الحياة والقدرة على البقاء والخلود. فأدونيس لا يمكنه أن يكتب بلغة اعترافها اليباس، وهو يُعدّ من طليعة الشّعراء العرب البعثيّين، فحتّى يعبّر عن فكرة البعث التي يؤمن بها كان لا بدّ له من أن يكتب شعره بلغة حيّة جديدة تتناسب نظرتّه إلى الوجود والحياة، تتناسب أهدافه التي يسعى إليها، كان لا بدّ له من أن يرفض اللّغة السّلفيّة؛ لأنّها لا تملك القدرة على مخاطبة الحياة الجديدة، وتوافقاً مع هذا الرّأي يقول أدونيس:

«ونمضي صدورنا إلى البحر، وفي كلماتنا يرقّد نحيبُ عصرٍ آخر، وكلماتنا لا وريث لها»<sup>3</sup>.

1- أدونيس: الديوان، قصيدة (فصل الدمع)، 1/

2-Cheralier, Jean, Gheerbrant, Alain, Dictionnaire des Symboles, edition reuve et augmentée, P 1002.

3- أدونيس: الديوان، قصيدة (مرثيّة الأيام الحاضرة)، 1/ 221.

الكلمات الموصوفة في هذا الشاهد الشعري لا يرثها أحد؛ لأنها كلمات بائدة تنتمي إلى لغة بائدة، تنتمي إلى لغة صفراء اعترها اليباس، فماتت، ما جعل الشاعر يبحث عن لغة أخرى تتصف بصفة الديمومة والخلود، فاهتدى إلى اللغة الخضراء.

إن اللغة الخضراء عند أدونيس هي لغة حيّة، ولديها القدرة على حمل معاني الحياة، ووصف مشكلاتها، وطرق قضاياها، وأمرٌ بديهي أن تحمل اللغة الخضراء عند أدونيس هذه الدلالة الرمزية، لأن «الأخضر هو لون الماء»<sup>1</sup>.

والماء وفق التحليل الموضوعاتي هو المادة الأولية التي تُصنع منها الحياة، هو السبب المباشر والرئيس للاخضرار والنماء والتجدد، وهكذا تتجلى لنا الأبعاد الرمزية التي رمى إليها الشاعر من خلال اللغة الخضراء. إنه أراد أن يلفت انتباه المتلقي إلى أن اللغة التي يستخدمها الشعراء وأهل الكلمة غير مؤهلة لمواكبة العصر ومخاطبة الحياة، غير قادرة على أن تحدث في الحياة الثقافية أيّ تجديد أو تحديث؛ لهذا أعرض عنها باحثاً عن لغته الخاصة التي تمتاز بصفة الاخضرار. فاللغة الخضراء تُنتج شعراً أخضر وثقافة خضراء؛ لأن اللغة هي المادة الأولية التي يُصنع منها الشعر والفكر والثقافة، فهي الماء الذي تُخلق منه الحياة فانعدام اللغة الخضراء يعني موت الشعر والفكر والثقافة، يعني بقاء اللغة الصفراء التي تعجز عن إنتاج الأدب الجميل، ونحن في هذا السياق التحليلي نستطيع أن نقيم مشابهة بين اللغة والشجرة، إذ إن الثمر الطيب الشهيّ تنتجه الشجرة الخضراء، أما الثمر الرديء الذي يفنقر إلى النضارة واللذّة، فتنتجه الشجرة الصفراء، وهذه النتيجة تتوافق مع سنة الله في خلقه، مع سنة الله الذي جعل من الماء كلّ شيء حيّ، فلولا الماء لما كان هناك حياة، أو خضرة: ﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾<sup>2</sup>.

إن الأرض الخضراء في هذه الآية القرآنية الكريمة ترمز إلى الحياة والتجدد، فالأرض الميتة تحيا وتتجدد بالماء، فينظر الإنسان إلى خضرتها، فيولد في نفسه الأمل بالمواسم الوفيرة والغلل الكثيرة ما يؤدي إلى شعوره بالطمأنينة وعدم الخوف من الجذب والعقم واليباس؛ وأتيت هنا بهذا المثال القرآني، لأبين أن اللون الأخضر عند الله هو لون الحياة والتجدد والخيرات، وكما ورد ذكر اللون الأخضر في القرآن الكريم، كذلك ورد ذكره في

1-Cheralier, Jean, Gheerbrant, Alain, Dictionnaire des Symboles, P 1002.

الكتاب المقدس: «في اليوم الثالث بعد إخراج النور من الظلمة، بذر الربّ في الأرض بذور الأعشاب والنباتات الخضراء»<sup>1</sup>.

إنّ اللون الأخضر وفقاً لهذا النصّ المأخوذ من الكتاب المقدّس يشير إلى أنّه أول ألوان الخلق، وهذا يؤكّد أهمّيّته الحيائيّة، أهمّيّته في خلق عناصر الحياة التي تتمثّل بنصّ الكتاب المقدّس بالنباتات الخضراء.

وانطلاقاً من المعنى الذي يؤدّيه اللون الأخضر في القرآن الكريم والكتاب المقدّس يتبيّن سبب ولع الشعراء العرب المحدثين باستخدامه في شعرهم، فهو منحهم القدرة التّعبيريّة عن ألمهم بولادة الحياة، بعد أن رأوا الموت قد أصاب كيانهم الاجتماعيّ والثّقافيّ والحضاريّ والإنسانيّ، فأحسّوا بالحزن والألم والقنوط. فاللون الأخضر أعاد إليهم الأمل بولادة الحياة الجديدة التي تشمل قضايا كيانيّة كثيرة، ومن بينها قضية اللّغة.

فاللّغة هي شخصيّة المرء وهويّته، هي سمته القوميّة والحضاريّة، لهذا فإنّ عقمها يؤدّي - لا محالة- إلى شعوره بالعقم في كيانه العامّ، وهذا المعنى يفسّر لجوء أدونيس إلى إكساب لغته صفة الاخضرار، فهو يعاني معاناة شديدة من العقم الشّديد الذي أصاب رحم اللّغة العربيّة فما عادت قادرة على إنجاب المعاني الجديدة والجميلة، إنّ أدونيس يتوق إلى الخلق الجديد في اللّغة، لقد سئم من اللّغة الصّفراء البليدة التي لا تستطيع الحمل والإنجاب، إنّ مثال اللّغة كمثال الأرض، فالاخضرار في كليهما يحمل دلالة رمزيّة واحدة، فاللون الأخضر «هو لون الرّبيع والتّجدّد والأمل، يرتبط- وخصوصاً النّاضر منه- بالنّماء، ويرمز للحياة والوفرة والخير»<sup>2</sup>.

وقد أراد أدونيس أن تحمل لغته كلّ هذه المعاني الرّائعة حين أكسبها صفة الاخضرار، أرادها لغةً تنبض فيها روح الخصب والحياة، فالتقى مع معنى الخضرة في القرآن الكريم والكتاب المقدّس، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ «اللون الأخضر قد ارتبط بأساطير قديمة عدّة، تعكس محاولات بدائيّة للبحث عن علاقة الخضرة بالحياة والخصوبة والخلود، فعندما لاحظ البدائيّ ما تقدّمه الأشجار الخضراء له ولغيره من الكائنات، ورأى أنّها تمده- وتمدّ

1- الكتاب المقدّس: سفر التكوين، (1: 11-12)، الطباعات الألمانية والهولنديّة.

2- محمد علي، إبراهيم، اللون في الشعر العربيّ قبل الإسلام، قراءة ميثولوجيّة، جروس برس، بيروت، ط 1، 2001. ص 112.

غيره- بأسباب الحياة، نظر إليها نظرة تقديس، قدّس فيها خصوصيتها وخضرتها»<sup>1</sup>.

إنّ هذا القول الذي أورده إبراهيم محمّد علي في كتابه «اللّون في الشّعر العربيّ قبل الإسلام» يشير إشارة بالغة الأهميّة إلى أنّ رمزيّة الحياة والخصوبة في اللّون الأخضر رمزيّة ذات جذور أسطوريّة موعلة في التّاريخ القديم، وليست رمزيّة طارئة ومبتدعة؛ فالشّعراء العرب المحدثون وظّفوها في شعرهم توظيفاً جديداً يرتبط بعصرهم، ويعبّر عن حياتهم ومشكلاتهم، وهذا الفعل ليس فعلاً سيّئاً، بل إنّ الشّاعر المبدع الذي يريد أن يكتب شعراً إبداعياً يكتب له البقاء، لا بدّ له من أن يعود إلى التّاريخ الحقيقيّ والأسطوريّ، لكي يصير أكثر غنىً في المعرفة والثّقافة، وأكثر قدرةً على إعادة إنتاج التّاريخ في شعر جديد يعبّر عن الحياة الجديدة. إنّ الشّاعر الذي لا يستلهم من التّاريخ معانيه التي تتّصل بالإنسان والحياة والثّقافة والحضارة هو في حقيقته يكون بلا جذور، وبلا إرث فكريّ يزوّده بالمادّة الأوليّة التي يُصنع منها الشّعر، يكون غير قادرٍ على مواكبة الحياة ومخاطبتها ووصف أحداثها، يكون غير قادرٍ على الإنتاج الإبداعيّ، فمثله حينئذٍ كمثّل الشّجرة التي تُقطع جذورها فتموت، وتصبح غير قادرة على إنتاج الثّمر، وأدونيس حين أضفى على لغته صفة الاخضرار أراد أن يمنحها صفة الخصوبة والتّجدّد والنماء، وأراد كذلك أن يربطها برمزيّة اللّون الأخضر ذات الجذور الموعلة في التّاريخ الميثولوجيّ، وكأنّ شاعرنا يريد أن يبيّن أنّ اللغة التي يجب أن تكتب لها الحياة لا بدّ من أن ترتبط بالجذور لكي تستمدّ خضرتها من التّاريخ وتجارب الشّعوب. فاللّغة التي ليس لها تاريخ تنفّر إلى الحيويّة، وتعاني من البلادة وعدم القدرة على التّجدّد؛ لأنّ اللّغة تستمدّ حيويّتها من تاريخها المثقل بالمعاني الإنسانيّة والحضاريّة، وهذا الرّأي يفسّر لجوء أدونيس (علي أحمد سعيد) وغيره من الشّعراء العرب المحدثين إلى التّاريخ القديم الواقعي والميثولوجيّ لاستخدام معانيه الرّمزيّة في كتاباتهم الشعرية.

وقد يظن بعض من الشّعراء أنّ العودة إلى القديم لا تخدم الحياة الجديدة، وهي تتناقض مع التّطوّر والتّجدّد، ونحن نقبل هذا الظّنّ إذا كانت العودة إلى القديم تتمّ بأسلوب يتناقض مع روح الحداثة الشّعريّة وحقيقة الإبداع الشّعريّ، أمّا إذا كانت هذه العودة تتمّ بأسلوب جديد يناقض الحياة القديمة ويتوافق مع حياتنا وعصرنا ومجتمعنا، فحينئذٍ تكون

1- محمد علي، إبراهيم، اللّون في الشّعر العربيّ قبل الإسلام، قراءة ميثولوجيّة، جروس برس، بيروت، ط 1، 2001.

عودة فاعلة ومنتجة وخلاقة، ومثال هذا نجده في الشعر العربي الحديث الذي يحوي الكثير من الأسماء القديمة الواقعية والقديمة الميثولوجية، ولكن هذه الأسماء تجددت في معانيها ودلالاتها؛ لأنها وظفت في سياقات شعرية جديدة فاسم (عشتار) مثلاً صار في الشعر العربي الحديث يرمز إلى الخصب والازدهار في موضوعات وطنية وقومية وحضارية وإنسانية واسم (الفينيق) صار يرمز إلى انبعاث الوطن أو الأمة أو الحضارة بعد الاحتراق، صار يرمز إلى انبعاث اللغة من موتها، إلى انبعاث التاريخ الحافل بالإبداع وال إعطاء.

فأدونيس يرفض اللغة السلفية في الشعر بيد أنه استخدم في كتابته الشعرية الكثير الكثير من الأسماء التي يعود زمانها إلى التاريخ الميثولوجي، ولكن الأسماء القديمة في شعر أدونيس أفرغت من معناها القديم وتجاوزت إطار زمانها الأسطوري، وصارت رموزاً شعرية تحمل دلالات رمزية تتوافق وقضايا حياتنا وعصرنا؛ لأن أدونيس، بوصفه رائد الحداثة الشعرية ومن طليعة الشعراء العرب المحدثين، يملك القدرة على تحوّل اللغة، فهو يحوّل الاسم القديم الذي ينحصر ضمن إطار زمني ومكاني اسماً جديداً متحرراً من قيود الزمان والمكان، اسماً جديداً متقللاً بالمعاني والدلالات الرمزية.

وبمعنى آخر، يمكننا القول: إنّ الشاعر في هذا الفعل يبعث اللغة من موتها يُخصبها ويبثّ فيها روح الحياة، ولأنّه يؤمن بضرورة إخصاب اللغة وانبعاثها، فقد أضفى عليها صفة الاخضرار، وبديهي أن تكون اللغة الأدونيسية لغة خضراء، مزهرة ومثمرة، فهي تستمد حياتها ونضارتها وطاقتها من الإرث الثقافي والحضاري الذي خلفته الشعوب؛ إذ «إنّ الشعر كان ضريراً من السحر»<sup>1</sup>.

وبالعودة إلى ما تقدّم يتبيّن لنا أنّ اللون الأخضر في التعبير الشعري الأدونيسي قد حمل دلالات رمزية مختلفة، ووظف في موضوعات متنوّعة. فالفرق واضح من حيث الدلالة الرمزية بين عبارة «وحبّي منارة خضراء» وعبارة «وعلى شفاها لغة خضراء واحدة».

1- رد، هيربرت، (Herbert Red) الفن والمجتمع، ترجمة فارس ميري ضاهر، دار القلم، بيروت، ط 1، 1975م. ص 19.



إننا في العبارة الأولى نلاحظ معنى شمول الحبّ النّاضر الذي به يحيا الإنسان وتُستمدّ الحياة، وشمول الحبّ في هذه العبارة، يتجاوز الحدود الاجتماعية والدينية والعرقية، ويشمل كلّ زوايا الأرض، حبّ ينشر بين الناس الأمل والتفاؤل، ويجعلهم أكثر ثقة وتعلّقًا بالحياة، يجعلهم يعملون في ميادين الإنتاج، وفي نفوسهم زخم العطاء، وترتسم أمام أعينهم ملامح المستقبل الأخضر، فأدونيس يودّ أن يقول: إنّ الأرض والإنسان لا يصلحان إلاّ بالحبّ الأخضر العميق - الذي يؤلّف بين الشعوب ويختصر المسافات بين البلدان، أمّا العبارة الثّانية فإنّنا نلاحظ فيها معنى اخضرار الأدب والفكر والثّقافة؛ لأنّ اللّغة الخضراء لغة حيّة قادرة على الإنتاج الصّحيح. فالخضرة تعني الصّحة، والصّفرة تعني المرض، ووفق هذا التّحليل يصير الحبّ الأخضر رمزًا للحبّ الصّحيح، رمزًا للإنسان الصّحيح والحياة الصّحيحة.

#### ب- اللّغة الخضراء كتجسيد للخصوبة الثّقافية والرّمزية التّاريخية والأسطوريّة

في سورة يوسف من القرآن الكريم يحمل اللون الأخضر دلالة الحياة الصّحيحة التي يكثر فيها الخير والرّزق والنّماء، حيث ترمز السّنابل الخضراء السّبع في رؤيا ملك مصر إلى سنين سبّع يكثر فيهنّ الخير والرّزق والمواسم، وترمز السّنابل السّبع اليابسات إلى سنين سبّع ينقطع فيهنّ المطر ويقلّ الرّزق ويعمّ اليباس.

إنّ هذه الدّلالة في السّنابل الخضر والسّنابل اليابسات مأخوذة من تأويل النّبّي يوسف عليه السّلام لرؤيا الملك: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلَّكَ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) قَالَ نَزَرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ (٤٩) ﴿٤٩﴾ (49) .

إنّ هذه الآية القرآنية الكريمة تشير إلى أنّ اللون الأخضر عند الله عزّ وجلّ هو لون الحياة.

فاللّهُ هو الذي أوحى إلى ملك مصر رؤيا السّنابل، وعلم يوسف تأويل الرّؤيا. اللّون الأخضر هو لون الحياة، وبهذا قضت سنة الله حين خلق الألوان، ونحن إذا ما تأملنا

الطّبيعة، فإنّنا نجد كلّ شيءٍ أخضر حيًّا، وحتّى الأرض - كما مرّ معنا آنفًا - بالماء تصبح مخضرةً واخضرار الأرض يعني اخضرار النباتات والأشجار الحيّة.

انطلاقاً من هذا المعنى الحيّاتيّ الكامن في اللون الأخضر قد رأينا أنّ أدونيس أراد باللّغة الخضراء أن يرمز إلى اللّغة الحيّة، فهو يتوق إلى أن تتبعث اللّغة العربيّة من ذبولها ويُبسها خضراء زاهية، لتستطيع أن تعبّر عن الحياة وتواكب الزّمن، فهو شاعرٌ ثائرٌ على اللّغة السلفيّة البليدة التي تعجز عن حمل أفكاره الجديدة الرائدة، ولا تستطيع التعبير عن همومه ومشكلاته الخاصّة والعامة، من خلال «الرؤيا الشعريّة والحلم الواعي يرى متصوّف عصرنا الواقع الكائن والواقع الممكن، وهو بذلك يخترق حجاب الزّمن المستقبل، فيؤدّي، بالنسبة إلى عصره، دوره القديم دور النّبوة»<sup>1</sup>، فأدونيس شاعرٌ تأبى يراعيه أن تخطّ على القرطاس لغةً بائدة؛ لأنّه يودّ أن يرى أسطورة الفينيق متجسّدة في كلّ مجالات الحياة، يودّ أن يرى اللّغة تتبعث من حطامها قويّة وفاعلة، ورغبة أدونيس بالبعث لا تنحصر ضمن إطار اللّغة، بل هي رغبة تشمل الحياة، إنّّه يرغب ببعث الفكر والحضارة وقيم الخير والعدالة؛ ليعيش الإنسان حياةً أجمل وأفضل، ولكنّ هذه الرّغبة الأدونيسيّة البعثيّة الشّاملة لا تتحقّق إلّا ببعث اللّغة من رسمها القديم، من ضعفها وبلادتها؛ وقد أدرك شاعرنا أدونيس هذه الحقيقة، فعمل على تخصيب اللّغة، واخضرارها لكي تنتج الثّقافة الخضراء النّاضرة الخصيبة، الثّقافة التي تتلاءم والحياة الجديدة وتتدفّق حدادتها وتجدّدًا عبر الماضي والحاضر والمستقبل.

ووفق هذا المعنى لا يُعدّ أدونيس رافضاً الثّراث اللّغوي والثّقافي بوصفه مصدرًا أو ينبوعاً يمدّ الحاضر بالحياة ويجعله قادراً على الاستمرار، بل هو يرفض تكرار الفكر القديم في لغة العصر الجديد، يرفض في لغتنا الفكر القديم الذي لا يتناسب مع حاضرنا ولا يبني أساساً صلباً لمستقبلنا المتقدّم المزدهر. إنّّه حين يدعو إلى اللّغة الخضراء، يدعو إلى اخضرار المجتمع على الصّعيد الثّقافي والإنسانيّ والعلميّ والحضاريّ، فبمقدار تطوّر اللّغة يكون تطوّر المجتمع، وتطوّر الحاضر والمستقبل أيضاً، وبمقدار ضعفها وترديّها يضعف المجتمع ويتردّى الحاضر والمستقبل، وتنعدم الثّقافة والعلم والحضارة.

1- أدونيس، الأعمال الشعريّة الكاملة، دار الساقي، بيروت، 1988م. 369/1.

اللغة هي الكيان الذي ينتمي إليه الإنسان وبه يتأثر؛ لهذا يجب أن تكون خضراء، خصيبة ثرية بالمعاني والأفكار والإشارات والدلالات الرمزية، يجب أن تكون متجددة لكي تستطيع أن تجدد الحياة وتجدد الإنسان.

إن مثل اللغة كممثل الماء، فإذا ركد في المستنقع أسنّ وفسد وصار غير صالح للحياة، أما إذا تدفّق من نبعه متجدداً عذباً رقيقاً، فإنه يكون ذا صلاح وفائدة، يكون ملائماً لخلق الخصوبة والنماء.

اللغة ينبغي أن تتماشى وسنة التجدد والحدثة، فإذا ما جمدت وتوقفت عن الحركة، فحينئذٍ تقصر عن مواكبة الزمن ومجاراة الحياة، وفي تقصيرها عن مواكبة الزمن ومجاراة الحياة تعجز عجزاً كبيراً في التعبير عن قضايا أمتها وإنسانها؛ وليس هذا وحسب، بل إن عجز اللغة يؤدي إلى عجز الأمة نفسها على الصعد كافة، فتتلاشى قواها وتضمحل حضارتها وتمحي شخصيتها. فاللغة هي التي تصنع الأمة وتُعطيها شخصيتها، وتبني حضارتها وتنتج فكرها وثقافتها وتحدد لها خواصها ومزاياها بين سائر الأمم، فحين تموت اللغة تموت الأمة وتندثر حضارتها وثقافتها، والتاريخ خير شاهد على صحة هذا الرأي، فثمة أمم كثيرة قد ماتت بموت لغتها، وأمم لم تجد لها سبيلاً للبقاء على قيد الحياة سوى اعتمادها لغة غيرها، ففقدت خواصها الثقافية والحضارية والقومية. فاللغة هي الهوية لكل هذه الخواص؛ ولأنها تمتاز بهذه الوظيفة في الحياة، فقد أرادها أدونيس أن تبقى خضراء لا تذبل ولا تموت. فأدونيس يدرك كل الإدراك أهمية دور اللغة العربية الخضراء في جعل العروبة تزدهر في مجالات الخلق والإبداع كافة، وهو في الحقيقة كان يدرك أيضاً أن لغة اللّون هي لغة إنسانية قديمة الجذور؛ لهذا عمد إلى توظيف اللّون في شعره بوصفه رمزاً تعبيرياً يمنح الكتابة روحاً إبداعية متجددة.

إن اللّون لغة عالمية اعتمدتها الأمم والشعوب في التعبير منذ الأزل، وما زالت تعتمد عليها إلى يومنا، وستظل تعتمد عليها إلى نهاية الزمان. ولغة اللّون متنوعة الوظائف، فلا يقتصر دورها في التعبير على الشعراء فقط، بل هي لغة كل المبدعين والمعبّرين. وهذا الرأي تؤكده الاكتشافات التي حقّقها علماء التاريخ والآثار حيث «ثبت أن استخدام الألوان في الرسم يمتدّ من مائة وخمسين ألف سنة إلى مائتي ألف سنة مضت، وقد عُثر في إسبانيا على رسوم في حوائط بعض الكهوف، تمثل بعض الحيوانات في ألوان حمراء وسوداء

وصفراء، ترجع إلى هذه الفترة السّحيقة»<sup>1</sup>.

إنّ هذا الشّاهد يؤكّد أنّ لغة اللّون ذات جذور موعلة في التّاريخ السّحيق، وذات تنوّع في الوظيفة التّعبيريّة. وقد يسأل سائل إذا كانت لغة اللّون لغةً مكتملة العناصر، وقد اعتمدتها الأمم والشّعوب في التّعبير خلال مراحل التاريخ المتعدّدة، فلماذا أضافها الشّعراء العرب المحدثون وغير العرب إلى لغة الحروف والكلمات؟

الجواب يكمن في أنّ شعراء الحداثة أرادوا في إضافة اللّون إلى الكلمة أن يقيموا مزجاً بين اللّغتين أو الوسيطتين التّعبيريتين، أرادوا أن يُخصبوا اللّغة اللّسانية بتلقيحها أو (تطعيمها) من لغة اللّون الرّمزيّة الإشاريّة، وبواسطة عمليّة التّلقيح أو التّطعيم يتمّ إنتاج لغة جديدة فاعلة ومثمرة هي ذاتها عند أدونيس اللّغة الخضراء. فسّر الخصوبة في الشّعر العربيّ الحديث عموماً وشعر أدونيس خصوصاً يكمن في عمليّة التّلقيح أو التّطعيم بواسطة رمزيّة اللّون ورمزيّة الأسماء الواقعيّة والأسطوريّة. إنّ رمزيّة اللّون في اللّغة الشّعريّة تمثّل - كما أسلفنا سابقاً - الطّاقة الإضافيّة الفاعلة؛ لأنّ اللّون على علاقة مع الحياة منذ بداية التّكوين على علاقة مع الطّبيعة بكلّ عناصرها والمخلوقات التي تعيش فيها، فإذا ما نظرنا إلى الشّجرة في فصل الرّبيع فإنّنا نرى أوراقها خضراء زاهية، ثمّ يتحوّل اللّون الأخضر في الأوراق تدريجياً إلى اللّون الأصفر في فصل الصّيف وصولاً إلى الذّبول والتّساقط في فصل الخريف، ومن ثمّ تعيش الشّجرة فترة التّعري في فصل الشّتاء متخلّية عن طبيعتها القديمة استعداداً للتّجدّد في نظام موسميّ مستمرّ ومثمر، واللّون الأخضر في أوراق الشّجرة يرمز إلى الحياة والخصوبة والعطاء، أمّا اللّون الأصفر فيها فيرمز إلى التّعب والزّكون إلى الارتياح حفاظاً على ديمومة الطّاقة المنتجة في دورة الحياة الموسميّة المثمرة.

ومثال الشّجرة الذي سقناه هنا ليس وحده يدلّ على العلاقة الوثيقة القائمة بين اللّون والحياة، بل ثمة أمثلة كثيرة لا يمكن أن يحصيها أحد من الناس، فمنها ما هو في عالم الخفاء، ومنها ما هو في عالم الغيب. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ رمزيّة اللّون يختلف معناها الاجتماعيّ والحضاريّ عند أمة عن معناها عند أمة أخرى، وكذلك يختلف معناها في عصر عن معناها في عصر آخر، وقد ارتبطت رمزيّة اللّون بكلّ العصور

1- عمر، أحمد مختار، اللّغة واللّون، عالم الكتب، القاهرة، ط 2، 1997م. ص 27-26.

السابقة، وستظل مرتبطة بالعصور اللاحقة؛ لأنّ اللون هو في خلقه مرتبط بالحياة، وإذا ما عدنا إلى زمن الحضارة المصرية القديمة، فإننا نجد اللون قد حمل دلالة رمزية خاصة في حقبة تاريخية حضارية خاصة، حيث اعتاد المصريون على «تصوير النساء بلون أصفر، والرجال بلون أحمر»<sup>1</sup>، وكذلك نجد «مثل ذلك عند الكريتيين والفينيقيين»<sup>2</sup>.

### خاتمة البحث

سعى هذا البحث إلى استكشاف اللون الأخضر بوصفه رمزاً عميقاً في الثقافة الإنسانية، ووسيلة تعبيرية ذات طاقة إيحائية كثيفة في الحقول الدينية، الأسطورية، الطبيعية والفنية، ثم انتقل ليستجلي تجليات هذا الرمز في التجربة الشعرية الأدونيسية التي تمثل نموذجاً للحدث العربية الرفضة للجمود والسكون.

وقد تبين لنا أنّ اللون الأخضر ليس مجرد صفة بصرية، بل هو علامة كونية كبرى تدلّ على الحياة والخصوبة والبعث والأمل، وقد ارتبط بالوجود الإنساني منذ أقدم الحضارات، حتى تجسّد في التصوُّص المقدّسة كرمز لليقظة والنماء. ومن هذا المعنى الرمزي العميق انطلق البحث ليتتبّع كيف تمثّل أدونيس هذا اللون بوصفه جوهرًا لرؤيته الشعرية، ووسيلة لتجديد اللغة، وإعادة إحيائها من رماد البلادة والجمود؛ فاللغة الخضراء في شعر أدونيس هي لغة البديل والممكن، اللغة التي تنبثق من رحم المعاناة والتوق إلى الخلاص، وهي تجسيد لوعيه الجمالي والحضاري، حيث تتحوّل الكلمة إلى كائن حي، يحمل قدرة التغيّر والتأثير، وينبع من جذور التاريخ والأسطورة؛ لينفتح على آفاق المستقبل والتجدّد.

يمكن القول في ضوء ما سبق: إنّ اللون الأخضر - بما يحمله من رمزية عميقة وقابلية للتحوّل الدلالي - قد غدا عند أدونيس رؤية كاملة للعالم، لا تقتصر على الشعر بوصفه فنّاً، بل تتجاوز ذلك إلى الفلسفة واللغة والحضارة والثقافة.

من هنا، فإنّ دراسة اللون الأخضر في شعر أدونيس ليست استقصاءً لعنصر جماليّ فحسب، بل هي أيضاً قراءة في بنية فكرية متكاملة، تنشّد الحياة في وجه الموت،

1- إرمان، أدولف، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، محرم كمال، مكتبة النهضة، القاهرة. ص 22.

2- ديورانت، ول، قصّة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، منشورات دار الجبل والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لبنان - تونس، 1988م، 1/ 20

والخصب في وجه العقم، والتجدد في وجه التكرار.

هكذا، يفتح البحث على إمكانات جديدة في تحليل الشعر المعاصر من خلال رمزية اللون، وعلى إمكانية إعادة قراءة الرموز بوصفها أبواباً لفهم أعمق للعلاقة بين الإنسان والعالم واللغة.

#### المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

1. الكتاب المقدس: سفر التكوين، (1: 11-12)، الطبعات الألمانية والهولندية.
2. أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، دار الساقي، بيروت، 1988م.
3. أدونيس، الديوان، دار العودة، بيروت، ط 5، 1988.
4. أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط 3، 1983م.
5. أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط 2، 1989م.
6. إرمان، أدولف، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، محرم كمال، مكتبة النهضة، القاهرة.
7. إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، ط 3، 2013م.
8. برندات، إيفلين كلنيكل، رحلة إلى بابل القديمة، ترجمة: د. زهدي الداوودي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2009.
9. جبرو، بيبير، علم الدلالة، ترجمة: د. منذر عياشي، دار طلاس، دمشق، 1992.
10. ديورانت، ول: قصة الحضارة
11. رد، هيربرت، (Herbert Red) الفن والمجتمع، ترجمة فارس متري ضاهر، دار القلم، بيروت، ط 1، 1975م.
12. عمر، أحمد مختار، اللغة واللون، عالم الكتب، القاهرة، ط 2، 1997م.
13. محمد علي، إبراهيم، اللون في الشعر العربي قبل الإسلام، قراءة ميثولوجية، جروس برس، بيروت، ط 1، 2001.

#### المراجع الأجنبية

1. - Cheralier, Jean, Gheerbrant, Alain, Dictionnaire des Symboles, edition reuve et augmentatée, P 1002.
2. - Riffaterre, M, La production du texte, seuil, Paris, 1979.

## جوانب من نظرية الخطاب: تعريفه وفصاحته

### Aspects of Discourse Theory: Definition and Eloquence

د. كميل أ. مخايل<sup>1</sup>

Dr. Kamil A. Mikhael

تاريخ القبول 2025/7/30

تاريخ الاستلام 2025 / 7 / 4

#### ملخص

يتحرى هذا البحث جوانب محدّدة من نظرية الخطاب في ضوء التبصّرات التي نتجت عن حركة ما بعد البنيوية. يبدأ البحث بتقصّي فلسفة حركة ما بعد البنيوية وأفكارها النقديّة التي طالت البنيوية. وفي المبحث الثاني يدرس البحث موضوع الخطاب ودوره الرئيس في أدبيات مفكري حركة ما بعد البنيوية، ثم يتتبع البحث تطور تعريف الخطاب وتنوعه وعلاقته بالعالم الواقعي. وفي المبحث الرابع يتقصّي البحث موضوع فصاحة الخطاب وأساليبه الدلالية واستراتيجياته التداولية مثل استخدام الاستلزام التّخاطبي. يعرض المبحث الأخير نتائج الدّراسة ويبحث موضوع التّظهير في الخطاب باللجوء إلى إطار جديد، وهو الجمع بين الإبداع ودور الإدراك، أي دراسة ما هو خاصّ وعمّ في دراسات الخطاب.

**الكلمات المفتاحيّة:** ما بعد البنيوية، نظرية الخطاب، الدّالّ الفارغ، فصاحة، نظرية التّركيب الاجتماعيّ.

#### Abstract

This research explores various aspects of discourse theory through the lens of insights gained from poststructuralism. This research first investigates the philosophy of poststructuralism and its critical ideas that address structuralism. The second section of the research examines discourse and its fundamental role in the literature of poststructuralist thinkers, and then it traces the evolution of discourse definitions, their variety, and their

1-د. كميل أ. مخايل حائز على شهادة دكتوراه في اللغات والترجمة من الجامعة اللبنانية، باحث ولساني يهتم بدراسات الخطاب والتداولية.

relationship to the real world. The third section investigates discourse eloquence, semantics, and pragmatic strategies, including implicature. The final section presents the research findings and examines the theorization of discourse through a new framework that combines creativity and cognition. This approach focuses on analyzing what is unique (particular) and shared (public) within discourse studies.

**Keywords:** poststructuralism, discourse theory, empty signifier, eloquence, social constructionism.

## مقدمة

أسهمت الإنجازات العلميّة التي شهدها منتصف القرن العشرين في انتشار المعرفة وتعزيز الثقافة عند الشعوب، ما أدّى إلى مضاعفة الإنتاج الأدبي والفكري، وترافق ذلك وظهور النظريات الأدبيّة واللّسانيّة المتنوّعة، ومنها نظريّة الخطاب التي تأثرت بعلوم كثيرة، أهمها: فلسفة اللّغة وعلم الاجتماع وعلم النفس والسيميائية والنظريّة النّقديّة. ازدهرت هذه العلوم في مرحلة زمنيّة متقاربة متأثرة ببونقة من التّغيّرات الاجتماعيّة والأحداث السياسيّة التي جرت في المرحلة المذكورة؛ أضف إلى ذلك الدّور التّنظيريّ الذي تولّاه عدد من الفلاسفة، منهم على سبيل المثال ميشال بيشو (Michel Pêcheux) ويورغن هابرمس (Jürgen Habermas)، فأدّى ذلك كلّ بدوره إلى انفجار معرفيّ استفادت منه نظريّة الخطاب لاحقاً، حيث عرفت أفكاراً جديدة، وازداد منهجها النّقديّ غنى، إذ ضمّ آفاقاً تحليليّة علمية لم تكن لتوجد سابقاً.

يتناول هذا البحث جزءاً رئيساً من هذه التّطوّرات، ويدرس أيضاً تطوّر تعريف الخطاب وعلاقة ذلك بالآفاق التّحليليّة المتنوّعة من جهة، والكفاءة المنهجية لتحليل الخطاب من جهة أخرى. والجدير ذكره هنا أنّ هذه المنهجية التّحليليّة قسّمت الخطاب من حيث علاقته بالواقع الماديّ إلى مكوّن ومكوّن، وهو أيضاً موضوع سيتطرّق اليه.

## 1. ما بعد البنيويّة والخطاب

بادئ ذي بدء، رفضت حركة ما بعد البنيويّة (Poststructuralism) بعض المفهومات البنيويّة مثل عقلنة المفهومات وعولمتها، ويعدّ الفيلسوف الفرنسيّ جاك دريدا (Jacques Derrida) أوّل من استهلّ هذه المواقف النّقديّة في ورقة بحثية قدمها عام



1966 في مؤتمر عقد في الولايات المتحدة الأميركية. يمكن تعريف ما بعد البنيوية على النحو الآتي: هي مجموعة من المواقف يتخذها المرء تجاه عملية التواصل وتاريخها المديد، وبتبني الناقد أو المفكر هذه المواقف في خضم فهم الأحداث وتأويلها<sup>1</sup>.

وبشرح تيري إيجلتون (Terry Eagleton) أحد أبرز النقاد الأدبيين فكرة ما بعد البنيوية بنصٍّ معبرٍ، يقول: إذا البنيوية فرقت بين العلامة اللغوية ومرجعها، فإن حركة ما بعد البنيوية ذهبت أبعد من ذلك وفرقت بين الدال والمدلول. [يتابع إيجلتون شارحا]: بعبارات أخرى ما قلناه للتو هو أنّ المعنى غير موجود بشكل مباشر في العلامة اللغوية. وبما أن معنى أي علامة يعتمد على ما ليست عليه العلامة، فإن معنى العلامة اللغوية غائب عنها أيضا. المعنى إذا أردت مبعثر أو منتشر على امتداد سلسلة الدوال كلّها، لذلك لا يمكن أن نحدده بدقة، أي المعنى، فهو غير موجود في أية علامة منفردة، إنما هو نوع دائم من الحضور المتذبذب والغياب في الوقت نفسه<sup>2</sup>.

أريد أن أتوقف هنا شارحا ما ورد أعلاه، فقد حاول إيجلتون شرح العلاقة بين المعنى والعلامة اللغوية والتواصل في ضوء مفهومات حركة ما بعد البنيوية. وأساس ذلك هو نقد أفكار منظري البنيوية الذين كانوا قد انطلقوا من فكرة النظام اللغوي ودراسته دراسة آنية، أي أنّ النظام المذكور هو نظام مستقل عن الواقع السياسي والاجتماعي، وهو ما تجسد بفكرة ابتعادهم عن دراسة أثر التاريخ في النظام اللغوي. وفي الواقع يذكر أكثر من باحث أن عناصر القوة في البنيوية هي أيضا عناصر ضعفها، وهذا ما حث حركة ما بعد البنيوية على إعادة صياغة أفكارهم النقدية صياغة تضمن الاتساق فيما بينها من جهة، وتضمن إعادة تحديد العلاقة بين اللغة والواقع الاجتماعي من جهة أخرى.

وبإضافة إلى ذلك أنّ حركة ما بعد البنيوية ابتعدت عن التنظير الأحادي الذي طبع مرحلة البنيوية آنذاك، واقتربت أكثر من التنظير المتنوع بسبب تعدد منظريها والحاجة الفلسفية إلى ذلك. وحاولت أيضا الحركة المذكورة صياغة دور المعرفة، فرفضت مقولات البنيوية التي حصرت المعرفة ببنية مسيطرة، فالمعرفة في مرحلة ما بعد البنيوية

1- Crick, N. A. (2019). Poststructuralism. In D. L. Cloud (ed.), The Oxford encyclopedia of communication and critical cultural Studies(3), Oxford: Oxford university press, pp.1307-1309.

2-Eagleton, T. (1983). Literary theory: An introduction. Oxford: Blackwell. p. 128.

تتخطى الجوهر. لذلك تُعدّ حركة ما بعد البنيوية في هذا السياق نوعاً من الممارسات التي تتّصف بأنّها أفعال إبداعية وذات طبيعة نقدية وعملية. وقد طوّرت حركة ما بعد البنيوية فلسفتها، وبرز دور المعرفة وحدودها وعلاقتها بالخطاب، حيث ترسّبت آثار الممارسة اللغوية، ممّا أدى إلى التركيز على المسائل الهامشية والمبعثرة، وتجلّى ذلك بأفكار عديدة<sup>1</sup>، وهذا ما سأعرضه باقتضاب:

**1.1 أولية النظرية (The primacy of theory):** في مرحلة ما بعد البنيوية أصبحت النظرية عنصراً أكثر أهمية وأكثر بروزاً في ممارسة النقد وفي كل موضوعات المعرفة، وكل ما لا يتسق والنظرية يرفض ويعدّ غير مبرّر ووهمي.

**2.1 إزاحة الفاعل (The decentering of the subject):** تنطلق هذه الفكرة من أنّ الإنتاج الأدبي ليس حصراً وليدة المؤلف، وهي تتسق وفكرة إلغاء البنية المركزية المسيطرة التي نادى بها جاك دريدا، وقد صاغها رولان بارت (Roland Barthes) بأسلوب آخر، وهو موت المؤلف. وجوهر هذه الأفكار أنّ مصدر المعرفة متنوّع ومتعدّد.

**3.1 القراءة والنصوص والكتابة (Reading, texts, and writing):** ترتبط هذه الفكرة بما ورد أعلاه ارتباطاً مباشراً، وتعني هنا بتحرير النص من أدبيته، لأنّ الأخيرة التي كانت ترتبط بالمؤلف في مرحلة البنيوية لم تعد كذلك. فالنص تحرّر من سلطة المؤلف هنا، وتحوّل القارئ إلى المسؤول الرئيس عن تأويل النصوص، أي أنه قارئ حرّ يقابله نصّ حرّ يتميز بنصّيته. وجوهر هذه الفكرة هو تحرير النصوص من فكرة تصنيفها المسبق.

**4.1 مفهوم الخطاب (The concept of discourse):** انطلقاً من سبعينيات القرن الماضي، وتأثير من تطوّر مناهج النقد، وبخاصة النقد الحوارية الذي أسّسه ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtin)، تحوّل الخطاب إلى واحة من التبادل الدينامي للمعتقدات والسلوكيات، والمشاعر، ومظاهر الوعي الإنساني. تسهم هذه العناصر مجتمعة في إثراء المعاني المباشرة بدلالات جديدة.

**5.1 هيرمينوطيقا الشك (Hermeneutics of suspicion):** أو التأويلية القائمة على الشك بحسب بول ريكور (Paul Ricoeur). يقصد بهذه الفكرة دراسة المعاني

1-Williams, J. (2005). Understanding poststructuralism. Chesham: Acumen. pp. 5-6.

المحتمة في النصوص، أي أن المعاني المقصودة من النصوص لا تظهر في البنية السطحية، بل يُعبر عنها بأسلوب غير مباشر ومضمر، ويعود ذلك إلى قوى نفسية وأيديولوجية وضرورات خطابية. أما المعاني الظاهرة في البنية السطحية للنص فهي أشبه بتشويه أو إزاحة أو حتى إعاقة للمعاني الحقيقية التي تحتاج إلى تحليل لمقاصدها.

**6.1 النسبية (Relativism):** أو مذهب النسبية، ينص هذا المذهب على أن غياب البنية المركزية، أو القاعدة الأساس، يقتضي أن علاقة الحقائق والقيم والمبادئ الحضارية بثقافة مسيطرة أو أيديولوجيا ما أو نمط معين من الأشخاص، هي علاقة نسبية في مكان ما وزمان ما، ما يستدعي المطالبة بتعميم المساواة ومنحها لأطراف المجتمع، وبخاصة للأقليات منهم<sup>1</sup>.

هذه كانت أهم الموضوعات التي أثارها منظرو حركة ما بعد البنيوية، ولا يزال لغاية الآن كثير منها موضع بحث وبخاصة علاقة المعرفة بالخطاب، أو اللغة في الاستعمال، وكيف تنتج السلطة من جراء العلاقة المذكورة، وأثر ذلك في عملية التواصل. يذكر أحد الباحثين على سبيل المثال أن دور حركة ما بعد البنيوية في العلاقات الدولية هو كشف دور العنف، وإبراز دور الهوية والكفاءة السياسية وغيرها في تكوين الحياة السياسية والاجتماعية المعاصرة<sup>2</sup>، أي بيان كيفية استغلال السياسيين والمفكرين وغيرهم لقواعد الاستدلال للتحكم في العملية التواصلية، وبخاصة في مقارنة القضايا السياسية والاجتماعية المستجدة.

هذه التحوّلات في مقارنة القضايا المذكورة لم تكن لتبرز لو لم تتطور المناهج النقدية وأسسها الفلسفية، بدءًا بالشكلية الروسية (Russian Formalism)، ومرورا بالبنيوية، وصولاً إلى حركة ما بعد الحداثة (Postmodernism)، ولم تكن لتنتج أيضا لو لم يتمّ النظر إلى الخطاب في فكر ما بعد البنيوية كمكوّن للواقع الاجتماعي<sup>3</sup>، حيث باستطاعتنا

1-Abrams, M. H. & Harpham, G. G. (2012). A glossary of literary terms. Boston: Wadsworth. pp. 308-313.

2-Devetak, R. (2013). Poststructuralism. In S. Burchill et al. (eds.), Theories of international relations, Houndmills: Palgrave Macmillan, pp. 200-207.

3-Broadfoot, K., Deetz, S., & Anderson, D. (2004). Multi-levelled, multi-method approaches to organizational discourse. In D. Grant et al. (eds.), The Sage handbook of organizational discourse, London: Sage, p. 195.

أن نمثل لأنفسنا صلة الوصل بين علاقتنا المختبرة وشروط وجودنا المادي<sup>1</sup>. وكان الدافع الرئيس وراء ذلك هو النقد ما بعد البنيوي، وبخاصة فكرة الذاتية (Subjectivity) المتحوّلة باستمرار وفكرة عدم وجود معنى محدد (Indeterminacy)، وفكرة التغيّر المستمر والمرونة (Change and Fluidity)<sup>2</sup>.

فمهمّة الخطاب إذاً، مثلما تبين أعلاه، تحويل تجاربنا المستقاة من التاريخ إلى تجربة مادية يمكن اختبارها والحكم عليها. لذلك كنت قد تطرّقت إلى الفكر النقديّ الذي طوّره مقارنة ما بعد البنيويّة، حيث تحوّل الخطاب إلى ممارسة تواصلية بدلاً من اللغة كبنية، لأنّ الخطاب يستبعد المتكلّم أو المتكلّم الأحاديّ المستقل والمكوّن لنفسه، أي أنّ الذات في الخطاب ذات اجتماعية كونها المجتمع وليست ذات فردية<sup>3</sup>، وهو ما يتّسق ومفهوم إزاحة الفاعل الذي ذكرته أعلاه من جهة، والنقد الذي يرفض أنّه بالإمكان فهم المجتمعات بناء على قواعد عالميّة وبنى نصية غير مرنة تتردّد في النصوص والفنون والشعائر الدينية أو حتى في أساليب التعبير<sup>4</sup> من جهة أخرى.

والممارسة الخطابية فيما بعد البنيويّة تعني أيضاً أنّ مسؤولية إنتاج المعنى لا تقع على عاتق المستوى الدلالي في اللغة، بل تتخطّاه إلى رحاب متجدّدة لا تتضب؛ منها ما هو تاريخي وأنثروبولوجي، ومنها ما هو معاصر وأيديولوجي. فنحن هنا أمام اكتشاف التجربة الإنسانية وربطها بتجربة أخرى، ولسنا أمام اكتشاف التجربة الدلالية وتسيقها على الرغم من أهميتها. لذلك برزت نظرية أفعال الكلام (Speech act theory) متأثرة بحركة ما بعد البنيويّة لأنّها تناولت تحليل الكلام وليس النظام اللغويّ. ولقد أشار اللسانيّ الألمانيّ يوهانس أنغرمولر (Johannes Angermuller) إلى أنّ حركة ما بعد البنيويّة هي وليدة تقاطع جمع بين الإنسانيّات والعلوم الاجتماعية والحيز اللغويّ

1- Althusser, L. (1972). Lenin and philosophy. New York: Monthly review press. pp. 163-164.

2-Swann, J. et al. (2004). Dictionary of sociolinguistics. Edinburgh: Edinburgh university press. p. 247.

3- Paz, A. I. (2013). Discourse theory. In R. J. McGee & R. L. Warms (eds.), Theory in social and cultural anthropology: An encyclopedia (1), London: Sage, p. 193.

4-Castle, G. (2013). The literary theory handbook. Oxford: Wiley-Blackwell. p. 167.

## والاجتماعي المتعدد الاختصاصات<sup>1</sup>.

هذا الربط لا بد أن يتجسد في البنية السطحية للغة، أو أن يُعبّر عنه، وعندما يتحقق ذلك وفق ميشال فوكو (Michel Foucault)، يجري خلق الذات المتكلمة في الخطاب، سواء أنتج ذلك عن بوقنة

من الأحداث التاريخية أم عن بنى خطابية معاصرة... وهذا يستتبع أن العلامة اللغوية، وبحسب جاك دريدا، هي جاهزة للاستخدام في أحداث تواصلية دائمة، ما يعني أن العلامة اللغوية، أي الدال والمدلول، لا يمكن الركون إليها لتحليل البنى اللغوية مثلما افترضت البنيوية<sup>2</sup>، بل ما يمكن الركون إليه لملاحظة البنى وتحليلها وجعل ذلك ممكناً وفق تبصّرات ما بعد البنيوية هو مفهوم جديد، مفهوم لا يستبعد المصادر الاجتماعية من الاجتماعي نفسه وهو الخطاب<sup>3</sup>، وهذا هو موضوع المبحث الآتي.

## 2. نظرية الخطاب

تبيّن في المبحث السابق أن تطور المناهج النقدية ساهم في تطوير مناهج تحليل الخطاب، ووضع الأطر الملائمة لبناء نظرية الخطاب التي تتناول بنحو واسع دراسة جوانب اللغة والتواصل المختلفة عن البنى اللغوية<sup>4</sup>. لذلك رأى الباحثون، وبخاصة باحثو حركة ما بعد البنيوية، أن تحليل التواصل والمعرفة يجب أن يمرّ بالخطاب، ليس لأنّه لا يوجد شيء خارج الخطاب، بل لأنّ الخطاب هنا أشبه بمصفاة (Filter)، إذ تسمح طبيعة الخطاب بالعمل كمصفاة للتمثيلات (Representations) والممارسات (Practices).

بالنسبة إلى التمثيلات هي إبداعات أساسها اللغة، أي أساسها اختيار المدلولات، ولكنّها مدلولات منحازة وموثوقة معاً؛ ولأنّها تمكّن الممثلين الاجتماعيين من معرفة

1- Angermuller, J. (2020). Poststructuralist discourse studies: From structure to practice. In A. De Fina & A. Georgakopoulou (eds.), The Cambridge handbook of discourse studies, Cambridge: Cambridge university press, p. 236.

2-Paz (2013). Discourse theory. In McGee & Warms (eds.), Theory in social and cultural anthropology: An encyclopedia (1), p. 193.

3-Dunn, K. C. & Neumann, I. B. (2019). Undertaking discourse analysis for social research. Ann Arbor: University of Michigan press. pp. 33-34.

4-Paz (2013). Discourse theory. In McGee & Warms (eds.), Theory in social and cultural anthropology: An encyclopedia (1), p. 191.

غاياتهم والتصرف بناء على ما يعلمون، فإنّ التمثيلات تمتلك تداعيات سياسية. ومهمة محلل الخطاب هنا هو تحديد كيفية تكوّن هذه التمثيلات وبروزها من بين غيرها في خطاب كوّنته التمثيلات نفسها<sup>1</sup>. أمّا الممارسات فترتبط مباشرة بالخطاب، وإذا كان الأخير هو الكينونة، فإنّ الممارسة هي عملية التحوّل التي ينتج عنها الخطاب، ومن ثمّ يخضع الخطاب لنمط الممارسات، وأخيرا يعيد خلق ممارسات جديدة<sup>2</sup>.

وهنا أريد الإشارة إلى أنّه ولما كان الخطاب يتّصف بعمليات اختيار، فإنّ هذا الاختيار بدوره يتمّ على مستوى الكلام أكثر مما يتمّ على مستوى النظام اللّغويّ، ممّا يعني أنّ الإجراءات المرتبطة بالتداوليّة تسهم مباشرة في إنتاج الخطاب وإعادة فهمه، زد على ذلك أنّها تضيف غنى على عمليات الاختيار وبخاصة إذا تراكمت الأخيرة والأيدولوجيا. ولكن، ما تداعيات ما ورد أعلاه على إنتاج المعرفة في الخطاب؟ وكيف يمكن تعريف الخطاب في ضوء تطور قواعد الاستدلال وغناها؟ سأحاول الإجابة عن هذين السؤالين، وسأبدأ أولاً بتعريف الخطاب مراعيًا مفهومات عديدة، ومنها ما ذكره ميشال فوكو في كتابه «حفريات في المعرفة» عن أنّ الخطاب ليس فقط مجرد اختزال دور العلامات اللّغويّة بالإحالة إلى النظام اللّغويّ أو الكلام، إنّها ذاك الشيء أو القيمة الإضافية وهو ما يجب تبيانها<sup>3</sup>:

## 1.2 الخطاب هو ممارسات تنظم الموضوعات وتتحدّث عنها بأسلوب منظم.

يبين فوكو في هذا التعريف أنّ الخطاب ليس فقط طريقة للتكلّم عن الأشياء، ولكنه طريقة لصياغة الواقع الموصوف وبنائه. لذلك اقترح فوكو مفهومات عديدة لبناء نظريته، وهي: بناء الواقع (Constructing reality) والممارسات النسقية (Systematic practices) والسّلطة والمعرفة (Power and knowledge) والمصادفة التّاريخية (Historical contingency). هذه المسائل تشرح كيف يقوم الخطاب بخلق الأشياء التي يحيل إليها، وكيف يؤثر في فهمنا للعالم، وكيف يمارس السّلطة على أحكامنا

1-Dunn & Neumann (2019). Undertaking discourse analysis for social research. p. 62.

2-Schatzki, T. R. (2001). Practice mind-ed orders. In T. R. Schatzki, K. K. Cetina, & E. von Savigny (eds.), The practice turn in contemporary theory, London: Routledge, p. 53.

3-Foucault, M. (1972) [1969]. The archaeology of knowledge: And the discourse on language. Translated by Sheridan Smith. London: Tavistock. p. 49.

التأويلية. لذلك فإنّ اللغة في رأي فوكو ليست حيادية، وهي تساهم مباشرة في صياغة المعايير المجتمعية وقيمه وتراكيبه<sup>1</sup>.

**2.2** الخطاب طريقة من طرق الوجود في العالم، إنّه [أي الخطاب] شكل من أشكال الحياة، إنّه هوية اجتماعية.

يجسد هذا التعريف تأثير المنظور الاجتماعي الثقافي (Sociocultural) في اللغة والهوية، ويربط اللسانيّ الأميركي جيمس بول غي (James Paul Gee) في تعريفه للخطاب بين المستوى الفلسفي والمستوى الاجتماعي، إذ عدّ الخطاب ممارسة اجتماعية (Social practice)، أي عدّه وسيلة للتصرف والتفكير، ووسيلة تجسّد معايير المجموعة المجتمعية؛ وجمع أيضا في تعريفه بين الخطاب والهوية. فعلى سبيل المثال تحاول بعض فئات المجتمع، مثل الأطباء، التكلّم بلغة اصطلاحها (Jargon) وممارسات خلقوها في مجال أعمالهم، حيث تساهم كلّها في تحديد هوية المتكلّم، ما يساهم في الانتماء إلى المجتمع الثقافي والاجتماعي، لأنّه يوجد في المجتمعات علاقة بين ما يسمى (Big D Discourse) و (Little d discourse)<sup>2</sup>.

**3.2** الخطاب مجموعة من الوسائل اللسانية التي يتصف بتنظيمها ومحتواها بأنّهما متسقان، وهذه الوسائل تجيز أيضا للناس بناء المعاني في سياقات اجتماعية.

يصف هذا التعريف الخطاب بأنّه وسيلة مقصودة لاختيار المادة اللسانية بغية إنشاء المعاني، ولكي يتمّ ذلك يجب أن تتصف المادة اللسانية بالسبك والحبك. والخطاب في هذا التعريف لا يرتبط فقط باللغة، بل يبين كيف يقوم الناس ببناء المعاني في سياقات التفاعلات الاجتماعية أيّا كانت أنواعها. لذلك فإنّ هذا التعريف يبيّن أنّ الخطاب لا يقتصر على استعمال النحو بأسلوب صحيح، بل يتخطّى ذلك لاستخدام اللغة في أساليب اجتماعية وذات فائدة<sup>3</sup>.

1- Foucault (1972) [1969]. Archaeology of knowledge: And the discourse on language. pp. 49-55.

2-Gee, J. P. (2008). Social linguistics and literacies: Ideology in discourse. London: Routledge. p. 3.

3-Cohen, L., Manion, L., Morrison, K. (2008). Research methods in education. London: Routledge. p. 389.

1.1 الخطاب هو ذاك الشيء الحاضر مثل ذاك الشيء الغائب، ويصبح دالاً فارغاً (Empty signifier) كدال وظيفته الإشارة إلى هذا الغياب.

ذكر هذا التعريف الفيلسوف الأرجنتيني والمنظر السياسي إرنستو لاكلو (Ernesto Laclau)، فقد استفاد في تعريفه الشهير من مقولة عدم وضوح المعاني في مرحلة ما بعد البنيوية ونظرية التفكيكية، وقدم مفهوم الدال الفارغ وجمع بينه والخطاب السياسي متيحاً للسياسي استغلاله لتعزيز الهيمنة (Hegemony). يقصد لاكلو في الجزء الأول من تعريفه (الخطاب... الغائب) أن الخطاب لا يمثل واقعا معينا أو جوهرًا جامداً، إنما يدل أن هناك شيئاً ناقصاً أو غير مكتمل بطبيعته؛ وفي الجزء الثاني ورد ذكر (ويصبح دالاً فارغاً)، والمقصود بالدال الفارغ هو ذاك الرمز أو تلك الكلمة التي لا تمتاز بمعنى محدّد، ولكنها أشبه بوعاء لكثير من التفسيرات؛ فعلى سبيل المثال، تعني كلمة (ديموقراطية) أشياء عديدة لمجموعات بشرية عديدة، وذلك وفق السياق التي ترد فيه والأهداف والأيدولوجيات. أمّا الجزء الأخير (كدال... الغياب) فالمقصود به أن الدال الفارغ يعمل ككلمة مفهومها يوحد ولا يفرق، وذلك لأنّ مفهوم الكلمة يمثل غياب المعنى المحدّد أو المعنى المصطلح عليه عالمياً؛ فعلى سبيل المثال، وفي الخطاب السياسي، توحد كلمة (الحرية) بين الناس ولو كانت معانيها المحددة تتنوع في السياقات العديدة التي وردت فيها<sup>1</sup>.

يتبيّن مما ورد أعلاه أن حركة ما بعد البنيوية أتاحت لمنظري الخطاب الاستفادة من المقولات الغنية التي درستّها، إذ يلاحظ أن تعريف الخطاب تضمّن مسائل اقترنت باللسانيات الاجتماعية والدّوليّة والتطورات الحضارية والسياسيّة والمعرفية، ما يعني تنوع أبعاده. فمنهم من حاول ربط إنتاجه بالذات الإنسانية الاجتماعية المعاصرة، ومنهم من حاول ربطه بتاريخ المعرفة وفلسفتها، وبخاصة مذهب الإعلائية (Transcendentalism)<sup>2</sup> الذي ينصّ على وجود عناصر معرفية فطرية في الذّهن سابقة على الخبرات الحسية، أو شبه الإعلائية (Quasi-Transcendentalism)، ومنهم أيضاً من ربطه بالآخر. ولكن هل يمكن الإقرار ببعد معين من دون آخر؟ وما هو دور الخطاب في الكشف عن المعاني؟

1-Laclau, E. (1996). Emancipation(s). London: Verso. pp. 44-45.

2- Torfing, J. (2011). Discourse. In K. Dowding (ed.), Encyclopedia of power, London: Sage. p. 193.



تقتضي الإجابة الموضوعية الإقرار بصعوبة الاكتفاء بأيّ تعريف على حدة، ولو كان الأمر ممكناً، لما اجتهد الباحثون في دراسات تحليل الخطاب اجتهداً حثيثاً في سبر أغوار الخطاب، وبخاصة أنّ كثيراً منهم يعملون في مجال علم المعرفة (Epistemology)، حيث الاهتمام بكيفية اكتساب المعرفة عن العالم، وهذه مسألة مهمة جداً لمحلل الخطاب<sup>1</sup>، وفقط لمحلل الخطاب، لأنّ مفهوم اللّغة عجز عن تفسير بعض المعاني المترسّخة في التّاريخ والسياسة والثقافة، وكيفية إعادة إنتاجهم المستمرة في أنواع الكلام وأشكال التّمثيل وفي بعض الأطر المؤسّساتية، في حين أنّ مفهوم الخطاب نجح في هذه المهمّة<sup>2</sup>.

أمّا بالنسبة إلى السّؤال الثّاني فإنّ المسألة أكثر تشبّعاً، لأنّ تحليل المعاني يرتبط بنظرية الخطاب وفلسفته، وهي بدورها ترتبط أيضاً بالمسألة الأولى. كتب ستوارت هال (Stuart Hall) موضعاً أنّ الخطاب يضبط الطّريقة التي يمكن التّكلّم بها عن موضوع ما وفهمه؛ والخطاب يؤثّر في طريقة تركيب الأفكار واستخدامها لتنظيم سلوك الآخرين. ولأنّ الخطاب يتيح استخدام بعض أساليب الكلام حول موضوع ما، وتحديد طريقة مقبولة ومفهومة للكلام والكتابة، أو تحديد كيفية التّصرّف في المجتمع، وهكذا أيضاً بحكم التّعريف، فإنّ الخطاب يبطل أساليب تكلّم الآخرين ويقيدها، ويحصر كيفية استجابتنا للأفكار المطروحة أو كيفية توسيع معرفتنا عنها<sup>3</sup>.

ولكنّ هذا الدور يثير إشكالية العودة إلى البنية المركزية التي نادى بها البنيويّة، أي أنّ الخطاب أشبه ببنية تضبط المعاني داخله؛ فإذا كان الأمر صحيحاً فإنّ حركة ما بعد البنيويّة ليست بالضرورة على جهة معاكسة للبنيويّة؛ وفي الواقع تبنّى كثير من منظري ما بعد البنيويّة المنهجية العلائقية التي عرفت بها البنيويّة، لكنّهم رفضوا المنهجية المركزية للمعاني التي أتت بها في الوقت نفسه<sup>4</sup>. توضح نظرية الخطاب هذا الأمر بقولها إنّ ظهور الكيانات أو مجموعة منها لا يتمّ في العقل البشري، بل يتمّ ذلك

1- Dunn & Neumann (2019). Undertaking discourse analysis for social research. p. 19.

2-Hartley, J. (2002). Communication, cultural, and media studies: The key concepts. London: Routledge. p. 73.

3-Hall, S. (2001). Foucault: Power, knowledge, and discourse. In M. Wetherell, S. Taylor, & S. J. Yates (eds.), Discourse theory and practice: A reader, London: Sage, p. 72.

4- Angermuller (2020). Poststructuralist discourse studies: From structure to practice. In De Fina & Georgakopoulou (eds.), The Cambridge handbook of discourse studies, p. 236.

في بنية خطابية غير مكتملة، حيث تسهم الوقائع الحسية والصراعات السياسية بتقويض استقرارها<sup>1</sup>.

سأتوقف قليلاً شارحاً، واخترت بعض الأمثلة التي تتكلم عن موضوع واحد، وهو خروج المدعو (سهيل الحموي) من السجون السورية إلى الحرية بعيد سقوط النظام السوري في 8/12/2024، وتقصّدت ثلاثة معايير لأستقي المعلومات، أولاً: اخترت موضوعاً واحداً. وثانياً: اخترت التاريخ نفسه. وثالثاً: اخترت الأمثلة من وسائل التواصل الاجتماعي، والأمثلة هي:

**(1) من سراديب الأسد إلى الحرية.. سهيل الحموي يروي لـ «هنا لبنان» يوميات الجحيم التي استمرت 33 عاماً!**<sup>2</sup>

**(2) بعد 33 عاماً في سجون النظام السوري شكّا تستقبل ابنها سهيل الحموي (اللاتين 12/9 /2024 الساعة 16:14).**<sup>3</sup>

**(3) الأنباء الكويتية: سهيل حموي عاد إلى «شكا» اللبنانية بعد 32 سنة و2 أيام في سجون بلده سورية.**<sup>4</sup>

يلاحظ في الأمثلة أعلاه ما يأتي:

• يمكن تمثيل الكيان الطارئ في بنية خطابية على النحو الآتي: خروج لبناني من سجن سوري إلى الحرية.

• المثال الأول منحاز ولا يتضمن أية إشارة إلى مصطلح (السجن)، بل اختار تركيباً (سراديب الأسد) كناية عن السجن في دولة سوريا، لأنّ موقع (هنا لبنان) يتبع لأشخاص يتعاطفون وحزب القوات اللبنانية الذي اختلف معه نظام حكم

1-Torring (2011) Discourse. In Dowding (ed.), Encyclopedia of power. p. 193.

2 - موقع هنا لبنان (27):  
[https://www.instagram.com/reel/DDXS\\_SuR0Ex/?utm\\_source=ig\\_web\\_copy\\_link&igsh=MzRIODBiNWFIZA==](https://www.instagram.com/reel/DDXS_SuR0Ex/?utm_source=ig_web_copy_link&igsh=MzRIODBiNWFIZA==) (Accessed on December 13,2024)

3 - موقع ثورة وجع الإنسان (64):  
<https://chat.whatsapp.com/JabBUkVUWB612SxSYBYoHR> (Accessed on December 13,2024)

4- موقع التحري نيوز (3):  
<https://chat.whatsapp.com/Jd1vwBctwoGoTD3a6S72H> (Accessed on December 13,2024)

الأسد، ولأنّ المدعو سهيل الحمويّ كان ينتمي إلى الحزب المذكور مثلما ذُكر. أمّا المثال الثّاني فهو أقلّ انحيازاً من الأوّل، ولكنّه استخدم التّقديم والتّأخير، أي قدّم ذكر الظّرف (بعد 33) لإثارة العطف، لكنّه بدوره أكثر انحيازاً من المثال الأخير. والمثال الثّالث أكثرهم حياداً، حيث ذكرت الجريدة المذكورة فعل (عاد) وليس فعل (خرج)، ربما لأنّها جريدة غير لبنانيّة نشرت الخبر في صفحاتها وشعرت بالتزام أيديولوجيّ أقلّ.

• هذه الأمثلة تفسر ما ذكرته أعلاه عن مساهمة الوقائع الحسيّة والصّراعات السياسيّة، أو السّعي إلى الاستئثار بممارسة السّلطة، بتقويض استقرار البنى الخطابية وتنوّعها. وتفسّر الأمثلة المذكورة أيضاً دور الدّالّ الفارغ (الحرية)، ولو ورد مضمراً، في كيفية استقطاب الأطراف السياسيّة وإنتاج تأويلات متنوّعة للخبر السياسيّ، وذلك بحسب انتمائهم الأيديولوجيّ، ما يبرز دور الموقف السياسيّ والنّقديّ في تحليل الخطاب.

والجدير ذكره هنا، أنّه كلما ازدادت حرّية الاختيار والتّفكير من قبل الدّات الخطابية ازداد الإبداع في استغلال التّراكيب الخطابية. كتب اثنين من أهمّ الباحثين في علم النّص أنّه كلّما ابتعدنا عن نحو الجملة واقتربنا من نحو الخطاب ندخل مجالاً يتميّز بحرّية كبيرة للاختيار والتنوّع وتطابق أقلّ والقواعد المتبعة<sup>1</sup>، وهو ما يلاحظ من مقارنة الأمثلة أعلاه. ولكنّ هذه الحرّية قد تقود إلى الإبداع والنّجاح في صياغة خطاب يحقّق أهدافه، إنّما بدرجات متفاوتة، لأنّ ذلك يشترط إدراك الدّات الخطابية لكيفية قيام البنى الصّغرى للغة في صياغة البنى الكبرى للمجتمع، أي إذا أدركت دور الخطاب في تعزيز السّلطة<sup>2</sup>.

لذلك، يقتضي تحليل الخطاب فهم الأهداف المرتجاة منه وسياقه الثقافيّ والإجراءات الممكنة التي تترافق وصياغة الخطاب، أي فهم دور الخطاب في السّياق الاجتماعيّ والسياسيّ وكيفية تحقيق غايات معينة، مثلما حصل في الأمثلة الثلاثة الواردة أعلاه؛ وهذا ما مهدّ لبروز دور التّحليل النّقديّ للخطاب في مرحلة ما بعد البنيويّة، حيث بات

1-De Beaugrande, R. & Dressler W. (1981). Introduction to text linguistics. London: Longman. p. 17.

2-Mayr, A. (2008). Language and power: An introduction to institutional discourse. London: Continuum. p. 9.

أكثر وضوحاً<sup>1</sup>، وهو أمر ميّز الجيل الثاني من مراحل تطور نظرية الخطاب، في حين أنّ الجيل الأول من نظرية الخطاب اكتفى بتعريفه تعريفاً لسانياً ضيقاً كوحدة نصية أكبر من الجملة<sup>2</sup>.

استهل الجيل الثاني المذكور أعلاه اللساني نورمان فاركلوف (Norman Fairclough) في كتابه الشهير (اللغة والسلطة) الذي ترجم إلى العربية لأهميته، وقد أسهم كثير من اللسانيين المهتمين بتحليل الخطاب تحليلاً نقدياً في تطوير مفهوم الخطاب تطويراً ملحوظاً، وفيما يلي أهم ما ورد في هذا المجال:

**5.2** الخطاب هو ممارسة اجتماعية، وهذا يفترض أنّ علاقات السلطة هي خطابية؛ الخطاب يكون المجتمع والثقافة وهما بدورهما يكونان الخطاب؛ الخطاب يؤدي وظيفة أيديولوجية؛ الخطاب ذو أبعاد تاريخية؛ الخطاب يؤدي وظيفة تأويلية وتفسيرية؛ الخطاب يؤدي وظيفة توسّطية في المجتمع؛ الخطاب شكل من أشكال الأفعال الاجتماعية<sup>3</sup>.

يشرح كلّ من نورمان فاركلوف وروث وداك (Ruth Wodak) أنّ الخطاب ليس عن اللغة فحسب، بل عن كيفية ترابط اللغة والسياق الاجتماعي وبنى السلطة، وما ورد أعلاه أشبه بتعداد الخصائص العامة للخطاب. فمدرسة التحليل النقدي للخطاب تنظر للخطاب كمرآة من جهة، وكطريقة لتكوين الوقائع الاجتماعية من جهة أخرى، أي أنها تتبنّى مقاربة مرنة، وبذلك تجعل من الخطاب وسيلة لتحليل ديناميات استعمال السلطة في التواصل بأنواعه<sup>4</sup>.

**6.2** الخطاب هو تدفق للمعرفة - و/أو تدفق لكلّ نوع من أنواع المعرفة المجتمعية - عبر كلّ الأزمنة.

1-Threadgold [Cardiff], T. (2003). Cultural studies, critical theory, and critical discourse analysis: Histories, remembering, and futures. *Linguistik Online* (14): 2, p. 7.

2-Torring, J. (2005). Discourse theory: Achievements, arguments, and challenges. In D. Howarth & J. Torring (eds.), *Discourse theory in European politics: Identity policy and governance*, Houndmills: Palgrave Macmillan, pp. 6-9.

3-Fairclough, N. & Wodak, R. (1997/2000). Critical discourse analysis. In T. A. van Dijk (ed.), *Discourse as social interaction*. London: Sage, pp. 358-363.

4-Fairclough, N., Mulderrig, J., & Wodak, R. (2011). Critical discourse analysis. In T. A. Van Dijk (ed.), *Discourse studies: A multidisciplinary introduction*, London: Sage, pp. 357-378.

يركز هذا التعريف على الجوانب التاريخية والمادية للخطاب، ويبيّن التعريف المذكور كيف تتراكم المعرفة وتتجسّد في نماذج أخرى مع مرور الزمن. ويشدّد هذا التعريف على أهمية تحليل الخطاب كقوة ديناميّة تتطوّر باستمرار وتستهدف صياغة المجتمع<sup>1</sup>.

يتبيّن مما ورد أعلاه أنّ نظريّة التحليل النقدي للخطاب أدخلت إلى نظريّة الخطاب إجراءات تحليليّة ومفاهيم عديدة تتناول منهجيّة تحليل الخطاب في المقاربة المذكورة. أوّل هذه المفاهيم هو ترابط اللّغة والسّطة، لذلك فالخطاب هنا ليس حياديّاً، بل هو متجذّر في العلاقات الاجتماعيّة لذوي السّطة. وثانيها لا يمكن تحليل الخطاب إلا في سياقه الاجتماعيّ والسياسيّ والتاريخيّ، وثالثها يفسر دور الخطاب في صياغة الواقع، إذ إنّ الخطاب يصوغ المعايير الاجتماعيّة والأيدولوجيّات والحقائق ويصرّ عليها أحيانا ويتحدّاه أحيانا أخرى. أمّا آخرها، فهو الطّبيعة المتداخلة الاختصاصات لتحليل الخطاب.

وهكذا تبنّت نظريّة الخطاب منهجية يمكن تطبيقها لتحليل معاني الخطاب، وإن كانت هنا ذات طابع نقدي وسياسي؛ وعلى الرغم من أنّ الافتراض الفلسفي يركّز على أنّ جميع البنى المستخدمة لبناء المعاني هي بنى طارئة، إلا أنّه وفي الوقت نفسه لا يمكن التعالي على هذه البنى المستخدمة، حيث ولدى الإشارة إلى معنى ما نستخدم بنية ما من بنى موجودة<sup>2</sup>. فالمعاني هنا ليست دائمة ثابتة ومحدّدة، ولكنها

في الوقت نفسه ليست دائماً مرنة ومتاحة للاستخدام<sup>3</sup>.

لذلك فإنّ نظريّة الخطاب، أو أيّة نظريّة، لا بدّ وأن تتراقق وكثير من الملاحظات المرتبطة بزيادة كفاءة المنهجية التحليليّة وتوضيحها، إذ لا نظريّة من دون منهجية تطبيقية واضحة وفعّالة، وهذا ما لفت النّظر إليه أكثر من باحث، ومنهم جايكوب تورفينغ (Jacob Torfing)، يقول:

1-Jager, S. (2001). Discourse and knowledge: Theoretical and methodological aspects of a critical discourse and dispositive analysis. In R. Wodak & M. Meyer (eds.), Methods of critical discourse analysis, London: Sage, p.33.

2-Laclau, E. & Mouffe, C. (1985/2001). Hegemony and socialist strategy. London: Verso. pp. 112-113.

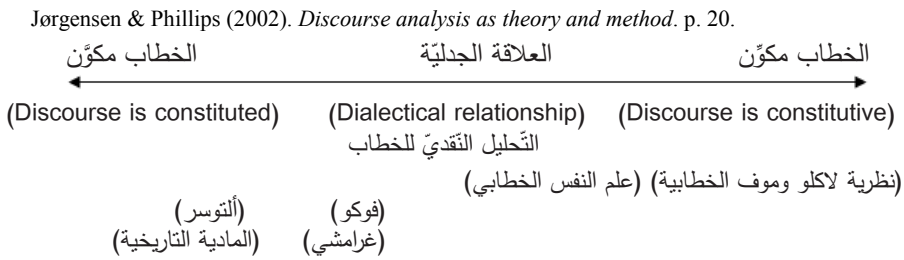
3-Jørgensen, M. & Phillips, L. (2002). Discourse analysis as theory and Method. London: Sage. p. 38.

- يجب على نظرية الخطاب أن تبرهن الأهمية التحليلية لمنهجيتها في دراسات تجريبية تأخذنا إلى ما هو أبعد من مجرد عرض الحجج والمبادئ.
- يجب على نظرية الخطاب أن تفكر تفكيراً ملئاً في مسائل المنهجية واستراتيجيات البحث وأن يترافق ذلك واستنتاجات جدية<sup>1</sup>.

أما تون فان دايك (Teun van Dijk) فقد أدلى بدلوه في هذا الموضوع، إذ لجأ إلى بلورة منهجيته للتحليل النقدي للخطاب في أكثر من دراسة، ومن ثمّ ضمّنها البعد الإدراكي. ولكنّه كتب أيضاً محدداً الخصائص التي يتميز بها الخطاب: إنّهُ شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي، وهو يتضمّن استخدام إشارات سيميائية في سياق اجتماعي، ويتألف من بنى معقّدة ومتعدّدة ومتتاليات وهرمية معينة، زد على ذلك البنى المجردة والاستراتيجيات الدينامية، وأخيراً ربط بين الخطاب والأنماط والأنواع<sup>2</sup>.

يمكن الاستنتاج مما ورد أعلاه أنّ هذه الخصائص أو الجوانب المتنوّعة للخطاب جعلت الحديث عن نظريته ودراساته إقراراً بأهميته من جهة، وإقراراً بأنّ النظرية أكثر تعقيداً مما يبدو للوهلة الأولى من جهة أخرى. هذه الفكرة الأخيرة تتجلى أيضاً في الرّسم البياني أدناه، وهو رسم وضع لبيان الجوانب المتنوّعة التي ترتبط بنظرية الخطاب وعلاقة الخطاب بالعالم الواقعي<sup>3</sup>:

الرّسم البياني رقم (1): دور الخطاب في تكوين العالم.



1-Torfin (2005). Discourse theory: Achievements, arguments, and challenges. In Howarth & Torfin (eds.), Discourse theory in European politics: Identity policy and governance, p. 25.

2-van Dijk, T. A. (2011). Discourse studies: A multidisciplinary introduction. London: Sage, pp. 3-5.

3-Jørgensen & Phillips (2002). Discourse analysis as theory and method. p. 20.

يوضح الرّسم البيانيّ العلاقة بين الخطاب والواقع الاجتماعيّ عبر ثلاثة مستويات: البنية اللّغويّة، والسيّاق النّقائيّ، والممارسات السّلطويّة. ويلاحظ أيضا أنّ نظريّة لاكلو وموف والتحليل النّقديّ للخطاب وعلم النّفس الخطابيّ ترتبط إما جزئيّاً وإما كليّاً بنظريّة التّركيب الاجتماعيّ (Social constructionism) التي يستخدمها بعضهم مرادفاً لنظريّة التّركيبية الاجتماعيّة (Social constructivism)، أي النّظريّة التي تنصّ على أنّ النّاس يبنون المعاني اعتماداً على معرفتهم الماضية والحالية، وهي تتميز ببعدين: البعد الإدراكيّ والنّفاعل الاجتماعيّ، وهذا الأخير يركّز على أهمية اللّغة<sup>1</sup>. بعبارات أخرى، يستخدم الخطاب في البعد الأخير لصنع المعرفة والفهم، أي أنّ المعرفة ليست مجموعة من الحقائق وإنّما عملية بناء مشتركة، فاستعمال اللّغة هنا ليس مجرد مرآة للواقع، وهذا يفترض أنّ للنّاس حرية الاختيار والإبداع اللّغويّ.

لكن ما ورد للتوّ لا يقف عند حدود حرّية الاختيار والإبداع، بل يتخطّاه إلى دراسة كنه النّفس البشريّة التي تميل أحيانا إلى استخدام حرّيتها واستغلالها، أو ممارسة ذاتيتها الخطابية المتغيرة لتحقيق مصالحها المتنوّعة وللهيمنة. يقول لاكلو وموف في كتابهما الشّهير الذي تضمّن نظريتهما في الخطاب والهيمنة، أنّ الأخير هو الكلية المنظمة النّاجمة عن ممارسة تلفظيّة؛ هذا التعريف للخطاب قد يبدو مقتضياً، ولكنّه يوحي بأنّ الخطاب ليس فقط عن استعمال اللّغة، بل عن كيفية بناء المعاني في إطار العلاقات، ويظهر التعريف المذكور نظريتهما إلى أنّ الخطاب طارئ ويخضع دائماً للتّغيير<sup>2</sup>، وهو يجسّد تأثرهما بحركة ما بعد البنيويّة، زد على ذلك أنّهما أوّل من تطرّق إلى مصطلح (نظريّة الخطاب)<sup>3</sup>.

وفي الواقع كثيراً ما ترتبط الدّاتية الخطابية بقيود الأيديولوجيا السائدة في مجتمع ما وبمتغيرات عديدة، لذلك عدّ لاكلو وموف نظريّة الخطاب لنقد الأيديولوجيا السائدة، وبخاصّة إذا كانت تساهم في تشويه الواقع<sup>4</sup>، واقع مخفيّ أو مشوّه ويرتبط بمنظور ما، مثلاً ورد في المثال رقم (5). بعبارات أخرى، نظريّة الخطاب هي أشبه

1 – Swann (2004). A dictionary of sociolinguistics. p. 282. () Swann (2004). A dictionary of sociolinguistics. p. 282.

2– Laclau & Mouffe (1985/2001). Hegemony and socialist strategy. pp. 105–106

3– Kølvræ, C. (2018). The discourse theory of Ernesto Laclau. In R. Wodak & B. Forchtner (eds.), The Routledge handbook of language and politics, London: Routledge, p. 96.

4– Jørgensen & Phillips (2002). Discourse analysis as theory and method. p. 186.

بإطار متعدّد الاختصاصات مهمته اكتشاف الأساليب التي تستخدمها أنظمة اللّغة، أو التواصل اللّغويّ، بغية صياغة المعرفة والمجتمع وتحديد الهوية. لذلك تتناول نظريّة الخطاب كيفية قيام الخطاب، أو أنظمة صياغة المعنى، ببناء علاقات السّلطة والقيم المجتمعية والأيديولوجيات، والتأثير فيها في الوقت نفسه.

من هنا تحتل نظريّة الخطاب اجتهادات متنوّعة أحياناً، لأنّها ترتبط بكثير من الافتراضات الفلسفية، بدءاً بالمادية التّاريخيّة والماركسيّة، وصولاً إلى نظريّة التّركيب الاجتماعيّ. أمّا الآن سأتناول الوجه الآخر لنظريّة الخطاب، الوجه الذي يستغلّه منتجو الخطاب، وهو أساليب الخطاب واستراتيجياته.

### 3. فصاحة الخطاب

يتناول هذا المبحث الأساليب الدّلاليّة والاستراتيجيّات التّداويّة المستخدمة في الخطاب، سواء أكانت مضمرة أم لا. ولقد أطلقت عليه اسم (فصاحة الخطاب)، لأنّ الأساليب والاستراتيجيات المذكورة عديدة ومتنوّعة، وكثير منها لم يكن ليحقّق غايته لو لم يرد ظاهراً أو مضمراً في سياق الخطاب نتيجة لصراعات سياسيّة ووقائع حسيّة. فللخطاب إذا دور رئيس في بلورة هذه الاستراتيجيّات الخطابيّة، وهو يسهم مساهمة فعّالة في بروزها؛ ولم أسمه (خبث الخطاب)، حتى ولو كان يصحّ أحياناً إطلاق هذه التّسمية، لأنّ الخبث إجراء مؤقت يستعين به منتج الخطاب عن قصد وببراعة، أمّا مصطلح (الفصاحة) فهو أوسع دلالة على غنى استراتيجيات الخطاب، وينسجم مع كثير من نظريات الخطاب المعاصرة.

سيتضمن هذا المبحث أهمّ المسائل المنهجية التي وردت في نظريّات تحليل الخطاب، سواء أكانت النّظريّات التي تأثرت بحركة ما بعد البنيويّة أم لا، إذ إنّ هذا البحث يستهدف دراسة أساليب الخطاب الدّلاليّة واستراتيجياته التّداويّة التي تساهم مساهمة مباشرة في تحقيق منتج الخطاب لغاياته:

**1.3 المربّع الأيديولوجي (Ideological square):** يركّز المربّع الأيديولوجي، وشبيه به المربّع السيميائي (Semiotic square) في دراسات الأدب، على استخدام أربع أفكار رئيسية، وهي ترد متناثرة في الخطاب: الأولى هي التّعبير أو التشديد على



حسناً الجهة المتكلمة؛ ويقابلها التعبير أو التشديد على ما هو سيئ بالنسبة إلى الطرف الآخر. والفكرة الثالثة هي إلغاء أو تسخيف المعلومات المرتبطة بكل ما هو جيد بالنسبة إلى الطرف الآخر؛ ويقابلها إلغاء أو تسخيف المعلومات المرتبطة بكل ما هو سيئ بالنسبة إلى المتكلم<sup>1</sup>؛ وهذا ما يجعل العلاقة وثيقة بين الخطاب والمربع الأيديولوجي، ما يبرز أهمية تحليل هذه العلاقة، لأن المعلومات المذكورة كثيراً ما ترد متناثرة فيه.

**2.3 الدالّ الفارغ:** سبق وعرضت مفهوم الدالّ الفارغ في المبحث الأخير، وتعود أهميته إلى أنه يستخدم في أساليب عاطفية تسمح باستغلاله، وبخاصة في الخطابات السياسية<sup>2</sup>، فكيف بالأحرى إذا كان الخطاب كله دالاً فارغاً؟!

**3.3 الاستلزام التخاطبي (Conversational implicature):** يقصد به إضافة معانٍ سياقية موازية للمعاني الظاهرية ومتباينة عنها، ولقد سماها بول غرايس (Paul Grice) الاستلزام التخاطبي، لأن ذلك يحدث عبر خرق المبادئ الأربعة المتفرعة عن مبدأ التعاون في الحوار، وهي مبدأ الكمية والنوعية والملاءمة والكيفية<sup>3</sup>. والاستلزام التخاطبي، وإن كان يتناول تحليل المقولة (Utterance)، فإن الخطاب ضروري لمعرفة ما المقصود بالاستنباع نفسه، لأن المتكلم هو من يضمن كلامه معنى متميزاً عما قاله حرفياً في السياق<sup>4</sup>، وهو أشبه باستراتيجية تداولية يستخدمها منتج الخطاب ويستغلها، وقد استعان به أكثر من باحث لتحليل الخطاب، وبخاصة تحليل معاداة السامية والتمييز العنصري<sup>5</sup>، مثل روث وداك وغيرهم.

**4.3 أفعال الكلام (Speech acts):** جوهر هذه الفكرة هو أن الكلام يقال ليس فقط للتعبير عن أشياء بل لفعلها، لذلك تركّز نظرية أفعال الكلام على وظيفة الخطاب<sup>6</sup>.

1- Van Dijk, T. A. (1998). Ideology: A multidisciplinary approach. London: Sage. p. 267.  
2- Kølvråa (2018). The discourse theory of Ernesto Laclau. In Wodak & Forchtner (eds.), The Routledge handbook of language and politics, p. 105.  
3- Grice, H. P. (2006). Logic and conversation. In A. Jaworski & N. Coupland (eds.), The discourse reader, London: Routledge, pp. 68-69.  
4- Bach, K. (2011). Grice. In B. Lee (ed.), Philosophy of language: The key thinkers. London: Continuum. p. 186.  
5- Wodak, R. (2007). Pragmatics and critical discourse analysis: A cross-disciplinary inquiry. Pragmatics and cognition (15): 1, p. 217.  
6- Renkema, J2004). Introduction to discourse studies. Amsterdam: John Benjamins. p. 16.

تتضمن النظرية المذكورة ثلاثة أنواع من الأفعال في داخل كل ملفوظ، وهي الفعل الكلامي (Locutionary act) لإنتاج الملفوظ؛ والفعل الإنجازي (Illocutionary act)، ويقصد به المعنى المقصدي لملفوظ ما، كالوعد والتهديد وغيره؛ وبعد الفعل الإنجازي ركيزة نظرية أفعال الكلام. والفعل التأثيري (Perlocutionary act)، ويقصد به إنتاج الفعل التأثيري عبر الفعل الإنجازي، فالمتلقي ينجز حدثاً أيضاً، أي أنه يقتنع<sup>1</sup>. وفي هذا السياق، يتيح الفعل الإنجازي التأثير في مشاعر المرء وأفكاره وأفعاله<sup>2</sup>. وأضاف فان دايك إليها أن النصّ يستخدم أيضاً كفعل من أفعال الكلام<sup>3</sup>. وهذا ما يجعل من تحليل دلالات أفعال الكلام في الخطاب أمراً رئيساً.

**5.3 نظرية الإطار (Frame theory):** الإطار شكل معين لتنظيم المعرفة المحددة عرضياً، والتي نمتلكها عن العالم<sup>4</sup>، كالسفر، والتسوق، والذهاب إلى الطبيب أو السينما. فعلى سبيل المثال عندما يسافر المرء يفترض عليه شراء تذكرة سفر، والذهاب إلى المطار، وإجراء المعاملات الإدارية فيه، والصعود إلى الطائرة، ومن ثمّ النزول منها. لذلك فإنّ المعرفة الواردة في الخطاب يمكن استخدامها في إطار، وهذا الأخير بدوره يسهم في فهم الخطاب وإنتاجه، لأنّ المسألة هنا ترتبط بتمثيل المعرفة في الذهن<sup>5</sup>. ولكنّ الإطار ككلّ شيء يستخدم يمكن أن يستغلّ لتحقيق غايات عديدة، ويشرح والتر كينتسش (Walter Kintsch) وفان دايك أسس هذه المسألة بشكل مبسّط: يعدّ (دفع المال) القضية المشتركة بين إطار التسوق وإطار الذهاب إلى المطعم، وهذه القضية يمكن تعميمها أو دمجها مع معلومات أخرى مخزنة في الذاكرة الموسوعية بهدف فهم النص<sup>6</sup>، لأنّ العناصر المفردة لا تعلق بالوعي من دون روابط بل ترد على شكل قطع مدمجة ومتراصة بشكل تام<sup>7</sup>؛ وهكذا

1-Austin, J. L. (1978). Quand dire c'est faire. Paris: Seuil. pp. 109-114.

2- Sadock, J. (2006). Speech acts. In L. R. Horn & G. Ward (eds.), The handbook of pragmatics, Oxford: Blackwell, p. 55.

3- فان دايك، تون أ. (1996). النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص. في العمري، محمد (تحرير)، نظرية الأدب في القرن العشرين، أفريقيا الشرق، ص 67.

4- فان دايك، تون أ. (2005). علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات. ترجمة سعيد البحيري، القاهرة: دار القاهرة. ص 270.

5- Brown, G. & Yule, G. (1983). Discourse analysis. Cambridge: Cambridge university press. p. 238.

6- Kintsch, W. & van Dijk, T. A. (1978). Towards a model of text comprehension and production. Psychological Review (85): 5, p. 366.

7- De Deaугrande & Dressler (1981). Introduction to text linguistics. p. 91.

يمكن استغلال العوامل المشتركة بين الأطر لتوجيه فهم المتلقي، مثل إبراز الوجه الشرير للسجون السورية في المثال رقم (1) إيان حكم نظام الأسد عبر استخدام الإطار (سرديب) الذي يفيد الدلالات الآتية: مكان ضيق، ظلمة، وحدة، تغذية سيئة إلخ؛ في حين أنّ دلالات الإطار (السجون)، ووفق ذاكرتنا الموسوعية، لا تتماثل ودلالات كلمة (سرديب) التي وردت أيضا مضافة إلى كلمة أخرى، أي ضمن تركيب إضافي (سرديب الأسد)، ما أغنى مروحة دلالاته.

### 6.3 الاستعارة المفهومية (Conceptual metaphor): هي استخدام لغوي يتيح

إنشاء تطابقات بين مجال مصدر ومجال هدف<sup>1</sup>، وجوهرها استخدام المحسوسات للتعبير عن المجردات. وهي تعدّ من نتائج الإبداع الفكري في اللغة، وتعود أهميتها إلى أنّها تؤثر أيضا في الفكر، وهي إحدى تجليات العلاقة المتبادلة بين اللغة والقدرات الإدراكية في العقل؛ لذلك عدّها بعض الباحثين نافذة إلى العقل<sup>2</sup>. وتتميز أيضا بأن استعمال اللغة فيها استعمال غير محكم (Loose use)<sup>3</sup>، حيث يفسح المجال لتأويلات مختلفة، لأنّ الاستعارة المفهومية نوع من أنواع استخدام المعرفة الموسوعية<sup>4</sup>، زد على ذلك دورها في تعزيز السبك (Cohesion) في الخطاب<sup>5</sup>، وهذا ما يبرز أهمية دورها في تحليل الخطاب.

### 7.3 التناصّ (Intertextuality) والتفاعل الخطابّي (Interdiscursivity):

تحدّد جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) التناصّ قائلة: يمثل النص عملية استبدال من نصوص أخرى، أي عملية تناصّ، ففي فضاء النصّ تتقاطع أقوال عديدة مأخوذة من نصوص أخرى، ممّا يجعل بعضها يقوم بتحييد بعضها الآخر ونقضه<sup>6</sup>. أمّا مرحلة ما بعد البنيويّة فشهدت ظهور مصطلح التفاعل الخطابّي، وقد ترافق أيضا هذا المصطلح

1- Lakoff, G. (1993). The contemporary theory of metaphor. In A. Ortony (ed.), Metaphor and thought, Cambridge: Cambridge university press, pp. 203-206.

2- Handl, S. & Schmid, H.-J. (2011). Introduction. in S. Handl & H.-J. Schmid (eds.), Windows to the mind: Metaphor, metonymy, and conceptual blending. Berlin: De Gruyter Mouton, p. 1.

3- Carston, R. (2016). Contextual adjustment of meaning. In N. Riemer (ed.), The Routledge handbook of semantics, London: Routledge. p. 203.

4-Tendhal, M. & Gibbs, R. W. (2008). Complementary perspectives on metaphor: Cognitive linguistics and relevance theory. Journal of Pragmatics 40, p. 1836.

5- Ponterotto, D. (2003). The cohesive role of cognitive metaphor in discourse and conversation. In A. Barcelona (ed.), Metaphor and metonymy at the crossroads: A cognitive perspective, Berlin: Mouton de Gruyter, p. 292.

6- Kristeva, J. (1979). Le texte du romam. Paris: Mouton. p. 12.

ونظرية التحليل النقدي للخطاب؛ يقول فاركلوف: يركّز التفاعل الخطابي الانتباه على تباين التّصوُّص الطّبيعي، وعلى تكوينها من مجموعة مؤتلفة من أصناف متنوعة وضروب الخطاب؛ ويفترض هذا المصطلح مجالات لا حصر لها تقريباً من الإبداع في الممارسة الخطابية<sup>1</sup>. ويجمع هذا المستوى من التحليل بين التحليل اللساني للنص وأشكال عديدة من التحليل الاجتماعي للأحداث الاجتماعية والممارسات الاجتماعية<sup>2</sup>. وما يهمّ البحث هنا هو الإبداع في الممارسة الخطابية وما ينتج عنه من دلالات لا حصر لها أيضاً في الخطاب، وبخاصة أنّ تعزيز الهيمنة قد يتأثر إما سلباً وإما إيجاباً بالإبداع المذكور<sup>3</sup>.

### 8.3 التلطيف الحواري (Conversational mitigation): التلطيف وسيلة

يمارسها المتكلم لتخفيف قوّة الفعل الكلامي أو إضعافها، وهو يستهدف تحاشي التأثيرات غير المرحب بها عند المستمع<sup>4</sup>. والتلطيف وسيلة تستهدف إبلاغ المرسل إليه الطريقة التي قيلت بها بعض الأفعال، أو موقف المتكلم النفسي من موضوع كلامه وإظهار التعاطف أو الموقف النفسي للمتكلم المتضامن مع المرسل إليه في سياق ما<sup>5</sup>، وهو ينسجم ونظرية التركيب الاجتماعي لأنّه يحاول خلق عالم خطابي جديد؛ وهو نوعان، داخلي وخارجي كاستخدام الأسئلة والتراكيب الشرطية وعلامات التأدب<sup>6</sup>. والتلطيف الحواري ذو طبيعة تداولية، ويرتبط بموضوعي الغموض (Ambiguity) واللبس الدلالي (Vagueness)<sup>7</sup>. فعلى سبيل المثال، يستغل الطبيب النفسي هاتين الخصيصتين لكي يطبّب المريض بفعالية. ومن أمثله في الثقافة اللبنانية السياسيّة: استخدام مصطلح (الهدر) بدلا من (السرقة).

1- Fairclough, N. (1995/2013). Critical discourse analysis: The critical study of language. London: Routledge. p. 95.

2- Fairclough, N. (2003). Discourse analysis: Textual analysis for social research. London: Routledge. p. 218.

3- Fairclough (1995/2013). Critical discourse analysis: The critical study of language. p. 95.

4- Fraser, B. (1980). Conversational mitigation. Journal of pragmatics 4, p. 342.

5- Holmes, J. (1984). Modifying illocutionary force. Journal of pragmatics 8, p. 348.

6- Weizman, E. (1993). Interlanguage requestive hints. In G. Kasper & S. Blum-Kulka (eds.), Interlanguage pragmatics, Oxford: Oxford university press, p. 129.

7- Chaminzo-Domínguez, P. J. (2018). Ambiguity and vagueness as cognitive tools for euphemistic and politically correct speech. In A. P. Pedraza (ed.), Linguistic taboo revisited, Berlin: De Gruyter Mouton, p. 79.

والكلام، أو الخطاب، يتضمّن أيضا استخدام أسلوب آخر لا يقلّ أهمية عن التلطيف، وهو سوء التعبير أو فحش التعبير (Dysphemism)، وقد تناولته دراسات عديدة بالبحث، ولقد كتب جان جاك لوسركل (Jean-Jacques Lecercle) كتابا مهما عن الموضوع المذكور، ونقل إلى اللغة العربية بعنوان (عنف اللّغة). ومن أمثلته في الثقافة اللبنانية: استخدام مصطلح (عميل) بدلا من (معارض). وقد يستخدم أيضا الخطاب كلّه لممارسة عنف اللّغة.

**9.3 الافتراض المسبق (Presupposition):** هو ما تقتضيه دلالة الكلام من سياق الحال المصاحب<sup>1</sup>. وكثيرا ما ترد الافتراضات المسبقة في سياق الخطاب لغايات بريئة أو غير بريئة، ففي قول مثل:

(4) افتح النافذة.

افتراض مسبق بوجود النافذة وبأنّها غير مفتوحة.

### **10.3 الدلالة التعيينية (Denotation) والدلالة التضمينية (Connotation):**

الدلالة التعيينية هي دلالة الكلمات الحرفية، أمّا الدلالة التضمينية فهي ما تنثيره دلالة الكلمات من عواطف وأفكار في ذهن الفرد أو المجموعة<sup>2</sup>، مثل استخدام كلمة فاشي (Fascist) في أوروبا.

### **11.3 الحذف (Omission) والتكرار (Repetition) والتحوّل إلى الاسمية**

**(Nominalization):** حذف المعلومات في الخطاب يؤثر في بناء نماذج المتلقّين عن العالم وتعديل استنتاجاتهم وتوجيهها إلى وجهات قد تكون معدّة مسبقا<sup>3</sup>. أمّا التكرار فهو يسمح للمتكلّم بأن يقول شيئا مرّة أخرى بغية إضافة شيء جديد إلى هذا الشيء المتكرر<sup>4</sup>. هذا الشيء قد تعرّزه فكرة ما أو إظهارها في الخطاب كأثبات طبيعى. وأخيرا التحوّل إلى الاسمية بدلا من الجمل الفعلية يساهم في تجهيل الفاعل وضياح المسؤولية،  
نحو:

1- Baalbaki, R. M. (1990). Dictionary of linguistic terms. Beirut: Dar El-Ilm Lilmaalayin. p. 396.

3- Baalbaki (1990). Dictionary of linguistic terms. pp. 115-141.

1-van Dijk, T. A. (1993). Principles of critical discourse analysis. Discourse and Society (4): 2, p. 258.

2-Hoey, M. (1995). Pattern of lexis in text. London: Oxford university press. p. 57.

## (5) انفجار مرفأ بيروت.

ففي المثال أعلاه لم يذكر الفاعل في البنية السطحية، حيث استخدم المصدر (انفجار) المشتق من فعل (انفجر) على وزن (انفعل)، وهو وزن بُني للمطاوعة؛ واستبعد أيضا المصدر (تفجير) الذي يفيد وجود فاعل ما، لأنه مصدر فعل (فَجَّر). والتَّرْكيب رقم (5) يستخدم بكثرة في نشرات الأخبار اللبنانية الموجهة توجيهها سياسيا.

هذه كانت أهم المسائل التي قد يتضمنها الكلام أو الخطاب بغية استخدامها أو استغلالها لتحقيق مقاصد معينة. ويلاحظ هنا أن مصدرها متنوع، منها ما يفترض أن الخطاب ممارسة اجتماعية، ومنها ما يفترض أن الخطاب يستخدم لتعزيز الهيمنة، ومنها أيضا ما يفترض أن الخطاب فعل من أفعال الكلام، وقد تكلمت عن الافتراضات الأخرى سابقا. بعبارة أخرى، يستخدم الخطاب في الموضوعات السياسية والتفاعل الاجتماعي، كالخطاب الإعلامي والتربوي والقضائي وغيره، ما يبرر السؤال الآتي:

كيف يستطيع الخطاب فعل كل ذلك؟<sup>1</sup>

ما من شك أن هذا السؤال هو في صلب نظرية الخطاب، وهي معنية بالإجابة عليه، وقد حاول أكثر من باحث الاجتهاد في الإجابة؛ كتب أحد الباحثين المتخصصين بثورة التواصل أن الخطاب هو تواصل وجهته جمهور غير محدد وهو امتداد للتفاعل المباشر، وأصبح بالإمكان تحقيق التواصل المذكور عبر وسائل الكتابة التكنولوجية ووسائل الإعلام العامة أو أجهزة التواصل المرتكزة على الحاسوب<sup>2</sup>. والخطاب يتّصف أيضا بأنه خطاب عام، أي خطاب موجّه إلى جمهور، وخطاب انعكاسي، أو تواصل من الدرجة الثانية، ما يعني أن الخطاب يتيح التأمل بشكل التواصل وفرضياته<sup>3</sup>.

فالخطاب إذا تطوّر كثيرا لأنّ وسائل نشره بدورها تطورت، وقد بدأ تطوّر الحديث منذ منتصف القرن التاسع عشر، وترافق ذلك وتطور دراسات الخطاب أيضا، إذ إنّ الإبداع في الخطاب لا يكمن في اللغة نفسها فحسب، بل في الإجراءات اللغوية التي يتّخذها

3- Bohman, J2004). Discourse theory. In G. F. Gaus & C. Kukathas (eds.), Handbook of political theory, London: Sage, p. 155.

4-Thompson, J. B. (1995). The media and modernity. Cambridge: Polity. pp. 85-86.

1-Bohman (2004). Discourse theory. In Gaus & Kukathas (eds.), Handbook of political theory, pp. 155-156.

الناس للتعامل مع مشاكلهم<sup>1</sup>، أي الإجراءات اللغوية التي يختارها الناس بحرية، ما يتيح ملاحظة المتغيرات بسهولة أكثر ودراستها دراسة علمية، سواء أوردت الإجراءات المذكورة في خطاب مكتوب أو مقروء أو حتى في خطب سياسية أو أي نوع من أنواع التفاعل الخطابي. زد على ذلك أن الإبداع متعدد الوجوه<sup>2</sup>، وهو ما يتيح أيضا توظيف المنهجية اللازمة لتحليله وإجراء المقارنات العلمية، ما يؤدي في نهاية المطاف إلى تطور التنظير في الإبداع الخطابي.

## خاتمة

### دراسة الإبداع في الخطاب ودور التنوع الثقافي

تبيّن أعلاه أن دراسات الخطاب ارتبطت بتداخل الاختصاصات المعرفية بغية تحليل الخطاب، ولكن

هذا جانب واحد من جوانب التنظير في دراسات الخطاب. فتداخل الاختصاصات هنا يفترض أن استراتيجيات الخطاب الدلالية والتداولية أكثر اتساعا مما قد نظن، وإن مساهمة العلوم الإنسانية بأنواعها لم يعقد نظرية الخطاب مثلما يبدو للوهلة الأولى، إنما جعلها أكثر علمية وأكثر منهجية، وجعل تحليل الخطاب نفسه ميدانا لإبداعات غنية ومتنوعة يجب تحليلها والاستفادة منها.

ولئن كنّا ذكرت للتوّ كلمات مثل إبداعات غنية ومتنوعة، فإنّي حاولت الإضاءة على موضوع الإبداعات الغنية في متن البحث، وعرضت المسائل المرتبطة بذلك. أما بالنسبة إلى موضوع (التنوع) فكنت قد بدأت أيضا برصد بعض دراسات الخطاب في دول غير غربية منذ بدء الألفية الثالثة، أي دول مثل الصين واليابان وجنوب أفريقيا والدول العربية. والجدير ذكره هنا أن كثيرا من دراسات الخطاب هذه نُشر أو يُنشر في دور نشر أوروبية وأميركية باللغة الإنكليزية، ما يعني أن العولمة الثقافية بدأت توتي ثمارها في مجالات نظرية الخطاب وتحليله. فعلى سبيل المثال، تعدّ مساهمة الفيلسوف الأرجنتيني إرنستو لاكلو في نظرية الخطاب مساهمة لا يستهان بها، وكنت قد أضأت باقتضاب على أفكاره.

1- Jones, R. H. (2012). Discourse and creativity. London: Routledge. p. 7.

2- Kaufman, J. C., Glăveanu, V. P., & Baer, J. (2017). The Cambridge handbook of creativity across domains. Cambridge: Cambridge university press. p. 5.

توصّل البحث أيضا إلى أنّ الخطاب ليس مجرد أداة تواصل، بل هو أداة فعّالة في تشكيل الواقع الاجتماعيّ عبر استخدام نظرية التركيب الاجتماعيّ واستراتيجيات أخرى. هذا كلّه إن دلّ على شيء دلّ على أنّ التّظهير في موضوع الخطاب وتحليله يحتاج إلى منهجية بحثية تشجع تعدّد الاختصاصات والتنوع الثقافيّ معا، وأشدّد على كلمة (معا)، لأنّ الخطاب ذو بعد لغويّ، وثقافيّ، وإدراكيّ، واجتماعيّ، وسياسيّ، وجغرافيّ. فإذا كان لكلّ بعد من أبعاد اللّغة أهمية معينة، فللبعد الثقافيّ والإدراكيّ أهمية رئيسة، لأنّ البعد الثقافيّ أشبه بالبعد الخاص بكلّ شعب على حدة، إذ إنّ لكلّ لغة عبقريتها (Genius) الفريدة، زد على ذلك تاريخها وغيره. في حين أنّ البعد الإدراكيّ أشبه بالبعد العام، لأنّ البشر يتمثلون نوعا ما في الخصائص الإدراكية.

انطلاقاً ممّا ورد أعلاه، أظنّ أنّ البحث في نظرية الخطاب يحتاج إلى دراسة ما هو خاصّ وأثره في الخطاب، ودراسة ما هو عام أو مشترك وأثره أيضا في الخطاب، وبخاصة الخطاب الموجّه إلى جمهور كبير، سواء أكان هذا الخطاب سياسيا أم إعلاميا، لأنّ الخطاب مثمنا ذكرت أعلاه أشبه بمصفاة. وفي هذا السّياق، يمكن للدراسات المستقبلية أن تكشف خصائص الخطاب الرقمي ودوره في تعزيز الهيمنة الثقافيّة في عصر وسائل التواصل الاجتماعيّ، لا سيما أنّه موجه إلى جمهور كبير.



## المصادر والمراجع

### المصادر والمراجع العربية

1. فان دايك، تون أ. (1996). النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص. في العمري، محمد (تحرير) نظرية الأدب في القرن العشرين، أفريقيا الشرق.
2. فان دايك، تون أ. (2005). علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات. ترجمة سعيد البحيري، القاهرة: دار القاهرة.

### المصادر والمراجع الأجنبية

3. Abrams, M. H. & Harpham, G. G. (2012). A glossary of literary terms. Boston: Wadsworth.
4. Althusser, L. (1972). Lenin and philosophy. New York: Monthly review press.
5. Angermuller, J. (2020). Poststructuralist discourse studies: From structure to practice. In A. De Fina & A. Georgakopoulou (eds.), The Cambridge handbook of discourse studies, 235–254. Cambridge: Cambridge university press.
6. Austin, J. L. (1978). Quand dire c'est faire. Paris: Seuil.
7. Baalbaki, R. M. (1990). Dictionary of linguistic terms. Beirut: Dar El-Ilm Lilmalayin.
8. Bach, K. (2011). Grice. In B. Lee (ed.), Philosophy of language: The key thinkers, 179–198. London: Continuum.
9. Bohman, J. (2004). Discourse theory. In G. F. Gaus & C. Kukathas (eds.), Handbook of political theory, 155–166. London: Sage.
10. Broadfoot, K., Deetz, S., & Anderson, D. (2004). Multi-levelled, multi-method approaches to organizational discourse. In D. Grant et al. (eds.), The Sage handbook of organizational discourse, 193–211. London: Sage.
11. Brown, G. & Yule, G. (1983). Discourse analysis. Cambridge: Cambridge university press.
12. Carston, R. (2016). Contextual adjustment of meaning. In N. Riemer (ed.), The Routledge handbook of semantics, 195–210. London:

- Routledge.
- 13.Castle, G. (2013). The literary theory handbook. Oxford: Wiley–Blackwell.
  - 14.Chaminzo–Domínguez, P. J. (2018). Ambiguity and vagueness as cognitive tools for euphemistic and politically correct speech. In A. P. Pedraza (ed.), *Linguistic taboo revisited*, 79–96. Berlin: De Gruyter Mouton.
  - 15.Cohen, L., Manion, L., & Morrison, K. (2008). *Research methods in education*. London: Routledge.
  - 16.Crick, N. A. (2019). Poststructuralism. In D. L. Cloud (ed.), *The Oxford encyclopedia of communication and critical cultural studies* (3), 1306–1320. Oxford: Oxford university press.
  - 17.De Beaugrande, R. & Dressler, W. (1981). *Introduction to text linguistics*. London: Longman.
  - 18.Devetak, R. (2013). Poststructuralism. In S. Burchill et al. (eds.), *Theories of international relations*, 187–216 . Houndmills: Palgrave Macmillan.
  - 19.Dunn, K. C., & Neumann, I. B. (2019). *Undertaking discourse analysis for social research*. Ann Arbor: University of Michigan press.
  - 20.Eagleton, T. (1983). *Literary theory: An introduction*. Oxford: Blackwell.
  - 21.Fairclough, N. (2003). *Discourse analysis: textual analysis for social research*. London: Routledge.
  - 22.Fairclough, N. & Wodak, R. (1997/2000). Critical discourse analysis. In T. A. van Dijk (ed.), *Discourse as social interaction*, 258–284. London: Sage.
  - 23.Fairclough, N. (1995/2013). *Critical discourse analysis: The critical study of language*. London: Routledge.
  - 24.Fairclough, N., Mulderrig, J., & Wodak, R. (2011). Critical discourse analysis. In T. A. Van Dijk (ed.), *Discourse studies: A multidisciplinary introduction*, 357–378 . London: Sage.
  - 25.Foucault, M. (1972) [1969]. *The archaeology of knowledge: And the discourse on language*. Translated by Sheridan Smith. London: Tavistock.
  - 26.Fraser, B. (1980). Conversational mitigation. *Journal of pragmatics* 4, 341–350.
  - 27.Gee, J. P. (2008). *Social linguistics and literacies: Ideology in discourse*.

- London: Routledge.
28. Grice, H. P. (2006). Logic and conversation. In A. Jaworski & N. Coupland (eds.), *The discourse reader*, 66–77. London: Routledge.
  29. Hall, S. (2001). Foucault: Power, knowledge, and discourse. In M. Wetherell, S. Taylor, & S. J. Yates (eds.), *Discourse theory and practice: A reader*, 72–81. London: Sage.
  30. Handl, S. & Schmid, H.–J. (2011). Introduction. In S. Handl & H.–J. Schmid (eds.), *Windows to the mind: Metaphor, metonymy, and conceptual blending*, 1–20. Berlin: De Gruyter Mouton.
  31. Hartley, J. (2002). *Communication, cultural, and media studies: The key concepts*. London: Routledge.
  32. Hoey, M. (1995). *Pattern of lexis in text*. London: Oxford university press.
  33. Holmes, J. (1984). Modifying illocutionary force. *Journal of pragmatics* 8, 345–365.
  34. Jager, S. (2001). Discourse and knowledge: Theoretical and methodological aspects of a critical discourse and dispositive analysis. In R. Wodak & M. Meyer (eds.), *Methods of critical discourse analysis*, 32–62. London: Sage.
  35. Jones, R. H. (2012). *Discourse and creativity*. London: Routledge.
  36. Jørgensen, M. & Phillips, L. (2002). *Discourse analysis as theory and method*. London: Sage.
  37. Kaufman, J. C., Glăveanu, V. P., & Baer, J. (2017). *The Cambridge handbook of creativity across domains*. Cambridge: Cambridge university press.
  38. Kintsch, W. & van Dijk, T. A. (1978). Towards a model of text comprehension and production. *Psychological review* (85): 5, 363–394.
  39. Kølvrå, C. (2018). The discourse theory of Ernesto Laclau. In R. Wodak & B. Forchtner (eds.), *The Routledge handbook of language and politics*, 96–108. London: Routledge.
  40. Kristeva, J. (1979). *Le texte du romam*. Paris: Mouton.
  41. Laclau, E. (1996) *Emancipation(s)*. London: Verso.
  42. Laclau, E. & Mouffe, C. (1985/2001). *Hegemony and socialist strategy*.

- London: Verso.
43. Lakoff, G. (1993). The contemporary theory of metaphor. In A. Ortony (ed.), *Metaphor and thought*, 202–251. Cambridge: Cambridge university press.
  44. Mayr, A. (2008). *Language and power: An introduction to institutional discourse*. London: Continuum.
  45. Paz, A. I. (2013). Discourse theory. In R. J. McGee & R. L. Warms (eds.), *Theory in social and cultural anthropology: An encyclopedia* (1), 191–196. London: Sage.
  46. Ponterotto, D. (2003). The cohesive role of cognitive metaphor in discourse and conversation. in A. Barcelona (ed.), *Metaphor and metonymy at the crossroads: A cognitive perspective*, 283–298. Berlin: Mouton de Gruyter.
  47. Renkema, J. (2004). *Introduction to discourse studies*. Amsterdam: John Benjamins.
  48. Sadock, J. (2006). Speech acts. In L. R. Horn & G. Ward (eds.), *The handbook of pragmatics*, 53–73. Oxford: Blackwell.
  49. Schatzki, T. R. (2001). Practice mind-ed orders. In T. R. Schatzki, K. K. Cetina, & E. von Savigny (eds.), *The practice turn in contemporary theory*, 50–63. London: Routledge.
  50. Swann, J. et al. (2004). *Dictionary of sociolinguistics*. Edinburgh: Edinburgh university press.
  51. Tendhal, M. & Gibbs, R. W. (2008). Complementary perspectives on metaphor: Cognitive linguistics and relevance theory. *Journal of pragmatics* 40, 1823–1864.
  52. Thompson, J. B. (1995). *The media and modernity*. Cambridge: Polity.
  53. Threadgold [Cardiff], T. (2003). Cultural studies, critical theory, and critical discourse analysis: Histories, remembering, and futures. *Linguistik Online* (14): 2, 5–37.
  54. Torfing, J. (2011). Discourse. In K. Dowding (ed.), *Encyclopedia of power*, 191–196. London: Sage.
  55. Torfing, J. (2005). Discourse theory: Achievements, arguments, and challenges. In D. Howarth & J. Torfing (eds.), *Discourse theory in European politics: Identity policy and governance*, 1–32. Houndmills:

- Palgrave Macmillan.
56. van Dijk, T. A. (2011). *Discourse studies: A multidisciplinary introduction*. London: Sage.
  57. van Dijk, T. A. (1998). *Ideology: A multidisciplinary approach*. London: Sage.
  58. van Dijk, T. A. (1993). Principles of critical discourse analysis. *Discourse and society* (4): 2, 249–283.
  59. Weizman, E. (1993). Interlanguage requestive hints. In G. Kasper & S. Blum-Kulka (eds.), *Interlanguage pragmatics*, 123–137. Oxford: Oxford university press.
  60. Williams, J. (2005). *Understanding poststructuralism*. Chesham: Acumen.
  61. Wodak, R. (2007). Pragmatics and critical discourse analysis: A cross-disciplinary inquiry. *Pragmatics and cognition* (15): 1, 203–225.
  - 62.

#### 14. المواقع الإلكترونية

36. موقع التحري نيوز (3):
15. <https://chat.whatsapp.com/Jd1vwBctxwoGoTD3a6S72H> (Accessed on December 13,2024)
46. موقع ثورة وجع الإنسان (64):
16. <https://chat.whatsapp.com/JabBUkVUWB612SxsyBYoHR> (Accessed on December 13,2024)
56. موقع هنا لبنان (27):
17. [https://www.instagram.com/reel/DDXS\\_SuR0Ex/?utm\\_source=ig\\_web\\_copy\\_link&igsh=MzRIODBiNWFIZA==](https://www.instagram.com/reel/DDXS_SuR0Ex/?utm_source=ig_web_copy_link&igsh=MzRIODBiNWFIZA==) (Accessed on December 13,2024)

## وسائل الإعلام وأشكال التواصل في العصر الجاهلي (610-268م)

Media and Forms of communication in the pre-Islamic Era

د. يوسف فيصل صقر<sup>1</sup>

Youssef Faysal Sskr

تاريخ القبول 2025 /7/13

تاريخ الاستلام 2025 /6 /29

### الملخص

تعدّ وسائل الإعلام طريقة إنسانية مهمة لإظهار بطولات الأفراد، فهي ظاهرة حضارة استراتيجية عرفها الأفراد والقبائل والزمالك العربية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، لذلك ابتكر العرب العديد من وسائل الاتصال وأشكاله التي كان لها أحكام المقاصد، وكانت ميزة الإعلام الجاهلي تتمثل في سيطرة أجهزة السلطة عليه إما مباشرة أو توجيهًا وتمويلًا، فوسائل الإعلام عديدة أهمها الشعر، والشاعر هو اللسان الناطق باسم القبيلة والذائد عن حياضها، مثلما كانت الأسواق أماكن تجمعهم للحوار والنقاش والقضاء والخطابة.

**الكلمات المفتاحية:** الإشارات - العلامات - الخطبة - الأمثال - القصص - الرّيات - نيران

### Abstract

The media is an important human means of highlighting the heroism and exploits of individuals. It is a strategic civilizational phenomenon that was known among individuals, tribes, and Arab communities in the Arabian Peninsula before Islam. Thus, the Arabs developed many forms and methods of communication, each serving specific purposes. A defining feature of pre-Islamic media was the control exercised by ruling authorities—whether directly or through guidance and funding. Among the various media tools, poetry was the most prominent. The poet was the spokesperson of the tribe, defending its honor, just as marketplaces served as gathering spots for dialogue, debate, conflict resolution, and oratory.

**Keywords:** Signals- signs- Speech- Proverbs- Stories- Flags- Fires

1- الجامعة اللبنانية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية الفرع الخامس قسم التاريخ.

## توطئة

قامت العديد من الممالك في شبه الجزيرة العربية التي امتدت من بلاد اليمن جنوباً إلى بلاد الشام والعراق شمالاً، ومن الخليج العربي شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً، ويمكن اعتبار مملكة المناذرة (268 - 634 م) من أقدم الممالك الجاهلية التي سبقت البعثة النبوية الشريفة. فالعصر الجاهلي هو عصر الجهلاء بالدين، وهي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر<sup>1</sup>، فالجهل هو عكس الحلم. وقد مارست الشعوب والقبائل في ذلك العصر الإعلام وعرفته بشكل فطري ومتواتر، سواء كانت تدرك ماهية الإعلام وطبيعته أو لم تغص في دهاليزه. فالإعلام وسيلة للتواصل بين الأفراد والشعوب، أو يأخذ شكلاً سياسياً للتواصل بين الحاكم والرعية، والإنسان بطبيعته لديه القدرة على ممارسة التواصل الفريقي» فهو الأساس الذي يقوم عليه البنيان الاجتماعي للأفراد باستخدام الرموز المختلفة، كاللغة والإشارات ونحو ذلك، ومن خلال علامات متبادلة ومفهومة، وبالتالي فالاتصال يمارس دوراً حيوياً في تكوين وإعادة تكوين الآراء المختلفة»<sup>2</sup>.

ومن واجبنا الفصل بين الإعلام ووسائله وأدواته، فكل ما أعلم فهو إعلام، وكل ما استخدم فهو وسيلة، وعليه، ما يوصل المعلومة هي وسيلة، وقد تأخذ الوسيلة شكل المظهر الإعلامي، كالأبنية والصروح والإنجازات والألبسة الرمزية أو التراثية التي ترمز لأمر ما.

فالإعلام كان موجوداً في العصر الجاهلي، ولكنه لم يأخذ شكل ووسائل وأساليب إعلام اليوم، فهل ميّز العرب في العصر الجاهلي بين الإعلام كمادة، والوسائل التي تستخدم في الإعلام؟

### 1 - وسائل الإعلام

ابتكر العرب في العصر الجاهلي العديد من وسائل الإعلام التي كان لها أحكام المقاصد ومن أهمها:

1- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي المصري، (ت 711 هـ / 1211 م)، لسان العرب، 15 جزء، دار صادر، ط3، بيروت، 1994، ج 11، ص 130.

2- Klapper, Joseph; **The Effects of Mass communication**, New York, free press, 1967. p. 60.

## أ-الشعر والشعراء

الحق أنّ الشعر في العصر الجاهليّ كاد يكون هو الوسيلة الوحيدة من وسائل الإعلام، فكان له المقام الأوّل في بيئة لا يعرف أفرادها القراءة والكتابة إلا ما ندر، يكادون يعدّون على الأصابع<sup>1</sup>، لقد ترك الشعراء كمّاً كبيراً من المواد الشعريّة في أماكن أشبه بالمحطات الإعلاميّة، والإذاعات المتنقلة، وكانت المادة الإعلاميّة في زمانهم متمثلة بهجو، ومديح، وقدح، وذمّ، وتبيان، وذود، ورفع، ودحض، فأحدثت قصائدهم ضجيجاً إعلامياً كبيراً ذا أثر متنفّل في عصرهم.

ومما لا شكّ فيه أنّ سلاح الشعر الإعلاميّ أكبر الأثر وأبلغ التأثير في المجتمع، فلم تكن هناك وسيلة أمضى، ولا أداة أكثر توثيقاً وتخليداً للأحداث، وأفعال الرجال، وتاريخ القبائل، وأمجاد العشائر أكثر في الشعر والشعراء.

وكانت القبائل، بشكل عام، «إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعن بالأعراس، وتباشر الرجال والولدان لأنّه حماية لأعراضهم، وذبّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم وإشادة بذكرهم»<sup>2</sup>. «والسبب في ذلك أنّ الشّاعر في القبيلة كان يقوم مقام الصحيفة بالنسبة للأحزاب في الوقت الحاضر، فهو النّاطق بلسان هذه القبيلة، وهو المناضل عنها بشعره، وهو الحافز لهمّهما في أوقات الحروب، وهو المصوّر لأخلاقها، وعاداتها، ومكانتها بين القبائل»<sup>3</sup>، وقد اتخذت كلّ قبيلة وعشيرة شاعراً لها ليقوم بعمل الوسائل الإعلاميّة في الدفاع عن القبيلة، وشرفها، وتقاليدها، وأمجادها، وينبري في الهجوم على أعدائها، بذمّ وقدح وأعمالها، وكان لزاماً على القبيلة أن يخرج من بينها شاعر، وإلا أضحت كاليتيمة، فنشر أخبار القبيلة، وتمجيد شرفها، والهجوم على الأعداء كانت من مهامّ الشّاعر.

وعمل الشعر عمل الذاكرة الحافظة لمعظم الأحداث، فهو خلّد مآثرهم، وكان نوعاً من التحايل في التخليد من خلال اعتمادهم الشعر الموزون<sup>4</sup>.

1- حمزة، عبد اللطيف، الإعلام في صدر الإسلام، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 1971، ص18 - 19.  
2- ابن رشيّق، أبو علي الحسن القيرواني (ت 456 هـ / 1064م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، جزآن، منشورات دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 2001، ج1، ص70.  
3- حمزة عبد اللطيف، المرجع السابق، ص20.  
4- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانيّ (ت 255 هـ / 869م)، الحيوان، 6 أجزاء، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة البابي الحلبي وأولاده، ط1، مصر، 1938، ج1، ص72.



وكانت قصائد الشعراء، وهي لم تدوّن بقلم، تطير عابرة الصحراء أسرع من الرياح، وتحدث أثرها العظيم في قلوب من يسمعونها، فصاغ عن قصد أو غير قصد بين القبائل، وحدة أهلية قائمة على أساس عاطفي<sup>1</sup>. فعظم الملوك الشعراء لرفعهم أقدارهم لما ييقنون لهم من المدح والذكر<sup>2</sup>، وفي المقابل كانوا يرهبون الهجاء كلّ الرهبة، لذلك كانت للشاعر مكانة اجتماعية سامية في كلّ مكان<sup>3</sup>، فالشعر يعدّ من الوسائل المهمة لإيصال المعلومات، فالويل لمن وقع تحت سيوف أسننتهم، فلم يعفّ الدهر عنه، وستظلّ لعنة أقوالهم تلاحقه أبد التاريخ. وتعتبر المعلقات من أهمّ ما قاله الشعراء الجاهليون، ومن أعظم ما تمّ تدوينه، فهي من أكبر عمليات الإعلام المكتوب والمسموع آنذاك، سواء على صعيد طريقة اختيار المعلقة وفوزها، أو على أهمية المكان الذي علفت عليه، وهو جدران الكعبة، فيعدّ ذلك تعظيمًا للقسيّدة وإكبارًا لقائلها، ولتعمّم الفائدة على زوار البيت العتيق، ثمّ لتحملها صدورهم إلى قبائلهم، وشعرائهم، ونواحيهم، وحاراتهم، وتنطق بها الألسنة، ويستشهد بها الحكماء والواعظون.

لقد أدّى الشعر دور وسائل الإعلام الحديثة في يومنا هذا، كمحطات الرّاديو والتلفزة والصحافة المكتوبة، لما تضمّنه من أسماء وأرقام وأحداث، وظروف، وتواريخ، وانتصارات، ومعاناة، ووصف، وتعظيم، وتمجيد، حتى العشق والولّة. فهو أهمّ وسائل الدعاية والإعلام في العصر الجاهليّ، لما له من تأثير مهمّ في النفوس، إذ يتفاعل بسرعة مع المشاعر والأحاسيس، «الشاعر سمّي شاعرًا، لأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره»<sup>4</sup>

ومن اللافت بمكان، أنّ الإعلام السياسي والاجتماعي، لم يكن آنذاك حكراً على طبقة دون أخرى للجميع، ولم يكن للأقوياء دون الضعفاء، ولا للأغنياء من دون الفقراء، بل كان الإعلام متاحاً للجميع. وما هم الصّعاليك يشرحون للناس أسباب تصلّكم، ولماذا التحقوا بمجتمع الصّعاليك؛ فهم قوم خرجوا على طاعة بيوتهم، وعشائرتهم، وقبائلهم،

1- Nicholson. R.A, **A Literary History of the Arabs**, Cambridge University press, second edition, London, 1930. p. 72.

2- اليعقوبي، أحمد بن اسحق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 292 هـ / 950م)، **تاريخ اليعقوبي**، جزان، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1999، ج1، ص180.

3- Farmers Henry George, **A History of Arabia Music to the X11th Century**, published by Good World, first edition: New Delhi, 2001, p.9.

4- ابن رشيّق، المصدر السابق، ج1، ص12.

لأسباب عديدة منها عدم إدراك أهلهم وعشيرتهم لمكنون أنفسهم، مما أدّى إلى نفورهم منهم، وخروجهم على طاعة مجتمعهم وهروبهم منه، والعيش عيشة اللصوص<sup>1</sup>.

وقد ثار هؤلاء الصّعليك على البخلاء من الأغنياء، فوجدوا فيهم هدفهم المنشود، فحيك حول حركة الصعلكة الكثير من الصفات منها البخل، وعدم إكرام الضيف، واللوم، والإلحاح في الطلب، والاستجداء، والمهم في أمر هذه الظاهرة الاجتماعية في المجتمع الجاهليّ، أنّه كان لها إعلامها وأدواتها الشّعريّة على وجه الخصوص، فالإعلام كان متاحاً حتّى للصّعليك.

### ب- الأسواق

لم يقتصر دور الأسواق على العمل التجاريّ، بل أدّت دوراً أساسياً في تبادل ونقل المعلومات، والأخبار، والأحداث، من خلال التّجار الذين قصدوا تلك الأسواق من كلّ حذب وصوب، حاملين في قوافلهم التّجاريّة الأخبار الوصفية للأحداث، وعادات وتقاليد وأعراف الشّعوب، وأخبار أفرادهم وأحداثها التي استعملها الشّعراء مادة دسمة في قريضهم وقصائدهم. حيث خلّدت أعمالهم وإنجازاتهم مآثر كبار القوم وأمجادهم، فكانت تلك الأسواق أشبه بالمهرجانات الثقافيّة السنويّة للقبائل التي يتعاطون فيها التّجارة ومعظم الشّؤون، وعادات العرب، وتقاليدهم وأعرافهم، وتعاملاتها المختلفة فيما بينهم، فكانوا يتلاقون ويتعارفون، ويتصالحون، ويتقاضون.

وأسواق العرب كثيرة، ومنها: «دومة الجندل، وصحارى، والشّحر، وعدن، وصنعاء، والزّابية، وعكاظ، وذى المجاز»<sup>2</sup>، وسوق الحيرة الموسمي<sup>3</sup>، وسوق الخنافس<sup>4</sup> وسوق

1- ابن منظور، المصدر السابق، ج10، ص455 - 456.

2- ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن أمية بن عمر و الهاشمي البغدادي (ت 245هـ / 109م)، المحبّر، تحقيق سيد كسروي، نشر دار الغد العربي، القاهرة، 2000، ص270 - 272، البيهقي، المصدر السابق، ج1، ص230 - 231.

3- الأفغاني، سعيد، أسواق العرب، مطابع دار الفكر، ط2، دمشق، 1960، ص374.

4- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 210هـ / 922م)، تاريخ الأمم والملوك، 6 أجزاء، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ج2، ص376، ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ / 1200م)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 18 جزء، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1995، ج4، ص149.

المشقر الذي قصده الفرس من البحر<sup>1</sup>، وسوق دبا بعمان امتلاءً بأهل المشرق والمغرب<sup>2</sup>، واتخذت هذه الأسواق طابع المهرجانات الثقافية، إذ كان لها تأثيرٌ على مجموعة الأسس الاجتماعية والأخلاقية بين الجماعات المختلفة، كما قامت بوظائف إعلانية، بحيث إنه في السوق يتعلم الإنسان الحيل، السحر، والتنبؤ، وعلم النجوم<sup>3</sup>.

وإذا كان في القبيلة الشاعر الماهر، المصيب المعاني، المخير الكلام، أحضروه في أسواقهم التي كانت تقوم لهم في السنة، ومواسمهم عند حجهم البيت، حتى تقف وتجتمع القبائل والعشائر، فتسمع شعره، ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم، وشرفاً من شرفهم، فالشاعر كان إعلامياً مقدماً للخبر، والسوق هو المحطة الإعلامية، المرئية والمسموعة.

وكانت لهم أسواق معلومة، أشهرها سوق عكاظ، فيه كانوا يجتمعون ومنه فيذهبون إلى الحج. قبل ارتحالهم إلى بلادهم ففي كل عام كانوا يجتمعون فيه للمفاخرة وإنشاد الأشعار، ومفاداة الأسرى، لأنهم يأمنون بعضهم في هذه الأيام<sup>4</sup>، ومن أحب أن يخلد نصراً لقومه، صنع ما صنعه عمرو بن كلثوم النعلبي، لما قام خطيباً بعكاظ، فأعلن أن ملك الحيرة عمرو بن هند، تعمد إلحاق الذلّ به وبأمة فقتله<sup>5</sup>، وكانت عكاظ أشبه بإذاعة العرب، ومنبر أعلامهم، ومركزاً لنشر كلّ خبر، الغرض منه أن يكون عامّاً، أو سريع الانتشار، فمن أراد أن يمنح نسبه لأحد -أي هويته- قام بعكاظ، فأعلن ذلك في وجود أفراد قبائل العرب، فيعلمون بذلك، ومن أراد أن يجير أحداً من غير قبيلة، أي يمنحه

1- ابن جيب، المصدر نفسه، ص371، البيهقي، المصدر السابق، ج1، ص231.

2- ابن جيب، المصدر نفسه، ص371، ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الحموي (ت 626هـ/ 1228م)، معجم البلدان، 5 أجزاء، نشر دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1979، ج2، ص435، البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت 487هـ/ 1094م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، جزآن، تحقيق مصطفى سقا، نشر مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1996، ج2، ص529.

3- الجاحظ، المصدر السابق، ج4، ص369 - 370.

4- التبانى، محمد العربي، محادثة أهل الأدب بأخبار وأنسب جاهلية والعرب، مطبعة حجازي، القاهرة، 1951، ص126 - 127.

5- أبو زيد، محمد بن أبي الخطاب (ت حوالي 170هـ / 786م)، جمهرة أشعار العرب، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1986، ص183، ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/ 889م)، الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء، تحقيق مفيد قمحة ونعيم زرزورة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1985، ص138، الأتباري أبو بكر محمد القاسم (ت 328هـ/ 940م)، شرح القصائد السبع الطوال إلى الجاهليات، تحقيق محمد عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط5، القاهرة، (د.ت)، ص371، ابن النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (ت 338هـ / 949م)، شرح القصائد المشهورات، جزآن، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1985، ج2، ص89، أبو الفرج الأصفهاني، بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد مناف (ت 356هـ/ 967م)، الأغاني، 24 جزء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992، ج11، ص50.

حقّ اللجوء إليها وحمايتها له، أو أراد أن يخلع أحدًا من القبيلة، أو من جوارها، فعليه أن يعلن ذلك في مجامع العرب

الكبرى. ولم يكن هنالك مجمع للعرب أكبر من مجمّعهم في سوق عكاظ، وبشكل خاصّ في مواسم الجح، كما كانت معاهدات الأمن المعقودة بين قبائل العرب، لا تصير نافذة غالبًا، ما لم تعلن في سوق عكاظ<sup>1</sup>.

تجد كلّ هذه الإرهاسات الاجتماعية طريقها ومنفذها في الأسواق، وقد يهدف فاعل الخير إلى تخليد صنيعه واسمه بين العرب، «ففي أسواق العرب يجتمع عرّاف، وعائف، وقائف (العيافة والقيافة)، وكاتب معه صحيفة الكتابة، وغنم وقرد، وما إلى ذلك، ومن له ثأرٌ بحث عن مؤثوره ليتعرّف عليه أيضًا في أسواق العرب»<sup>2</sup>.

ولم تكن كلّ بضاعة تردّ على سوق عكاظ تُباع، إذا لم يعرف أصلها ومنشأها، إن كان لها سمة خاصة بها، تؤكّد لنا هذا الأمر، لأنّ البضائع التي كانت مجهولة الأصل، لم تكن تجد من الناس من يشتريها، أو يُقبل عليها<sup>3</sup>.

وكانت لكلّ قبيلة من قبائل العرب سمة خاصة، توسّم بها أنعامهم، ليعرف أصلها، فكان من عاداتهم أن يسألوا: ما نار هذه الناقة؟ أي سمتها، وسُميت السمة نارًا، لأنّها بالنّار توسّم، وكانوا يقولون عن الإبل: نجارها نارها، أي سمتها تدلّ على أصلها<sup>4</sup>، و كان يختمون أكياس البرّ، وزقاق الخمر، وغيرها من البضائع بخاتم خاصّ عليه كتابة منقوشة مميزة، يسمّونه «الرّوسم»<sup>5</sup>.

ومارست القوافل التجاريّة دور المراسل الصحفي في نقل المعلومات، فقد كانت مصدرًا مهمًا موثوقًا في إعلام الآخرين بما جرى وسوف يجري، وما يدور من أحداث سواء بالمناطق التي دخلتها أو الأسواق والمدن والنقاط التي مرّت بها. وكان الناس يقبلون على هذه القوافل التجاريّة، ليس طمعًا في الحصول على نفائسها فحسب، بل

1- حمور، محمد عرفان، عكاظ و مواسم الحج، نشر مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2000، ص 139-140.

2- سلامة، عواطف أديب، قريش قبل الإسلام دورها السياسي والاقتصادية و الديني، دار المريخ للنشر، الرياض، 1994، ص 227.

3- الميداني، أبو الفضل أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت 518هـ/1124م)، مجمع الأمثال، جزآن، تحقيق نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988، ج2، ص 114.

4- ابن منظور، المصدر السابق، ج5، ص 243.

5- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب، 10 أجزاء، جامعة بغداد، ط2، بغداد، 1993، ج7، ص 551.

ليأخذوا خبراً أو يسألونهم عن حدث، أو يسمعون منهم عن عادات وتقاليد الأفراد والشعوب التي تاجروا معهم. فكانت خطوط القوافل التجارية محطات إرسال للمعلومات والأخبار والأحداث. وترافق كل قافلة تجارية رسل، وكانت مهمتهم إيصال أخبار القافلة التجارية، وما تتعرض له من أحداث ومخاطر إلى صاحبها<sup>1</sup>.

### ج- الدين

تباينت صورة الإعلام الديني بين قبيلة وأخرى، وبين منطقة وأخرى، فانَّخذ العرب الأصنام والأوثان كأسلوب دعوي ديني إعلامي، فكان لكل قبيلة صنم ووثن مختلف عن القبيلة الأخرى، وأعطتهم أسماء، وقدمت لهم القرابين<sup>2</sup>، وتباركت بهم عند الحج، أو عند الحرب، أو في الشدائد.

وقد أنشد العرب ابتهالاتٍ ونداءاتٍ مختلفةً كانت تردُّ أثناء طوافهم بأصنامهم وأوثانهم، فكانت عبارة عن ما يشبه الأهزوجة<sup>3</sup>. وتتضمَّن إظهار مشارب هذه القبيلة وأمجادها وانتصاراتها وما تشتهر به من حسب ونسب وجود وكرم، فكانت تروِّج للإعلام الديني لمعتقد تلك القبيلة. ولزيادة التأثير الإعلامي، استخدموا الأغاني الموسيقية البدائية من تهليل وتلبية أثناء الحج<sup>4</sup>، لتشريع عملية النشر الإعلامي. وكانت طقوس وشعائر عبادة الأصنام والأوثان تشبه المهرجان الإعلامي الفلكلوري، فكل جماعة ترتدي أزياء مخصصة لطقوسهم، ممتنعين عن بعض عاداتهم الحياتية الروتينية أثناء شعائرهم؛ وبالمقابل ممارسة بعض العادات المتعلقة بالديانة<sup>5</sup>، فكان لكل قبيلة الدور الإعلامي الديني لإظهار ما تعتقد أو ما تعظم، وكذلك بالتفاخر بما امتازت به عن غيرها من القبائل، وإلى ما ترمز إليه أصنامهم وأوثانهم من مآثر.

وكان للكعبة المشرفة مكانة عند العرب حيث قصدوها من كل حذب وصوب، ونسبت أركان الكعبة الأربعة إلى الجهات التي تتجه إليها، فسميت «الركن الشامي» بحيث يتجه إلى الشمال الغربي، والركن اليماني «جنوب غربي»، والركن العراقي «شمال شرقي»،

1- سلامة، عواطف أديب، المرجع السابق، ص 217.

2- الجاحظ، المصدر السابق، ج 5، ص 511.

3- ابن حبيب، المصدر السابق، ص 311-312، البيهقي، المصدر السابق، ج 1، ص 218 - 219.

4- Farmer. H. G, *Ibid*, p. 8.

5- ابن قتيبة الدينوري، المصدر السابق، ص 90، ابن رشيقي، المصدر السابق، ج 2، ص 124 - 125.

والركن الأسود، الذي به الحجر الأسود «جنوب شرقي»<sup>1</sup>.

هذه البقعة الجغرافية أصبحت محجةً لجميع الشعوب من كلِّ فجٍّ عميق، ممّا ساهم بتحويلها إلى خزّانٍ إعلاميٍّ لجميع المعتقدات والعادات والتقاليد، لتنتشر في كلِّ الأرجاء، فكانت تؤثر بالقادمين، وفي الوقت نفسه تتأثر بهم.

#### د - الإشارات والعلامات

عرف عرب الجاهلية عادة الخلع، أو ما يُعرف في عصرنا هذا ( بالتبرؤ )، فهي من العادات الاجتماعية المعروفة، عنوانها تبرؤ الإنسان من آخر، أو أهل من ولد، أو عشيرة من أحد أفرادها، وذلك لجُرم أو فعل شائن، ما يجزّ عليه سمعة سيئة، أو عداوة أو ثار، وكان لهذا الأمر أسلوب إعلامي، ليتبلغ بقرار الخلع كل من كان له علاقة بهذا الشخص، وليصل خبر ذلك لمن يهتم الأمر. فكانوا يقولون: «إن خلعنا فلانا فلا نأخذ أحد بجناية تجنى عليه، ولا نؤاخذ بجنایاته التي يجنيها»<sup>2</sup>، فنفي المرء عن قبيلته أو حرمانه من حماياتها له، وتضامنها معه، أو إسقاط جنسيتها عنه، كلّ ذلك كان يسمّى «الخلع» في الجاهلية، وهو حرص منها على سمعتها وكرامتها. ووجب على القبيلة التبرؤ من أفرادها بسبب سلوكهم المشين، يصبح سفيهاً سكيراً كثير الجرائم والجنايات<sup>3</sup>. فالمخلوع إمّا يكون من أسرى سجن أي من قبيلة أخرى، أو من بلاد أخرى<sup>4</sup> بحيث لا يُعرف لهم نسب، وأصل هؤلاء ليس من الرقيق، بل هم كانوا صرحاء فخلعوا، فأصبحوا منفيين، أو ربما كانوا هاربين من ثار، أو باحثين عن الثروة<sup>5</sup>.

ومن الإشارات الإعلامية في العصر الجاهليّ جرّ الناصية، فكانت العرب تجزّ ناصية الأسير ليعلم أن ناصيته مُلكت وجُزّت، ثم منّوا عليه وأطلقوه، وكان إذا ضلّ منهم الرّجل في الفلاة قلب ثيابه، وحبس ناقته، وصاح في أذنيها كأنّه يومئ إلى إنسان وصقّ بيديه<sup>6</sup>، فالتصفيق إشارة إعلامية تدلّ على الضياع في غياهب الصحراء، وفقدان

1- سلامة، عواطف أديب، المرجع السابق، ص266.

2- ابن منظور، المصدر السابق، ج8، ص77.

3- أبو زيد، المصدر السابق، ص203، الميداني، المصدر السابق، ج2، ص87.

4- الطبري، المصدر السابق، ج1، ص461.

5- Nicholson, A.R, Ibid, p. 39.

6- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك (ت 485هـ/1286م)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، جزآن، تحقيق نصرات عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، (د.ط)، 1982، ج2، ص791.

المعرفة بشعب المنطقة وممراتها.

وعرفت المرأة عادة شقّ الرداء والبرقع، وشقّ الجيب حزناً على شخصٍ فقدته<sup>1</sup>، كما تعبّر بعض الأعمال عن شخصية المرأة الاجتماعية، وما تتميز به من مواقف وفيّة مفعّمة بالمحبة والوفاء، فكانت تخمش وجهها، وتحلق شعرها إذا مات لها أحد أولادها، أو زوجها<sup>2</sup>. وأغرورقت عيناها بالبكاء على الحبيب، واصطحب ذلك النياحة والندب<sup>3</sup>.

واتّخذ العرب بعض العلامات التي كانت جواز سفر في تنقّلاتهم، فقد كان شعار أهل مكة ومن في حلفهم، عبارة عن لحاء شجر الحرم يجعلونه في أعناقهم، أو أعناق إبلهم فلا يعترضهم معترض<sup>4</sup>، «وذكروا أنّ سيماء أهل الحرم، إذا خرجوا إلى مناطق الحلّ في غير الأشهر الحرم، فإنّهم يتقلّدون القلائد، ويعلقون العلائق»<sup>5</sup>، فهي من الإشارات التي تعطي صورة إعلامية واضحة عن أفراد القبيلة وأصلهم.

#### هـ- الخطبة والخطباء

الخطبة هي من مخاطبة الجمهور مشافهةً بأسلوب يعتمد على إثارة العواطف، وجذب الانتباه، انجذب إليها المستمع بشكل ضروري وفطري. ولا يمكن لأيّ نوع أو جنس أدبي أن يظهر أو يتطور إلا إذا توافرت له الدواعي والأسباب، والأمر نفسه ينطبق على الخطابة «فقد اقتضى النظام الاجتماعيّ والسياسيّ في الجاهليّة أن يقيم العرب للخطابة وزناً خاصاً في المفاوضات التي تكون في داخل القبيلة للنظر في أمورها وفي شؤونها الخاصة بها في أيام السلم وفي أوقات الغزو والغارات، وفي حالتها الهجوم والدفاع، وأقاموا لها وزناً خاصاً بالمناسبة للمفاوضات التي جرت بين القبائل، أو بين القبائل والملوك، ثم في المحاضرات وفي المنافرات، فكلّ هذه الأمور وأسبابها استدعت ظهور أناسٍ بلغاء اعتمدوا على حسن تصرفهم في تنظيم التكلم في تنسيق الجمل وفي التلاعب بالألفاظ للتأثير على القلوب»<sup>6</sup>.

1- أبو زيد، المصدر السابق، ص208.

2- ياقوت، المصدر السابق، ج4، ص69.

3- أبو الفرج الأصفهاني، المصدر السابق، ج22، ص90.

4- علي، جواد، المفصل، ج5، ص331.

5- الجاحظ، البيان والتبيين، 4 أجزاء، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، القاهرة، 1968، ج2، ص95.

6- علي، جواد، المرجع السابق، ج8، ص774.

«وكان الشاعر أرفع قدرًا من الخطيب، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء، وكثُر الشعر، صار الخطيب أعظم قدرًا من الشاعر»<sup>1</sup>، وربما من بين أسباب تفوق الخطيب على الشاعر في الجاهلية هو اتساع وظيفته، فقد كان يفاخر وينافر عن قومه، فيشترك بذلك مع الشاعر كما يشترك معه في الحَضّ على القتال، ولكنّه يتفرد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك، والنصح والإرشاد، وخطبهم في الأملاك والزواج مشهورة، ومن أهم المواقف التي ينفرد بها أنّه كان يدعو إلى السلم، وأنّ تخبوا نيران الحرب. فقد تمّ إرسالهم إلى الملوك لتوضيح الأفكار بلغة شجعية قادرة على الإقناع<sup>2</sup>.

وهناك مجموعة من التقاليد التي عكف الخطباء على اتباعها عند إلقاءهم لخطبهم، ومن بينها اعتلاء رواحهم عند إلقاءهم لخطبهم من أجل أن يراهم القريب والبعيد، بالإضافة إلى أنّهم كانوا يتخذون العمائم على رؤوسهم لتزيدهم وقارًا ورفعة، كما كانوا يرفقون نطقهم بالإشارة بالعصي والمخاطر فتبلغهم هذه الإشارات الموزونة مواطن التأثير في نفوس القوم<sup>3</sup>.

وقد عاب على الخطباء حملهم للمخاطر التي يختصرها الإنسان فيمسكها بيده، والعصيّ هو العكاز أو القضيب، فبرر الجاحظ ذلك بقوله: «إنّ حمل العصاء والمخصرة دليل على التأهب للخطبة، والتهيؤ للإطّباب والإطالة، وذلك شيء خاصّ في خطاء العرب ومقصود عليهم، ومنسوب إليهم، حتى إنّهم ليذهبون في حوائجهم والمخاطر في أيديهم إلّا لها، توقعًا لبعض ما يوجب حملها، والإشارة بها»<sup>4</sup>.

فالخطيب بوق إعلامي قام بوظائف اجتماعية وسياسية متنوعة<sup>5</sup>، اتخذ من الأسواق مكانًا لخطبته في مختلف شؤون الحياة، فقس بن ساعد الإيادي كان يخطب بالناس في الأمور الكونية، ويدعوهم إلى التأمل في الموت وما بعد الموت<sup>6</sup>. وعلى الخطيب

1- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص241.

2- ابن جبيب، المصدر السابق، ص158 - 159، البعقوبي، المصدر السابق، ج1، ص220.

3- الجاحظ، المصدر نفسه، ج3، ص6-7.

4- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص371، و ج3، ص117.

5- حمزة، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص21.

6- الميداني، المصدر السابق، ج1، ص155، العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 382هـ / 992م)، كتاب الاوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، نشر أسعد طرايزوني الحسني، المدينة المنورة، (د.ط)، 1966، ص52 - 53.



أن يسحر السامعين بالصوت قبل أن يقنعهم بالحُجَّة، فربما لجأ إلى اصطناع الجهارة في الصوت والتلاعب بالطبقات الصوتية تضخيمًا، وتقخيرًا، وتوقيفًا، وتنظيمًا، مما يساعد على تركيب الأفكار عند جماعة من الناس ليكون لديهم رأي، وتستطيع التأثير في الآخرين، «فالخطبة: الكلام المنشور المسجع»<sup>1</sup>.

ونادم الخطباء الملوك والأمراء، فأتاح لهم ذلك الاطلاع على أسرار الدولة ومكنوناتها السياسية؛ مثال عمر بن عمار الطائي خطيب قبيلة مذحج كلَّها، الذي نادى الملك النعمان بن المنذر اللخمي (604-582 م)<sup>2</sup> بسبب حسن حديثه وجمال كلماته.

لا شكَّ أبدًا في أنَّ دور الخطابة في مسألة الإعلام هي من الأدوار الرئيسة، فسهولة التعامل والتخاطب بالمنثور، أهمُّ وأسهل وأعمُّ من التعامل بالمقفى والموزون، وكذلك جاءت مختلف المعلومات والمواضيع الإعلامية، من علوم وإخبار، وإنباء، وتعليم و تعميم، بمعظمها منشورة، عدا بعض الأمور التي اختصت بالشعر، لأهمية حفظها وتحفيظها ونشرها.

## و- الأمثال

أبداع العرب في تقديم الأمثال في المواقف والأحداث المختلفة، فلا تكاد تخلو مواقف الحياة العامة من مثل ضُرب عليها، ولا نجد خطبة معروفة، ولا قصيدة سائرة إلا واحتوت مثلًا رائعًا مؤثرًا في حياتنا، فالمثل: هو نوع في الحكم، يأتي في حدث لمناسبة ما، تطلَّب أن يردَّ فيها ثم يتناقلها الناس في غير واحد من الوقائع التي تشابهها<sup>3</sup>، دون أدنى تغيير لما فيه من إيجاز وغرابة ودقَّة في التصوير.

والأمثال أقوال مختصرة، يُراعى في وضعها الإيجاز والبلاغة والتأثير، وقد يكون المثل كلمتين، وقد يكون أكثر من ذلك، ويُراعى أن يكون سجعًا أو طباقًا<sup>4</sup>.

وقد ضرب المثل بشخصيات جاهلية تركت أثرًا في أيامها. فضُرب بها المثل، مثل: «أبلغ قس» و يراد به قس بن ساعدة الخطيب الشهير<sup>5</sup>.

1- ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص361.

2- الجاحظ، المصدر نفسه، ج1، ص349.

3- ابن منظور، المصدر السابق، ج11، ص611 - 612.

4- علي، جواد، المرجع السابق، ج8، ص358.

5- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (911هـ/ 1505م)، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، جزآن، تحقيق محمد جار المولى وآخرون، (د.ط.)، المكتبة العصرية، بيروت، 1987، ج1، ص503.

فالمثل العربي يأتي بعد الشّعَر العربي مباشرة من حيث الحفظ وسرعة الانتشار، فقد عرف العربي المثل كمدرسة ومرجع توجيهي في حياته اليومية، فاتخذ الأمثال كشواهد على مختلف أعماله وتصرفاته، وضربت الأمثال لكلّ المسائل، لأنها استُخرجت من التجارب ومن خبرة الحياة، ولقد حفظت الأمثال العربيّة معظم ثقافات العرب وعاداتهم، وحكمهم وفهمهم للحياة، وطريقة تصريف أمورهم اليومية.

«والأمثال من حكمة العرب في الجاهليّة، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتهم في المنطق بكناية غير تصريح. فيجتمع لها بذلك ثلاث من خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسن التشبيه»<sup>1</sup>، فكم من خبرة، وثقافة، وتقليد، وحكمة، وموعظة، ومأثرة، حفظت في مثل، فتناقلته الألسن من جيل إلى آخر، ومن قبيلة إلى أخرى، وحتى من بلد إلى آخر، فحمل معه كلّ هذه القيم الإنسانية كنشرة إلكترونية أو مطبوعة، أو مُرسلة عبر الأثير، ولكن في قالب من الأنسنة، من خلال التلقين والتداول المباشر، من إنسان لآخر.

«ولا يزال بعضها حيّاً يتمثل الناس به، أو بعضاً منه يردُّ على لسان كلّ إنسان، أي أمثلة تنطبق على كلّ البشر، لأنها صادرة من نفس إنسانية عامة، فلا تعدُّ من الأمثلة المحلية أو القومية، أي أمثلة نبعت من محيط أمة معينة، لذلك نجد لها شبيهاً عند أمم أخرى، ولا نستطيع أن نقول إنّ الأمة أخذتها من تلك»<sup>2</sup>.

فالأمثال عند الجاهليين نوع في أنواع الحكمة السائرة بين الناس، يقولها السيد، والمسود البارز والحاصل، وهي تحفظ بسهولة، ولا يحتاج المرء لتعلّمها مهارةً وذكاء، فهي موروثة شعبيّ وثقافيّ، تمتاز بالحكمة والبساطة، بحيث كانت التجارب التي مرّت بها الشعوب سبباً أساسياً ساهم في انتشار هذه الظاهرة.

## ز - القصص

احتلّت القصص جزءاً كبيراً من اهتمام العرب الجاهليين، لأنها مادة تاريخهم، ومناورة لشعوب وأمم لا يعرفونها فتحفّز خيالهم، وتنقل ثقافتهم، ومعرفتهم، فالقصة فنّ أدبيّ ثريّ يعطي الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا<sup>3</sup>، تتناول بالسرّد حدثاً واقعاً، أو يمكن أن يقع.

1- السيوطي، المصدر السابق، ج1، ص486.

2- علي، جواد، المرجع السابق، ج8، ص370.

3- ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص74-75.

وعرب الجاهليّة كانوا يشغفون بالقصص شغفًا شديدًا، بسبب أوقات فراغهم الواسعة في متاهات الصّحراء، فكان لهذه القصص دورها في الإخبار والإعلام عن سالف الأيام والأمم التي عبرت خلالها، وعن أحداثها، لتكون دروسًا وعبرًا لمن بعدها من الأمم، وكانت أمثلة وإخبارًا. لا شك أنّ القصص كان لها تأثير هامّ في الناس لجهة التأثير بهم وبتوجيهاتهم. وكانت سلاحًا له وزنه بين الجماهير، إن للوعظ والتنبيه دورًا إما لإظهار قدرة الله في خلقه ممن سبقه، وإما لشخذ الهمم ورفع المعنويات، أو لإظهار الصدق والفصل في الأمور المختلف عليها بين الناس وأخذ الدروس والعبر.

ومن أشهر قصص الجاهليّة، قصة عدي بن زيد العبادي الذي قتله النعمان بن المنذر أبا قابوس في سجنه<sup>1</sup> حوالي 587م، والنابعة الذبياني زياد من معاوية (ت 604 م) الذي اصطنع القصص ليعظ بها قومه وممدوحه النعمان بن المنذر ملك الحيرة، فقصّ عليه أسطورة زرقاء اليمامة<sup>2</sup>، وغيرها من القصص التي رواها وأبدع فيها بسبب حبه لبلاط الملك المنذري<sup>3</sup>.

وأدّت القصص دورًا مهمًا في الإعلام، وبخاصة عن أخبار الأمم الغابرة والغائرة القدامى في التاريخ، ولقد اعتمد أهل التاريخ في العصر الجاهليّ على القصص القديمة لمعرفة أخبار العرب، لأنها أحد أهم مصادر المؤرّخين، حيث لم يكن عصر التدوين قد بدأ، وقد احتوت القصص على ما احتوته من معلومات رواها القصّاص والرواة كما وصلتهم، ولا يعلم أحد مقدار مصداقيتها، أو صحّتها، أو مدى دقّتها، فقصة الزياء بنت عمرو مع عمرو بن عدي اللخمي<sup>4</sup> التي تظهر الثأر في مغزاها.

ومن القصص، قصص الملوك والأبطال، وسادة القبائل والأيام، وتؤدّي قصص الأيام الدور الأول في هذا المقام، لما له من أثر في العصبية<sup>5</sup>، وكان من أحبّ القصص إلى نفوس العرب، تلك التي تدور حول المعارك العسكرية في الجاهليّة، بين القبائل والممالك العربيّة، كيوم حلّيمة بين المناذرة والغساسنة<sup>6</sup>.

1- أبو الفرج الأصفهاني، المصدر السابق، ج2، ص118.

2- أبو الفرج الأصفهاني، المصدر السابق، ج11، ص13.

3- Nicholson, R. A, *Ibid*, p. 122.

4- اليعقوبي، المصدر السابق، ج1، ص179، الطبري، المصدر السابق، ج1، ص366 - 368، أبو الفرج

الأصفهاني، المصدر السابق، ج5، ص319 - 320، ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص63 - 66.

5- علي، جواد، المرجع السابق، ج1، ص373.

6- ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص149.

وأدت القصة دوراً مهماً في إدخال تاريخ الأقوام الغابرة. ولبعض القصص أصول أعجمية دخلت إلى المجتمع العربي من منابع خارجية يونانية، وفارسية، ونصرانية، مثل قصة يومي البؤس والنعيم للملك المنذري النعمان بن المنذر<sup>1</sup>.

فالقَصُّ هو من مخاطبة الجمهور والتأثير فيه، بالاعتماد على مضمون القصة والعظة التي تمثلها، ولأنَّ العرب، وبطبع الناس عموماً، حبَّ المعرفة والاستماع للأمور الغريبة والغامضة مما خفي من أمور، فقد كانت القصة إعلاماً متنقلاً من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن جيل إلى جيل.

والقصص على نوعين: قصص للعامة، وقصص للخاصة. فأما الأولى، هي التي تجمع إليها نفوس أكثر الناس، وأما الثانية، فهي التي اعتمد عليها الملوك. «فقصص النوادر والنكات من القصص المعروفة عند أهل الجاهلية، وقد اتخذ الملوك والأشراف لهم ندماء عرفوا بإغراقهم في قول المدح، والنوادر، والأمور الغريبة المضحكة»<sup>2</sup>.

### ح- الرّايات

استخدم العرب في الجاهلية الرّايات والألوية بألوانٍ مختلفة للدلالة الإعلامية، فاسم راية الحرب لواء، وهي عبارة عن شقّة ثوب تلوى وتشدّ إلى عود الرمح.

واتخذت كلّ مملكة وقبيلة راية خاصة بها من ناحية الشكل واللون، فبنو تغلب كانت رايتهم بيضاء ابن نحاس، **المصدر السابق**، ج2، ص97 - 98، وقد حملت الراية عنواناً إعلامياً مادّته الشجاعة والدفاع المستميت عن حياض القبيلة، أو المملكة.

ولم يقتصر حمل الرّايات للدلالة الإعلامية على اسم القبيلة أو المملكة، بل امتدّت حدودها الإعلامية إلى بيوت البغاء التي أختصّت برايات منصوبة على أبوابها لتُعرف به<sup>3</sup>. فكان لصواحب تلك الرّايات نصيبهنّ من الإعلام، حيث كنّ يعرفن بهذا الاسم، وبتلك الرّايات، وكان لزاماً عليهنّ وضع تلك الرّايات لتمييزن عن حرائر العرب من النساء. وإذا غدر الرّجل رفعوا له في سوق عكاظ لواء ليعرفه الناس، ونصب اللواء في المواضع العامة وفي المواسم للإشارة إلى غدر شخص بشخص آخر. فكلّ غادرٍ لواء،

1- ابن منظور، **المصدر السابق**، ج13، ص312.

2- علي، جواد، **المرجع السابق**، ج8، ص374.

3- ابن نحاس، **المصدر السابق**، ج2، ص97 - 98.

أي علامة يُشتهر بها في الناس<sup>1</sup>.

وامتد استعمال الرّايات إلى الطرق التّجاريّة، فمن وسائل الاستدلال والاهتداء في الطرق الأصواء: وهي أعلام من الحجارة مرتفعة ومنصوبة يُستدلّ بها على الطريق<sup>2</sup>، والآرام: وهي الأعلام، أي حجارة تجمع وتتصب في المفازة يُهتدى بها<sup>3</sup>. فالرّايات بأنواعها القماشية، والطينية، والصخرية، مظهر من المظاهر الإعلاميّة عند العرب الجاهليّين.

### ط- نيران العرب

استخدم عرب الجاهليّة النّار للعديد من المناسبات، فكانت وسيلة للإعلام عن بُعد توقّد لأمر ومناسبات معينة، ولها دلالات لا يعرفها غيرهم، وقد بلغت ثلاثة عشر نوعاً من النّار، وقد اختصّت قریش دون العرب بنار المزدلفة التي استنّها قصي بن كلاب، فهو أوّل من أوقدها ليظهر وهجها في ظلمة الليل، هدياً للحجيج عند دفعهم من عرفة إلى مزدلفة<sup>4</sup>. وكانوا إذا تحالفوا تصافقوا، وشبكوا الأيدي اليمنى، وكانوا يوقدون ناراً عند التحالف، ويقربون منها حتى يشعروا بحرّها، ثم يعدّون منافعها ويحرم ناكث العهد منها، ويسمّون الرّجل المسؤول عن هذه النّار المهول فهي نار «المهول»، التي توقّد عند التّحالف، ويطرحون فيها ملحاً يققع، ويهولون لذلك تأكيداً للحلف<sup>5</sup>، فهي وسيلة إعلامية فطرية لا تكلفهم شيئاً من الجهد والمشقة<sup>6</sup>.

وللمغدور نار تسمّى نار العار، توقّد أيام الحجّ على الجبل المطلّ على منى، ثم يصحبون هذه غدة فلان، فيدعو عليه أهل الموسم<sup>7</sup>، ويصحب هذه النّار تحذير ولعن، فهي رمز لنقض العهد والغدر به<sup>8</sup>.

وكان في عادة العرب الأجواد إيقاد النّار في اللّيل، ليراها الغريب والجائع من مسافة بعيدة، فينفذ إليها حيث يجد من يقريه، ويقدم له ما يحتاج إليه من الطّعام، وأطلقوا

1- ابن منظور، المصدر السابق، ج15، ص266.

2- ابن رشيّق، المصدر السابق، ج1، ص63، ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص472.

3- ابن حبيب، المصدر السابق، ص328، ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص791.

4- العسكري، المصدر السابق، ص28.

5- قال أوس بن حجر: إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما ضد نار المهول حالف

6- حمزة، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص29.

7- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص800.

8- حمور، عرفان، المرجع السابق، ص132.

على هذه النار نار القرى، وكانوا يوقدونها في الأماكن المرتفعة لتكون واضحة للعيان<sup>1</sup>. وأوقدو للمسافر نارين: نار الطرد، ونار الأياب، فالأولى يوقدونها خلف المسافر والزائر الذي لا يحبون رجوعه، والثانية توقد للقادم من السفر سالماً غانماً<sup>2</sup>. وللحرب نار تسمى نار الأهبة والإنذار، فإذا أرادوا حرباً أو توقّعوا جيشاً أوقدوا ناراً على جبلهم يبلغ الخبر أصحابهم<sup>3</sup>. فنار الحرب يشعلونها إعلماً لذويهم بالأهبة للحرب<sup>4</sup>. فهي في الليل نارٌ تسطع تضيء، وفي النهار دخان مرتفع، والواضح أنّها كانت توقد على مكان مرتفع لسهولة رؤيتها.

## 1 - أشكال التواصل الإعلامي

وهو انتقال وتبادل المعلومات، والعواطف، والاتجاهات من فرد لآخر، أو من مجموعة لمجموعة أخرى. من خلال الكتابة، أو الكلام، أو أي طريقة أخرى. ومن أشكاله:

### أ- التواصل الشخصي المباشر

وهو الجلوس إلى الشخص وجهاً لوجه، أما غير المباشر فهو الاتصال به من خلال الآخرين، أو عبر الوسائل كالمراسلة. وأدى السفراء والمرسلون في العصر الجاهلي دوراً جوهرياً في تطوير الاتصال الشخصي المباشر وغير المباشر<sup>5</sup>.

وهي - أي المباشرة - الطريقة والأسلوب الأكثر فعالية على مدى الدهور، لأنّ في الاتصال المباشر والجلوس للحوار وجهاً لوجه، يشعر المتلقي والمرسل بحقيقة الكلمات التي يسمعونها من الآخر، فيحكم بما يحسسه من جليسه، فيؤثّر ويتأثّر، عكس أن يكون الحوار من خلال واسطة. وكانت وسيلة الاتصال المباشر مهمات جميع الرسل الذين يبعثهم الله إلى الأمم السالفة، ومما لا شكّ فيه أنّ الاتصال الشخصي في ذاته أساس لجميع العمليات الإعلامية من حيث هي، ومن بينها العملية الإعلامية التي تعرف «بالعلاقات العامة» والعملية التي تعرف بالإعلان، ولكنّ الاتصال الشخصي أكثر ما يؤثّر في الحقيقة في ميدانين خطيرين، هما: ميدان الدّعوة، وميدان الدّعاية. والقدرة على ممارسة الاتصال الذي من هذا النوع شرط في نجاح العمليات الإعلامية، التي أشرنا

1- ابن منظور، المصدر السابق، ج15، ص179.

2- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص800.

3- العسكري، المصدر السابق، ص29.

4- سلامة، عواطف، المرجع السابق، ص131 - 132.

5- الطبري، المصدر السابق، ج1، ص407 - 409.

إليها، ذلك أنه يؤدّي دورًا خطيرًا في الإعلام على جميع المستويات، ومن الجدير بالذكر أن اتجاهات البحوث الحديثة تؤكد أهمية الاتصال الشخصي، وتنسب إليه مقدرة عظيمة على التأثير في الجماهير، أكثر بكثير من بقية وسائل الإعلام العامة<sup>1</sup>.

فخبراء الإعلام اتفقوا على أن الإعلام: إنما هو رسالة ينطوي عليه هذا التعبير من شعب مترابطة بين جهة البث، والتلقي، ومحتوى الرسالة، وحامل الرسالة. ومارس عرب الجاهلية هذا النوع من الإعلام بشكل يخدم مصالحهم وأهواءهم<sup>2</sup>، ففي الاتصال الشخصي يسمع كل واحد رأي الآخر بالصوت والشكل، ويلتمس كل واحد منهم ما في وجه الآخر، ونبرة صوته، ويرى بعين قلبه مدى صدقه، وردّات فعله، فإما هو صادق، أو هو كاذب.

وسرّ تفوق الاتصال الشخصي في التأثير بأنه «إذا كان من السهل أن ينصرف الناس عن المواد الإعلامية التي لا تتفق مع آرائهم وميولهم، فإنه ليس من السهل أن يتجنبوا الحديث مع زميل، أو قريب، أو صديق لهم، وخاصة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفًا، كما يتيح النقاش المباشر مرونة أكبر في عرض وجهات النظر والتأثير في الناس»<sup>3</sup>، ومارس الناس طريقة المناداة<sup>4</sup> حيث ترتفع بها حناجر المنادين في القرى والمدن، فتطوّر النداء إلى الأذان في الإسلام. وإطلاق الأعيّة النارية في الأفراح أو البشائر<sup>5</sup>.

ولعلّ أبرز ما يميز الاتصال الشخصي المباشر عن الاتصال الجمعيّ أو العامّ هو:

- توفير الحرّية أثناء الحديث والتّحاور المباشر، واستعراض الأمور، والاستمتاع بحرّية، والسؤال بالأمور المستتجة عن اللقاء.

- الوصول إلى تحقيق الإقناع بشكل أفضل أثناء الحوار المباشر والشّخصي، في استخدام وسائل الإعلام الأخرى.

- إمكانية الملاحظة الواضحة لردّات فعل المتحاورين، بما يساعد على تأكيد صدقية الحديث وإظهار رويّته.

1- إمام، إبراهيم، المرجع السابق، ص12.

2- أبو زيد، المصدر السابق، ص119، ابن قتيبة الدينوري، المصدر السابق، ص106، ابن رشيّق، المصدر السابق، ج1، ص203.

3- حمزة، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص75.

4- ابن منظور، المرجع السابق، ج15، ص315.

5- حمزة، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص75.

- العلم والإحاطة بما يلزم المتلقي، أو المحاور، أو ما قد يكون يحتاجه من علم أو معرفة أو استفسار.

### ب- الاتصال الجمعي أو الجماهيري

جسدت مجالس رؤساء القبائل ولقاءات الوفود أكبر مظهر إعلامي للاتصال الجمعي، ومن الأمثلة عليها دار الندوة قرب الكعبة، وهي الدار التي اجتمع فيها رؤساء القبائل العربية، وأخذوا يتشاورون في الطريقة المناسبة للتخلص من النبي محمد (ص)<sup>1</sup> فهم يتباحثون في شتى المشكلات التي تعرض لهم، ويخرجون بحل للمشكلة يلتزم فيها الجميع، وللوصول إلى الحل يشتد الجدال وتعلو الأصوات، فدار الندوة أقوى طرق الاتصال بين العرب في الجاهلية من بعد الأسواق، فهي مكان يجتمع فيه أهل الرأي في الأوقات التي تحتاج إلى تبادل الرأي<sup>2</sup> ولكن يجب أن لا يتبادر إلى أذهاننا أن جميع أفراد المجتمع كانوا على اطلاع مباشر على مجريات الاجتماعات، والسبب في ذلك أنه لا بد أن يجتمع الناس كلهم في ساحة واحدة لكي يستمعوا إلى مقررات الاجتماع، أو رأي شيخ القبيلة، أو أقوال الزعماء والقادة، وبدون ذلك لا يستطيع الشعب الاطلاع على مقررات الاجتماع.

وهذا لم يكن متوفرًا في العصر الجاهلي، ويُعزى السبب في ذلك، أن المجتمعات الجاهلية، أو نظمهم السياسية في الحكم، لا تحفل كثيرًا بما يسمى بـ الرأي العام<sup>3</sup>.

### ج- اللغة

تعدّ اللغة أساس التواصل فيما بين البشر رغم تنوعها، واتخاذها أنماطًا مختلفة، ولو أن هناك ما يشبه المصطلحات للتواصل في بعض نواحي العلوم الحديثة، كالإشارات، والرسوم، والرموز التي أصبحت عالمية المفهوم والمصطلح.

وكان العرب مختلفي الألسن بالبيان، متبايني المنطق والكلام، وإن بعضها كانت بعيدة بعدًا كبيرًا من عربيتنا، وبعضها مشتق من بعضها، فأول من كتب بالعربية هم أهل الأنبار، ومن الأخيرة انتشرت بين الناس، ووصلت إلى أهل الحيرة من قريش<sup>4</sup>. ولم يقتصر الأمر على نقل الكتابة العربية من الحيرة إلى شبه الجزيرة العربية، بل الكتابة

1- الطبري، المصدر السابق، ج1، ص566.

2- حمزة، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص28.

3- حمزة، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص14.

4- ابن منظور، المصدر السابق، ج15، ص171 - 172.



الآرامية نُقلت بدورها إلى شبه الجزيرة من قبل سكان الحيرة<sup>1</sup>. وكان لسان أهل الجنوب، ومنها الحميرية، بعيدة كل البعد عن اللغة العربية التي كُتِب بها الشعر العربي، «وأصبح اليوم من الأمور المعروفة أنَّ أهل العربية الجنوبية كانوا يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم، بدليل هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها في تلك الأرضين، وهي بلسان مابين لعربيتنا، حيث تبيّن من دراستها وفحصها أنَّها كتبت بعربية تختلف عن عربية الشعر الجاهليّ، وبقواعد تختلف عن قواعد هذه اللغة»<sup>2</sup>.

#### د- التدوين

استعان الجاهليون بالموادّ الأولية البسيطة لتدوين كتاباتهم، ففي البدء استغلّوا الحجارة، كما ورد في النقوش، وقيل في وصف «الكتابات القديمة: فقد كانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصّخور، ونقشاً في الحجارة، وربما كان الكتاب هو النَّاتئ، وربما كان الكتاب هو الحفر»<sup>3</sup>، وكتبوا على خشب الرحل<sup>4</sup>، واصطنعوا موادّ كصحيفة<sup>5</sup>، وربما كانت تتخذ من جلود الحيوانات، واستعملوا القضم للكتابة: وهو جلد الأبيض<sup>6</sup>، وكتبوا على القِطّ الصكّ وهو الكتاب<sup>7</sup>، ووردت إشارة إلى استعمالهم المداد في كتبهم<sup>8</sup>، وكتبوا بالقلم، والمزبر، والدواة<sup>9</sup>. وكان التعليم يشمل القراءة والكتابة محصوراً بين الحضر وقريش، وفي المدينة ومكة، وعرفت رجالها الكتابة فقط دون نساءها<sup>10</sup>.

ومن أدوات انتشار الكتابة والتدوين استعمال الخاتم في مخاطبات الملوك، حيث تختم الرسائل، لأنّ الملوك لا يقرأون كتاباً غير مختوم<sup>11</sup>.

1- Nicholson. R.A; *Ibid*, p. 138.

2- علي، جواد، المرجع السابق، ج8، ص563.

3- الجاحظ، الحيوان، ج1، ص68 - 69.

4- ابن قتيبة الدينوري، المصدر السابق، ص120، أبو الفرج الأصفهاني، المصدر السابق، ج6، ص130، ابن منظور، المصدر السابق، ج11، ص274.

5- أبو زيد، المصدر السابق، ص98، البعقوبي، المصدر السابق، ج1، ص181، الميداني، المصدر السابق، ج1، ص504.

6- ياقوت، المصدر السابق، ج5، ص51، ابن منظور، المصدر السابق، ج6، ص305، وج12، ص488.

7- ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص382.

8- ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص398.

9- ابن رشيقي، المصدر السابق، ج1، ص293، ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص315، و ج14، ص279.

10- سلامة، عواطف أديب، المرجع السابق، ص96 - 97.

11- الأنباري، المصدر السابق، ص123.

## الخاتمة

كان لدى العرب في العصر الجاهليّ علوم ومعارف تتناسب وحضارتهم داخل شبه الجزيرة العربيّة، فاستخدموا وسائل الكتابة والتّكوين، ولو بصورة بدائيّة، بعد أن وحدوا جميع لهجاتهم بلهجة قريش، واستثمروا المناسبات الدينيّة، والحركة التجاريّة الناشطة، وأقاموا الأسواق الموسميّة والمتنقّلة في أرجاء الجزيرة العربيّة، بغية نشر أخبارهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأعرافهم، وللحديث عن أمجادهم، وحسبهم، ونسبهم، تفتّنوا في ضروب الشّعْر، ومذاهبه، وألوانه من مديح، وهجو، وغزل وحكم... إلخ. فكان الركيزة الأساسيّة في أي رأي أرادوا تعميمه أو تخليده، أو الرفع من شأنه، أو حتى ذمّه، فوصل الشّعْر عندهم إلى حدّ القداسة، حيث علقت الأشعار على أستار الكعبة، وحفظ العرب مآثرهم، ومعارفهم وتجاربهم باستخدام الحكم، والأمثال، والقصص، التي حفظت معظم تلك التجارب والمواقف، واستخدموا بعض اللوازم اليوميّة والموسميّة من لباس، وشعار، وألوان في إيصال مضامين إعلاميّة، بما يؤكّد أنّها كانت بمجملها وسائل وأدوات إعلاميّة، ماتزال تستعمل في الإعلام حتى الآن.

وكثيراً ما تطوّرت وسائل الإعلام الجاهليّة لتوضع في قوالب تتناسب والحياة العصريّة، ولكنّها في أساسها كانت جاهليّة، واستمر العمل بها في عصرنا، فالمناداة تطوّرت إلى الأذان في الإسلام وما يزال يستعمل حتى الآن.

صحيح أنّ لكلّ عصر غاية للإعلام ووسائله، فإذا كان الإعلام الجاهليّ غاية إيصال الخبر، والعادات، والتقاليد، فإنّ الإعلام المعاصر استفاد من الإعلام الجاهليّ في أوجه كثيرة، لكنّه يختلف كلّ الاختلاف عنه بسبب تطور وسائل الإعلام الحديثة، واختلاف الغايات.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً- المصادر العربيّة

- 1 - ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597 هـ / 1200م)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 18 جزء، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1995،
- 2 - ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن أمية بن عمر و الهاشمي البغدادي (ت 245 هـ / 109م)، المحبّر، تحقيق سيد كسروى، نشر دار الغد العربي، القاهرة، 2000.
- 3 - ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك (ت 485هـ/1286م)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، جزآن، تحقيق نصرات عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، (د.ط)، 1982.
- 4 - ابن رشيّق، أبو علي الحسن القيرواني (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤م)، العمدة في محاسن الشّعـر وآدابه، جزآن، منشورات دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2001.
- 5 - ابن قتيبة الدّينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ / 889م)، الشّعـر والشّعراء أو طبقات الشّعراء، تحقيق مفيد قميحة ونعيم زرزورة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1985.
- 6 - ابن منظور، أبي الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم الأفرقي المصري، (ت 711 هـ / 1211 م)، لسان العرب، 15جزء، دار صادر، ط3، بيروت، 1994.
- 7 - ابن النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (ت 338 هـ / 949م)، شرح القصائد المشهورات، جزآن، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1985.
- 8 - أبو زيد، محمد بن أبي الخطاب (ت حوالي 170 هـ / 786 م)، جمهرة أشعار العرب، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1986.
- 9 - أبو الفرج الأصفهاني، بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد مناف (ت 356 هـ / 967م)، الأغاني، 24 جزء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992.
- 10 - الأنباري أبو بكر محمد القاسم (ت 328 هـ / 940م)، شرح القصائد السبع الطوال الى الجاهليّات، تحقيق محمد عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط5، القاهرة، (د.ت).
- 11 - البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت 487 هـ / 1094 م)، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، جزآن، تحقيق مصطفى سقا، نشر مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1996.
- 12 - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني (ت 255 هـ/869م)، الحيوان، 6 أجزاء، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة البابي الحلبي وأولاده، ط1، مصر، 1938.
- 13 - البيان والتبيين، 4 أجزاء، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3،

القاهرة، 1968.

- 14 - السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (911هـ/1505م)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، جزآن، تحقيق محمد جار المولى وآخرون، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت، 1987.
- 15 - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 210هـ / 922م)، **تاريخ الأمم والملوك**، 6 أجزاء، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.
- 16 - العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 382هـ / 992م)، **كتاب الاوائل**، تحقيق محمد السيد الوكيل، نشر أسعد طرابزونى الحسني، المدينة المنورة، (د.ط)، 1966.
- 17 - الميداني، أبو الفضل أحمد محمد بن أحمد بن ابراهيم (ت 518هـ/1124م)، **مجمع الأمثال**، جزآن، تحقيق نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988.
- 18 - ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الحموي (ت 626هـ / 1228م)، **معجم البلدان**، 5 أجزاء، نشر دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1979.
- 19 - اليعقوبي، أحمد بن اسحق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 292 هـ / 950م)، **تاريخ اليعقوبي**، جزآن، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1999.

#### ثانيًا - المراجع العربية:

- 1 - الأفغاني، سعيد، **أسواق العرب**، مطابع دار الفكر، ط2، دمشق، 1960.
- 2 - التبان، محمد العربي، **محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية والعرب**، مطبعة حجازي، القاهرة، 1951.
- 3 - حمزة، عبد اللطيف، **الأعلام في صدر الإسلام**، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 1971.
- 4 - حمور، محمد عرفان، **عكاظ و مواسم الحج**، نشر مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2000.
- 5 - سلامة، عواطف أديب، **قريش قبل الإسلام دورها السياسي والاقتصادية و الديني**، دار المريخ للنشر، الرياض، 1994.
- 6 - علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب**، 10 أجزاء، جامعة بغداد، ط2، بغداد، 1993.

#### ثالثًا - المراجع الأجنبية

- 1- Farmers Henry George, **A History of Arabia Music to the X11th Century**, published by Good World, first edition: New Delhi, 2001.
- 2- Klapper, Joseph; **The Effects of Mass communication**, New York, free press, 1967.
- 3- Nicholson. R.A, **A Literary History of the Arabs**, Cambridge University press, second edition, London, 1930.

# استهلاك اللبنانيين في الأعياد وانعكاسه على التنمية الاجتماعية والاقتصادية

## Lebanese Consumption Patterns During Holidays and Their Implications for Social and Economic Development

د. لانا جرجي موسى

Dr. Lena Moussa

تاريخ القبول 2025/7/20

تاريخ الاستلام 2025 /6 /20

### الملخص

يتناول هذا البحث موضوع استهلاك الأسر اللبنانية خلال المناسبات الدينية والاجتماعية في ظل الأزمة الاقتصادية التي تمرّ بها البلاد منذ عام 2019، مع التأثيرات المترتبة في جائحة كورونا. يسلط البحث الضوء على العوامل المؤثرة في نمط استهلاك الأسرة خلال الأعياد، بما في ذلك المكانة الاجتماعية والمستوى الاقتصادي ودور وسائل التواصل الاجتماعي في توجيه خيارات المستهلك.

اعتمد البحث المنهج النوعي لتحليل السلوك الاستهلاكي وتحديد انعكاسه على التنمية الاجتماعية والاقتصادية، حيث أظهرت النتائج أنّ نمط الاستهلاك يسهم في تنشيط الحركة الاقتصادية وخلق فرص العمل، لكنّه قد يؤدي إلى تعميق الفوارق الاجتماعية. لذا، يوصي البحث بضرورة ترشيد الاستهلاك وتوجيهه بما يحقق التنمية المستدامة ويخفف من التفاوت الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: الاستهلاك - الإنفاق - التنمية - الاجتماعية - الاقتصادية - العينة.

### Abstract

This study critically examines the consumption patterns of Lebanese households during religious, social, and official occasions, particularly in the context of the multifaceted economic crisis that Lebanon has been

experiencing since 2019, exacerbated by the COVID-19 pandemic. The research aims to identify the determinants influencing consumption behaviors during festive periods, with particular emphasis on socio-economic factors such as income level, occupational status, and the impact of social media platforms on consumer decision-making processes. Employing a qualitative research methodology, the study integrates direct observations, interviews, and commentary analyses to provide a comprehensive understanding of consumption dynamics. The findings indicate that while consumption during holidays serves as a catalyst for economic activity and employment generation, it simultaneously poses challenges by reinforcing social stratifications and inequalities. Consequently, the study advocates for consumption rationalization strategies that align with sustainable social and economic development goals, fostering equitable growth and social cohesion.

**Keywords:** Consumption – Expenditure – Development – Social – Economic – Sample.

## المقدمة

يسهم نمط استهلاك الأسر خاصةً خلال المناسبات الدنيّة والاجتماعيّة والرسميّة إلى حدٍّ ما في تنشيط الحركة التجاريّة والسياحيّة والخدماتيّة التي تشتهر بها الأسواق اللبنانيّة من حيث جودة وتنوّع الخدمات والسلع التي تقدّمها للمستهلك على اختلاف القدرات الماديّة والتنوّع الثقافيّ والدنيّ لدى المجتمع اللبنانيّ؛ إذ يعطي اللبنانيّ اهتمامًا كبيرًا لشكله الخارجيّ حيث يسعى إلى ارتداء أجمل الملابس ذات العلامات التجاريّة المشهورة، ويتأنّى فيما يقدّمه لضيوفه من مأكولات ومشروبات وحلويات مميّزة وقيمة، ويحرص على إضفاء جوٍّ من الفخامة على إحياء المناسبة من لباقة وتنسيق وزينة وأوان فاخرة... وينفق الكثير من الأموال للحصول على الإصدارات الحديثة والعلامات التجاريّة العالميّة المعروفة... مهما كانت التبعات الماديّة والضغوطات النفسيّة التي ترافق نمط الاستهلاك هذا...

إلا أنّ التّغيّرات الاقتصاديّة والصّحيّة التي طرأت على المجتمع اللّبنانيّ منذ العام 2019 خاصّة مع انتشار فايروس كورونا، أدّت إلى تغيّرات في نمط الاستهلاك لدى اللّبنانيّين؛ فمظاهر التّفاخر التي اعتاد اللّبنانيّون على الاهتمام بها وإبرازها ما عادت هدفًا للاستهلاك، فاللّبنانيّ الذي كان «يتدبّن ليتزيّن» أصبح هدفه من الاستهلاك الحصول على أبرز مقومات العيش من مأكّل وملبس ودواء واستشفاء وخدمات أساسيّة... وبات يبتكر الوسائط المتنوّعة لتوفير متطلّباته إمّا عبر ترشيد إنفاقه أو تطوير أعماله وزيادة إنتاجيّة أو الاعتماد على أموال المغتربين في دول الاغتراب.

من هنا انطلقت فكرة هذه المقالة ليكون عنوانها «استهلاك اللّبنانيّين في الأعياد وانعكاسه على التّنمية الاجتماعيّة والاقتصاديّة»، للبحث أولاً في العوامل المؤثّرة في استهلاك الأسر في الأعياد، وثانيًا في كيفيّة انعكاس نمط الاستهلاك خلال الأعياد على التّنمية الاجتماعيّة والاقتصاديّة، خاصّة بعد الأزمة الاقتصاديّة التي حلّت في البلد من انهيار لقيمة الليرة اللّبنانيّة أمام الدّولار الأميركيّ، وارتفاع أسعار السّلع الغذائيّة والأدوية ومختلف الاحتياجات الرّئيسة والثّانويّة للأسرة، وانخفاض قيمة الأجور لا سيّما في القطاعات الرّسميّة، وتأثيرها في تغيير نمط استهلاك الأسرة من حيث اختيار أنواع وأصناف السّلع وطرق استهلاك الأسرة بحسب سلّم الأولويّات لديهم.

## 1. الإشكاليّة

أكدت الدّراسات والأبحاث الاجتماعيّة تأثّر سلوك الفرد وتغيّر اتّجاهه عامّة وسلوكه الاستهلاكيّ خاصّة بعدد من العوامل ذات البعد الاجتماعيّ والثّقافيّ والاقتصاديّ، واستنادًا إلى ما ورد في الأدبيّات التي تناولت موضوع العوامل المؤثّرة في الاستهلاك، يمكن استخراج العديد من العوامل النّفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة إلّا أنّه قد اختير مفهوميّ التقيّد بمعايير الجماعة والاهتمام بالمكانة الاجتماعيّة كعاملين اجتماعيّين، المهنة والدخل الأسريّ وقيمة القروض أو الاستدانة كعوامل اقتصاديّة والإعلام ووسائط التّواصل الاجتماعيّ كمؤثّرات تسويقيّة، للبحث في تأثيراتها في استهلاك الأفراد خلال فترة الأعياد.

كما تحدّد موضوع الاستهلاك خلال المناسبات الدّينيّة والاجتماعيّة والأعياد (عيد الميلاد ورأس السنة وعيدي الفطر والأضحى وعيد الأمّ وعيد الحبّ)، لما تتضمّنه هذه

الأعياد من مظاهر استهلاك ظرفية متنوعة (ملابس، مأكولات ومشروبات وضيافات متنوعة وأدوات منزلية وزينة...) تتم في المنازل أو في المطاعم والمقاهي والفنادق، ووفود العشرات من السيّاح والمغتربين إلى لبنان لقضاء أيّام الأعياد مع الأهل والأصدقاء والأقارب، ولما تشهده الأسواق من تراحم للمستهلكين على شراء السلع والمنتجات التي تلبي طموحاتهم ورغباتهم في قضاء أيّام الأعياد بسعادة وبركة وتبادل للهدايا وإدخال السرور إلى قلوب محبيهم، وارتياح المقاهي والمطاعم والأوتيلات بشكل أكبر من باقي أيّام السنة.

بالتّالي، فإنّ البلد يشهد ما قبل حلول هذه المناسبات وخلالها ذروة النشاط التجاريّ والسياحيّ والخدماتيّ ولا سيّما في المناطق التي تتمتع بجمال الطبيعة ووفرة المراكز التجاريّة والمعالم السياحيّة القريبة من المناطق السكّنية كما هو الحال في محافظة لبنان الجنوبيّ؛ إلّا أنّه لا بدّ من التّطرق إلى الأزمة الاقتصاديّة التي استجدّت في لبنان منذ العام 2019، فقد أثّرت بشكل مباشر على تغيير نمط استهلاك الأسر اليوميّ بشكل عامّ، حيث تبدّلت الأولويّات واختلّفت حاجات المجتمع اللبنانيّ، فصار أكبر همّه تأمين الضّروريّ من الموادّ الغذائيّة والأدوية والمحروقات والطاقة الكهربائيّة؛ ليعيش حياة مستقرّة وأمنة وكريمة، خاصّة بعد حدوث أزمة المصارف وخسارة المودعين لقيمة أموالهم فيها، وانهيار الليرة اللبنانيّة أمام الدّولار الأميركيّ، وتتالي أزمة الشّح في المحروقات وانقطاع التّيّار الكهربائيّ...

إلّا أنّه في المقابل، لم تمنع هذه الأزمة الاقتصاديّة فئة من اللبنانيين من الاستمرار بنمط الاستهلاك السّابق، على الرّغم من الغلاء الكبير للأسعار، فمن خلال الملاحظة المباشرة لبعض المطاعم والمقاهي، نرى أنّها ما زالت تستقبل عدداً لا بأس به من الزبائن، وهو أمر يدفعنا لطرح العديد من التساؤلات: ما مستوى القدرة الشرائيّة لهؤلاء؟ ما نسبتهم من المجتمع؟ هل يعتمدون على أموال الاغتراب؟ أم أنّ مصدر رزقهم يخولهم اعتماد هذا النمط من الاستهلاك؟ هل هذه القدرة الشرائيّة دائمة أم وقتيّة؟ وما تأثير استهلاك هذه الفئة من النّاس في تحريك العجلة الاقتصاديّة في لبنان عموماً ومحافظة لبنان الجنوبيّ خصوصاً؟



من هنا، سنعالج موضوع البحث هذا من خلال تناول التغيرات التي طرأت على نمط استهلاك الأسرة خلال الأعياد في لبنان في ظل الأزمة الاقتصادية التي يشهدها لبنان، وكيف يمكن أن يسهم هذا الاستهلاك في استمرار عجلة التنمية الاجتماعية والاقتصادية؟ ومن هذه الإشكالية الرئيسية تشكلت لدينا تساؤلات: كيف يؤثر الاهتمام بالمكانة الاجتماعية على نمط استهلاك الأسرة وعلى خياراتها الشرائية خلال الأعياد؟ ما دور محددات الاستهلاك الاقتصادية (المهنة والمستوى التعليمي والدخل الأسري) في تحديد مستوى الاستهلاك لدى الأسرة خاصة في الأعياد؟ ما مدى تأثير وسائط التواصل الاجتماعي في التحولات في أنماط الاستهلاك وتحديد أولويات التسوق لدى الأسرة اللبنانية؟ هل يمكن الاستفادة من نمط استهلاك الأسر خلال الأعياد لتفعيل التنمية الاجتماعية عبر خفض معدل الفقر والحد من عدم المساواة والارتقاء بحياة المواطن وفقاً للمعايير الصحية والتعليمية والاجتماعية وتحقيق عمالة كاملة والأمن الشخصي...؟ وهل يسهم الاستهلاك بمناسبة الأعياد في تفعيل التنمية الاقتصادية عبر خلق فرص عمل وتطوير الإنتاج وتوزيعه وتأمين الخدمات الحيوية والارتقاء بالمستوى المعيشي للمواطنين...؟

## 2. الفرضيات

- وضعت ست فرضيات تهدف إلى اختبار العلاقة بين «العوامل المؤثرة في الاستهلاك» و«الاستهلاك خلال الأعياد والمناسبات» من جهة واختبار العلاقة بين «الاستهلاك» و«التنمية الاجتماعية والاقتصادية» من جهة أخرى.
- هناك علاقة طردية بين اهتمام اللبناني بالمكانة الاجتماعية وبين الميل نحو الاستهلاك لديه خاصة في الأعياد.
  - هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين قيمة الدخل الشهري ونمط الاستهلاك الأسري خلال الأعياد.
  - هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين نوع المهنة ونمط الاستهلاك الأسري خلال الأعياد.
  - إن أفراد الأسرة المتابعين للإعلانات على مواقع التواصل الاجتماعي هم أكثر

- خضوعًا وتأثرًا وتوجُّهًا نحو الاستهلاك خاصّة قبل حلول الأعياد.
- هناك علاقة عكسيّة بين نمط استهلاك الأسر في الأعياد وتحقيق المساواة الاجتماعيّة بين أفراد المجتمع.
- هناك علاقة طردية بين نمط استهلاك الأسر في الأعياد وخلق فرص عمل جديدة.

### 3. المنهج المستخدم

اعتمدت المنهج التّوعّي أو الكيفي في هذه الدّراسة، ويظهر ذلك في شكل مُلاحظات وآراء مكتوبة أو مسموعة أو تعليقات، وتتطلّب تلك النّوعيّة من مناهج البحث العلمي أن يتوافر لدى الباحث القدرة على الرّبط فيما بين جميع وجهات النظر؛ من أجل الخروج بالنتائج، فالمنهج التّوعّي هو نوع من أنواع الأبحاث العلميّة التي تعتمد على دراسة السّلك والمواقف الإنسانيّة، وفي سبيل ذلك تُجمع المعلومات والبيانات؛ من خلال مجموعة من الوسائل مثل المُقابلات والمُلاحظات.

### 4. سلوك المستهلك بين المفهوم والتّطبيق

#### 1.4 تعريف الاستهلاك الأسري

إن ظاهرة الاستهلاك لا تقتصر على أبعادها الاقتصاديّة - إشباع حاجات الفرد من السّلع والخدمات - لأنّها مرتبطة أشدّ الارتباط بتطوّر القيم والمفاهيم والممارسات السلوكيّة لدى الأفراد التي تحدّد المكانة الاجتماعيّة للفئات في السّلم الاجتماعيّ (حبيل، 2013، صفحة 215).

وهو استعمال المنتجات من دون إنتاج منتجات اقتصاديّة أخرى أو بمعنى آخر استعمال المنتجات من أجل الاستهلاك فقط، أو استعمال للمداخل ومن خلاله تتعكس ثقافة الفرد أو المجموعة وتسير غالبًا إلى فعل الشراء الذي هو قبل كلّ شيء إنفاق للمداخل سواء أكان المستهلك في المناطق الحضرية أو الريفية (فتيحة، 2016، صفحة 22).

ومع تقدّم الدّراسات بات الجانب الاجتماعيّ أساسياً لفهم اتّجاهات الإنفاق الاستهلاكيّ، إلّا أنّ الغاية من البحوث في هذا المجال كانت ذات منحى تجاريّ، إذ تركّزت التّساؤلات

البحثية حول العناصر التي تؤثر على سلوك الشراء وكيفية التحكّم بالمستهلكين؛ لذا كانت تتّجه إلى الأهداف التسويقية أكثر من الأهداف التوعوية لخدمة استراتيجيات التنمية الاقتصادية (أبوغزالة، 2012).

ومع بروز مفهوم «ثقافة الاستهلاك»، اتّجهت الدّراسات إلى التّركيز على دور الإعلام والاتّصال في التّرويج لهذه الثقافة عبر التّرويج للسلع، وبقيت «ثقافة الاستهلاك» جزءاً من المقاربة النّقدية لدى الباحثين في الغرب وتحمل كمفهوم قيماً وعادات اجتماعية غربية بامتياز، في حين لم تصل الدّراسات في المنطقة العربية إلى تكوين مفهوم خاصّ للاستهلاك.

هذه النظرة لمفهوم الاستهلاك لم تدم طويلاً، حيث ركّز ثورستين فيبلين Thorstein Veblen (1857-1929) على الاستهلاك لدى الطبقات الغنية وربط الإنفاق الاستهلاكيّ بعوامل اجتماعية عدّة؛ أهمّها: الطبقات في المجتمع. وبلور فيبلين مفهوم «الاستهلاك المظهريّ» (consommation ostentatoire) أي الاستهلاك المفرط للسلع الذي يتجلّى عند الطبقات الغنية تحديداً (Beranger & Candela , 2011, p. 5).

كما بيّن فيبلين في كتابه «نظرية الطبقة المترفة» عام 1899 (The Theory of the Leisure Class) أنّ موضوع الاستهلاك المفرط للسلع لا يقتصر على الأغنياء فقط، بل يشمل الفقراء في كثير من الأحيان عند قيامهم بشراء أشياء ليست ضرورية وتُفوق إمكانياتهم، حيث يتّجه الأفراد إلى التّماهي مع المجموعة التي ينتمون إليها، مع ميل للاقترب من استهلاك المجموعة الأعلى منهم مباشرة، في محاولة للتّمايز عن مجموعة المنشأ. «هذا الميل للتّمايز والمقارنة مع الآخرين، ذو منشأ موغل في القدم، وهو من السمات المتعدّرة محوها في الطبيعة الإنسانية». (Moawad, 2009, p. 31)

انطلاقاً ممّا تقدّم، لا بدّ من أن ننطلق من تساؤل يتمحور حول ماهية المتطلّبات اللازمة لتحقيق الاستهلاك لدى المواطن اللبناني في الأعياد التي تدفع وتشكّل سلوكاً استهلاكياً موسميّاً، وكذلك المتطلّبات الكفيلة بتحقيق هذا الاستهلاك الموسميّ في الأعياد ذات الطّابع المستدام. إنّ عملية الرّبط هذه بين عملية الاستهلاك وتحقيق التنمية تتطلّب القيام باتّباع إجراءات وسياسات تكون على دراية في معرفة المؤشّرات المؤثرة في أنماط الاستهلاك لتحريك العجلة التنموية؛ وبالتالي جعلها أكثر عرضة للاستدامة.

## 2.4 ثقافة الاستهلاك الأسري لدى المجتمعات

لم يعد بمقدور مجتمع بشريّ مهما كان صغيراً، أن يبقى بعيداً عن مؤثرات الثقافة الاستهلاكية العالمية التي بثتها شبكات بالغة التطور من أجهزة الإعلام والكمبيوتر وأجهزة الاتصالات؛ فالثقافة الاستهلاكية تعتمد على تجارب المستهلك لأحداث التسويق الإعلاني من حيث لفت الانتباه والفضول والتعلم والتأثير في ميول الشراء لديه وانخراطه في السوق الحديث (Martinet, 1990, pp. 9-29).

إنّ الثقافة الاستهلاكية العالمية المعاصرة أعدت بهدف إضفاء مسحة جمالية على الحياة اليومية مع التشديد على أنّ هاجس الثقافة الاستهلاكية، هو الإمتاع أو ثقافة المتعة أو اللذة، عن طريق الدعوة إلى ثقافة غير ملتزمة إلا بالذات الإنسانية الفردية، أي أنّها تضخم الأنا الفردية إلى الحد الأقصى وصولاً إلى الترجسية وحب الذات بشكل مرضي.

وتبرز مظاهر الثقافة الاستهلاكية من خلال كثرة الاهتمام بالجسد والمظهر الخارجي، وتحطيم الكثير من التقاليد المتوارثة عبر تمجيد الذات الفردية المتحررة من كلّ القيود الاجتماعية، والاهتمام بالجوانب الغريزية للإنسان وبالمظاهر والكماليات الشكلية التي تحدّد قيمة الإنسان بمقدار ما يقتنيه من أشياء مادية أو مال، وتحويل جميع مظاهر الثقافة الإنسانية إلى سلعة تجارية (الجسمي، 2008، صفحة 193).

وإذا ركّز المرء على الممارسات اليومية، فسوف تستمر حاجته لجمع المعلومات حول إمكانيات الآخرين وأوضاعهم ومراكزهم الاجتماعية، عن طريق تقليد سلوكهم، ومن بين هذه المؤثرات أنواع الطّعام التي يتناولها النجوم، والملابس التي يرتدونها، وطبعاً هذه الاحتياجات عرضة للتغيير والتقليد والنسخ بشكل مستمر؛ لذلك نجد الثقافة الاستهلاكية تهتمّ بالملامح النفسية للمستهلك، وتتضمّن نمط الحياة والشخصية والصورة الذاتية.

## 5. مقارنة ثقافة الاستهلاك في علم اجتماع التنمية

بدايةً سنكون مع النظرية المفسرة التي تناولت استهلاك الحاجات الأساسية ودوافعها وهي نظرية ماسلو:

## 1.5. نظرية «ماسلو» في الحاجات

تعدّ نظرية «ماسلو» من أكثر النظريات تداولاً في الأوساط البحثية في العلوم الإنسانية عامة والاجتماعية خاصة، وهي من أهمّ النظريات الكاشفة عن حاجات الفرد الاجتماعية، أي ما يحتاجه الفرد في حياته اليومية، وذلك عبر تحديدها لسلم أولوياته الذي يوصل إلى ذروة الإشباع عند الفرد بعد تحقيق جميع العناصر.

وضع «ماسلو» نموذجاً يوضح أهمّ ما يسعى الفرد إلى تحقيقه، على شكل حاجات متعدّدة مرتّبة في هرم أسماه هرم الحاجات؛ تبدأ قاعدته بالحاجات الأساسية، تليها الحاجات الأخرى، صعوداً نحو القمة وفق تسلسل يعكس منظوره لهذه الحاجات؛ ويسعى الفرد إلى إشباعها تدريجياً، بدءاً من قاعدة الهرم وصولاً إلى رأسه، مدفوعاً بمحفّزات داخلية؛ ولا يعني إشباع حاجة زوالها من هرمية الحاجات بل تفتح المجال إلى إشباع حاجة أخرى؛ وهكذا، فإنّ عملية الإشباع تستمرّ ضمن آلية متواصلة تتعب من دوافع الفرد.

يتّضح من هرم ماسلو أنّ حياة الفرد محدّدة بالعناصر المذكورة فيه؛ وتفصيلها يأتي على الشكل التالي:

- حاجات فيسيولوجية: هي حاجات متعلّقة بما يحتاجه الإنسان كي يبقى على قيد الحياة وضمان استمراره، وهي حاجات متمثّلة في المأكل والملبس والسكن. وتهدف هذه الحاجات إلى المحافظة على حياة الفرد، كما إنّها تحافظ على بقائه كونها تقع في قاعدة الهرم، على حساب أنّها أولويّة في الإشباع عند الفرد، فإشباعها يحقّق الانتقال إلى إشباع حاجات أخرى موجودة في الهرم؛ فعندما تبرز الحاجة لإشباعها، فإنّ الفرد يحقّق وجوده ويحافظ عليه، فهي حاجات ضرورية لا اختيارية، فهي الماء والهواء والطعام والزّاحة والنّوم والجنس، بمعنى أنّها كلّها عوامل تجعل الإنسان محافظاً على كيانه وعلى بقاء المجتمعات.

- حاجات الأمان: تتمثّل في العوامل التي تساعد في الحماية من الأخطار المهدّدة لحياة الفرد ضمن حياته اليومية وتحقيقها يحقّق له الاستقرار. إنّ حاجات الأمان تتمظهر في توفير العوامل التي تؤمّن حماية الإنسان من أيّ ضرر يمكن أن

يعترضه في حياته، سواء كان ماديًا أم معنويًا، ومن ضمنها تتم حماية حاجاته الفيسيولوجية، فمن نتائج إشباع هذه الحاجة يتولد لديه شعور بالاستقرار والاطمئنان، وهي حاجات نفسية يحتاجها الإنسان للحفاظ على سلوكه وتوازنه الطبيعي، ومن أهم الأشياء أو العناصر التي يمكن أن تؤمن هذه الحاجات: القوانين والأنظمة والتعليمات والإجراءات التي تمنع من الاعتداء على أي إنسان؛ فيتولد لدى الناس شعور بالارتياح والاطمئنان.

- حاجات اجتماعية: هذا النوع من الحاجات متعلق بالعلاقات الاجتماعية، وتحقيق الانتماء والاندماج والتضامن والتكافل وتكوين الصداقات في مختلف الميادين والمجالات.
- حاجات التقدير: تتمثل في تلك الحاجات التي يراها الفرد حقًا له في واقعه المعاش، وهي عبارة عن حاجات مادية ومعنوية وسلوكية، إذ إن نقصانها يؤدي إلى ضعف قيمته أمام الآخرين مما يؤدي إلى اهتزاز ثقته بنفسه.
- الحاجة إلى تحقيق الذات: إنها الحاجات التي يسعى الفرد إليها، تنطلق من إشباع كل الحاجات، فيسعى الفرد إلى أن يستغل طاقاته وإمكاناته في أمور تحقق ذاته وتقدرها.

انطلاقًا مما سبق، فإن أهم بنود نظرية الحاجات لماسلو التي تعبر عن دوافع سعي الفرد نحو تحقيق حاجاته متعددة بتعدد العوامل التي يسعى الفرد إلى تحقيقها، وهي هامة انطلاقًا من حياة كل فرد، وانطلاقًا من نظرة الفرد إليها، فما يراه فرد مهمًا قد لا يعني الآخرين، والعكس صحيح.

إن اعتماد الباحثة على هذه النظرية مرتبط بتوظيفها في إطار الاستهلاك على قاعدة تعامل الأفراد مع الأشياء عبر سلوك استهلاكي؛ فالفرد يقوم بعملية استهلاك تتمثل في تفاعله مع الأشياء أي المنتجات، وبعد ذلك تتم عملية الشراء ومن ثم الاستهلاك، هذه العملية منطلقة من عملية تفاعل مع الأشياء من أجل تحقيق أغراض نفسية واجتماعية.

## 2.5. نظرية روستو في الاستهلاك

تشكل نظرية مراحل التطور الاقتصادي التي روج لها «روستو» في كتابه «مراحل

النمو الاقتصادي» الذي قد استحوذ على اهتمام كبير بين أوساط المتخصصين بالعلاقة القائمة بين الدخل والتنمية، وفكرة «روستو» تتلخص في أنّ «النمو الاقتصادي يتكوّن من عدّة مراحل تتعاقب بشكل زمني، وأنّ كل مرحلة من هذه المراحل تمهّد الطريق بشكل يهيئ للمرحلة التي تعقبها، ما يشير إلى أنّ البلدان المتخلفة تخطو في نفس المسار التي تسير عليه الدول المتقدمة في المدّة بين 1850-1950، إلى أن تصل إلى مرحلة المجتمع الصناعي وإلى ما بعد المجتمع الصناعي، والعملية الاقتصادية تكشف عن مدى مرونة الوضع الاقتصادي، كما يكشف عن مدى مشاركة الأفراد في العملية التنموية سواء الاقتصادية والاجتماعية من خلال سلوكيات عدّة منها قدرتهم الشرائية ومستويات استهلاكهم وكيفية تأثير ذلك في نمط حياتهم المعاش، وحسب «روستو» يمكن أن ينسب أيّ مجتمع من حيث مستوى تطوره الاقتصادي إلى إحدى المراحل الخمس.

- مرحلة المجتمع التقليدي.

- مرحلة التهيؤ للانطلاق.

- مرحلة الانطلاق.

- مرحلة الاتجاه نحو النضج.

- مرحلة الاستهلاك الوفير.

ويرى «روستو» أنّ هذه المراحل ليست إلّا نتائج عامّة مستتبطة من الأحداث الضخمة التي شهدتها التاريخ الحديث.

### 3.5. نظرية كينز التحليلية

تتميز نظرية «كينز» التحليلية عن الأساليب التحليلية التي كانت مستعملة في الاقتصاد الكلاسيكي، حيث طبق «كينز» الطريقة التحليلية الكلية محاولاً وضع نظرية عامّة للنشاط الاقتصادي، أفضل من الجدول الاقتصادي الذي وضعه سابقوه الذين اهتموا بوضع دراسات تحليلية جزئية، مثل نظرية الإنتاج، ونظرية التبادل ونظرية التوزيع، ويعتقد كينز أنّه من الأفضل أن تدمج هذه النظريات الثلاث المنفصلة، بنظرية واحدة عامّة؛ لأنّ الإنتاج هو الذي يحدّد حجم الدخل القومي الذي يحدّد بدوره المداخل

المورّعة، كما انتقد كينز الطّريقة التّقليديّة بالنّسبة إلى النّقد؛ لأنّ النّقد ليس عنصراً حيادياً إنّما عنصر فاعل.

اهتمّ «كينز» بطريقة التّحليل الكليّة Macro-économie حيث اهتمّ بدراسة الكمّيّات الكليّة مثل: الدّخل القوميّ والعمالة والعرض الكليّ والطلب الكليّ... تاركاً جانب التّحليل الجزئيّ Micro-économie مثل سلوك المستهلك والمُدخّر.

## 6. أنواع الاستهلاك الأسريّ

للاستهلاك أنواع مختلفة ومتعارف عليها في المجتمع، أبرزها الاستهلاك الطّبيعيّ أو الاعتياديّ والاستهلاك التّفاهريّ/المظهريّ، وسنتناول خصائص كلا النوعين مستنديين في ذلك إلى الأرقام والنتائج التي بيّنتها لنا المعطيات المجمّعة من مجتمع الدّراسة.

### 1.6. الاستهلاك الطّبيعيّ الاعتياديّ

هو النّوع الأوّل والمتعارف عليه في المجتمع، هذا النّوع من أنواع الاستهلاك يقوم على استهلاك الحاجات الأساسيّة والضروريّة للفرد وللأسرة التي تشكّل جزءاً أساسياً في الحياة اليوميّة؛ ويعدّ استهلاكها وتوفّرها ضرورة لاستمرار هذه الحياة، إذ لا يمكن الاستغناء عنه. إنه «استهلاك الاحتياجات الحيويّة من غذاء ومسكن وملبس وصحّة، ويحقّق إشباعاً كافياً؛ وتحديد مستوى هذه الاحتياجات يختلف اختلافاً شديداً بين الفئات الاجتماعيّة والمستوى الاقتصاديّ للمجتمعات (الجوهريّ، 2001، صفحة 325).

في الماضي، كانت الأسرة -ولا تزال اليوم في بعض المجتمعات القرويّة- تستهلك ما تنتجه بنفسها، وتبيع الفائض عن حاجتها أو تقايضه بسلع أو منتجات أخرى تحتاج إليها؛ «إلا أنّ هذه التّقليدية قد تبدّلت وتحوّلت مع التّقدّم الصّناعيّ وتطوّر خطوط الإنتاج (بالحاج، 2017، صفحة 13)، إذ تحوّل استهلاك الأسرة لمنتجاتها نحو السلع المصنّعة والجاهزة التي تقوم بإنتاجها المصانع الكبرى لمختلف حاجيات الأفراد والمجتمعات، كما أنّها وفّرت أنواعاً عدّة بمواصفات مختلفة لسلعة واحدة، فخلق رغبة عند المستهلك في الحصول على كمّيّة من المنتجات لإشباع رغبته.

وهناك حاجات وسلع ضروريّة تتخطّى المأكل والمشرب والملابس والطّباية، كالاتّصالات مثلاً لما يفرضه الواقع التّفاهريّ المعولم من ضرورة التّواصل الدائم والبقاء على اتّصال



مع الآخرين ولو افتراضياً، إضافةً إلى التجهيزات المنزلية والإلكترونية.

يتحمل الأفراد أعباء مالية أكبر نتيجة ارتفاع معدلات الاستهلاك، ولذا سنعرض في الجدول التالي مدى حسابان أفراد عينة الدراسة الدخل الشهري الأسري كافيًا لسدّ الحاجات المختلفة، وذلك استنادًا إلى قيمة الدخل الإجمالي للأسرة. وقد أُجري اختبار لقياس قوة الارتباط بين متغيري: الدخل الإجمالي للأسرة ومدى كفاية دخل الأسرة لسدّ الحاجات المختلفة. وأظهرت نتائج اختبار كا تربيع وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين المتغيرين، حيث بلغ مستوى الدلالة 0.000، وهو أقلّ من 0.01.

**جدول 1: اختبار كا تربيع لقياس العلاقة بين مدى كفاية دخل الأسرة لسدّ الحاجات المختلفة والدخل الإجمالي للأسرة**

| الدلالة | قوة الارتباط |                 |                    |
|---------|--------------|-----------------|--------------------|
| 0.000   | 0.659        | Phi             | Nominal by Nominal |
| 0.000   | 0.295        | Cramer's V      |                    |
|         | 412          | N . Valid Cases |                    |

**المصدر: العمل الميداني الذي نفّذته الطالبة بتاريخ 15 كانون الأول 2019**

كما أُجري اختبار كرامرز (V & Cramer's) وقد بلغت قوة الارتباط 0.29 والدلالة 0.000؛ وهذا يدلّ على أنّ العلاقة بين المتغيرين تعدّ قويّة، وأنّ هناك تأثير مباشر للمتغيرين في بعضهما، إذ إنّ الدخل الإجمالي للأسرة يؤثر على مدى كفاية دخل الأسرة لسدّ الحاجات المختلفة لأفراد الأسرة.

**جدول 2: توزع أفراد العينة وفق تصنيفهم لدخل الأسرة كافيًا لسدّ الحاجات المختلفة، بحسب الدخل الإجمالي للأسرة**

| المجموع | الدخل الإجمالي للأسرة |                |             |             |             |           | إعتبار دخل الأسرة كاف لسد الحاجات المختلفة<br>دون \$500 |         |
|---------|-----------------------|----------------|-------------|-------------|-------------|-----------|---------------------------------------------------------|---------|
|         |                       | 3000\$ وما فوق | 2000-2999\$ | 1500-1999\$ | 1000-1499\$ | 500-999\$ |                                                         |         |
| 144     | 48                    | 92             | 0           | 0           | 4           | 0         | التكرار                                                 | نعم     |
| 100.0%  | 33.3%                 | 63.9%          | 0.0%        | 0.0%        | 2.8%        | 0.0%      | النسبة المئوية                                          |         |
| 35.0%   | 11.7%                 | 22.3%          | 0.0%        | 0.0%        | 1.0%        | 0.0%      | المجموع                                                 |         |
| 164     | 0                     | 4              | 32          | 56          | 60          | 12        | التكرار                                                 | كلا     |
| 100.0%  | 0.0%                  | 2.4%           | 19.5%       | 34.1%       | 36.6%       | 7.3%      | النسبة المئوية                                          |         |
| 39.8%   | 0.0%                  | 1.0%           | 7.8%        | 13.6%       | 14.6%       | 2.9%      | المجموع                                                 |         |
| 104     | 12                    | 24             | 20          | 44          | 4           | 0         | التكرار                                                 | أحياناً |
| 100.0%  | 11.5%                 | 23.1%          | 19.2%       | 42.3%       | 3.8%        | 0.0%      | النسبة المئوية                                          |         |
| 25.2%   | 2.9%                  | 5.8%           | 4.9%        | 10.7%       | 1.0%        | 0.0%      | المجموع                                                 |         |
| 412     | 60                    | 120            | 52          | 100         | 68          | 12        | التكرار                                                 | المجموع |
| 100.0%  | 14.6%                 | 29.1%          | 12.6%       | 24.3%       | 16.5%       | 2.9%      | النسبة المئوية                                          |         |
| 100.0%  | 14.6%                 | 29.1%          | 12.6%       | 24.3%       | 16.5%       | 2.9%      | المجموع                                                 |         |

**المصدر: العمل الميداني الذي نفذته الطالبة بتاريخ 15 كانون الأول 2019**

يبين (الجدول 2) أنّ 29.1% من إجمالي أفراد عينة الدراسة يتراوح الدخل الإجمالي لأسرهم بين 2000 و\$2999، 22.3% منهم رأوا أنّ الدخل الإجمالي لأسرتهم يمكن تصنيفه كافيًا لسدّ الحاجات المختلفة للأسرة، و1% رأوا أنّ هذا الدخل لا يمكن تصنيفه كافيًا لسدّ الحاجات المختلفة للأسرة، و5.8% عدّوا أنّ هذا الدخل يكفي في بعض الأحيان لسدّ مختلف الحاجات التي تحتاجها الأسرة.

وهناك نسبة 24.3% من إجمالي أفراد العينة يتراوح دخلهم الإجمالي بين 1000 و\$1499، 13.6% منهم أجابوا أنّ هذا الدخل لا يكفي أبداً لسدّ الحاجات الرئيسيّة للأسرة، في حين 10.7% أجابوا أنّ هذا الدّخل يكفي في بعض الأحيان لسدّ مختلف حاجات الأسرة.

كما أنّ 16.5% من إجمالي أفراد العينة يتراوح الدّخل الإجمالي للأسرة لديهم بين 500 و\$999، توزّعت نسبهم على الشّكل التالي: 1% رأوا أنّ الدّخل الإجمالي للأسرة يعدّ كافياً لسدّ الحاجات المختلفة للأسرة، و14.6% رأوا أنّ دخلهم الإجمالي لا يكفي لسدّ الحاجات المختلفة للأسرة وهي النّسبة الأعلى، في حين رأى 1% فقط أنّ هذا الدّخل يمكنه أحياناً أن يسد حاجات الأسرة المختلفة.

وبالمقابل، نرى أنّ 14.6% من إجمالي أفراد الأسرة يبلغ دخلهم الإجمالي \$3000 وما فوق، 11.7% أجابوا أنّ هذا الدخل يكفي لسدّ الحاجات الأسريّة المختلفة، و 2.9% أجابوا أنّ دخل الأسرة الإجمالي الذي يبلغ \$3000 وما فوق يكفي في بعض الأحيان لسدّ مختلف الحاجات الأسريّة.

كما أنّ 12.6% من إجمالي أفراد العينة أفادوا أنّ الدّخل الإجمالي لأسرتهم يتراوح بين 1500 و\$1999، وأجاب 7.8% أنّ هذا الدّخل لا يمكنه سدّ مختلف حاجات الأسرة، في حين رأى 4.9% أنّ الدّخل الإجمالي لأسرهم يكفي في بعض الأحيان لسدّ الحاجات المختلفة التي تحتاجها الأسرة.

وأخيراً هناك 2.9% من أفراد العينة يبلغ الدّخل الشّهريّ لأسرهم أقلّ من \$500، وتركّزت هذه النّسبة في خانة واحدة هي «كلا» أي أنّ الدّخل الإجمالي للأسرة لا يكفي سدّ الحاجات الرئيسيّة والمختلفة للأسرة.

إن تصنيف الدّخل كافٍ أو غير كافٍ لسدّ الحاجات الأسريّة هو مسألة نسبيّة، تتحكّم فيها عوامل عدّة اجتماعيّة، ثقافيّة، مكانيّة... وغيرها. فما يمكن تصنيفه عند فئة من فئات المجتمع حاجة أو سلعة ثانويّة تعدّ عند فئة أخرى ضروريّة، وهذا ما سنبيّنه تباّعاً في تصنيف الحاجات والسلع الضّروريّة وفق عوامل عدّة تتحكّم في هذه المسألة.

## 2.6. الاستهلاك التّفاخريّ/ المظهريّ

الاستهلاك التّفاخريّ هو نوع «يفوق استهلاك الحاجات الأساسيّة، ويعتمد على المستهلكات الإضافيّة أو التي لا تعتمد على الاستهلاك الرئيس» (الرّماني، 2014، صفحة 159).

وقد سخر الرّماني من السّلك الاستهلاكيّ الذي يحركه حبّ التّشبه وتقليد الآخر؛ «لأنّ فكرة مجارة النّبل في حياتهم هي في حدّ ذاتها مدعاة للسّخرية، لأنّ هذا الأمر سيؤثّر على نمط حياته مع زيادة الإنفاق الأسريّ وتكبيد أسرته مزيداً من الخسائر التي لا مبرر لها سوى فكّ لعقد نفسيّته وتحصيل مكانة اجتماعيّة مرموقة» (الرّماني، 2014).

وتعدّ المناسبات الثّلاث التي حدّدها سابقاً، فرصة لتبادل وتقديم الهدايا التي تعدّ عنصراً رئيساً فيها، لما لها من رمزيّة من حيث التّعبير عن المحبّة والاحترام والعرفان بالجميل نحو الأمّ مثلاً، والتّودّد والألفة خاصّة في عيد الميلاد المجيد، أمّا في ليلة رأس السّنة التي تعدّ مناسبة اجتماعيّة بامتياز فإنّ تقديم الهدايا يترافق مع مظاهر احتفاليّة متنوّعة، كإقامة عشاء يضمّ مختلف المأكولات والحلويّات احتفالاً بالسّنة الجديدة وتوديع سنة مضت، وقد أشار «مارسال موس» إلى أنّ للهبة أو الهدايا أبعاداً سوسيولوجيّة (Mauss, 1989, pp. 147-151) تتمثّل في العطاء، وقبول هذا العطاء، ثمّ الرّدّ عليه إمّا بإعادة الغرض نفسه أو تقديم ما يوازيه قيمة، أي ردّ الهدية بالمثل؛ هذا من شأنه أن يقوّي الرّوابط الاجتماعيّة ويخلق الألفة بين الأفراد»، كما من شأنه أن ينعكس على نوعيّة الاستهلاك إذ إنّ إهداء هديّة ما تمنح الذي قدّم الهدية إلى جانب صفة العطاء أيضاً مكانة اجتماعيّة، حيث كلّما كانت الهدية لها بُعد ماديّ ومعنويّ أكثر دفع المتلقّي إلى المبادرة من أجل ردّ الهدية بأخرى لها قيمة أكثر؛ وهنا يتجلّى لدينا أسلوب الاستهلاك في الاتّجاه نحو انتقاء السّلع التّفاخريّة والثّمينية التي من شأنها أن تكبّد الفرد أعباءً ماديّة تتحكّم فيها أبعاداً ثقافيّة واجتماعيّة ومهنيّة وغيرها...

كما أنّ هناك رمزيّة خاصّة لشهر رمضان عند المسلمين وعيد الأمّ إذ يعدّ مناسبة مميّزة جدّاً؛ لأنّه يوم يحمل رمزيّة قدسيّة لأسمى وأغلى إنسان في حياة أيّ فرد وهي «الأمّ»؛ لذا فإنّ الاحتفال بهذه المناسبة له رمزيّة عالميّة والتّعبير عنها بتقديم هديّة لها بُعد معنويّ تقديرًا للجهود والتّضحيات التي تقدّمها الأمّ لأولادها، فينبّجه الكثيرون إلى تقديم هديّة ثمينة

أكانت من المجوهرات أم غيرها، إضافة إلى باقية من أغلى وأجمل أنواع الورد... إضافة إلى إقامة وليمة أو حفل عشاء مع قالب حلوى... كل ذلك يعكس نمطاً استهلاكياً معيّناً وإن بدا كمالياً، إلا أنه مع مرور الوقت أصبح مثبتاً ليس فقط محلياً بل عالمياً، وبالتالي فإن الاحتفال بهذه المناسبات مع ما يرافقها من عادات تحولت إلى طقوس لها أبعاد معنوية اجتماعية وحتى دينية (الطاعة والبر بالأم) إلا أن لها تبعات اقتصادية وخيمة على الأفراد خاصة ذوي الدخل المتدني أو المتوسط. أما تنموياً فإن عملية الاستهلاك التي ترافق إحياء هذه المناسبة وغيرها من شأنها أن تحرك العجلة الاقتصادية التي تُنعش السوق المحلي من خلال حركة البيع والشراء وتنوع السلع والبضائع والخدمات في هذه المناسبات، وهذا ما تبين معنا من خلال المقابلات التي أجريناها.

كما أن هناك توجّهاً في بعض المناسبات -مثل عيد الأم- لشراء الورد، وكأنه أصبح عرفاً لا يمكن التخلّي عنه، وإن قُدمت هدية من نوع آخر إلى جانب باقية الورد، ومن خلال مقابلات أجريت مع بائعي محلات الورد ضمن المجال الجغرافي للدراسة، وجدنا أنه وعلى الرغم من الوضع الاقتصادي المتردي وارتفاع أسعار الورد، إلا أن الإقبال يكون كثيفاً في مواسم عدة، مثل عيد الأم وعيد العشاق، إذ إن للورد رمزيته من حيث دلالاته على قوة المشاعر تجاه الشخص الآخر خاصة الورد الجوري.

أما بالنسبة إلى الأنواع الأخرى من السلع الأكثر طلباً في الأعياد، فقد تبين من خلال مقابلة أجريناها في جزين في متجر لصناعة السكاكين، وهي حرفة تراثية بامتياز، أنه ما زال الإقبال على شرائها في بعض المواسم جيداً، حيث إن القيام بإهداء هذا النوع من الهدايا الحرفية هي دليل تقدير واحترام وقوة، إضافة إلى أنها تعبّر عن هوية ثقافية خاصة، فصناعة السكاكين قديمة في جزين منذ القرن التاسع عشر وفق ما أفادنا العميد حدّاد الذي ورث هذه الصناعة أباً عن جدّ.

ولمعرفة مدى اعتماد أهالي محافظة لبنان الجنوبي نمط الاستهلاك التّفاخري في الأعياد والمناسبات الدينية والاجتماعية والرسمية، سنعرض بعض الجداول التي تقدّم لنا بعض المعطيات حول طبيعة الاستهلاك أثناء زيارة الأهل والأصدقاء في المناسبات من حيث: نوع الهدايا التي يصطحبها الأفراد قياساً بالدخل الإجمالي للأسرة، وأكثر المناسبات التي تُحيّا.

يعرض الجدول التالي تأثير الدّخل الإجماليّ للأسرة في مدى اصطحاب الهدايا للأهل والأصدقاء والأقارب في الأعياد، فتبيّن لدينا أنّ جميع أفراد العيّنة على اختلاف قيمة الدّخل الإجماليّ لأسرهم يقومون باصطحاب هدايا للأهل والأصدقاء في الأعياد والمناسبات. وهذا دليل قاطع على أنّ للهدية بُعداً رمزياً إضافة إلى تحويلها إلى عادة ترافق مظاهر الاحتفال في المناسبات الدّينية والاجتماعيّة، وتشكّل جزءاً مهماً من طقوس الاحتفال بالأعياد.

**جدول 3: توزع أفراد العيّنة وفق اصطحابهم للهدايا أثناء زيارة الأهل والأصدقاء في الأعياد وتبعاً للدّخل الإجماليّ للأسرة**

| المجموع | الدّخل الإجماليّ للأسرة |       |                   |                 |                 |                 | دون 500\$<br>500-999\$ |     |                                                       |
|---------|-------------------------|-------|-------------------|-----------------|-----------------|-----------------|------------------------|-----|-------------------------------------------------------|
|         |                         |       | 3000\$<br>وما فوق | 2000-<br>2999\$ | 1500-<br>1999\$ | 1000-<br>1499\$ |                        |     |                                                       |
| 412     | 60                      | 120   | 52                | 100             | 68              | 12              | التكرار                | نعم | اصطحاب الهدايا أثناء زيارة الأهل والأصدقاء في الأعياد |
| 100.0%  | 14.6%                   | 29.1% | 12.6%             | 24.3%           | 16.5%           | 2.9%            | النسبة المئوية         |     |                                                       |
| 100.0%  | 14.6%                   | 29.1% | 12.6%             | 24.3%           | 16.5%           | 2.9%            | المجموع                |     |                                                       |

#### المصدر: العمل الميدانيّ الذي نفّذته الطالبة بتاريخ 15 كانون الأوّل 2019

في (الجدول 3) يمكن أن نلاحظ أنّ النسبة الأكبر لأفراد عيّنة الدّراسة الذين يصطحبون الهدايا معهم في الأعياد للأهل والأقارب والأصدقاء هم ممّن تتراوح قيمة الدّخل لديهم بين 2000 و 2999\$، يليهم من تتراوح قيمة الدّخل الشّهريّ لديهم بين 1000 و 1499\$، في حين إنّ 2.9% فقط من أفراد العيّنة الذين يبلغ الدّخل الشّهريّ لديهم دون 500% يشترون الهدايا ويقدمونها للأهل والأقارب والأصدقاء في الأعياد.

وبالتاليّ يمكن استنتاج تأثير قيمة الدّخل الشّهريّ للأسرة في قرار شراء الهدايا للآخرين في الأعياد، حيث إنّ ممارسة بعض الطّقوس الاجتماعيّة التي اعتاد المجتمع اللّبنانيّ عليها قد تشكّل لبعضهم حملاً ثقيلاً على كاهلهم، فمن جهة يشعر الفرد برغبة بالاحتفال وتبادل الهدايا وإعطاء نفسه قيمة اجتماعيّة أمام الآخرين من خلال تقديم هدايا جميلة وقيّمة، ومن جهة أخرى يعرف أنّ شراء هذه الهدايا ستشكّل له عبئاً مالياً قد يستمرّ سداًه لأشهر لاحقة... وهنا لا بدّ من أن يكون قرار الشّراء حكيماً ومدروساً...

في الجدول التالي سنبيّن أهمّ المناسبات التي يزيد فيها الإنفاق والاستهلاك الموسميّ، من خلال الرّبط بين تحديد أبرز الأعياد التي تدفع أفراد العيّنة نحو المزيد من الاستهلاك وبين قيمة الدّخل الإجماليّ للأسرة:

جدول 4: توزّع أفراد العيّنة وفق الأعياد التي تدفعهم نحو الاستهلاك تبعاً للدّخل الإجماليّ للأسرة

| المجموع | الأعياد التي تدفع المبحوثين نحو الإستهلاك       |                                                                 |                    |                                                          |                    | الدّخل الإجماليّ للأسرة |                 |
|---------|-------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------|--------------------|----------------------------------------------------------|--------------------|-------------------------|-----------------|
|         | رمضان،<br>عيد الأم،<br>رأس السّنة<br>الميلاديّة | رمضان،<br>عيد الأم،<br>عيد الميلاد،<br>رأس السّنة<br>الميلاديّة | رمضان،<br>عيد الأم | عيد<br>الميلاد،<br>رأس السّنة<br>الميلاديّة،<br>عيد الأم | رمضان،<br>عيد الأم | رمضان                   |                 |
| 12      | 0                                               | 0                                                               | 12                 | 0                                                        | 0                  | التكرار                 | دون \$500       |
| 100.0%  | 0.0%                                            | 0.0%                                                            | 100.0%             | 0.0%                                                     | 0.0%               | النسبة<br>المئويّة      |                 |
| 2.9%    | 0.0%                                            | 0.0%                                                            | 2.9%               | 0.0%                                                     | 0.0%               | المجموع                 |                 |
| 68      | 0                                               | 0                                                               | 44                 | 16                                                       | 8                  | التكرار                 | 500–<br>999\$   |
| 100.0%  | 0.0%                                            | 0.0%                                                            | 64.7%              | 23.5%                                                    | 11.8%              | النسبة<br>المئويّة      |                 |
| 16.5%   | 0.0%                                            | 0.0%                                                            | 10.7%              | 3.9%                                                     | 1.9%               | المجموع                 |                 |
| 100     | 12                                              | 12                                                              | 40                 | 28                                                       | 8                  | التكرار                 | 1000–<br>1499\$ |
| 100.0%  | 12.0%                                           | 12.0%                                                           | 40.0%              | 28.0%                                                    | 8.0%               | النسبة<br>المئويّة      |                 |
| 24.3%   | 2.9%                                            | 2.9%                                                            | 9.7%               | 6.8%                                                     | 1.9%               | المجموع                 |                 |
| 52      | 4                                               | 0                                                               | 28                 | 20                                                       | 0                  | التكرار                 | 1500–<br>1999\$ |
| 100.0%  | 7.7%                                            | 0.0%                                                            | 53.8%              | 38.5%                                                    | 0.0%               | النسبة<br>المئويّة      |                 |
| 12.6%   | 1.0%                                            | 0.0%                                                            | 6.8%               | 4.9%                                                     | 0.0%               | المجموع                 |                 |
| 120     | 16                                              | 40                                                              | 32                 | 16                                                       | 16                 | التكرار                 | 2000–<br>2999\$ |
| 100.0%  | 13.3%                                           | 33.3%                                                           | 26.7%              | 13.3%                                                    | 13.3%              | النسبة<br>المئويّة      |                 |
| 29.1%   | 3.9%                                            | 9.7%                                                            | 7.8%               | 3.9%                                                     | 3.9%               | المجموع                 |                 |

|        |      |       |       |       |      |                   |                   |
|--------|------|-------|-------|-------|------|-------------------|-------------------|
| 60     | 0    | 32    | 8     | 20    | 0    | التكرار           | 3000\$<br>وما فوق |
| 100.0% | 0.0% | 53.3% | 13.3% | 33.3% | 0.0% | النسبة<br>المئوية |                   |
| 14.6%  | 0.0% | 7.8%  | 1.9%  | 4.9%  | 0.0% | المجموع           |                   |
| 412    | 32   | 84    | 164   | 100   | 32   | التكرار           | المجموع           |
| 100.0% | 7.8% | 20.4% | 39.8% | 24.3% | 7.8% | النسبة<br>المئوية |                   |
| 100.0% | 7.8% | 20.4% | 39.8% | 24.3% | 7.8% | المجموع           |                   |

#### المصدر: العمل الميداني الذي نفذته الطالبة بتاريخ 15 كانون الأول 2019

يبين (الجدول 4) العلاقة القائمة بين الدّخل الإجماليّ للفرد والاحتفال بالأعياد التي تدفع المبحوثين نحو الاستهلاك. وقد أفاد 39.8% من إجماليّ أفراد العيّنة أنّ نسبة زيادة الاستهلاك لديهم هي في مناسبة عيد الأمّ وشهر رمضان الكريم، توزّعت هذه النسبة على الشّكل التالي، 2.9% للذين يبلغ دخلهم الإجماليّ دون 500\$، 10.7% للذين يتراوح دخلهم الإجماليّ بين 500 و 999\$، 9.7% للذين يتراوح دخلهم الإجماليّ بين 1000 و 1499\$، 6.8% بين 1500 و 1999\$، 7.8% بين 2000 و 2999\$، 1.9% للذين يبلغ دخلهم الإجماليّ 3000\$ وما فوق.

كما رأى 24.3% من إجماليّ أفراد العيّنة أنّ كلّاً من «عيد الميلاد ورأس السنة الميلاديّة وعيد الأمّ» تدفع نحو الاستهلاك، إذ إنّ هذه المناسبات الثلاثة فرصة لتبادل ولتقديم الهدايا التي تعدّ عنصراً رئيسياً فيها، لما لها من رمزيّة من حيث التّعبير عن المحبّة والاحترام والعرفان بالجميل نحو الأمّ مثلاً، والتّودّد والألفة خاصّة في عيد الميلاد المجيد؛

أمّا في ليلة رأس السنة، التي تُعدّ مناسبة اجتماعيّة بامتياز، فإنّ تقديم الهدايا يترافق مع مظاهر احتفاليّة متنوّعة، كإقامة عشاء يضمّ مختلف المأكولات والحلويّات احتفاءً بقدم العام الجديد وتوديع العام المنصرم. وقد أشار إليها «مارسال موس» (Mauss, 1989, pp. 147-151) إلى أنّ للهبة أو الهدية أبعاداً سوسولوجيّة تتمثّل في العطاء، وقبول هذا العطاء، ثمّ الرّدّ عليه إمّا بإعادة الغرض نفسه أو تقديم ما يوازيه قيمةً، أي ردّ الهدية بالمثل؛ هذا من شأنه أن يقوّي الرّوابط الاجتماعيّة ويخلق الألفة بين الأفراد»، كما من



شأنه أن ينعكس على نوعية الاستهلاك؛ إذ إن إهداء هدية ما تمنح الذي قدّم الهدية إلى جانب صفة العطاء أيضًا مكانة اجتماعية حيث كلما كانت الهدية لها بُعد مادي ومعنوي أكثر دفع المتلقي إلى المبادرة من أجل ردّ الهدية بأخرى لها قيمة أكثر؛ وهنا يتجلى لدينا أسلوب الاستهلاك في الاتجاه نحو انتقاء السلع الفاخرة والثمينة التي من شأنها أن تكبّد الفرد أعباءً مادية تتحكّم فيها أبعادًا ثقافية واجتماعية ومهنية وغيرها...

وأجاب 20.4% من إجمالي أفراد العينة أنهم يحتفلون بكلّ المناسبات التي طُرحت في هذا السؤال أي الاحتفال برأس السنة الميلادية وعيد الميلاد المجيد وعيد الأمّ وشهر رمضان المبارك، وتوزّعت نسبهم تبعًا لقيمة الدّخل الشهريّ على الشكل التالي: 7.8% لدى الذين يبلغ الدّخل الإجماليّ للأسرة لديهم 3000\$ وما فوق، و 9.7% للذين يتراوح الدّخل الإجماليّ لديهم بين 2000 و 2999\$، و 2.9% للذين يتراوح الدّخل الإجماليّ للأسرة لديهم بين 1000 و 1499\$، أمّا الفئات الأخرى التي تتوزّع وفق المداخل الأخرى فقد بلغت 0%؛ لأنّها لا تستطيع تكبّد هذه المصاريف والإنفاق على متطلّباتها نتيجة لانخفاض الدّخل الإجماليّ لأسرها؛ وعليه، فإنّها تكفّي بالتركيز على مناسبات معينة رئيسة، مثل عيد الأمّ ورمضان، أو عيد الميلاد المجيد، كلّ على حدة، أو بالجمع بين مناسبتين تعدهما الأكثر أهميّة، كما ظهر من خلال قراءة هذا الجدول.

ورأى 7.8% من أفراد العينة أنّ شهر رمضان المبارك يُعدّ من المناسبات التي تدفع الفرد إلى زيادة الاستهلاك، نظرًا لما يختصّ به من عادات وتقاليد تُقضي إلى تنوّع وكثرة المشتريات، خصوصًا في مجال الأطعمة المخصّصة لهذا الشهر الكريم. ومن أبرزها التمر الذي يُعدّ جزءًا من سنّة الإفطار المأثورة عن الرسول الكريم ﷺ، إذ كان يفطر على التمر واللبن، إضافةً إلى أصناف الضيافات التي تُقدّم للزّائرين المهتئين، وعلى رأسها الحلويات العربية التي تتصدّر موائد رمضان مثل «الكرواج» و«ورد الشام» و«التابلسية» وغيرها، وهي أطعمة غالبًا ما ينتقي حضورها بعد انقضاء الشّهر الفضيل.

تركّزت نسبة الذين يرون أنّ الاستهلاك في شهر رمضان يزداد لدى الفئة التي يتراوح دخل الأسرة الإجماليّ لديهم بين 2000 و 2999\$ (3.9%)، و 1.9% لكلّ من الذين يتراوح دخلهم الإجماليّ بين 500 و 999\$، وبين 1000 و 1499\$، هذا يبيّن أنّ حجم الدّخل الإجماليّ للأسرة يتحكّم بالزيادة في الاستهلاك حتّى في المناسبات، وانعدمت هذه

النسبة 0% لدى الفئة التي يبلغ دخلها الإجماليّ دون \$500، أمّا الفئة التي يبلغ دخلها الإجماليّ \$3000 وما فوق رأت أيضًا أنّ شهر رمضان لا يزيد من نسبة الاستهلاك لديها، وقد يرجع الأمر في ذلك إلى قدرتها على سدّ حاجاتها الرّئيسة والثّانويّة، وإلى ارتفاع القدرة الشرائيّة لديها خارج أيّام هذا الشّهر الفضيل، حيث يمكن لها أن تستهلك أصناف المأكولات والحلويّات الخاصّة بشهر رمضان، كما يمكن لها أن تقدّم الضيافات المتنوّعة والمشهورة خلال شهر الصّيام والمعروفة بارتفاع أسعارها، خاصّة إن كانت تُباع في المحلّات المشهورة، إضافة إلى قدرتها على إقامة الولائم ودعوات الإفطار، وشراء ملابس جديدة استعدادًا لعيد الفطر الذي يلي شهر رمضان المبارك، في حين هذه القدرة الشرائيّة تتراجع لدى الفئات الأخرى التي تحاول أن تعيش أجواء الشّهر الفضيل بتحضير ما يمكن تحضيره في المنزل بعيدًا عن الأسواق.

وبالعودة إلى الاحتفالات برأس السنة، تفضّل الأغلبية أن يودّعوا سنة ويستقبلوا سنة من خلال السّهر، وذلك يتطلّب إنفاقًا أكثر من حيث التّجهيزات إن من حيث شراء لباس جديد أو الذّهاب لصالونات الحلاقة وغيرها...

فقد ارتفعت هذه النسبة لدى الفئات التي يرتفع دخلها الإجماليّ، أيّ 6.8% للذين يتراوح دخلهم بين 1000 و\$1499، و4.9% للذين يتراوح دخلهم الإجماليّ بين 1500 و\$1999، و\$3000 وما فوق، 3.9% لدى الفئات الذين يتراوح دخلهم بين 500 و\$999 و\$2000 و\$2999، أمّا الفئة التي يبلغ دخلها الإجماليّ دون \$500 فإنّ هذه النسبة بقيت سلبية 0%، ذلك أنّ الاحتفالات بهذه المناسبات تتطلّب زيادة في استهلاك الكثير من السّلع الكميّية التي لا يمكن للدّخل أن يكون كافيًا لتأمينها وهذا ما بيّناه سابقًا في الجدول الذي يربط بين (الدّخل الإجماليّ للأسرة وبين قدرة الدّخل على سدّ الحاجات المختلفة للأسرة).

كما أشار 7.8% من إجماليّ أفراد العيّنة إلى أنّهم يحتفلون بالمناسبات الثّلاث: شهر رمضان المبارك وعيد الأمّ ورأس السنّة الميلاديّة، وهي تمثّل بالنسبة إليهم الأهمّ. وقد توزّعت نسب هؤلاء بين الفئات الدّخليّة المختلفة على النحو الآتي: 2.9% لمن يتراوح دخلهم الإجماليّ بين 1000 و\$1499، و1% لمن يتراوح دخلهم بين 1500 و\$1999، و3.9% لمن يتراوح دخلهم بين 2000 و\$2999.

من خلال ما تقدّم، يتبيّن لدينا أنّ هناك مفاضلة و تحديد لسلم الأولويات، يتحكّمان في الاحتفال في المناسبات وفق أهميّتها ورمزيّتها، إلّا أنّ المناسبات الاجتماعية، كعيد الأمّ، تحظى باحتفاء شبه جماعيّ، يليها شهر رمضان المبارك، ثمّ رأس السنّة الميلاديّة وعيد الميلاد المجيد. ويختلف مستوى الاحتفال بهذه المناسبات باختلاف الدّخل الإجماليّ للأسرة، غير أنّ القاسم المشترك بينها جميعاً هو أنّها ترفع معدّلات الإنفاق، نظراً لزيادة الاستهلاك لأنواع من السّلع التي تُعدّ ضروريّة أو مرتبطة بطقوس هذه المناسبات.

#### 7. البُعد الاجتماعي والاقتصاديّ للاستهلاك في الأعياد

إنّ الإنفاق في هذه المناسبات يكبّد الأسرة أعباءً ماليّة تدفعهم إمّا للاستدانة من جهات معيّنة أو طلب قروض من المصارف، والمصارف في لبنان لا تضع قيوداً على أنواع القروض المُقدّمة بل تشجّع عليها، ممّا أسهم في تحوّل المجتمع اللّبنانيّ إلى مجتمع استهلاكيّ بامتياز، عداك عن أنّ الاستهلاك لا يقتصر على حاجات الأسرة حتّى لو كانت هذه الحاجات كماليّة بل تتعدّها إلى تأمين النّفقات الاستهلاكيّة في المناسبات العائليّة والاجتماعيّة، وتمتاز النّفقات الاستهلاكيّة في هذه المناسبات بالتّفاخر، فهي إمّا هدايا مُقدّمة لأحد أفراد الأسرة مثل الأمّ أو للأصدقاء، وتحدّد قيمة هذه الهدية المكانة الاجتماعية والمهنة والرّوابط الاجتماعية.

إنّ البحث في تأثير مستوى دخل الأسرة في قرار الشّراء واختيار السّلع الاستهلاكيّة وكيفيّة إحياء المناسبات، كما أدرجناه سابقاً، له أهميّة كبيرة في تحديد نمط استهلاك الأسرة، إلّا أنّ الدّخل وحده لا يكشف المستوى المعيشيّ للأسرة وقدرتها الشّرائيّة، بل يجب البحث عن مؤشّرات إضافيّة كعدد أفراد الأسرة العاملين، وإمكانية حصولها على مساعدات خارجيّة، أو على قروض مصرفيّة أو الاستدانة من الآخرين... وهذا ما بحثناه في هذه الدراسة، حيث طُرِح سؤال حول وجود مصادر أخرى لتغطية النّقص في النّفقات، فجاءت النّتائج على الشّكل التّالي:

جدول 5: توزع أفراد العينة وفق وجود مصادر أخرى لتغطية النقص في النفقات

| المتغيرات                      | التكرار | النسبة المئوية |
|--------------------------------|---------|----------------|
| عمل إضافي                      | 36      | 8.7            |
| عمل الزوجة                     | 32      | 7.8            |
| عمل الأولاد                    | 4       | 1.0            |
| مساعدة الأهل                   | 4       | 1.0            |
| استدانة                        | 16      | 3.9            |
| عمل الزوجة واستدانة            | 60      | 14.6           |
| عمل إضافي وعمل الزوجة          | 8       | 1.9            |
| عمل إضافي واستدانة             | 32      | 7.8            |
| عمل إضافي وعمل الزوجة واستدانة | 8       | 1.9            |
| دخل الأسرة كاف                 | 164     | 39.8           |
| قروض                           | 48      | 11.7           |
| المجموع                        | 412     | 100.0          |

المصدر: العمل الميداني الذي نفذته الطالبة بتاريخ 15 كانون الأول 2019

يُظهر (الجدول 5) أن 39.8% من أفراد عينة الدراسة يرون دخل الأسرة لديهم كافياً لسدّ حاجاتهم الحياتية، أمّا باقي العينة فتوزّعت نسبهم بين 14.6% يعتمدون على عمل الزوجة وعلى الاستدانة لتغطية النقص في نفقات الأسرة، وهناك 11.7% يعتمدون على القروض المصرفية أو من العمل، 8.7% يعملون عملاً إضافياً، و 7.8% يلجأ الزوج إلى القيام بعمل إضافي والاستدانة، كما أن 7.8% يعتمدون على عمل الزوجة، وهناك 1% فقط من أفراد عينة الدراسة يعتمدون على عمل الأولاد، و 1% يعتمدون على مساعدة الأهل.

ومن خلال احتساب نسبة الأفراد الذين تضمّنت إجاباتهم «الاستدانة أو القروض» (39.6%)، يتبيّن أنّه لا يمكن إغفال عامل الاستدانة أو طلب القروض من المصرف؛ لأنه يسهم في تحليل الهدف من استهلاك الأسرة وتحديد سلّم الأولويات لديها، والتأكّد

من الأسباب الجوهرية وراء الاستدانة أو طلب القرض، ومعرفة مدى تأثر الأسرة بالعادات والتقاليد ودرجة الالتزام بمعايير الجماعة المرجعية، ومدى الاهتمام بإظهار مكانة اجتماعية مرموقة وإن كانت السبب وراء الاستدانة أو طلب القرض...

## 8. البعد النفسي للاستهلاك في الأعياد

إنّ لهذا البعد أهمية فيما تحقّقه من عملية الإشباع الاستهلاكي، فالعامل النفسي يتظاهر في كونه سبباً يفرّق بين الأفراد في مستوى استجاباتهم للضغوط الاستهلاكية (الإعلانات، الإسراف في الإنفاق) في المجتمع، فهناك من يستجيب بقدر محدّد انطلاقاً من قدرته المادية، وهناك من ينجرف في الاستجابة ويُسْتثار لدرجة تجعله قلقاً من تخطّيه قدرته الشرائية، وتشير بعض الدراسات أنّ هذا السلوك راجع إلى اضطرابات في مفهوم الذات، وإنّ بعض الأفراد يسعون للبحث عن الرفاهية (بالحاج، 2017، صفحة 163)، «إذ أجمع الباحثون على أن الثروة هي الوسيلة الأساس للوصول إلى الرفاهية، بحيث تستعمل الاستعمال الأمثل من دون الإضرار بالفرد من النواحي الصحية والنفسية». (الدسوقي وآخرون، 1988، صفحة 25)

وبشكل الإعلام الذي يستخدم أسلوب الدعاية وسيلة لإثارة حفيظة الفرد ودافعاً للاستهلاك لقيامه باستثارة الرغبة الاستهلاكية من خلال عرض المنتجات بطريقة تسويقية احترافية خاصة مع التطوّر التقني الذي يُظهر إبداعاً تسويقياً في مجال التسويق، فيُشكّل ويُنشئ داخل الفرد رغبة في شراء منتج ما، ونضيف أنّ وسائط التواصل الاجتماعي قد تتحوّل إلى عامل من عوامل التّفاخر أمام الآخرين، سواء في العالم الإلكتروني أو الافتراضي، عندما تُستخدم كوسيلة لعرض ما استهلك واقتني، فيوفّر لصاحبه شعوراً بالإشباع النفسي.

## العوامل المؤثرة في الاستهلاك الأسري خلال الأعياد

يوجد العديد من العوامل التي تؤثر في سلوك المستهلك، بحيث يمكنها أن تُحدث تغيير في اتجاهاته الاستهلاكية، إلّا أنّنا سنعرض هنا أبرز العوامل المؤثرة في استهلاك أفراد المجتمع، تحديداً خلال الأعياد المستنتجة من القراءات والدراسات والنظريات المتعلقة بموضوع الاستهلاك، فاخترنا منها تلك التي تؤثر على نمط الاستهلاك بشكل أكبر

خلال الأعياد... وهي الجماعة المرجعية والتقيّد بمعاييرها والمكانة الاجتماعية والمهنة والدّخل الأسريّ والقروض والاستدانة ووسائل التواصل الاجتماعيّ.

### 1.9 الجماعات المرجعية والتقيّد بمعايير الجماعة (العوامل الاجتماعية)

تعرفّ الجماعات المرجعية على أنّها «الجماعة التي تخدم الفرد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وتكون كنقاط ومحطّات للمقارنة أو إطار يشكّل مواقف الأفراد وسلوكهم» (سويدان و حداد، 2009، صفحة 166).

كما تُعرف على أنّها «مجموعة الأفراد التي تؤثر إيجابياً أو سلبياً على الفرد في اتّجاهاته وسلوكياته، وعلى حكمه التقويميّ» (Ladwein, 2003, p. 25).

وحثّى يكون للجماعة تأثير كبير وفعل فس السلوك الاستهلاكيّ للأفراد لا بدّ من توافر الشّروط التّالية: (خيرالدين، 1998، صفحة 11).

- أن تكون السلعة موضع الاستهلاك سلعة يمكن رؤيتها وتحديدّها بسهولة بواسطة الآخرين مثل الملابس والسّاعات اليدويّة والسّيّارات.
- أن تكون السلعة محلّ الاستهلاك سلعة بارزة تلفت الأنظار ولا يمتلكها كلّ النّاس.
- أن تكون الجماعة مترابطة بدرجة كبيرة ممّا يشجّع على الاتّصالات المباشرة أو غير المباشرة بين أفرادها.

### 1.1.9 أهمّ الجماعات المرجعية ذات الصّلة بالمستهلك

هناك أنواع مختلفة من المجموعات التي يمكن أن تمثّل جماعة مرجعية ذات تأثير كبير في سلوك المستهلك وتتمثّل في: (عبيدات، سلوك المستهلك، مدخل إستراتيجي، دار وائل للتوزيع، 2004، صفحة 324)

- الأسرة: وتعدّ أكثر الجماعات الأساسيّة تأثيراً في أنماط الأفراد المنضمين تحت لوائها، وتكمن أهميّة الأسرة في التّواصل المستمرّ بين أفرادها، فتؤدّي إلى تكوين مواقف سلوكيّة متشابهة نسبياً لدى أفرادها تتفق مع الأنماط الحيّاتيّة لها.

وتعدّ الأسرة أداة يتمّ من خلالها نقل الثّراث الثقافيّ عبر الأجيال، فهي بوابة بمقتضاها تتلقّى الأجيال القادمة عادات وتقاليد وقيم ومعتقدات الأجيال السّابقة، وهي أداة اجتماعيّة

ضابطة لسلوك الأفراد في الدّاخل والخارج مع الجماعات الأخرى.

- **الأصدقاء:** وهم عملياً جماعة غير رسميّة؛ لأنّها عادة ما تكون غير منظّمة، وليس لديها فعلياً أيّ سلطات رسميّة، ذلك أنّ كلّ ما يملكه الأصدقاء كجماعة مرجعيّة عبارة عن سلطة معنويّة، هدفها التأثير النسبيّ في مواقف ومشاعر أصدقائهم نحو مختلف القضايا والأمور المعيشيّة المرتبطة بالعديد من السّلع والخدمات.
- **جماعات العمل:** قد يتجاوز الوقت الذي يمضيه الأفراد في العمل أو في وظائفهم وغيرها نصف الوقت المتاح لهم كلّ أسبوع؛ وبناءً عليه، يبدو أنّ هناك فرصة كبيرة أمام الأفراد العاملين في وظائف دائمة التّفاعل مع بعضهم بعضاً في معظم الأمور الحيائيّة والمعيشيّة.

### 2.1.9 المفاهيم المرتبطة بالجماعات المرجعيّة

توجد مجموعة من المفاهيم التي ترتبط كثيراً بالجماعات المرجعيّة التي نوردها فيما يلي: (varcem, 1994, pp. 127-128).

- **العرف:** هو عبارة عن قواعد تحدّد أو تمنع سلوكاً معيّناً في مواقف معيّنة، وتتمثّل وظيفة الجماعات المرجعيّة في توجيه سلوك الأفراد مثل اختيار الأغذية الصحيّة والسّير على اليمين والطريقة المناسبة لارتداء الملابس في المناسبات والحفلات الدينيّة والوطنية وغيرها، ويستمد الفرد العرف من القيم التّقافيّة، وكلّ فرد يعمل على مخالفة أو الابتعاد عن العرف ستقوم الجماعة المرجعيّة إلى مقاطعته وتوقيع الجزاء عليه.
- **الأدوار:** وهي المهام التي يقوم بها الفرد أو تلك التي تحدّدها له الجماعة، فهي النّماذج الموضوعيّة للسلوك، والمتوقّعة من الفرد في موقف معيّن؛ وبناءً على الوضعيّة التي يحتلّها في ذلك الموقف، إذ يمكن للفرد الواحد أن يقوم بأدوار عدّة، فيتطلّب منه سلوكيّات مختلفة، ولكلّ دور محدّدات معيّنة تضبطه. ولتوضيح الأدوار التي يمكن لرّب العائلة مثلاً تقلّدها ندرج الشّكل التّالي:
- **المكانة:** هي تحديد الوضعيّة التي يحتلّها الفرد في الجماعة التي ينتمي إليها، وكذلك نفوذه وسلطته وتأثيره، فالمكانة تعكس الاحترام والتّقدير الذي يتمتّع بها

الشخص من قبل الجماعة (الخطيب وعواد، 2000، ص.49).

- **التنشئة الاجتماعية:** وهي عبارة عن الإجراءات التي يكتسب بواسطتها المهارات والعرف والاتجاهات الضرورية لأداء الأدوار التي يتوقع من الفرد القيام بها، فيحدث تكييف الطفل مثلاً من خلال التعليمات من والديه أو عن طريق المشاهدة المثمرة لسلوكهما وسلوك أفراد العائلة الأكبر سناً (بن عيسى، 2007، صفحة 178).

### 3.1.9 أثر الجماعات المرجعية على سلوك المستهلك

إنّ مفهوم الجماعة يدخل ضمن هذه الدراسة بما له من تماس مباشر بعملية الاستهلاك عامة، وما له من تأثير في الاستهلاك التّفاخري وعلى أسلوب العيش لدى المستهلك. إن الانجذاب نحو الجماعة يدفع الأفراد للتّقيّد بمعاييرها بهدف تحقيق الذات وإثبات الهوية ضمن الجماعة، وبالمقابل كلّ من لم يمتلك النّقة بالنّفس أو تقدير الذات فإنّه يصبح مُبعداً عنها.

أظهر فيبلين (Veblen) أنّ الأفراد لديهم ميل نحو التّقيّد بمعايير الجماعة التي ينتمون إليها، وميل نحو الاقتراب من نمط استهلاك الجماعة الأعلى منهم، ويحدّد أنّ تأثير الجماعة في السلوك الاستهلاكيّ يقوم على أمرين: أولاً الصّفة العامّة أو الخاصّة للاستهلاك وثانياً نوع السّلع.

وفي المقابل، هناك مستهلكون لديهم رغبة في الاختلاف عن الجماعة من خلال الشّعور بالتميّز، ومثال على ذلك عند شراء الملابس، حيث يصبح عدم التّقيّد بمعايير الجماعة هدفاً لإظهار الاختلاف عنهم، وبالتالي إعطاء هويّة ذاتيّة للفرد تتميّز عن الآخرين. إنّ عملية الاختلاف هذه تحدّث عنها فيبلين وعبر عنها بمصطلح التّكبّر (Tian, 2001, pp. 20-66).

### 2.9 دور العادات والتّقاليد في الدّفع نحو الاستهلاك

اختلف العلماء والباحثون في استعمال مفهوم العادات والتّقاليد فهناك من يجمع بين العادات والتّقاليد على أنّهما مفهوم واحد وهناك من يميّز بينهما بحيث يدرس العادات لوحدها والتّقاليد لوحدها.



## ■ العادات

«العادة الاجتماعية هي كل سلوك متكرر يُكتسب اجتماعيًا ويُتعلّم اجتماعيًا، ويرى إدوارد سابير (Edward Sapir) أنّ العادة الاجتماعية مصطلح يستعمل للدلالة على مجموع الأنماط السلوكية التي تحتفظ بها الجماعة وترسمها تقليدياً (by tradition) وهذا يميزها عن النشاطات التي يقوم بها الفرد. فالعادات الاجتماعية بإجماع علماء الاجتماع هي الدعائم الأولى التي يقوم عليها التراث الثقافي في كل بيئة اجتماعية... وهي الأصول الأولى التي استمدت منها النظم والقوانين مادتها، كما أنّها القوى الموجهة لأعمال الأفراد وحياتهم» (دياب، 1966، الصفحات 108-104).

## ■ التقاليد الاجتماعية

هي أنماط من السلوك تتضمن القيم الذاتية التي تعترّ بها الجماعة، كما تتضمن أنواعاً من التفكير والتصورات والمعتقدات الخاصة بها والسائدة فيها التي تنتقل بينها من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل (شكري، 2002، صفحة 300).

والتقليد يهتم بمجمل التصرفات وأنماط السلوك التي تتجلى في مناسبات معينة اجتماعية كانت أو دينية؛ وبمعنى أعمّ وأشمل المناسبات الشعبية، ويتصرف إزاءها بمخزون ثقافي مستمد من تراث يؤمن بالتواصل بين الماضي والحاضر فيغتني بتراكمات تشكل مجموعها تراث المستقبل. (عطية، 1996، صفحة 29).

إنّ غالبية اللبنانيين يواجهون عبئاً بسبب الإنفاق المتزايد في المناسبات إلا أنهم يرفضون التخلّي عن العادات والتقاليد التي تتسبب في زيادة الإنفاق والاستهلاك في هذه المناسبات، ومؤشره السوسولوجي أنّ هذه العادات والتقاليد إلى جانب تحليها بسمّة العطاء ومحاولة تقديم ماهو مادّي ومعنويّ خير دليل على المحبة، إذ تشكل عاملاً مهماً لتقوية العلاقات الاجتماعية، وجامعاً، ليس فقط للجماعات التي تتشابه فيما بينها من حيث الانتماء الدينيّ أو الطائفيّ، بل تتعدى الاختلاف الدينيّ والطائفيّ لتحلّ أجواء العيد على المجتمع ككلّ، فيشعر الجميع بفرحة حلول عيد الميلاد ورأس السنة، كما يشعر الجميع ببركة حلول شهر رمضان المبارك، فيهيؤون للأعياد حسب قدرتهم الشرائية من جهة وقناعتهم بمدى الإنفاق والاستهلاك من جهة أخرى، وذلك كلّ تحت

تأثير مقومات عدّة مثل المستوى التعليمي والمهنة والمركز الاجتماعي... فتؤدّي دورًا في الدّفع أو التّأني بمسئوى الاستهلاك.

وعليه، فإنّ الإنفاق في هذه المناسبات وإن سبّب عبئًا على الفرد وعلى اقتصاد الأسرة إلا أنّ العادات والتقاليد الاستهلاكية التي تتسم في هذه المناسبات هي أقوى من أن يتخطّاها الفرد.

### 3.9 المكانة الاجتماعية

تعبّر المكانة بحسب علم الاجتماع، عن الوضع الذي يشغله الشّخص أو الأسرة أو الجماعة القرابية في النّسق الاجتماعيّ بالنّسبة إلى الآخرين، وقد يحدّد هذا الوضع الحقوق والواجبات وأنواع السلوك الأخرى بما في ذلك طبيعة ومدى العلاقة بأشخاص آخرين لهم مكانات مختلفة.

وتحدّد المكانة الاجتماعيّة بالمسئوى التعليمي والدّخل والممتلكات والتّقويم الاجتماعيّ للمهنة وبعض الأنشطة الأخرى في المجتمع.

كما عرّف رالف لينتون Ralph Linton المكانة، ويعني بها وضع الفرد في المجتمع، وحدّده بأنّه مجموعة الحقوق والالتزامات، وهذه المكانة هي التي تحدّد دور الفرد في مجتمعه (غيث، 1989، صفحة 47).

ومن خلال المقابلات التي أجريت مع أصحاب متاجر الحلويات في المدن مثل مدينة صيدا والقرى مثل العباسية فقد تبين لدينا أنّه في بعض المناسبات مثل شهر رمضان ورأس السنة يُقبل على شراء أنواع معيّنة من الحلويات تنفرد بها هذه المناسبات ولا تُصنع في باقي أيام السنة، وعلى الرّغم من ارتفاع سعرها نتيجة ارتفاع تكلفتها المرهونة بتقلّبات سعر الصرف ما زال الإقبال على شراء هذه الأنواع من الحلويات موجودًا، وهذا مؤشر على أنّ المناسبات الاجتماعيّة تتسم بعادات وتقاليد استهلاكية لا يمكن تخطّيها؛ ولكن، هل لهذه السلوكيات الاستهلاكية في المناسبات الاجتماعيّة أعباء على اقتصاد الأسرة؟ هذا ما سنبينه في الجدول التّالي.

جدول 6: توزع أفراد العينة وفق تصريحهم بوجود عبء على اقتصاد الأسرة بسبب الأعياد وتبعاً لتخطيهم العادات والتقاليد

| نعم<br>لا | وجود العبء على اقتصاد الأسرة بسبب المناسبات |       |        | المجموع |
|-----------|---------------------------------------------|-------|--------|---------|
|           | أحياناً                                     |       |        |         |
| نعم       | 4                                           | 0     | 4      | 8       |
|           | 50.0%                                       | 0.0%  | 50.0%  | 100.0%  |
|           | 1.0%                                        | 0.0%  | 1.0%   | 1.9%    |
| لا        | 180                                         | 164   | 60     | 404     |
|           | 44.6%                                       | 40.6% | 14.9%  | 100.0%  |
|           | 43.7%                                       | 39.8% | 14.6%  | 98.1%   |
| المجموع   | 184                                         | 164   | 64     | 412     |
|           | 44.7%                                       | 39.8% | 100.0% |         |
|           | 44.7%                                       | 39.8% | 100.0% |         |

المصدر: العمل الميداني الذي نفذته الطالبة بتاريخ 15 كانون الأول 2019

بعد أن تبين لنا سابقاً أنّ الاستهلاك يتضاعف في الأعياد والمناسبات لدى مختلف الفئات، كان لا بدّ من الرّبط بين إمكانية تخطّي العادات والتقاليد المصاحبة لإحياء هذه المناسبات التي تتسم بالإنفاق الذي يُثقل كاهل الأسرة وتبعاتها على اقتصاد الأسرة.

يُظهر الجدول (6) أنّ 44.7% من إجماليّ أفراد العينة أفادوا بوجود عبء على اقتصاد الأسرة بسبب المناسبات. وقد توزّعت هذه النسبة وفق مدى إمكانية تجاوز العادات والتقاليد المرتبطة بالمناسبات، إذ أعرب 43.7% عن رفضهم لتخطّي هذه العادات لما لها من رمزيّة في توطيد العلاقات الإنسانية، سواء على المستوى الأسريّ أم الاجتماعيّ، في حين رأى 1% أنّه يمكن تجاوزها حفاظاً على توازن اقتصاد الأسرة.

وهناك 39.8% من إجماليّ أفراد العينة أفادوا أنّه لا يوجد عبء على اقتصاد الأسرة بسبب المناسبات وما يرافقها من أنماط استهلاكيّة، وانحصرت هذه النسبة جميعها في

رفضها لتخطّي هذه العادات والتقاليد الإنفاقية من أجل توازن اقتصاد الأسرة.

في حين إنّ 15.5% من إجمالي أفراد العينة أفادوا أنّه يوجد -أحياناً- عبء على الأسرة بسبب هذه المناسبات، وتوزّعت بين 14.6% رفضوا تخطّي هذه العادات والتقاليد، و 1% أبدوا رغبتهم في تخطّي هذه العادات والتقاليد التي تسبّب عبئاً نتيجة الإنفاق في المناسبات.

استناداً إلى ما سبق، نرى أنّ غالبية أفراد العينة أفادوا أنّه يوجد عبء بسبب الإنفاق المتزايد في المناسبات، وأيضاً أفادوا أنّ له تأثيراً في اقتصاد الأسرة إلاّ أنّهم رفضوا التخلّي عن العادات والتقاليد التي تتسبّب في زيادة الإنفاق والاستهلاك في هذه المناسبات، ومؤشّره السوسيولوجي أنّ هذه العادات والتقاليد إلى جانب تحليها بسمّة العطاء ومحاولة تقديم ما هو مادي ومعنوي خير دليل على المحبة، إذ تشكّل عاملاً مهماً لتقوية العلاقات الاجتماعية، وجامعاً، ليس فقط للجماعات التي تتشابه فيما بينها من حيث الانتماء الديني أو الطائفي، بل تتعدّى الاختلاف الديني والطائفي لتحلّ أجواء العيد على المجتمع ككلّ.

وعليه، فإنّ الإنفاق في هذه المناسبات وإن سبّب عبئاً على الفرد وعلى اقتصاد الأسرة إلاّ أنّ العادات والتقاليد الاستهلاكية التي تتسم في هذه المناسبات هي أقوى من أن يتخطّاها الفرد وهذا بالتّحديد ما أوضحتها نتائج هذا الجدول.

وإذ نرى أنّ الأسر اللبنانية تحرص على التقيّد بمعايير الجماعة من حيث نوع الضيافات والتّجهيز للأعياد، فلا ترضى أن تكون دون المستوى الاجتماعي للمحيطين بها، وتطمح في تقديم كلّ ما هو مميّز عن الآخرين وكلّ ما يتمتّع بمواصفات ودلالات طبقية. ويسعى أفراد الأسر، خاصّة خلال فترة الأعياد، إلى إظهار مكانة اجتماعية مرموقة، ليس فقط عبر ممتلكاتهم الماديّة الفخمة من أثاث منزل أو سيارة أو هاتف محمول وملابس، بل أيضاً عبر ما يقدّمونه للزوّار من ضيافة ووجبات وإكسسوارات وزينة... تتسم كلّها بعلامات تجارية مرموقة ومعروفة تشير إلى أسعارها المرتفعة، وذلك استدلالاً على قدرتهم الشرائية العالية، فيؤدّي إلى زيادة في الإنفاق خلال الأعياد والمناسبات الاجتماعية.

من هنا نستنتج وجود علاقة بين الاهتمام بالمكانة الاجتماعية وبين الميل نحو الاستهلاك، مما يؤكد الفرضية الأولى التي تنصّ على أنه: يوجد علاقة طردية بين الاهتمام بالمكانة الاجتماعية وبين ميل الأسرة نحو الاستهلاك خلال الأعياد.

## 9. العوامل الديمغرافية والاقتصادية المؤثرة في الاستهلاك الأسري

ينعكس الوضع الاقتصادي للفرد على اختياره للسلعة؛ وبالتالي على نمط استهلاكه، وهناك عدد من المتغيرات التي تحدّد المستوى الاقتصاديّ إمّا على مستوى الفرد (محدّدات استهلاك الفرد) وتشمل العمر والمستوى التعليمي ومستوى الدخل ونوع المهنة، وإمّا على مستوى الأسرة (محدّدات استهلاك الأسرة) وتشمل حجم الأسرة والمستوى التعليمي لربّ وربة الأسرة ومستوى دخل الأسرة ونوع مهنة ربّ وربة الأسرة.

### 1.10. العمر

مما لا شكّ فيه أنّ العمر يؤثّر على احتياجات الإنسان ورغباته وذوقه وحتى في طريقة شرائه للأشياء؛ فيختلف نمط الاستهلاك بين الأجيال بسبب اختلاف الاهتمامات والأذواق والحاجات، حيث تنجذب فئة الشباب إلى أنواع معيّنة من السلع والخدمات خاصة تلك التي تلقى رواجاً إعلامياً وقبولاً لدى الآخرين، فيما يرغب الأكبر سنّاً في الحصول على المنتجات التي تلبي حاجاتهم بشكل عمليّ.

فالأشخاص يغيّرون مشترياتهم خلال فترة حياتهم، ويرصد المسوّقون هذه التغيّرات فيحدّدون السلع والمنتجات والخدمات في الأسواق تبعاً لكلّ فئة عمرية ويضعون الخطط الملائمة لها.

### 2.10. المستوى التعليمي

هناك علاقة وثيقة بين المستوى التعليمي للأفراد وبين مستوى الادّخار أو شكل الاستهلاك لديهم، إذ يؤثّر التعليم بصورة غير مباشرة في معدّلات نموّ الدخل القوميّ من خلال التأثيرات التي يتركها في معدّلات الادّخار وفي حجم الموارد التي تُخصّص للاستهلاك والاستثمار؛ ولهذا تعدّ النماذج التي تُستخدم في قياس معدّلات نموّ الدخل القوميّ استناداً إلى مؤشّرات الادّخار وترشيد الاستهلاك نماذج صالحة لبيان دور التعليم في النموّ الاقتصاديّ استناداً إلى هذين المؤشّرين، بعد أن يُحدّد دور التعليم في التأثير

في معدلات الادّخار وشكل الاستهلاك، ويتطلّب هذا التّحديد إجراء دراسات تكشف عن مدى التأثير الذي يتركه المستوى التعليمي للأفراد والمجتمع في حجم الادّخار وفي صيغ الاستهلاك (سلامة، 2010، ص. 112).

كما يؤثّر التّحصيل العلميّ على النّزعة الاستهلاكيّة، من حيث القدرة الذهنيّة على تحديد أولويّات الصّرف الشّهريّ، وحساب كافيّة التّكاليف والأعباء الشّهريّة التي تقع على عاتق الأسرة، ومن حيث درجة التّأثر بالعروض الاستهلاكيّة والمؤثّرات التّسويقيّة والدّعائيات والإعلانات، ومن حيث درجة استيعاب برامج ترشيد الاستهلاك؛ ليكون اقتناؤه للسّلع حسب الحاجة الفعلية لها.

### 3.10. الدّخل

إنّ مقدار دخل الإنسان يؤثّر على نوعيّة مشتريّاته ومعدّلات صرفه على الضّروريّات والكماليّات، فالأغنياء لهم أولويّات في مشتريّاتهم تختلف عن أولويّات الشّراء لدى ذوي الدّخل المحدود.

فالدّخل هو تلك الموارد الماليّة الممنوحة للفرد التي تمكّنه من شراء مختلف السّلع والخدمات، ويحدّد نصيب الفرد من الدّخل بحاصل قسمة الدّخل القوميّ الإجماليّ على عدد السكّان الكلّي داخل الدّولة. وتعدّ معرفة دخل المستهلك أمر أساسيّ ومهمّ في دراسة وتحديد العمليّة الاستهلاكيّة، وقد نجد تعدّدًا في المداخل الماليّة للمستهلك كالراتب النّاتج عن العمل الذي يزاوله الفرد كالمعاش والمكافآت... أو الثروة التي يملكها من خلال امتلاك بعض الأراضي (عون، 1985).

وبالعودة إلى إحياء المناسبات الاجتماعيّة في لبنان، نجد أنّ للهدايا أهميّة رمزيّة لدى الأسر اللّبنانيّة، فالكلّ يسعى إلى تقديم الهدايا في الأعياد، على الرّغم من الضّائقة الاقتصاديّة، حتّى لو اضطرّ إلى الاستدانة أو تحصيل قرض من العمل.

وتلجأ العديد من الأسر إلى الاعتماد على عمل الزوجة بشكل أساسيّ؛ لسدّ العجز في قدرة الأسرة على الإنفاق، وثانيًا على الاستدانة أو طلب القروض، ولا يقف حدّ الاستدانة لتأمين الحاجات الضّروريّة، بل يتعدّاه كذلك لتلبية مستلزمات الأعياد. هذا وقد تبين أنّ الأسر اللّبنانيّة يكثر استهلاكها بالدرّجة الأولى خلال شهر رمضان المبارك وفي عيد

الأم، وبالدرجة الثانية في عيد الميلاد ورأس السنة.

بالتالي، نجد أن الدخل الشهري للأسرة يؤدي دوراً أساسياً في تحديد نمط استهلاك الأسرة، حيث كلما ارتفعت قيمة الدخل ارتفع مستوى الميل نحو الاستهلاك. فتأكد لدينا الفرضية الثانية التي تنص على أن: هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين قيمة الدخل الشهري ونمط الاستهلاك لدى الأسرة في محافظة لبنان الجنوبي خلال الأعياد.

#### 4.10. المهنة

تعد مهنة الفرد من العناصر الشخصية المؤثرة في نمط استهلاكه، وهي تدخل ضمن محدّدات مكانة الفرد الاجتماعية، فالمهنة لها تأثير في سلوك المستهلك الشرائي وعلى النزعة الاستهلاكية لديه، فعندما يقرّر شراء سلعة معينة فهذا يعود إلى شعوره بالحاجة إلى هذه السلعة التي تتلاءم مع طبيعة عمله (حسين، 2000، صفحة 306).

إن الاحتفال بالأعياد يتطلب تجهيز أنواع معينة من الضيافات تختلف من عيد لآخر، إلا أنه توجد أنواع معينة من الضيافات هي أساسية ورئيسة مثل السكاكر والشوكولا مثلاً إلا أن ما يتحكم بهذه الضيافة هي النوعية المجهزة للتقديم، وهذه تخضع للمكانة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد والتي تحددها متغيرات عدة منها متغير المهنة.

وبتزايد الإنفاق كلما اتسعت رقعة المعارف التي يفرضها النوع الوظيفي للأفراد أو المهنة، إذ إن أصحاب المهن الحرة والموظفين في قطاع الخدمات هم الفئتان اللتان يزداد لديهما الإنفاق في المناسبات؛ لأنهم يتخطون الاحتفال بالمناسبات العائلية إلى الاحتفال بالمناسبات الخاصة بالمعارف والأصدقاء، فيزداد مستوى الإنفاق لديهم، كذلك لا يجب أن نغفل عن دور الدخل الذي يمنح أصحاب هذه المهن قدرة شرائية؛ إذًا، هناك علاقة قائمة بين الإنفاق في المناسبات والأعياد وتقديم الهدايا والمهنة التي تحدّد ضمناً المكانة الاجتماعية للفرد.

وليس الاهتمام بالمكانة الاجتماعية وحده ما يدفع أفراد الأسرة إلى زيادة إنفاقهم على السلع والخدمات خلال الأعياد والمناسبات، بل تبين أن المستوى التعليمي يحتم على الفرد زيادة في الاستهلاك، إذ كلما ارتفع المستوى التعليمي ارتفع استهلاك الأجهزة الإلكترونية من هواتف ولابتوب وأدوات لم تعد ضمن خانة الكماليات بل أصبحت من

الأساسيات. كما أنّ ارتفاع المستوى التعليمي يزيد من رغبة الفرد في شراء المنتجات الأجنبية المستوردة، فتبين أنّ لدى اللبناني ولع بكلّ ما هو مستورد من الخارج من أنواع أطعمة وألبسة وأدوات إلكترونية وعطورات وأكسسوارات.

والى جانب المستوى التعليمي، تعدّ المهنة من مقومات المكانة الاجتماعية، فعلى اختلاف أنواع المهن التي يمارسها اللبنانيون، يحرص الجميع على تجهيز ضيافة مميزة للأعياد إلا أنّ العاملين في قطاع المهن الحرة كان لديهم القدرة المالية على تحضير الضيافات وشراء الهدايا للأولاد والأهل والأصدقاء من دون أن يرتفع مستوى العبء الاقتصادي لديهم، عكس أحوال العاملين في القطاع العام.

ويؤدّي عمل المرأة دوراً هاماً في زيادة مستوى الإنفاق الأسريّ في الأعياد والمناسبات، حيث يسهم في توسيع دائرة تقديم الهدايا وتنوّع الضيافة ومصادرها.

وبالتالي، يمكن استنتاج تأثير متغيّر مهنة الفرد في نمط الاستهلاك الأسري، فتتأكد الفرضية الثالثة التي تنصّ على أنّ: هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين نوع المهنة ونمط الاستهلاك الأسريّ خلال الأعياد.

#### 10. تأثير وسائط التواصل الاجتماعيّ في الاستهلاك الأسريّ

تمتلك وسائط التواصل الاجتماعيّ نفوذاً قوياً ومباشراً على الأفراد، حيث لديها القدرة على تغيير الاتجاهات والسلوك والآراء والميول بما يتناسب مع سياسات المستخدم والمتلقّي، وبيّن أصحاب هذه النظرية اعتقادهم على بعض الافتراضات النفسية والاجتماعية المستمدة من علم النفس والاجتماع السائدة، ففي المجال النفسيّ ساد الاعتقاد أنّ الجمهور تحرّكه عواطفه وغرائزه التي ليس بمقدوره السيطرة عليها بشكل إراديّ، فإذا استطاعت وسائط التواصل الاجتماعيّ إعطائهم معلومات تخاطب غرائزهم، فإنّهم سيبتأثرون مباشرة بها، ولعلّ الاستهلاك أحد أوجه هذا التأثير، حيث إنّ المتلقّين هم الجمهور، يتلقّون كمّاً كبيراً من المثيرات والمغريات خاصة أنّ وسائط التواصل الاجتماعيّ أصبحت منصّات إعلامية وإعلانية، أتاحَت إمكانية انتقال الفرد إلكترونياً من متلقٍ إلى صانع المعلومة ومسوّقها، كما أنّ ما حدث من ثورات عربية دليلاً على أهميّة ومكانة هذه الوسائط في مجريات الأحداث.



أما في الجانب الاجتماعي، فقد ساد الاعتقاد أنّ الأفراد في المجتمعات الجماهيرية هي مخلوقات معزولة عن بعضها بعضاً نفسياً واجتماعياً، ولا توجد روابط قوية تجمعهم؛ لذا هم فريسة سهلة لا يوجد من يحميها من وسائط التواصل الاجتماعي (حلمي، س، 2003، صفحة 39).

وهكذا تكون وسائط التواصل الاجتماعي قوية جداً وقادرة على توجيه الآراء والاتجاهات على خلاف ما كانت عليه، فبال تكرار والإشارة يكون الفرد أمام مواجهة شرسة، وتكون أمامه عوائق متنوعة؛ فإما أن ينتصر على ذاته وإما أن تكون العوامل الاجتماعية والثقافية والمادية قد تغلبت عليه، والأمثلة كثيرة عما أحدثته وسائط التواصل الاجتماعي بالحياة الأسرية بالعلاقات الاجتماعية، فكما أنّها أصبحت مجتمعا موازيا للمجتمع الواقعي، فإنه يحقّ لها كما يحقّ له، وهذا الحقّ يكون على حساب التواجد في المجتمع الواقعي، «لهذا السبب تكون وسائط الإعلام الحديثة قوية من جانب الاستهلاك وما تعرفه من تفاخر وثقافات مختلفة تتأثر بها الجماهير الإلكترونية وخاصة جمهور النساء». (حلمي، س، 2003).

أوجدت وسائط التواصل الاجتماعي نمطاً تسويقياً جديداً وهو التسوّق أون لاين، ولم يعد التسوّق التقليدي هو نمط التسوّق الوحيد الموجود أي ذلك الذي يتطلب من الفرد النزول إلى الأسواق والمراكز التجارية من أجل التّبضع.

إنّ التسوّق عبر وسائط التواصل الاجتماعي والتسوّق الأونلايني أصبح أكثر استخداماً عقب إجراءات الإغلاق التّام لكافة المحالّ والمراكز التجارية التي فرضتها جائحة كورونا، فأوجد ذلك الحاجة إلى التسوّق الأونلايني من أجل تأمين السلع الاستهلاكية إلّا أنّ وسائط التواصل الاجتماعي أدّت دوراً مهماً ومؤثراً في تحديد أنواع السلع، إذ إنّها وسائط تسويقية بامتياز، وذلك من خلال إمكانية توفير عرض المنتج وعرض مواصفاته بطريقة جذابة وملفتة، أضف إلى ذلك أنّ العرض الدائم والمستمرّ على مختلف هذه الوسائط من شأنها أن تدفع الفرد لشرائها حتّى لو لم تكن هناك حاجة ماسة إليها؛ وبالتالي، فإنّ متابعة وسائط التواصل الاجتماعي من شأنها أن تزيد من نسبة الاستهلاك وخاصة لما توفّره من خدمة توفير الوقت في التسوّق وفي إيصال السلع المستهدف شراءها.

كما أنّ التسوّق عبر وسائط التّواصل الاجتماعيّ من شأنه أن يزيد السلوك التّفاخريّ لدى المتسوّقين من خلال عرض السّلع التي تسوّقوها، والتّباهي بها على الصّفحات الخاصّة لوسائط التّواصل الاجتماعيّ؛ من هنا، فإنّ وسائط التّواصل الاجتماعيّ لا تؤثر فقط في خيارات السّلع بل تشكّل عاملاً دافعاً لاقتنائها، خاصّة أنّ الإعلان له دور مؤثّر من خلال التّرويج المستمرّ لسلع معيّنة في شرائها.

إذاً، استطاعت وسائط التّواصل الاجتماعيّ توفير ومنح المستهلك المزيد من السّلع والخدمات لإشباع حاجاته الماديّة إلّا أنّ هذا الإشباع للحاجات الماديّة كان له أثر على الشّقّ النفسيّ الذي أثقلته التكاليف الماديّة، خاصّة إذا رُبط بين النّتائج التي تّوصلنا إليها مسبقاً وهي الأعباء الاقتصاديّة على الأسرة والفرد معاً الذي سبّبه الضّغط الاجتماعيّ الفارض لنمط حياة أوجب الفرد الالتزام به، وإلّا فسيبقى الشّعور الدائم بالإحباط نتيجة التّفاوت والفوارق الاجتماعيّة والانتماءات الطبقيّة التي بلغت درجة صارخة، والخوف من عدم القدرة على الحصول على هذه المنتجات والسّلع، وهو خوف يرتبط بدوره بعدم الاستقرار النّاجم عن غياب الأمن الوظيفيّ في ظلّ الوضع الاقتصاديّ المتردّي الذي نعيشه.

من هذا المنطلق، هدفتُ إلى الكشف عن تأثير وسائط التّواصل الاجتماعيّ في سلوك المستهلك اللّبنانيّ في محافظة لبنان الجنوبيّ أثناء الأعياد. ولتحقيق ذلك، جرى البحث في أكثر هذه الوسائط متابعَةً عند اختيار الهدايا من جهة، وفي مدى متابعة الإعلانات عبرها من جهة أخرى، فجاءت النّتائج على النحو الآتي:

جدول 7: توزع أفراد العينة وفق متابعتهم للإعلانات على وسائط التواصل الاجتماعي لاختيار الهدايا وتبعاً لأكثر الوسائط متابعة

| المجموع | توزّع المبحوثين حسب متابعة الإعلان على<br>وسائط التّواصل لاختيار الهدايا |       |        | نعم<br>لا           |                                |                                                               |  |
|---------|--------------------------------------------------------------------------|-------|--------|---------------------|--------------------------------|---------------------------------------------------------------|--|
|         |                                                                          |       | احيانا |                     |                                |                                                               |  |
| 4       | 0                                                                        | 0     | 4      | التكرار             | غوغل                           | أكثر وسائط<br>التّواصل<br>الاجتماعي متابعة<br>لاختيار الهدايا |  |
| 100.0%  | 0.0%                                                                     | 0.0%  | 100.0% | النّسبة<br>المئويّة |                                |                                                               |  |
| 1.0%    | 0.0%                                                                     | 0.0%  | 1.0%   | المجموع             |                                |                                                               |  |
| 140     | 16                                                                       | 0     | 124    | التكرار             | فايس بوك<br>وإنستغرام<br>وغوغل |                                                               |  |
| 100.0%  | 11.4%                                                                    | 0.0%  | 88.6%  | النّسبة<br>المئويّة |                                |                                                               |  |
| 34.0%   | 3.9%                                                                     | 0.0%  | 30.1%  | المجموع             |                                |                                                               |  |
| 164     | 18                                                                       | 0     | 146    | التكرار             | فايس بوك<br>وإنستغرام          |                                                               |  |
| 100.0%  | 11.0%                                                                    | 0.0%  | 89.0%  | النّسبة<br>المئويّة |                                |                                                               |  |
| 39.8%   | 4.4%                                                                     | 0.0%  | 35.4%  | المجموع             |                                |                                                               |  |
| 104     | 5                                                                        | 95    | 4      | التكرار             | لا أتابع<br>الإعلانات          |                                                               |  |
| 100.0%  | 4.8%                                                                     | 91.3% | 3.8%   | النّسبة<br>المئويّة |                                |                                                               |  |
| 25.2%   | 1.2%                                                                     | 23.1% | 1.0%   | المجموع             |                                |                                                               |  |
| 412     | 39                                                                       | 95    | 278    | التكرار             | المجموع                        |                                                               |  |
|         | 100.0%                                                                   | 9.5%  | 23.1%  | 67.5%               | النّسبة المئويّة               |                                                               |  |
|         | 100.0%                                                                   | 9.5%  | 23.1%  | 67.5%               | المجموع                        |                                                               |  |

المصدر: العمل الميداني الذي نفذته الطالبة بتاريخ 15 كانون الأول 2019

يبيّن الجدول (7) توزع أفراد العينة وفق متابعتهم لوسائط التواصل الاجتماعي بهدف اختيار الهدايا، ومدى تأثير هذه الوسائط في متابعة الإعلانات. وقد تبين أن 67.5% من إجمالي أفراد العينة يتابعون الإعلانات المعروضة عبر هذه الوسائط لاختيار هداياهم. وتوزعت نسب المتابعة على النحو الآتي: 88.6% يتابعون كلاً من

فايسبوك وإنستغرام وغوغل معاً، و 35.4% يتابعون فايسبوك وإنستغرام فقط، في حين يتابع 1% غوغل وحده، وهي النسبة نفسها التي لا تتابع الإعلانات على الإطلاق عبر وسائط التواصل الاجتماعي.

وهناك 23.1% من إجمالي العينة أجابوا بأنهم لا يتابعون وسائط التواصل الاجتماعي بهدف اختيار هداياهم من خلال الإعلانات التي تُعرض على هذه الوسائط، وقد انحصرت هذه النسبة في الخيار الذي لا يتابع الإعلانات أبداً فيما يخص أكثر المواقع تفضيلاً في اختيار وسائط التواصل الاجتماعي.

كما أنّ 9.5% من إجمالي أفراد العينة أجابوا أنهم أحياناً يتابعون الإعلانات المعروضة على وسائط التواصل الاجتماعي من أجل اختيار الهدايا، وتوزعت هذه النسبة وفق مواقع التواصل الاجتماعي الأكثر متابعةً على النحو الآتي: 3.9% للذين يتابعون فايسبوك وإنستغرام وغوغل معاً بهدف اختيار الهدايا، و 4.4% للذين يتابعون فايسبوك وإنستغرام فقط، و 1.2% للذين لا يتابعون الإعلانات على الإطلاق عبر وسائط التواصل الاجتماعي.

من خلال هذه النسب المئوية يتبين لدينا أنّ معظم أفراد العينة من الذين أجابوا بـ «نعم + أحياناً» أي (67.5% + 9.5% = 77%) هم من الذين يتابعون مواقع التواصل الاجتماعي من أجل اختيار الهدايا ويتأثرون بالإعلانات المعروضة على هذه الوسائط، وهذا مؤشر مهمّ على تحوّل سلوك التسوّق من التقليديّ إلى التسوّق الإلكترونيّ، فالشبكة العنكبوتية قد أوجدت لنا عالماً افتراضياً تتوافر فيه كافة الوسائط ليس فقط لبناء علاقات اجتماعية افتراضية أو للتعبير عن الرّأي، بل أيضاً للتأثير في السلوك الاستهلاكيّ والتسوّق، من خلال تقديم معلومات وافية عن المنتج المُسوّق له وتأمين خدمة التوصيل إلى المنزل دون تكبد المعاناة في الذهاب إلى الأسواق على أرض الواقع واستهلاك الوقت في عملية البحث عن هدية مناسبة بل يمكنك بـ «كبسة زرّ» الوصول إلى كافة مواصفات المنتج؛ وبالتالي اختياره إن أعجبت به.

لذلك، نرى أنّ وسائط التواصل الاجتماعيّ تؤدي دوراً في تحديد خيارات المستهلك، من خلال عامل الإعلان، إذ يتابع اللبنانيون مواقع التواصل الاجتماعيّ لاختيار هدايا العيد وأنواع الضيافات الخاصة بالأعياد والمناسبات على اختلافها، ويتأثرون

بالإعلانات الخاصة فيها، وهذا مؤشر مهمّ على تحوّل السلوك الاستهلاكيّ من التسوّق التقليديّ إلى التسوّق الإلكترونيّ؛ فتتأكّد الفرضيّة الرّابعة التي تنصّ على أنّ: أفراد الأسرة المتابعين للإعلانات على مواقع التّواصل الاجتماعيّ هم الأكثر خضوعاً وتوجّهاً نحو الاستهلاك خلال الأعياد.

إنّ ما سبق ذكره دلّنا على تأثير بعض العوامل الاجتماعيّة والاقتصاديّة والديموغرافيّة في نمط استهلاك الأسرة خلال فترة الأعياد؛ ولكن هل لهذا الاستهلاك تأثير في مستوى التّثنية الاجتماعيّة والاقتصاديّة؟ سنجيب عن هذا السّؤال في ما يلي حيث سنعرّف على تأثير هذا المفهوم في استهلاك الأسرة خلال الأعياد.

### 11. أثر الاستهلاك الأسريّ في التّثنية الاجتماعيّة والاقتصاديّة

إنّ التّثنية الاجتماعيّة هي العمليّة التي يقوم بها الأفراد أو الحكومات أو كليهما في محاولة لاستغلال الطّاقات والإمكانيّات في المجتمع في سبيل تحقيق رفاهيّة الأخير، أمّا العلاقة بين التّثنية الاجتماعيّة والاقتصاديّة فتتمثّل في حاجة التّثنية الاجتماعيّة للاقتصاديّة؛ فعن طريقها يُمكن الحدّ من الفقر وزيادة الدّخل والإنتاج وغيرها؛ وبالتالي، الوصول إلى تحسين التّثنية الاجتماعيّة، وذلك عبر رفع مستوى الاستهلاك.

#### 1.12 أثر الاستهلاك الأسريّ في التّثنية الاجتماعيّة

من المشاهد المتناقضة في لبنان، صور المتسوّلين وأنين العائلات المحتاجة وصرخات الموظّفين الذين تآكلت قيمة رواتبهم نتيجة انهيار قيمة العملة الوطنيّة، يقابلها صور المطاعم والحفلات المكتنّزة بالرّواد، ومحلّات الألبسة الفاخرة التي تغصّ بالزبائن، وكذلك صور الآباء الذين يعجزون عن شراء الحطب والمحروقات لتدفئة أبنائهم أو الاشتراك، ولو بأمبر واحد، في مولّد خاصّ لكسر ظلام اللّيل، في حين ينعم آخرون وعائلاتهم بتدفئة مركزيّة وتيار كهربائيّ على مدار السّاعة، أمّا الاستشفاء في لبنان فيتطلّب أن تكون من أصحاب الثّروات، أو أن تتمكّن من تأمين الفاتورة الاستشفائيّة من المحسنين في لبنان وخارجه.

وفي نتيجة لم تفاجئ اللبنانيين، تصدّرت العاصمة اللّبنانيّة بيروت التّرتيب في مؤشر كلفة المعيشة العالميّ الذي يصدره موقع «ناميبو» للإحصاءات، كأعلى مدينة عربيّة

(تبعته دبي والدوحة)، وذلك لدى مقارنة مستوى الأسعار فيها بالأسعار في مدينة نيويورك، حيث بلغ مؤشر كلفة المعيشة فيها 80.30، وحلّت في المرتبة الأخيرة على صعيد مؤشر نوعيّة الحياة ضمن المدن العربيّة المشمولة بهذا المؤشر بنتيجة 56.80.

هذا وقد أصبح الشعب اللبناني مقسّمًا إلى ثلاث فئات، فئة الأغنياء التي تشكل 25%، ولديها قدرة كبيرة على الإنفاق ولهذا السبب زاد استهلاكها، فهي لم تتأثر بالأزمة الاقتصادية التي تشهدها البلاد، وفئة المسحوقين أي من هم تحت خط الفقر، وهي تشمل ما نسبته 25% من الشعب اللبناني، في حين إنّ 50% من اللبنانيين لا يزال لديهم القدرة على تأمين معيشتهم وشراء حاجياتهم، من دون الدّخول في نظرية المؤامرة وعملّيات التهريب فيما يتعلّق بارتفاع حجم الواردات.

هذا التناقض في نمط الاستهلاك خلال الأزمة الاقتصادية التي تشهدها البلاد هي محطّ تساؤل، فمع وجود العديد من التقارير والدراسات التي أكّدت ارتفاع نسبة الفقر، نرى أنّ الممارسات الاستهلاكية خاصّة في الأعياد والمناسبات الاجتماعية تتناقض مع نتيجة هذه التقارير، إذ تشهد الأسواق والمحالّ التجاريّة الكبرى زحمة كبيرة، كما تمتلئ المطاعم بروّادها، على الرغم من ارتفاع أسعار جميع أنواع السلع الغذائيّة وغيرها.

يقول السيّد شكري فاخوري صاحب مطعم في مدينة صور، يتميّز بتقديم طبق بحريّ تقليديّ، «أنّ وضع المطعم كان ممتازًا قبل الثّورة. وقد واجه صعوبات كثيرة خلال فترة الكورونا والأزمة الاقتصادية حيث أغلق المطعم أبوابه وتعدّر عليه تأمين رواتب الموظفين وتوفير إيجار المطعم. أمّا اليوم وبعد أن استعاد المطعم نشاطه المعتاد فزوّاره هم من أصحاب الطّبقّة المتوسطة، مع وجود استثناءات تمكّن أصحاب الطّبقّة الفقيرة من زيارته إذا دُعوا من قبل المغتربين؛ ولكنّ المطعم استعاد نشاطه وازدهاره على الرّغم من وجود الأزمات»<sup>1</sup>.

كما أخبرنا السيّد عمر حديد صاحب مطعم le phenicien، عن الوضع الصّعب الذي واجهه خلال فترة كورونا حيث «أغلق المطعم أبوابه مع استمرار دفع الرّواتب للموظّفين. وتجدر الإشارة إلى أنّ وضع المطعم عاد إلى التّحسّن بعد مرور أزمة الكورونا واعتياد المواطن على أزمة الدّولار، إذ استعاد ازدهاره المعتاد ونشاطه القويّ

1- مقابلة أجريت مع السيد شكري فاخوري، صاحب مطعم بحري في مدينة صور، بتاريخ 17 تشرين أول 2023.

الذي كان سائداً قبل الأزمة على الرغم من كونه مطعمًا لأصحاب الطبقة المخملية يقدم أطباقاً باهظة الثمن تحتاج مكونات موجودة في صور، وأخرى مستوردة كالأسماك والقريدس غير المتوفرة في لبنان، إضافة إلى بعض الخضار والفواكه المتميزة exotique الموجودة في بيروت. ويبلغ نشاط المطعم ذروته خلال فترات الأعياد وشهر رمضان وعيد رأس السنة، وخلال فصل الصيف حيث يتواجد السائحون والمغتربون في لبنان»<sup>1</sup>.

أما فيما يخصّ منتج ilBoutique فقد أخبرنا السيد يوسف حديد «أنّه يعتمد على قوة إدارته، حيث إنّ أسعار المنتج باهظة بسبب تأمين بيئة رفاحية عالية، وخدمات خمس نجوم. والمنتج لم يتأثر بأزمة كورونا إذ دعت الحاجة لاستمرار هذا النوع من العمل الذي يوفر الراحة للناس بل على عكس في فترة كورونا اشتغلنا بجنون. وما زال العمل مزدهراً ازدهاراً باهراً بعد مرور الأزمة ودخول البلاد في أزمت جديدة مع تصنيف المنتج كمناسب للطبقة الاجتماعية المخملية إذ يُحجز مسبقاً؛ لأنّ الطلب كبير، وخصوصاً في مرحلة الأعياد حيث نستعين بعمال غاية في الاحترافية والتميز، حيث يتطلب العمل، ومبادرة لتشجيع التنمية الاقتصادية في المنطقة»<sup>2</sup>.

نستنتج هنا، أنّ الأزمة الاقتصادية التي حلت على لبنان أثرت على طبقة محدّدة من المجتمع اللبناني، وهي الطبقة شديدة الفقر، أمّا باقي اللبنانيين، فيمكن تقسيمهم ما بين الأغنياء أصحاب الثروات الذين لم يتأثروا بتبعات الأزمة بشكل كبير، فاستمرّ نمط استهلاكهم الترفي، وأسهموا بإنعاش بعض القطاعات الخدمية، خاصة في مرحلة الأعياد والمناسبات الاجتماعية، أمّا القسم الآخر فهم اللبنانيون ممّن حالفهم الحظّ كونهم يحصلون على مرتباتهم بالعملة الأجنبية، أو ممّن يحصلون على أموال من ذويهم المغتربين.

هذه الفئة من المجتمع اللبناني هي التي شعرت بشيء من البهجة في بداية الأزمة الاقتصادية؛ لأنّ ارتفاع قيمة الدّخل لديهم مقابل انخفاض قيمة العملة الوطنية، كان أكبر من ارتفاع أسعار السلع، في بداية الأزمة، أي خلال ثمانية أشهر تقريباً، فساعدتهم ذلك على تحقيق شيء من الاستقرار المادي وارتفاع القدرة الشرائية لديهم، فشكّلوا بالتالي قوة مساعدة للأسواق التجارية ولقطاع الخدمات من مطاعم ومنتجات ومقاهي...

1- مقابلة أجريت مع السيد عمر حديد، صاحب مطعم le phenicien، بتاريخ 25 تشرين ثاني 2023.

2- مقابلة أجريت مع السيد يوسف حديد، صاحب منتج ilBoutique، بتاريخ 15 كانون ثاني 2023.

أسهمت في تحريك العجلة الاقتصادية وإبقاء حركات الاستيراد لمختلف البضائع والسلع حتى مع ارتفاع أسعارها.

اليوم، وقد دخلت الأزمة الاقتصادية في لبنان عامها السادس، من دون أيّ بصيص أمل للخلاص، في وقت بلغ الاحتقان الشعبيّ ذروته، ومع ذلك لم يترجم على الأرض إلّا من خلال تحركات خجولة في بعض المناطق لا تعكس صورة الثورة التي انطلقت في 17 أكتوبر 2019، حين تظاهر لبنانيّون في الشارع رفضاً لإقرار ضرائب جديدة، قبل أن تتوسّع دائرة الاحتجاجات؛ لتعمّ مختلف المناطق، ويرتفع سقف المطالب، من الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية، إلى رحيل ومحاسبة الطبقة السياسية، تحت شعار «كلّن يعني كلن».

عدّة انتقادات يوجّهها لبنانيّون إلى بعضهم بعضاً، فكلّ منهم يسأل الآخر عن أسباب صمته في الوقت الذي يجب فيه رفع الصوت وإعادة إحياء نبض الشارع مع تفاقم الأمور، لا سيّما مع وصول سعر صرف الدولار إلى رقم «جنونيّ»، فأسفر عنه من تضخّم طال كافة الأسعار والسلع، واتّسع رقعة البطالة والفقر وانسداد الأفق في ظلّ عدم انتخاب رئيس للبلاد وتشكيل حكومة لإدارة البلد.

## 12. أثر الاستهلاك الأسريّ في التنمية الاقتصادية

على الرّغم من الأزمة الاقتصادية التي حلّت في لبنان، نرى أنّ التقسيم الطبقيّ البارز الذي حلّ على المجتمع اللبنانيّ، أسهم من جهة في اختفاء الطبقة الوسطى، وفي ظهور طبقة من الميسورين الجدد من جهة أخرى، هذه الطبقة هي التي عملت على استمرار النشاط الاقتصاديّ من خلال الموارد المالية المتاحة لها (الدّخل الشهريّ بالعملة الأجنبيةّ، وأموال ذويهم المغتربين)، ما يفسّر الحركة التجاريّة النّشطة في الأسواق اللبنانيّة على الرغم من ارتفاع أسعار السلع وانخفاض قيمة العملة الوطنيّة بشكل جنونيّ.

وفي مقابلة أجريت مع السيّد أحمد حيدر صاحب محلّ حلويات في صور، قال «المحلّ يتميز بأنّه شعبيّ، يزدهر العمل فيه في فترات الأعياد حيث يكون الإقبال محصوراً بالفئات الشعبيّة الفقيرة التي ما زالت تُقبل على شراء الحلويات حالياً على الرّغم من الأزمات، مع انخفاض في أعداد الحلويات التي تقوم بطلبها. ولكنّ العمل مزدهر والمحلّ نشيط»<sup>1</sup>.

1- مقابلة أجريت مع السيّد أحمد حيدر، صاحب محل حلويات، بتاريخ 20 أيلول 2023.



كما قال السيّد جورج الخوري صاحب محلّ للحلويات في جزّين، أنّ عملهم يبلغ ذروته في فترات الأعياد وبالأخصّ الميلاد ورأس السنّة إذ يكون المصدر الأساسي للنشاط خلال فصل الشتاء «نحنّا اتكالنا عالأعياد». وقد أغلق المحلّ أبوابه خلال أزمة كورونا ومررنا بظروف قاسية إذ كنت مطالباً بدفع الإيجار في غياب العمل، ولكن في الفترة الأخيرة بدأت العمل من المنزل حتّى أتمكّن من الاستمرار. المحلّ تأثّر بالأزمة إذ كان مزدهراً قبلها، ولكنّه عاد إلى ازدهاره المعتاد الذي تأثّر مجدّداً ببلوغ الدّولار حافة الـ 50 ألفاً إذ خفّ الطّلب والشّراء حتّى من قِبل الطّبقة الميسورة التي أصبحت تكثفي بشراء حاجتها بكميّات قليلة».

ويقول السيّد محمّد نور الدّين مدير صالة Cremino، «أنّ نشاطهم في فترة الأعياد يبلغ ذروته كعيد الميلاد ورأس السنّة وخلال شهر رمضان وعيد الأضحى وعيد الحبّ وعيد الأمّ. وقد كان عمل المطعم مزدهراً قبل أزمة كورونا حيث إنّهُ توقّف عن العمل خلالها، إلّا أنّه استعاد نشاطه وازدهاره الآن وأصبح الإقبال عليه من قِبل الطّبقات الميسورة، فخلال فترات الأعياد نستعين بموظّفين جدد بسبب الضّغط الكثيف، أمّا عن الرّبونات فهي من جميع المناطق بما فيهم المغتربين والسّوّاح»<sup>1</sup>.

أمّا السيّد فادي الفنّز صاحب مطعم الشّلال في جزّين فيقول: «إنّ أعياد رأس السنّة والميلاد والأضحى وشهر رمضان هي الفترات التي يبلغ فيها العمل قمّة ذورته وازدهاره حيث يستعينون بأعداد كبيرة من العمّال. وهو يقوم بتأمين الطّعام من جزّين باستثناء اللّحوم حيث إنّ الكميّة الكبيرة التي يحتاجها غير متوفّرة في جزّين. أسعار هذا المطعم تتناسب الجميع، لذا فالإقبال القويّ مستمرّ حالياً على المطعم من قِبل جميع الفئات الاجتماعيّة، فزوّارنا من كافّة المناطق «عنّا زبونات دويمة وزبونات جديدة».

يمكن أن نستنتج هنا أنّه على الرّغم من الأزمة الاقتصاديّة التي حلّت على لبنان، ما زال قطاعا السّياحة والخدمات في إنتاجيّة مستمرة خاصّة خلال فترة الأعياد، وتسهم حركة النّشاط الاقتصاديّ في هذين القطاعين، في تأمين فرص عمل بسبب الحاجة إلى اليد العاملة الإضافيّة في المناسبات الاجتماعيّة والأعياد.

1- مقابلة أجريت مع السيّد محمد نور الدين، مدير صالة Cremino، بتاريخ 20 أيلول 2023.

ففي مقابلة أجريت مع أمين سرّ تعاونيّة السّكاكين الجزيئيّة السيّد جوزيف عون قال: «هذا المحلّ يختصّ ببيع الهدايا التي ترمز إلى الأصالة والعراقة والتي كانت تُهدى إلى الملوك من قبل الأثرياء لأجل التّباهي والمفاخرة. ويقول: إنّ استيراد هذه البضاعة مكلف، وبالتالي أصبحت باهظة الثّمّن حتّى أنّ الطّبقّة الميسورة جدّاً بات اهتمامها بشرائها محدوداً وعلى الرّغم من الوضع السيّء هناك أشخاص قلّة ما زالت تطلب هذا النوع من الهدايا، فهو محصور بالصّناعة الجزيئيّة؛ ولكنه معروف على صعيد الوطن والمهجر»<sup>1</sup>.

كما أخبرنا الكابتن حبيب كرم صاحب خمارة ومصنع للنّبذ، «أنّ العمل يبلغ ذروته في فترة الأعياد إذ يكثر الطلب على النّبذ من كافّة أنحاء لبنان وليس من جزيّن فقط، إضافة إلى التّصدير للخارج، وتزداد رواتب العاملين لديه أيضاً. والجدير بالذّكر أنّه يشجّع الآخرين على زراعة العنب حتّى يتمكّن من أخذ المحصول وتصنيع النّبذ إذ يساعد هذا الأمر على إحداث تنمية اجتماعيّة اقتصاديّة، وعلى إبراز جودة ونوعيّة النّبذ العريقة التي يصدرها لبنان إلى الخارج. والعمل لديه ما زال مزدهراً كالسّابق وأكثر»<sup>2</sup>.

وتقول السيّدّة إستيل أبي نادر صاحبة منتجع Blue Jay Valley روم: «إنّ ضغط العمل قويّ وبالأخصّ في فترات الأعياد حيث يصبح دوام العاملين مضاعفاً، وهذا يعود بالمنفعة الماديّة عليهم كعاملين، وقد كان نشاط المنتجع باهراً خلال أزمة كورونا وبلغ ذروته. وعلى الرّغم من تأثّر المنتجع ببداية الأزمات الحاليّة إلّا أنّ العمل الآن عاد إلى ازدهاره المعتاد بل وتفوّق على نشاطه السّابق وأصبح العمل في ذروته نحن منقول حجوزات من قبل شهر للفئات الاجتماعيّة المخمليّة من كافّة المناطق، وكذلك الاعتماد قويّ على المغتربين والسّواح».

وفي مقابلة مع السيّدّة دانا موسى في خان الصّابون قالت: «إنّ الخان يزدهر عمله في فترات الأعياد وبشدّة. وهو مختصّ بصناعة الصّابون وبتشجيع المحترفين المختصّين بصناعة الصّابون والتّطريز على أنواعها بحسب المناسبة، إضافة إلى توفير نوعيّات من الرّجاج غير موجودة سوى في الصّرفند، فتكون بمثابة هدايا تُقدّم في الأعياد وبالأخصّ للمغتربين والسّواح. والصّابون اللّبنانيّ محطّ اهتمام، إذ قالت:

1- مقابلة أجريت مع السيد جوزيف عون، أمين سرّ تعاونية السكاكين الجزيئية، بتاريخ 17 تشرين أول 2023.

2- مقابلة أجريت مع السيد حبيب كرم، صاحب خمارة ومصنع نبيذ، بتاريخ 17 تشرين أول 2023.

إنَّ الإقبال عليه كبير وهناك الكثير من الأعمال المبتكرة المتعلقة به، إذ نصنع أدوات تناسب الأعياد باختلاف مناسباتها كالقماش واللّوحات والزّيوت والكريمات. والخان يقوم بالتصدير للخارج. وهذا المكان كما أخبرتنا السيّدة دانا يهتم بإيجاد فرص عمل للنساء في مجال التطريز وصناعة الصّابون، فيساعد على خلق دورة اقتصادية قويّة إذ يزدهر المبيع بشكل قويّ»<sup>1</sup>.

يعدّ لبنان نموذجًا منفردًا في مجال الاستهلاك وتأثيره في الاقتصاد، فعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية التي حلّت به، من تدهور لقيمة العملة الوطنيّة وارتفاع أسعار السّلع والبضائع بشكل جنونيّ، وانعدام أغلب مقوّمات الحياة فيه، نرى أنّه يعتمد في تحريك عجلة اقتصاده واستمرار النّشاط الاقتصاديّ فيه خاصّة خلال الأعياد، على حركة الاستهلاك التي تنبثها الطّبقّة الاجتماعيّة الحديثة المؤلّفة من الأغنياء القدامى والأغنياء الجدد، ففي حديث مع السيّدة زينب خليفة في محلّ حلويات البابا الممتازة قالت: «إنّ المحلّ أغلق أبوابه خلال أزمة كورونا إلّا أنّ زبائن المحلّ بقوا ثابتين ومعروفين والصّلة وثيقة بينهم وبين المحلّ، على الرّغم من الأسعار المرتفعة حاليًّا، إذ ما زالوا يقبلون على المحلّ بالمعدّل ذاته في مرحلة ما قبل الأزمة. وخلال فترات الأعياد يستعينون بعدد كبير من العمّال، حتّى العمّال يتّكّلون على هذه الأعياد طبعًا من حيث المردود الماليّ، أما عن زبائن المحلّ فهم من كافّة المناطق اللّبنانيّة، إضافة إلى عدد كبير من السيّاح والمغتربين و«عنا بفترة الأعياد كمّيّة كبيرة من التّصدير للخارج»<sup>2</sup>.

ويقول السيّد هادي نمور صاحب محلّ ورد في جرّين إنّ العمل مزدهر على الرّغم من انخفاض إقبال النّاس على الشّراء بعد الأزمة بسبب ارتفاع الأسعار، ويبلغ العمل ذروته في عيدي الحبّ والأُمّ إضافة إلى عيد رأس السّنّة، إذ يكثر الإقبال على الشّراء ويزدهر العمل على الرّغم من ارتفاع الأسعار<sup>3</sup>.

كما تقول السيّدة نادين فرحات وهي صاحبة محلّ ورد في صور «بأنّ العمل يزدهر جدًّا في فترات الأعياد وبالأخصّ عيدي الحبّ والأُمّ وعيد الميلاد. وقد قالت إنّ الإقبال كان كبيرًا هذا العام على الرّغم من ارتفاع الأسعار الكبير، هناك تفاوت بين الزّبونات في

1- مقابلة أجريت مع السيّدة دانا موسى، صاحبة محلّ خان الصابون، بتاريخ 17 تشرين أول 2023.

2- مقابلة أجريت مع السيّدة زينب خليفة، موظفة في محلّ حلويات البابا الممتازة، بتاريخ 17 تشرين أول 2023.

3- مقابلة أجريت مع السيد هادي نمور، صاحب محلّ زهور في جرّين، بتاريخ 17 تشرين أول 2023.

ناس بتاخذ زهرة وفي ناس زهور وشتول؛ لكن العادات ما زالت على الرّغم من الأزمة؛  
أمّا عن العمّال فقالت: «طبعاً نستعين بعمال خلال فترات الأعياد».

استناداً إلى ما ورد سابقاً، يمكن التّوصّل إلى أنّ تحقيق التّمتية الاجتماعية يصبح هدفاً صعباً في ظلّ عدم الاستقرار المالي والاقتصاديّ للدولة بشكل عام وللأسر بشكل خاص، حيث يتعزّر الوصول إلى تحقيق مساواة أو عدالة اجتماعيّة خاصّة في مجال الاستهلاك، كما هو الحال في لبنان اليوم، حيث تبيّن أن «فئة الأغنياء التي تشكّل 25%، لديها قدرة كبيرة على الإنفاق؛ ولهذا السبب زاد استهلاكها، فهي لم تتأثّر بالأزمة الاقتصادية التي تشهدها البلاد، وفئة المسحوقين أي من هم تحت خطّ الفقر، وهي تشمل ما نسبته 25% من الشعب اللبناني، في حين إنّ 50% من اللبنانيين لا يزال لديهم القدرة على تأمين معيشتهم وشراء حاجياتهم، وذلك بسبب اعتمادهم على الأموال التي يرسلها ذويهم المغتربين من الخارج. هذا ما يؤكّد الفرضيّة الخامسة التي تنصّ على أنّ هناك علاقة عكسيّة بين نمط استهلاك الأسر في الأعياد وبين تحقيق المساواة الاجتماعيّة في محافظة لبنان الجنوبيّ.

إنّ هذه التّبعات لم تطل كافّة شرائح المجتمع اللبناني، فعلى الرّغم من اختفاء الطّبقة الوسطى، إلّا أنّ طبقة من الميسورين ظهرت خلال هذه الأزمة، أسهمت إضافة إلى الأغنياء والمترفين في تحريك عجلة التّشّاط الاقتصاديّ في البلد، فأسهم في تحفيز الإنتاج في بعض القطاعات، خاصّة قطاع السيّاحة والخدمات، وزيادة فرص العمل في هذه القطاعات لا سيّما في فترات الأعياد، كعيد الميلاد ورأس السّنة وعيد الأمّ وعيد الحبّ وخلال شهر رمضان وعيدي الفطر والأضحى... هذا تأكّد من خلال المقابلات التي أجريت مع العاملين في مختلف مجالات قطاع السيّاحة والخدمات. وهذا يؤكّد الفرضيّة السّادسة التي تنصّ على: هناك علاقة طردية بين نمط استهلاك الأسر في الأعياد وبين زيادة فرص العمل في محافظة لبنان الجنوبيّ.

إذاً، مرّ المجتمع اللبناني، بكثير من الأحداث والأزمات كانفجار المرفأ وانتشار جائحة كورونا، ثمّ الأزمة الاقتصادية، هذه الأحداث كان لها تبعات على الأوضاع الصحيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة للأسرة اللبنانيّة، فغيّرت سلوكيّات الأسر من حيث العلاقات الاجتماعيّة وطرق إحياء المناسبات ومن حيث أولويّاتها الاستهلاكيّة.

## الخاتمة

لقد أظهرت نتائج البحث أنّ الأزمة الاقتصادية الرّاهنة في لبنان، على الرّغم من حدّتها وتداعياتها على مختلف الشّرائح الاجتماعيّة، لم تمنع فئة من اللّبنانيّين من الحفاظ على أنماط الاستهلاك السّابقة، خصوصاً خلال الأعياد والمناسبات. ويعكس هذا السّلك الذي يتراوح بين الاستهلاك الاعتياديّ والاستهلاك النّفخاريّ، تأثيراً مباشراً للمكانة الاجتماعيّة في تشكيل القرارات الشّرائيّة، بحيث تُصبح هذه القرارات أداة لإبراز الانتماء الطّبقيّ والاجتماعيّ، حتّى في ظلّ ظروف ماليّة ضاغطة.

كما تبين أنّ العوامل الاقتصادية، وفي مقدّمتها قيمة الدّخل الشّهري ونوع المهنة، تمارس دوراً حاسماً في تحديد مستوى الاستهلاك، وأنّ وسائط التّواصل الاجتماعيّ أضحت من أبرز المؤثّرات في صياغة توجّهات الأسر اللّبنانيّة نحو الشّراء، إذ تضخ هذه الوسائط إعلانات مكثّفة قبل الأعياد، فيتعرّز الميل إلى اقتناء السّلع والخدمات ذات الطّابع الرّمزيّ والاجتماعيّ.

من جهة أخرى، أظهر التّحليل أنّ أنماط الاستهلاك في الأعياد قد تحمل أثراً مزدوجاً على التّنمية الاجتماعيّة والاقتصاديّة؛ فهي من ناحية قد تُسهم في خلق فرص عمل وتنشيط الأسواق، ومن ناحية أخرى قد تعمّق الفجوات الاجتماعيّة وتزيد من مظاهر اللامساواة إذا اتّخذت طابعاً استهلاكياً مظهرياً غير متكافئ.

وبذلك، يتّضح أنّ فهم العلاقة بين الاستهلاك والعوامل الاجتماعيّة والاقتصاديّة، خاصّة في المناسبات، يوفّر أرضيّة مهمّة لصياغة سياسات متوازنة تدعم التّنمية المستدامة، من خلال ترشيد الاستهلاك وتعزيز دوره كرافعة اقتصاديّة واجتماعيّة، بدلاً من أن يكون عامل ضغط على الأسر أو مسبباً لزيادة التّفاوت الاجتماعيّ.

## المصادر والمراجع

1. Beranger, F., & Candela , A. (2011). Definir et illustrer le concept de consommation ostentatoire. ESAM Bachelor.
2. Ladwein. (2003). Le matérialisme ordinaire et la satisfaction dans la vie : vers une approche segmentée. Venise: Congrès international «Les Tendances en Marketing .
3. Martinet. (1990). Grandes questions épistémologiques et sciences de gestion,. Epistémologie et Sciences de Gestion, éd. Martinet A.A, Economica.
4. Mauss, M. (1989). Essai sur le don, forme et raison de l'échange dans les sociétés archaïques, in sociologie et anthropologie, 3EME EDITION. Quadrige: PUF.
5. Moawad. (2009). Les Facteurs explicatifs de la consommation ostentatoire des produits de luxe– le cas du Liban. (Dessertation Publiee). Retrieved from <https://tel.archives-ouvertes.fr/tel-00413921/document>.
6. Tian. (2001). Consumers' need for uniqueness: Scale development and validation. Journal of Consumer Research.
7. varcem, V. (1994). janssene –consommateur ,facteurs umflat (martine),Comporte externe dinfluence, brexelles, de boeck – wessonad.
8. حسين ,ع .(2000). تنمية المهارات البيعية .عمان :دار الرضا للنشر، الطبعة الأولى.
9. حلمي،س. (2003). تأثير الاتصال عبر الإنترنت في العلاقات الاجتماعية. مجلة جامعة دمشق.
10. شكري ،ف .(2002). القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم .دار المعرفة الجامعية.
11. عبد الله الجسمي. (2008). الهوية وثقافة العولمة. العين، الإمارات: دار التنوير للنشر.
12. عطية ،ع .(1996) المجتمع الدين والتقاليد بحث في إشكالية العلاقة بين الثقافة والدين والسياسة. لبنان، طرابلس: منشورات جروس برس.
13. عمر خير الدين. (1998). التسويق، المفاهيم والاستراتيجيات. القاهرة: مكتبة عين الشمس.

14. عنابي بن عيسى. (2007). أثر سلوك المستهلك الجزائري على السياسات التسويقية والمركز التنافسي التسويقي للشركات المنتجة للتألاجات، حالة المؤسسة الوطنية للصناعات الكهرو متريّة. الجزائر: أطروحة دكتوراه، المدرسة العليا للتجارة.
15. غيث م. ع. (1989). دراسات في علم الاجتماع القروي. لبنان: دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى.
16. فريد الزماني. (2014). الاستهلاك الترفي في العصر الحديث. السعودية: مركز الأبحاث العالمي.
17. فوزية دياب. (1966). القيم والعادات الاجتماعية. دار الكتاب العربي.
18. فيرونك أبوغزالة. (2012). دور الإعلام المرئي اللبناني في تفعيل استراتيجيات ترشيد الاستهلاك وتعزيز ثقافة الإنتاج والادّخار لدى اللبنانيين، الجامعة اللبنانية، كلية الإعلام. تمّ الاسترداد من <http://maharat-news.com/Temp/Attachments/94eec220-a25c-42d6-bf93-a90c3516b485.pdf>
19. محمّد إبراهيم عبيدات. (2004). سلوك المستهلك، مدخل استراتيجي، الأردن: دار وائل للتوزيع والنشر، الطبعة الرابعة.
20. محمّد الجوهري. (2001). المدخل إلى علم الاجتماع. القاهرة: سلسلة علم الاجتماع المعاصر، العدد الثاني.
21. محمّد عمر حبيب. (2013). المظاهر الاجتماعية والثقافية المحددة لنمط الاستهلاك في المجتمع الليبي. ليبيا: المجلة الجامعة، العدد الخامس، المجلد الثاني.
22. مفتاح بالحاج. (2017). نمط الاستهلاك الأسري في ظلّ المتغيرات المجتمعية. ليبيا: مجلة كلية الآداب، العدد الثاني.
23. ممدوح الدسوقي، و آخرون. (1988). أولويات في علم الاقتصاد. ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.
24. نظام سويدان، وشفيق حدّاد. (2009). التسويق مفاهيم معاصرة. عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع.
25. نومية فتيحة. (2016). الثقافة الاستهلاكية في المدينة، مدينة مستغانم نموذجاً، دراسة ماستر. مستغانم: جامعة عبد الحميد بن باديس، كلية العلوم الاجتماعية.

## المواطنة في لبنان بين المفهوم والمرجّو

La citoyenneté au Liban: entre concept et aspirations

د. جورج عيد حرب<sup>1</sup>

Dr. Georges Eid Harb

تاريخ القبول 2025 / 7 / 19

تاريخ الاستلام 2025 / 6 / 15

### ملخص

يتناول البحث تطوّر مفهوم المواطنة منذ نشأته في أثينا وروما مروراً بأوروبا الحديثة، وصولاً إلى الواقع اللبناني المعقّد. يربط بين مفهوم المواطنة وظهور الدولة الحديثة، مبرزاً العوائق التاريخية والسياسية التي حالت دون ترسيخها في لبنان، كالإقطاع والطائفية. يعرض البحث محطات تطوّر النظام اللبناني منذ الإمارة وصولاً إلى ما بعد اتفاق الدوحة، متوقفاً عند مآزق العلاقة بين الدولة والمجتمع. يشدّد على أهمية التربية المدنية، وإعادة بناء هويّة وطنية جامعة، ويقترح مقومات الدولة المرجوة التي تحترم التنوع وتعزّز الانتماء. يخلص إلى أنّ تحقيق المواطنة الحقيقية يستلزم ثورة ثقافية تبدأ من الإنسان.

**الكلمات المفتاحية:** المواطنة - لبنان - الدولة - الانتماء - التعددية - الهويّة - الثقافة السياسية - الأزمات - التطبيق - الولاء - الدولة المدنية - المشاركة - بناء الوطن.

### Résumé

Cette recherche retrace l'évolution du concept de citoyenneté depuis Athènes et Rome jusqu'à l'Europe moderne, et examine sa problématique au Liban. Elle souligne les obstacles historiques et politiques comme le féodalisme et le confessionnalisme. L'étude retrace les étapes du système politique libanais, de l'émirat jusqu'à l'après-Doha, révélant la crise entre l'État et la société. L'auteur insiste sur l'importance d'une éducation civique et d'une identité nationale inclusive. Il propose les piliers d'un État souhaité basé sur la diversité, la justice et la dignité humaine. La citoyenneté réelle ne peut émerger que par une révolution culturelle

<sup>1</sup> دكتور في الفلسفة - الجامعة اللبنانية - كلية الآداب - الفرع الرابع ، وفي كلية التربية - الفرع الثاني



centrée sur l'humain.

**Mots clés :** Citoyenneté- Liban- État- Appartenance - Pluralisme- Identité- Culture politique- Crises- Application- Loyauté- État civil- Participation- Construction nationale

## مقدمة

إنّ المواطنة في لبنان بقيت فكرة عصيّة على التّحقّق منذ تأسيس هذا البلد، وغالبًا ما راودت المفكرين اللبنانيين تساؤلات مشروعة عن سبب التخلّف الوطنيّ في بلد عرف التّقدّم، لا بل التّفوق، في مجالات كثيرة علميّة وفنيّة وصناعيّة وغيرها. إلّا أنّ المواطنة، لم يستطع اللبنانيون حتّى السّاعة الانخراط في ركبها، سواء محليًا أو إقليميًا أو عالميًا، وبقيت هذه التّساؤلات تعود إلى الواجهة عند كلّ أزمة عصفت بلبنان.

وعلى الرّغم من الكتب الكثيرة التي صيغت في هذا الإطار، إلّا أنّ ما كُتب بقي تائهًا داخل الصّفحات الكثيرة، على الرّفوف وداخل المكتبات الورقيّة أو الإلكترونيّة، دون أن يعرف طريقه إلى التّطبيق، وبالتالي من دون أن يعرف لبنان اللّحاق بركب الدّول التي عرفت كيف تدمج تعدّد الثقافات والإثنيّات والأديان والانتماءات تحت قبة الوطن الموحد، لتصنع من هذا التّنوّع غنى ومصدرًا للقوّة.

ويتبادر إلى الذّهن السّؤال عن الأسباب التي منعت اللبنانيين حتّى السّاعة من بناء وطن، وطالما تساءلت عن الأسباب التي أدّت دورًا سلبيًا في تعزيز الرّوح الوطنيّة على حساب النّفور الأعمى، كما تساءلت مرارًا عن البطء الذي يلفّ حركة التّقدّم الوطنيّ في لبنان الذي ينعكس تأخيرًا في اللّحاق بركب الدّولة الحضاريّة المتقدّمة، التي عرفت كيف تتخطّى لتصل. وربّما هنا تكمن إشكاليّتنا التي سنحاول معالجتها في هذا البحث: كيف نتخطّى، دون عوائق، لنصل بلبنان وننجح حيث فشل من سبقنا.

## أ - مفهوم المواطنة

لم يأخذ مفهوم المواطنة بعدًا واضحًا إلّا بعد أن استقرّت مجموعة من الأفراد ضمن مكان جغرافيّ معيّن سمّته موطنًا، وبعد أن تكرّست السّلطة على هذه الأرض تحت شكلٍ ما، وعلى الذين عاشوا أو تعايشوا معها، أصبح هناك ما يُسمّى بالوطن. وقد عرفت تلك المجتمعات عدّة أشكالٍ من السّلطة، تمثلت بالسّلطة الإقتصاديّة والعسكريّة

والطبقيّة والدينيّة والعرقية، والتي مارست على النّاس أشكال متعدّدة من الحكم، فجعلتهم رعايا الملك أو السلطان أو الأمير أو كبير القبيلة أو المجموعة. يتفق مفهوم المواطنة مع العديد من المفاهيم التي تنمّرد على المفهمة بتعبير **ألان تورين** في وصفه لمصطلح الحداثّة، فمن الصّعوبة تحديد مجمل الدّلالات والإيحاءات التي يشير إليها مصطلح المواطنة تحديداً دقيقاً، ومع ذلك يمكن الوقوف على بعض المعالم الدّالة عليه.

بدأت المواطنة بالبروز لأوّل مرّة في أثينا في القرن السّادس قبل الميلاد عندما أعلن كليستينيس، والذي أسّس الدّولة السيّاسية لـ«أتيكا»، بأنّ حقوق المواطنين وواجباتهم تتبع من أتيكا كأرض ذات سيادة، ويكون هنا قد سدّد أول ضربة للانتماءات العائليّة والإقطاعيّة والطبقيّة التي كانت سائدة آنذاك، فبدأ الأثينيون احترام القانون الذي عبّر عن إرادتهم، وأحبّوا الدّولة التي جسّدت قوّتهم، فاصبح رجال أثينا في حالات الحرب، يدافعون عن الأرض التي يملكونها، ويستمتيتون في سبيل دولة تجسّد إرادتهم وترعاهم، وأكثر من ذلك، كي لا يتحوّلوا من أسياد إلى عبيد<sup>1</sup>. بعد أثينا، خطت روما خطوة مهمّة نحو المواطنيّة في القرن الأوّل قبل الميلاد، فقسمت المواطنين إلى ثلاث درجات، المواطن الذي ولد في روما في الدّرجة الأولى، والدّرجة الثّانية كانت تعطى لبعض سكان المدن الذين كان لهم حقّ التّعاقد مع الرّومان وليس الزّواج منهم، كما أنّ هناك الدّرجة الثّالثة التي كانت تُعطى لكبار الموظفين لدى الرّومان والذين أنتموا فترة خدمتهم، مثل القضاة العدليّين والقادة العسكريّين.

الإمتياز الأهم الذي حصل عليه المواطن الرّوماني، هو حقّ الحماية لشخصه وممتلكاته، وعدم إمكانيّة تعرّضه للتّعذيب أو العنف عند محاكمته، فيكون الأب الرّومانيّ قد فقد كبرى امتيازاته السّلطويّة التي كانت له، ومنها حقّ قتل أبنائه في حالات عدم الرّضى عنهم، وانحسر ذلك بالسّلطة القضائيّة فقط وفي بعض الحالات القانونيّة العقابيّة التي تستوجب ذلك<sup>2</sup>.

أما في أوروبا، حيث النّظام السّائد قد منح سلطة مطلقة للبابا والأمبراطور، لكنّ ازدهار التّجارة، وضع الملوك والأمراء في خانة التّحالف الضّروري لما للطرفين من مصالح مشتركة بوجه البابا والأباطرة، وقد بلغت هذه الصّراعات أوجّها إبان الإصلاح

1- will Durant (1966), **the story of civilization**, vol.N.Y., simon and Scruster, p. 126.

2- فريجة، نمر، **فعاليّة المدرسة في التّربيّة والمواطنيّة**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 2013، ص16.

الدِّينِيّ الأوروبيّ في القرن السّادس عشر، حيث انتهت إلى تغيّرات جوهرية، وأصبح لكلّ حكومة محلّية الحقّ بوضع قوانين لشعبها دون تدخّلات خارجيّة، فبدأت أولى الحقوق المشروعة للمواطن الأوروبيّ بالظّهور على حساب انحسار السّلطة البابويّة وبالتّالي الدِّينية<sup>1</sup>.

الحقيقة، أنّ سؤال المواطنة أصبح سؤالاً ملحاً ومن الضّروري الإحاطة بحديثاته في ظلّ المتغيّرات الحاصلة على المستوى العالميّ، وهي تحولات شملت كلّ نواحي الحياة البشريّة، جاعلةً من مطلع الألفيّة الثّالثة لحظة تاريخيّة على غاية من الأهميّة، لكونها تمثّل بالنّسبة لمجتمعاتنا لحظة مصيريّة، إذ بات من الصّعوبة ضمان مكانة بين أمم القرن الواحد والعشرين دون الاحتكاك والتّفاعل مع الآخرين والاستفادة منهم، فالتّفكير والتّساؤل عن الدّولة ووظيفتها وموقعها ككيان سياسيّ وقانونيّ وكجهاز سلطة وإدارة، وعلاقتها بالمواطنين، يمثّل اليوم جوهر التّفكير في العولمة وتشكّلاتها وتحدياتها وأخطارها وفرصها أيضاً.

إنّ مفهوم المواطنة كما استقرّ في الفكر السّياسيّ المعاصر هو مفهوم تاريخيّ شامل ومعقّد له أبعاد عديدة ومتنوّعة، منها ما هو مادّيّ - قانونيّ، منها ما هو ثقافيّ - سلوكيّ، ومنها ما هو وسيلة أو هو غاية يمكن بلوغها تدريجيّاً، لذلك فإنّ نوعيّة المواطنة في دولة ما تتأثّر بالنّضج السّياسيّ والرّقّي الحضاريّ، كما يتأثّر مفهوم المواطنة عبر العصور بالتّطوّر السّياسي والاجتماعيّ وبعقائد المجتمعات، وبقيم الحضارات والمتغيّرات العالميّة الكبرى، ومن هنا يصعب إيجاد تعريف جامع مانع ثابت لمبدأ المواطنة<sup>2</sup>. حتى أنّه يمكن القول بوجود عدد من المفاهيم والتّعريفات الممكنة لهذا المصطلح بقدر عدد المجتمعات إن لم يكن بقدر عدد الأفراد أو المواطنين.

رغم هذا التّعقيد الذي يطبع مفهوم المواطنة، فإنّه يشير بصورة مجملّة إلى أنّها انتماء مؤمن للكيان السّياسيّ، تتحقّق فيه معادلة الحقوق والواجبات، فيقول أحد الدّارسين: «المواطنة هي وصف سياسيّ لأفراد المجتمع المنضوين تحت دولة - وطن، تتبنّى الاختيار الديمقراطيّ، فهي وضعيّة تسمو على الجنسيّة و تجعل العلاقة مع الدّولة علاقة

1- المرجع السّابق، ص. 18.

2- الكوّاريّ، علي خليفة، مفهوم المواطنة في الدّولة الديمقراطيّة (المستقبل العربيّ، السنة 23، العدد 264، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، فيفري، 2001) ص 104.

شراكة في الوطن وعلاقة تشاركيّة غير تبعيّة كما كان الشّأن في الأنظمة الاستبداديّة والإقطاعيّة التي يحدّ فيها الأفراد رعايا لا مواطنين»<sup>1</sup>، بعبارة أخرى فـ«المواطنة تدلّ ضمناً على مرتبة من الحرّيّة مع ما ي صاحبها من مسؤوليّات»<sup>2</sup>، من خلال هذين التعريفين نستطيع القول إنّ مبدأ المواطنة في جوهره يعبر عن وضعيّة الفرد في الدّولة من خلال تحديد قيمته ومكانته التي تقاس بمدى حصوله على حقوقه من جانب، ودوره الذي يقاس بأدائه لواجباته من جانب آخر، فالمواطنة مبدأ نسبيّ تختلف درجة تحقّقه من مجتمع لآخر، كما أنّه مبدأ له تاريخ، وتاريخه يكشف عن سعي الإنسان للحصول على حقوقه وتكريس قيمه (حرّيّة، عدالة، مساواة، إنسانيّة). هذا السّعي الذي انتقل فيه الإنسان من كونه مجرد تابع لا اعتبار له، خاضع بصورة كليّة لمختلف السّلطات، إلى اعتباره مواطناً فاعلاً مشاركاً في تسيير شؤونه ولو بدرجات متفاوتة بين المجتمعات، وقد ارتبط الرقيّ في الممارسة المواطنيّة بسياق تطوّر الفكر السّياسيّ الغربيّ منذ النّهضة، وتحديدًا مع ظهور الدّولة القوميّة التي تقوم على سيادة القانون، ومسايرةً للتطوّر السّياسيّ الحاصل في الدّول الغربيّة، فقد أصبح بعض المفكرين ينظرون لمفهوم جديد للمواطنة أسماه هابرماس «مواطنة ما بعد الوطن»، وهي المواطنيّة الكونيّة العابرة للأوطان والتي نجد مرجعيّتها في مبادئ مجردة من تجلّياتها في الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان<sup>3</sup>.

## ب- الدّولة ووظائفها

### لمحة عن تاريخيّة الدّولة في لبنان

إنّ اللحظة التّاريخيّة التي نحيّاها اليوم تحتمّ علينا أكثر من أيّ وقت مضى ضرورة طرح الإشكاليّات الحقيقيّة حول الدّولة، وعدم التّمويه أو القفز عليها، وإعادة النّظر في الكثير من المواقف، والتّحوّلات الحاصلة على المستوى الكونيّ تقتضي توضيح دقيق لوظائف الدّولة وأدوارها وصلتها بمواطنيها في لبنان.

يوم كانت الدّولة حارسة، كان همّها الأساس أن تصهر الجميع في بوتقة تخدم الحاكم، أما عندما تحوّلت إلى خادمة فقد تركّز سعيها على تهيئة المناخ كي يتمكّن كلّ إنسان من أن يتحوّل إلى مواطن يتمتّع بحقوق وعليه واجبات؛ ممّا يسهّل وصوله إلى اكتمال

1- الدّولة ومواطنوها، المسؤوليّات الجديدة وإعادة توزيع الأدوار، مرجع سابق، ص 40.

2- الكواري، علي خليفة، مرجع سابق، ص 118.

3- الدّولة ومواطنوها...، مرجع سابق، ص 45.

إنسانيته في مجتمع متوازن وعادل. إنَّ البحث في الأسس التي تحقّق هذه النّقلة النوعيّة لأيّ مجتمع، يتّخذ أهميّة تزداد بمقدار ازدياد الحاجة، خاصّة لمجتمع متحوّل، فما هي مقوّمات هذا التّحوّل في مجتمع كالمجتمع اللبنانيّ؟

سنحصر بحثنا، لإبراز محطات هذا التّحوّل، في الأنظمة السياسيّة – الاجتماعيّة التي حضنت شكلاً من أشكال التّعدديّة، ضمن اصطفاك حول هدف أعلى، قاده أشخاص تمكّنوا من تأمين الإستمراريّة والإستجابة للتّحدّيات المختلفة.

لقد عرف تاريخ لبنان الحديث ستّة أنظمة حتّى الآن، وبناتظار السّابع، بعد جلاء المرحلة الحاليّة وذلك تبعاً لمرتكزها أو مرتكزاتها، وهي :

1- نظام الإمارة الذي استند إلى الإقطاعية المرتبطة بالعائليّة وإن صحّ القول بالقبليّة وبالتالي العائليّة.

2- وقد استمر هذا النّظام حتّى ورثه نظام القائمقاميتين الذي أعطى الأولويّة للطائفية مع حفاظه على الإقطاعيّة – العائليّة.

3- وفي المرحلة الثّالثة استمرّ هذا الوضع برعاية دوليّة ، حتّى بداية الحرب العالميّة الأولى كي يوضع هذا الكيان في نهايتها تحت سيطرة الانتداب الفرنسيّ.

4- النّظام في ظلّ الانتداب الفرنسيّ ونشأة دولة الإستقلال المرتكزة على الشّكل الجمهوريّ التّوافقيّ في العام 1943. تميّز هذا النّظام باحتفاظ فريق بامتيازات أوصلت إلى الأزمة الأولى عام 1958 انقضت بإعادة النّظر فيها والقيام بتأسيس دولة مرتكزة على القانون والمؤسّسات. لكنّ هذه المحاولة فقدت فعاليتها بسبب التّجاذبات الدّاخلية، ما أدّى إلى انحلال الدّولة، خاصة بعد حصول الفلسطينيين على اتّفاقيّة القاهرة العام 1969.

5- هذا التّحوّل خلق الطّروف المناسبة للانقسام الاجتماعيّ الذي أدّى إلى اندلاع حرب 1975 التي أعيد النّظر بموجبها في الميثاق الوطنيّ وإقرار الميثاق الجديد تطبيقاً لاتّفاق الطّائف.

6- ثم بدأت مرحلة اهتمّت بتنفيذ إعادة الإعمار وإنعاش الاقتصاد، وعملت جاهدة على تأجيل تنفيذ بنود الميثاق الجديد، بمساعدة لفيك من المنقّعين اللبنانيين الذين ألهمهم

عملية اقتسام المغنم دون أي حساب لما خلّفته هذه الوضعية على تجميد الانتقال إلى مرحلة المواطنة والإصطفاف خلف الإنتماء الطوائفي<sup>1</sup>.

7- مرحلة ما بعد اتفاق الدوحة الذي أقره الزعماء اللبنانيون ، والذي نصّ على بعض الأعراف الجديدة في النظام ، ولم تكن ذات أهميّة، ممّا أعاد الوهج الأساسي لاتفاق الطائف.

ما وجب اتّباعه الآن تمهيداً لمواطنة لا تزال مفقودة، يتمحور حول الآتي:

1- وعي المشكلة بكلّ أبعادها ، خاصّة أنّ المجتمع الذي نسعى لتحضير آليّة مساعدته للانتقال إلى المواطنة، هو مجتمع ما زال في مرحلة تحوّل دائم يمنع استعمال قيم موحّدة تصهر الجميع في بوتقة محدّدة المعالم.

2- يجب الإقرار، منذ البدء ، بوجود تعدّدية ثقافيّة لا يمكن جعلها تظهر موحّدة ومنصهرة ، ولو في حدّها الأدنى.

3- الإصرار، في حقبات تاريخيّة مضت، على إظهار هذا المجتمع أنّه ذو اتجاه موحّد، باء بالفشل، والدليل على ذلك أنّ ميثاق 1943 قد بني على نفيين: لا للشرق ولا للغرب !

لهذا قيل: «إنّ لبنان ذو وجه عربيّ» وقام الميثاق الأوّل على هذا الشعار حتّى بروز الناصريّة التي نادت بإحياء التّيار القوميّ الموحّد للجميع تحت راية الرّئيس الراحل جمال عبد الناصر. ثمّ تطوّرت التّسمية تبعاً لاتفاق الطائف فأصبحت: «لبنان عربيّ الهوية والإنتماء» (فقرة ب من المقدّمة).

4- ومع اندلاع الحرب الأهليّة لعام 1975 في ظلّ الانقسام العموديّ الذي طال المجتمع اللبنانيّ، اجتمع سعاة الخير في الطائف ورسوموا آليّة، أهمّ ما جاء فيها:

- إعادة ترتيب صلاحيّات الرّئاسات الثلاث.

- العمل على إلغاء الطائفية السياسيّة (الفقرة «ح» من المقدّمة).

1- القاعي، عبدو ، وخوري جوزيف ، القيم الدّينيّة في لبنان على مفترق قرنين 1989-2003 دراسة ميدانيّة عرضت في مؤتمر «حروب الأديان وسلامها : إشكاليّة صورة الله». جامعة سيّدة اللويزة 2-3/4/2004  
Mzawak, Mirna, l'engagement Chrétien entre Conception et Vécu, Thèse de Doctorat en philosophie et Sciences Humaines, USEK, Juillet 2006.

- لا شرعية لأي سلطة تناقض ميثاق العيش المشترك (الفقرة «ي» من المقدمة).  
- مع انتخاب أول مجلس نواب على أساس وطني لا طائفي يستحدث مجلس للشيوخ تتمثل فيه جميع العائلات الروحية وتنحصر صلاحياته في القضايا المصيرية (المادة 22 من الدستور).

- لم يرد في دستور الطائف ما يشير إلى اعتماد تنظيم إداري مختلف.  
لكن هذا الميثاق الجديد أيضاً لم يوقف مسار التحوّل في المجتمع اللبناني وكأنّها أسطورة «سيزيف» التي يتكرّر فيها تدرج الصخرة. لهذا فإنّ رسم تصوّر لتربية مدنيّة تؤدي إلى تركيز الفكر والسلوك المواطني يبدو أمراً عسيراً جداً.

خلاصة القول إنّ مهندسي ميثاق الطائف قد عدّوا التعديلات الطفيفة المقترحة كافية لوقف التحوّل في المجتمع اللبناني وعليه يمكن الانتقال إلى مرحلة المواطنة بعد تطبيقها، علماً بأنّ عوامل التحوّل هذه ما زالت قائمة لأنها لم تمسّ لأسباب عديدة لا جدوى من بحثها من جهة ، ومن جهة ثانية لم تتخذ الإجراءات اللازمة من أجل آلية تنفيذ مناسبة تطال المشكلة أثناء وبعد التنفيذ هذا.

مهما يكن من أمر ، لا بدّ لنا من الإسهام في رسم خطة عمل لاعتماد التربية المدنية كوسيلة للوصول إلى المواطنة، رغم سمة التحوّل في المجتمع اللبناني.

### ج- المجتمع والدولة

ثمّة أزمة بنويّة تعانيها دول العالم العربيّ، ولبنان من ضمنها، تتعلّق بالإنفصام المزمّن بين المجتمع والدولة وبين الأمّة والدولة بسبب الظروف التاريخية المؤسّسة للدولة وجدليّة العلاقة بين الدّاخل والخارج<sup>1</sup> الذي كان له دور خاصّ في تأسيس الدولة الحديثة في العالم الثالث بشكل عامّ، حيث لم تتبلور الدولة في سياق تاريخيّ مشابه لسياق نشوء الدولة . الأمّة في أوروبا وتحديداً في النّمودج الفرنسي الأكثر دلالة.

يمتاز الوطن العربيّ، إلى ذلك، بسياق اجتماعيّ ، تحديتيّ خاصّ لم يسمح بإنتاج دولة حديثة، فقد فشلت محاولات التحديث في الانتقال إلى نموذج مجتمعيّ ودولتيّ

1- راجع، خلدون حسن القّيب : الدولة التّسلطيّة في المشرق العربيّ الحديث، بيروت مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1992 خصوصاً المقدّمة التّظريّة والفصل الأول.

حديث وفشلت بالتالي تجربة ما سمّي بالنهضة العربيّة في بناء دولة حديثة حقيقية، وما شهدناه هو نظام أبويّ مستحدث بحسب الدكتور هشام شرابي<sup>1</sup>.

ولأنّ الدّولة الحديثة هي شرط «المواطنة» الكاملة اصطدمت هذه الأخيرة بمشكلات الأولى في مجالات الهوية والمشاركة والمساواة<sup>2</sup> التي لم تحسم في بنية مؤسّساتيّة مستقرّة وأصبح العبء مزدوجاً :

أ . بناء دولة متكاملة كمؤسسة تؤمّن المشاركة والمساواة والسّيادة .

ب . بلورة هويّة وطنيّة ، متفقّ عليها ، لمواطنين أحرار .

ثمّة تناغم مطلوب بين الدّولة الحديثة ومكوّناتها الاجتماعيّة، وبقدر ما تعبر عن مجمل هذه المكوّنات تكون المصالحة هي السّمة الأبرز، والاستقرار هو المدى المتوقّع، وتكون المواطنة هنا حالة تفاعل ذاتيّ حرّ بين المكوّنات التي لا تخشى تسلّط الدّولة ولا تهيمش السّلطة ولا تضيق الهويّات الفرعيّة.

فالدّولة تشكّل الحيز العموميّ المشترك وتمثّل كلّ مكوّناتها لكنّها لا تختزل بأيّ منها، هي دولة المواطنة الجامعة التي لا تلغي خصوصيّات المجموعات والأفراد بل تحافظ عليها وتضيف إليها الهوية المشتركة. هنا يصبح دور الدّولة، في إحدى وظائفها المساهمة في بلورة مواطنة تتبني باستمرار نحو حيز مشترك يُعزّز الانتماء والهويّة في مواجهة تحديات مشتركة وكذلك صناعة أمل بمستقبل مزدهر في سياق تفاعليّ داخليّ غير قسريّ.

ولعلّ الحالة اللّبنانيّة أكثر انسجاماً مع مواطنة تغتني بالتنوّع ولا تلغيه، في دولة تحترم التعدّدية الدّينيّة وتحافظ عليها وتحترم حرّيّة الاعتقاد وتداول السّلطة لكنّها أيضاً تطوّر هويّتها باستمرار لا على قاعدة إلغاء المسلّمات الوطنيّة الثّابتة والانتماء الواضح بل في سياق تحقّق الدّات الوطنيّة مع كلّ نجاح في مواجهة أيّ استحقاق وطنيّ.

1- تعدّ هذه النّظرية أنّ التّحديث في العالم العربيّ تمّ بشكل سطحيّ بحيث لم تتطوّر المجتمعات العربيّة من سياقها الإقطاعيّ إلى سياق حديث، كما أنّها لم تبقَ ضمن آليّات عمل وثقافة المجتمع السّابق لدخول التّحديث الغربيّ إليه فأصبح في حالة جديدة مشوّهة بين نظامين تاريخيّين متداخلين أسماهما النّظام الأبويّ المستحدث . أنظر : هشام شرابي، النّظام الأبويّ المستحدث وإشكاليّة تخلف المجتمع العربيّ.

2- راجع، سعد إبراهيم ، أزمة الديمقراطيّة في الوطن العربيّ ، بيروت مركز دراسات الوحدة العربيّة، طبعة ثانية . 1987 صفحة 414 و 415 .



المواطن في دولة «المواطنة» هذه، هو فرد يفتخر بانتمائه إلى وطنه دون إلغاء لذاتيات تتداخل مع هويته الوطنية، فهو يحمل أبعاداً متنوعة لهويات متألّفة غير متضادّة بالضرورة تصقلها نجاحات الدولة، فيستطيع أن ينتمي إلى أيّ مجموعة دينيّة أو غير دينيّة وفي الوقت نفسه يكون لبنانياً لا تُنقص لبنانيّته ولا تتفاوت درجتها مع غيره، وهو أيضاً يحمل انتماءً عربياً لا لبس فيه، وفوق كلّ أبعاد الهوية المركّبة المتألّفة هو فرد ينتمي إلى عصر، فهو إذن يحمل هويّة هذا العصر ويغرف من رموزه، ويتفاعل مع حضاراته المختلفة، وينهل من كلّ الثقافات الإنسانيّة، هو إنسان عالميّ دون أن ينقص ذلك من هويّته الدينيّة وانتمائه إلى دولة محدّدة.

#### د- أركان الدولة المرجوة

بتعريفنا للدولة يتّضح أنّ لها ثلاثة أركان هي: الشعب والأرض والسّلطة السياسيّة.

##### 1 - الشعب

يتكوّن الشعب من مجموع كبير من النّاس تجمعهم الرّغبة في العيش المشترك، وإن كان لا يمكن تحديد عدد مناسب أو حدّ أدنى وحدّ أقصى لعدد النّاس أو أفراد الشعب، إلّا أنّ كثرة عدد السّكان لا شكّ يعدّ عاملاً هاماً في ازدياد قدر الدولة وشأنها، وقد يتطابق تعريف الشعب مع الأمّة وقد يختلف عنها كما هو حال الأمّة العربيّة المقسّمة إلى دول. فشعب الدولة يتكوّن من أمّة أو جزء منها أو عدّة أمم، فالشّعب مجموعة من الأفراد تقطن أرضاً معيّنة، أمّا الأمّة فهي إلى جانب ذلك تتميّز باشتراك أفرادها في عنصر أو عدّة عناصر كاللّغة والدين والأصل أو الرّغبة المشتركة في العيش معاً. أمّا بالنسبة للأمّة والدولة فالاختلاف يكمن في أنّ الأمّة هي جماعة من الأفراد تجمعهم روابط موضوعيّة وذكريات وآمال مشتركة ورغبة في العيش معاً، أمّا الدولة فهي وحدة سياسيّة قانونيّة وضعيّة... إضافة إلى أنّ الدولة هي عنصر من عناصر الأمّة، وإذا كانت الدولة والأمّة تشتركان في عنصر الشعب والإقليم، فإنّ الدولة تتميّز عن الأمّة بالحكومة الّتي تعدّ ركناً من أركان الدولة. ومن وظائف الدولة إخفاء التّناقضات الداخليّة بين أعضائها من صراع سياسيّ وطبقيّ وإضفاء صفة المشروعيّة أو الشرعيّة على السّلطة.

## 2 - الأرض

يستقرّ الشعب على أرض معيّنة سواء كانت هذه الأرض ذات مساحة كبيرة أو صغيرة، وقد أصبحت الأرض كعنصر من عناصر الدولة الثلاث تسمّى بالإقليم الذي لا يشمل اليابسة فقط وإنّما إلى جانبها المسطّحات المائية التابعة لليابسة، والفضاء الذي يعلو الأرض والبحار الخاضعة للدولة وفقاً لقواعد السلوك الدولي. وإنّ حقّ الدولة على إقليمها هو عبارة عن حقّ عينيّ نظاميّ يتحدّد مضمونه بممارسة السيادة العامة بما تفرضه من إجراءات رقابة وإدارة للشؤون العامة.

## 3- السلطة السياسيّة

لا يكفي أن يكون هناك شعب يقيم على مساحة من الأرض لقيام الدولة بل لابدّ من وجود قوّة أو سلطة أو حكومة لفرض السلطة على الشعب في إطار الأرض وأن تعمل هذه الحكومة على تنظيم أمور الجماعة وتحقيق مصالحها والدّفاع عن سيادتها، وتستمد حكومة أيّ دولة شرعيّتها من محبة شعبها لها لا بل قبوله لها، فإذا انتفى هذا القبول فإنّ الحكومة تكون فعليّة وليست شرعيّة مهما فرضت نفوذها على المحكومين. والمبدأ العامّ أنّ السلطة إمّا أن تكون اجتماعيّة مباشرة وإمّا أن تكون مجسّدة في شخص معيّن أو سلطة مؤسّسة. والسلطة السياسيّة ظاهرة قانونيّة لارتباطها بالقانون، تلجأ إليها السلطة لتنظيم الأفراد وتقيد مطامعهم واندفاعهم وتغليب مصالحهم على مصلحة الجماعة. كما أنّ تلك السلطة يمكن أن تتأثّر بعوامل عديدة سواء دينيّة أو نفسيّة أو اقتصاديّة أو اجتماعيّة أو تاريخيّة... المشروعيّة والسلطة الشرعيّة مصطلحان كثيرا الترداد بين الحكّام، فالمشروعيّة هي صفة تطلق على سلطة اعتقاداً أنّها أصلح فكرة من حيث تطابقها مع آمال وآلام المجتمع، والمشروعيّة تمنح للسلطات صلاحية إعطاء الأوامر وفرض الطاعة، أمّا الشرعيّة فهي صفة تتمتع بها الدولة في أعمالها إذا تطابقت مع الدّستور والقانون المطبق في البلد.

## خاتمة

إنبثقت في لبنان السلطة السياسيّة من الإقطاع الذي على الرغم من أنّ الثّورات في العالم قد توصّلت لحرمان ملوك الممالك الأصليّة من هذا التّسلط، لم تتوصّل - في لبنان خاصّة - من حرمان الإقطاعيّين منه. وإذا ما تساءلنا عن السّبب نجد بأنّه، في لبنان، فقط، كان الإقطاعيّون هم السّباقين للثّورة على من يطالب بكسر نظامهم وقطع رؤوس

المتمردين، وهذا طبعاً برضى الدستور والحكم والمسؤولين حتى الدينيين. وفي مرحلة بناء الجمهورية، كان الإقطاعيون هم السباقين لإنشاء الأحزاب الديمقراطية والاستئثار بشعارات الحرية والسيادة والاستقلال على أن لا تخدم سوى ملكيتهم الخاصة. وهذا ما لا يستوعب فهمه الغرب. وهو أهم ما تسبب بهجرة اللبنانيين تفتيشاً عن حرية وكرامة قرأوا عنها في الكتب. وهنا ننثني على دور الثقافة والعلم ونجدد الشكر للكنيسة الرومانية التي استدعت الموارد لتثقيفهم في روما وللمجتمع اللبناني الذي سبق الثورة الفرنسية وفرض عام 1736 التعليم الإلزامي للفتيان والفتيات كافة. إن هذا ما كان نواة الثورة الحقيقية التي نجح الإقطاع الطاغى وأدها بأن طالب الإرساليات باحترام المعادلة التالية: «قيراط علم و23 قيراط تهذيب» والتهذيب معروف بأنه الخضوع غير المشروط حتى في الزواج. وهذا ما ثار عليه جبران في الأجنحة المتكسرة. ولو صحت هذه الثورة لكان لبنان اليوم على غير ما هو عليه.

بعد ما عرضنا، نلاحظ كيف أنه على الدولة بكل مؤسساتها أن تدور في فلك الإنسان والشعب، وإن ما يحيط مباشرة بهما وبمصالتهما هي المجالس المنبثقة عنهما - النواب والحكومة التي مهمتها أن تسهر على التخطيط والتوجيه والتشريع للأمر كافة، ومجتمعة تشكل مجلس الشعب الذي بيده الحل والربط في الأزمات الكبرى والتعقيدات الاستثنائية كالتي نعيشها اليوم، حتى لا تضع الرؤية ويموت الشعب. وضمن الفلك نفسه تقوم مجالس أخرى للتربية والثقافة والتعليم العالي والاختراعات الخ... التي من مهامها التخطيط للتثقيف الدائم على المواطنة.

هذا بايجاز ما نلفت إليه بالنسبة لأهمية محورية الإنسان في الوطن، والمواطنة، كي لا نتعامل مع هذا الموضوع كمن يضرب بالرمل.

وترتبط الآية القرآنية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11) بعلم الاجتماع والسياسة، فماذا لو وجدنا الشعب الذي اعتاد الأمر الواقع، راضياً بنفسه ولا يهमे أن تحترم إنسانيته أكثر مما هي عليه اليوم. لقد تحول منذ زمن طويل إلى قدري، وبئس من أي تغيير ولا يرى تحولاً في حياته إلا بالرحيل عن البلد أو نهائياً عن الحياة. أليس هذا الشعور فعلياً وواقعياً ويترجمه الشباب بوسائل عدة على الأرض؟

إنها المعضلة الأساسية والملحة التي يجب أن نركز عليها اليوم لإخراج الإنسان المرجو المتمثل، لا بالشباب فقط إنما بالأطفال والرضع، من برائن الإعلام السياسي

والأمنيّ الذي لم يعد صالحاً البتّة لبناء الإنسان والوطن فكيف بالمواطنة ! ناهيك عن الإعلان والإشاعات وما يرافقها من مهرجانات وأحداث يَدْمِي القلب لها وتُحَضِّرُ حقائق الرّحيل.

### لائحة المراجع العربيّة

1. أبو خليل، يوسف، الدّولة والمجتمع في لبنان، قراءة تاريخيّة، بيروت، دار الفارابي، 2009.
2. بشّور، معن، العروبة والمواطنة، جدليّة العلاقة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2013.
3. طرابلسي، فواز، تاريخ لبنان الحديث، من الإمارة إلى الطّائف، بيروت، رياض الرّيس للكتب والنشر، 2007.
4. عويدات، جهاد، فهم الدّولة والمواطنة في المجتمعات التّعدّدية. بيروت، المؤسّسة الحديثة للكتاب، 2011.
5. منصور، ندى، المواطنة والتّربيّة المدنيّة في لبنان، بيروت، دار العلم للملايين، 2015.
6. معوض، أسامة، الدّولة والمواطنة في الفكر السّياسيّ العربيّ المعاصر، القاهرة، مركز البحوث السّياسيّة، 2010.
7. هاشم، علي، سوسيولوجيا الطّائفيّة في لبنان. بيروت، دار سائر المشرق، 2018.

### liste des références françaises

- 1-Touraine, Alain. Qu'est-ce que la démocratie ? Paris : Fayard, 1994
- 2 -Habermas, Jürgen. L'intégration républicaine : Essais de théorie politique. Paris : Fayard, 1998.
- 3-Balibar, Étienne. Citoyen sujet et autres essais d'anthropologie philosophique. Paris : PUF, 2011.
- 4-Balandier, Georges. Le pouvoir sur scènes. Paris : Balland, 1980.
- 5-Lefort, Claude. La démocratie à l'épreuve. Paris : Le Seuil, 1992
- 6-Rosanvallon, Pierre. La société des égaux. Paris : Le Seuil, 2011.
- 7- Gaspard, Françoise. Citoyenneté et démocratie. Paris : Éditions La Découverte, 2003.

# الهوية الأدبية والتشكّل الحضاريّ عند الكتاب التونسيّين

## Literary Identity and Civilizational Formation among Tunisian Writers

د. الفاضل بن حميدة الكثيري<sup>1</sup>

Dr. Fadhel ben hamida kathiri

تاريخ القبول 2025 /6/30

تاريخ الاستلام 2025 /6/3

### ملخص

تبحث هذه الدراسة في مسألة الهوية الأدبية والفكرية عند الكتاب التونسيين انطلاقاً من المواضيع المطروحة من خلال المكان كوطن، والإقليم كامتداد وانعكاس في الصراع الثقافي بين الأنا والآخر في علاقة المستعمر بالمستعمر من خلال فرض الإرادات أو تثبيت سرديات تشرعن هذا الواقع.

وفي هذا الإطار تصبح الهوية الأدبية متغيرة بتغير المجتمع نفسه، وبخاصة إذا نظرنا إلى العمل الروائي في رصده لتغيرات المجتمع؛ سواء أكان على مستوى الفرد أو الأسرة أو الوعي المتشظي في مخيال التكتلات الفكرية؛ والذي يصل في بعض جوانبه إلى حد الصراع. وهنا تكمن الخطورة في تضيق مساحة الوعي في وطن كان من المفترض أن يتسع للجميع من دون إقصاء.

إنّ التماس الحضاريّ يواكبه تماس لغويّ وتماس تاريخيّ وتماس سياسيّ، لكنّه لم ينتج صيغة استنهاضية، تراعي المرجعية التاريخية؛ وهي تستعيد في كل حدث زمام المبادرة في رسم العلاقة بين الشرق والغرب، بين الرجل والمرأة، بين المعرفة والتقدم من جهة، وبين المادية الوثنية والجهل المقدس من جهة أخرى.

**الكلمات المفتاحية:** الهوية - الفكر الحالم - الانبئات - السطوة - التماس الحضاريّ - النسوية - الاستنهاض - سردية الجهل المقدس - المدارس الفلسفية.

1- أستاذ منهجية البحث العلمي والتّقد الحديث باحث وأديب تونسيّ.

## Abstract

This study examines the issue of literary and intellectual identity among Tunisian writers based on the topics raised through the place as a homeland and the region as an extension and reflection of the cultural conflict between the self and the other in the relationship of the colonized with the colonized through imposing wills or installing narratives that legitimize this reality.

In this context, literary identity becomes variable as society itself changes, especially if we look at the work of fiction in its monitoring of changes in society. Whether it is at the level of the individual, the family, or the fragmented awareness in the imagination of intellectual blocs; Which in some aspects reaches the point of conflict. Here lies the danger in narrowing the space of awareness in a nation that was supposed to accommodate everyone without exclusion.

The civilizational quest is accompanied by a linguistic contact, a historical contact, and a political contact, but it did not produce a rousing formula that takes into account historical reference. In every event, it regains the initiative in drawing the relationship between East and West, between men and women, between knowledge and progress on the one hand, and pagan materialism and sacred ignorance on the other hand.

## مقدمة

حملت الظروف التي مرّت بها البلاد العربيّة خطوطاً متداخلة في معظم الأحيان، وثنائيات متعارضة ومتضاربة في كثير من الأحيان ومتساقطة في حين آخر؛ وكأنّ الأُمّة العربيّة قد عادت تتلملّم باحثة عن ذاتها، ساعية إلى حقّها في الحياة. وهذا التّحرّك الجماعيّ الذي بدأ قبل مجيء الحملة الفرنسيّة، تحوّل إلى شبه حال مرضيّة مع قدوم الغزاة الفرنجة، إذ وقفت على إثره المؤسّسات الدّينيّة شبه رافضة لوجوده، فيما وقفت المؤسّسة الرّسميّة شبه متردّدة به. وبين القبول والرفض نشأت حركات وتيارات فكريّة، بعضها يتفقّى آثار الغرب شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وبعضها الآخر يبحث عن بديل يعيد به تشكيل ذاته خارج تقليد الآخر الغازي. ولم يتبلور الموقف بشكل جليّ، وبخاصّة أنّ الحركات المقاومة لم تكن تملك ما يوازي معدّات المحتلّ الجديد وأساليبه

وعلومه، فكانت المعركة شبه مختلة أمام هذه الوضعية. لذلك أصبح اللّجوء إلى الحلّ الرومنسيّ مثالاً لإرساء قناعة ضبابيّة وفق تعبير رومنسيّ. ولم تكن الرومنسيّة لها طابع واحد في العالم العربيّ بل شملت عناصر تشكيل المجتمع بما فيها الهويّة والأدب والنّمط الحضاريّ.

### أولاً: مفهوم الهويّة

تعدّدت مفاهيم الهويّة لما في اللفظة من أوجه احتملت غير دلالة، فمنها الفعل المجرد هوى ومنها ضمير الغائب هو، ومنها الهاوية والهوة، إلا أننا سننتبع ذلك في اللّغة.

#### أ- الهويّة في اللّغة

إذا كانت الهويّة في اللّغة تعني الأرض المنخفضة والبرّ البعيدة القعر كما وردت في الشعر العربيّ (الجاهليّ) على لسان ذرار الشّماخ في بيته الشعريّ:

« فلما رأيت الأمر عرش هويّة

تسلّيت حاجات الفؤاد بشمراً»<sup>1</sup>

والمعنى فيه تصغير لكلمة «الهوة»، إلا أنّها عند أهل الحقّ تبقى «الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق، اشتمال النّواة على الشّجر»<sup>2</sup>.

وإذا كان التعريف اللّغويّ للهويّة قد حصرها في الانخفاض والغور الذي يحتاج إلى جهد ذهنيّ وعقليّ لمعرفته، فإنّ موضوعنا يتناول الهويّة من جانبها الاصطلاحيّ الحديث الذي يركّز على الصّفات المحوريّة لها. فالهويّة مصطلح متطور الدّلالة، لكنّه محصور في بوتقة التّطابق والتّشابه لما هو متماثل الذي يميّز قومًا عن آخرين، لتأخذ ماهيتها من مجموع الصّفات والسّمات والمعتقدات والقيم التي تميّز شخصًا أو مجموعة عن غيرهم، وتشكّل تفردهم وإحساسهم بالذّات. هي أيضًا حقيقة الشّيء أو الشّخص التي تميزه عن غيره.<sup>3</sup> بهذا السّياق الاصطلاحيّ يمكن أن نطلق على مجموعة من

1- ابن منظور: لسان العرب، المجلد الخامس عشر، دار صادر بيروت، ط:3، سنة 1994، ص: 374.  
2- الزبيدي، مرتضى: تاج العروس، تحقيق علي شيري، المجلد العشرين، دار الفكر للطباعة للنشر والتوزيع، بيروت لبنان 1994، ص: 349.  
3- الفاضل الكثيري: المرأة والهوية بين الآن والأخر في الرواية العربيّة، ص: 15.

متكلمي لغة واحدة «هوية موحدة»، ولكن هذا التحديد يظل مطّاطاً.

**ب. التعريف المكاني:** تبلور التعريف المكاني للهوية مع كثرة الصراعات والحروب، فأصبح الصراع يتحدّد وفق المكان والمحاربين والأحداث، ووفق مقتضيات السّكان، بعدما تحوّلت القبيلة إلى دولة. فالمكان هنا أخذ مواصفات مالكيه وسكانه والمتواجدين عليه. مع تطوّر الفارق بينه وبين ديار سلمى عند امرئ القيس.

فمكان الهوية هو مكان المقتضى والضرورة العصرية بعدما تغير نمط العيش من الترحال والتنّقل إلى الاستقرار والتّمدن، وهو يعني الامتداد والاتّساع للمحل والفضاء الذي يحيط به بما يحمله من علامات جغرافية مرتبطة بتشكيل هوية المكان، وهوية الإنسان الذي يعيش عليه. وإنّ أيّ تغييرات قسريّة (قهرية) تحدث في المكان من شأنها أن تُحدث انشراخات في الشّفرة العلائقية بين الإنسان والمكان، كما حدث مع الشّعب الأندلسي ويحدث الآن مع الشّعب الفلسطيني.

وقد تحوّل المكان إلى مسرح سرديّ حتّى صار مجالاً من أوسع مجالات الإبداع التي تضفي على الخطاب الرّوائي الرّاهن رافداً من روافد النّراء والجمال وتحدّد هويته التّاريخية والحضارية والثّقافية.

### ثانياً: المفهوم الأدبي للهوية

ارتسمت الهوية عبر الأدب الذي كتب في المائة سنة الماضية، وتمثّل المنعطف الذي وضع بصماته على ترسيم جغرافية الوطن العربيّ من جهة، وشعوبه من جهة أخرى. وما لا شكّ فيه أنّ هذه الهوية الأدبية عند الكتّاب في تونس لم تخرج في معالجتها لقضايا أصلها من تلك الصّيحات التي أطلقها أدباء المشرق بل وصل الأمر إلى مشاركة نوبات الانفعال في صيحات المشرق والمغرب على حد سواء في الأزمات والاجتياحات وإرهاصات الإخفاق وربما بعض النجاحات. وبما أنّ معظم الأزمات تعمّ عالمنا العربيّ جرّاء وجود الكيان الصّهيونيّ وتبعاته في تشكيل واقعنا كي يضمن استمراره، فإنّ المفهوم الأدبي للهوية قد وسم بحدود معجمه اللّغويّ وشحنته النّفسية وزمكانه المضطرب

**أ - المعجم اللّغويّ:** مثل القاموس العربيّ بمفردات البناء اللّفظيّ لهويتنا الحالية، وقد جاءت الحقول التّعبيرية سجلاً مهماً في كشف الانزياحات اللّغوية كونه دليلاً على



انزياح آخر طال شرائح المجتمع، وبخاصة في حقبة ما بعد الحداثة التي تسمى عولمة  
عندما سقطت كل جدران الحصانة للدولة القطرية. ومن هنا كان اطلاع أدبائنا على ما  
أنتجه الآخر جزءاً مهماً في الانطلاق بالمنطوق اللغوي لتشكيل عالمهم. وهو تحوّل  
جذريّ في الشكّل والمضمون، بحيث يفتح الأدباء الجدد آفاقاً جديدة للتعبير عن تجربتهم  
الشخصية، وتعبيرهم عن قضايا مجتمعية وثقافية مختلفة. يقول محمد الماغوط الشاعر  
السوري:

لن أنهض

حتى تجمع كل قضبان السجون وإضبارات المشبوهين

في العالم

وتوضع أمامي

لألوّكها كالجمال على قارعة الطريق..

حتى تقرأ كلّ هراوات الشرطة والمتظاهرين

من قبضات أصحابها

وتعود أغصاناً مزهرة (مرة أخرى)

إذا القصيدة لا تحتاج إلى كد ذهنيّ للوصول إلى مدلولاتها، فتركيبية معجمها دليل  
صريح على فرضيات الواقع. ولم يحصل هذا التحوّل التعبيريّ لولا التيارات الفكرية  
التي اجتازت الحدود. والأدب هو اطلاع على المشترك الأساسي، بما في ذلك الذي  
قدّمته مدارس الغرب، وتجاوز حدود أوروبا إلى العالم العربيّ بصورة خاصة، وإلى  
الشرق بصورة عامة. فكانت نفحات شكسبير وأليوت، وكانت نفحات المدارس الفلسفية  
والاقتصادية واللغوية والاجتماعية أشدّ وقعاً على الحركات الفكرية والأدبية في عالمنا  
العربيّ في طروحاتها وتجدها الإنسانيّ المطلق، ما جعلها ماثراً إعجاب الأدباء العرب  
في هذه البلاد التي يؤمّها ما يقارب عشرة ملايين سائح في السنة، وهم في تواصل  
مستمر مع شعبها إلى مختلف العواصم.

ب- **الشحنة النفسية للغة:** مثل الواقع البائس وصراع المقهور مع الحد الضامن للسلطة والرقب في إدارة المجتمعات البارزة التي تصدرت التعريف بالمجتمع وتحديد هويته. ومع تغير هوامش القيد والضبط الاجتماعي بدت المواضيع التي تعيشها البلاد مواضيع مشتركة مع الناس في مختلف القرى الكونية، وصار ما يمس المتواجدين هناك بشكل دائم أم مؤقت، كما يمس الذين يعيشون هنا بشكل مزر. وقد شكّل هذا الوضع نسيجاً جديداً في العلاقات الإنسانية وفي المنظومة الثقافية المعاشة. وهذا ما حمل شحنات نفسية تبلورت في صرخات الاحتجاج والحركات الانفعالية كونها جزءاً من التعبير عن الرفض والشعور بالخطر المحدق وبخاصة أنّ الغرب نفسه يعيش الآن عهد النّية المتشطي وموت القيم في تمفصلات الغرب التائه والمحتار أصلاً في حضارة النّية هذه. ومن هنا تكوّن الشعور بالمسؤولية الكونية لمواكبة التغيرات والثقافات الوافدة، والخروج من الدوائر الثقافية المحلية الضيقة التي رزحت فيها البلاد حيناً من الزمن. لكن المشكلة التي أصابت المسيرة الأدبية في بداياتها هي تعميم المفاهيم التي اتخذت صيغة قوية عند المغاربة، كما هي عند التونسيين؛ مع صالح القرمادي وعثمان الكعاك ونور الدين بن بلقاسم وزهرة الرياحي والبشير بن سلامة ومحمد مزالي... والملاحظ أنّ واحداً من هؤلاء لم يفكر في تحديد الحقل الذي يعمل فيه أو يوجهه إلى وظيفة تقنية/بنوية/أيدولوجية، إذ إنّ عاهة الحديث عن كلّ شيء مرّة واحدة يأخذ مجرى اللهب عندهم... وحتى في الجزائر، فإنّ محمد الميلي والطاهر وطار، ومصطفى الأشرف يتحدثون عن الرواية، لا عن النوع أو الإشكالية التي تعانيتها داخل الإطار الإبداعي<sup>1</sup>. والهوية عند الكتاب في تونس لم تخرج عن الأطر المعروفة سياسياً في حقبة ما بعد الاستقلال مباشرة، سواء من حيث تكريس النزعة الوطنية وإبراز السمة المحلية والعمل على تقديم لهجاتها كونه البديل اللغوي المرتقب لهوية الكيانات الجديدة، وبعثها من جديد، ودعم توجهات دعائها. وهذا ما زرع الاستقرار وزاد من دوائر الخوف والتوتر، وكل ذلك بعد أخطار المؤشرات على هشاشة الدول الناشئة حديثاً.

في حين بدا الاتجاه الواقعي الذي راج آنذاك محل إعجاب لمجموعة من الشبان، بل هو تعبير عن لحظة اجتماعية معينة ترجمها قلة من الشباب، وأوجدوا لأول مرة في العربية أدباً قصصياً جاداً ذا شكل متطور، واستطاعوا أن يؤثروا في الأشكال القصصية

1- علوش، سعيد: ص: 123.

الرَّائِجَةُ الَّتِي أَصْبَحَتْ تَعْنَى بِتَصْوِيرِ الْبَيْئَةِ»<sup>1</sup>، مَا يَمْنَحُهَا ذَلِكَ التَّمْيِيزَ الْمُتَعَلِّقَ بِالْهُوِيَّةِ.

### ثالثاً - الْهُوِيَّةُ وَالْمَكَانُ بَيْنَ الْوَطَنِ وَالْإِقْلِيمِ

قَدِيمًا نَظَرَ ابْنُ سَلَامِ الْجَمْحِي (846-676) فِي الْخَبَرِ إِلَى أَثَرِ الْبَيْئَةِ وَمَا يَجْرِي فِيهَا؛ «مِنْ كَثْرَةِ الشَّعْرِ وَقَلْتِهِ فِي جُودَتِهِ...، وَالْفَرْقِ بَيْنَ الْبَيْئَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ، اعْتِمَادًا عَلَى ذَلِكَ»<sup>2</sup>. وَوَافَقَهُ ابْنُ قَتَيْبَةَ (889-828)، فَقَالَ: «نَازِلَةُ الْوَبْرِ فِي الْحُلُولِ وَالظَّنِّ عَلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ نَازِلَةُ الْحَضَرِ»<sup>3</sup>، ثُمَّ أَرْجَعَ ابْنُ طَبَاطَبَا ذَلِكَ إِلَى اسْتِلْهَامِ الشَّاعِرِ الْقَدِيمِ لِبَيْئَتِهِ، وَوَصَفَهُ مَا فِيهَا مِنْ أَشْيَاءَ، وَاتَّخَاذَهَا مَادَّةَ أَلْفِ مِنْهَا صُورَةٍ فَنِيَّةً قَائِلًا: «أَعْلَمُ أَنَّ الْعَرَبَ أَوْدَعَتْ أَشْعَارَهَا مِنَ الْأَوْصَافِ وَالتَّشْبِيهَاتِ وَالْحُكْمِ مَا أَحَاطَتْ بِهِ مَعْرِفَتُهَا وَأَدْرَكَهُ عِيَانُهَا، وَمَرَّتْ بِهِ تَجَارِبُهَا... فَلَيْسَ تَعْدُو أَوْصَافُهُمْ مَا رَأَوْهُ مِنْهَا وَفِيهَا»<sup>4</sup> وَقَدْ تَطَوَّرَتْ هَذِهِ النَّظَرَةُ إِلَى الْمَكَانِ بَعْدَ هَذِهِ الْحَقْبَةِ وَحَسَبِ الْجِنْسِ الْأَدَبِيِّ.

فَالْوَطَنُ مَفْهُومٌ جَدِيدٌ حَالُهُ حَالُ الْهُوِيَّةِ لِذَلِكَ كَانَ التَّرْكِيزُ عَلَى الْمَكَانِ أَحَدَ مَعَالِمِ الْبِنَاءِ الرَّوَائِيِّ، وَكَوْنُهُ جِنْسًا أَدَبِيًّا جَدِيدًا هُوَ الْآخَرُ. فَالرَّوَايَةُ تَهْدِينَا إِلَى الْمَكَانِ بِقَدْرِ مَا يَمْنَحُنَا هَوِيَّتَنَا، وَهِيَ بِقَدْرِ مَا تَكْتَشِفُهُ بِقَدْرِ مَا تَكْتَشِفُ نَفْسَهَا. إِذْ يَنْبَغُنَا عَرْضُهَا لَهُ وَحُضُورُهُ فَيَبْلُغُ مَقَامَهُ مِنْهَا وَأَثَرُهُ الْفَعَالِ فِيهَا وَمُسَاهَمَتُهُ الْجَلِيلَةَ فِي بِنَاءِ عِلْمِهَا. بَلْ إِنَّ الْمَكَانَ لِفَاعِلٍ فَعَلَهُ حَتَّى فِي لُغَةِ الْأَثَرِ. وَالرَّوَايَةُ تَصْدُرُ فِي مَزَاولَتِهَا هَذِهِ عَنْ رُؤْيَا أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ عَامَةٍ»<sup>5</sup>. فَصَارَ الْمَكَانُ يَحْدَدُ بِخُصُوصِيَّتِهِ، وَصَارَ تَصْنِيفُهُ لَا يَخْضَعُ لِمَعَايِيرِ الْجِهَاتِ فَحَسَبِ، بَلْ يَنْطَلِقُ مِنْ زَوَايَا مُتَعَدِّدَةٍ. وَقَدْ تَكَلَّمَ النِّقَادُ عَنِ الْمَكَانِ الْمُتَخَيَّلِ وَالْمَكَانِ الْحَقِيقِيِّ، كَمَا تَكَلَّمُوا عَنِ مَكَانٍ خَارِجِيٍّ وَآخَرٍ دَاخِلِيٍّ، وَجَعَلُوا الْأَحْدَاثَ مُنَاسِبَةً لِكُلِّ تَصْنِيفٍ مُلَائِمٍ لِلْفِعْلِ الرَّوَائِيِّ انْطِلَاقًا مِنْ مَكُونَاتِهِ وَفَضَائِهِ وَالتَّغْيِيرَاتِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَيْهِ. كَمَا صَارَ الْحَدِيثُ عَنِ الْأَمْكُنَةِ فِي أَبْعَادِهَا الزَّمْنِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَحْتَاطُ الرَّوَائِيُّ فِي تَوْظِيْفِهَا لِيَكْسِبَ السَّارِدَ أَوْ الزَّائِلَ ذَلِكَ الْعَالَمَ الرَّوَائِيَّ الَّذِي نَسْجُهُ. رَغْمَ كَوْنِهِ يَقْدَمُ عَالَمًا مُزْدَوِجَ الْجَوَانِبِ، فَتَارَةً تَرَاهُ عَالَمًا وَاقِعِيًّا حَقِيقِيًّا، وَآخَرَى تَرَاهُ يَنْتَسِمُ بِسِمَاتِ أُسْطُورِيَّةٍ أَوْ

1- عياد، شكرى: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، عالم المعرفة، الكويت، العدد 177، ربيع أول 1414هـ/ 1993م، ص: 134.

2- نصار، حسين وآخرون: الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع، مركز الوحدة العربية، بيروت 1997م، ص: 219.

3- ابن رشيق الحسن بن علي: العمدة في صناعة الشعر ونقده، دار الجيل، ج: 1، بيروت، 1972م، ص: 226.

4- أبو الحسن، بن محمد بن أحمد بن طباطبا: عيار الشعر تحقيق وتعليق طه الحاجري، ومحمد زغول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956م، ص: 10.

5- زايد، عبد الصمد: المكان في الرواية العربية، الصورة والدلالة، دار محمد علي تونس، 2003، ص: 9.

خيالية تجعل له وجوداً مستقلاً يحاور وجوده الشخصيات ويخضعها أحياناً لنفوذه»<sup>1</sup>، ويفرض عليها تلك السلطة التي ركبها مخيلة الشعوب. أو تفرضها قوى تمثل الحدث الاستعماري، سواء كان هذا الحدث عسكرياً أم اقتصادياً ممتداً إلى السياسة والاجتماع والثقافة، محدثاً التميز المرسوم أو محافظاً على سرّ الاحداث بشكل طبيعي. وفي مختلف هذه المسافات نكتسب الهوية ماهيتها من تلك السمة الحدودية الفارقة، وربما التجانس المغاير. إذ لا بد للإنسان من تحديد منزلته بالانطلاق من المكان»<sup>2</sup>، وحتى يتم ذلك، لا بدّ أن يعقد علاقة شخصية من المكان، ويعدّه أداة أو موضوعاً أو طرفاً مخاطباً، ويفهم أنّه ليس كائنًا نكرة. عندئذ يصبح المكان موضوع رغبة ومحل فعل وجدوى»<sup>3</sup>؛ ومن هنا، تتولّد المشاعر كونها جزءاً من ثقافة المكان نفسه.

وبما أنّ الهوية سمة حدودية فارقة اتخذت تصنيفها من مجموع التفاصيل التي شكّلت معالمها، فإنّ المكان هو أكثرها تمثيلاً لهذه الخصوصية التي يمكن من خلالها أن نطلق عليه «هوية الثوابت المرجعية». فالأمكنة والأزمنة ليست في سائر الحالات سوى أطر مجردة لها الدلالة نفسها في بلورة الهوية؛ إذ «تقع الإشارة إليها، لأنّها من لوازم الفعل ومتمماته. بل إنّ المكان والزمان في كثير من الأحيان يسهمان في توجيه الخطاب لما يمكن أن يقترن بهما من شحن عاطفية»<sup>4</sup>، وغالباً ما يقدم الكاتب حسب حركة الفعل، وعلى أساسه يصبح المكان أمكنة «ليظهر المعنى الرمزيّ لها»<sup>5</sup>، وقد يولي اهتماماً أكبر، فيقدّم المكان الداخلي والخارجي على حد سواء، باحثاً في تلك الخصوصيات والعناصر التي تشكّل في مجملها عالم الرواية، فتؤثّر وتتأثّر، وتبني ويبني عليها ذلك العالم. وتكون تلك الصّور مشاهد روائية ترتسم من خلالها عوالم الرواية وهويتها، ابتداءً من أناس المكان وشوارعه وأبنيته والوسائل الموجودة فيه، مروراً بكشف ذلك الفضاء الداخلي، وما وجد فيه من أثاث، وهندسة غرف وخبايا لنفوذه، ويفرض عليها تلك السلطة التي ركبها مخيلة الشعوب، أو تفرضها قوى تمثل الحدث الاستعماري، سواء أكان هذا الحدث عسكرياً أم اقتصادياً ممتداً إلى السياسة والاجتماع والثقافة، محدثاً التّغير المرسوم

1- خالد، حسين: نظرية المكان في الرواية الجديدة، ص: 396.

2- J.Matore: l'espace humain, P: 17.

3- J.Matore: l'espace humain, P: 110.

4- حاتم، عبيد: من الخطابة إلى تحليل الخطاب، ص: 51.

5- حاج، معتوق محبة: ص: 58.

أو محافظًا على سير الأحداث بشكل طبيعي، وفي مختلف هذه المسافات تكتسب الهوية ماهيتها من تلك السمة الحدودية الفارقة، وربما التجانس المغاير. إذ «لابد للإنسان من تحديد منزلته بالانطلاق من المكان»<sup>1</sup> وحتى يتم ذلك، لا بدّ أن يعقد علاقة شخصية مع المكان، ويعدّه أداة أو موضوعًا أو طرفًا مخاطبًا، ويفهم أنّه ليس كائنا نكرة. عندئذٍ يصبح المكان موضوع رغبة ومحل فعل وجدوى. ومن هنا، تتولّد المشاعر كونها جزءًا من ثقافة المكان نفسه.

## المبحث الثاني: الهوية والتشكّل الحضاري

### أولاً- التشكّل الحضاري

الحضارة مصدر لغويّ سماعي، والجذر حضر وهو فعل متعلّق بالزّمن والحركة على حد سواء فالحضور الزّمنيّ مرتسم بالفعل البشريّ، والحضاريّ مدلول التّجمع البشريّ يمكن أن يشمل جميع جوانب المجتمع، بما في ذلك الاقتصاد والسياسة والثقافة. ويمكن أن يشمل التّطوّر في معدّات العمل واللبّاس والبناء وغيره.

أ- التّطوّر البنائي: التّطوّر سنة كونية في المجتمعات البشرية، بحيث تتراكم التّجارب والمعارف والإنجازات الماديّة، وتمنح آفاق جديدة لمقتضيات التجديد فيها ومن ثم تكتسب استمراريّتها، لأنّ وقوفها هو الفناء بعينه، وبما أنّ الهوية سمة حدودية فارقة اتخذت تصنيفها من مجموع التّفاصيل التي شكّلت معالمها، فإنّ المكان أكثر تمثيلًا لهذه الخصوصية التي يمكن من خلاله أن نطلق عليه «هوية الثّوابت المرجعية». فالأمكنة والأزمنة ليست في سائر الحالات سوى أطر مجردة لها الدّلالة نفسها في بلورة الهوية؛ إذ «تقع الإشارة إليها، لأنّها من لوازم الفعل ومتّمّاته، بل إنّ الزّمان والمكان في كثير من الأحيان يسهمان في توجيه الخطاب لما يمكن أن يفترن بهما من شحن عاطفي<sup>2</sup>، وغالبًا ما يقدم الكاتب حسب حركة الفعل، وعلى أساسه يصبح المكان أمكنة» ليظهر المعنى الرّمزي لها، وقد يولي اهتمامًا أكثر، فيقدّم المكان الخارجيّ والدّاخليّ على حد سواء، باحثًا في تلك الخصوصيّات والعناصر التي تشكّل في مجملها عالم الرواية، فتتأثّر وتتأثّر، وتبني ويبني عليها ذلك العالم. وتكون تلك الصور مشاهد روائية ترتسم من

1- J.Matore: l'espace humain, P :17

2- حاتم، عبيد: ص: 51.

خلالها عوالم الرواية وهيئتها، ابتداء من أناس المكان وشوارعه وأبنيته والوسائل الموجودة فيه، مروراً بكشف ذلك الفضاء الداخلي، وما وجد فيه من أثاث، وهندسة غرف وخبايا وأسرار. هذه العناصر المشكلة في مجملها الهوية المكانية هي التي يقع عليها ذلك التأثير العولمي، وبالتالي التغيير المندرج ضمن منظومة معينة. ولعل رصد أثر العولمة على المكان نفسه؛ هو ذلك المكان الافتراضي الذي اقتحم الحدود، وهدم الحواجز وأسقط السواتر التي كانت في يوم ما عائقاً أمام الناس ودرعاً تتمترس به السلطات المتعددة. هذا المكان الافتراضي وحده حط رحاله أمام الناس، فصاروا ينظرون إلى العالم على أنه مجرد قرية صغيرة تحتاج إلى تضافر الجهود للمحافظة عليها من الاختلال والعبث والفوضى المستجدة التي فرضها التقدم التقني والتقلبات المالية والأزمات الاقتصادية.

**ب- التشكّل في إطار التحول:** في ظلّ التغيرات المتلاحقة والمعارف المتراكمة والمتسارعة بدأ الفهم الجديد للحضارة يتشكّل في ظل كونيّة العالم أو تحوّل الدولة القطريّة إلى قرية عولميّة، وهنا بدأت مفاهيم الحدود تفقد تلك السّطوة، وأصبحت قضايا الوطن متماهية في قضايا الإقليم والمحيط والعالم أجمع. وهنا تجاوزت الهوية تلك الخصوصية الضيقة التي توقعت فيها لسنين طويلة، وصارت هوية انتماء إنسانيّ وليس انتماء تتحكّم فيه خصوصيّات اللون والعرق. وفي هذا الإطار، ولتقويم الانزياح الذي يفرضه بعض المنتفعين بالعولمة نحو الأمركة، يصبح الحديث الشريف «كلّم لآدم وآدم من تراب»، إذ لا فرق بين عربيّ على أعجميّ، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، مخرجاً مهماً في عملية التّصويب، وكأنّ العمل وحده هو الآلية المثلى للتّواصل مع العالم الآخر. فالتشكّل لا يتم إلا في إطار مواكبة التّحوّل العلميّ الهائل.

إنّ تأشيرة العبور إلى المجتمع العالميّ لا يجب أن تكون ضحلة، بل يجب أن تحمل معها هي الأخرى ما يمكن أن يكون مؤشر انتماء سواء أكان باللّغة التّعبيريّة أو المساهمة الماديّة لأنّ الأمر لم يعد يخص مجتمعاً دون آخر. بهذه المعطيات انفتح المكان الضيق على أفق أكثر رحابة، اختلط فيه الواقعيّ بالخيال.

### ثانياً: الأدب والتشكّل الحضاريّ

لم يكن الأدب بعيداً من الواقع الحاضر بل مواكباً إلى حدّ ما، وربما كانت تعبيراته لا تصرّح بذلك مباشرة لكنّها يلمح أو يلوي عنق الواقع بالتأويل كما هو الحال عند درويش

في رواية الدّراويش يعودون من المنفى» فالتّحوّل في إطار المكان على صعيد القرية، تحكمه رؤية غير عقلية هي مزيج من الرؤية الدّينية والخيال الأسطوري، لذلك فالقرية الفلانيّة تتجاوز الـ«هنا» كونها قرية من قرى الرّيف التّونسيّ أو منطقة من المناطق التّونسيّة إلى كونها فضاء مأنوساً منذ ما قبل التّاريخ، منفتح على الحاضر، لذلك لم يجد فرنسوا مارتال ذلك العناء الشّديد في العمل وفق معطيات المكان، يصلي... يحضر الجنائز... يقابل الناس... يقيم السّهرات لكنّه في الآن نفسه يتابع درويش في كل تفاصيل حركاته ويحمّله أكل الخليقة منذ البدء.

### المبحث الثالث: المقاربات المكانية عند الأدباء الجدد

تبدو مقارنة الأمكنة فيها الكثير من التّعنت في قراءة النّصوص لأنّ كلّ نصّ له خصوصيته، بحيث تنشظى مميزات الهويّة في تلك المقاربات المكانية.

#### أولاً: المقاربة في الروايات الحديثة

تبدو المقاربة من خلال اللّغة والمحتوى أمراً دلاليّاً في تعرية الواقع من خلال الشّخصيّات والفعل والأمكنة والتّطلعات والقضايا. ففي رواية «حفر دافئة»، يصبح فعل الرّحيل مكاشفة صريحة لنواقص المكان. فحمودة يرحل لأنّه لم ينجب أولاداً في ذلك المكان الذي يعيش فيه في ضيعته في تونس. وعادل الطّالبي يغادر المكان، لأنّه لم يقبل في الاختصاص الذي يريده في جامعة بلده. حتى سعادة تلك الممرضة الجميلة ضاق بها المكان فغادرته، وتعيش عيشة الغربة، فتشرّع جسدها لمن يشتهيها، ويتساوى في ذلك الإيطاليّ والفرنسيّ والعربيّ لتتحوّل إلى ناشطة في جمعية نسائيّة في باريس وتقضي العمر تسكّعاً في شوارعها.

أمّا عند أمل مختار، فقد كفّ «المكان عن أن يكون مادة ليصبح حركة علاقات بالأشياء والناس معاً؛ «لكن المشكلة أن الأشخاص أنفسهم تاهوا؛ فمن يختار المكان إنما السرب الذي ضلوه فضاعوا، وضاعت عنهم الجماعة وأمن الانتماء إلى السرب الذي يحفظون به اختلافهم<sup>1</sup> عن الآخرين، ولم يعد أمامهم سوى العودة من جديد.

1- عبد الصّمد، زايد : ص: 37.

ولا شك أنّ الرواية تصدر في مزاولتها هذه للمكان عن رؤية أيديولوجية عامة تجد فيها شتى مظاهر الفضاء؛ وإن تعددت وتباينت مناط تجانسها وترباطها<sup>1</sup>، كما أنّ حصر التاريخ في معانيه القديمة وعدم الانتباه إلى حركة التّغيير والالتزام بقواعد سننه كفيل بإلغاء فهم للمستقبل وما يتطلبه من آليات تتماشى مع الواقع المستجد بكل تعقيداته.

ولا يلبث المكان نفسه أن يتحول إلى مختبر للتجارب وتعرييات تلك الممارسات التي لم تعد فاعلة في مجتمع صار الكثير منه متأثراً بما يأتيه عبر الشاشات، ووسائل الإعلام. ففي رواية «صحري بحري» لعمر بن سالم، تتقلب الصور ويصبح كل شيء في تغيير مستمر إذ أنك لا تدرك أن الهفوف شيخ في الصباح يعلم الفقه في جامع وعلائية في ظل وضع يصعب حتّى على غير المتزوجين ادراك إذا كان هو نفسه متزوج وله أبناء<sup>2</sup>. ولعل هذا الأمر هو السمة المشتركة في الروايات التّونسيّة، من حيث اختلاف الموضوع والانتماء السياسيّ. فمعظم الروايات اتخذ صيغة الحكاية الرّوائية المندرجة في سياق السرد العربيّ القديم الجامع بين التراث الشعبي وفن المقامات. لكن الاختلاف كامن في ذلك الانغماس الهائل في مواضيع كانت سابقا من المحرمات؛ إذ يمثل الجنس والشذوذ عصب النص المكاني والعنصر المحرك للنص نفسه في إطار عملية نقد الواقع من بابه الخلفي المغرق في العقم والأزمات. وفي الحقيقة إنّ هذه النصوص جاءت كشفا لمرحلة اعتبرها البعض حادثة المجتمع، وعدها آخرون مرحلة السقوط والانهيال الخلفي. لأنّ المكان في الأساس هو رمز ومرجعية لذلك التجذر المتعلق «بلارض، أرض الأجداد، والإخلاص لها وفاء لهم وأمانة على وجاهة السّلالة وجدارتها»<sup>3</sup> والسكوت عن ذلك هو الخيانة التي لا تغتفر. فالتغيير الذي أولي هذه العناية هو بمثابة إعادة رسم معالم الهوية في ظل المتغيرات، وكل المسألة هي بالتّحديد رصد عملية الإفلات من ملامح الهوية في أطوار متعددة. ونظراً لذلك التّشابه الرّاحف، فإنّ التّأكيد على السّمة الخاصة التي تتّسم بها كل قرية في أي بلد آخر من بلدان العالم هو نتيجة طبيعية للعمل الرّوائي وتمايزاته، إذ لكل مكان سمة ما، وإن تشابهت أو طغت عليها الجوانب الماديّة التي كرّستها العولمة المندرجة ضمن ثقافة المكان، ضمن إنتاج الحدث من المرجعية التّاريخيّة التي غالبا ما يكون التراث أحد أهم معالمها. ويبقى التجاذب السياسيّ هو المحرك الأساس للتعبير،

1- عبد الصّمد، زايد: ص: 9.

2- بن سالم، عمر: صحري بحري، ص: 25.

3- عبد الصّمد، زايد: ص: 68.



وصبغه بألوان تتماشى مع سطوته.

إلا أنّ انعكاس هذا الأمر يتّضح بجلاء في فضاءات المكان نفسه، إذ أنّه يعدّ المؤشّر الأساس في تبيان ذلك المؤثر في إحداث التّغيرات التي تشكّل تلك المقاربة بين هوية سابقة وهوية في طور التّشكّل؛ سواء على مستوى جماليّة المكان أو على مستوى الأماكن المغلقة (العمران) في ثنائية مقارنة بين مكانين وحضارتين وثقافتين. ففي «وردة السّراب: تقوم المقابلة بين الشّرق والغرب، من خلال المقارنة بين مدينة عربيّة في السّعودية و مدينة أوروبية، فالأولى لم ترقّ إلى مستوى القرية الحديثة، في حين أنّ الثّانية تقدّمت مكتملة المعالم والمرافق والبنى. فالحديث عن باريس وضواحيها التي تمدّنت منذ مئات السّنين، و«انتصبت...شامخة بنهرها وتاريخها الحافل، معارك ثورات والكمونة وماي... وقصورها ومتاحفها وورودها وحدائق العشق»<sup>1</sup> هو حديث الفوارق السّحيقة بين باريس نفسها ومدننا التي عشعش فيها الخراب، وكأنّ المسألة في هذه الرّواية لم تخرج من ثنائية البداوة والمدنية، فمقابل أم الدّوم القرية السّعودية النّائية تنتصب باريس عاصمة النّقافة الأوروبيّة، ثم تواصل الرّواية الوصف لأم الدّوم التي تتقلب بين حرّ الهاجرة وقر الشتاء، قرية صامتة تشبه المنفى إلى حدّ ما.

وتستمر لعبة المكان في السّرد الرّوائي التّونسيّ في توصيف محمل بالكثير من الدلالات، ففي رواية «ارتباك الحواس»، لم يكن المكان سوى محطات ومسرح لفعل عابر في حياة كل من أمين الرّحلاوي وشامة دباس الكراولي وماتيويس، وجورج ورضوان الجربي صاحب السّفن. فإذا نظرنا إلى كلّ منهم نجد أنّ طبيعة العمل والحياة الشّخصيّة هي في واقع الأمر غير مستقرة، لذلك جاء الجميع غير متجذّر في المكان، منقطع عن الأولاد والهويّات والانتماء؛ إنهم باختصار أناس تائهون. تقطّعت بهم السّبل والارتباطات وأجبرتهم الطّروف على ترك المقرّات الأساس لهم، «جاء إلى المدينة أناس كثيرون هرباً من الموت والنّار، عرب وإفرنج ويهود وغيرهم»<sup>2</sup>. وبهذه النّقلة في تحديد المكان يمكن القول إنّ الهويّة والمكان مسألتان على غاية من الأهمية في توضيح الانتماء ومعالجة المشكلات التي تدور حولها الرّواية نفسها. وفي رواية «توقيت البنكا»، تتعدّد الأمكنة بتعدد الحراك السّلوكيّ للشّخصيّات وبآليات تعبيراتها عن مواقفها. فالمكان في هذه الرّواية هو مكانان بحيث يقوم

1- بن سلطان إبراهيم: وردة السراب، ص: 58.

2- ارتباك الحواس، ص: 48.

في الأول عالم المظالم والفساد، في حين يقوم الثاني على العدمية كسابقة وهوية في طور التشكّل، سواء ظهر ذلك على مستوى جمالية المكان أو على مستوى الأماكن المغلقة (العرمان) في ثنائية مقارنة بين مكانين وحضارتين وثقافتين.

فالمكان في هذه الرواية هو مكانان، بحيث يقوم في الأول عالم المظالم والفساد، في حين يقوم الثاني على العدمية والنبه هو ما عبر عنه الأب المسافر « الحياة لا تطاق... المختار طلب الرّشوة واضحة وصريحة كي يسلمني ورقة تقول لمن يهمه الأمر إنني ولدت هنا.. شرطي البصمات صديق الطفولة... قال لي عد غدًا... بعد أسبوع قال ماكش مش تشربنا قهوة.. ماكش ماش تشربنا قازوزة... موظف الجوازات يريد نومرو حتى ييني بيتًا... بعد شهرين تمكنت من تجديد جواز السفر»<sup>1</sup>، إلا أن معاناة المكان في الغرب تظهر من جانب آخر؛ وكما قال الأب « عرفت باريس من بوابتها الخفية... كان ما بدأت به عالمًا سفليًا فعلا بقايا يسار تطن في الشوارع... عرفت الطالب... عرفت العامل الذي طنّ حوله اليسار»، ليصدق في النهاية بالنتيجة المرة التي ربما يعانيتها آلاف العمال والمهاجرون في تلك الديار « اللي ضيع بلاده... تضيعه بلاد الناس... رخيص دمك في بلادك... ورخيص في بلاد الناس»، هكذا هي الصورة المختلفة التي لم تر في المكان سوى المعاناة أو منزلة بين نارين عند روائي عاش مدة غير قصيرة متنقلًا بين البلاد العربية والغربية، لتكون هذه الرواية أقرب إلى السيرة منها إلى الرواية.

أما في رواية «تماس» فالأمر يعالج مسألة أخرى لا تقل أهمية عن ذلك الفضاء الذي أثار الكثير من بؤر التوتر لبلورة فعل الشخصيات نفسها، وقد جاء المكان هنا محليًا بامتياز، حيث تتجلى من خلاله تلك الطقوس والعواطف والانفعالات «وحركات تتنافى وتتوالد من بعضها البعض لا تستقر ولا تهدأ ولا تستكين»<sup>2</sup>، وغيرها من الكواشف التي تعدّ بحق سمة الهوية وأحد أهم مؤشراتهما.

إلا أن السمة العامة تظهر الجانب الذي يمكن أن يكون موضحًا لتلك الهوية، لأنّ الفضاء المكاني يتسم مكانه بأنه معاد، تبدو علاقة الشخصيات به علاقة قذرية يصعب الفكّك منها.<sup>3</sup>

1- اليوسفي محمد علي توقيت البنكا، ص: 176.

2- النالوتي، عروسية: تماس، دار الجنوب للنشر، تونس، 1995م، ص: 37.

3- صويلح، خليل: ص: 12.

وإذا كان المكان الغربيّ في بعض الروايات يثير الدهشة والإعجاب، ويستحوذ على الكثير من الاهتمام، فإنّه في «زهرة الصّبار» لعلياء التّابعي يفقد هذه الهالة، ويتقدّم هو الآخر مخاوٍ من ذلك البريق وخاليًا من الحيوية والحياة، ماذا بقي لي في لندن؟ ضباب كثيف... جو من الخراب والحزن القابض.. وتاكسيات سوداء تنزلق على النّللج الملوّث بالوحل.<sup>1</sup>

في هذه النّقلة يتراءى الوجه الآخر للمكان عند الكتاب اليساريين في تونس، حيث يصبح هذا الحفر جزءًا من البحث عن التّموقع في خيبة المثقفين في هذا البلد الذي لم يستطع أحد ان يتموقع فيه بشكل مثمر دون أن تلفظه تربته، وكأنّ الكتابة هنا، هي إعادة حفظ لتلك المسيرة التي مرت بها النخب في بلد هو اقرب الى العناية الفائقة منه الى الانطلاق في الاتّجاه الصحيح، وعلى حدّ تعبير أحدهم الإقلاع عكس الزمن، اذ لا تنبت جذور في سماء لا هويّة لها.

### ثانيا- الصّراع بين الأنا والآخر في علاقة المستعمر بالمستعمر

مثّل الأنا الشّرقي معضلة للأخر الغربيّ في العديد من المراحل سواء في مرحلة قوته أو ضعفه، وفي مختلف الحالتين كان تعبير المستعمر والمستعمر دليلاً على اختلال التّوازنات بين الأنا والآخر من حيث القوّة والقدرة.

أ- صراع الإرادات: تجلّى الصّراع بين المستعمر والمستعمر بوضوح في حقبة الاحتلال المباشر، ثم ما لبث أن توارى وراءه بين شعوب أخرى؛ منها النّقافيّة، ومنها الاقنصاديّة، ومنها النّقنيّة. وتحوّل الصّراع إلى حال من التّوتر النّفسيّ بعدما خفّت حدّة المواجهات العسكريّة، وعجزت فرنسا عن تحقيق مشروعها الاستيطانيّ في الجزائر، كما عجزت بريطانيا ودول أخرى في المشرق العربيّ.

لكن هذا الأمر سرعان ما عاد الى الواجهة في تلاوين خطوط التّماس بين الأنا والآخر في عملية التّدافع المستمر منذ عقود، اذ شكّلت القوة العلميّة الغربيّة غلبة المستعمر (بكسر الميم) وفتحت أمامه آفاق السّيطرة شبه المطلقة على كثير من بقاع العالم، ما جعله لم يقتصر على جغرافيا معينة منذ خروجه من أوروبا وانتشاره في شمال آسيا والأمريكتين وأستراليا ليحيط بالعالم القديم من كل الجهات، وليحول سيرورة التاريخ

1- التّابعي، علياء: ص: 107.

الحديث كله إلى ما يشبه مشروع غربة للعالم»<sup>1</sup>، بهذا التّوجه، وبهذه الأفكار كان دعاة الامتياز الاستثنائيّ للثقافة الغربيّة يؤكّدون أنّ الحادثة اليوم شيئان مترابطان: اقتصاد السّوق والديمقراطيّة، وإنّه ما كان لهما أن يكونا ممكنين خارج الثّقافة الغربيّة»<sup>2</sup>. وقد كان «ماكس فيبر» ومن بعده «فوكاياما» من بين أولئك الذين مازلوا يدافعون عن حضارة الغرب بشكل استعلائيّ، ويستنتي حضارات المجتمعات الأخرى.

إنّ تعدّد مظاهر التّدافع الغربيّ العربيّ على مستويات مختلفة لا يمثل سباقاً تاريخياً وحسب، بل يجعل من تلك العلاقة توتّراً مستمراً. فنحن نعيش على ما استقر في الأذهان من الخطابات السّائدة في المجال التّداويّ العربيّ منذ بدايات القرن الماضي الى اليوم بخصوص هذا الآخر الحضاريّ الذي يمثّل التّقدّم والحادثة والتّقنيّة مثلما يجسّد القوّة والغلبة والسيطرة. إذ يحاول فرض لغاته وأفكاره وقيمه ومصالحه على الذات العربيّة الإسلاميّة، وعلى غيرها من الدّوات الحضاريّة على نطاق أرضيّ وربما قضائيّ في ظلّ هذا التّوهج العلميّ المتزايد. إذ كان خير الدّين التّونسيّ وجيله من روّاد عصر النهضة الشّوام والمصريين، اكتشفوا أن صورة الغرب البعيدة والخارجيّة غير دقيقة بل وقد تكون خداعة، ربما لا! فالأمر يتعلّق بحضارة تنتشر كالطّوفان الذي لا منجاة من خطر الماحق إلا بالسّير في تياره،»<sup>3</sup> كما عبّر عن ذلك «التّونسيّ» محاولاً بهذه الصّورة الواقعيّة في أن واحد تنبيه ذوي العقد من أولي الأمر والعامة لإرشادهم إلى أقوم المسالك للنّجاة من هذا الخطر. إلّا أنّ المعضلة في هذه الحقبة برزت في إدارة الصّراع، فأخذت من خلاله مفهوماً آخر، وطالت مظاهر أخرى، لأنّ هناك من يعاين الغرب كعدو وخصم حضاريّ لا بد من رفضه ومقاومته بكل الوسائل. في قربه وحضوره، في بعده وغيابه»<sup>4</sup>، وبخاصة ان هناك من ينظر الى التّغيّرات الجديدة، أو ما اصطلح عليه بالعولمة فهي انقلاب خطير على هويات الشّعوب، لأنها جعلت العالم خاضعا لمنطق القوة والواحدة عبر تعميم ثقافة الخوف وسيادة الرّعب، أما مرتكزاتها فهي القوة العسكريّة

1- الزّهراني، معجب: ص: 56.

2- أومليل ، علي: ص: 29.

3- الزّهراني، معجب: ص: 60.

4- الزّهراني، معجب: ص: 60.

الزّهراني، معجب: ص: 60.

المتفوقة، والفكر الاستراتيجي الهادف الى الهيمنة والسيطرة والغلبة»<sup>1</sup>، ضمن أحادية قطبية كرسّت مفاهيم الرفض وخلقت قوى ممانعة شديدة، رغم تبرير هذه الهيمنة على انها غير خطيرة... وأن أمريكا القوة العظمى غير استعمارية»<sup>2</sup>. ولعلّ أنموذج القاعدة هو بداية هذا التّوجه الذي عزّى كل الأقنعة، ووسّع تلك التناقضات عند المحافظين الجدد، رغم وجود فريق آخر ينتهج الاعتدال والوسطية، مطوّراً خطاب الموافقات العريق في نصوصه يقيس حاضرها على ماضيها المثالي باستمرار»<sup>3</sup>. في المقابل نجد الغرب نفسه يعتمد على مسائل تقوي من شوكته وفي مقدمتها المسألة القومية بشكل لافت. وهذا ما لفت إليه محمد علي اليوسفي في روايته، حيث أرجعها إلى العمق التاريخي. إذ جاء على لسان أحد أبطاله في تعبيره عن هذا التّغير المتغلغل الذي طال معظم هويتنا بعدما امتد «من أدينكيز» إلى السّاحل اللازورجي «الكوت دازور». «قوميتهم، يا ولد نفيسة، امتدت اليد منا ولغتنا وعمودنا الفقري»<sup>4</sup>، بعدما استطاع هذا الآخر أن يحطّم النظام الاقتصاديّ الدّاخليّ للمجتمع الرّيفيّ الذي كان يتم دورته من دون أن يستفيد الأجنبيّ من حركته الاقتصادية، فضلاً عن حركته الثقافيّة واللّغويّة التي كانت تمثّل دوراً فولاذياً يصعب تحطيمه أو إذابته. ووجدت القوى الاستعمارية الغربيّة صعوبات جمّة في إدخال المناطق ذات البنية القبائليّة والعائليّة والمغلقة إلى نسيجها الاقتصاديّ والثقافيّ»<sup>5</sup>، في حين استطاعت أن تفرض على المجتمع المدنيّ ذلك الإيقاع التّغييريّ المباشر.

وهنا تظهر القيمة الفعلية لتلك العلاقة ومدى خطورتها في بلورة المشروع القادم في مجموع التّحوّلات الاندماجية، وان كانت بوارده الاقتصادية هي أوّل الغيث. إن مسألة العلاقة بين الآنأ والآخر غير محدّدة؛ بل غير ثابتة؛ وهي في الأساس تخضع لكثير من المعايير، ورواسب الصّراع في جوانب كثيرة منه، تحوّلت إلى خوف مستمر من اللّقاء نفسه بين أبناء العرب من جهة وأبناء أوروبا والدّول المستعمرة خاصة من جهة أخرى. إذ إنّ نظرة استعلاء التي بثّها الاحتلال اللاتينيّ مازالت تتربّع على تلك الرّؤية الدّونيّة بعدما انتقلت من الفعل الاحتلاليّ العسكريّ إلى الفعل الثقافيّ والتّصوّرات الفكرية. وبقدّر

1- حماد، كمال: العولمة الأمريكية من أفغانستان إلى العراق، مجلة شؤون الأوسط، مركز الدراسات الاستراتيجية، العدد: 120، خريف 2005م، ص: 45.

2- نكسون، ريتشارد: الفرصة السانحة، ترجمة: أحمد صدقي مراد، عمان، 1992م، ص: 54.

3- الزّهراني، معجب: ص: 61.

4- اليوسفي، محمد علي: توقيت البنكا، ص: 191.

5- الإدريسي، الحسين: ص: 74.

ما جسّد خطاب «مرزاق» العامل الجزائريّ هذا المنحى بقدر ما بيّن هذه الهوة بين عقليتين ومزاجين، كما هو واضح في هذا المسرد النّصيّ «خاطبه رئيس الحاضرة في تعال هذه بلادنا إن لم يعجبكم الحال، فاقصدوا أبناء عمومكم لتروا طيب المعاملة»<sup>1</sup>. وبهذه الإشارة يتعرّى الجانب المسكوت عنه في استمرار التعامل الدوني، وذلك أن مرزاق نفسه يكشف الهوة التّاريخيّة في علاقة تحكمها صراعات المصالح والاستغلال؛ «كنتم سبب خرابنا باستعماركم لبلادنا، مدعين أنّكم جنّتم لتمديننا، فنهبتم منابع الخير عندنا، تحمّلوا وزر استعماركم لنا ثم لا تنسوا دورنا في بناء اقتصادكم بعد الحرب.. كلما مررتم بأزمة حمّلتونا مسؤوليتها»<sup>2</sup>، ولا تشفع وجهة المغاربة نحو الغرب حتى عند أشقائهم العرب أنفسهم، فهم بالنسبة اليهم «فرنكفونيين لا يحذقون العربيّة بسبب الاستعمار»<sup>3</sup>. وإذا كانت الشواهد الأولى تعبّر عن تلك الأزمة في العلاقة بين العرب والأوروبيين، فإنّ المسألة الثانية تكشف عن الأزمة التي يعيشها العرب في شقي الوطن العربيّ.

ولا شك أنّ مسألة الصّراع في الرواية التّونسيّة وبخاصة المكتوبة بالفرنسيّة تأخذ أبعاداً أخرى تجاوزت مسألة الاستعمار إلى مسائل أخرى باتت اليوم مصدر قلق للأوروبيين أنفسهم. ولقد انبثق عن هذه الحال ذلك الشّعور العنصريّ البغيض الذي راح يقض مضاجع أوروبا طويلاً وعرضاً ناهيك عن العديد من المسائل التي استعملها الآخر الغربيّ لاستمراره في استنفاد هذا العربيّ القادم إلى أوروبا في مهمّات لا يمكن لأوروبيّ أن يقوم بها. ولعلّ هذا التّعامل لم يكن من السّهولة الاستغناء عنه عند الفرنسيّ نفسه. ف«فرنسوا مارتان «في الدّراويش يعودون إلى المنفى؛ يعود إلى تلك الأرض التي غادرها أبائهم المستعمرون ليعيد صياغة احتلال جديد وبلورة نزاعات ظنّ بعض العرب أنّها رحلت منذ زمن.

### ثالثاً- الصّراع في عالم الرواية

لم تكن الرواية بعيدة عن تلك العلاقة بين الأنا والآخر في إطار ذلك الكم الهائل من التّناقضات المشكّلة لحال الصّراع أحياناً وحال التّناقض أحياناً أخرى، وربما حال اللّقاء النّفعيّ والبراغماتيّ حيناً ثالثاً. فالإمساك بطرفي المعادلة شكّل محور الفكرة التي طرحت

1- ابن سلطان، إبراهيم: ص: 22.

2- ابن سلطان، إبراهيم: ص: 22.

3- ابن سلطان، إبراهيم: ص: 36.

منذ بداية القرن العشرين، وما زالت مستمرة الى يومنا هذا؛ لكن بصورة الواقع المغاير لما كانت عليه في أول لقاء ثقافي أو ما يمكن أن يسمّى (اقتباس المعرفة) جعلت إمكانية اللقاء مرببة.

فمنذ البداية شكل الدّخول الغربيّ العنيف إلى الشّرق صدمة قويّة في الدّهن الشّرقيّ، وجعله يعيد حساباته حول ذاته من جهة، وحول إمكانيّاته من جهة أخرى؛ إنّ هذا الوجود ذاته هو الذي كان عامل التحام فيه الكثير من العنف، فرفع من خلاله الغشاوة عن تلك الصورة الضبابية عن كلا الطرفين، والتي تشكّلت عبر حقبة طويلة من الصراع، كما نسجته مخيلة كل من الغربيّ والعربيّ على حد سواء. إذ شكّلت الصور المتخيلة مرجعية الكتاب في الغرب قبل نظرائهم من العرب. وكان عامل التحام، فرفع من خلاله الغشاوة عن تلك الصورة الضبابية عن كلا الطرفين، والتي تشكّلت عبر حقبة طويلة من الصراع وما نسجته مخيلة كل من الغربيّ والعربيّ على حد سواء.

إذ شكّلت الصور المتخيلة مرجعية الكتاب في الغرب قبل نظرائهم من العرب؛ إلّا أنّ هذا الأمر صار مختلفاً في النّصف الثّاني من القرن العشرين، ذلك أنّ الاحتلال الفعليّ الغربيّ وما أنتجه من أفكار وتركه من آثار ولّد رغبة من نوع آخر للإنسان العربيّ في القدوم إلى الغرب لنسج الصورة الحقيقية له من جانب، ولوصول الأرض الغربيّة بشكل فردي وشخصي مختلف عما سبقه جانب آخر. فالجماعة العربيّة عجزت في مشروعها العسكري سواء بالتصدي للآخر أو غزوه، وبقي هاجس الماضي مجرد الحلم يراود بعض الأشخاص، وبقي تداعي الذّكريات لإعادة الاعتبار للفتح العربيّ الذي قاده موسى ابن نصير، وطارق بن زياد كانت فعليّاً نافذة شوق لذلك الحلم.

أمام ماضيّ عتيّد وواقعٍ مأزوم، قاد محسن في «عصفور من الشّرق»، ومصطفى سعيد في (موسم الهجرة إلى الشمال) غزواً معنويّاً عبر العمل الرّوائي. وقد كان لهذا الالتباس في التّصوّر نشوء تيه في بوتقة العمل غير المستند إلى الوعي الحضاريّ، ثمّ ما لبث أن أتمّه حبيب السّالمي ومحمود طرشونة، والعروسي المطوي وصلاح الدين بوجاه وأمل مختار وآخرون في كثير من إنتاجاتهم الإبداعية. وبدا الانتقال من المفعوليّة إلى الفاعليّة العامل المهم في ردّ الاعتبار الشّخصيّة لأبطال الرّوايات عبر ردود أفعال مستهجنة لا تتمّ سوى عن مركّب النقص عندهم، في ظلّ تلك الانهيارات التي ترنح فيها الشّرق أمام سطوة الغرب وجبروته.

وإذا كان اللقاء بالغرب قد أصبح أكثر يسراً، وتخطى الكثير من الصعوبات والخوف في هذا الاحتكاك المتواصل بين الشرق والغرب، إلا أنّ هذا التواصل لم يصل إلى درجة الطمأنينة التي حلم بها الكثير من الشخصيات الروائية. ففي زهرة الصبّا، قدمت علياء التّابعي مسألة الصراع في بعده النفسي والتّاريخي الذي وقف عائلاً أمام هذا اللقاء؛ فأحمد، رغم ذلك الإغراء الذي وجده في فرنسا وارتقائه إلى منصب كاتب دولة في حركة الاشتراكيين الذي أمّن له مقاماً اجتماعياً رفيعاً ودخلاً كبيراً وعلاقات مهنية وأسرية لها وزنها ورأيها في أي قرار من هذا النوع<sup>1</sup>، بل إنّ هذه المغريات والارتباطات التي لم يحصل عليها لو بقي في بلاده لم تمنعه من ذلك الامتلاء إلى حدّ العدوانية والكفر بالكآبة والوحدة وشعور التفاهة<sup>2</sup>، رغم زواجه وإنجابيه. وتزداد الصورة تجلياً لاستحالة التواصل عندما ننظر إلى زوجته (آنا)؛ تلك المرأة الفرنسية، فهي كما قال: تحدث الشّرخ ولا تتحدث عنه.. ورفضت العودة ثانية إلى تونس، وجاء كريم فرفضت أن يتعلم العربية<sup>3</sup>. وما لا شك فيه أن الصورة تزداد وضوحاً في سبر الأعماق عندما ندرك أنّ «آنا» كانت تخشى الفرنسية التي تتقنها في المقابل كان أحمد يخشى الدارجة التي تفضلها وتفرقع على لسانها<sup>4</sup>.

إنّ التّركيز على هذه العلاقة المتوترة لم يكن عفويّاً بقدر ما هو إبراز لمسألة الصراع الجديد،

رغم تلك الارتباطات المتعددة المآرب والغايات. فالبريطاني العجوز يتحدث منتفخ الصّدر والأوداج. مازال يتحدث عن البنغال والسودان بخوذة بيضاء وتبان كاكبي، ليكون الاستحضار نفسه في الضفة الشرّقية، إذ يقول البطل نفسه: «كنت قد تركت في وطني ملايين مثله ما زالوا يحلمون بليالي اشبيلية وقرطبة وبربتون على كتف التّاريخ يسترضونه»<sup>5</sup>، هكذا كانت رواسب الماضي وشوائب الحاضر تدفع الجميع للاستمرار في ذلك التّناثر المبالغ فيه لذلك فبناء العلاقة في الأساس لم يكن ينذر إلا بمثل هذا البتر، لأنّه بُني في الأساس على فتور تجسّد في بدايات حالة قسريّة من الهجرات، حتّى

1- التّابعي، علياء: زهرة الصّبّار، دار الجنوب للنشر تونس، ط:1، سنة 1991م، ص: 39.

2- التّابعي، علياء: ص: 39.

3- التّابعي، علياء: ص: 151.

4- التّابعي، علياء: ص: 152.

5- التّابعي، علياء: ص: 108.



هذا الرّباط أو ذلك، بحيث تقدّمت المصالح في غياب القناعات وبدا الجميع يتصرف أنيا حتى إذا ما فتر الألوان عاد الوضع الى نصابه وعادت ترسبات الثقافة والتاريخ والمزاج وخلفيات القوة والضعف لتقرض نفسها وتهتم ما كان قد حصل في لحظة الكمون. وهذا ما قاله أحمد عندما تحدث عنها: «لم أكن أحبها.. ولم أكن أكرهها.. كنت محطم الاعصاب، متعباً فوافقت عندما عرضت علي الزواج بعدها دخلت مكتب المحاماة»<sup>1</sup>. في ظل هذه الاجواء قدّم الأدباء صورة التواصل مع الغرب ليكون اللقاء جزءاً من تتمة الصراع الذي عجز أبطاله عن إنهائه حتى لو كان الزواج والإنجاب.

### رابعاً: التماس الحضاري

ارتبط التماس الحضاريّ بين الغرب والعرب بهواجس الخوف وبحالة صراع وتدافع مريب، ولم يستطع إلى يومنا هذا أن يفسح في المجال لحال أخرى من التلاقي. فرغم أن هذا التماس الحضاريّ يواكبه تماس لغويّ وتماس تاريخيّ، فإن المرجعية التاريخية تستعيد في كل حدث زمام المبادرة في رسم العلاقة بين الشرق والغرب، ويمثل الإطار الزمانيّ الذي دارت فيه الأحداث، خلفية ظريفة مؤقتة، كما هو شأن حرب الخليج وما تركته من شعور بالعجز في نفوس العديد من الشخصيات الروائية التي تتصف هي الأخرى بالعجز واليأس من تغيير حالتها الدائنية ولعلّ هذا التشابه هو الخيط الرابط بين أحداث الرواية وخلفيتها التاريخية»<sup>2</sup>، وكان بالإمكان اعتبار كلّ ذلك استعارة كبرى موازية للدمار النفسيّ الذي أحدثته الموجبات الهجومية الغربية على بلاد العرب من الخليج الى المحيط، والواقع الذي تفرضه هذه القوى على أمتنا واستغلالها خيراتها مقابل عجز الأمة عن التصدّي لهذا العدوان وفهم دوافعه، إلّا أنّ الرّبط لا يخلو من تصنع وقلب وتغيير المعادلات التي فرضها المحافظون الجدد؛ إذ أنّهم يرون أنّ الحرب ليست نتيجة سوء تفاهم أو عيب في التّواصل، أو قصر في النّظر، بل هي مترسّخة في الطّبيعة البشريّة والمصلحة الخاصة والحرب من أجل الثّروة والأمن والسّلطة»<sup>3</sup>.

وما لا شكّ فيه أن هذه الصّورة نفسها نقلت بأسلوب آخر عند الصّافي سعيد الذي أبرزها من خلال الحوار الذي دار بين «سميرة نوف» الفرنسيّة «جوليانو» التّاجر

1- التابعي، علياء: ص: 150.

2- طرشنزة، محمود: ص: 56.

3- الربيعة، تركي علي: ص: 19.

اليهودي. وهنا تتسع الهوة؛ فرغم اختلاف طرائق التعبير والانفعال، فإن البعد الدلالي يوحى برفض الآخر. ففي ردّ واضح على مسألة اليهود، يقول الأب جوليانو: «فنحن نبارك أعمالهم المجيدة والقذرة على حد سواء.. وبرأيي، فإذا كان اليهود يبيعون التوابيت، فنحن نبيع الموت منذ قرون.»<sup>1</sup> في هذا السياق تتكشف الحال من خلال رؤية نقدية تعريّ تفاعل مشاعر النفور؛ إذ ليس من المقنع أن تدخل دول أخرى لتحررها كما حدث في العراق، وإنما المسألة أعمق وأدق. ولعلّ روائياً مثل الصافي سعيد لم يكلّ عن متابعة هذه التفاصيل من خلال حركة المد والجزر بين الشرق والغرب وحركة الموت هنا وهناك، فهو بملاحقته التّجار والشركات والأموال والأشخاص يكشف رحلة الصّراع الحاد بين نماذج مختلفة هي في الأساس نماذج واقعية تجسّد مجريات الأحداث في الواقع العالمي المعاش. ومع ذلك، هناك جوانب أخرى مهمة في الرواية التّونسيّة، حين تصدرت المرأة العمل الاجتماعيّ، وأسهمت في العمل الوظيفيّ بشكل فاعل داخل مؤسسات الدولة نفسها، بعد ذلك الجهد في التّحصيل العلميّ وفرض وجودها على مقاعد الدّراسة في مختلف المؤسسات التّعليميّة.

وقد أفردت حركة المرأة التّونسيّة حيزاً مهمّاً في بلورة مشروع التّعبير الذي طرأ على حياتها، والرواية التّونسيّة في هذا السياق انتقلت بأنثاها من حال المحافظة على كينونتها وتملكها إلى تلك الحال من الضّياع على مستوى الذات نفسها، لتمحو ذلك النّية الفرديّة أو البحث عن الذات - كما يحلو للبعض تسميته - نوعاً آخر من التّموقع والوجود على مستوى الذات مقابل الضّلال والنّية على مستوى الجماعة، وهنا تكمن قيمة الرواية نفسها؛ ذلك أنّ النّجاة هي نجاة فرديّة في ظلّ وهن الجماعة، دون أن يخرج الرّوائيون في تونس عن هذا المنحى. فالسّالمي في «حفر دافئة» يطلق الحبل على الغارب لشخصيّاته لتقرر مصيرها بيدها في لمحة وجوديّة خالصة؛ فسعاد تطلق لجسدها العنان دون قيد أو شرط: «كسرني على ضوء القمر في عربة من الدرجة الثانية لقطار سريع يعبر مقاطعة «كاتالونيا»... كسرني شاب أندلسي أسمر كافر غير مطهّر... لم انتبه إلى ذلك.. كنت سكرانة.. الشّاب لم أعد اذكر اسمه.»<sup>2</sup> وفي المقابل، نجد أن عادل هو الآخر تاه في أوروبا دون أن ينجح في الطب الذي ظلّ فيه سنتين. ولا يخرج الحاح حمودة عن هذا

1- الصافي، سعيد: كازينو، ص: 55.

2- السالمي، حفر دافئة، ص: 34.

المنحى بعدما كان يسعى بكل ما يملك لإنجاب ولد، حتّى إذا ما جاء الولد وكبر تاه، ولم يلتفت إلى أبيه. ولا تخلو «نخب الحياة» لأمل مختار من هذا المنحى، فسوسن تبرز حالتها بقولها: «استسلمت للتسكع تحت رذاذ المطر لم أكن أفكر ولم أكن واعية...»<sup>1</sup>، أمّا عند مسعود بو بكر، فالبحت والانفعال مستمران: «بشكل متوتر أقلعت الطائرة من مطار تونس صوب أثينا، وخيل إلي أن مضخة الدم في داخلي قد اقلعت هي الأخرى فسكنت، كل حركة فيّ توقفت، كدت أنسى وجهتي ومأرب سفري؛ وأنا معلقة بين الأرض والسّماء.»<sup>2</sup> وتتضح الصّورة أكثر في «إذ يعود» حيث يعود المغترب بابين هذه المرة، لا يتكلّم العربيّة ولا يفهمها... ومع كثير من التّعّب والفواتير والأسئلة<sup>3</sup>، والنتيجة ذاتها نجدها في الروايات التي كتبها أصحابها في غربتهم نحو المشرق العربيّ، إذ كانت الغربة هي العنصر الملتهب في نفوس هذه الشّخصيّات للتعبير عن ذلك الحنين الذي يوجب البحث عن دفء الوطن والعشيرة والأهل.

#### المبحث الرابع- الهويّة الأدبيّة ووضع المجتمع

لا شك أنّ الأدب والمجتمع صنوان متلازمان، وقد عبّر عن ذلك الشعراء، ثم الروائيون ليؤكدوا هذا التّلازم. لكن الأمر هذه المرة مختلف، لأنّ الهويّة الأدبيّة في حدّ ذاتها أصبحت ممّوهة في ظل تعدّد الألسن واللغات التي تحمل هذه الهويّة. ويات من الواضح انها مترامية الأطراف؛ فهي بقدر ما تستثمر التراث، تسعى في الوقت نفسه الى الاستفادة من تراث الآخرين. وفي نماذج من الروايات الحديثة، مثل «الدراويش يعودون من المنفى»، يستند ابراهيم الدرغوثي إلى التّراث السّرديّ، لكنّه يسعى الى الجديد العالميّ ويحاوره، وبوظفه بمنتهى الدّقة. في حين تقدم الرواية مكتوبة باللّغة الفرنسيّة عالمها من خلال نبش التّراث وتوظيفه على صعيد الفنّ الرّوائيّ نفسه، كما فعل عبد الوهاب المدب. لكن الملاحظ أنّ النّمطين يسيران في اتّجاه واحد بأشّعة مختلفة: والمسألة كما يؤكد صلاح الدين بوجاه تتصف بأمرين: أولهما: تلازم البعيدين الزّمني والمكانيّ في المصنّفات العربيّة والفرنسيّة. وثانيهما: التّناسب بين المدونتين العربيّة والفرنسيّة في باب التّعامل مع الفضاءات الزّمانية والمكانيّة<sup>4</sup>.

1- أمل مختار: نخب الحياة، ص: 9.

2- أبويكر، مسعودة: ليلة الغياب، ص: 8.

3- زهرة الصبار، ص: 31.

4- بوجاه، صلاح الدين: ص: 208.

وفي هذا الإطار تصبح الهوية الأدبية متغيرة بتغير المجتمع نفسه، وبخاصة إذا نظرنا الى العمل الروائي في رصده لتغيرات المجتمع نفسه؛ سواء أكان على مستوى الفرد أو الأسرة أو الوعي الذي بات يتمتع به الجانبان. غير أنّ الصورة في «وردة السراب»، تبرز تلك حال التي يعيشها المجتمع مثل الهجرات القسرية من جراء ذلك الفقر الذي يمثل كابوساً مرعباً، ويزيده ثلج الشتاء قتامة حين ينزل غزيراً بالدهماني ذات شتاء، نعاني من برد الشتاء. نعاني ما نعاني.. فكيف بالثلج... نمنا ليلتنا حالمين، والبرد يزحف الى المفاصل لاسعاً»<sup>1</sup>.

وبهذا التّحديد تكون أحوال المجتمع هي مادة الأدب الأساس في تناوله قضايا الناس وتحديد أطرها. ولا شك أنّ بين أزمات المجتمع ورخائه صورة أدبية عاكسة لاحتضان التّوجهات الروائية؛ فإذا طغت الحال الأولى، أصبح المجتمع مرتبطاً بعلاقات متأزمة تبحث لها عن مستقر فلا تظفر به، إذ سرعان ما يفرق الطرف بينهما ولو طال الأمد<sup>2</sup>. أمّا إذا كان العكس ونعم المجتمع بشيء من الرفاهية، ارتقى الأدب إلى تتبع هذا التطور. ولعل العائد إلى الكتابات التونسية يسترعي انتباهه ذلك التّركيز على بيئة السرد المركزة على بعض الأشخاص. فشخصية المختار في «نخب الحياة» هي شخصية محورية في عدم إنتاجيته، لكنه يتحول إلى مختار الجمعية. «ففي الماضي كان له جدة وصديق وشعب. والجدة تروي له الأساطير فتتير سبيله. والصديق يغدق عليه من حكمته فيعقده. والشعب يعيش حياة الطمأنينة ويواجه الواقع بسخريته البائسة، فيدفعه الى الهجرة. وفي الحاضر صار له صديق ورفيقة وجمع من الباحثين مثله عن حلول لقضايا الزمن الراهن والمستقبل»<sup>3</sup>. هذا الانتقال من حال إلى أخرى كشف غوص الجماعة في مشكلاتهم الجزئية واهمالهم المبادئ العامة التي كان البطل يؤمن بها، لذلك انفصل عنهم جميعاً. فكان الحضور الثقافي والحضاري والسياسي والذاتي قائماً على الجدلية بين مختلف هذه الجوانب. وما طغيان الذاتي إلا نتيجة طبيعية للمحيط العام بكامل تناقضاته وصراعاته وهزائمه لما انتشر في الغرب والشرق الأقصى من أفكار كان لها اصداء قوية في نفوس الكثير من الطلبة والمتقنين في مطلع السبعينات»<sup>4</sup>.

1- زهرة الصبار، ص: 154-155.

2- الزهراني، معجب: ص: 55.

3- طرشونة، محمود: ص: 41.

4- طرشونة محمود: ص: 63.

وباختصار، فإنّ الأديب لم يكن معزولاً عن الأحداث التي تمرّ بها البلاد، فهؤلاء لا يكادون يختلفون عن الثّعالبيّ، إذ لا يكاد يخرج من السّياسة وأحداثها في تونس حتى ينغمس في أخبار الدّنيا كلّها، متنقلاً من ألمانيا إلى فرنسا، إلى بلد العجم وبر الشام، ثمّ خارجاً من الهند وعجائب المعتقدات... هذا الرّجل الذي زرع الدّنيا بإرادته في مقاومة الجمود الذي يزرع تحته العالم الإسلاميّ.<sup>1</sup> والحقيقة أنّ الهويّة الأدبيّة قد اتّخذت من القضايا الاجتماعيّة موضوعاتها، ومنحتها ذلك الاهتمام الخاص في عملية الكشف عن خصوصياتها المحليّة وسبر أغوارها، لتبيان عملية التّأثير العالميّ على نطاق واسع في وضعيّة المجتمعات الصّغيرة أو تلك التي بدأت تتشكل، كما هو الحال في مختلف البلدان العربيّة وبلدان العالم الثّالث عامّة.

### الخاتمة

إنّ موضوع الهويّة والمكان متشعب، لأنّه يجمع بين أبعاد مختلفة تتعلّق بالجزور والانفتاح، وبينما استحضر بشير بن سلامة الهويّة انطلاقاً من الخصوصيّة الوطنيّة، ذهب آخرون في اتّجاهات أخرى فبعضهم أكّد الهويّة العربيّة، وبعضهم ذهب إلى الجغرافيّة فعد الهويّة المتوسطيّة مرجعية ونسج لها خيوط لبوسها، في حين نرى الهويّة الفرديّة الدّاتيّة تطرح من التّجربة الشّخصيّة وخاصة عند كتاب المهاجر والاعتراب على غرار ما قدّمه الحبيب السّالمي في مدوناته.

وقد تقدّم المكان في المدونتين الفرنسيّة والعربيّة من خلال تشكّل الهويّة السّرديّة، فالمكان هو عامل مكوّن للشّخصيّة التّونسيّة وللسّرد في مقتضى البناء الرّوائي. كما تقدّم المكان بوصفه موطن الجماعة التّونسيّة، وبهذا يكون مرآة للهويّة. عند فئة كبيرة من الكتاب التّونسيين.

إلّا أنّ المسألة التي تطفو مباشرة هي الصّراع بين الموروث والثّقافة الوافدة والأيديولوجيّات الوافدة لينطرح السّؤال الآتي: أيّ هويّة نريد؟ وإلى أيّ مدى تعكس الاتّجاهات الرّوائية حقيقة المجتمع التّونسيّ؟

أمام هذا الواقع كان من المفترض أن يتوحّد الرّوائيون في إطار بلورة المكان كونه مشروع وطن لا بدّ أن ينتمي وفق مزاج شعبه و دينه.

1- بن خليفة محيي الدين: الشجرة، المطبعة العصرية، تونس، 1972م، ص: 35.

إنّ مرتكزات الهوية الدّينية قائمة في مجتمع مسلم وشرقيّ في غالبيته، لذلك فإنّ العمل على جانب تغذية روح الانتماء يبقى منقوصاً ما لم نعر الاعتبار اللازم للدين.

ويبقى الحاضر المأزوم ماثلاً للعيان ما لم تستثمر منجزات العصر التّقنيّة، والخروج من دوائر الاستبداد والحكم المطلق غير القابل للمحاسبة وإطلاق الحريّات المسؤولة وفق ميثاق جديد يكفل تشكّل الهوية على المرحلة السّوية.

والى أن يتم ذلك يبقى المكان أشبه بسجن كل مواطن يتمنى الخروج منه، وتبقى الهوية هاجساً لحالم بوجود وطن كريم.

### فهرست المراجع والمصادر

1. ابن خليفة محيي الدين: الشّجرة، المطبعة العصريّة، تونس، 1972م.
2. ابن رشيق الحسن بن علي: العمدة في صناعة الشّعر ونقده، دار الجيل، ج:1، بيروت، 1972م
3. ابن سلطان، إبراهيم: وردة السراب ، دار صامد للنشر ، صفاقس، ط:1، عام 2002م
4. ابن منظور: لسان العرب، المجلد الخامس عشر، دار صادر بيروت، ط:3، سنة 199
5. أبو الحسن، بن محمد بن أحمد بن طباطبا: عيار الشّعر تحقيق وتعليق طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956م.
6. التّابعي، علياء: زهرة الصّبّار ، دار الجنوب للنشر تونس، ط:1، سنة 1991م.
7. حماد، كمال: العولمة الأمريكيّة من أفغانستان إلى العراق، مجلة شؤون الأوسط، مركز الدراسات الاستراتيجية، العدد: 120، خريف 2005م.
8. الزّبيدي، مرتضى : تاج العروس، تحقيق علي شيري، المجلد العشرين، دار الفكر للطباعة للنشر والتّوزيع، بيروت لبنان. 1994
9. زايد، عبد الصمد: المكان في الرّواية العربيّة، الصورة والدلالة، دار محمد علي للنشر، تونس، 2003.
10. علوش، سعيد: الرواية والأيدولوجيا في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1981م.
11. عياد، شكري: المذاهب الأدبيّة والنقدية عند العرب والغربيين، عالم المعرفة، الكويت ، العدد177، ربيع أول 1414هـ/1993م.

12.الكثيري، الفاضل: المرأة والهوية بين الأنا والآخر في الرواية العربية ، دار الفنون للطباعة الإلكترونية، تونس. 2023.

13.النالوتي، عروسية: تماس، دار الجنوب للنشر ، تونس، 1995م.

14.نكسون، ريتشارد: الفرصة السانحة، ترجمة: أحمد صدقي مراد، عمان ، 1992م.

15.نصار، حسين وآخرون: الأدب العربيّ تعبيره عن الوحدة والتنوع، مركز الوحدة العربية، بيروت 1997م.

16.اليوسفي محمد علي توقيت البنكا، دار رياض النشر للطباعة والنشر، بيروت ، 1992م.

## Reference

- Annie Armandies : (1938 ) le nouveau roman. Gallimard. Paris.
  - Bernecque. A cogny: (1958 ) Réalisme et naturalisme . Hachette. paris.
  - Bourga,françois : (1995) islamisme en face , Edition la découverte , paris.
  - Bernecque. A cogny: (1958 ) Réalisme et naturalisme . Hachette. paris.
- Georges** .Matore:1988 l espace humain .Publisher colombe .Paris

# أنثروبولوجيا التحوّل السوسولوجي والسيكولوجي في الخطاب السياسي من القبيلة إلى الحزب (شيعة عليّ وشيعة معاوية)

Anthropology of Sociological and Psychological Change in Political  
Discourse from Tribe to Party (Shiites of Ali and Shiites of Muawiyah)

عبّاس أنيس حمزة<sup>1</sup>

Abbas Anis Hamza

تاريخ الاستلام 2025 / 4 / 30 تاريخ القبول 2025 / 5 / 30

## ملخص

يحلّل هذا البحث التحوّلات الأنثروبولوجيّة والسوسولوجيّة والنفسيّة العميقة التي طرأت على المجتمع الإسلاميّ إثر الصراع بين الإمام عليّ ومعاوية (37 هـ)، والذي أفضى إلى تحوّل جذريّ في الولاءات من البنية القبليّة إلى الانتماءات الحزبيّة الأيديولوجيّة. يوضّح البحث كيف استطاع معاوية استقطاب المسلمين عبر الإغراء الماديّ والتأثير بالنموذج البيزنطيّ الإداريّ، مستخدمًا خطابًا مزدوجًا، دينيًا وسياسيًا، لمواجهة الإمام عليّ وبناء نظام سلطويّ مركزيّ يعيد تشكيل الهويّة الجماعيّة للمسلمين، وذلك بتوظيف الخطابين الإلهيّ والرساليّ في مواجهة الخطاب الإماميّ، لترسيخ دعائم حكمه. في المقابل، مثّل خطاب الإمام عليّ مرجعيّة أخلاقيّة، متمسكًا بالشرعيّة الدينيّة والسياسيّة كامتداد طبيعيّ للخطاب الإلهيّ والرساليّ، إلّا أنّه عانى من انقسام أتباعه وظهور الخوارج. وقد شكّلت وثيقة التحكيم نقطة تحوّل أنثروبولوجيّة حاسمة، إذ عمّقت الانقسامات وأسست للإسلام السياسيّ الذي أعاد توظيف الدين كأيديولوجيا لصياغة الولاءات الحزبيّة، وأفرز تيارات طائفيّة متجدّرة. ويخلص البحث إلى أنّ الصراع بين الإمام عليّ ومعاوية، الذي بُني في ماهيّته على الثنائيات الضديّة، شكّل الانزياح المعرفيّ والتاريخيّ الذي أعاد تشكيل الهويّة الجماعيّة الإسلاميّة من القبيلة إلى الحزب؛ فبينما سعى الإمام عليّ للحفاظ على

1- طالب دكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة الجامعة الإسلاميّة في بيروت.



سياق النموذج النبويّ الثوريّ القائم على العدل والأخلاق، بما يمثّل من شرعيّة وكرمز للوحدة الإسلاميّة، نجح معاوية في تأسيس نظام سياسيّ براغماتيّ يعتمد على الولاءات الماديّة والأيدولوجيّة، مستغلّاً الدين لخدمة السلطة. هذا التحوّل الأنثروبولوجيّ ما زال يلقي بظلاله على الواقع الإسلاميّ حتى اليوم، ممّا يؤكّد على قوّة الخطاب السياسيّ في صناعة الهويّات وتغيير مسارات التاريخ.

**الكلمات المفتاحيّة:** أنثروبولوجيا، سوسيولوجيا، سيكولوجيا، أيديولوجيا، خطاب، الهويّة، التشكّل، التحوّل، البنية، سياق، ثنائيّة، الانزياح، تناقض، دينيّ، ثوريّ، سياسيّ.

### **Abstract**

This research analyzes the profound anthropological, sociological, and psychological transformations that took place in Islamic society following the conflict between Imam Ali and Muawiya (37 AH), which led to a radical shift in loyalties from tribal structure to ideological party affiliations. The research shows how Muawiya was able to polarize Muslims through material temptation and influence by the Byzantine administrative model, using a dual discourse, religious and political, to confront Imam Ali and build a centralized authoritarian system that reconfigured the collective identity by employing the divine and messianic discourses against the Imamite discourse to consolidate his rule. On the other hand, Imam Ali's discourse represented a moral authority, upholding religious and political legitimacy as a natural extension of the divine and messianic discourse, but he suffered from the division of his followers and the emergence of the Kharijites. The arbitration document was a crucial anthropological turning point, as it deepened divisions and laid the foundation for political Islam, which repurposed religion as an ideology to shape partisan loyalties and spawned deep-rooted sectarian currents. The research concludes that the conflict between Imam Ali and Muawiya, which was built on oppositional binaries, constituted the epistemological and historical shift that reshaped the Islamic collective identity from tribe to party. While Imam Ali sought to preserve the context of the revolutionary prophetic model based on justice and morality, representing legitimacy and a symbol of Islamic unity,

Muawiya succeeded in establishing a pragmatic political system based on material and ideological loyalties, exploiting religion to serve power. This anthropological shift still casts a shadow on the Islamic reality today, emphasizing the power of political discourse to shape identities and change the course of history.

**Keywords:** Anthropology, sociology, psychology, ideology, discourse, identity, formation, transformation, structure, context, binary, dichotomy, contradiction, religious, revolutionary, political.

### المقدمة

إنَّ تَكُونُ كُلِّ مَنْ حِزْبِ عَلِيٍّ وَحِزْبِ مُعَاوِيَةَ مَعَ حُلُولِ سَنَةِ 37 لِلْهَجْرَةِ، أَفْضَى إِلَى تَحَوُّلٍ جَذَرِيٍّ فِي بَنِيَةِ الْإِنْسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُسْلِمِ وَإِعَادَةِ تَكْوِينِ لِمَاهِيَّتِهِ، وَهَذَا أَفْضَى إِلَى تَغْيِيرِ أَنْثُرُوبُولُوجِيٍّ عَمِيقٍ فِي طَرِيقَةِ وَجُودِهِ، نَتِيجَةً لِلتَّدَاعِيَّاتِ الْعَنِيفَةِ لِلْحَرْبِ الَّتِي نَشَبَتْ بَيْنَ هَذَيْنِ الْحِزْبَيْنِ. وَقَدْ أَدَّتْ هَذِهِ الْحَرْبُ إِلَى انْقِسَامِ سَوْسِيُولُوجِيٍّ وَسِيْكُولُوجِيٍّ بَيْنَ النَّاسِ، رَغْمَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ذَاتَ طَائِعٍ طَائِفِيٍّ فِي جُذُورِهَا الْأُولَى. وَلِذَلِكَ لَا بَدَّ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى السَّبَبِ الرَّئِيسِ لِهَذَا الْانْقِسَامِ؛ وَلَا شَكَّ أَنَّ تَنَاقُضَ خُطَابِ مُعَاوِيَةَ مَعَ خُطَابِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ هُوَ الَّذِي أَدَّى إِلَى وَجُودِ تَنَاقُضٍ فِي الْوَعْيِ الْاجْتِمَاعِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ.

لَمْ يَقْتَصِرْ هَذَا التَّنَاقُضُ عَلَى السَّاحَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَإِنَّمَا انْعَكَسَ عَلَى مُخْتَلَفِ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ بَيْنَ النَّاسِ، فَتَحَوَّلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى جَمَاعَاتٍ مُتَصَارِعَةٍ. وَرَغْمَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ عَسْكَرِيًّا، إِلَّا أَنَّ آثَارَهَا الْأَنْثُرُوبُولُوجِيَّةَ ظَلَّتْ مُسْتَمِرَّةً؛ فَقَدْ ظَهَرَتْ فِي تَشَكُّلِ كِيَانَاتِ اجْتِمَاعِيَّةٍ مُسْتَقَلَّةٍ تَحْمِلُ أَنْمَاطًا ثَقَافِيَّةً وَقِيَمًا مُتَبَايِنَةً، وَهَذَا أَفْضَى إِلَى تَكْوِينِ نَمَاجٍ مِنَ الْحَيَوَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ مُتَغَايِرَةٍ إِلَى أَبْعَدِ حَدٍّ، أَسَّسَتْ لِتَنَاقُضَاتٍ حَضَارِيَّةٍ مَا تَزَالُ تُقْلِي بِظِلَالِهَا عَلَى وَاقِعِ الْأُمَّةِ حَتَّى الْيَوْمِ.

يَنْبَغِي فَهْمُ مَا نَقَصَدُهُ بِأَنْثُرُوبُولُوجِيَا التَّحَوُّلِ السَّوْسِيُولُوجِيٍّ وَالسِيْكُولُوجِيٍّ فِي الْخُطَابِ السِّيَاسِيِّ مِنَ الْقَبِيلَةِ إِلَى الْحِزْبِ، عَلَى أَسَاسِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَحْدَثَ انْعِطَافًا كَبِيرًا فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ النَّاشِئِ. لَقَدْ نَقَلَ الْمُسْلِمُونَ التَّابِعُونَ لَهُ مِنْ نَمَطِ عَيْشٍ قَبْلِيٍّ بَسِيطٍ، إِلَى نِظَامِ حَيَاةٍ مُدَنِيٍّ مُعَقَّدٍ، فَأَحْدَثَ ذَلِكَ تَغْيِيرًا جَوْهَرِيًّا فِي نَفُوسِهِمْ بَانْفِتَاحِهِمْ عَلَى أَسَالِيبٍ جَدِيدَةٍ لِلْعَيْشِ لَمْ يَعْرِفُوهَا مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ أَدَّى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِنْتِقَالِ مِنَ الْوَعْيِ النَّابِعِ مِنَ الْمَجْتَمَعِ الْقَبِيلَةِ، إِلَى وَعْيٍ جَدِيدٍ نَابِعٍ مِنَ الْمَجْتَمَعِ غَرِيبٍ عَنْهُمْ، مَا أَدَّى إِلَى تَحَوُّلٍ سَوْسِيُولُوجِيٍّ

عميق في الحياة الإسلامية أفضى إلى تكوين سيكولوجي جديد للأفراد.

### أولاً: التأثير الأنثروبولوجي لمعاوية في المجتمع الاسلامي

استطاع معاوية استقطاب الكثير من المسلمين الذين كانوا يعيشون في شبه الجزيرة العربية بعامة، وفي مكة والمدينة بخاصة، وأحدث تأثيراً كبيراً في تكوين الإنسان المسلم بأن نقله من مستوى سوسيولوجي وسيكولوجي كان موجوداً من قبل إلى مستوى جديد تماماً. وقد أدى ذلك إلى تغيير عميق في طبيعة الإنسان في ذلك العصر، فتغيّرت عاداته إذ انتقل من الزهد والتقوى والورع والتضحية والجهاد في سبيل الله، إلى الاهتمام بالدرجة الأولى بمكاسب الحياة، وشغوفاً إلى أقصى حدّ بأعراض الدنيا، وهذا كلّه يرجع إلى قوّة الإغراء التي استطاع معاوية استخدامها لجذب الناس إليه، وهذا ما أحدث انقلاباً في أنثروبولوجيا الإنسان المسلم، ليصبح معنياً أكثر باللباس والطعام والشراب والحياة في القصور والانغماس في ملذّات الحياة المدنيّة، فكان هذا الأمر بدايةً لنهاية عصر الفتوحات.

ولا شك أنّ لهذا التحوّل الأنثروبولوجي الذي أحدثته معاوية التأثير الأكبر في تكوين مجتمع جديد غير المجتمع الذي أسّسه الرسول (ص)، وحاول استعادته أمير المؤمنين عليّ. وقد استطاع خطاب معاوية أن يجذب إليه كثيراً من الناس؛ بل وأن ينظروا إليه بصفته أميراً للمؤمنين بعد رحيل الإمام؛ لكن السؤال الذي يجب البحث عن جواب حاسم عنه هو: كيف استطاع معاوية أن يقود ما اصطلاحنا عليه أنثروبولوجيا التحوّل السوسيولوجي والسيكولوجي في الخطاب السياسي من القبيلة إلى الحزب؟ أي كيف غير خطاب معاوية ولاء الإنسان المسلم ليصبح ولاءً مطلقاً له، محدثاً هذا الانزياح الحضاري العميق؟

والحقيقة أنّ هذا الانزياح هو نتاج استراتيجيّة واعية قادها معاوية؛ إذ استطاع استقطاب شرائح واسعة من المسلمين، لا سيّما من أبناء مكة والمدينة، ولقد كسر خطابه الحاجز النفسي بين القيم الإسلامية المثاليّة وإغراءات الحضارة البيزنطيّة. فدمشق، التي اتّخذها عاصمةً لدولته، لم تكن مجرد حاضرة سياسيّة، وإنّما مثّلت رمزاً ثقافياً حول الفرد المسلم من «مجاهد» في مشروع ديني جماعيّ إلى «فرد» في نظام مركزيّ يقدّس الولاء الفرديّ للحاكم. وقد نقل معاوية الصراع من معركة على الشرعيّة الدينيّة إلى معركة على توزيع الامتيازات، مُستفيداً من تحوّل مجتمع الفتوحات - المُثقل بالغنائم - إلى مجتمع يبحث عن الاستقرار الماديّ.

يفسر هذا التحوّل سبب عجز الإمام عليّ بعد حرب صفّين، عن إعادة تجميع الجيش مرّة أخرى لاستئناف الحرب<sup>1</sup>، رغم محاولاته المتكرّرة، فلم يجد إلّا جمعاً من المتخاذلين عن الجهاد. فالمجتمع الذي حاول الإمام استعادته كان قد تغيّرت بُنيته النفسية والاجتماعيّة بشكلٍ لا عودة عنه. بينما حافظ معاوية وابنه يزيد لاحقاً، على سيطرة مطلقة على جنوده المستعدين لخوض أيّ حرب يأمرهم بها. لذا، لم يكن عجز الإمام عليّ انتكاسة عسكريّة، بالقدر الذي كان بمثابة انهيار لمشروع اصلاحيّ حضاريّ أمام تحوّل أنثروبولوجيّ جمّد القيم الروحيّة. وعليه، لا بدّ من الرجوع إلى هذه القضية وتحليلها على نحو معمّق من أجل فهمها لإيضاح ما يقف وراء قوّة الاسقطاب في خطاب معاوية، وهذا أمر يبدو محيراً إلى أقصى حدّ.

بالعودة إلى سياق الفتوحات الإسلاميّة، يُعدّ تعيين السفينيين، يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية على إمارة الشّام في العهدين الراشديّ والأمويّ، قضيةً محوريّةً لفهم التّحوّلات السياسيّة في التّاريخ الإسلاميّ. فبعد فتح الشّام من البيزنطيّين في معركة اليرموك (13 أو 15 هـ)، التي بدأت في عهد الخليفة الأوّل أبي بكر الصّدّيق وأكملها الخليفة الثّاني عمر بن الخطّاب، برزت إشكاليّة تعيين ولاة من عائلة أبي سفيان في مناصب حسّاسة، والتي كانت تُعدّ من أبرز خصوم النّبّي (ص) قبل إسلامها. ففي عهد الخليفة عمر بن الخطّاب، وليّ أخو معاوية، يزيد بن أبي سفيان، إمارة الشّام، رغم كونه من «الطلّقاء» الذين أسلموا بعد فتح مكّة، وابتناً لزعيم قريش السابق أبي سفيان، الذي قاد حروباً ضد المسلمين.<sup>2</sup>

أصبح معاوية أميراً على الشّام سنة 21 هجريّة في عهد الخليفة عُمر، ومن هنا استأنف عمليّة نشر الإسلام في بلاد الشّام، لكن تحت مظلةٍ سياسيّة واجتماعيّة مغايرة لما عُرف في العهد النّبويّ. ولا ريب في أنّ سنة فتح الرّسول (ص) لمكّة كانت السنة الثّامنة للهجرة، ومعاوية نفسه أسلم حين فتح مكّة، أي بين إسلامه وتعيينه أميراً على الشّام ثلاثة عشر عامّاً، ويُرجّح أنّ أخاه يزيد قد مهّد له الطريق لكسب ولاء القبائل النصرانيّة التي كانت متحالفة مع البيزنطيّين، ثمّ اتجه أفرادها بسبب الفتح إلى اعتناق الإسلام.

1- راجع: ابن كثير، الحافظ، البداية والنهاية، الحافظ، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1985، ج7، ص: 307-308.

2- راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج9، ص: 586.

لكنّ الإسلام الذي اعتنقته هذه القبائل لم يكن امتداداً طبيعياً للنموذج النبويّ، بل كان «إسلاماً أموياً» - انتقل عبر ولاية من بني أمية - تمازجت فيه العقيدة مع البراغماتية السياسية. فمعاوية، في خطوة استراتيجية في تاريخه الشخصي، صاهر قبيلة كلب الشامية، ذات الأصول النصرانية التابعة للكنيسة السريانية الأرثوذكسية، التابعة بدورها للكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، بزواجه من ميسون بنت بحدل الكلبية<sup>1</sup>، التي أنجبت له لاحقاً ابنه يزيد. لم تكن هذه المصاهرة حدثاً شخصياً، بل محوراً لبناء تحالف قبليّ وسياسيّ مكن معاوية من اختراق النسيج الاجتماعيّ للشام، وأن يكسب ولاء القبائل العربية ذوات الأصول النصرانية، رابطاً مصالح القبائل المسيحية حديثة الإسلام بنظام حكمه.

ومن هنا بحكم علاقة هذه القبائل أنفسها مع البيزنطيين، قام معاوية نفسه بنسج علاقات وطيدة مع من بقي منهم في الشام، وانفتح بذلك على نمط جديد من الحياة مختلف اختلافاً تاماً عن نمط الحياة الذي عاشه في مكة إلى حين تعيينه أميراً. ومعنى ذلك أنّ معاوية استطاع استثمار مصاهرته لقبيلة كلب في التقرب من بقايا النخب البيزنطية للاستفادة منهم، وهنا بسبب اختلاطه بنمط جديد من الحياة، أمسك بزمام المبادرة لإحداث ما اصطّلحنا عليه بالتحوّل الأنثروبولوجي. وقد أصبحت العناصر التي اعتنقت الإسلام حديثاً من القبائل النصرانية الركيزة الأساسية في جيش معاوية الذي حارب الإمام عليّ، وهذا أمر لا يمكن كشفه بسهولة لقلة المصادر التاريخية وشح المعلومات.

لكن لا بدّ أن يكون معاوية قد أسس نوعاً من الخطاب متناسباً مع طبيعة المجتمع الجديد الذي انتسب إليه، ولا شكّ في أنّ هذا الخطاب يحمل طابعاً مزدوجاً دينياً وسياسياً، هدف إلى ترويض عقول أهل الشام لصالحه بصفته كاتب الوحي والصحابيّ الجليل، واستقطاب المسلمين في الجزيرة العربية بصفته المطالب بالنار من قتلة الخليفة عثمان.

وهكذا، مثّلت ولاية معاوية على الشام بداية تحوّل أنثروبولوجيّ عميق، غير هويّة المجتمع الإسلاميّ الناشئ، من خلال دمج العناصر البيزنطية في البنى السياسية والثقافية، وتشكيل نموذج هجين مهّد لقيام الدولة الأموية لاحقاً، بوصفها إمبراطورية

1- راجع: م.ن.، ج11، ص:463.

تستند إلى الولاءات القبلية والمصالح المادية والقوة العسكرية، أكثر من استنادها إلى المثال النبوي.

إنَّ خطاب معاوية معقّد إلى اقصى حدّ، إذ إنّ خلفيته بصفته ابن أبي سفيان العدو الأكبر لرسول الله (ص)، تركت في نفسه تأثيراً بالغاً متصلاً، ذلك أنّ أباه أبا سفيان حارب رسول الله (ص) منذ بداية الدعوة، فضيق عليه هو والمشركون في مكة وحاصروه وآذوه وحاولوا اغتياله، وصولاً إلى معركة بدر وأحد والخندق وصولاً إلى فتح مكة، وإطلاق أبي سفيان وزوجته هند وأولاده ومن بينهم معاوية.

بناءً على هذه الخلفية، تكون معاوية سيكولوجياً على كراهية أمير المؤمنين عليّ، الذي كان سيف رسول الله في معارك قُتل فيها أخو معاوية (حنظلة) وجده لأمه (عتبة) وخاله في معارك بدر وأحد. ومن ناحية أخرى، نظراً لوجود معاوية في دمشق البيزنطية نحو عشرين عاماً في عهد الخلفيتين أبي بكر وعمر، تشبّع بالفكر البيزنطيّ - المسيحيّ لناعية تأثره بأنظمة الحكم المركزية، والتراتبية الاجتماعية، والتحالفات القائمة على المصالح المادية النفعيّة، بدليل احتكاكه مع بقايا البيزنطيين في الشّام ومصاهرته لقبيلة كلب النصرانية الأصل، وعلاوة على ذلك اتباعه لطرق في نظم الحكم لم تكن معروفة في عهد الخلفاء الراشدين.

وذكر لنا خليفة بن خياط في تاريخه معلومات على درجة عالية من الأهمية تتعلق بمعاوية، قال ابن خياط عن حاشية معاوية: «وكان كاتب الرسائل عبيد بن أوس الغسانيّ. وعلى الديوان وأمره كلّهُ: سرجون بن منصور الروميّ. وحاجبه: أبو أيّوب مولاة. وعلى شرطه: يزيد بن الحرّ مولاة، فمات يزيد فولّى قيس بن حمزة الهمدانيّ، ثمّ عزله وولّى ذهل بن عمرو العذريّ. وكان أوّل من اتخذ صاحب حرس، وأوّل من وضع ديوان الخاتم، وكان على الحرس المختار مولى لحمير، وعلى الخاتم: عبد الله بن عمرو الحميريّ.»<sup>1</sup>

واللّافت فيما نقله ابن خياط أنّ كاتب الرسائل - كما هو واضح - غسانيّ، أي من أصل نصرانيّ، لأنّ الغساسنة في الشّام كانوا على الديانة النصرانية، هذا إلى أنّهم كانوا حلفاء للروم البيزنطيين، وبقي أكثر الغساسنة بعد الفتح على الديانة النصرانية. زد على ذلك أنّ معاوية سلّم أمر الديوان كلّهُ لسرجون بن منصور الروميّ، ويبدو من

1- ابن خياط، أبي عمر خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، راجعه وضبطه ووثقه ووضع حواشيه وفهرسه: مصطفى نجيب فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص: 141.

نسبته أنه رومي الأصل وليس نصرانياً فقط. والحقيقة أن مهمة الديوان آنذاك تعادل الآن مهمة وزارة الخارجية ومعها أجهزة الاستخبارات، فإن يسلم معاوية هذا المنصب الخطير لرومي أمر يثير تساؤلات. هذا، إلى أن سرجون هو الذي أشار على يزيد فيما بعد بتكليف ابن مرجانة بقتل الحسين بن علي، إذ روى البلاذري: «بلغ يزيد بن معاوية أن الحسين عليه السلام يريد الخروج إلى الكوفة فغمه ذلك وساء فأرسل إلى سرجون مولاهم وكان كاتبه وأنيسه فاستشاره فيمن يوليه الكوفة فأشار بعبيد الله بن زياد»<sup>1</sup>

وبضاف إلى ما سبق أن معاوية أول من اتخذ صاحب حرس، وهو يوازي عند الروم قائد الحرس الإمبراطوري، وهذا يوحي أن معاوية تحوّل إلى إمبراطور على الطريقة البيزنطية، كما أن اعتماده على ديوان الخاتم كان الهدف منه هو حفظ رسائله بطريقة لا يمكن فتحها حتى لا يطلع الرسل على مضمون الرسائل التي يحملونها، لأنها مختومة بخاتم. ومن هنا تحوّلت دولة الإسلام القائمة على الشورى إلى دولة أمنية بكل معنى الكلمة، ويزيد المشهد وضوحاً أن معاوية اعتمد في قيادة الحرس أو ديوان الخاتم على جُمُيريين<sup>2</sup>، وقبيلة جُمير كما هو معروف كان معظم أفرادها يدينون باليهودية.

إذن، ها هو الإمبراطور الجديد، محاطاً بحرسه الإمبراطوري، ومستشاريه من الروم والنصارى واليهود، أي من خلفيات ثقافية دينية متنوعة للإيحاء بالتسامح الديني، وبوجه خطاباته بمشورة هؤلاء إلى أمير المؤمنين ليهده بسبب استقوائه بفلول البيزنطيين والنصارى واليهود على مستوى التخطيط، وبقبائل كانت متحالفة مع الروم أصلاً من أجل الاستيلاء على السلطة، وقد استطاع معاوية أن يستنفر في خطابه الحالة الإسلامية.

بيد أن البنية العميقة لخطاب معاوية تتبع أصلاً من وجوده في واقع جغرافي (دمشق البيزنطية) مختلف عن واقع المسلمين من المهاجرين والأنصار (مكة والمدينة)، من هنا أسهم معاوية في هذا الانقلاب الأنثروبولوجي، فقد استقطب الناس بنقلهم من بيئة محدودة إلى بيئة مدنية، فأحدث ذلك فيهم تغييرات كبيرة على مستوى العادات في الطعام والسكن والرفاهية والاستغراق في متع الحياة المدنية، فتولدت في دخلاء كل واحد منهم شخصية جديدة تريد أن تخرج من شرقتها القديمة، علاوة على الإغراءات المالية الهائلة التي كان معاوية يستميل بها الناس، وكان قد أخذها من بيت مال المسلمين.

1- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، جمل من كتاب أنساب الأشراف، ج5، حققه وقدم له: سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، دمشق، لا ت، ص: 407.

2- راجع: تاريخ ابن خياط، م.س.، ص: 154.

## ثانيًا: تحليل أثر خطابي علي ومعاوية في الوعي الجمعي الإسلامي

تقف وراء خطاب معاوية بنية ساعدته على تحقيق أهدافه، وما كان له أن يحقق غاياته إلا بإقصاء عدوه الأول، أعني الإمام عليّ ومن معه من أنصار. ولذلك، الانقلاب الأنثروبولوجي الذي أحدثه معاوية في المجتمع الإسلامي لم يكن له أن يتم، إلا إذا اتخذ هذا الخطاب طابع الطعن في عليّ، ودفع الناس إلى لبس لبوس جديد يتناسب مع التحوّل الأنثروبولوجي الذي هدف معاوية إلى تحقيقه في الشخصية الإسلامية.

ولقد كتب معاوية إلى امير المؤمنين: «مِنْ عَبْدِ اللَّهِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وَإِنِّي أُحَذِّرُكَ اللَّهُ أَنْ تُحْبِطَ عَمَلُكَ وَ سَابَقَتِكَ بِشَقِّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَ تَفْرِيقِ جَمَاعَتِهَا، فَأَتَى اللَّهَ وَ أَذْكَرَ مَوْقِفَ الْقِيَامَةِ وَ إِقْلَعَ عَمَّا أُسْرِفْتَ فِيهِ مِنَ الْخَوْضِ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ يَقُولُ لَوْ تَمَالَأَ أَهْلُ صَنْعَاءَ وَ عَدَنَ عَلَى قَتْلِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَأَكْبَهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاجِرِهِمْ فِي النَّارِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ قَتَلَ أَغْلَامَ الْمُسْلِمِينَ وَ سَادَاتِ الْمُهَاجِرِينَ، بَلَهُ مَا طَحَنَتْ رَحَى حَرْبِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَ ذَوِي الْعِبَادَةِ وَ الْإِيمَانِ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ وَ شَابٍ غَرِيرٍ كُلُّهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى مُؤْمِنٌ وَ لَهُ مُخْلِصٌ وَ بَرَسُولُهُ مُقَرَّرٌ غَارِفٌ، فَإِنْ كُنْتُ أَبَا حَسَنِ إِنَّمَا تُحَارِبُ عَلَى الْإِمْرَةِ وَ الْخِلَافَةِ فَلَعَنَمْرِي، لَوْ صَحَّتْ خِلَافَتُكَ لَكُنْتُ قَرِيبًا مِنْ أَنْ تُعْذَرَ فِي حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ وَ لَكِنِّهَا لَمْ تَصِحْ لَكَ وَ أَنَّى بِصِحَّتِهَا وَ أَهْلُ الشَّامِ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهَا وَ لَمْ يَرْتَضُوا بِهَا فَخَفِ اللَّهُ وَ سَطَوَاتِهِ، وَ اتَّقِ بِأَسَاسِ اللَّهِ وَ نِكَالَهُ، وَ اِعْمُدْ سَيْفَكَ عَنِ النَّاسِ فَقَدْ وَ اللَّهُ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا كَالثَّمَدِ فِي قَرَارَةِ الْغَدِيرِ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ».<sup>1</sup>

يجب هنا الوقوف عند هذا الضرب من الخطاب، لأنّه هو بعينه الضرب الذي أسس لإحداث أنثروبولوجيا التحوّل السوسولوجي والسيكولوجي في الخطاب السياسي من القبيلة إلى الحزب، أي أنّ الأحداث قادت بعد سقوط مفهوم الانتماء الإسلامي أو الجهاد في الإسلام وظهور مفهوم القبيلة من جديد، إلى سقوط مفهوم القبيلة نفسه وحلول مفهوم الحزب محله. وقد ساق التركيز على مغاير الحزب إلى تغيير سوسولوجي عميق، أردفه تغيير سيكولوجي جماعيّ قاده خطاب معاوية، بطريقة أفضت إلى انقلاب أو انزياح

1 - جمهرة رسائل العرب، ج1، ص: 417-416. وانظر أيضًا: شرح ابن أبي الحديد، م3، ص: 302.

\* هذا ما سيكشفه امير المؤمنين في رده على معاوية.



عميق في الدولة الإسلامية.

ويظهر من أسلوب الخطاب الذي وجهه معاوية إلى أمير المؤمنين، أنه استند إلى الآية الخامسة والستين من سورة الزمر. وعليه، أراد معاوية في خطابه استخدام النصّ القرآنيّ ضدّ الإمام، أي استخدام الخطاب الإلهيّ لإضفاء شرعية دينية على الحزب السفينائي الوليد في مواجهة الخطاب الإمامي.

بالإضافة إلى ذلك، استند معاوية إلى حديث نسبته إلى الرسول الأكرم(ص)، وهذا يعني أنّ معاوية يريد العمل بالسنة وقتل قتلة الخليفة عثمان.

وعليه، وظّف معاوية الخطاب الإلهي والخطاب الرساليّ للتشكيك بشرعية إمامة أمير المؤمنين وتأييب الأنصار ضده، مصوراً حركته كردّ فعل ديني لتطبيق السنة النبوية.

هذا هو الأساس الفكريّ الذي نهض عليه كتاب معاوية؛ لكن يجب الانتباه إلى أنّ هذا الكتاب هو بحدّ ذاته تعبير عميق عن خطاب معاوية إلى الناس من مختلف الأطراف، لتحريضهم على أمير المؤمنين، ممّا أسهم في صناعة للهوية الجمعيّة الجديدة، لأنّ معاوية باتهامه للإمام بتفرقة الأمة الإسلامية قدّم نفسه كرمز للوحدة الإسلامية، وحزبه كحامي للدين.

إذاً، نحن هنا بإزاء أسلوب خطابيّ يقوم على ماهية عميقة وهي الموعظة، فنجد في كتاب معاوية نفساً وعظيماً وإصلاحياً واضحاً، واستحضاراً لآيات قرآنية وأحاديث نبوية في سياقاتٍ مخصوصة، مستنداً إلى تعبيرات بلاغية قوية. ولقد حاول معاوية إيصال معنى واحد بطرق مختلفة، سواء بالاستناد إلى آية كريمة أو حديث نبويّ، أو عن طريق زرع دفقة عاطفية وجدانية في لغته بوساطة تعابير بلاغية حزينة عن موت كثير من المسلمين في الحرب، أو بوساطة تعابير بلاغية تهويلية أو تخويفية هدف منها إلى تبيان إيمانه بالله تعالى، وتوجيه نصيحة لأمر المؤمنين حتّى يخاف الله وسطواته من فظاعة ما فعلت الحرب التي أوقدها الإمام بالناس.

وإذا أردنا تحليل البعد الإبداعيّ في كتابات معاوية، لوجدنا أنّه أعاد تجديد الخطاب السفينائي بلبوس الخطابين الإلهيّ والرساليّ، أي إنّه وجه البنية اللفظية لهذين الخطابين عن طريق إعادة نظم مفرداتهما وتراكيبهما اللغوية، ليؤلّف بذلك خطاباً تضليلياً للناس، ولقد نجح هذا الخطاب فعلاً، ليس بالنسبة إلى كثير من الناس آنذاك فحسب؛ بل بالنسبة

إلى كبار المؤرخين في العالم الذين نظروا إلى معاوية نظرة غير موضوعية.

ويُستشهد هنا برأي ول ديورانت<sup>1</sup> الذي قال: «يجب علينا ألا نلطم معاوية. لقد استحوذ على السلطة في بادئ الأمر حين عينه عمر الخليفة الفاضل النزيه واليًا على الشام، ثم بترعّمه الثورة التي أوقد نارها مقتل عثمان، ثم بما دبّره من الدسائس البارعة التي أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا في ظروف جدّ نادرة، ومن أقواله في هذا المعنى (لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت) قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: (إذا مدّوها خلّيتها وإن خلّوها مددتها).»<sup>2</sup>

يظهر هنا أن ول ديورانت، بصفته فيلسوف الحضارة ومؤرخ لتاريخ العالم، وجد المبررات لأفعال معاوية، فهو صاحب سلطة أعطاه إيّاها خليفة فاضل نزيه، وقائد ثورة هدفها الانتقام من قتلة عثمان، وسياسي بارع استطاع الانتصار بمكره وذرائعته أكثر من انتصاره في ساحات الوغى. كما أن قوله عن العلاقة بينه وبين الشعرة الموجودة بينه وبين الناس أعجبت ديورانت، ما يدلّ على نفوذ خطاب معاوية حتّى في عقول كبار المؤرخين!

لكن رغم مكانة المؤرخ الكبير ديورانت، إلّا أنّه - كما يبدو - قليل البضاعة من التّاريخ الإسلاميّ، فقراءته تبدو سطحيّة في تعامله مع قضية معاوية، إذ إنّ السلطة التي نالها معاوية في عهد الخليفة عمر فيها مخالفة لقاعدة «لا ولاية لطلق»<sup>3</sup> التي ذكرها أمير المؤمنين في كتابه إلى معاوية «وَأَعْلَمُ أَنَّكَ مِنَ الطُّلُقَاءِ الَّذِينَ لَا تَحِلُّ لَهُمُ الْخِلَافَةُ، وَلَا تُعَقَّدُ مَعَهُمُ الْإِمَامَةُ»<sup>4</sup>، كما أنّه يصف حركة معاوية بأنّها «ثورة» في حين أنّها -واقعياً- لم تكن سوى ردّة فعلٍ على الثورة الشعبيّة التي اندلعت ضدّ سياسات الخليفة عثمان بن عفان، أي ثورة على الثورة الحقيقيّة. زدّ على ذلك أنّ دسائس معاوية تقوم

1- ويليام جيمس ديورانت (William James Durant) (1885-1981) هو مؤرّخ وفيلسوف وكاتب أمريكي، اشتهر بأعماله الضخمة التي تجمع بين الفلسفة والتاريخ، واعتمد فيها أسلوباً أدبياً سلساً يجعل المعرفة في متناول الجمهور العام. تعاون مع زوجته أربيل ديورانت (Ariel Durant) في تأليف معظم أعماله البارزة، خصوصاً سلسلة «قصة الحضارة» التي تُعد إنجازاً الأبرز.

2- ديورانت، ول، قصة الحضارة، ج2، مج4 (عصر الإيمان)، ترجمة: محمّد بدران، اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربيّة، القاهرة، لات، ص: 81.

3-راجع: ابن هشام، السيرة النبويّة، ج 2، ص 412؛ الطبريّ، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 61.

4- جمهرة رسائل العرب، ج1، ص: 341-340. وانظر أيضاً: ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمّد قححية، بيروت، دار الكتب العلميّة، ج2، ص: 233. وشرح نهج البلاغة، مج3، ص: 300، مج1 ص: 248. وابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج1، ص: 71.

على انحطاط في الأخلاق، ولا تدلّ على مواقف سياسيّة نبيلة. ويضاف إلى كل ما سبق أنّ معيار العلاقة مع النَّاس بالنسبة إلى معاوية هو «شعرة»، وليس الشريعة المطهّرة.

لذلك، هذا التحيز لدى ديورانت إلى معاوية ليس غريباً، فهو لا ينفصل عن النظرة الاستشراقية التي تتطوي دائماً على حقد دفين على الإسلام، ولذلك سيسعى المستشرقون، ومنهم ديورانت، إلى تأييد خطاب معاوية، لأنّه خطاب انهيار الدولة الإسلاميّة، وهو ما يخدم السردية الاستشراقية الراضة لفكرة قيام دولة إسلامية قويّة.

ومن جهة أخرى نجد أنّ المفكرين العرب أيضاً كانوا مأخوذين بشخصيّة معاوية، فتمثيلاً لا حصراً، لم يفهم عبّاس محمود العقّاد من كتب معاوية وخطبه سوى ما يمكن على أساسه النظر إلى معاوية بصفته إنساناً متعلّماً بليغاً.

ذهب العقّاد إلى أنّ «معاوية تعلّم القراءة والكتابة والحساب، وإلى أنّه قد اتفقت الأخبار على كتابته للنبيّ -عليه السلام-، وكان معاوية على شغف خاص بالاستماع إلى سير الملوك، ووقائع الأمم وأطوار الدول الغابرة، وربما قرئت له هذه السير من كتب يونانية أو فارسيّة (...) وبلاغة معاوية في كلامه بلاغة سويّة لا تعلق، ولا تسف عن بلاغة أمثاله ونظرائه: يبيّن عمّا يقصد، ويحتفل بالقول، فينقاد له طبعه الميسر للعربيّ الفصيح من أبناء عصره (...) ومن ردوده المحفوظة رده على الإمام عليّ»<sup>1</sup>.

يظهر واضحاً من طريقة فهم العقّاد لشخصيّة معاوية أنّه لم يركّز على ماهيّة فكر معاوية، أي على تكوين وعيه باتجاه تحقيق انقلاب في الدولة الإسلاميّة الناشئة لصالح مآربه الشخصيّة. ذلك أنّ العقّاد أراد إظهار معاوية بصفته إنساناً مثقفاً وممتلكاً لقدرات لغويّة لا تقلّ عن نظرائه، دون أن يقدم نقداً جاداً لسياساته القمعيّة، أو تحليلٍ لانزياحه عن المشروع الإسلاميّ الأصيل. وهنا يغمر العقّاد من قناة الإمام، بمعنى أنّ معاوية لا يقلّ بلاغة عن الإمام. ويتّضح من سياق كلام العقّاد أنّ بلاغة معاوية تتجلّى في رده على أمير المؤمنين، ولم يقدّم العقّاد بتحليل هذا الرد وأسبابه وما يقف وراءه من غايات. بل إنّ تركيزه على «البلاغة السويّة» في خطاب معاوية يكشف عن فهم سطحيّ لطبيعة الخطاب السياسيّ الأمويّ، أي أنّه لم يستقص ما تسبّب به خطاب معاوية في إحداث تغيير عميق في بنية المجتمع الإسلاميّ.

1- انظر: العقّاد، عبّاس محمود، معاوية بن أبي سفيان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013، ص: 106.

هكذا، يتضح أنَّ كلا التوجّهين، الاستشراقيّ والعربيّ، أخفقا في قراءة معاوية قراءةً شموليّةً، فالأوّل تعمّد تشويه التاريخ الإسلاميّ، والثاني وقع في فخّ الانبهار بالشكل على حساب المضمون.

لقد طغى خطاب معاوية، غرباً وشرقاً، على مستوى المثقّفين، وكان له تأثير اجتماعيّ كبير في نفوس الكثير من المسلمين، ما زال مستمراً إلى يوم النّاس هذا. ولقد بدأ تأثير معاوية منذ أن استطاع استقطاب الحشود التي وقفت إلى جانبه في حربه ضدّ الإمام عليّ، ومردّ ذلك إلى أنّ معاوية كان قد صدر في مواقفه عن ثقة تامّة بمن حوله، تحديداً العناصر البشريّة المكوّنة لجيشه المتماسك، في مقابل تفكك جيش الإمام، ولقد عبّر عن ذلك بوضوح تامّ في خطابه الموجّه الى حربه قائلاً: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ صَنَعَ اللَّهُ بِكُمْ فِي حَرْبِكُمْ عَدُوَّكُمْ، جَاءُوكُمْ وَهُمْ لَا يَرَوْنَ إِلَّا أَنَّهُمْ سَيَقِيضُونَ بَيْضَتَكُمْ وَيُخَرِّبُونَ بِلَادَكُمْ، وَمَا كَانُوا يَرَوْنَ إِلَّا أَنَّكُمْ فِي أَيْدِيهِمْ، فَردَّهُمُ اللَّهُ بِغَيْظِهِمْ، لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا مِمَّا أَحَبُّوا، وَحَاكَمَنَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَحَكَمَ لَنَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ جَمَعَ لَنَا كَلِمَتَنَا وَأَصْلَحَ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَجَعَلَهُمْ أَعْدَاءَ مُنْفَرِّقِينَ يَشْهَدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْكَفْرِ، وَيَسْفِكُ بَعْضُهُمْ دَمَ بَعْضٍ. وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنَّ يَتِمَّ لَنَا هَذَا الْأَمْرُ. وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ تُحَاوِلُوا أَهْلَ مِصرَ، فَكَيْفَ تَرَوْنَ ارْتِثَاءَنَا لَهَا؟»<sup>1</sup>

وهذا فضلاً عن زرعه لإيديولوجيا خاصّة به تقوم على تأصيل أفكاره، أي إنّ معاوية استحضر في لغته الحقائق الدينيّة الميتافيزيقية الغائبة عن الحسّ المباشر ليوظّفها لصالح موقفه السّياسيّ - الرامي إلى التغيّير السوسيولوجيّ للمجتمع الإسلاميّ.

يقول ويب كيني<sup>2</sup> في كتابه اللغة الدينيّة: «اللغة هي إحدى الوسائط التي يمكن بواسطتها جعل وجود ونشاط الكائنات غير المتاحة للحواسّ أمراً ممكناً، بل ومقنعاً، بطرق تكون متاحة بشكل عامّ ولكنها أيضاً متاحة بشكل شخصيّ للأشخاص كأعضاء في مجموعات اجتماعيّة(...) اللغة الدينيّة متورّطة بعمق مع الافتراضات الأساسيّة حول مطامح الذات البشريّة. وفي الوقت نفسه، تواجه الأديان معضلات مزمنة تطرحها التوترات بين التعالي والطبيعة الواقعيّة والملموسة للممارسات اللفظيّة. ويعتمد الكثير على هذه الافتراضات والتوترات، لدرجة أن الكثير من المناقشات الدينيّة تدور حول

1- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص: 74.

2- ويب كيني أستاذ جامعي أميركي - معاصر - في قسم الأنثروبولوجيا بجامعة ميشيغان، حاصل على منحة جورج هيربرت ميد. وهو عضو في قسم الأنثروبولوجيا بفرعيه الاجتماعي والثقافي واللغوي، بالإضافة إلى البرنامج متعدد التخصصات في الأنثروبولوجيا والتاريخ ومركز دراسات جنوب شرق آسيا.

الأشكال اللغوية. ويتصل الأمر بالشكل اللغوي والبراغماتية.<sup>1</sup>

هنا نلاحظ أنَّ معاوية استحضر في خطابه الحقائق الدينية العالية التي هي موضوع للإيمان النقي ليجوِّلها إلى وسيلة لاستقطاب جمهوره، متوسِّلاً لغة تلبس لبوس الدين وتسعى إلى بلوغ مآرب نفعية أو براغماتية.

غير أنَّ أمير المؤمنين كان واعياً وعباً تاماً بمرامي معاوية لتوظيف الدين في لغته لصالح أهدافه، فقد ردَّ على كتاب معاوية الآف الذكر الذي يطالب فيه أمير المؤمنين بأن يتقي الله في دماء الناس، وجاء ردّه على النحو الآتي:

«مَنْ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَنَنْتِي مِنْكَ مَوْعِظَةً مُوَصَّلَةً وَرِسَالَةً مُحَبَّرَةً، نَمَقَّتْهَا بِضَلَالِكَ وَآمَضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ، وَكِتَابِ إِمْرِي لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَ لَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ وَ قَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لِأَعْطَا وَ ضَلَّ خَابِطاً، فَأَمَّا أَمْرُكَ لِي بِالتَّقْوَى فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، وَ أَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ مِنْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الَّذِينَ إِذَا أُمِرُوا بِهَا ﴿أَخَذْتَهُمُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ﴾ وَ أَمَّا تَحْذِيرُكَ إِيَّاي أَنْ يَحْبُطَ عَمَلِي وَ سَابِقَتِي فِي الْإِسْلَامِ فَلَعَمْرِي لَوْ كُنْتُ الْبَاغِي عَلَيْكَ لَكَانَ لَكَ أَنْ تُحَذِّرَنِي ذَلِكَ، وَ لَكِنِّي وَجَدْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ ﴿فَقَاتِلُوا آلِيَّ تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ فَنَظَرْنَا إِلَى الْفِتْنَتَيْنِ فَأَمَّا الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ فَوَجَدْنَاهَا الْفِتْنَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا، لِأَنَّ بِنْعِي بِالْمَدِينَةِ لَزِمْتُكَ وَ أَنْتَ بِالشَّامِ، كَمَا لَزِمْتُكَ بِنِعْهُ عُثْمَانُ بِالْمَدِينَةِ وَ أَنْتَ أَمِيرٌ لِعُمَرَ عَلَى الشَّامِ، وَ كَمَا لَزِمْتُ يَزِيدُ أَخَاكَ بِنِعْهُ عُمَرُ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ أَمِيرٌ لِأَبِي بَكْرٍ عَلَى الشَّامِ»<sup>2</sup>

يتَّضح تماماً أنَّ أمير المؤمنين كشف المكر الموجود في كتاب معاوية، فبدأ بتفكيك بنية خطابه حينما ردَّ عليه بقوله: «فقد أتتني منك موعظة موصلة»، أي موعظة قام بوصلها من عبارات وعناصر مجموعة إلى بعضها بعضاً، دون أن يكون فيها تجانس واضح، وهذا دليل قاطع على أنَّ أمير المؤمنين قبض على ماهية تفكير معاوية، الذي انتحل شخصية الواعظ، ولكن مادة خطابه الوعظي ملفقة غير نابعة من فكر أصيل، بل إنَّ كتاب أو بالأحرى خطاب معاوية في مجمله - في رأي الإمام- قائم على فكر ضالّ مضللّ. ولقد شخّص أمير المؤمنين القدرة التضليلية في فكر معاوية. ورغم حدة

1- See: Keane, Webb, RELIGIOUS LANGUAGE, Annu. Rev. Anthropol. 1997. 26:47-71. Copyright © 1997 by Annual Reviews Inc.

2-جمهرة رسائل العرب، ج1، ص: 417-418.

خطاب معاوية، واجه الإمام مضمونه بتواضع، فهو لم يبدِ أيّ انزعاج من أن يؤمر بالتقوى، بمعنى أنه لن يسمح لعزة نفسه أن تحول بينه وبين قبوله لأمرٍ موجّه له من أيّ إنسان يطلب منه أن يتقي الله.

ويستأنف أمير المؤمنين كلامه في كتابه إلى معاوية قائلاً: «وَأَمَّا شَقُّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ أَنْهَكَ عَنْهُ، فَأَمَّا تَخْوِيفُكَ لِي مِنْ قَتْلِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمَرَنِي بِقِتَالِهِمْ وَ قَتْلِهِمْ وَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ إِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ وَ أَشَارَ إِلَيَّ وَ أَنَا أَوْلَى مِنْ إِتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَ أَمَّا قَوْلُكَ إِنَّ بَيْعَتِي لَمْ تَصِحَّ لِأَنَّ أَهْلَ الشَّامِ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهَا، فَإِنَّمَا هِيَ بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ تَلْزَمُ الْحَاضِرَ وَ الْغَائِبَ لَا يُسْتَنْتَى فِيهَا النَّظَرُ وَ لَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ، وَ الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ وَ الْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ، فَارْزَعْ عَلَى ظُلْعِكَ وَ انْزِعْ سِرْبَالَ عَيْتِكَ وَ اُتْرِكَ مَا لَا جَدْوَى لَهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ عِنْدِي إِلَّا السَّيْفُ» حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ صَاحِرًا وَ تَدْخُلَ فِي الْبَيْعَةِ رَاغِمًا وَ أَسْلَامًا.<sup>1</sup>

يُستنبط من خطاب أمير المؤمنين أنه يمتلك قدرة حاجية كبيرة جدًّا، فهو لا يترك أيّ فكرة أو حجة كان قد استخدمها معاوية، إلّا قام بتفنيدها أو بتقديم حجة أقوى منها، وهذا دليل على أن فكر معاوية كان واضحًا بالنسبة إلى الإمام من حيث غاياته، وهو واضح في جوهره بالنسبة إليه. لكن ما دفعه إلى تقويض خطاب معاوية هو معرفته على نحو مسبق بأن خطابها سيكون هدفه ليس إقناع أمير المؤمنين بصدقته؛ بل إقناع جمهور المسلمين، لذلك مواجهة الإمام الفكرية لخطاب معاوية كان الهدف منها هو عدم تمكينه من خداع الناس بما يدّعيه ويزعمه ويلفقه، لذلك كان لا بدّ من مقارعة الحجة بالحجة، وتقويض الأساس النظري الذي يقوم عليه خطاب معاوية.

وبالتعمق في تحليل خطاب أمير المؤمنين إلى معاوية، نلاحظ أن الثنائيات الضدية تُشكّل أساس الصراع المركزيّ بينهما، وهو صراع بين الحق والباطل. يُقيم أمير المؤمنين حجته مفكّكًا ادعاءات معاوية باستخدامه لبنية حاجية تعتمد على التضادّ المنطقيّ. فمن جهة، يؤكّد شرعيّته عبر نسق البيعة الواحدة التي تلزم الحاضر والغائب «لَا يُسْتَنْتَى فِيهَا النَّظَرُ»، معارضًا بشكل حاسم فكرة انفصال الشّام سياسيًا. ومن جهة أخرى، يُقابل اتهامات معاوية «تَحْذِيرُكَ إِيَّايَ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلِي» بتحويل الاتهام إلى

1- م.ن.، ص: 418-419.

معاوية نفسه، عبر تصويره كـ «ضالٍّ» تقوده الأهواء «لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ». وتعتمد البنية السردية في خطاب الإمام على تسلسل تفنيديٍّ مُحكم، يبدأ برفض خطاب معاوية «مَوْعِظَةً مُّوَصَّلَةً بِضَلَالِكَ»، ثم بدعم الموقف بالنصّ القرآنيّ «فَقَاتِلُوا اللَّيَّ تَبْغِي»، ويختتم بالتهديد الصريح «لَيْسَ لَكَ عِنْدِي إِلَّا السَّيْفُ»، ممّا يُشكّل تصعيداً درامياً من التجريد الدينيّ إلى التهديد الماديّ.

ولئن كان معاوية قد وظّف في كتابه الموجه إلى أمير المؤمنين الآية الخامسة والستين من سورة الزمر «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ»، من أجل توظيف الخطاب الإلهيّ لصالح مآربه، فإنّ أمير المؤمنين أظهر في كتابه أسلوب معاوية المخادع، مبيّناً الموقف الشرعيّ الذي يجب أن يتّخذه إمام المسلمين في مثل الوضع الذي تسبّب به معاوية، إذ استند إلى الآية التاسعة من سورة الحجرات «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»، فعبارة «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي» تردّ رداً واضحاً على دعاوى معاوية في مزاعمه بأنّ أمير المؤمنين يسفك دم المسلمين.

والواقع أنّ خطابي أمير المؤمنين ومعاوية كانا السبب في انقسام الوعي الجمعيّ الإسلاميّ فيما يتعلّق بقبول هذين الخطابين عند النّاس، فوجد فئة مؤيِّدة لخطاب الإمام وفئة أخرى مؤيِّدة لخطاب معاوية.

لكن يجب الانتباه إلى نقطة ذات أهميّة كبيرة هنا، وهي أنّ خطاب كلّ من الإمام ومعاوية يهدف إلى إقناع النّاس ووقوع التصديق به، وهنا لا يهم -من الناحية الشكلية- من كان على حقّ ومن كان على ضلال، بل المهم هنا هو الطاقة الموجودة في خطاب كلّ منهما التي تحمل من يصله خطابهما على الاقتناع بواحد منهما، لأنّ الاقتناع بالخطاب هو أساس لما حدث من تحوّل أنثروبولوجي. ولذلك، لا بدّ من تحليل القدرة على الإقناع والتصديق في هذين الخطابين، نظراً لما أحدثاه من انقلاب سوسيولوجيّ وسيكولوجيّ في المجتمع الإسلاميّ. وهذا يمكن أن نجده في الخطب المباشرة أمام النّاس وليس في الرسائل المتبادلة ولهذه الخطب المباشرة دلالة أنثروبولوجيّة أقوى، لأنّها تقوم على الاتصال مع النّاس مباشرة وتسهم في تغيير قناعاتهم على نحو يؤدّي إلى تغيير في سلوكهم. ولقد عكست الرسائل بين الإمام ومعاوية تحوُّلاً أنثروبولوجياً من طقوس



القرباة إلى طقوس السلطة والحرب، وتحوّلاً سوسولوجياً من العصبية القبلية إلى الهوية الحزبية المتماهية مع الجماعة، وتحوّلاً سيكولوجياً من الولاء القائم على الدم إلى الولاء القائم على الإيمان الأيديولوجي، أي التحوّل من النظام القبلي القائم على العصبية والدم إلى النظام الحزبي المؤسّس على الانتماء السياسي الديني.

وبناءً عليه، شكّل الصراع بين أمير المؤمنين ومعاوية تحوّلًا جوهريًا في المجتمع الإسلامي، إذ انتقلت الهوية الجماعية من القبلية إلى الأيديولوجيا الحزبية. ولكن في العمق، مثّل معاوية استمرارًا للعقلية القبلية في إطار ديني، معتمدًا على سيكولوجية الخوف من التفكك الاجتماعي، وخطاب يستحضر الذنب الجماعي والثأر، بينما أسّس الإمام لسيكولوجية الإيمان الثوري، رابطًا الطاعة بالثواب الآخروي. ولقد نجح معاوية في إعادة تشكيل الهوية الجماعية لأهل الشام وربطهم بدم عثمان، محوّلًا الانتماء القبلي إلى ولاء أيديولوجي للحزب الأموي، بينما سعى الإمام لإعادة المجتمع إلى نسق البيعة الواحدة كشكل للعقد الاجتماعي، يدمج الدين بالسياسة.

هنا نجد قضية ذات أهمية كبيرة، فيما يتّصل بالكتب المتبادلة بين أمير المؤمنين ومعاوية، وهي أنّ فكريهما الموجودين في هذه الكتب هو في نهاية المطاف تعبير عن آراء كلّ منهما، وهذا ما تقوم اللغة بنقله، وبما أنّ خطاب كلّ منهما يقوم على معانٍ ومبانٍ متشابهة بسبب تقصص معاوية للخطابين الإلهي والرسالي، فإنّ الأولوية في خطاب كلّ منهما لا يمكن تحديدها بالنسبة إلى المتلقي لكلا الخطابين، لأنّ المسألة أصبحت منوطة بوظيفة اللغة.

وهنا يمكن الاستناد إلى ابن رشد، الذي ركّز على ما أسماه «الأخذ بالوجوه» في الخطب، وقد فسّر ابن رشد استخدام هذا الاسم «الأخذ بالوجوه» على أساس أنّ الألفاظ وحدها غير كافية لتحقيق الغرض من الخطاب؛ بل لا بدّ أن يترافق مع جزالة الألفاظ ومثانة تركيبها وقدرتها على التعبير عن المعاني، البراعة في إقحام المتلقي ودفعه إلى التصديق وبلوغ المرام من الخطاب، وهذا ما يحدث التأثير المطلوب في الناس من الخطاب.

ويُفصّل ابن رشد «الأخذ بالوجوه» على النحو الآتي: «وهذه الأشياء صنفان: إمّا أشكال، وإمّا أصوات ونغم. والأشكال منها ما هي أشكال للبدن بأسره، ومنها ما هي أشكال لأجزاء البدن كاليدّين والوجه والرأس، وهذه هي أكثر استعمالاً عند المخاطبة.



والأشكال بالجملة، يقصد بها لأحد أمرين: إمّا تفهيم المعنى وتخيله الموقع للتصديق، كما روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنّه قال في آخر خطبة: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» وأشار بإصبعيه يقرنهما. وإمّا تخيل لانفعال ما أو خلق ما، وذلك إمّا في المتكلّم... وإمّا في المخبر عنه...»<sup>1</sup>

ويقصد ابن رشد من هذا الكلام أنّ الخطيب يمكن أن يستند إلى حركات من أجزاء بدنه تعزّز قوّة خطبته بين المستمعين، هذا إذا كان يلقي الخطبة على الجمهور الموجود أمامه، وتدفعهم إلى التصديق كما فعل رسول الله (ص)، وكذلك الأمر في ما يتعلّق بالخطباء حينما يقومون بتخييل الهدف منه إقناع الحاضرين، كان يُظهر الخطيب نفسه حزينًا أو خائفًا أو غاضبًا، إذا كان يخبر عن قصّة معيّنة يصحّ فيها أحد هذه الانفعالات، وكذلك الأمر بالنسبة لمن يتحدّث عنه الخطيب، إذا كان خاضعًا لانفعال فيمكن تصويره من قبل الخطيب على هذا النحو من أجل شدّة التأثير في الحاضرين.

وأما فيما يتعلّق بالنغم، فإنّ الخطيب إذا أراد الرحمة رقق صوته، أو إذا قصد الغضب عظمّ صوته، ويمكن أن تكون غاية الخطيب تحريك السامعين نحو انفعال ما فيستخدم طبقات صوته لهذه الغاية، أو أنّه يريد إظهار كوامن نفوس المستمعين فيظهر طبقات صوتيّة تساعد على كشف نواياهم عن طريق سوقهم إلى انفعالات معيّنة.<sup>2</sup>

ويظهر هنا كلّ الظهور أنّ ابن رشد يستعرض ما أسماه «الأخذ بالوجوه» من أجل تبيان كيفية إحداث الخطيب للتأثير في نفوس السامعين، والمهم هنا أنّ الحقّ ليس مطلوب الخطيب، بل تتجلّى براعته في إيقاع التصديق في المقام الأوّل بصفته العامل الأساس الذي يمكن على أساسه استقطاب النّاس، فقد يكون الخطيب بعيدًا عن الحقّ، ولكن غايته الرئيسة هي جذب النّاس نحو الباطل، وهذا ممكن وموجود، فقد يوجد إنسان غير قادر على جذب النّاس إلى الحقّ، لأنّه لا يمتلك أدوات إقناعهم، وقد يوجد إنسان آخر قادر على جذب النّاس نحو الباطل لأنّه يمتلك أدوات الإقناع.

لكن المهم أنّ ابن رشد يضع ملاحظة هامّة في هذا الاتجاه بقوله: «وينبغي أن تعلم أنّ الأخذ بالوجوه ليس له غناء في الخطب المكتوبة، وإنّما غناؤه في المتلوّة. وإنّ عادة العرب في استعمالها قليلة... والأخذ بالوجوه إنّما هو نافع أكثر ذلك في الخطب التي

1- ابن رشد، تلخيص الخطابة، حققه وقّده له: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات- الكويت؛ دار القلم- بيروت، لا ت، ص: 250.

2- م.ن.، ص: 251.

تتلى على جهة المنازعة، لأنه إنما يُحتاج إلى الاستعانة بجميع الأشياء المقنعة في موضع المنازعة لتحصل الغلبة. وأمثال هذه الخطب هي الخطب التي كانت بين عليّ ومعاوية.<sup>1</sup>

وعليه، يميّز ابن رشد بين الخطب المكتوبة والخطب المتلوّة، ويؤكد أنه لا توجد فائدة من «الأخذ بالوجوه» في الخطب المكتوبة، لأنه لا يمكن للخطيب عبر الكتابة أن يستخدم أجزاء من جسمه أو صوته للتعبير عن مراده من أجل الوصول إلى بغيته؛ لكن أدرك ابن رشد أنّ الخطب المكتوبة بين أمير المؤمنين ومعاوية هي في حقيقة الأمر خطب متلوّة على الناس، وتحولت إلى مراسلات بمعنى أنّ مأخذ معاوية المفتعلة على أمير المؤمنين كان قد صرّح بها علانية أمام الناس، وكذلك تبيان أمير المؤمنين لمطالب معاوية كان قد صرّح بها بالكلام أمام الناس، وكتب التاريخ مليئة بنماذج من هذا النوع.

هذا، ولا بدّ من التركيز على مسألة أساسية وهي أنّ معاوية لم يوظّف الخطاب الإلهي والخطاب الرساليّ ضد أمير المؤمنين من أجل استمالة الناس إلى حزبه فحسب؛ بل اختلق خطاباً رسالياً نسبته إلى الرسول (ص)، إذ وظّف بعض الصحابة والتابعين لوضع أحاديث كاذبة عن الرسول (ص)، وكان الهدف منها استقطاب الناس إليه وإبعادهم عن أمير المؤمنين.

روى ابن أبي الحديد أنّ أبا جعفر الإسكافيّ المعتزليّ قال: «إنّ معاوية وضع قومًا من الصحابة وقومًا من التابعين على رواية أخبار قبيحة عن عليّ، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعلاً يُرغب في مثله، فاختلقوا ما أَرْضاه، منهم أبو هريرة وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير.<sup>2</sup>»

يتّضح هنا تمامًا أنّ معاوية أراد أن يحارب أمير المؤمنين بأقوال الرسول (ص)، وذلك من أجل أن يستنفر الشعور الدينيّ، تحديداً عند أهل الشّام ضد الإمام، وطرحه بصورة عدوّ الإسلام الذي يجب الجهاد للتغلّب عليه.

ولقد نقل ابن أبي الحديد بعض هذه الأحاديث التي وضعها هؤلاء: «روى الزهري أنّ عروة بن الزبير حدّثه، قال: حدّثتني عائشة، قال: كنتُ عند رسول الله إذ أقبل العباس وعليّ، فقال: يا عائشة، إنّ هذين يموتان على غير ملّتي -أو قال ديني.<sup>3</sup>»

1 - م.ن.، ص: 251-252.

2 - شرح نهج البلاغة، مج 2، ص: 263.

3 - م.س.، ص: 263.

ولقد استطاع معاوية بالفعل أن ينجح في تحقيق هذا التحوّل الأنثروبولوجيّ سوسولوجيّاً وسيكولوجيّاً استناداً إلى وعي تامّ بأنّ خطابه وحده لن يكون كافياً لإقناع جمهور المسلمين، فكان لا بد من استكمال خطابه الرئيس بخطابات فرعيّة تعد استئنافاً ضروريّاً له. لم يجد معاوية سلاحاً أو وسيلةً لتحقيق هذا الهدف إلا بتوظيف الحديث النبويّ ضد أمير المؤمنين.

إذن، بدأ خطابٌ جديدٌ بالتشكّل على نحوٍ انبثاقيّ من خطاب معاوية، وأدّى هذا الخطاب إلى تكوين صورة سلبية عن الإمام عليّ، وبدأت إرهابات هذا الخطاب في حياة الإمام واستمرّ في التطوّر والانتساع بعد رحيله، فأصبح الحديث النبويّ سلاحاً في يد معاوية ضده.

وقد روى ابن أبي الحديد «أن عروة «ابن الزبير» زعم أن عائشة حدثته، فقالت: كنت عند النبيّ (ص) إذ أقبل العباس وعليّ، فقال: «يا عائشة إن سرّك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا»، فنظرت، فإذا العباس وعليّ بن أبي طالب.»<sup>1</sup>

ولقد استغلّ معاوية وقعة الجمل، التي قادت فيها السيدة عائشة وطلحة والزبير بن العوام النّاس لمحاربة أمير المؤمنين<sup>2</sup>، وتمكّن من ضم المهزومين في هذه المعركة إلى حلفه السوسولوجيّ، أي إلى الجماعة التي يعمل على تكوينها.

كما ومثّل دور عمرو بن العاص في الصراع بين معاوية والإمام عليّ امتداداً لاستراتيجية سياسية-دينيّة هدفت إلى تفكيك شرعيّة الإمام عليّ عبر توظيف الخطاب الدينيّ نفسه. فالإي جانب دعمه العسكريّ والسياسيّ لمعاوية، انخرط عمرو في حربٍ خطابيّةٍ مُنهجيّة، تمثّلت في تلفيق أحاديث تُناقض النصّ القرآنيّ الصريح، وتُشكّك في ولاية عليّ الشرعيّة. ومن أبرز هذه الأحاديث المنسوبة إلى النبيّ (ص) ما رواه البخاريّ ومسلم في صحيحيهما عن عمرو بن العاص، فقد قال ابن أبي الحديد: (وأما عمرو بن العاص فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاريّ ومسلم في صحيحهما مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص، قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنّ آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنّما وليّ الله وصالح المؤمنين»)<sup>3</sup>. وهو حديثٌ يُعارض بشكل

1 م.ن، ص: 263.

2- راجع: شرح نهج البلاغة، مج3، ص 5-6، ص: 307.

3- م.ن، ص: 263.

صريح آية الولاية القرآنية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۖ﴾ (المائدة: 55)، التي نزلت في علي<sup>1</sup>، أراد معاوية هنا أن يناقض الخطاب الإلهي الذي يؤكد على ولاية أمير المؤمنين بخطاب حديثي ملفق.

لم يقتصر هدف معاوية من هذا التوظيف مجرد التشكيك في أسباب نزول الآيات، بل تخطاه إلى إعادة تشكيل الوعي الديني الجماعي بما يخدم مشروعه السياسي. فبدعم من السلطة الأموية، تمّ تسويق هذه الأحاديث الملققة على أنها جزء من «السنة النبوية»، لتُصبح أداة لشرعنة رفض حق الإمام في الخلافة الشرعية، وتمهيد الطريق لمعاوية كي يُقدّم نفسه «أميراً للمؤمنين».

والحقيقة أنّ تأثير هذه العملية لم يقتصر على تشويه صورة الإمام عليّ في الوعي الجمعيّ ذي الت موضوعات السيسولوجيّة والسيكولوجيّة، بل أسّس لبنية اجتماعيّة-دينيّة جديدة، تحوّل فيها الحزب الأمويّ إلى مركز الولاء المطلق. فمن خلال تكرار هذه الأحاديث في خطاب السلطة العام، نجح معاوية في غرس مشاعر العداء تجاه الإمام في نفوس المؤيدين المخدوعين، الذين رأوا في معارضته للخليفة الشرعيّ جهاداً لحماية الإسلام من الفتنة.

وعليه، لا يزال الانزياح الأنثروبولوجي الذي أرساه معاوية في البنية الاجتماعية الإسلامية يُلقي بظلاله على الواقع إلى يوم الناس هذا. فبدعم من صحابة وتابعين استقطبهم، نجح في تشكيل تيارٍ معقّد جمع بين القوة العسكريّة والسياسة والثقافة والاقتصاد، بهدف إرساء دعائم مجتمعٍ جديدٍ يخدم ملكه. وقد تمكّن، عبر مراحل تاريخيّة متعاقبة وصولاً إلى يومنا الراهن، من تقديم نفسه كـ «أمير المؤمنين» منافساً لشرعيّة الإمام، مستغلاً إغداق الأموال على المؤيدين، في مقابل تشويه صورة الإمام الذي رفض تحويل بيت المال إلى أداة لشراء الولاءات.

ولقد جسّدت الثنائية بين خطابي عليّ ومعاوية تناقضاً جوهرياً في الرؤى، تحوّل مع الزمن إلى معيارٍ لتحليل شخصيّتهما في الأدبيّات الإسلاميّة. لكنّ هذه الكتابات - للأسف - ظلّت أسيرة الانقسام المذهبيّ، فاخترلتها في تصنيفات ضيقة ما بين مؤلّفات ناصبيّة أو مؤلّفات رافضيّة، دون محاولة جادّة لفكّ التشابك بين البعدين التاريخيّ والدينيّ. إلّا أنّ أبو حيّان التوحيديّ يُعتبر استثناءً ملحوظاً؛ فقد قدّم، من خلال تأمّله

1- انظر: الزمخشريّ في تفسيره، الكشف، ص: 297. وانظر: السيوطيّ في تفسيره، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ص: 363-359.

الحيادي للصراع، قراءة مغايرة كشفت عن أبعادٍ جديدةٍ في شخصيّتهما وخطابيهما، متجاوزًا الانزياحات المذهبية ليرصد جذور الصراع في التناقض بين مشروعين: أحدهما يُقدّس الوحدة الإسلامية عبر العدالة، والآخر يُؤسّس للسلطة عبر الإغراء الماديّ.

قال أبو حيان التوحيديّ: «وكان معاوية جيّد الكلام، عجيب الجواب، عظيم الحلم، صبورًا على الخصم، معتادًا للكظم، ماضي الجنان، مفلق البيان، عارفًا بالدنيا، متأثيًا لها، مالكًا لزمانها، جاذبًا لخطامها، راکبًا لسانها؛ وكان عمرو بن العاص باقعة؛ وكان زياد أنكر القوم؛ وكان المغيرة لا يشقّ غباره، ولا تصطلي ناره؛ وليس عليّ كرم الله وجهه يجري في مضمارهم: عليّ بحر علم، ووعاء دين، وقرين هدى، ومسرّ حرب، ومدره خطب، وفارج كرب، مضاف السبب إلى النسب، معطوف النسب على الأدب، ولكنّ شيعته شديدة الخلاف عليه، قليلة الانتهاء إلى أمره، وكلهم الله إلى أمرهم، وإلى الله إيابهم، وعليه جزاؤهم وحسابهم»<sup>1</sup>

لقد صدق التوحيديّ في قوله أنّ شيعة الإمام كانت «شديدة الخلاف قليلة الانتهاء إلى أمره»، إذ الحقيقة أنّ الإمام عانى معاناة مريرة من تخاذل أتباعه عن تنفيذ أوامره، ورفضهم الانصياع لتوجيهاته ولقد عبر عن ذلك بخطابه الموجّه اليهم قائلاً: (...)**وَاللّٰهُ لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعَصِيَّانِ، وَلَقَدْ مَلَأْتُمْ جَوْفِي غَيْظًا حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ شَجَاعٌ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لَهُ فِي الْحَرْبِ (...)**<sup>2</sup>، هذا، لأنّه كان ديمقراطيًا وعادلًا بكلّ ما في الكلمة من معنى، فهو كان يصغي لآراء الآخرين حتّى لو كانت معارضةً لرأيه.

هذا، وحينما أوشك جيش الإمام على الانتصار في صفّين، لجأ معاوية بعد شعوره بالهزيمة إلى تغيير خطابه من خطابٍ تحريضيٍّ يدعو إلى إزاحة أمير المؤمنين إلى خطابٍ يدعو إلى تهدئة الحرب واخلاد نيرانها. فخرج هو وعمرو بن العاص بدعوى التحكيم، ورفعوا المصاحف على الرماح من أجل شقّ صفوف أتباع الإمام من المسلمين تحت ذريعة الاحتكام إلى كتاب الله تعالى<sup>3</sup>. والحقيقة أنّنا نلاحظ هنا انقسامًا في جيش الإمام أفضى إلى انقسام سوسيولوجيّ بين أتباعه، وقاد إلى ظهور فرقة الخوارج بسبب خطاب معاوية التحكيّميّ المستند الى مقولة «لا حكم إلّا لله». وعلى هذا الأساس، انبثق

1- التوحيديّ، البصائر والذخائر، م 1، ج 1، ص: 172.

2- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل، ج 1، عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، لات، ص: 20.

3- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 4، ص: 37.

تعين سوسيولوجي جديد في الدولة الإسلامية، هو تعين فرقة الخوارج جغرافياً وسياسياً واقتصادياً، إذ كَوَّنوا تشكيلة اقتصادية اجتماعية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

وقد ذكر دونالد ليتل<sup>1</sup> حول الخطوات التي اتخذها معاوية لإحكام سيطرته على السلطة، قائلاً: «لقد أصبح من الواضح في عهد الخلفاء الأوائل أن التقاليد القبلية وممارسات محمد في المدينة المنورة لم تكن موارد كافية لإدارة إمبراطورية شاسعة. ولحل هذه المشكلة لجأ معاوية إلى الحل الذي كان في متناول يده في سوريا، وهو تقليد الإجراءات الإدارية التي تطورت خلال قرون من الحكم الروماني والبيزنطي هناك. على الرغم من أن العملية التي تمت بها الاستعارة ليست معروفة تماماً، فمن الواضح أن معاوية بدأ بعض الممارسات التي يبدو أنها مستوحاة من التقليد السابق. في الأساس، كان يهدف إلى زيادة تنظيم ومركزية حكومة الخلافة من أجل ممارسة السيطرة على المناطق التي تتوسّع باطراد. وقد حقق ذلك من خلال إنشاء مكاتب-ديوان في دمشق لتسيير شؤون الحكم بكفاءة. تنسب المصادر العربية المبكرة ديوانين على وجه الخصوص لمعاوية: ديوان الختم، أو المستشارية، والبريد، أو الخدمة البريدية، وكلاهما كان من الواضح أنهما كانا يهدفان إلى تحسين الاتصالات داخل الإمبراطورية. مناصب بارزة داخل البيروقراطية الناشئة، وكان بعضهم ينتمي إلى عائلات خدمت في الحكومات البيزنطية. كان توظيف المسيحيين جزءاً من سياسة أوسع للتسامح الديني، والتي استلزمها وجود أعداد كبيرة من السكان المسيحيين في المقاطعات المفتوحة، وخاصة في سوريا نفسها.<sup>2</sup> يتبين أن معاوية استطاع أن يغيّر البنية السوسيولوجية للمجتمع الإسلامي، تحديداً في الشام، بسبب انفتاحه على طريقة الإدارة والحياة على الطريقة البيزنطية، وازداد هذا التغيير في المجتمع الإسلامي لأسباب مختلفة.

لقد شهدت الدولة الإسلامية تحولات سوسيولوجية وجغرافية هامة، فالبصرة بعد حرب الجمل أصبحت بيئة حاضنة لعداء أمير المؤمنين، ومركزاً لمجموعة بشرية تكنّ عداً شديداً له. بالإضافة إلى ذلك، شكّلت الشام، معقل معاوية، بيئة معادية ضمت أناساً مشحونين إيديولوجياً ضد الإمام وكانوا بمثابة الخزان البشري الذي استخدمه معاوية في جيشه. ومع ظهور فرقة الخوارج وانتشارها لاحقاً في الأمصار تحديداً في العراق، نشأ

1- أستاذ بمعهد الدراسات الإسلامية، جامعة ماكجيل، مونتريال، مؤلف كتاب «مقدمة في التاريخ المملوكي».  
2-Muawiyah I Umayyad caliph, Britannica, <https://www-britannica-com.translate.goog/bi-ography/Muawiyah-I>.

تموضع سوسيولوجي جغرافي جديد يضم أناساً امتلكوا لا وعياً جمعياً ضد الإمام، بسبب التربية والايمان الديني المغلوط.

وهكذا، أخذ خطاب معاوية أبعاداً سوسيولوجية مؤثرة في الناس، على نحو أدى إلى ظهور كيانات اجتماعية جديدة داخل الدولة الإسلامية توجّهها الصراعات الإيديولوجية.

### ثالثاً: وثيقة التحكيم وأثرها في التحوّلات الانثروبولوجية للمجتمع الاسلامي

كان أمير المؤمنين قد عوّل على الكوفة بصفتها مدينة يسودها اجتماع بشريّ تحكمه معايير دينية وثقافية ونفسية وجد فيها أساساً لتطوير مجتمع صالح، بصفته ليكون بمثابة عاصمة دولة الخلافة الإسلامية في مواجهة دمشق الأموية ذات النزعة البيزنطية، وهذا ما يفسر انتقال أمير المؤمنين إلى الكوفة.

ولكن الانقسام الاجتماعي في جيش أمير المؤمنين بسبب خطاب معاوية التحكيمي، لم يسمح للإمام بأن يحقق هذا الأمل، وذلك أن فئة من جيشه طالبت بضرورة إجراء التحكيم، ورغم معارضته إلا أنه اضطر في النهاية لمجاراة هذه الفئة ووقعت وثيقة التحكيم، وعرضت على الناس كافة من جيش عليّ وجيش معاوية ومما نصّت عليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين، أنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيرها وإنّ كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيا ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملا به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة»<sup>1</sup>.

تعد وثيقة التحكيم بين الإمام عليّ ومعاوية (37 هـ/657 م) لحظة مفصلية في تاريخ التشكيل الاجتماعي-السياسي الإسلامي، وخطاباً جديداً موجّهاً للجيشين، أو بالأحرى للمجتمع الإسلامي المنقسم على نفسه. وهذا الخطاب الجديد الذي هو وثيقة التحكيم، أراح كلاً من خطاب الإمام عليّ وخطاب معاوية إذ فقد جيش الإمام حماسه للحرب وغاب شعور أفرادهم بأنهم على حق. وقد جاء خطاب التحكيم أي الفكر الذي قدّمه هذا الخطاب للناس رديفاً لخطاب معاوية ضد أمير المؤمنين، خصوصاً بعد أن خلع أبو

1 - الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج5، ص53.

موسى الأشعريّ أمير المؤمنين من الولاية، وثبّت عمرو بن العاص معاوية على ولاية المسلمين.

ولقد شكّلت وثيقة التحكيم نقطة تحوّل أنثروبولوجيّة جذريّة في المجتمع الإسلاميّ، حيث انتقلت الولاءات من الهويّة القبليّة، إلى تحالفاتٍ جغرافيّةٍ سياسيّة، عكست تبلور كياناتٍ حزبيّة -شيعيّة عليّ وشيعيّة معاوية- قائمة على مشاريع أيديولوجيّة.

وعليه، تحوّل القرآن والسنة إلى حقل صراع رمزيّ، ففي حين قدّم القرآن كحكم محايد، أصبح تفسيره أداةً لتكريس الانقسام. وبالمثل، كشفت الإشارة إلى السنة العادلة في نصّ الوثيقة «فالسنة العادلة الجامعة غير المفترقة» عن صراعٍ خفيّ حول تعريفها. وأيضاً مثّلت الوثيقة لحظة تأسيسيّة في ولادة الإسلام السياسيّ، حيث أُعيد توظيف الدين كأيديولوجيا لصياغة الولاءات من القبيلة إلى الحزب. وكان أبرز تجلّيات هذا التحوّل هو انتقال أهل الشام وأهل الكوفة إلى كياناتٍ سياسيّةٍ مُستقلّة، لم تعد القبيلة هي النواة، بل المشروع الأيديولوجيّ القائم على تفاسير دينيّة متباينة.

وفي حين كشف فشل التحكيم عن استحالة التوفيق بين النموذجين التقليديّ والثوريّ، فقد أنتج صراعاً تأويليّاً لا يزال يُشكّل الوعي الإسلاميّ إلى اليوم. فالتحكيم لم يُنه الصراع، بل حوّلته إلى أزمة شرعيّة دائمة، مهّدت لتحوّل الخلاف السياسيّ إلى انقسامٍ طائفيّ متوارث. كما وتُظهر الوثيقة نافذةً أنثروبولوجيّة لفهم كيف بدأ الإسلام السياسيّ يُنتج بنى اجتماعيّة جديدة، تعكس تفاعل الدين مع السياسة في تشكيل الهويّات والسلطة.

هنا انبثق خطاب الخوارج الرافض للتحكيم، بعد مطالبتهم به وإجبار الامام على قبوله، فطلبوا منه أن يتوب إلى الله وأن يعترف بكفره بقبول تحكيم الرجال، فردّ عليهم الامام قائلاً:

«إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَمْنَا الْقُرْآنَ. وَهَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَا بُدُّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ... أَفِ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحًا، يَوْمًا أَنَادِيكُمْ وَيَوْمًا أَنَاجِيكُمْ، فَلَا أحرارَ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَلَا إِخْوَانٌ ثِقَةٍ عِنْدَ النِّجَاءِ!»<sup>1</sup>

وهنا لم يجد الإمام عليّ بداً من مواجهة هذه الفئة المنشقة عنه، والتي قد تؤدي بإثارتها للفتنة إلى خلخلة صفوف جيشه. وحاول منع حدوث انقسام في جيشه يتسبب في صراع

1- شرح نهج البلاغة، مج4، ص: 262.



اجتماعي ومذهبي، لكن باءت محاولاته معهم بالفشل. ولذلك، لم يستسلم للأمر الواقع ولم يتركهم ليستمرّوا في غيهم وضلالهم، أعني الخوارج، ولهذا خاض ضدهم حرب النهروان التي أبيد فيها غالبيتهم.<sup>1</sup>

والحقيقة أنّ الإمام عليّ، عبر تفكيكه العصبية القبلية وتركيزه على القرآن كرمز مركزي للشرعية «حَكَمْنَا الْقُرْآنَ»، يؤسّس لبنية جديدة تقوم على ثنائية النصّ/التأويل، ليُصبح القرآن مرجعية مطلقة، ولكن يحتاج إلى ترجمان بشريّ، هو أمير المؤمنين نفسه. فتحوّل السلطة من الزعامة القبلية إلى المرجعية الدينية-السياسية، في إعادة لتشكيل الولاءات حول هوية حزبية «شيعة عليّ» تُعارض الخوارج وأنصار معاوية. هذه الثنائية - النصّ/التأويل - تُنتج دورها ثنائيات فرعية: الإيمان/الرفض، العدل/الظلم، الوحدة/التمرد، حيث يُصوّر خطاب الإمام الخوارج كـ «انزياح بنيويّ» عن النظام الجديد بسبب رفضهم الوساطة التأويلية للإمام، بينما يُقدّم الإمام نفسه كمركز دلاليّ يوحد بين النصّ المقدّس والتطبيق السياسيّ.

وأما بعد فتنة الخوارج فنجد تحوّلًا في خطاب الإمام، إذ بدأت ثقته بأتباعه تضعف إلى أبعد حد، فوضع أسسًا نظرية لخطاب جديد، الهدف منه هو إعادة أصحابه إلى جادة الصواب، فلم يعد خطابه مقتصرًا على معاوية وحده ولا الخوارج وحدهم بل وجد نفسه مضطرًا إلى ابتكار خطاب جديد لضمان عدم انفضاض أتباعه من حوله.

هنا اكتشف أمير المؤمنين بدء تفكّك معسكره وتراجع أنصاره بعد معركة النهروان، فلم تعد المعاناة التي عاناها من كيد معاوية وحزبه وخروج الخوارج ومروقه؛ بل أصبحت هذه المعاناة أضعافًا مضاعفة بتخاذل الناس عن الجهاد، واستسلامه للأمر الواقع.

لقد أدّت فتنة الخوارج إلى صدع سوسيولوجي وسيكولوجي في المجتمع المؤيّد لأمر المؤمنين، وانتشرت دعوة الخوارج واستمرّت في المرحلة الأموية، ولم يقتصر الأمر على انشقاق الخوارج وحدهم. لقد ثارت جماعات أخرى على أمير المؤمنين، إذ إنّ الخطاب الخارجي الذي دان الإمام عليّ لقبوله التحكيم لاقى صدى في صفوف جيشه عند أناس من غير الخوارج المعروفين بالحروريين.

وعليه، نستنتج أنّ هناك حركات تمرّد متعدّدة على الإمام عليّ، كان أكثرها إيلاّمًا حركة الخذلان التي فاشت بين صفوف جيشه، وترجع بوجه عامّ إلى تولّد خطاب جديد بسبب الفتنة. وبدأت نظرية سياسية جديدة بالظهور تحوّلت إلى خطاب سياسيّ كان له

1- انظر: صحيح مسلم للنيسابوري، ص: 1773.

تأثيره الفاعل دائماً، ليس فقط في ظلّ دولة الإمام بل في المرحلتين الأموية والعباسية. ذلك أنّ «الخوارج وضعوا نظرية خلع الإمام الجائر، واستعاضوا عن مبدأ القرشية في الإمامة، بمبدأ الجدارة وساووا بين المسلمين في تولّي الإمامة أين كان جنسهم ولونهم، وبين الرجل والمرأة. فالإمامة للأحق، وقد يكون هذا الأحق من غير قریش ولهذا الموقف جذور في بعض ما يؤثر عن عليّ... ويؤثر في هذا الصدد أنّ عليّاً قال مرة لعثمان في حديث طويل: ضعفت ورققت على أقبائك قال عثمان: هم أقبائك أيضاً. فقال عليّ: لعمرى إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم. وفي هذا ما يشير إلى أن النسب القرشيّ لم يكن في نظر عليّ موضع فضل بالضرورة، وأن الدين هو هذا الموضع.»<sup>1</sup> لقد أضاء أدونيس على فكرة مهمة جدّاً وهي أنّه رغم تمردّ الخوارج على الإمام عليّ إلّا أنّ فكرهم المتصل برفض قرشية الخليفة-إمام المسلمين مُستفاد من عليّ أصلاً، لأنّه حارب على امتداد حياته المشركين في الجاهلية والمستأثرين بالحكم من قریش في الإسلام. علاوة على مواجهته الشديدة للقرشيين إذا اختلسوا مالاً أو طالبوا بما لا يستحقوه من بيت مال المسلمين (الزبير، طلحة، عقیل بن أبي طالب) وهذا يدلّ على أنّ الخطاب الخارجيّ في ما يتعلّق بنزع القداسة عن القرشيين كان نابعاً بطريقة أو بأخرى من عدالة أمير المؤمنين التي استفادها من رسول الله(ص)، إذ إنّ الناس سواسية كأسنان المشط وهذا يتسق مع قوله تعالى ﴿...إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ...﴾ الحجرات:13.

ويجب أن نفهم هذه المسألة على أساس أنّ أمير المؤمنين لم يقبل بإعادة تظهير الطبقة الأرستقراطية القرشية التي حاربها مع رسول الله(ص) من بدر إلى فتح مكة، لأنّ مفهوم القبيلة أصلاً عاود الظهور بعد موت الرسول(ص)، وتجلّى ذلك في استئثار قبائل قریش بالحكم إلى أن انفرط مفهوم القبيلة وتحول إلى مفهوم الحزب أو الشيعة (شيعة عليّ وشيعة معاوية). ولكن تقود نتائج البحث إلى أنّ انفضاض الناس من حول أمير المؤمنين يدلّ على أنّه لم يكن ساعياً إلى تكوين حزب بالمعنى الذي سعى إليه معاوية؛ بل كان هدفه إحياء دولة الإسلام، لكن التمرّق الاجتماعيّ حال بينه وبين تحقيق هذا الهدف. فالإمام كان خليفة لكلّ المسلمين ولم يستنسب حزباً لصالحه وفي المقابل نجح معاوية بخطابه الالتوائي بأن يكون حزباً خادماً لبني أمية، تجلّى في توظيف إمكانيات الدولة الإسلامية لصالح الملك العضوض الأمويّ. وعلى هذا الأساس ظهرت كيانات اجتماعية توزّعت على رقع جغرافية متعددة، وحمل سكانها موروثاً ثقافياً سيكولوجياً

1 - أدونيس، الثابت والمتحوّل: بحث في الابداع والاتباع عند العرب، ج1، دار الساقي، بيروت، ط11، 2019م، ص:235.

أو بالأحرى حملوا موروثةً يجب أن يكون موضوعاً للأنثروبولوجيا الثقافية التي يمكن أن تبحث في تكوين الوعي الثقافي ذي الجذور الدينية والمحدد لمسارات الخطابات السياسية. لقد انفض الناس من حول الإمام عليّ ولم يجد نفعا خطابه التأديبيّ.

## خاتمة

إنّ التحوّلات الأنثروبولوجيّة السوسولوجيّة والسيكولوجيّة التي شهدتها المجتمع الإسلاميّ خلال مرحلة الصراع بين الإمام عليّ ومعاوية، أفضت إلى انتقال الولاء من القبيلة إلى الحزب الأيديولوجيّ، حيث استثمر معاوية خطابه المعقّد، المدعوم باستمالة النخب وتوظيف الدين، لإحداث انقلاب في وعي المسلمين وعاداتهم، جاذباً إليّهم نحو نمط حياة مدنيّ وبيزنطيّ مغاير لقيم الزهد والتقوى التي أرساهما الرسول الأكرم والإمام. في المقابل، واجه الإمام عليّ هذا الخطاب المضاد بحجج قويّة وكشف لمغالطات معاوية، إلّا أنّ خطاب معاوية نجح في إحداث انقسام عميق تجلّى في ظهور كيانات اجتماعيّة وسياسيّة مختلفة وولاءات جديدة في المجتمع الإسلاميّ لم تكن موجودة في الزمن النبويّ.

بنيويّاً، يمكن قراءة هذا الصراع كديناميّة تأسيسيّة لإعادة ترميز الهوية الجمعيّة الإسلاميّة، حيث يمثّل خطاب الإمام بنية دلاليّة متماسكة تسعى لتثبيت مرجعية النصّ الدينيّ والقيم الأخلاقيّة، بينما يشغل خطاب معاوية كبنية تفكيكيّة تقوّض هذه المرجعيّة عبر استراتيجيّات تضليليّة وتوظيف براغماتيّ للدين. هذا التنازع الخطابيّ، كثنائيّة ضديّة بين خطاب الحق والباطل، حيث سعى كل طرف إلى فرض نسقه الدلاليّ الخاص على المتلقّي، نجح خطاب معاوية، من خلال استغلاله لشغرات البنية الاجتماعية القائمة، وخصوصاً جاذبيّة النمط المدنيّ في الشّام، في إنتاج بنية خطابيّة مهيمنة تعمل على إعادة تشكيل الوعي الجمعيّ وتوجيهه نحو ولاء حزبيّ، أدّى إلى إعادة هيكلة عميقة للبنية الاجتماعية والسياسيّة في صدر الإسلام.

وعليه، يُعدّ الصراع بين الإمام عليّ ومعاوية نقطة تحوّل أنثروبولوجيّ أعادت تشكيل البنى الاجتماعية والنفسية للمسلمين. فقد سعى أمير المؤمنين للحفاظ على النموذج النبويّ القائم على العدل، بينما نجح معاوية في تأسيس نظام سياسيّ براغماتيّ، موظفاً الدين لخدمة السلطة. هذا التحوّل لا يزال يشكل الوعي الإسلاميّ حتى اليوم، ممّا يظهر قوّة الخطاب السياسيّ في صناعة الهويّات وتغيير المسارات التاريخيّة.

## المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
  2. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي-بغداد؛ الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت، 2007م.
  3. ابن خياط، أبي عمرو خليفة الشيباني العصفري (ت:240هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، راجعه وضبطه ووثقه ووضع حواشيه وفهرسه: مصطفى نجيب فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م.
  4. ابن كثير، الحافظ، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، ج7، بيروت، 1985م.
  5. ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ت: 595هـ) تلخيص الخطابة، حققه وقدم له: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات-الكويت؛ القلم-بيروت، لا.ت.
  6. ابن هشام، السيرة النبوية، علّق عليها، وخرّج أحاديثها، وصنع فهرسها: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1990م.
  7. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، كتاب جمل من أنساب الأشراف، ج5، حققه وقدم له: سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، دمشق، 1996م.
  8. التوحيدي، أبو حيّان، البصائر والذخائر، م1، ج2، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط1، 1988م.
  9. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج2، راجعه وصححه وضبطه: نخبة من العلماء الأجلاء، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1939م.
  10. العقاد، عباس محمود، معاوية بن أبي سفيان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م.
  11. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل، ج1، عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، لا.ت.
  12. أدونيس، الثابت والمتحول: بحث في الابداع والاتباع عند العرب، ج1، دار الساقي، بيروت، ط11، 2019م.
  13. ديورانت، ول، قصة الحضارة، ج2، م4 (عصر الإيمان)، ترجمة: محمد بدران، اختارته
  14. وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، لا.ت.
  15. صفوت، أحمد زكي، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، ج1، القاهرة، 1938م.
- فهرس المصادر والمراجع الأجنبية**

1. Keanep, Webb, RELIGIOUS LANGUAGE, Annu. Rev. Anthropol. 1997. Copyright © 1997 by Annual Reviews Inc.
2. Mu‘āwiyah I Umayyad caliph, Britannica, <https://www-britannica-com.translate.goog/biography/Muawiyah-I>.

# القيادة التربوية ودورها في تطوير المؤسسات التعليمية: المفاهيم، الأنماط والتحديات

Educational leadership and its role in the development of educational institutions: Concepts, patterns, and challenges

خنساء أحمد حمدانية

Khansa Ahmad Hemdanieh

تاريخ الاستلام: 2025 /4/30 تاريخ القبول 2025 /5 /13

## ملخص

في ظلّ المتغيرات السريعة التي يشهدها قطاع التعليم، تبرز القيادة التربوية كعنصر حيويّ في تطوير المؤسسات التعليمية وتعزيز فعاليتها، فلم تعد تقتصر مهمة القائد التربويّ على الجوانب الإدارية والتنظيمية فحسب، بل أصبحت تشمل بناء بيئة تعليمية محفزة تدعم الإبداع، وتلبّي احتياجات المتعلّمين، وتسهم في تحقيق نتائج نوعية.

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل دور القيادة التربوية في بناء بيئة تعليمية إيجابية، وانعكاسات هذا الدور على تحقيق الكفاية الإنتاجية التعليمية في المؤسسات التربوية. كما يستعرض البحث مفاهيم القيادة التربوية، وتطورها وأنماطها المختلفة، إلى جانب التحديات التي تواجه القادة في الميدان، كما يسهم في تسليط الضوء على نماذج واقعية ناجحة من البيئة اللبنانية، فيتعرّز الطابع التطبيقي للبحث ويقدم مقترحات عملية قابلة للتنفيذ. ذلك، إضافة إلى دور القيادة التربوية في تطوير الأداء التعليمي ضمن المدارس الرسمية اللبنانية، من خلال تحليل نماذج ناجحة؛ فأظهرت النتائج أنّ أنماط القيادة التشاركية والتحليلية تعزّز بيئة إيجابية وتحفّز الكوادر التعليمية. كما بيّنت أهمية الذكاء العاطفي والمهارات القيادية في مواجهة التحديات المؤسسية والثقافية.

توصي الدراسة بتعزيز التدريب المهني ودعم استقلالية القادة التربويين، وتؤكد أنّ القيادة الفعالة هي حجر الأساس لأيّ إصلاح تعليمي مستدام.

الكلمات المفتاحية: القيادة التربوية- بيئة تعليمية- التشاركية- كفاءة- الذكاء العاطفي- البيئة الإيجابية- الأنماط- التحديات.

## Abstract

Amid the rapid changes in the education sector, educational leadership emerges as a vital element in developing educational institutions and enhancing their effectiveness. The role of an educational leader is no longer limited to administrative and organizational aspects; it now encompasses building a stimulating learning environment that fosters creativity, meets learners' needs, and contributes to achieving qualitative outcomes.

This research analyzes the role of educational leadership in creating a positive learning environment and its impact on achieving educational productivity in academic institutions. It explores the concepts, development, and various models of educational leadership while highlighting the challenges faced by leaders in the field. Additionally, the study sheds light on successful real-life models from the Lebanese context, enhancing the practical aspect of the research and presenting actionable recommendations.

Furthermore, the study examines the role of educational leadership in improving academic performance within Lebanese public schools by analyzing successful models. The results indicate that participatory and transformative leadership styles foster a positive environment and motivate educational staff. The study also highlights the importance of emotional intelligence and leadership skills in addressing institutional and cultural challenges.

The research recommends strengthening professional training and supporting the autonomy of educational leaders, emphasizing that effective leadership is the cornerstone of any sustainable educational reform.

**Keywords:** Educational leadership – Participative –Educational Environment –Efficiency – Emotional Intelligence –Positive Environment –Patterns– Challenges.

## أولاً: المقدمة

تُعَدُّ القيادة من المفاهيم الأساسية في حقل الإدارة والعلوم السلوكية، وهي تشكّل ركيزة أساسية في توجيه الأفراد والمؤسسات نحو تحقيق الأهداف المرجوة، خصوصاً في المؤسسات التربوية التي تتعامل مع الإنسان كقيمة وهدف في آن معاً. كما تحلّ القيادة التربوية مكانة بالغة الأهمية في البنية الإدارية للمدرسة، حيث يُناط بها دور فاعل في ضبط الإيقاع التربوي، وتنظيم الموارد، وتوجيه الجهود نحو تحقيق نتائج تعليمية ذات جودة عالية.

في خضمّ التحوّلات المتسارعة التي يشهدها القطاع التربوي بفعل التطوّر التكنولوجي، والضغوط المجتمعية المتزايدة، وتنوّع احتياجات المتعلّمين، تزداد الحاجة إلى قيادة تربوية فاعلة قادرة على صناعة بيئة تعليمية إيجابية تحفّز المعلمين، وتدعم المتعلّمين، وتوفّر مناخاً ملائماً للإبداع والإنتاجية.

إنّ الكفاية الإنتاجية التعليمية لم تعد تُقاس فقط بكمّ المعارف المقدّمة، بل بمدى قدرة المؤسسة التربوية على تفعيل مواردها البشرية والمادية، وتحقيق نتائج نوعية مستدامة، وتأتي القيادة التربوية هنا كعامل مفصليّ في بناء بيئة محفّزة، قائمة على الثقة والتعاون والانفتاح، وهي عوامل تؤثر مباشرة في رفع الكفاية والإنتاجية على مستوى الأداء الفردي والمؤسّساتي.

انطلاقاً من هذه الرؤية، يسعى هذا البحث إلى دراسة أدوار القيادة التربوية، وتحليل أثرها في خلق بيئة تعليمية إيجابية تُمكن من الوصول إلى كفاية إنتاجية تعليمية متقدّمة، تُلبّي تطلّعات الطلاب والمجتمع على حدّ سواء.

### 1 - أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على أهمية ودور القيادة التربوية في تعزيز البيئة التعليمية الإيجابية وتحقيق الكفاية الإنتاجية التعليمية في المؤسسات التربوية، ومن خلال هذا الهدف العام، يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف الفرعية الآتية:

أ - تحديد مفهوم القيادة التربوية، وبيان خصائصها وأهمّ وظائفها داخل المؤسسة التعليمية.

ب - تحليل العوامل التي تؤثر في فاعلية القيادة التربوية، سواء على مستوى الشخصية القيادية أم البيئة التنظيمية.

ج - توضيح مفهوم الكفاية الإنتاجية التعليمية، ومكوناتها القانونية الأساسية التي تسهم في جودة التعليم.

د - اكتشاف العلاقة التفاعلية بين القيادة التربوية وبناء بيئة تعليمية محفزة للإنتاجية.

هـ - رصد التحديات والصعوبات التي تواجه القادة التربويين في سعيهم إلى خلق مناخ تعليمي إيجابي.

و - تقديم مقترحات عملية لتعزيز فاعلية القيادة التربوية بما يحقق بيئة تعليمية منتجة ومتطورة.

## 2 - الإشكالية

من هنا، تتبع إشكالية هذا البحث من الحاجة إلى فهم العلاقة بين نمط القيادة التربوية في المدرسة وبين تحقيق الكفاية الإنتاجية التعليمية، مع الأخذ في الحسبان الأبعاد النفسية والاجتماعية والتنظيمية لهذه العلاقة؛ إذ إنَّ فعالية القيادة لا تقتصر على المهام الإدارية البحتة، بل تتجاوزها إلى القدرة على التأثير والإلهام وبناء ثقافة مؤسسية إيجابية قادرة على التكيف والتطوير وتحقيق الأهداف بكفاءة عالية.

ما دور القيادة التربوية في بناء البيئة الإيجابية لتحقيق الكفاية الإنتاجية التعليمية في المؤسسات التربوية؟

## 3 - الفرضيات

### أ - الفرضية الرئيسة

توجد علاقة ذات دلالة بين فاعلية القيادة التربوية وبناء بيئة تعليمية إيجابية تسهم في تحقيق الكفاية الإنتاجية التعليمية في المؤسسات التربوية.



## ب. الفرضيات الفرعية

- توجد علاقة إيجابية بين ممارسة أنماط القيادة التربوية التحفيزية وبين مستوى التحفيز لدى المعلمين داخل البيئة المدرسية.
- تؤثر القيادة التربوية ذات الطابع التشاركي في رفع كفاءة استخدام الموارد البشرية والمادية في المؤسسات التربوية.
- تسهم القيادة التربوية في تقليل مستوى التوتر والصراعات داخل المدرسة، فتنعكس إيجاباً على جودة التعليم.
- يؤدي وجود بيئة تعليمية إيجابية يقودها مدير تربوي فعال إلى تحسين أداء الطلاب والمعلمين على حدّ سواء.
- ترتبط درجة الكفاية الإنتاجية التعليمية في المدرسة بدرجة التفاعل الإيجابي بين القيادة والهيئة التدريسية.
- تؤثر قدرة القائد التربوي على بناء ثقافة مدرسية قائمة على الثقة والانفتاح في تفعيل الإبداع والابتكار داخل المؤسسة التعليمية.

## 4 - حدود البحث

يتناول هذا البحث القيادة التربوية في المدارس (المرحلة الأساسية والثانوية) ضمن السياق اللبناني والعربي بوجه عام، مع التركيز على علاقتها بخلق بيئة تعليمية إيجابية تُقضي إلى كفاية إنتاجية تعليمية.

أ - **الحدّ المكاني:** يركّز البحث على المؤسسات التربوية الرسمية والخاصة في البيئة العربية، مع الإشارة إلى نماذج دولية داعمة عند الحاجة.

ب - **الحدّ الزمني:** يعتمد البحث على أدبيات تمتدّ من 2015 إلى 2025، للاستفادة من أحدث الدراسات المتعلقة بالقيادة والإنتاجية التعليمية.

ج - **الحدّ البشري:** يتوجّه البحث إلى المديرين التربويين والمعلمين والقيادات التعليمية في المدارس.

## 5 - المصطلحات الأساسية

أ - القيادة التربوية: يُقصدُ بها مجموعة من المهارات والعمليات الإدارية والتربوية التي يمارسها المدير أو القائد، داخل المؤسسة التعليمية لتوجيه وتحفيز العاملين وتحقيق الأهداف التربوية بكفاءة.

ب - البيئة الإيجابية: هي المناخ التربوي والاجتماعي الذي يتسم بالدعم والانفتاح والتحفيز والتعاون داخل المؤسسة التعليمية.

ج - الكفاية الإنتاجية التعليمية: تشير إلى قدرة المؤسسة التربوية على تحقيق نتائج تعليمية فعّالة، مع توظيف الموارد بكفاءة وتحفيز العاملين وتحقيق أهداف التعليم النوعي.

د - الأنماط القيادية: القيادة التحويلية، القيادة التشاركية، القيادة الأوتوقراطية، القيادة الموقفية، القيادة الخادمة والقيادة الموزعة. كل نمط من هذه الأنماط يناسب بيئة تعليمية أو مرحلة معينة، وغالبًا ما يُدمج القادة التربويون بين أكثر من نمط بحسب الحاجة.

## 6 - منهجية البحث:

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال تحليل الأدبيات التربوية الحديثة المتعلقة بالقيادة والكفاية الإنتاجية، إلى جانب استقراء نماذج وتجارب واقعية لتطبيقات القيادة التربوية الفعّالة، ويعتمد كذلك على تحليل دراسات سابقة تسهم في دعم فرضيات البحث وتفسير علاقات التأثير المتبادلة بين المتغيرات.

### ثانيًا: الإطار النظري

#### أ - تعريف القيادة التربوية

القيادة التربوية هي عملية توجيه وإدارة الجهود داخل المؤسسات التعليمية من أجل تحقيق أهداف تربوية محدّدة، تعتمد على الرؤية الواضحة والتخطيط الاستراتيجي، مع التركيز على تطوير كل من البيئة التعليمية والعناصر البشرية العاملة فيها؛ كما أنّها تُعدّ عنصرًا محوريًا في تحسين جودة التعليم، إذ تسهم في رفع كفاءة المعلمين وتحفيز الطلبة

وتطوير المناهج والبرامج التعليمية؛ كما تركز على مبادئ المشاركة والعدالة والتمكين، مما يجعلُ الفائد التربوي ليس مجرد مدير، بل محفز وموجه وميسر للتغيير الإيجابي. يُنظر إلى القيادة التربوية على أنها أداة لإحداث التغيير المستدام داخل المدارس والجامعات، وذلك من خلال بناء ثقافة تنظيمية داعمة للتعلم والتطوير المستمر.

تتطلب القيادة التربوية قدرات خاصة تشمل مهارات التواصل واتخاذ القرار والذكاء العاطفي والقدرة على حل المشكلات؛ كما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحسين المدرسي ونجاح الطلبة، حيث تشير البحوث إلى أن القادة الفاعلين يسهمون في خلق بيئات تعليمية محفزة وآمنة، ويمكن أن تأخذ القيادة التربوية أشكالاً متعددة مثل القيادة التحويلية أو التشاركية أو الموزعة، بحسب السياق والثقافة المؤسسية.

في الوقت الراهن، ازدادت الحاجة إلى قادة تربويين يمتلكون رؤية مرنة قادرة على التكيف مع التغيرات التكنولوجية والاجتماعية؛ ولا تقتصر القيادة التربوية على مديري المدارس فحسب، بل تشمل كل من يؤدي دوراً في اتخاذ القرار التربوي وتوجيه المسارات التعليمية.

من هنا، فإن القيادة التربوية تُعدّ فناً ومهارة تحتاج إلى تدريب وتأهيل مستمر لضمان فعاليتها؛ كما تمثل حلقة وصل بين السياسات التعليمية وواقع التطبيق داخل الفصول الدراسية.

في المجمل، تعدّ القيادة التربوية عاملاً حاسماً في نجاح المؤسسات التعليمية وتطوير المجتمعات بشكل عام<sup>(1)</sup>.

## ب - الفرق بين الإدارة والقيادة في السياق التربوي

يُصنّف التمييز بين الإدارة والقيادة ضمن الأمور البالغة الأهمية في السياق التربوي، حيث ينعكس كل منهما بشكل مباشر على جودة التعليم وفعالية المؤسسات التعليمية؛ فالإدارة التربوية تُعنى بتنظيم العمليات، وتطبيق القوانين، وضمان سير العمل ضمن الأطر المؤسسية المحددة. أمّا القيادة التربوية، فتركز على إلهام المعلمين والطلاب، وتشكيل الرؤية المستقبلية، وتحفيز الجميع نحو تحقيق أهداف مشتركة.

1- رائد الأعمال العربي. (2025، أبريل 9). القيادة التربوية: ما هي؟ ولماذا مهمة؟ وما هي أنواعها؟ رائد الأعمال العربي <https://ar-entrepreneur.com/مهارات-قيادية-القيادة-التربوية>

يعملُ المدير التربويّ على التخطيط، والتنظيم والتّقييم، وهو مسؤول عن الجوانب الإدارية اليومية. في المقابل، يتجاوز القائد التربويّ تلك المهام؛ ليؤثر في ثقافة المدرسة ويقود التّغيير الإيجابي، كما تتطلّب القيادة مهارات في التّواصل وبناء العلاقات واتّخاذ القرارات الاستراتيجية بناء على رؤية واضحة.

تسعى القيادة إلى الابتكار والتّطوير، وتضمن الإدارة الاستقرار؛ من هنا، تبرز أهميّة التّكامل بين الدّورين لتحقيق بيئة تعليمية فعّالة، حيث يُحدث القائد التربويّ فرقاً حقيقيّاً حين يجمع بين كفاءة الإدارة روح القيادة المُلهمة<sup>(1)</sup>.

### ج - تطوّر مفهوم القيادة التربويّة عبر الزّمن

شهدَ مفهوم القيادة التربويّة تطوُّراً ملحوظاً عبر العصور، حيث بدأ يتمحور حول السّلطة الإدارية والتنظيميّة التي يمارسها المدير داخل المدرسة، حيث كان يُنظر إلى القائد التربويّ كمنفّذ للسياسات ومراقب للانضباط؛ مع مرور الوقت، تغيّر هذا المفهوم ليأخذ أبعاداً أعمق، حيث أصبح القائد التربويّ شريكاً في العملية التعليميّة، يركّز على دعم المعلّمين وتحفيز الطّلاب، ويقود التّغيير والتّطوير داخل البيئة التعليميّة من خلال الرؤية والابتكار والتّواصل الفعّال<sup>(2)</sup>؛ لقد تطوّر هذا المفهوم على مراحل عدّة:

#### 1 - المرحلة الأولى (حتى منتصف القرن العشرين)

- كان يُنظر إلى القيادة التربويّة من منظور إداريّ بحت.
- ركّزت على الجوانب التنظيميّة مثل تنفيذ القوانين، الحفاظ على الانضباط، ومتابعة التّعليمات.
- القائد التربوي كان يُعدّ مديراً أكثر من كونه قائداً.
- الأسلوب كان سلطويّاً أو أوتوقراطيّاً في الغالب.

#### 2 - مرحلة التّركيز على الكفاءة والفعاليّة (1950-1970)

- ظهرت الحاجة إلى تحقيق أهداف تعليميّة محدّدة بفعاليّة.

1- كاتب غير محدد. (2018، فبراير 25) مهارات القيادة التربويّة في اتخاذ القرارات الإدارية (ص. 24) (ملف PDF). [Noor .Book.https://www.noor-book.com](https://www.noor-book.com) / كتاب-مهارات-القيادة-التربوية  
2- عزازي.س.م.أ. (2011، سبتمبر 30). مفاهيم القيادة التربويّة الحديثة. المعلم نت. <https://almuallem.net/saboora/showthread.php?t=28835>

- برزت مفاهيم مثل الإدارة بالأهداف والكفاءة الإدارية.
- القيادة بدأت تأخذ شكلاً أكثر تخطيطاً وتنظيماً.
- ظهر الاهتمام بتحسين الأداء الأكاديمي للطلاب عن طريق تحسين أداء المعلمين.

### 3 - القيادة التحويلية والإنسانية (1980-1990)

- تطوّر المفهوم نحو القيادة التحويلية (Transformational Leadership).
- ركّزت على تحفيز العاملين، خلق رؤية، وتطوير ثقافة مدرسية إيجابية.
- القائد أصبح ملهماً، لا يكتفي بالإدارة بل يقود نحو التعبير.
- ظهرت أهميّة العلاقات الإنسانية والاتصال الفعّال بالبيئة التربوية.

### 4 - القيادة الموزعة والتشاركية (2000- حتى وقتنا الحاضر).

- تمّ الاعتراف بأهميّة المشاركة الجماعية في اتخاذ القرار.
- ظهرت نماذج مثل:
- القيادة الموزعة (Distributed Leadership).
- القيادة الأخلاقية (Ethical Leadership).
- القيادة الخادمة (Servant Leadership).
- القائد الآن يعمل ضمن فريق ويشجّع تمكين المعلمين والطلاب.
- التأكيد على الابتكار والمرونة واستخدام التكنولوجيا.

### 5 - القيادة التربوية في عصر التحوّل الرقميّ (العقد الأخير)

- مع التطوّر التكنولوجي والتحوّل الرقميّ في التعليم، تغيّرت متطلبات القيادة.
- أصبح القائد التربوي بحاجة إلى:
- فهم التقنيات الحديثة وتوظيفها.
- إدارة التعلّم عن بُعد.

- التعامل مع الأزمات مثل جائحة كورونا.
- القيادة الآن أكثر تعقيدًا وتتطلب مرونة وقدرة على التكيف<sup>(1)</sup>.

#### د - العوامل الشخصية للقائد التربوي

تُعد الصفات الشخصية للقائد التربوي من أهم المحددات التي تؤثر في فاعليته؛ وفعاليتها تشمل هذه العوامل:

1 - **الذكاء العاطفي:** يُمكن القائد من فهم مشاعر الآخرين وتنظيم عواطفه، مما يخلق بيئة يسودها الاحترام والتفاهم؛ فالقائد الذي يتحلى بالتعاطف والقدرة على الإصغاء يتمكن من تعزيز الولاء والانتماء في فريقه.

2 - **الكفاءة المهنية:** تشمل المؤهلات العلمية والخبرات التربوية والمعرفة بالسياسات التعليمية. يُنظر إلى القائد المتمكن كمرجع موثوق.

3 - **القدرة على اتخاذ القرار:** تشمل تحليل المشكلات، تقييم البدائل، واتخاذ قرارات مبنية على بيانات واقعية.

4 - **الرؤية المستقبلية والمرونة:** القدرة على التكيف مع التغيرات السريعة في المجال التعليمي، وتوجيه المؤسسة نحو التميز والابتكار.

5 - **أسلوب القيادة:** سواء كانت القيادة سلطوية، ديمقراطية، أم تحويلية، فإنّ الأسلوب المتبع يؤثر بشكل مباشر في مدى تفاعل العاملين ورضاهم.

#### هـ - أنماط القيادة التربوية

تتنوع القيادة التربوية وفقاً لأسلوب القائد، وطبيعة البيئة التعليمية، وطريقة التفاعل مع المعلمين والطلاب، ومن خلال الدراسات التربوية، أمكن تصنيف أنماط القيادة التربوية إلى أنواع عدة رئيسة:

#### 1 - القيادة الأوتوقراطية (السلطوية)

##### • تعريف

1 - طعيمة. ر.أ. (2006) الجودة الشاملة في التعليم بين مؤشرات التميز والاعتماد: الأسس والتطبيقات (ص. 254). دار المسيرة

يقوم القائد في هذا النمط باتخاذ جميع القرارات من دون الرجوع إلى الآخرين، ويركّز على فرض النظام والانضباط الصّارم.

#### • السمات

- (1) مركزية في السلطة.
- (2) ضعف في التواصل الأفقي.
- (3) التركيز على الإنجاز والانضباط.

#### • الإيجابيات

- (1) سرعة في اتخاذ القرار.
- (2) وضوح في الأوامر والتعليمات.

#### • السلبيات

- (1) يحدّ من الإبداع والمبادرة.
- (2) يقلّل من الحافز الداخلي لدى المعلمين.

#### • مثال:

يرفض مدير المدرسة النقاش أو إشراك المعلمين في اتخاذ القرار، ويُطبّق اللوائح بحذافيرها. في هذا النمط، قد يحقق هذا المدير نتائج سريعة في حالات الطوارئ والانضباط، لكنّه يقلّل من دافعية المعلمين ومن حرية الإبداع، فيخلق بيئة من التوتر والخضوع، مما يؤثر سلباً على العلاقات داخل المدرسة.

## 2 - القيادة الديمقراطية (التشاركية)

#### • تعريف

يُشارك القائد المعلمين والطلاب في عملية اتخاذ القرار، ويشجع على الحوار والمشاركة.

#### • السمات

- (1) تشجيع التعاون.

(2) احترام الآراء المختلفة.

(3) تواصل فعال وثقة متبادلة.

#### • الإيجابيات

(1) يحفز المعلمين ويعزز انتماءهم.

(2) يرفع من جودة القرارات بفضل تنوع الآراء.

#### • السلبيات

(1) بطء في اتخاذ القرار أحياناً.

(2) قد يؤدي إلى تشتت في الآراء إذا لم يُحسن تنظيم النقاش.

#### • مثال:

يُنظّم القائد التربوي اجتماعات دورية مع المعلمين لمناقشة التحدّيات ووضع حلول جماعية؛ فيتحفّز المعلمين على العمل بروح الفريق، ويتعزّز الشعور بالانتماء والمسؤولية، ويرفع من معنويات الطاقم التدريسيّ ويشجّع على الابتكار.

### 3 - القيادة التحويلية

#### • تعريف

يعملُ القائد على إلهام العاملين وتحفيزهم لتحقيق تغيير إيجابي، ويركّز على تطوير القدرات وتعزيز الإبداع.

#### • السمات

(1) رؤية واضحة للمستقبل.

(2) تركيز على التغيير والتطوير.

(3) إلهام وتحفيز داخلي للفريق.

#### • الإيجابيات

(1) يعزّز روح المبادرة والابتكار.



(2) ينمّي ثقافة مدرسيّة إيجابيّة.

#### • السّلبيّات

(1) يتطلّب وقتًا وجهدًا طويلين لتطبيق الرّؤية.

(2) قد لا يحقّق نتائج ملموسة على المدى القصير.

- يطوّر القائد مشروعًا مدرسيًا لتحويل البيئة التّعليميّة إلى بيئة رقميّة تفاعليّة، فيحفّز المعلّمين للمشاركة؛ فيحفّز على تحسين الأداء المستمرّ والتّطوير الذاتيّ، ويخلق بيئة تعليميّة ملهمة ومرنة تشجّع على تبني استراتيجيّات تعليميّة حديثة تواكب التّغيّرات.

### 4 - القيادة الموقفيّة

#### • تعريف

يقوم القائد بتغيير أسلوبه في القيادة وفقًا للموقف أو الظّرف الذي يواجهه.

#### • السّمات

(1) مرونة عالية.

(2) قدرة على التّكيف مع التّغيّرات.

(3) فهم عميق للسياق والنّاس.

#### • الإيجابيّات

(1) يُتيح الاستجابة المناسبة في كلّ حالة.

(2) يُناسب الفرق المتنوّعة.

#### • السّلبيّات

(1) قد يُنظر إليه على أنّه غير ثابت أو متردّد.

(2) يتطلّب وعيًا نفسيًا واجتماعيًا عاليًا.

#### • مثال:

يستخدم القائد أسلوبًا ديمقراطيًا مع فريق قوي ومتحفّز، ويستخدم أسلوبًا مباشرًا مع فريق قليل.

## 5 - القيادة التشاركية (اللامركزية)

### • تعريف

تُوزَّع القيادة على أفراد عدّة في المدرسة (مثل قادة الفرق، المعلمين المتميّزين)، مما يشجّع على المشاركة الجماعية.

### • السمات

(1) تعزيز الاستقلالية

(2) تنمية القيادات المستقبلية

(3) مشاركة المسؤوليات

### • الإيجابيات

(1) تقوية ثقافة التعاون

(2) تعزيز الإبداع وتنوع الحلول

### • السلبيات

(1) قد يؤدي إلى عدم وضوح المسؤوليات

(2) صعوبة في التنسيق إذا غابت الرؤية المشتركة.

### • مثال

يُشرك مدير المدرسة المعلمين في وضع السياسات التعليمية، ويُفوض قادة الفرق بمهام محدّدة، فيعزّز ثقافة العمل الجماعي والمبادرة، ويطوّر مهارات القيادة لدى المعلمين، ويزيد من التزام الفريق وتحملهم للمسؤولية.

في المحصلة، تختلف أنماط القيادة التربوية باختلاف السياقات، ولا يوجد نمط مثاليّ واحد يمكن اعتماده في جميع الحالات، فالقائد الفعّال هو من يحسن اختيار النمط

المناسب حسب الظروف والموارد المتاحة، ويوازن بين الحزم والتحفيز، وبين السلطة والتشاركية.

## و - التّحديات التي تواجه القيادة التّربويّة

تُعَدّ القيادة التّربويّة حجر الزّاوية في تطوير وتحسين النّظام التّعليمي؛ لكن، على الرّغم من أهميّة الدّور الذي تودّيهِ القيادة في نجاح المؤسسات التّعليميّة، فإنّها تواجه العديد من التّحديات التي قد تُعيق سير العمل وتحقيق الأهداف التّعليميّة.

### 1 - التّحديات الإداريّة والتنظيميّة

**الخصائص:** تُعَدّ التّحديات الإداريّة والتنظيميّة من أبرز العوائق التي تواجه القادة التّربويين في العديد من المؤسسات التّعليميّة. وتتّراوح هذه التّحديات بين صعوبة تنظيم الوقت وإدارة الموارد إلى ضرورة التنسيق بين مختلف الأقسام والأنشطة المدرسيّة.

#### • التأثير على القيادة

(1) **القيادة الفعّالة:** تواجه القيادة التّربويّة تحدّيًا كبيرًا في تنظيم العمل بين المعلّمين والطلّاب، ووضع استراتيجيّات تضمن سير العمل بسلاسة. في العديد من المؤسسات التّعليميّة، حيث توجد تعدّدية في الأقسام والمرافق (مثل الأنشطة اللاّمنهجيّة، الدّعم النّفسيّ، والإشراف الأكاديمي)، ممّا يخلق صعوبة في التنسيق بين هذه الأطراف المختلفة.

(2) **القرارات التنظيميّة:** القائد التّربويّ مضطّرّ لاتّخاذ قرارات تنظيميّة تحتاج إلى توازن بين تحقيق أهداف المدرسة والإلمام بكافّة النّفاصيل اليوميّة، وعليه، فإنّ الإدارة الدّائيّة والقدرة على ترتيب الأولويّات تعدّدت من المهارات الأساسيّة التي يجب أن يمتلكها القائد.

#### • كفيّة التعامل مع التّحدّي

(1) **التّخطيط الفعّال:** ينبغي على القائد التّربويّ وضع خطط استراتيجيّة تأخذ بعين الحسبان الاحتياجات المختلفة للمدرسة والمشكلات التي قد تواجهها.

(2) **التّحسين المستمرّ في الإدارة:** يحتاج القائد إلى تطوير أساليب إدارة الوقت وتنظيم

الأنشطة المدرسية بشكل دوري، بما يساعد على تحسين الأداء التنظيمي للمؤسسة التعليمية.

## 2 - مقاومة التغيير

**الخصائص:** تُعد مقاومة التغيير أحد التحديات الرئيسة التي تواجه القيادة التربوية، ففي العديد من المدارس، يواجه القائد التربوي صعوبة في إدخال التغييرات سواء كانت تتعلق بالمنهج، طرق التدريس، أم أساليب الإدارة.

### • التأثير على القيادة

(1) **مقاومة المعلمين والموظفين:** الكثير من المعلمين قد يقاومون التغييرات بسبب القلق من التأثيرات المحتملة على أساليبهم التعليمية أو بسبب عدم رغبتهم في الخروج من منطقة الراحة. كما أن بعض الموظفين قد يشعرون بعدم الراحة تجاه أساليب القيادة الجديدة أو السياسات.

(2) **مقاومة الطلاب:** التغييرات التي قد تطرأ على أساليب التعلم أو المناهج الدراسية قد تواجه مقاومة من الطلاب الذين تعودوا على طرق تعلم معينة.

### • كيفية التعامل مع التحدي

(1) **إشراك المعنيين:** يجب على القائد التربوي إشراك المعلمين، الطلاب، وأولياء الأمور في عملية التغيير منذ البداية؛ فعندما يكون الجميع جزءًا من العملية، فإنهم يصبحون أكثر استعدادًا للتكيف مع التغييرات.

(2) **التواصل الفعال:** يجب على القائد أن يوضح فوائد التغيير، وأسباب تنفيذه، مع التركيز على كيفية تحسين العملية التعليمية وجودة الأداء. هذا الأمر يساعد على تقليل مقاومة التغيير.

## 3 - نقص الموارد

### • الخصائص

من أكبر التحديات التي تواجه القيادة التربوية هو نقص الموارد المالية والبشرية. ففي الكثير من الحالات، تواجه المدارس صعوبة في الحصول على التمويل الكافي لتوفير

## البنية التحتية الحديثة أو لتوظيف الكوادر الأكاديمية المدربة.

### • التأثير على القيادة

(1) التأثير على جودة التعليم: نقص الموارد قد يؤدي إلى تقليل جودة التعليم والتدريب. على سبيل المثال، نقص الموارد الدراسية مثل الكتب والمعدات التكنولوجية قد يعيق قدرة المعلمين على تقديم المحتوى بشكل فعال.

(2) الضغط على المعلمين: في حالة نقص الموظفين، قد يتعين على المعلمين تحمل عبء العمل الإضافي لكل طالب، فيؤثر على قدرتهم على تخصيص وقت كافٍ لكل طالب.

### • كيفية التعامل مع التحدي

(1) البحث عن مصادر تمويل بديلة: يمكن للقيادة التربوية البحث عن شراكات مع مؤسسات المجتمع المحلي أو المنظمات غير الحكومية للحصول على دعم مادي، كما يمكن تنفيذ برامج جمع تبرعات أو تطوير مشاريع تعليمية تعاونية.

(2) إعادة تخصيص الموارد: تحسين استخدام الموارد المتاحة، مثل تعزيز دور التكنولوجيا في التعليم لتقليل الاعتماد على الأدوات التقليدية، يمكن أن يكون حلاً مجدياً في حال نقص الموارد.

## 4 - الثقافة المؤسسية

### • الخصائص

الثقافة المؤسسية تشكل جزءاً كبيراً من بيئة العمل في أي مؤسسة تعليمية؛ فالقيادة التربوية قد تواجه تحديات كبيرة في محاولة تغيير أو تعديل ثقافة المدرسة، خصوصاً إذا كانت الثقافة سلبية أو لا تدعم التطوير المستمر.

### • التأثير على القيادة

(1) التأثير على الانتماء: ثقافة العمل السلبية قد تؤدي إلى انخفاض الحوافز والانتماء لدى المعلمين والطلاب، مما ينعكس سلباً على الأداء الأكاديمي.

(2) التطوير المهني: قد تكون مقاومة للابتكار والتطوير المهني، مما يعوق القدرة على تنفيذ أفكار جديدة.

### • كيفية التعامل مع التحدي

(1) التوجيه وبناء الثقة: القائد التربوي يجب أن يعمل على تحسين ثقافة المؤسسة من خلال بناء الثقة بين المعلمين والطلاب وأولياء الأمور، ويجب أيضاً تعزيز التفاعل الإيجابي بين جميع أفراد المجتمع المدرسي.

(2) تشجيع المبادرات الإيجابية: تشجيع المعلمين والطلاب على تبني ثقافة التعليم المستمر والابتكار يمكن أن يساعد في تغيير الثقافة المؤسسية نحو الأفضل.

### 5 - تعدد أصحاب المصلحة

• الخصائص: في المؤسسات التعليمية، هناك العديد من أصحاب المصالح مثل المعلمين والطلاب وأولياء الأمور والجهات الحكومية. وتعد هذه الأطراف يخلق تحديات في التنسيق والتفاهم بين الجميع.

### • التأثير على القيادة

(1) تباين الأهداف والتوقعات: قد يكون لكل طرف من أصحاب المصلحة أهداف وتوقعات مختلفة، مما قد يؤدي إلى صعوبة في اتخاذ قرارات جماعية.

(2) التوترات بين الأطراف: قد يحدث تعارض بين أولياء الأمور وإدارة المدرسة حول المناهج أو أساليب التدريس، فتتعد عملية اتخاذ القرار.

### • كيفية التعامل مع التحدي

(1) التواصل المستمر: يجب على القيادة التربوية ضمان التواصل المستمر والمفتوح مع جميع أصحاب المصلحة أثناء جلسات الاستماع والاجتماعات المنتظمة، واستخدام وسائل الاتصال المختلفة يمكن أن يساعد في تعزيز التعاون.

(2) التفاوض والتفاهم: يجب أن يكون القائد التربوي على دراية بمختلف احتياجات وتوقعات أصحاب المصلحة وتطوير آلية للتفاوض والتوصل إلى حلول مشتركة.

في المحصلة، تواجه القيادة التربوية العديد من التحديات التي تتراوح بين التحديات الإدارية والتنظيمية ومقاومة التغيير ونقص الموارد. إضافة إلى ذلك، تتطلب الثقافة المؤسسية وتعدّد أصحاب المصلحة تفاعلاً مستمراً من القيادة لضمان تحقيق بيئة تعليمية فعّالة. بالتالي، فإنّ القائد التربوي النّاجح يحتاج إلى مهارات قويّة في الإدارة والتّواصل، وحلّ المشكلات للتّغلب على هذه التحديات وتحقيق النّجاح المؤسسيّ.

## ز - دراسات حالة أو نماذج ناجحة

### 1- مدرسة صيدا المتوسطة الرسمية

تُعدّ مدرسة صيدا المتوسطة الرسمية نموذجاً بارزاً للقيادة الفعّالة في القطاع العام، تحت إشراف المديرية السابقة: «السيدة عبد الملك» التي تولّت الإدارة في مرحلة كانت المدرسة بحاجة ماسّة إلى التّجديد والتّطوير، فعملت على تحسين البنية التّحتية للمدرسة من خلال ترميم المبنى وتجهيز قاعات المعلوماتية وتحديث الصّفوف، كما ركّزت على بناء شخصيّة الطّلاب من خلال تعزيز القيم الوطنيّة والأخلاقيّة، مما أسهم في زيادة ثقة الأهالي في المدرسة وتسجيل المزيد من الطّلاب. وأثمر هذا النّموذج القياديّ عن نجاح المدرسة في امتحانات الشّهادة المتوسطة بنسبة 100% مع تفوّق العديد من الطّلاب<sup>(1)</sup>.

### 2- موقع وبيانات متوسطة صيدا الرسميّة

تُعدّ مدرسة صيدا المتوسطة الرسميّة من أبرز المؤسسات التّعليميّة في مدينة صيدا، لبنان، وهي مثال حيّ على القيادة التّربويّة الفعّالة التي تسهم في تطوير التّعليم العامّ.

- الاسم: مدرسة صيدا المتوسطة الرسميّة.
- العنوان: حارة صيدا، شارع طريق جباع، صيدا.
- الدّوام: قبل الظّهر.
- اللّغة الأجنبيّة الأولى: الإنكليزيّة.
- عدد الشّعب: 24 شعبه، تشمل الرّوضة والحلقة الأولى والثّانية والحلقة الثّالثة.

1 - زعبيّر، هـ. (2018، أكتوبر 22) النائب الحريري خلال تكريم مديرة مدرسة صيدا المتوسطة: لبنان صمد بفضل شبابه، الذين اختاروا العلم والنّجاح. جنوبية. استرجع، في 28 أبريل، 2025، من

<https://www.anoubiyat.com/news/34793j/>

• عدد التلامذة: 644.

### 3 - القيادة الفعّالة والتّطوير المستدام

تحت إشراف المديرية ميرفت السنّ، عملت المدرسة على تعزيز بيئة تعليميّة محفّزة من خلال:

- تطوير البنية التّحتيّة: إجراء صيانة شاملة للمرافق المدرسيّة وتوفير قاعات مجهزة بأحدث التّقنيّات.
- تنظيم الأنشطة التّربويّة: إقامة فعاليات ثقافيّة ورياضيّة تسهم في تنمية مهارات الطّلاب.
- تكريم الكوادر التّعليميّة: في كانون الثّاني 2024، كرّمت المدرسة ثلاث معلّّات بلغن سنّ التقاعد بعد مسيرة تعليميّة تجاوزت 35 عامًا، فانعكس تقديرها للجهود المبذولة في خدمة التّعليم<sup>(1)</sup>.

### 4 - التّميّز الأكاديمي

أسهمت القيادة الفعّالة في تحقيق نتائج متميّزة على الصّعيد الأكاديمي، حيث أظهرت المدرسة تقدّمًا ملحوظًا في امتحانات الشّهادة المتوسطة، ممّا يعكس جودة التّعليم والاهتمام بتطوير المناهج والأنشطة الصّفيّة.

#### ح - مدرسة راشيل إدة الرسمية-زغرتا

تُعدّ مدرسة «راشيل إدة الرّسميّة» في بلدة سبعل قضاء زغرتا، مثالًا آخر على القيادة الفعّالة في التّعليم العامّ، حيث عملت الإدارة على تحسين البنية التّحتيّة للمدرسة من خلال ترميم المبنى وتجهيز قاعات المعلوماتيّة وتحديث الصّفوف؛ كما ركّزت على بناء شخصيّة الطّلاب من خلال تعزيز القيم الوطنيّة والأخلاقيّة، فأسهم ذلك في زيادة ثقة الأهالي بالمدرسة، وأثمر هذا النّمودج القياديّ عن نجاح المدرسة في امتحانات الشّهادة المتوسطة بنسبة 100%، وتسجيل المزيد من الطّلاب مع تفوّق العديد منهم، وأصبحت

1 - أسرة التحرير، (2024، يناير 4) متوسطة صيدا المختلطة كرمت ثلاث معلّّات بلغن سنّ التقاعد، الوكالة الوطنية للإعلام، استرجع في 29 أبريل، 2025، من

<https://www.nna-leb.gov.lb/ar/education/667296>



هذه المدرسة نموذجاً مميزاً للمدارس الرسمية اللبنانية، حيث حققت تقدماً ملحوظاً بفضل جهود مديرة المدرسة السابقة، السيدة «وداد سمعان الدويهي»<sup>(1)</sup>.

## 1 - أبرز إنجازات المدرسة

- **تحقيق علامة CELF الفرنسية:** في عام 2021، حصلت المدرسة على علامة (CELF) من السفارة الفرنسية «آن غريو»؛ لتكون بذلك أول مدرسة رسمية لبنانية تتال هذه الجائزة التي تُمنح للمؤسسات الفرنكوفونية التي تعتمد الثنائية اللغوية<sup>(2)</sup>.
- **نسبة نجاح 100% في الشهادة المتوسطة:** في عام 2022، نجح جميع طلاب الصف التاسع الأساسي في امتحانات الشهادة المتوسطة، مع حصول أكثر من نصفهم على درجات «جيد جداً»<sup>(3)</sup>.
- **أنشطة تربوية وثقافية متميزة:** أُقيمت فعاليات مثل «السيرك التربوي الثقافي الرياضي» بالتعاون مع جمعية «Arc en Ciel»، إضافة إلى ورش عمل ثقافية للأطفال والكبار، مما يعكس التزام المدرسة بتوفير بيئة تعليمية شاملة.
- **تطوير بنية مدرسية نموذجية:** افتتحت المدرسة في عام 2015 بدعم من السفارة الإيطالية؛ لتكون الوحيدة في جرد زغرتا، وتسهم في توفير التعليم الرسمي لأبناء المنطقة<sup>(4)</sup>.

تُعدّ مدرسة راشيل إده الرسمية مثالاً يُحتذى به في تطوير التعليم الرسمي في لبنان، بفضل القيادة التربوية الفعّالة والبيئة التعليمية المبتكرة.

## ثالثاً: عرض النتائج وتحليلها

اعتماداً على تحليل الأدبيات والنماذج الواقعية لدور القيادة التربوية في تطوير

- 1- إده، ر.، مدرسة سيرك التعليمية في إده: تجربة فريدة في التعليم الترفيهي.، (2015، أكتوبر، 1) <https://www.imlebanon.org/2015/10/01/circus-educational-school-rachel-edde-sebhel>
- 2- أسرة التحرير، (2021، مارس 4). مدرسة راشيل إده الرسمية إلى العالمية. موقع المردة. استرجع في 29 أبريل، 2025، من <https://elmarada.org/> مدرسة- راشيل- إده- الرسمية- إلى- العالمية
- 3 - أسرة التحرير، (2022، يوليو 15) مدرسة رسمية تحتفل بنجاح وتُفوق كل طلابها.. من هي؟ لبنان 24. استرجع في 29 أبريل، 2025، من <https://www.lebanon24.com/news/lebanon/971576/>

- 4- أسرة التحرير، (2015، أغسطس 25). إفتتاح مدرسة راشيل إده في سبيل الوحيدة في جرد زغرتا لاستيعاب التلامذة: قاعدة معلومات لبنان. استرجع في 29 أبريل 2025، من [https://lkdg.org/ode/13788?utm\\_source](https://lkdg.org/ode/13788?utm_source)

المؤسسات التعليمية، توصّل البحث إلى مجموعة من النتائج المهمة:

1 - **فاعلية القيادة التربوية ترتبط بأنماط القيادة الممارسة:** يتبيّن من النماذج المدروسة (مثل مدرستي صيدا المتوسطة وراشيل إده الرسمية)، أنّ نمط القيادة التحويلية والتشاركية يُحقّق نتائج تعليمية عالية، من خلال إشراك العاملين، وتحفيز المعلمين، وتوفير بيئة تعليمية إيجابية. بالمقابل، أظهرت الأدبيات أنّ النمط الأوتوقراطي يؤدي غالباً إلى انخفاض في دافعية الفريق التعليمي، ويقلّ من فرص الإبداع.

2 - **القيادة التربوية تؤثر بشكل مباشر في بناء البيئة التعليمية الإيجابية:** تُظهر النماذج القيادية الناجحة أنّ بناء الثقة والانفتاح والتعاون، تشكّل عوامل محورية في خلق مناخ مدرسي محفّز ومنتج. فالمدير الذي يعزز العلاقة التشاركية يسهم في تحسين العلاقات المهنية والانتماء الوظيفي لدى المعلمين.

3 - **تأثير القيادة على الكفاءة الإنتاجية التعليمية يتوسّط بين التنظيم والتحفيز:** تشير التحليلات إلى أنّ القيادة الناجحة لا تكفي بإدارة الموارد بل تُحوّلها إلى طاقة فعّالة عبر التحفيز، وتوزيع المسؤوليات، وبناء القدرات، فنُسهم في تحسين النتائج التعليمية كما في حالة نسبة النجاح المرتفعة في المدرستين النموذجيتين.

4 - **النجاح القيادي يتطلب مواجهة تحديات تنظيمية وثقافية معقّدة:** أظهرت الدراسة أنّ من أبرز التحديات التي تعيق القيادة التربوية: مقاومة التّغيير ونقص الموارد والثقافة المؤسسية السلبية وتعدّد أصحاب المصلحة؛ لكنّ القيادة الواعية، كما في النموذجين السابقين، واجهت هذه التحديات من خلال: التخطيط الاستراتيجي وتنمية العلاقات وتعزيز المشاركة المجتمعية.

5 - **مقومات القائد التربوي الفعّال تتجاوز المؤهلات الأكاديمية:** تؤكّد نتائج التحليل أنّ الذكاء العاطفي والرؤية المستقبلية والمرونة في التعامل، هي من العوامل الحاسمة التي تميّز القائد الناجح؛ فالقائد الذي يمتلك هذه المهارات، إضافة إلى القدرة على اتخاذ القرار السريع، يكون أكثر قدرة على الاستجابة للآزمات والتطوّرات.

6 - **النموذج اللبناني يُقدّم فرصاً قابلة للتطوير والتعميم:** من خلال استعراض التجارب المحلية، يتضح أنّ المدارس الرسمية اللبنانية قادرة على تقديم نماذج تعليمية

ناجحة على الرغم من محدودية الموارد، شرط توافر قيادة تربوية ذات كفاءة، ويمكن اعتماد هذه التجارب كنموذج للتطوير المستدام في مؤسسات أخرى.

رابعاً: تفسير النتائج وعلاقتها بالدراسات السابقة

## 1 - فاعلية القيادة التربوية ترتبط بأنماط القيادة الممارسة

التحليل يعكس هذا الاستنتاج ما أكدته نظرية القيادة التحويلية (Bass & Avolio, 1994)<sup>1</sup>، حيث تبين أن القادة الذي يلهمون المعلمين، ويشاركونهم في اتخاذ القرار يعززون الأداء التعليمي.

الربط بالدراسات السابقة

• تشير دراسة (Leithwood et al. (2006)<sup>2</sup> إلى أن القيادة التحويلية ترتبط بتحسين تحصيل الطلاب ورفع معنويات المعلمين.

• على العكس، أثبتت أبحاث (Owens & Valesky (2011)<sup>3</sup> أن النمط الأوتوقراطي يخلق بيئة غير محفزة تقلل من الابتكار والدافعية.

## 2 - القيادة التربوية تؤثر مباشرة في بناء بيئة تعليمية إيجابية

التحليل

إن البيئة الإيجابية التي تبنيها القيادة تركز على الثقة والانفتاح، وهو ما يؤسس لعلاقات مهنية مستقرة ويشجع على الانتماء المهني.

1-Bass, B.M,& Avolio, B. J. (1993, October). **Improving orgnsizational effectiveness through Transformational Leadership**. SAGE Publications. Consulté le 30 avril 2025,à partir de <https://us.sagepub.com/en-us/nam/improving-organizational-effectiveness-through-transformational-leadership/book4228>

2 - Leithwood, K.,Day, C. Sammons, P., Harris, A., & Hopkins, D. (2006). **Successful school leadership: What it is and how it influences pupil learning**. Department for Education and Skills.

3 - Owens, R. G., & Valesky, T. C. (2011). **Organizational behavior in education: Leadership and school reform** (10 th ed.). Pearson.

### الرّبط بالدراسات السابقة:

- يتفق هذا مع نموذج ((Fullan (2001)<sup>1</sup> الذي يُبرز أهميّة «الثقافة المدرسيّة» الإيجابية كعامل حاسم في النّجاح المدرسيّ.
- كما تدعم دراسة ((Tschannen–Moran (2004)<sup>2</sup> أهميّة الثّقة في تعزيز فعاليّة المعلمين وتعاونهم.

### 3 - القيادة تؤثر على الكفائيّة الإنتاجيّة عبر التّنظيم والتّحفيز

#### التّحليل

تشير النّتيجة إلى أنّ القيادة الفعّالة لا تقتصر على التّخطيط والتّنظيم بل تسعى لبناء طاقة إنتاجيّة بشريّة قائمة على التّحفيز وتوزيع الأدوار.

### الرّبط بالدراسات السابقة

- تؤكّد نظريّة (McGregor's Theory Y)<sup>(3)</sup> أنّ الموظفين (المعلّمين هنا) إذا تحفّزوا وتشاركوا، يصبحون أكثر إنتاجيّة.
- دراسة ((Bush & Glover (2003)<sup>(4)</sup> تشير إلى أنّ القيادة التّربويّة القادرة على بناء القدرات ترفع الكفاءة المؤسّسيّة.

### 4 - النّجاح القياديّ يتطلّب مواجهة تحديات تنظيميّة وثقافيّة معقّدة

#### التّحليل

القيادة الواعيّة تستطيع التّعامل مع التّحديات عبر التّخطيط وتنمية العلاقات، فنتطلّب فهمًا عميقًا للسياق المحليّ ومهارات عالية في إدارة التّغيير.

1- Fullan, M. (2001). **The new meaning of educational change** (3<sup>rd</sup> ed.) Teachers College Press.

2- Tschannen–Moran, M.(2004). Trust matters: Leadership for successful schools. Jossey–Bass.

3- McGregor, D. (1960). The human side of enterprise, McGraw–Hill

4- Bush, T., & Glover, D. (2003). School leadership: Concepts and evidence. National College for School Leadership.

## الرّبط بالدراسات السابقة:

- يتوافق ذلك مع نموذج ((Kotter (1996)<sup>1</sup> في إدارة التّغيير، حيث يعدّ بناء التحالفات وتوضيح الرؤية من مفاتيح تجاوز المقاومة.
- دراسات في السّياق العربيّ، مثل دراسة (عبد الجواد 2020)<sup>2</sup>، تؤكّد أنّ مقاومة التّغيير ونقص الإمكانات أبرز التّحديات أمام القادة التّربويين.

## 5 - مقومات القائد التّربويّ الفعّال تتجاوز المؤهّلات الأكاديميّة

### التّحليل

التّركيز على الذّكاء العاطفيّ والمرونة يشير إلى الاتّجاه الحديث في القيادة الذي يرى أنّ السمات الشّخصيّة والاجتماعيّة لا تقلّ أهميّة عن المعرفة الأكاديميّة.

## الرّبط بالدراسات السابقة

- وفقًا لـ ((Goleman (1998)<sup>3</sup>، الذّكاء العاطفيّ عنصر أساسيّ في القيادة النّاجحة، خاصّة في البيئات التّربويّة.
- كذلك، أشارت دراسة ((Day et al. (2011)<sup>4</sup> إلى أنّ القيادة المؤثّرة تقوم على المهارات الشّخصيّة بقدر ما تقوم على المؤهّلات الأكاديميّة.

## 6 - النّموذج اللّبنانيّ يُقدّم فرصًا قابلة للتّطوير والتّعميم

### التّحليل

على الرّغم من الظروف الصّعبة، فإنّ بعض المدارس الرّسميّة اللّبنانيّة أظهرت نماذج قياديّة ناجحة، مما يفتح الباب لتعميم التّجربة.

1- Kotter, J. P. (1996). Leading change. Harvard Business School Press.

2- سماح عبد الفتاح عبد الجواد، تقييم إستراتيجيات إدارة الجدارة لتوظيف قدرات الشباب وعلاقته بالرضا عن الحياة، المجلة العلمية المحكمة لدراسات وبحوث التربية النوعية، المجلد السادس - العدد الأول - مسلسل العدد (11). صفحة 742.

3- Goleman, D. (1998). Working with emotional intelligence, Bantam Books.

4- Day, C., Sammons, P., Leithwood, K., Hopkins, D., Gu, Q., Brown, E. J., & Ahtaridou, E. (2011). Successful school leaderships: Linking with learning and achievement. Mc Graw-Hill Education.

## الرّبط بالدراسات السابقة

- دراسة ((UNESCO (2017)<sup>(1)</sup> حول القيادة التّربويّة في البلدان النّامية تؤكّد أنّ القيادة الفعّالة يمكن أن تُحدث فرقاً كبيراً حتّى في بيئات تعاني من نقص الموارد.
- هنا يتماشى مع نموذج «التّحسين في السيّاقات منخفضة الموارد» الذي طوّره (2010) (Barber et al.)<sup>(2)</sup>.

في المحصّلة إنّ النّتايج تتّسق بشكل كبير مع الأطر النّظريّة المعروفة في القيادة التّربويّة، وتوكّد على أهميّة التّحوّل من الإدارة التّقليديّة إلى القيادة التّشاركيّة والمرنة، خصوصاً في السيّاقات الصّعبة. وتُسهّم الدّراسة الحاليّة في إثراء الأدبيّات المحليّة وتقدّم تطبيقات واقعيّة من السيّاق اللّبنانيّ يمكن الاستفادة منها عربياً ودولياً.

## خامساً: التّوصيات

استناداً إلى نتائج البحث، يمكن اقتراح التّوصيات التّالية لتعزيز فاعليّة القيادة التّربويّة وتحقيق بيئة تعليميّة إيجابيّة تسهم في رفع الكفاية الإنتاجيّة التّعليميّة.

### أولاً: على مستوى القادة التّربويّين

1 - التّطوير المهنيّ المستمرّ: ينبغي تنظيم ورش عمل ودورات تدريبيّة دوريّة للقادة التّربويّين؛ لتأهيلهم على أساليب القيادة الحديثة، مثل القيادة التّحويليّة والموزّعة والمهارات اللّازمة للتّعامل مع التّحديات المعاصرة.

2 - تنمية الذّكاء العاطفيّ والمهارات التّواصلية: تشجيع القادة التّربويّين على تنمية قدراتهم في التّواصل وإدارة الأزمات، وحلّ النزاعات لبناء علاقات إيجابيّة ومستقرّة مع العاملين والطلّاب.

3 - تعزيز ثقافة القيادة التّشاركيّة: اعتماد نمط القيادة التّشاركيّة بشكل أوسع، إذ له أثر إيجابيّ في رفع معنويّات المعلّمين وتحفيزهم على الإبداع وتحمل المسؤوليّة.

1- UNESCO. (2017) . Leading better learning: School leadership and and quality in the education, 2030 agenda: Regional reviews of policies and practices, Paris: UNESCO.

2- Barber, M., Whelan, F., & Clark, M. (2010). Capturing the leadership premium: How the world 's best- performing school systems come out on top. McKinsey & Company.

4 - تحفيز الابتكار والمرونة القيادية: توجيه القادة لتبني حلول إبداعية للتعامل مع مشكلات مثل نقص الموارد أو مقاومة التغيير، مع التركيز على الاستفادة من التقنيات الحديثة.

#### ثانياً: توصيات للمؤسسات التعليمية

- 1 - إنشاء بيئة تعليمية محفزة: تهيئة مناخ مدرسي قائم على الثقة والدعم والانفتاح، بما يعزز من ولاء العاملين وانتمائهم للمؤسسة التعليمية.
- 2 - توفير الدعم الإداري والتقني: ضمان توافر بنية تحتية مناسبة، وتكنولوجيا تعليمية حديثة، ودعم إداري يمكن القادة من تنفيذ رؤاهم بفعالية.
- 3 - اعتماد نظام تقييم للقيادة التربوية: تطوير أدوات تقييم دورية ومتكاملة تقيس أثر القيادة على الأداء الأكاديمي، والتحفيز المهني، ونمو البيئة التعليمية.

#### ثالثاً: توصيات لصانعي السياسات التعليمية

- 1 - صياغة سياسات داعمة للقيادة: وضع أطر قانونية وتنظيمية تعزز استقلالية القادة التربويين وتدعمهم في تنفيذ خطط التطوير التربوي.
- 2 - دعم الشراكة المجتمعية: تشجيع القادة والمؤسسات على بناء علاقات مع المجتمع المحلي لتوفير موارد إضافية ودعم بيئة التعلم.
- 3 - تشجيع النماذج القيادية الناجحة: إبراز تجارب قيادية متميزة كنماذج يُحتذى بها، مثل مدارس صيدا وراشيل إده الرسمية، وإدراجها في برامج إعداد القادة الجدد.

#### رابعاً: توصيات بحثية

- 1 - إجراء دراسات مقارنة بين أنماط القيادة المختلفة وأثرها على الكفاءة الإنتاجية في السياقات العربية والدولية.
- 2 - التوسع في دراسات الحالة لتوثيق التجارب الناجحة للقيادة التربوية في مختلف البيئات، وتحديد عناصر التميز فيها.
- 3 - التركيز على القيادة في الأزمات: دراسة فاعلية القادة التربويين في إدارة الأزمات

مثل الأوبئة أو النزاعات، واستخلاص دروس تطبيقية منها.

#### سادساً: الخاتمة

في ضوء ما تمّ عرضه وتحليله في هذه الورقة البحثية، يتّضح أنّ القيادة التربوية تُعدّ عاملاً محورياً في نجاح المؤسسات التعليمية، ليس فقط من خلال دورها الإداري والتنظيمي، بل بوصفها قوة دافعة نحو التغيير وبناء ثقافة مدرسية إيجابية تُعزز الكفاءة الإنتاجية.

بيّن البحث أنّ القيادة الفعّالة، سواء كانت تحويلية، تشاركية أم موقفية، فهي قادرة على تجاوز التّحديات البنيوية والثّقافية والتنظيمية التي تعيق تحقيق بيئة تعليمية محفّزة وفعّالة.

من خلال دراسة النّماذج الميدانية لمدارس لبنانية رسمية مثل «صيدا المتوسطة الرسمية» و«راشيل إدّه الرسمية»، يتّضح أنّ القيادة الواعية والمرنة التي تتبنّى رؤية مستقبلية وتوظّف الإمكانيات المتاحة بحكمة، قادرة على إحداث تحولات ملموسة في الأداء التعليمي وتحقيق تميّز على المستويين الأكاديمي والإداري، كما أنّ مواجهة التّحديات تتطلب من القائد التربوي مهارات قيادية متجدّدة، وشاركات فاعلة، وقدرة على التّكيف مع متطلّبات العصر.

بناءً عليه، يمكن القول: إنّ الاستثمار في تطوير القيادات التربوية من خلال التّدريب المستمرّ، وتمكينهم من اتّخاذ القرار، ودعمهم بموارد كافية، هو مدخل أساس لإصلاح المنظومة التعليمية وتحقيق أهداف التنمية التربوية المستدامة؛ وعليه، فإنّ مستقبل التّعليم العربي يرتكز بشكل جوهريّ على نوع القيادة التي تُمارس داخل مؤسساته، ومدى قدرتها على تحويل الرؤية التربوية إلى واقع فعّال ملموس.



## - قائمة المراجع

1. رائد الأعمال العربي. (2025، 9 أبريل). القيادة التربوية: ما هي؟ ولماذا مهمة؟ وما هي أنواعها؟ استرجع في 23 أبريل 2025، من <https://ar-entrepreneur.com/> مهارات-قيادة-القيادة-التربوية
2. كاتب غير محدد. (2018، 25 فبراير). مهارات القيادة التربوية في اتخاذ القرارات الإدارية ص. [PDF]. 24 استرجع في 23 أبريل 2025، من <https://com.book-noor.www/> كتاب-مهارات-القيادة-التربوية
3. عزازي، سلوى محمد أمد. (2011، 30 سبتمبر). مفاهيم القيادة التربوية الحديثة. استرجع في 27 أبريل 2025، من <https://almualem.net/saboora/showthread.php?t=28835>
4. طعيمة، رشدي أحمد. (2006، 22 يناير). الجودة الشاملة في التعليم بين مؤشرات التميز والاعتماد: الأسس والتطبيقات (ص. 254). عمان، الأردن: دار المسيرة.
5. زعيتر، هيثم. (2018، 22 أكتوبر). النائب الحريري خلال تكريم مديرة مدرسة صيدا المتوسطة: لبنان صمد بفضل شبابه الذين اختاروا العلم والنجاح. استرجع في 28 أبريل 2025، من <https://www.janobiyat.com/news34793/>
6. أسرة التحرير. (2024، 4 يناير). متوسطة صيدا المختلطة كرمت ثلاث معلمات بلغن سن التقاعد. استرجع في 29 أبريل 2025، من <https://www.nna-leb.gov.lb/ar/education/667296/>
7. أسرة التحرير. (2025، 1 أكتوبر). سيرك تربوي في مدرسة راشيل إده الرسمية في سبعل. استرجع في 29 أبريل 2025، من [https://www.imlebanon.org/2015/10/01/circus-educational-school-rachel-eddde-sebhel/?utm\\_source=education](https://www.imlebanon.org/2015/10/01/circus-educational-school-rachel-eddde-sebhel/?utm_source=education)
8. أسرة التحرير. (2021، 4 مارس). مدرسة راشيل إده الرسمية إلى العالمية. استرجع في 29 أبريل 2025، من <https://elmarada.org/> مدرسة-راشيل-إده-الرسمية-إلى-العالمية
9. أسرة التحرير. (2022، 15 يوليو). مدرسة رسمية تحتفل بنجاح وتفوق كل طلابها.. من هي؟ استرجع في 29 أبريل 2025، من <https://www.lebanon24.com/news/lebanon/971576/>
10. أسرة التحرير. (2015، 25 أغسطس). افتتاح مدرسة راشيل إده في سبعل الوحيدة في جرد زغرنا لاستيعاب التلامذة. استرجع في 29 أبريل 2025، من [https://lkdg.org/ode/13788?utm\\_source](https://lkdg.org/ode/13788?utm_source)
11. عبد الجواد، سماح عبد الفتاح. (ب.ت.). تقييم إستراتيجيات إدارة الجدارة لتوظيف قدرات الشباب وعلاقته بالرضا عن الحياة. المجلة العلمية المحكمة لدراسات وبحوث التربية النوعية،

12. Barber, M., Whelan, F., & Clark, M. (2010). **Capturing the leadership premium: How the world's best-performing school systems come out on top.** McKinsey & Company.
13. Bass, B. M., & Avolio, B. J. (1993). **Improving organizational effectiveness through transformational leadership.** SAGE Publications. <https://us.sagepub.com/en-us/nam/improving-organizational-effectiveness-through-transformational-leadership/book4228>
14. Bush, T., & Glover, D. (2003). **School leadership: Concepts and evidence.** National College for School Leadership.
15. Day, C., Sammons, P., Leithwood, K., Hopkins, D., Gu, Q., Brown, E. J., & Ahtaridou, E. (2011). **Successful school leadership: Linking with learning and achievement.** McGraw-Hill Education.
16. Fullan, M. (2001). **The new meaning of educational change** (3rd ed.). Teachers College Press.
17. Goleman, D. (1998). **Working with emotional intelligence.** Bantam Books.
18. Kotter, J. P. (1996). **Leading change.** Harvard Business School Press.
19. Leithwood, K., Day, C., Sammons, P., Harris, A., & Hopkins, D. (2006). **Successful school leadership: What it is and how it influences pupil learning.** Department for Education and Skills.
20. McGregor, D. (1960). **The human side of enterprise.** McGraw-Hill.
21. Owens, R. G., & Valesky, T. C. (2011). **Organizational behavior in education: Leadership and school reform** (10th ed.). Pearson.
22. Tschannen-Moran, M. (2004). **Trust matters: Leadership for successful schools.** Jossey-Bass.
23. UNESCO. (2017). **Leading better learning: School leadership and quality in the education, 2030 agenda: Regional reviews of policies and practices.** Paris: UNESCO.

# الصورة الشعرية ووظيفتها الدلالية في «الديوان الغربي»

لجوزف الصايغ

L'image poétique et sa fonction sémantique dans "Le Recueil Occidental" de Joseph Sayegh.

سيمونا بردويل

Simona Bardawil

تاريخ القبول 2025/6 /25

تاريخ الاستلام 2025 /6 /1

## الملخص

تتناول هذه الدراسة الصورة الشعرية في ديوان "الغربي" لجوزف الصايغ، مركزة على وظيفتها الدلالية والفنية. تبيّن الدراسة كيف تجاوز الصايغ الفهم التقليدي للصورة بوصفها مجرد تمثيل بلاغي، ليمنحها أبعاداً رمزية وفلسفية ترتبط بتجربته الذاتية والإنسانية.

اعتمد الصايغ على الاستعارة والتشبيه والكناية لتجسيد رؤاه، فجاءت الصور الشعرية في الديوان مشبعة بالرموز والدلالات المتعددة، تكشف عن قلق وجودي، وغربة داخلية، وصراع بين الشرق والغرب، خاصةً بين مدينتي رحلة وباريس. الصورة الشعرية لديه ليست وصفاً للواقع، بل نافذة على باطن التجربة، وعلى عالم متحوّل دائماً، تتقاطع فيه الذات مع المكان والزمان.

تميّزت صور الصايغ بالحركية، وتوظيف الألوان، وانعكاس النفس المتوترة، حيث صور المدينة الغربية كفضاء اغتراب، مقابل الحنين إلى الشرق. استعان الشاعر بتقنيات تعبيرية حديثة، واستثمر الرمز والصورة المجازية لتوصيل المعاني العميقة، فاختلط الواقعي بالحلمي، والحسي بالفكري، ما يعكس ثقل التجربة الحضارية والوجدانية لديه.

تشير الدراسة إلى أن الصورة الشعرية عند الصايغ لا تقتصر على الجماليات الشكلية، بل تُبنى لتؤسس رؤية شعرية فلسفية وجمالية، تعبّر عن الذات في صراعها مع العالم، وتفتح آفاقاً جديدة في الشعر العربي الحديث.

الكلمات المفتاحية: الصورة الشعريّة - الدلالة - الاستعارة - الإيقاع والموسيقا الشعريّة - الاغتراب - الرّمز - الذات الشعريّة.

### Résumé:

Cette étude explore l'image poétique dans Le Recueil Occidental de Joseph Sayegh, en mettant l'accent sur sa fonction sémantique et esthétique. Elle montre comment Sayegh dépasse la conception classique de l'image comme simple ornement rhétorique, pour en faire un véritable espace symbolique et philosophique, enraciné dans une expérience personnelle et existentielle profonde.

Le poète recourt à des procédés tels que la métaphore, la comparaison et la métonymie pour exprimer ses visions intérieures. Ses images poétiques, riches en symboles et en significations multiples, traduisent une angoisse existentielle, un sentiment d'exil intérieur, ainsi qu'un conflit identitaire entre l'Orient et l'Occident, incarné par les villes de Zahlé et de Paris.

Ces images ne se limitent pas à représenter la réalité, mais ouvrent une fenêtre sur l'univers intime du poète, où le temps et l'espace se confondent dans un mouvement fluide. Elles se caractérisent par leur dynamisme, leur musicalité, et l'usage expressif des couleurs, traduisant des états d'âme tourmentés.

L'étude met en évidence la manière dont Joseph Sayegh emploie la poésie comme outil de questionnement ontologique, et comment ses images participent à la création d'un langage symbolique, à la fois lyrique et philosophique. Ainsi, l'image poétique chez lui devient un acte de résistance contre l'aliénation, une quête esthétique et spirituelle, et un pont entre les cultures.

### Les mots-clés:

L'image poétique - La signification sémantique - La métaphore - Le symbole - Le rythme / la musicalité poétique - L'aliénation - Le moi poétique.

## المقدمة

تعدّ دراسة الصّورة الشعريّة بمفهومها الحديث المختلف عن المفهوم القديم المحصور بعلاقة المعنى الحقيقي بالمعنى المجازي، والمائل الى البساطة والوضوح المنعكس من البيئة العربيّة القديمة، والقائمة حديثاً على البناء الفنّي والإبداعيّ، إلى جانب التشابيه والاستعارات والدلالات والانزياحات المختلفة بطرائق أكثر عمقاً وتشابكاً وتعقيداً، «في سياقها نغمة خفضية من العاطفة الإنسانية»<sup>1</sup>، «شحتت - منطلقة الى القارىء - عاطفة شعريّة أو انفعالاً»<sup>2</sup> داخل كلمات «استعاريّة الى درجة ما»<sup>3</sup>، تعامل معها الشّاعر «جوزف الصّايغ» في ديوانه، ك«وسيلة فنّيّة جوهريّة لنقل تجربته في معناها الجزئيّ والكليّ»<sup>4</sup>، مفككاً ومركباً إيّاها ليأخذ المتلقي إلى عالم الخيال والدّهشة وأشياء الجمال لأنّ الصّورة الشعريّة «لا تكتفي بمجرد التّفنّيش بل تحاول عامدة أن تنقل الانفعال الى الآخرين وتثير فيهم نظير ما أثارته تجربة الشّاعر فيه من عاطفة»<sup>5</sup>

يتميّز الشّاعر جوزف الصّايغ بفرادة تجربته وتقنيّة استخدامه للألفاظ والصّور الشعريّة. فهو شاعرٌ وأديب لبنانيّ أطل في بداية السّتينيات على مملكة الشّعر والإبداع، فمزج بين الأدب والفنّ مبدعاً ثلاثة عشر ديواناً. فتألّق فكرياً مؤسساً الرّابطة الفكريّة، مولّداً من حبر قلمه رموزاً وصوراً ودلالات أغنت أدبه، فاستطاع الجمع في شعره بين الشّرق والغرب في عزّ انفعالها العصرانيّ محرراً لقاء فريداً، امتزجت بداخله اللّغة العربيّة بأصالتها بالحضارة الغربيّة. فتتوّعت مؤلّفاته الشعريّة منها والثرية ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: قصورٌ في الطّفولة، قيلولة الصّل، كتاب آن كولين، العاشق، سعيد عقل وأشياء الجمال...

ودراسة الدّيوان الغربيّ لجوزف الصّايغ تشكل نقطة مهمّة وأساسيّة، إذ يتأتّق بفكره حاشداً فيه الرّموز والصّور<sup>6</sup>، مقلّعا عن العموديّة الصّارمة الى التّساهل العروضيّ في الرّحاف والقوافي وأحياناً في الرّوي تأثراً بتيار الحداثة. فيندمج بالأشياء ويدخل عليها

1- محمد حسن عبدالله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، 1990م، ص32

2- م.ن، ص 32

3- م.ن، ص32

4- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة مصر للطباعة القاهرة، 1984، ص442.

5- شوقي صيف، في النقد الأدبي، ط6، دار المعارف القاهرة، ص150

6- مورييس وديع النجار، طيور المحابر، دار نلسون، السويد، 2015م، ص68.

أحاسيسه فينتزع صوره من واقعه، وإن كانت تبدو غير واقعية. فيجسد صوراً حضارية من الغرب مستوحاة من باريس، تتخللها طرافة تغني الأدب وتنعشه.

يعدّ هذا البحث باباً مهماً في مجال قسم اللغة العربية وآدابها، لأنّه يقدّم معرفة جديدة تُفيد المكتبة العربية وتسلّط الضوء على شاعر له مكانته في عالم الشعر والإبداع. إضافةً لإظهار جوانب الجمال والإبداع في صوره الشعريّة المتمثلة في الديوان الغربي، التي تحتل أهمية كبيرة لدى الناقد المعاصر لأنها وسيلته الأساسية لفهم القصائد وموقف الشاعر من الحياة. هذه الصور التي تعتبر اللّباب الشعريّ، والتي تلعب وظيفة دلالية جديرة بأن تُدرس.

يحتلّ الديوان الغربيّ موقعاً مهماً من نتاج الشاعر، فكتابته استمرّت منذ العام 1954 الى العام 1993. جسّد من خلاله صوراً شعريّة زاخمة وعواطف استطاع الشاعر إيصالها من خلال التصرّف باللغة والتلاعب بالبنية الشعريّة، ليدرك المتلقي أنّها محصلة لتراكم معرفيٍّ وتجربة شعريّة تشكّلت من خلال الصور الشعريّة، فأضفت جمالاً تلاشت غريته المينافيزيقية معها شعوره بالغربة.

#### أ- أسئلة الكتابة<sup>1</sup>

##### منذ أسئلة سارتر (J.P Sartre) الثلاثة:

تطرح أسئلة سارتر الثلاثة حول الكتابة الأدبية – لماذا يكتب الأديب؟ ماذا يكتب؟ ولمن يكتب؟ – إشكالية الأدب وأهدافه الأساسية. فالأدب ليس مجرد تقليد للواقع أو نسخه الحرفيّة، بل هو رؤية روحية تعيد خلق الواقع أو تبتكر واقعاً أعمق وأكثر غنى. يخضع الفنان في اختياره لمواد الحياة لقانون الأثر الذي ينقل جوهر الحياة وحساسيتها، وليس تفاصيل الواقع التافهة، ويكون مسؤولاً عن زاوية الرؤية التي يقدّم من خلالها هذا الواقع، ما يحدّد مادة الكتابة وكيفية طرحها وجمهورها. يحمل الأدب مسؤولية تأريخ عصره والتفاعل مع تحركاته الاجتماعية والنفسية، وإلا يصبح مجرد تمثيل مزيف أو ابتعاد عن الواقع. يبرز الكاتب الفرد في علاقته مع المجتمع محاطاً بقيود وحرية، ويجب أن يكتب بروح صادقة تعكس إحساسه الحر، بعيداً من الوظائف والمصالح الشخصية

1- طرح هذه الأسئلة الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر في كتابه «ما الأدب»، باريس، ط غاليمار، 1948، تعريب محمد غيمي هلال: دار العودة، بيروت، 1984.

الضيق. كما أنّ موضوعات الكتابة الأدبية ليست مجرد تقنيات، بل أوعية لرؤى إنسانية تتجاوز الزمان والمكان.

الصدق في الكتابة هو ما يثبت العمل الأدبي ويمنحه مكانته الحقيقية، إذ لا توجد كتابة من دون دافع، حيث تتجلى من خلالها الصراعات الوجودية والمشاعر الداخلية التي تحدد إنسانية الكاتب. يتطور إبداع الأديب بتغير العصور والظروف، معبراً عن الحياة ومناقشاً العواطف والنماذج البشرية، ويبقى السؤال الأساسي: لمن يكتب الأديب؟ وهو سؤال يعكس العلاقة الجوهرية بين الكاتب وقارئه وتأثير الأدب على الإنسان. تتحول أهداف الإنسان وتنبّل، ولا تستقر على أحوال بمستوياتها كافة، فردية وجمعية، والحال هذه. فالأديب يصوّر استجاباته للحياة، في أرحب معانيها وأعمقها مستعينا بمشاعره وعطاءات الفكر الجماعي من حوله. وقد نضج وتسامى، يعالج ما يشعره من مشاكل، يرى ضرورة معالجتها خاصة أو عامة، ومن دون تقنين لمشاعره، وهو يكتب ما يتلزم مع هذه المشاعر بلغة أدبية حيّة وحيوية، وإلا فمكتوب الأديب يسقط من الأدب إلى التهريج. وقد أسقط الأديب عن نفسه، اسمه ساعة يسقط عن الأدب إنسانيته التي ترتفع فوق كل تخالف، هذا الارتفاع الذي يصير ترفعا برسمه الفنّ الأدبي يصوره جميعاً، ينقل الأديب في كل أحواله: فرحاً وحزناً، قوّة وضعفاً وأشواقاً إلى المثل، يحاول أن يرقى إليها كافة، في سبيل كشف آفاق إنسانية في إنسانية الجميع، ولا سيما في لغة الشعر، وفي أساسه التجربة الشعرية<sup>1</sup>.

#### ب- التجربة الشعرية

التجربة الشعرية هي تفاعل داخلي عميق بين الذات والكون، يتجاوز المهارة الفنية إلى تعبير صادق ينبع من وعي الشاعر وحده وإخلاصه الفنيّ.

يقوم الخيال بدور الوسيط في تحويل الجزئيات الحسية إلى رؤى موحدة، تُثقل شعرياً عبر صور وتراكيب تكشف عن جوهر الأشياء وتخلق وحدة فنية تمثل حقيقة الوجود كما يشعر بها الشاعر.

1- طرحت مسألة الكناية في إطار البحث عن «ماهية الكناية»، كمدخل إشكالي لبحث إشكالية التجربة الشعرية كونها تحمل أبعاد الفكر ينتقل بين الناس مع الكلمات أو في ظلها.

## ج - اللّغة والشّعر

ارتبطت نشأة الشّعر باللّغة في نموها الجمالي، بعد أن كانت هذه اللّغة نفعية مباشرة، والواقع أن النفعية اللغويّة سابقة على جماليّتها، إذ اللّغة هي أداة الصّلة بين الفرد وغيره، وكانت وسيلة للعمل، بل، ونوعاً من العمل، إذ كانت للأصوات البدائيّة مفاهيمها الدّلاليّة بين مجموعة محدّدة من البشر يفهمونها، فتتم في ما بينهم دورة التّعامل، ومواجهة ما قد يعترضهم من صعوبات، وتطورت اللّغة في تراكيبها وكلماتها وتجاوزت المحسوس إلى المتصور المجرد من الأشياء، فإذا الأشياء المجردة ترتبط بمدلولاتها الحسية، وهذا التجريد أنتج الدّلالة الحدسية للكلمات في تلك المرحلة. انتقلت اللّغة من التّعبير عن المحسوس إلى التجريد، مما أثار دهشة الإنسان الأول وأدى إلى خلق صور شعريّة قوية أثرت في الفكر والسلوك. الشّعر كان وسيلة ربط بين الناس والأسطورة، مقدّمًا رسالة جماعية لتربية الأجيال وتمجيد الفضائل، ومع تطوره الحديث، تجاوز الشّعر الدّائيّة إلى الاهتمام بالقضايا الاجتماعيّة، حيث تداخلت التّجارب الفرديّة مع الجماعيّة في تعبير وجدانيّ إنسانيّ يعكس مكنونات النّفس والكون عبر الصّور الفنّيّة المتميزة.

## د - المكونات الشعريّة في الديوان الغربيّ

الشّعريّ: تشكل السيرة الدّائيّة رافدًا أساسيًا في التّجربة الشعريّة، إذ تمنح العمل طابعًا شخصيًا يعكس عمق التّجربة الدّائيّة ويؤسس لجماليّة صادقة إذا ما تحققت بتوازن بعيدًا من النّرجسية أو التّزويق الفارغ.

كما أنّ اللّغة في يد الشّاعر المبدع ليست مجرد أداة بل هي تعبير عن الأصالة، تكشف عن خصوصية الذات وفرادتها في التّعبير الفنّي والانفعالي.

وعليه، فإنّ الأثر الفنّي يصبح انعكاسًا لتجربة فريدة تتبع من الشّاعر نفسه، تتمايز في تفاعلها وإنتاجها عن تجارب الآخرين مهما تشابهت في الحدث أو الشعور. وفي قراءة لسيره جوزف صايغ الدّائيّة نجد أنا أمام بعض مكونات شعر الشّاعر في «الديوان الغربي»<sup>1</sup>.

1- جوزيف الصايغ: الديوان الغربي، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، بيروت-لبنان، ط 1، 1993



أول ما تفتحت براعم «الديوان الغربي» في باريس، وقد أقام فيها الشاعر ما بين (1954-1964) وفي أول ذلك العقد، وقد أخذ الديوان الشاعر إلى أوراقه، فسجل حياة هي هذه الكلمة، يعانيتها تتكرر عنده ولا تنتهي، فقد كانت القصائد «بنات اللقاء مع مدينة الحلم»<sup>1</sup>، فجاءت ثمرات المشاهدة، عميقة تعبّر عن دهشة الشاعر الأولية، ترتسم عنده وفيه كصور عن انفعالات ابتدائية تتيمّم البدايات، وإذا هي رجع ما بين الرؤية بالبصيرة، والإبصار بالرؤية، استجلاء لتلك الأقاليم الغامضة الواقعة على تخوم الاثنين<sup>2</sup>.

حمل الطفل الذي في الشاعر مدينة الحلم، تخطر بباله ومعه أنى وكيفما خطر، فكانت صورها معه. وجد الشاعر في باريس ملاذًا نفسيًا وجماليًا يحرّره من قيود الواقع الشرقي القاسي والتقاليد التي كبّلتها في زحلة، فصورها مدينة الحلم والانفتاح والحب المحرّر.

الغربة التي عاشها كانت مزدوجة: جغرافية عن باريس التي يحب، وروحية عن زحلة التي ينتمي إليها جسداً ويغترّب عنها وجداناً.

«الديوان الغربي» يعكس هذا التمزّق بين الشرق السّاحق والغرب الجمالي، حيث تحوّلت باريس إلى وطن بديل يتشكّل في داخله بصفته شكلاً من أشكال الخلاص الشعري والوجداني.

وفي تفصيل هذا، يغوص الغرب في أعماق الشاعر منذ أوائل حياته - الوهميات - فهنّ قد خرجن من شعر جوتيه، وموروا، وشكسبير، ولمعنّ فوق الشاشة الفضية «نجمات جميلات» تحفّ بهن موسيقى بلا دهن، وينطقن إلى جانب من ينطق. هناك فلسفة الغرب، ويعني «يطنّه» الشاعر بمقابل حال «الإفقار» الذي كان يشعر به، وثقّلة في تلك الأيام، إقفاراً شقيقاً في كل شيء حتى التلف. فإذا علاقة الشاعر وجيله «بالغرب» علاقة خدر وتحذير عن واقعهم «الشرقي»: الشعر، والأدب، والفلسفة، والموسيقى، والسينما، والفنون إجمالاً، هي مخدّراتنا المفضلة، الضرورية والمنقذة<sup>3</sup>.

أما كون جوزف صايغ الشعري، فيرتكز على نتاج الشاعر بول فاليري والفيلسوف نيتشه وبتهوفن وموزار الغربيين وعلى شعر سعيد عقل من الشرق، ومعهم تجاوز التّلف

1- جوزيف الصايغ: الديوان الغربي، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، بيروت-لبنان، ط 1، 1993، ص 11.

2- محمد العمشاوي: قضايا الأدب، مصدر سابق، ص 11-13.

3- م. ن: الديوان الغربي، ص 15.

في اسفاف «بيئتي الأولى»<sup>1</sup> يؤكد عليه الشاعر ويحذفه، وعليه أن يحصن نفسه من هذه الانتهاكات الفاجعة بمواجهة هدفها، تأخذه إلى الاضمحلال وتتسامى به فوق الواقع المعيش، لا سيما ما كان منه علاقة الشاعر بمدرسته التي كانت تحول دون المرغوب وتحيل على المطلوب فقط: «كانت المدرسة سخباً حقيقياً لخيالي، ولحس الحظ كانت باريس»<sup>2</sup>.

### هـ- المرحلة الباريسية

يرى الشاعر في هذه المرحلة عيشه الآخر الأطر والجديد القديم بحيث أن خيالات الحلم الباريسي، ارضتها مشاهد الواقع، لتدفع إلى السطح ردة فعل الشاعر في كلماته: إذن - هذه هي:

لقد كانت رحلة استكشاف عن قرب، مبعدة من أحلام الفراق والشوق إلى اللقاء، فكل شيء في باريس هو «آخر» في الفن والعمارة والطبيعة وكل جمال، يلفها جميعها «شعري»، عناصره كل هذا الهوى الباريسي في نفس الشاعر، تعلق أشياء المدينة، يحبها، تقيم في نفسه هوى وغوى، جدداً في نفسه، يتصرف للأنى ويشرق به شعره في كل ما حوله من أشياء الطبيعة والتاريخ والناس، فيواصل وصلاً، ثراءً طائلاً، ودوام إثراء وديمومة وقد أدرك الشاعر: «أن التاريخ، إن هو مات لم يمت معه الماضي فحسب، بل الحاضر والمستقبل»<sup>3</sup>.

عودة إلى التاريخ وبحسب جوزف صايغ، أن لا إطلاق في ما قاله عن التاريخ، ويتابع أن هناك تواريخ وجب أن ثقّل، ذلك أن تاريخاً لا يؤرخ للمستقبل فعدم وجوده وقتله أجدي، والتاريخ ليس مجرد علاقة بين تاريخ ومؤرخ له، بل هي العوامل المؤسسة الصّانعة لهذا التاريخ والواجب التأكيد عليها: «وهي عوامل البيئة والمناخ والمجاورة والجغرافيا والدين»<sup>4</sup>.

من خلال قراءته للتاريخ، وكيف يكون، وكيف يريده برزت عند الصايغ أسس العوالم الرابطة بينه وبين باريس، بكل عناصرها ومكوناتها وبكل رمزيّتها، فباتت ليس مجرد

1- م.ن، ص 16.

2- م.ن، ص 18.

3- م.ن، ص 18.

4- جوزف الصايغ: الديوان الغربي، ص 19.

ملاذ وحلم، بل مدينته التي أعادت تكوينه، كإنسان أصرَّ على قفل شرقه السَّابق على وجوده الباريسيِّ الرَّاهن فقد ضيق عليه الزَّمن الجديد «فسحة الاستمتاع بالكسل والصَّجر والحياة، لذا هو يقبل على الحياة بمثل هذا الشَّرِّه الذي يميزه، عندما تتاح له الحياة، وكأنَّ لا حياة أتيحت له في ما سبق من أيامه التي يعيشها فهو «ينقضَّ على التَّهام المتع التَّهاماً فردانيّاً، أنانيّاً، بمثل ذلك السَّهم الذي أتصوِّره يميز البدائيَّ ملتهمًا طعامه من ندره من الغذاء بدائيّة»<sup>1</sup>.

إلى جانب هذه البدائيّة الماديّة، الأكلولة بإفراط، فإن جانباً آخر علويّاً وجوهريّاً، برز في هذه المرحلة، برز للشَّاعر عامّاً ويجب الإمساك به، وهو علو همة الإنسان في تحرره من الغيبيّات، وتحكيمه العقل، ووضعه الحرية والعدالة فوق كل شيء، أي حيث يجب أن تكونا<sup>2</sup>.

هذه العلويّة (الغربيّة عند الصّايغ)، ولدت ثالث الحق والخير والجمال، والثَّالوث السِّقراطيّ عرّف بالله، والله عرف بالجمال، و الجمال قيمة القيم، لأنّه قبل وفوق كل شيء، هو حرية تولّد الحب هكذا اندرجت روما، وعليه درجت اوروبا مع ابرز منائرهما الفلسفيّة والرّوحيّة، وبالأخص السياسية، «وفيه رحت اراجع نفسي، فاستعيدها لاعيدها إلى هذه المراجع»<sup>3</sup>.

هذا «الغرب» بينابيعه الرّوحيّة فكراً وفلسفة وفنوّاً وشعرًا، ومعلمو الشَّاعر الخمسة سكنوا روحه، على ما في أنفسهم وبيئاتهم من حرية ترفع إلى العلى وتدفع إلى الأمام، فإن استلاباً أو ما يضاهيه اسر نفس الشَّاعر، جعله يركض وراء الينابيع ليجد ذاته في تفجّرهما وإلى الأساطير ليخدر هذه الدّات، وإلى غابة بروسليان سعيّاً وراء حكايات شعبية يلفها غموض الأسانيد ليوقظ توهج الخيال الشعبي ويؤجج البال بالسطور<sup>4</sup>.

بين قبري غوثيه وبول فاليري، أقامت باريس جوزف صايغ، بكل أشيائها منذ قديسيها وملعونيها حزنها ومنذ أفراحها، وحتى صمتها النّبيل حتى ضجيجها في الحانات والمكتبات، ومن المحطّات إلى المواني فدور الاوبرا والمسارح، والأديرة والقصور وحدائقها

1- جوزف الصايغ: الديوان الغربي، ص 19.

2- م.ن، ص 20.

3- م.ن، ص 21.

4- م.ن، ص 23.

إلى آخر السلسلة مروراً بإذاعتها، وليس انتهاء بفلاسفتها من بشلار إلى هايدغر، فلا ننسى سارتر ودي برقوار ومارلو بونتي وغيرهم كثير.

وفي الأماكن ترتسم صور المقاهي الباريسية وقد حملت أسماء: «الكابولا» و«تتباك» «السربون»، و«الروم»، و«الكافية دي لاتي» إلى صور شكلت الخلفية العريضة لصورة باريس الشاعر، صورة وصور مدن أوروبية أخرى وتمثلها في صباحات فلورنسا وبخلفية فنية، رسمها الشاعر كما يتمناها وكما يجب مع حديثه عن مدينته وأصابع تموخل الرأس صرفتها في مناجاة تلك التجليات حتى لتخال عصر بريكس كله انبعث في عصر انبعث هذه المدينة<sup>1</sup>.

يشكل «الديوان الغربي» لدى جوزف صايغ ترجمة لانبهاره بباريس واغترابه بين الشرق والغرب، حيث تتجسد ازدواجية الانتماء الروحي في شعره كهوية ثقافية موحدة تتجدد باستمرار.

لقد كانت «الثقافة» هي المرجعية الأسمى لشخص الشاعر، يغول عليها ليلملم شتات الغريب فيه عن القطبين، وفي هذين «الثقافي والمتقف» وجد الشاعر نفسه وكيّنها» ككيان هو أقرب ما يكون إلى طبيعة الأشياء يهاجر ما بين الاثنين ينتمي ولا ينتمي يكون في المكانين ولا يكون ولكنّه في حال لا يغيب عن الشعر ولا عن الموسيقى ولا عن الجمال، حيث هذا الجمال رأس الوجود، وبوجوده تتلاشى غربة الشاعر وكذلك الشعور بها وقد اشرق الجمال يعلو نجمه ليعطي توقاً للحياة لا تكون بغير هذا الجمال.

## و- النص الشعري

1. تعريف: نقرأ في لسان العرب مادة (ش، ع، ر) أي علم، وهو منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية»، ويضيف اللسان: «والشعر هو الفريضي، وقائله شاعر لأنه يشعر ما لا يشعر به غيره، أي يعلم»<sup>(2)</sup>.

فالشاعر هو العالم وقد شعر ما لم يشعره غيره، وفي ذلك تشديد على تفرد في درايته وحده ورؤياه، وعلى علمه بأسرار اللغة ونظم الكلام الموزون والمقفى.

ويذهب معنى الكلمة في الأجنبية (Poete, Poet) بالفرنسية أو الانكليزية وغيرهما

1- جوزف الصايغ: الديوان الغربي، ص 24-23.

2- ابن منظور: لسان العرب، مادة (ش، ع، ر).

ليدل على الصانع الماهر والحاظ، وفي ذلك تشديد على دربه الشاعر وقدرته على صوغ الكلام بديرية وأناقة، والتصرف بأساليب التعبير وأشكاله كصانع يعالج مواد صناعته التي يبرع بها.

وبمرجعية أصل الكلمة «الشاعر» لغويًا، فإن ملاحظة تميز علاقته باللغة، وخصوصية هذه العلاقة، فلا نكون كعلاقة غيره بها وهي علاقة عادية عمومًا، فإن ينتفع الناس باللغة حين يستعملونها لتأمين حاجات التواصل والفهم والإفهام، مع تركيز منهم على محتوى هذه اللغة أو تلك لا على شكل التعبير نرى الشاعر يستخدم نفس هذه اللغة، كأداة تواصل وظيفي، وأداة تعبير فني أنيق، جميل ومؤثر. وقد ميز علماء اللغة الوظيفة التواصلية المرجعية من تلك الوظيفة الشعرية، فما هي الوظيفة الشعرية للغة؟

2. **وظيفة اللغة الشعرية:** تتجاوز الوظيفة الشعرية للغة الشعر بتعريفه التقليدي: «الكلام الموزون والمقفى»، لنصل أنواعًا عدة من النثرالفني، تستخدم اللغة استخدامًا يخرق العادي والمألوف، ما نعلق منه بأساليب التعبير وأشكاله، أو بالذاتية الفريدة في معالجة المضمون وكثيرة هي الفنون الأدبية التي تدخل في إطار وظيفة اللغة الشعرية (القصة الفنية، بعض المقالات... الخ).

وعلى كثرة ما نشر حول سر شعرية اللغة، في حقبات أدبية لغوية ونقدية متباعدة ومتقاربة، فإن اهتمام كل من علماء الألسن والرموز ونفاذ الأدب، ركزوا اهتمامهم في محورين:

**أولاً: شكل التعبير**

**ثانيًا: ذاتية الرؤيا وقراءتها**

إنّ القراءة للنص الشعريّ منذ تعريفه مرورًا بوظيفة لغته وفنه، فذاتية الرؤيا وقراءتها في النص تأخذنا إلى جسد القصيدة وتلون بألوان الصورة أو الصور الشعرية، تنهاوى في منتهى ماهية وظيفة<sup>(1)</sup>. فما هي الصورة الشعرية؟

**أ- ماهية الصورة الشعرية**

يصعب تقديم تعريف قاطع للصورة الشعرية، لا سيما وأنها في كلاسيكيات الشعر،

1- محمد الجبار: الصورة الشعرية عند أبي قاسم الشابي، ص 6.

ونواتجه والبواكير، اقتصرت على الصنّاعة الشعريّة، ولم تحمل في طياتها معنى محدّدًا، مجردًا تشير إليه وإلى هذا يشير بارت في قوله: «إن اقتصاد اللّغة الكلاسيكية، نثرًا وشعرًا، ذو طابع علائقيّ، بمعنى أنّ الألفاظ فيه تجريدية ما أسكن، خدمة لمصلحة العلاقات»<sup>1</sup> وفي تفصيل ما تقدم، كان الأدب الكلام الفنّي الجميل، ينقل التجربة النفسيّة التي تتكون من أفكار وصور وعواطف وأنغام، والصّورة في الأدب عنصر انطباعي، يرسخ في خيال القارئ، ويضعه في جو الأديب نفسه أو في جو قريب من ذلك، وقد يوحى إليه بأجواء أخرى ينتقل إليها خياله.

ولأهمية الصّورة في الأدب، شبه قدماء اليونان الشّعر بمركبة فخمة يجرها جوادان هما العاطفة والخيال، ويوجهها حوذي حكيم هو العقل.

والصّورة عند الانسان وجدت قبل اللّغة، وقد استعان بها للتعبير عن ذاته قل أن يبلغ مرحلة النطق، ومن ثم كانت الكتابة.

أما في النقد الحديث، فقد انطلقت اللّغة لتتخطى الحدود، وتكشف عن المعاني الأعماق والأكثر دلالة، وهو ما أدى إلى اختلاف البلاغيين والنقاد المعاصرين حول هذا المفهوم كونه يتبع رؤية فنيّة مختلفة، وبالتالي فإن هذا المفهوم وتطوره، أمر حتمي وطبيعيّ لأنه مرتبط بالشّعر الذي يملك طبيعة متغيرة<sup>2</sup>.

وإذ نورد بعض تعريفات الصّورة لنراها: «اللفظة المأخوذة لأحداث مختلفة، يضيفي الشّاعر عليها الحياة والحركة واللون لتصبح كائنًا جديدًا»<sup>3</sup> ويرى محمد الجيار في الصّورة: إنها «جوهر الشّعر وأداته القادرة على الخلق والابتكار والتحوير والتعديل، وتشكيل موقف الشّاعر من الواقع وفق إدراكه الجمالي الخاص»<sup>4</sup>.

أما محمد هدية، فينظر إلى الصّورة الشعريّة على أنها: «نقل لحالة عاشها الشّاعر ضمن قالب بياني قام بصنعه، ذاكرًا فيه حالاته العاطفية أو تجربته الحسية»<sup>(5)</sup>.

1- رولان بارت: الدرجة صفر للكتابة.

2- محمد سعد : «العلاقات النحوية وتشكيل الصورة الشعرية، عند محمد عفيفي مطر، ص 11.

3- محمد القاسمي : الصورة الشعرية بين الإبداع والممارسة النقدية، مجلة فكر ونقد، السنة 4، عدد 37، سنة 2001، ص 67.

4- محمد الجيار: الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، ص 6.

5- اسماعيل عز الدين: الشعر العربي المعاصر، ص 161.

الصّورة إذن، هي لغة مشكلة بالحالات النّفسية والشعورية، وعليه: «فالصّورة في الأسلوب هي إعطاء الفكرة المجردة شكلاً محسوساً في الشّعر خاصة. فهي لا تقتصر على المجرّد والمحسوس، بل تجمع أموراً متناقضة ومتباعدة ومختلفة لتألف في إطار شعوري وتتخذ افق تشكل تعددية الوجود للوحدة التامة». مع هذه التعريفات، صارت الصّورة الشّعريّة تركيباً لغوياً ذا عمق، يستمد الكثافة من تراكيبه، ويمكن الشّاعر من تصوير معنى عقلي وعاطفي متخيل، ليكون المعنى... تجلياً أمام المتلقي، فيستمتع بجمالية الصّورة، وقد اختزنت الحدود المرئية المكشوفة بالحواس للولوج إلى عمق الأشياء مع بقاء الإدراكات الحسية المحفزة للتخيل.

إن الشّاعر يولي هذه الصّورة الشّعريّة اهتماماً وعناية، يسمحان له بتصوير العالم المرجعي، وكل ما يدور بخاطره ووجدانه، فينقلها للمتلقي بإبداع، لأنّها السمة التي تميز الخطاب الشّعريّ، والمزيج المكون من الجانب المادي والرّوحي. لكنها، مهما بلغت من براعة تبقى بحاجة إلى عناصر العمل الشّعريّ الأخرى لأنها جزء لا يتجزأ منه، هذا في الماهية فماذا عن وظيفة الصّورة؟

## ب- وظيفة الصّورة الشّعريّة

إنّ للصّورة الشّعريّة دوراً مركزياً في التّعبير عن المشاعر والأفكار الدّاخلية للشّاعر، حيث تجسّد الفكرة بطريقة تؤثر مباشرة في مخيلة المتلقي وتجعله يشارك في تجربة الشّاعر الوجدانية. تؤدي الصّورة وظيفة نفسية وتأثيرية تكشف عن مهارات الشّاعر في التّواصل والإبداع، بالإضافة إلى وظيفة تحليلية تشرك المتلقي في تأويل المعاني العميقة خلف الكلمات. كما تمثل الصّورة الشّعريّة حالة ثقافية وإنسانية ترتبط بالوجود والخيال، لتفتح آفاقاً فنيّة وإنسانية تسعى نحو المعرفة والإبداع.

يقول أرسطو «إنّ التّفكير مستحيل من دون صور»<sup>1</sup>، ففي ظل عصر الصّورة يتشكل عالم آخر وجديد، تتأكد معه فاعلية هذا المكون ما فوق الكلمات المفردة وقد فاقتها الصّورة، و«إن وصلت ألفاً» بحسب المثل الصّيني.

ذلك أن الصّورة «تمعن» الكلمات، تتنبّؤها فتسمو بالملفوظ إلى مرتبة غير المرئي، فلا نسخ بل تحفيز للخيال على أن يتحرّك ويحرّك باتجاه الشّكل والتّشكيل، وهنا تبرز

1- <http://www.damascusuniversity.edu.sy/mag/edu/images/stories/595-624.pdf>.

الصّورة في البيت الشعريّ الذي يتجاوز صوتيّة الحروف وتسطيرها، إلى حدوثه هذا الكون الكلّي، يسهم في ضخ المعنى في صور لا مكان لها إذا ما كانت غير ذات معنى فلا يمكن تمثّلها عقليًا.

إنّ المعنى هو في أساس التفكير الخاص بالصّور مثلما هو أمر ضروريّ في التفكير اللغويّ، لأنّ الصّورة تساعد في فهم الكلمات وتذكّرها، إذ أنّها تقوم بالوظيفة التّرابطيّة الخاصة بين الكلمات بعضها ببعض.

هذا الموقع الهام والأساس للصّورة الشعريّة يأخذنا إلى فاعلية الحضور الدّلاليّ لهذه الصّورة في متن الشعر، فما هي وظيفة الصّورة الدّلاليّة؟

#### أ- الدّلالة

علم الدّلالة (symantic) علم لغويّ حديث يبحث في الدّلالة اللغويّة التي تلتزم حدود النظام اللغويّ، والعلاقات اللغويّة، استنادًا إلى العلميّة السوسريّة<sup>(1)</sup> في الدّراسات اللغويّة، فيكون الفصل في الدّلالة اللغويّة لجذر العلامة اللغويّة ثم لصيغتها. ويتعدّى هذا العلم دراسة معاني المفردات إلى دراسة معاني الجمل والملفوظات على حد سواء، بما يراعي تلازم النّحو والدّلالة. واختصارًا لحقيقة هذا العلم يقول إنّ المنهاج اللّسانيّ في دراسة الدّلالة. والدّلالة في الغرب الحديث، موضوع علمين متميّزين متصلين من السّماتيك والسّيميولوجيا وتحفل العربيّة بترجمات تتناول هذين العلمين، والمصطلح في العربيّة ملتبس ومضطرب، فلا يكاد يفقه أساسيات هذين العلمين، فيضطر إلى بذل جهود كبيرة من أجل استيعابها.

أما هدف علم الدّلالة الآخر (symiolag) فهو «صوغ الممارسات المتجاوزة اللّسانيّات وقوليتها، وهنا يتعدّى هذا العلم العلامة اللغويّة إلى غير اللغويّة: إشارات السير، حركات الجسد، اللباس وغيرها<sup>(2)</sup>.

وقد اختلف في أي من العلمين يتّسع للآخر في أثناء البحث عن أنظمة إنتاج الدّلالة وهو ما اختلف فيه الغربيّون عن العرب، وذلك بمرجعية «النّص القرآني وحضارته» وقد

1- نسبة إلى فرديناودي سوسير، صاحب «محاضرات في الألسنية العامة»، وقد نشرها طلابه، ترجمها: يوسف غازي، لبنان، دار نعمان، 1984.

2- رولان بارت : علم الدلالة، ترجمة محمد البكري، اللاذقية، دار الحوار، ص 47 وما بعدها.



أنتجت هذه المرجعية البحث في الدلالة على حالة العربية، بحيث استقطب هذا النص كل العلوم العربية حول نفسه، وعليه أقام تماسك تلك العلوم وتكاملها<sup>(1)</sup>.

وإن تفعل في «حضارة النص»، بالفرضية أن الحضارة العربية فعل لغوي، وأن كل ما يصدر عن هذه اللغوية، يتتابع في ظل «سكون» إلى حقائق، أوجدها النص في هذا «السكون» الذي لم تركز إليه الحضارة الغربية فتدافعت أسئلتها في كل اتجاه تتشكل مع وجود المراحل، يحاول معها طارحها أن يجيب على التحديات التي تجبها لتهدد وجوده في السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع، وفي مجمل هذا الوجود<sup>(2)</sup>.

عود إلى «السكون» العربي بمرجعية حضارة النص، فإنّه نظام أساسي في توليده جميع الأنظمة الدلالية البيماتيكية أو سيمولوجية وفي كل الأزمنة، فمع ظهور الوحي، وإشراق لغة القرآن تغيرت دلالات اخترنا تحليله في هذا الديوان؟

#### أ- دراسة نماذج من التشبيه في الديوان الغربي لجوزف الصايغ

• «باريس» تُشبه بالحلم، المدينة الساحرة التي تجذب الشاعر، لكنها تبقى مجرد وهم جميل.

• الشاعر يستخدم أنواعاً مختلفة من التشبيه (المؤكد، البليغ، المجمل، الضمني) لتصوير الحالات الشعورية.

في قصائد مثل «الضفاف»، يظهر التوتر بين واقع التجربة والوهم الذي يحاول الشاعر الاتكاء عليه.

«على الضفاف، حيث اساطير غيوم المساء

ترسم باريس بظل وماء».

على مرايا موجة شاعره، وفي التفاف<sup>(3)</sup>

وقد شبه الغيوم في تشكيلاتها بالأساطير، فإنّها رسمت بهذه التشكيلات عالماً متخيلاً مفعماً بجمال هذه الغيوم، وفي داخل جمال الطبيعة الباريسية المتواجدة على أراضيها،

1- علي زيتون: الاعجاز القرآني وآلية التفكير العقدي عند العرب، دار الفارابي، ص 231.

2- م.ن، ص 233.

3- علي زيتون: مصدر سابق، ص 41.

مستسلماً إلى خدر تلك الحاسة السحرية السادسة: المخيلة، فإذا صفاء بلوري، يسيل شعراً، يبذله الشاعر ليشف عن ما وراءه في نفس الشاعر، وإشراف شاعريته.

هذه المخيلة التي حملت في خاطرة باريس الحلم، هي نفسها تابعت ثابت إلى الشاعر، صور الجمال الحضارية فلم يقف هذا الجمال ولم يتحدّد بحدود تشكلات الحجر والماء والشجر، بل، انسحب هذا الشعور بالجمال إلى أعماق في وجه المرأة. ففي كلامه عن مدينته أغرفة، مثل امرأة أغوته، فإذا هو، يشبه النساء وساحة سان جرمان في المساء بالأفيون المخدر، مع استعماله التشبيه الضمني، يفتحه بـ «نعم»، كافتتاح تقريريّ، يحكم بجزم الأمور، بعيداً من أي نقاش أو مداولة:

«نعم المخدر المسمى: نساء

ينسيهم في زحمة الأقبية

أوطانهم، يمنهم في البقاء

سعادة عن السما مغنية<sup>(1)</sup>»

يستخدم الشاعر التشبيه ليعبّر عن اغترابه، ويقدم المجون الغربي كإغتراب داخلي أكثر منه انحلالاً أخلاقياً. ويشبه نفسه بالمصابيح الثابتة وسط الحياة المتدفقة، ما يعكس حالته الشعورية من جمود وعجز.

ففي قصيدة «على جسور السين»، تتشابك الأساطير والغيوم والنهر لتعبّر عن عمق الشعور بالجمال المؤقت والزائل.

• المرأة تظهر في صور راقيات الباليه، حيث يُعلي الشاعر من جمالهنّ في تشبيه يحمل بعداً روحانياً، رافعاً إياهن فوق المستوى البشري. وينتقل من الألم إلى اللذة لتحمل قصيدة «راقصات البالية»، رؤية الشاعر إلى المرأة كحاضنة للحياة، ومعطيها، في إطار الجمال، فتظهر كأنغام تغادر الوتر لتنتشر الحياة والسحر:

«اللواتي مثل أنغام يغادرنا الوتر

قد توافدن فكثرن مدى البال، السحر

1- جوزف الصايغ: الديوان الغربي، م.س، ص 48.

من سراب الحسن أقبلن، تمايلن، أنثينا

اللواتي هنّ أفياء وأضواء-إلينا!<sup>1</sup>

حوّل الشاعر راقصته في هذه القصيدة إلى مشاعر موصوفة تتمايل وترقص فوق فرضيات واقعها الماديّ، الجسد يعرض مفاتن، وينشر أحاسيس، إذ الشاعر ينقل هذه الرّاقصة من أرض الماديّ إلى ذلك الأثيريّ- الشعوريّ، فارتفعت ورقصها إلى الشعر والجمال. والشاعر هنا يتأثر ببول فاليري وقد جسد راقصة الباليه راسماً رقصها غموضاً، يجعل الروح تبصر أشياء ما كانت في الحسابان:

«Le dialogue de l'ame et la danse favorise cette angoissante et delectable incertitudes».

فراقصة بول فاليري، وهي تتحرك رقصاً وتحرك قدميها، تأخذ الشاعر إلى فضاءات أعرض وعوالم أعلى، فيجنح تقليده، إلى الخلق الإلهي، كما هي راقصة جوزف الصايغ: «بشراً كنّ: فبتن الآن يعلنون البشر»<sup>2</sup>، يجسده هذا العمل الإبداعيّ في توليد الأفكار الشعريّة كأنّ بها قبساً الهياً: وهو هنا، الشاعر الذي ميّز نفسه عن غيره من الشعراء، وقد نقل صورة هذه الراقصة، ومدى انعكاسات جمالها، وأثر الجمال التي شبهه بأحاسيس من يراها وفي شعره.

فتظهر هنا ثقافة غربيّة شرقيّة وقد مزج الشاعر الرّحلاويّ فيما بينها مولداً صورة حضاريّة تعود الى الحضارات السّابقة ترفع المرأة وجمالها، لتصبح المرأة آلهة قادرة على صنع الجمال. وليتمكّن من إيصال الصّورة أي صورة جمال «راقصات الباليه» مع إقترانها بإيقاع قويّ لكي يلتف كلّ الغموض عنها، كونها صورة جديدة في الشعر العربيّ، فصبّها داخل إيقاع خارجيّ قائم على البحر البسيط، هذا بحر الرّقة والجزالة كركة الرّاقصات الباعثات للنّغم فوظفه شاعرنا خدمة للصّورة الشعريّة، مضيّقاً إيقاعاً داخليّاً قائماً على التشبيه السّابق ذكره أعلاه إلى جانب المحسنات البديعية الأخرى وحسن اختيار الحروف والدّلالات<sup>3</sup> من قبل الشاعر ووضعها داخل السّياق مما حقق إيقاع الشعر داخل السّطور الشعريّة.

1- جوزف الصايغ: الديوان الغربي، م، س، ص 50.

2- م، ن، ص 51.

3- بوحوش رابح: اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري، دار العلوم، 2006، ص 28.

أخذت الرحلة الشاعر إلى فرنسا، إلى بانوراما حضارية وقد أوجزت مشهدياتها بصورة حضارية غربية، راقية رآها وأرجعها بأفكاره، وحواسه ومع ماله من الشعور، وذلك من خلال أحلامه الثقافية المرتكزة على القراءة والموسيقا، يطلع عليها، ويستطلعها حضارة، حاضرة في خياله، قبل أن تتجسد أمامه ليراها تتجلى في المكان وأمام ناظره، فأعمل التشابه لينتقل بين الضمني والمرسل، ليبرز باريس بسماتها وأحلامه الجمالية، وكما اصطنعها لنفسه، وما كانت سوى وهم في جمالية وهم، سلكه طريقاً لنجاحه، يصور ما يراه، يطلق عليه أسماء نسجها من مشاعره وأفكاره، ليشعر من يقرأه بالجمال الممتع الذي يثير البهجة والفرح في النفس<sup>1</sup>.

لقد تنقل الشاعر بين المحسوس والمجرد، متأثراً بعلم الجمال، بما هو، العلم القديم الحديث، والمرتبط بالمباحث الفلسفية في بداياته، والمثعر كعلم في بداية النهضة الأوروبية.

واستطاع الشاعر عبر التشبيه أن يعبر عن انبهاره بالحضارة الغربية، وفي الوقت ذاته اغترابه عنها. لم تكن المدينة مجرد مكان، بل كياناً جمالياً، حمله الشاعر في داخله قبل أن يراها.

وظف التشبيه لخلق توازن بين الواقع القاسي والحلم المتخيل، وساهم في إبراز شاعرية الذات المتأمل، التي وجدت في الجمال والوهم وسيلة للهروب من الرتابة والضياع. وتبرز الوظيفة الدلالية للتشبيه في قدرته على نقل الإحساس بالجمال، والكشف عن الازدواجية بين الظاهر والباطن، بين الحياة والزوال، وبين الذات والعالم.

#### ب- دراسة نماذج من الاستعارة في الديوان الغربي لجوزف صايغ

الشاعر يعبر في قصائده عن حالة الاغتراب والتوتر بين الشرق والغرب، حيث يصور باريس ببرود عاطفي وغموض، كأنها حجر بارد وسماء مظلمة، ما يعكس إحساسه بالغربة والاختلاف عن وطنه.

مثال من قصيدة:

«عاشتها، عايشته فيها الحجر

1- نبيل راغب: التفسير العلمي، نحو نظرية عربية جديدة، دار نوبار، للطباعة، القاهرة، ط1، م 1997، ص 304.

وعاش بي صقيعها والضباب

زرعت أحلام الهوى والشباب

فأورقت في وهم ذاك التراب»<sup>1</sup>

يتكرر فعل «عاشت» للتأكيد على حالة الاندماج في الواقع الجديد رغم برودته، كما يستخدم إيقاع بحر الرجز الذي يعكس تغير المشاعر وعدم الاستقرار.

الصّور الشعريّة في الديوان تعتمد على مزج الألوان والإحساس لتعبر عن الحزن، الألم، والغربة، كما في وصف المساء الباريسي الذي يلون الشتاء بالحزن النفسي:

«واطنة، هذا المساء، السماء

تجرد الرماد فوق السطوح

تنوح في قلبي، وقلبي ينوح

ويرسم الدنيا بلون الشتاء»

هنا يصبح اللون مجازاً للحالة النفسيّة، والتكرار في البيت يعزّز الإحساس بالكآبة.

في قصيدة «مونمارتر الرسامين» يجمع الصّايغ بين حياة الرسّامين وألوان لوحاتهم، موحياً بأنّ هذه اللّوحات تعبر عن معاناة وألم داخليّ، حيث رسموا أحلامهم وسجنوا ألوانهم في الحزن.

الشاعر يعكس عبثية الحياة والواقع من خلال هذه الاستعارات التي تعبر عن الحالة النفسيّة والتّجربة الإنسانيّة في الغرب، مع تأكيد على الصراع الداخليّ بين الحضور والغياب، الحياة والموت، الشّرق والغرب.

ج - دراسة نماذج من الكناية في الديوان الغربيّ

1. الكناية عن صفة:

بين عالمين، عالم الواقع، وذلك الشعريّ، وقد عاناها الشّاعر في رحلته ما بين مشرقه الزّحلي وغربه الباريسيّ، عاش حال تأرجح بين أمس حلمي ويوم معيوش بمعطيات

1- جوزف الصايغ: الديوان الغربي، م.س، ص 50.

الواقع مخيب للآمال في ما رآه من جسد الحقيقة أمام عينيه:

«مثل من كانت له يوماً حبيبة

واستهامته النساء عابرات

فمضى، في وهمه، حتى الممات،

دون أن يسعد في حب الغريبة»<sup>1</sup>

برجوع جوزف صايغ، أمسه بجميعه، نجد فيه هذا الحنين إلى ما كانت عليه علاقته بمدينة، فجرته «ضفاف السّين» من الشّجر الذي أخذه إلى «وراء جميل» هو وراء الحلم، فالمكان في زمن معيّن يحمل دلالات الى زمن آخر بعيد، فينعكس الزّمن الماضي على الحاضر مما يجعل القارئ أمام أفكار جديدة عن المدينة الحلم. هذا الحلم يسعى إليه ويرسم خطوطه، أشكاله، وألوانه، ويوشحه بما فيه من طوق لحبيب، رسم هو صورته كأبهى ما يرسمه شاعر لصورة من يحب، ولكن ما واجهه، وعلى أرض الواقع، أشعره صدمة أذهلته وتركت مرارة في داخله، وكأنه أحس بالخسران وتلمسه بعد ما شفت الرؤيا لتكتف عن عالم مادي، يترسمه في هذه الصّور الجديدة لجماليات يعبرن من أمامه فتذهله عن حبيبته، ولا يكون له من ما يرى إلا الحلم العابر، يتكتف في كل لحظة بعده عن حبيبته، وعدم استقرار لم يجن منه إلا همًا بعد الحلم الجميل. نجد علاقة بيت الضدين في هذه القصائد ممّا أمكننا أن نسميه أيضًا طباق، وكون هذه العلاقة الناشئة قويّة «بحيث يؤدي استدعاء اللفظ والمعنى وربما الجرس»<sup>2</sup>. وهكذا يسهم الطّباق في خلق الإيقاع المساعد لإظهار صورة الإنجراف وراء النّساء العابرات ذات المشاعر العابرة البعيدة من الحب والإخلاص وترك الحبيبة الشّرقية التي تحمل كل المشاعر الصّادقة، مستعملًا الفعل الماضي الدّال على ثبات الحب. فهذه الحبيبة ما زالت تحبّه وتنتظر عودته لها، فالشرق مليء بعواطف لا تستطيع دول أخرى جعله يشعر بها إلا لدقائق عابرة.

ويتابع الشّاعر، الكشف عن ذاته الجريح، بكل الخيبة التي يلقاها، ويعيشها في «غربته» فمع كتاباته عن الأجل جرحه وعن الألم والفرح المتلازمين عنده، وهي سمة

1- جوزف الصايغ: الديوان الغربي، م.س، ص 203.

2- 1 البيلي، أحمد عزت، المعجم الشعري لأبي تمام والبحثري، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، 1988، ص 18.

إنسانية، في داخل كل منا، ولا سيما المخبون منا، حيث السعادة يترافق فيها جناحها ويجتمعان: الألم والفرح، على أن مفارقة الأول وتخطيه تؤسس للسعادة الحقيقية.

إن معاناة الوجد، يكايدها الشاعر، انعكست عنده في هذا الوجود المعذب، وقد تشكل بمفاعيل الألم الموجود في عمق مشاعر، يكنى عنها بـ «جحيم الوجود»، وقد اعتبر الشاعر أن الوجود كله آلام فانعكس عنده، خارج هذا الوجود على داخله، فبانت عليه هذه المشهدية الحزينة، مرثيةً لعالم بات حلمًا ليصير في يوم الشاعر، أمر بطعم الكابوس وضبابيته:

«أين هو اليوم متى كنته؟

والفتيان والجنون الجميل؟

كيف التقى الصابح ظل الأصيل

وكيف أصبحت وما عدته؟!

لم يبق فوق النهر إلا الضباب...

فكل من أحببتهم في غياب<sup>1</sup>».

يظهر هنا الاستفهام الاستنكاري، مكرراً أسئلة يطرحها الشاعر على نفسه مضيفاً نغماً موسيقياً ومسلطاً الضوء على المكان مع استعماله «أين» للدلالة على ضياعه في هذا الوجود وجهله للمكان لأنّ الأخير يفتقد كل المشاعر فيصبح الشاعر فاقداً للإنتماء للمكان. لأنّ المكان تجاوز الواقع الملموس ليصبح ذات طبيعة متحرّكة تفقد المكان الشعريّ الى الواقع الشعريّ. ويستخدم بالتالي الأداة: «كيف» ليبرز الحالة التي يعيشها، هذه الحالة التي ترسم بدورها المكان «لأنّ المكان دون الإنسان عبارة عن قطعة من الجمد لا روح فيها»<sup>2</sup>، وهكذا لم يبقَ فوق النهر إلا الضباب أي حزنه الذي أفقد النهر أي الحياة في باريس صفتها المعتادة. وكما يرى ابن جني: «أنّ هناك مناسبة بين الحروف وصوت الحدث كقضم التي تستعمل لأكل الياوس وخضم التي تستعمل لأكل الرطب فهناك صلة بين الصوت والمعنى» نلاحظ تكراراً لحرف الباء ليخدم هذه فكرة يوم

1- جوزف الصايغ: الديوان الغربي، م.س، ص 45.

2- شاهين، أسماء، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2001م.

الشاعر المرير الكبوسي الممتلىء بالضباب ، فحرف الباء في السطرين : ( لم يبق فوق  
النهر إلا الضباب... فكل من أحببتهم في غياب<sup>1</sup>. حرف شفوي شديد مجهور منفتح،  
وهذه الحروف تبين لحظة الاندفاع والانفعال أمام ما رآه صباحاً في وجه المدينة، كما  
أنها توضح لنا نوعاً من السرعة في حركة الإيقاع. هذا إيقاع الحرف والكلمة الذي يلعب  
الدور الكبير في الموسيقى الخفية.

أما وأتينا بتقنية الكناية عن الصفة في ما قرأنا في متن «الديوان الغربي» فيعاودنا  
السؤال: ما هو دورها الدلالي؟

ابدعت استعمالات الشاعر للكناية مع استعماله للاستعارة والتشبيه، شعريّة جديدة  
بمفرداتها الجديدة في تشكيلها كما في أسمائها، ما يعني أنه من منطلق الربط ما بين  
اللغة واللسان، وليس الكلام، فإنها اللغة كمنطوق للتقاني في الفكر اللغوي للشاعر،  
أكدت على المصطلح الشعري في ديوانه، كأرفع ما يكونه المصطلح، عنواناً للابداعات  
الفكر لغوية في نصه الباريسي مستفيداً من جدلية العلاقة ما بين مكانين رحلة/ باريس  
بحيث تصوير كل منهما كناية عن عالم شاعري آخر متميز عن ذلك الواقعي، ومميز  
لكل من المكانين كل على حده وفيه مكان آخر مغاير لسابقه:

أنا عشقي كان، بالأمس مدينة

اسمها سحر ووهم وجنون

منه غذيت حنيني بالفتون<sup>2</sup>

2. كناية عن موصوف

يعيش الشاعر حالة من التآرجح بين الأمس الملىء بالحلم وبين ما يصادفه من  
خيبة للأمل أمام ما رآه. فتظهر ازدواجيته في الانتماء الروحي مستخدماً الكناية عن  
الموصوف، وهي التي تذكر الصفة ولا تذكر الموصوف بل تكتفي بالإشارة إليه مستخدمة  
لشيء خاص فيه: كقلب أو تركيب معين.

تمثّلت «رحلة» لديه بـ«نائي الديار» فهي تلك الديار النائية البعيدة من صخب

1- شاهين، أسماء، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت،  
2001م. 45.

2- الديوان الغربي، ص 31.



المدينة إذ تسود العادات والتقاليد المحافظة الى جانب الطبيعة الخلابة البدائية، حيث ترك الأهل حازماً أمتعته نحو «الأرض السعيدة» كناية عن باريس، الأرض التي لا طالما حلم بأنها السعادة الأبدية:

«فتركت الأهل، في نائي الديار

حازماً عزمي الى الأرض السعيدة.»

فتشكّلت الكناية لديه منقسمة بين الشرق والغرب، بين رحلة وباريس، ليشكلا الماضي والحاضر. فتكون «أرضاً بعيدة» و«دُنَى المجهول» كنایتان عن رحلة الماضي التي أصبحت مكاناً بعيداً تجعل من الشاعر «غريب الدار» كناية عنه ، هو الذي أصبح غريباً في دياره. يقابلها إشارات وصفات: الغريبة الماكرة ، خليلتي الماكرة، العاشقة، أرض توهمي ، تشكل كنايات عن باريس أي كناية عن موصوف، حيث يختصر باريس الكبيرة وحياتها. لتدلّ في طياتها عن صفات رآها الشاعر وأدركها، وانعكست عليه بطريقة عكسية وبواقعها القاسي، تاركة لرحلة النقاوة البعيدة الملمس ومعطية لباريس الماكرة الخذل والتوهم. يرسم من خلالها الشاعر ما تتأجج في نفسه من مشاعر ومن أفكار محدثاً إيقاع المعنى المؤثر في نفس المتلقي الى أبعد الحدود.

### 3. الكناية عن نسبة

وفيها يذكر الموصوف مع ذكر شيء يناسبه ثم نذكر الصفة، ثم تنسب الصفة إلى الشيء الملازم للموصوف. وفي قصائد الديوان الغربي يبين لنا الشاعر الحال لجيل ما بعد الحرب، وقد اجتمع أبناؤه ليعيشوا في ساحة سان جرمان في المساء.

الجميع متواعدون، ومختلفون في أشكالهم الجسمانية، لكنهم في منابت همومهم وعمق مشاعرهم توحدهم هذه الحال النفسية القلقة والمربكة فيذهبون إلى أخيلتهم وقد تخلوا عن الجهات المدن التي نزلوا منها إلى هذه الساحة:

«من مدن الشمال، حتى الجنوب،

تواعدوا: إن الهوى موعد

في غير سان- جرمان لا يُسعدُ

وشرّقوا، في صباح هذا الغروب<sup>1</sup>

هذا المواعد ليست مواعدة العشاق والمحبين، لكنّها مواعدة من نوع آخر، مواعدة في جوهرها الهروب من الواقع حيث يهربون إلى أخيلتهم المتهمة وأوهامهم المتخيلة لأنّ الواقع الحقيقي الذي يرغبون فيه ولا يعيشونه لأنّهم لا يريدونه هو هذه الحال من الأخيلة، حيث اللامكان يحلّ محل المكان، وهكذا، يهربون إلى واقع، ويهربون من أي ماضي إلى ما هو أساس عيشهم، وأمّ اهدافهم الهروب من مآسيهم.

أما الآمال ففي النوافذ، والفسحات الأرحب، والأكثر إشراقاً على الحياة ومن خلالها، ينقذ الانسان من حكم مؤبد بالاشغال الشاقة، إلى فضاءات اوسع، يهرب من بين قضبان سجنه لينسج عالمه الخاص، ولهذا كان لا بد له من سلاح المواجهة، وقد وجده في هذا الوهم المخلص مما هو فيه من فراغات الحزن والدموع:

«ما أوحش الدنيا بهذا القطار

مفرغا زاغه في الضلوع

وحوله الأشياء نحو الضلوع

تضفي على الألفاظ شكل الدموع<sup>2</sup>

هكذا نظر الشّاعر لدنيا، وقد اكتملت بالفراغ، يشغل كل شيء في انحاءها، فلا يبقى إلا الشجو، وأنظاره «حزناً» مقيماً يرسم الألفاظ تشكيلات الدمع والشّاعر هنا يسلك أبياته مسلك الكناية عن نسبة بحيث الشجو والدموع يتلازمان في الحزن الذي يلف رحلة هذا القطار، الدنيا التي هي بالنسبة إلى الشّاعر دنيا حزينة وفارغة، وقد عاشها كما هي، وقد اتسمت بهذا الفراغ والفراق بعد صيف، يكنى به الشّاعر عن الحياة الجميلة، يلتقيان الصف والحياة في الجمال، ولكن النهاية هي الحقيقة الوحيدة، الواقعة في نهاية الجنون، فنهاية الصف، كما نهاية الحياة، وقد ملئت ذكريات صيفية (نفسه)، والرحيل يحدد خط النهاية لهذا الصيف- الطبيعي- النفسي، وهو أوان الرحيل عن رحلة بكل الشّرق النابض فيها، وبها، ليرجع مع الخريف إلى المرتبة الرمادية حتى الشتاء، والشتاء هنا، حزن النفس ومعاناتها فراق مع أن تكون حيث نبضها، إلى سجن لم يكتبه على نفسه،

1- جوزف الصايغ: الديوان الغربي، ص 50.

2- الديوان الغربي، ص 105.

ولكنه، بينما، ينسج خيوط عالمه الخاص، فإنّه يحاكي هذه الخيوط، سيرفع عمارة وهمه  
ليدراً عنه ظلمة السّجن وخصوب معاناته:

عدتُ مع الخريف للمدينة

في أضلعي الطيور تطوي الجناح

وقد وصلت في قطار الصباح

وحدي، إلى المحطة الحزينة<sup>1</sup>

### الخاتمة

تُبرز الدّراسة تطوّر مفهوم الصّورة الشعريّة بين مقاربتين: التّقليديّة التي تركز على  
العلاقة بين المعنى الحقيقي والمجازي، والحديثيّة التي تعتمد على البناء الفنّي والإبداعيّ  
في القصيدة، مستعينة بالتّشابه والاستعارات والكنائيات والدّلالات والانزياحات، مما  
يتطلب من الشّاعر تفكيك وتركيب بنیان الصّورة ليتيح للمتلقّي دخول عالمه الشعريّ  
الممتلئ بالخيال والدهشة والجمال.

في تجربة جوزف صايغ في «الدّيوان الغربيّ»، نلاحظ تقنية شعريّة متميزة تجمع  
بين الأدب والفن، وتدمج بين ثقافات الشّرق والغرب بلغة عربيّة أصيلة، ما أضفى  
على شعره ثراءً فكريّاً وجماليّاً. تتّسم صوره الشعريّة بالاهتمام بالزمان والمكان، فباريس  
وزحلة تشكّلان خلفية حيوية لشعره، يتفاعل مع تفاصيلهما بعمق نفسي ووجدانيّ، حيث  
يعكس الزمان ما بعد الحرب والحالة النّفسيّة للشاعر، ويستخدم الألوان لتجسيد التحولات  
الشّعوريّة.

تؤدّي الاستعارة والتّشبيه والكناية دوراً أساسياً في بناء الصّور الشعريّة عند الصّايغ،  
فالتّشبيه ينقل القارئ بين صور متداخلة، بينما تضيفي الاستعارات معاني رمزيّة جديدة  
تعمّق فهم الوجود. الكناية تتجسّد كوسيلة فنّيّة تجسد الألم والواقع القاسي، وتعبّر عن  
الصّراع الداخليّ بين الألم والوهم، وتبرز أهمية التّمسك بالحياة رغم قسوتها.

يستخدم الشّاعر أساليب إيحائيّة ورمزيّة تجمع بين الجمالي والفلسفي والوجودي،  
معتمداً على ثلاثيّة التّشبيه والاستعارة والكناية لتشكيل صور فنّيّة تنقل واقعه وعواطفه.

1- الديوان الغربي، ص 106.

قصائده تتسم برومانسية أحياناً وبرنسية أخرى، حاملة أفكاراً فلسفية عميقة، وتجسد أحلامه، مخاوفه، وقلقه، الذي يواجهه عبر شبكة من الأوهام والجمال.

الدّيوان يعكس الفوارق بين مدينتين، زحلة وباريس، من مناخ وبنية وانفعالات، ويقدم صورة شعرية غنية تجمع بين الإيقاع والوزن والقافية، مؤشراً إلى موهبة الشاعر وعمق تجربته، معجماً وبلاغياً، حيث جعل من الاستعارة والتشبيه والكناية أدوات أساسية تكشف أسرار بلاغة الصورة الشعرية وتميزها.

في النهاية، تؤكد الدراسة أنّ الصورة الشعرية في شعر جوزف صايغ ليست مجرد زينة لغوية، بل جسد يربط بين الشاعر والقارئ، بين المعنى والخيال، وتجسيد حي لتجربة إنسانية مليئة بالمفارقات، حيث تظل الصورة الشعرية أساس الشعر وأداة تعبيره الجوهرية، تفتح آفاقاً جديدة لفهم جماليات النص الشعري ودلالاته العميقة.

#### المصادر والمراجع

- 1- أبو ناضر، مورييس: إشارة اللغة ودلالة الكلام، بيروت، مختارات، 1990م
- ابن المعتز، أبو العباس عبد الله: كتاب البديع، تعليق وتقديم أغناطيوس كراتشوفسكي، بيروت، دار المسيرة، ط3، 1983م.
- 3- ابن المعتز، أبو العباس عبد الله: كتاب البديع، تعليق وتقديم أغناطيوس كراتشوفسكي، بيروت، دار المسيرة، ط3، 1983م.
- 4- أبو العدوس، يوسف الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، عمان، دار المسيرة، ط2، 2010م
- 5- بن ذريل، عدنان: النقد و الأسلوبية بين النظرية و التطبيق، دمشق، 77 منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط 1، 1989 م.
- 6- الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، تحقيق هـ، ريتز، بيروت، دار المسيرة للصحافة والطباعة والنشر، ط2، 1983م.
- 7- حسان، تمام: مناهج البحث في اللغة ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990م.
- 8- خفاجي، محمد عبد المنعم، وآخرون: الأسلوبية والبيان العربي، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط2، 1992 م.
- 9- الداية، فايز: جماليات الأسلوب، دمشق، دار الفكر، ط2، 2003م.
- 10 -زيتون، علي مهدي: البلاغة العربية بين لغتي التراث والحداثة، مجلة الفكر العربي، العدد 06، السنة 2011.
- 11 -زيتون، علي: أدبية الخطابة الإسلامية، بيروت، دار الفارابي، ط1، 2011.

12 - سقال ديزيره: من الصورة الشعرية إلى الفضاء الشعري، دار الفكر اللبناني، ط1، 1993 م.

13 -صايغ جوزيف: الديوان الغربي، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، ط1، 1993.

14-صايغ جوزيف: معيار وجنون: ذكريات باريسية، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، ط1، 2007.

15-صمود،حمادي:المناهج اللغوية في دراسة الظاهرة الأدبية،(مقال ضمن اللسانيات واللغة العربية)،تونس،1981.

16-أبو علي، محمد بركات حمدي: البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار البشير، ط1، 1992.

17-عبد الجليل، عبد القادر: الأسلوبية وثلاثية الدوائر الأسلوبية، عمان، دار صفاء للنشر، ط1، 2002م.

18- مجموعة من الباحثين: "جوزف صايغ في مراهيم"، سلسلة الذاكرة اللبنانية، 51، TSUA، ط1، 2013.

المراجع المعربة:

1-بارت، رولان: درس السميولوجي، ترجمة ابن عبد العال، الدار البيضاء، دار توبقار للنشر، الطبعة 3، 3991م.

2-بيرجيرو: الأسلوبية، ترجمة منذر عياش، حلب، مركز الانماء الحضاري، ط2، 1994م.

3-تودوروف، تزيفيتيان: الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، الدار البيضاء، ط2، 1992م.

4-جاكوبسون، رومان: قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط1، 1988م.

المراجع الأجنبية

1. Arcaini, Enrico: Principes de Linguistique appliquee Paris, Payot, 1972.

2. -Semiotique, dictionnaire raisonne.

3. -Valery, Paul: I ame et la danse le ballet au xIXe siecle, edition de la nouvelle revue francaise,1921

مواقع الكترونية

1.-تمثال للشاعر جوزف الصايغ في زحلة... إرثه حقبة مجلة في تاريخ الأدب والشعر. " -النهار. تاريخ النشر غير مذكور. تم الاطلاع عليه في 23 شباط 2017.

<https://newspaper.annahar.com/article/162515>

2.قائمة الكتب المتاحة. " مكتبة محمد ربيع. تم الاطلاع عليه في 23 نيسان 1620.

<http://mohamedrabeea.net/list.aspx?bookId=11>

# المنهج الثقافي ونظرية الكشف: نحو تأصيل منهجي في ضوء المشروع النقدي عند علي مهدي زيتون

The Cultural Approach and the Theory of Unveiling: Towards a  
Methodological Foundation in Light of Ali Mahdi Zaytoun's Critical  
Project

عارف مغماس

Aref Mghames

تاريخ القبول 2025 /8/1

تاريخ الاستلام 2025 /7 /15

الملخص

يقدم هذا البحث قراءة تحليلية لمشروع علي زيتون النقدي، الذي يقوم على المنهج الثقافي في تلازمه مع نظرية الكشف، بوصفهما رؤية تتجاوز الأطر البنيوية والشكلانية إلى مقارنة النص الأدبي ضمن سياقاته الثقافية والاجتماعية والتاريخية، مع الحفاظ على بنيته الجمالية. يركز المنهج الثقافي، وفق رؤية زيتون، على استتطاق الأنساق المضمرّة واستكشاف ما وراء المعنى، استناداً إلى تأويل عرفاني يجعل النص فضاء معرفياً يتفاعل فيه الجمالي مع الثقافي.

يعتمد البحث منهج التحليل المقارن لبيان موقع المنهج الثقافي ونظرية الكشف بين المناهج النقدية الحديثة، وإبراز دورهما في تجديد مقارنة النصوص الأدبية وإغنائها برؤية نقدية متكاملة.

**الكلمات المفتاحية:** المنهج الثقافي - نظرية الكشف - علي زيتون - النقد الثقافي - الأنساق المضمرّة - التأويل - المناهج النقدية الحديثة - النقد العربي المعاصر.

## Abstract

This study presents an analytical reading of Ali Zeitoun's critical project, founded on the Cultural Approach in conjunction with the Theory of Unveiling as a vision that transcends structuralist and formalist frameworks to approach literary texts within their cultural, social, and historical contexts, while preserving their aesthetic structures. The Cultural Approach, as

conceptualized by Zeitoun, focuses on revealing latent patterns and exploring the realm beyond meaning, grounded in a gnostic interpretation that renders the text as a cognitive space where the aesthetic and the cultural interact.

The research adopts a comparative analytical method to highlight the position of the Cultural Approach and the Theory of Unveiling among modern critical methodologies, and to demonstrate their role in renewing the approach to literary texts and enriching them with an integrated critical vision.

**Keywords:** Cultural Approach– Theory of Unveiling– Ali Zeitoun– Cultural Criticism– Latent Patterns– Interpretation– Modern Critical Methodologies– Contemporary Arab Criticism

## مقدمة

شكّلت المناهج النقدية الحديثة تحوّلًا جوهريًا لاستنتاج النصوص وفهمها وتحليلها، في سعيها إلى تجديد فهمنا للأدب بوصفه تجربة حيّة تعكس تنوّع السياقات والمرجعيات، من خلال القراءات المتعدّدة التي تجاوزت القراءة الجماليّة والبنويّة إلى استكشاف البنى الثقافيّة والنفسية والاجتماعيّة التي تكمن فيها.

وإذ بدا منتصف القرن العشرين مسرحًا لهذا المسار المعرفي الذي اتّجه من تحليل البنية إلى توسيع مفهوم العلامة وتحليل السمات الفنيّة واللّغويّة، ثم إلى تفكيك المعنى وتأويله ثقافيًا وفكريًا وهدم اليقين الدلاليّ، نتيجة التحوّلات التي اتّسم بها الفكر الغربيّ والعربيّ معًا، جاء المنهج الثقافيّ ليعلي من شأن العلاقة بين الأدب والثّقافة لكشف أنساق سلطة النصّ وهويته ضمن رؤية تأويليّة تتجاوز تحليل النّسق إلى استكشاف أبعاده القصيّة الكامنة فيما وراء المعنى، وقراءة ما استبطن فيه لإضاءة رموزه وفاق ما أسماه علي زيتون بـ «نظريّة الكشف» التي عطفها في العنوان على «المنهج الثقافيّ».

وفي هذا السياق، قدّم علي زيتون رؤيته التي تطرح الإشكاليّة المركزيّة الآتية:

إلى أيّ مدى استطاع المنهج الثقافيّ أن يوفّق بين المناهج الحديثة التي شغلت حيّزًا كبيرًا في النّقد المعاصر وبين المقاربة الثقافيّة للنصّ في ضوء نظريّة الكشف التي شكّلت

بحدّ ذاتها رؤية خاصة ترى ما لم تره القراءات السّابقة؟

وما موقع هذه الرّؤية في الدّراسات النّقديّة الحديثة؟ وهل يُعدّ ما قدّمه المؤلّف استمرارًا وتعديلًا لتلك المناهج وامتدادًا لفضائها المعرفي؟ أم هو على قطيعة معها؟

يتاح لهذه الإشكالية أن تطرح الفرضيّات الآتية:

إن المنهج النّقافيّ عند علي زيتون شكّل تحوّلًا جديدًا في مسار الدّراسات النّقديّة الحديثة والمعاصرة. فهو لا يتوقف عند تحليل البنى النّصيّة فحسب، بل يتوسّل الكشف التّأويليّ والرّمزي لإنتاج المعنى، وتشكيل النّسق النّصيّ بوعي معرفيّ وجماليّ مرتكز إلى البعد النّقافيّ. «خصوصًا أنّ المنهج النّقافيّ منهج منتم إلى الحداثة من جهة أو إلى مؤسّسة النّقد الأدبيّ من جهة أخرى»<sup>1</sup>

إن نظريّة الكشف بما تكتنزه من أبعاد تأويليّة وعرفانيّة ووجوديّة قادرة على تمييز المنهج النّقافيّ عمّا ساد من دراسات، وتخصيصه برؤية كشفية عميقة. وهي نظريّة تقوم على كشف ما تكتنزه النصوص من خصوصيات معرفيّة، وتحويلها إلى مفاهيم ثقافية، مرتكزة إلى مناهج سابقة من دون الانصهار بها، فضلًا عن معارضة بعضها.

### جدلية النصّ والسّياق في ضوء تصوّر الكاتب

يحتلّ النصّ عند النّاقد علي زيتون موقعًا من مواقع الدّهشة الدائمة، والقوّة الخفيّة الضمنية. إذ ينطلق إلى داخله بأدواته الخاصة التي ينفرد بامتلاكها وباستخدامها في تطويع النصّ وتقديره من داخله، ليخرج منه على طريقته برؤية تعبّر عن الفعاليّة الأرقى في حياة أيّ إنسان، إذ «إنّ هذه الرّؤية فعاليّة مركّبة قوامها ثقافة الفرد، قناعاته، همومه، اهتماماته، انفعالاته»<sup>2</sup> وهي مكوّنات تتعالق فيما بينها بما تملكه من مقومات الأدبيّة لتتصهر في تركيب موحد، وبأنساق تربط النصّ بمنظومات ثقافيّة تحمل أبعادا فكريّة وعرفانيّة قاربها علي زيتون بمدلولات مكتشفة وعلاقات نشأت من تموضعها الجديد لينتج منها المنهج النّقافيّ المرتكز إلى نظرية الكشف، بما تحمله هذه النظرية من عمق ثقافي وفكري مبنيّ على فضاء الرّؤية إلى العالم.

1- علي زيتون، المنهج النّقافي ونظريّة الكشف، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2021، ص73.

2- م. ن. ص52.



وإذ تُعد تجربة علي زيتون النقدية علامة فارقة في مسار النقد الثقافي، فذلك لأن المنهج الثقافي الذي قدّمه يستند إلى خصوصيات ثقافية متعدّدة، تشكّلت من منابع عربية وإسلامية، تلاقت مع مشارب ثقافية غربية تعامل معها علي زيتون بعقل نقدي وعلمي استباقي، انطلاقاً من أنّ النص الأدبي ليس معزولاً عن محيطه الثقافي. إذ تكمن أهميته في أنه أعاد الاعتبار إلى الدور الفاعل والمؤثر للثقافة في إنتاج النصوص الأدبية لاستنطاق المسكوت عنه عبر رؤية عرفانية تأويلية.

إن تحليل مشروع علي زيتون النقدي، ينطلق من الإمساك بمفاتيح الرؤية إلى العالم، لفهم أثرها في تطوّر أدوات كشف القيم الفنية وآلياتها، وصياغة مفاهيم جمالية وفكرية منها. وهي مفاهيم تعزّز قراءة المسكوت عنه الكامن خلف النصوص الأدبية، لإدراك الحقائق الماورائية، وتفكيك بنياتها الدلالية والثقافية. حيث اتسمت الدراسات النقدية الحديثة بالتحول المعرفي من مركزية النص الأدبي وبنيته المغلفة إلى مدارات أكثر ارتباطاً بالسياق الثقافي المتجاوز حدود التحليل إلى فضاء كشف تلك الأنساق المضمرّة، مع الحفاظ على خصوصية البنى الجمالية للنص.

### نشأة المنهج تحت ظلال الكشف

ارتبطت نشأة المنهج الثقافي بالتحولات المعرفية لما بعد الحداثة، وقد جاء استجابة لحاجة الدرس النقدي إلى رؤية كاشفة تنطلق من أنّ النص الأدبي يمتلك مقومات ومكونات معرفية وجمالية جعلته منفتحاً على العالم. خصوصاً أنّ دراسة النصوص تأسيساً على هذا المنهج «كانت مرتكزة إلى نظرية الكشف الأدبية التي تمثّل تجاوزاً للنظريتين المعروفتين قبلها: نظرية الانعكاس التي ترى أنّ الأدب انعكاس للعالم المرجعي. ونظرية الانكسار التي ترى أنّه تعديل يُجرى على العالم المرجعي»<sup>1</sup>. ويأتي العالم الفني بفرداته وخصوصيته ليعيد تشكيل البعد الجمالي وقراءته بأدوات معرفية مختلفة عن تلك التي تعاملت مع النصوص الأدبية بحسب نظريتي الانعكاس والانكسار الأدبيتين. وهي قراءة تتجاوز الاستغراق البنيوي للنص وسلطة البلاغة، لتدخل في فضاء الهوية وسلطة المعنى المتشكّل من الأنساق الفكرية وتلاقيها مع الأنساق البلاغية والأسلوبية والدلالية، وارتباطها جميعها بفلسفة الكشف الجمالي، والبعد الكوني والرؤيوي. ذلك يعني

1- علي زيتون، المنهج الثقافي ونظرية الكشف، ص9

أنّ «النص يُخفي شيئاً، وهذا يعني بدوره أنّ النص يوحى، بل ربّما يقول، أو يجسّد، أو يمثّل، ولكّنه لا يكشف شيئاً كشفاً مباشراً»<sup>1</sup>. فقوّة النص المرجعيّة مستمدّة من قوّة رؤية الأديب وعمق ثقافته وطواعيّة توظيفها في سياق الكشف عن الانساق الثقافيّة والفكريّة، بوصفها الخاصيّة الأساس التي تجدد الأشياء وعلاقاتها، وتنشئ علاقات متحرّكة بين الكلمة والكلمة، وبين نسيج الكلمات وأشياء العالم التي أعيد تسميتها من جديد في فضاء رؤيويّ ينفصل عن مساره المستنزف، ليتّصل مع ما لم يسمّ من تلك الأشياء التي تكمن فيها الذات العارفة. حيث يبدو الاتّصال بها يخضع لوسائط حدسيّة واشراقيّة ورؤيويّة. لأنّ «الحقيقة ليست في ما يقال أو في ما يمكن قوله، وإنّما هي دائماً في ما لا يقال، في ما يتعدّر قوله، إنّها، دائماً، في الغامض، الخفي، اللّا متناهي»<sup>2</sup> وإذ تشكّل نظريّة الكشف منهجاً يستتق البنيات العميقة للنص الثقافيّ، فهي تقارب اللامتناهي الذي تحدث عنه أدونيس من زاوية رؤية ترتكز إلى خصوصية العلاقة بين النصّ والثقافة، فتتموضع بنية النّسق من داخل النصّ من دون تعميم النّسق الثقافيّ بوصفه مستقلاً عن المفهوم الجماليّ للنصّ. لأنّ «الشاعر هو من يخلق أشياء العالم بطريقة جديدة»<sup>3</sup>.

### المعرفة بين أنسنة المنهج والثقافة

تشكّل نظريّة الكشف بما تحمله من عمق معرفي مادة انخراط نحو قاع المعنى في بعده الذوقي من جهة، ولغة مشحونة بالهم الثقافيّ الذي يجعل للمعنى قيمة إنسانيّة إضافة إلى قيمته الأدبيّة والمعرفيّة والبلاغيّة، ذلك أنّ الكلام «توظيف للنظام اللّغويّ، والرؤية المخصوصة توظيف للثقافة، وكما يحضر النظام اللّغويّ في الخطاب تحضر الثقافة فيه»<sup>4</sup>. إذ يجعل منهج الكشف وسيلة تأويليّة تتجاوز التحليل الثقافيّ التقليديّ، لتدخل في فضاء كشف الأنساق المضمرّة وربط النصّ بسياقاته المتعدّدة، وتأويل الرموز والدلالات التي تحمل الوعي الجمعيّ.

يرتكز المنهج الثقافيّ عند علي زيتون على آليات الكشف التقديّ، بوصفه منهجاً يستتق البنى المسكوت عنها لاستقراء الأنساق الثقافيّة المضمرّة في بنية النصّ، لكشف

1- إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، تر: محمد عصفور، مراجعة وتقديم: محمد شاهين، دار الآداب، بيروت، 1، 2017، ص 264.

2- أدونيس، الصوفيّة والسوريالية، دار الساقى، فردان، بيروت، ط 10، ص، 188.

3- أدونيس، زمن الشعر، دار الساقى، فردان، بيروت، 2005، ص 17.

4- علي زيتون، المنهج الثقافي ونظرية الكشف، ص 27

طبقاته الدلالية والثقافية وتتبع شيفراته التي يشكل تفكيكها إعادة إنتاج للنص، لأن الكتابة الإبداعية «تتطلع إلى استعادة ما فقده العالم من فطرة وحميمية في علاقاته»<sup>1</sup>

والكشف مرتبط منذ القدم بالمعرفة الحسية الإشرافية في تجاوزها العقل وعالم الحس، حيث تكون أشياء العالم منفصلة، بعضا عن بعض، لكن في الرؤية الإشرافية تتحد في ما بينها، وتتآلف فتتسع آفاق الرائي ويصير المرئي أكثر انكشافا وتجوهرًا، متخففا من هويته الظاهرة والمقروءة بما حملته من موروث تاريخي، لتصبح هوية مفتوحة على قراءات دلالية متعددة استدعاها الكشف التأويلي المرتكز إلى الثقافة، بوصفها منهجا يؤسس لبصيرة ثقافية ترى في النص ما لا يراه النقد التقليدي.

وإذا كانت الثقافة منهج حياة أنتجت التجربة في أبلغ تجلياتها المعرفية، فإن الكشف هو تجل جديد من تجليات الجدة والإبداع، وهو عمق من أعماق الثقافة التي أنتجت تلك الجدة في لحظة إمساكها بخيوط العلاقة بين العالم المرجعي والعالم الفني المكتشف.

تتبع أهمية موقف علي زيتون في مقارنته المنهج الثقافي من أنه طرح آليات ومفاهيم ذات أهمية خاصة بعلاقة المنهج مع المناهج الأخرى، لا سيما البنيوية والسميائية والسرديات، وعلاقة ضدية مع التفكيكية، وتكمن الخصوصية في أنه تصدى للتجربة الثقافية العربية الحديثة وإشكالياتها من موقع العارف بمكامن عجز العقل العربي عن مواجهة العقل الغربي بأدوات معرفية معاصرة، لينطلق من علاقته بالفلسفتين الماركسية والوجودية، وبالأفكار القومية، والمعرفة الأدبية عبر مدارس ومذاهب متنوعة، ليصل إلى «أن الثقافة العربية قادرة على تزويدنا بمفاتيح أساسية نواجه بها الثقافة الغربية من دون أن نتخلى عن الشخصية الثقافية العربية المضيفة في ظل تعطل العقل العربي ما يزيد على الثمانية قرون»<sup>2</sup>.

إن امتلاك الأديب لثقافة عصره يضعه في موقع مغاير، والخاصية الأساس في هذا الامتلاك تحيلنا إلى قدرته على هضم تلك الثقافة واستيعابها ومحاورتها لينتج ثقافته الخاصة، وهي في جانبها الإبداعي تتمايز عن امتلاك الآخرين لتلك الثقافة. ذلك أن الشعر «خلق يمارسه الشاعر، فيما يخلق مسافة بينه وبين التراث من جهة، وبينه وبين

1- عبد الرحمن القعود، الإبهام في شعر الحداثة، عالم المعرفة، 2002، عدد 279، ص 56.

2- علي زيتون، المنهج الثقافي ونظرية الكشف، ص 26

## الواقع من جهة ثانية»<sup>1</sup>

فالأديب ينظر بعين رائية ومن زاوية رؤية مختلفة عن رؤية الآخرين، وإن تكن لكلّ أديب خصوصيته وثقافته واسلوبه وأدواته الكتابية فإنّ سؤالاً مركزياً شغل الساحة النقدية طرحه علي زيتون في فصل بعنوان « من هو الشاعر؟ ليصل إلى استنتاج « الشاعر مقيم في منطقة الفالق الزلزالي التي لا يمكن أن يتحمّلها المتعلّم العارف العادي. يحتاج الشاعر ليكون شاعرًا إلى ثلاثة أمور لا يتوافر بعضها إلا للخاصة من المثقفين»<sup>2</sup> فكلما انكشف طريق أمام الشاعر يقودنا إلى مزيد من الكشف عن الأقاصي، ليقدم واقعًا من مستوى مغاير ومختلف، حينها يصير الكشف نتاج وسائط أخرى، مرتبطة بالحدس والاشراق، لأنّ الشعر يقيم الصلة الجمالية والأكثر شفافية وغنى مع الآخر. ذلك أنّه الأكثر قدرة على كشف الذات لذاتها، وعلى أن يكشف لها بعدها الآخري، والذات في حاجة إلى هذا البعد، لا لكي تتأخى وتتماثل وتتماهى وحسب، وإنّما لكي تتفردن أيضا في الوقت ذاته»<sup>3</sup>. إذ لا يتميز الشاعر بنقل مشهدية أو تصويرها من منظور نقلي ولا يكفّي أيضا بما هو عقلي، لأنّ على الشاعر أن يخلق مشهدياته وعلى الناقد أن ينظر إلى تلك المشهديات بعين الخلق والكشف أيضا، وليس بعين النقل وقراءة الظاهر.

وعليه، فإنّ نظرية الكشف التي ربطها الدكتور علي زيتون بالمنهج الثقافي هي تجاوز ليس فقط للشكل والظاهر، ولا للتأمل في أشياء العالم، بل لكلّ ما هو مقروء من خلال التحليل النصي المرتكز إلى الطرائق التقليدية، والارتكاز إلى الكشف عن اللامرئي كبنية ثقافية ومعرفية وفكرية، إلى جانب بنيتها الجمالية والبلاغية والتصويرية.

### المنهج الثقافي في ضوء المناهج الحديثة: تقاطعات واختلافات

توقّف نقاد النصف الثاني من القرن العشرين عند الرؤية الشكلية للنص وآليات تجاوزها، خصوصاً في ظل التحولات العميقة التي شهدتها المناهج النقدية، والتي أدت إلى حدوث تحوّل جذري في طرائق التفكير النقديّ وأنساقه. إذ، لم يعد يأمن الفكر النقديّ لتلك الطمأنينية التي فرضتها الكلاسيكية. فالانفتاح على آفاق الفلسفات الحديثة واللسانيات، فتحت آفاق النصوص المعرفية والفكرية.

1- أدونيس، الثابت والمتحوّل، صدمة الحداثة، دار الفكر، بيروت، ص 18.

2- علي زيتون، م. س. ص 100.

3- أدونيس، الصوفية والسوريالية، ص 192

وإذا كانت المناهج النقديّة المتعدّدة كالبنويّة والسيميائيّات والتّفكيك وغيرها من المناهج قد قدّمت رؤيتها انطلاقاً من فهمها للعمل الأدبيّ ومرجعياته وبنياته، فقد ضعف تأثير التّصنيفات التقليديّة التي طالما كانت تقيم حدوداً فاصلة بين النّص ومحيطاته، وبين ما هو جماليّ وما هو مرجعيّ. ليتحوّل النّقد مع المنهج النّقافيّ من فاعليّة تابعة للنّص الإبداعيّ إلى فاعليّة موجّهة له. فالبنويّة وضعت النّص في قلب النّسق، مركّزة على العلاقات بين مكوناته، واهتمت برصد البنى الدّاخلية المغلفة للنّص. بينما تقوم التّفكيكية على تفكيك البنية النصيّة للكشف عن تناقضاتها الدّاخلية وتجنّب تثبيت المعنى أو إحالته إلى إطار قيمي أو ثقافيّ محدد.

أما المنهج السيميائيّ، فقد اتّجه نحو تحليل أنظمة العلامات والرموز داخل النّص الأدبيّ، حيث ركّز على كيفية إنتاج المعنى من خلال نظام دلاليّ يحكم العلاقة بين الدّالّ والمدلول. في حين قدّم المنهج النّقافيّ رؤية أكثر انفتاحاً على الحقول المعرفيّة واتّجه نحو تحليل العلامات من حيث علاقتها بالثقافة وربطها بالبنية العميقة للنّص ومساءلته بوصفه فضاء معرفيّ ومساءلة شروط انتاجه وإشكاليّاته.

لم يرفض المنهج النّقافيّ تلك المناهج، بل تقاطع مع بعضها بمنهجية التّحليل النّصيّ وفهم الأنساق، وتجاوزها محتفظاً بخصوصيته الكشفية، ليعيد ربط النّص بسياقه من خلال الارتكاز إلى سلطة الكشف عن النّسق النّقافيّ وآفاقه المعرفيّة، لأنّ المنهج النّقافيّ يركّز إلى رؤية المبدع، « وإذا كانت الرّؤية بنية شديدة التّعقيد، فذلك يعني أنّ رؤية أي فرد قائمة على خصوصية مرتبطة بخصوصية مكوناتها: ثقافة، قناعة، وهما، واهتماماً<sup>1</sup> وهو إلى ذلك، يعارض التّفكيكية التي هي أقرب ما تكون إلى مشروع تقويسي، بينما يسعى المنهج النّقافيّ إلى بناء الوعي النّقافيّ في بعده الإيجابي. ويستخدم الكشف لفهم الدوافع الثقافيّة وتظهير سلطة النص الخفية لاستنتاج المسكوت عنه، واستنتاج رؤية ثقافيّة كاشفة.

وبما أنّ العمق الدّلاليّ يكمن في الغياب ويجيء من الخفاء، فإنّ نظريّة الكشف عند علي زيتون تقوم على التّأويل العميق لتحقيق وعي جدليّ بين النّص والثقافة. إذ يشكّل هذا التّأويل سعياً إلى تخليص المتلقي من سلطة التّلقين، ودفعه باتجاه الانتاج المعرفيّ.

1- علي زيتون، المنهج النّقافي ونظرية الكشف، ص 47.

## بين تحولات المناهج وسؤال التجديد النقدي

شهدت المناهج النقدية منذ خمسينيات القرن الماضي تحولات معرفية ومنهجية عميقة. فقد اهتزت ركائز الحدود بين المناهج التي اعتاد عليها النقد الأدبي، وبدأ تأثيرها يتلاشى. ولم يعد للتصنيف التقليدي البريق الذي حضي به لقرون مديدة. ليتبلور وعي نقدي مغاير بتأثير الفلسفات الحديثة وإعمال العقل العلمي ودخول الدراسات الثقافية على الساحة النقدية.

ومع تأثير ما بعد البنيوية، والماركسية الجديدة، وعلم السيمياء والتفكيكية، وما عرف بالسرديات الحديثة، تشكلت رؤية نقدية انطلقت من قراءة النص بوصفه موقعاً مفتوحاً على حقل واسع من الاحتمالات التي ينتج عنها هويات متعددة.

اتخذ مشروع علي زيتون النقدي طابعاً منهجياً يتجاوز البروتوكول الشكلي لبعض المناهج ويلتقي مع حاجة الفكر العربي إلى رؤية نقدية تتجاوز استقطبها المنهج الثقافي مع احتكاكه وارتباطه بنظرية الكشف التي مثلت جوهر هذا التوجه نحو الكشف الثقافي ومساءلة العقل، وشحن الذات بالفاعلية التأويلية التي تؤسس لدينامية النص الشعري واكتشاف بناء العميقة، إذ أن «الشعرية لا تتخذ اللغة بعامة موضوعاً لها، بل تقتصر على شكل من أشكالها الخاصة. والشاعر بقوله لا يفكره وإحساسه. إنه خالق كلمات وليس خالق أفكار»<sup>1</sup>

وعليه، فإن المشروع النقدي عند علي زيتون شكل إضافة نوعية في ميدان الدراسات النقدية المعاصرة والحديثة، وفي محاولته لتأسيس منهج متكامل يركز إلى فاعلية التحليل الثقافي والتأويل المعرفي، في ضوء رؤية نقدية مفتوحة على فضاء التأويل وقابلة لاستيعاب الأسئلة الكبرى التي تواجه الثقافة، من أجل بناء نظري لمقاربة نقدية تنطلق من النص إلى النسق، ومن البنية إلى تفرد نظرية الكشف، حيث أن الكشف بالنص والثقافة أساساً لسردية العقل النقدي عند علي زيتون ولتناغمه بين الخطاب والمرجعية. لأن «امتلاك الثقافة أن تنتج علومًا تجيب عن أسئلتنا الحرجة، وتشكل حلولاً لمشكلاتنا، لأن مثل هذه الثقافة كفيلة بإنتاج سيميائيتنا»<sup>2</sup>.

1- جان كوهين، بنية اللغة الشعرية، تر محمد براءة ومحمد العمري، 1986، الرباط، دار توبقال للنشر، ص 40.  
2- جوليا كريستيفا، السيميائية علم نقدي، أو نقد العلم، العرب والفكر العالمي، ترجمة جورج أبي صالح، العدد الثاني، 1988، ص 32.

## خاتمة

يقيم كتاب المنهج الثقافي ونظرية الكشف تكاملاً جدلياً بين تحليل النص في إطار الهمّ الثقافي واستكناه الجانب الجمالي والمعرفي. وهو إذ يتجاوز المناهج التقليدية عبر تخطّيها، فإنّه يعيد الاعتبار للسياقات الفكرية والتاريخية مستحضراً البعد الأخلاقي على اعتبار أنّ الناقد ليس محلاً فحسب، بل هو منتج للثقافة ومساهم أساسي في تشكيل الوعي، وفي منح النقد بعداً إنسانياً، وتحقيق جمالية الخطاب، لأنّ « كمال الجمال الأدبي هو في تمام التعبير والدلالة اللذين هما ذوا بعد ثقافي »<sup>1</sup>.

يرسخ الكتاب مشروعاً حضارياً يجمع بين التحليل الثقافي والكشف المعرفي التحرري الذي يفتح آفاقاً بحثية جديدة في الدراسات المعاصرة، خصوصاً أن « المنهج الثقافي تنظيراً وإجراء هو من المناهج الفاعلة التي تستطيع أن تنطق ما سكت من أبعاد فنية يكتنّزها الخطاب. وهذا ما يسوّغ وجوده في الحياة النقدية الحديثة »<sup>2</sup> وهو بذلك يملك قابلية تطويره وتوظيفه كونه يمتلك مرونة تناسب مختلف الاجناس الأدبية ضمن خصوصية كلّ جنس أدبي.

رغم عمق الرؤية، ونجاح المؤلف في تقديم مادة جديدة بالدراسة نظرياً وتطبيقياً، ثمة حاجة إلى دراسات تطبيقية موسّعة تقارب آليات الكشف التي تحدث عنها المؤلف لتوضيح النمايز المنهجية وخصوصياته.

1- علي زيتون، في مدار النقد الأدبي، الثقافة، المكان، القص، دار الفارابي، بيروت، 2011، ص 28.

2- م.ن. ص 11.

## قائمة مراجع البحث

1. أدونيس، الصّوفية والسّورياليّة، دار السّاقى، فردان، بيروت، لبنان، 2010 ط4.
2. أدونيس، زمن الشّعر، دار السّاقى، فردان، بيروت، 2005..
3. أدونيس، الثّابت والمتحوّل، بحث في الابداع والاتباع عند العرب، صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشّعريّ، دار السّاقى، الحمرا، بيروت، ج4، 2002، ط 8.
4. زيتون، علي، المنهج النّقائى ونظرية الكشف، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، 2021، ط1.
5. زيتون، علي، في مدار النّقد الأدبيّ، النّقا، المكان، القص، دار الفارابي، بيروت، 2011.
6. سعيد، إدوارد، العالم والنّص والنّاقذ، تر: محمد عصفور، مراجعة وتقديم: محمد شاهين، دار الآداب، بيروت، ط1، 2017.
7. - سلدن، رمان، النّظرية الأدبيّة المعاصرة، تر: سعيد الغانمي، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ساقية الجنزير، 1996، ط1.
8. عصفور، جابر، آفاق العصر، دار المدى للنّقا والنّشر، سوريا، دمشق، 1997، ط1.
9. القعود، عبد الرحمن، الإبهام في شعر الحداثة، عالم المعرفة، 2002، عدد279.
10. كريستيفا، جوليا، السيمائية علم نقديّ، أو نقد العلم، العرب والفكر العالميّ، ترجمة جورج أبي صالح، العدد الثّاني، 1988.
11. كوهين، جان، بنية اللّغة الشّعريّة، تر محمد برادة ومحمد العمري، 1986، الزّباط، دار توبقال للنّشر.



# الخطاب التّداولي في مجموعة «وجهان ووجوه أخرى»

للكاتبة درّية فرحات

Pragmatic Discourse in the Collection Two Faces and Other Faces by  
Dorria Farhat

مها هاني المسلمي

Maha Hani Al-Musallami

تاريخ القبول 2025/8/2

تاريخ الاستلام 2025 / 7 / 14

## المستخلص

تُسلّط هذه الدّراسة الضّوء على الخطاب التّداولي في مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» للكاتبة درّية فرحات، بهدف الكشف عن كيفية توظيف الكاتبة للظواهر التّداولية في بناء المعنى المكثّف للقصة القصيرة جدًّا. تتناول الدّراسة الظواهر المحورية المتمثّلة في الأفعال الكلاميّة، الاستلزام الحواريّ، ودور كلّ من المقام والافتراض المسبق، بالإضافة إلى آليات السّخرية والمفارقة والرّمزية والإيحاء. تعتمد الدّراسة المنهج التّداولي التّطبيقيّ، متجاوزة التّحليل البنيويّ لتسبر أغوار الدّلالات غير المصرح بها.

وقد كشف التّحليل أنّ إيجاز القصة القصيرة جدًّا في المجموعة يُعدّ محقّقًا لتوظيف آليات تداوليّة مكثّفة. فالكاتبة تستثمر ببراعة الأفعال الكلاميّة، خاصّة الإخبارية والتّعبيرية، لتقديم مشاهد مكثّفة ذات دلالات نفسيّة واجتماعيّة عميقة. كما تتبنى الاستلزام الحواريّ بصفته ركيزة أساسيّة لبناء المعنى الضّمنيّ، من خلال انتهاك مقصود لمبادئ التّعاون، ما يدفع القارئ إلى المشاركة الفاعلة في استنتاج الدّلالات. علاوة على ذلك، يؤدّي المقام والافتراض المسبق دورًا حيويًّا في تكثيف المعنى وتوجيه التّلقّي، فيما تُعزز السّخرية والرّمزية من حدّة النّقد وتُعمّق الدّلالات المتعلّقة بثيمات الازدواجية وتعدّد الأفعنة.

تُظهر النّتائج أنّ إيجاز القصص في «وجهان ووجوه أخرى» لا يُعدّ سمة شكلية فحسب، بل هو عامل جوهري يُحوّل القارئ من متلقٍ سلبي إلى شريك فعّال في عملية بناء المعنى وكشف «الوجوه» المتعدّدة التي تُقدمها المجموعة، مما يُبرز قدرة هذا

الجنس الأدبيّ على إحداث تأثير عميق بكلماتٍ قليلة.

**الكلمات المفتاحيّة:** الخطاب التّداوليّ، القصّة القصيرة جدًّا، دريّة فرحات، الأفعال الكلاميّة، الاستلزام الحواريّ، المقام، الافتراض المسبق، الازدواجيّة.

#### Abstract

This study sheds light on the pragmatic discourse in Durriya Farhat's short story collection "Two Faces and Other Faces," aiming to reveal how the author employs pragmatic phenomena to construct the condensed meaning of the very short story. The study addresses core phenomena, including speech acts, conversational implicature, and the role of context and presupposition, in addition to the mechanisms of irony, sarcasm, symbolism, and suggestion. The study adopts an applied pragmatic methodology, moving beyond structural analysis to delve into unspoken meanings.

The analysis reveals that the brevity of the very short stories in the collection serves as a catalyst for employing condensed pragmatic mechanisms. The author masterfully utilizes speech acts, especially assertive and expressive ones, to present condensed scenes with deep psychological and social connotations. She also adopts conversational implicature as a fundamental pillar for constructing implicit meaning through the deliberate violation of cooperative principles, which compels the reader to actively participate in inferring the connotations. Moreover, context and presupposition play a vital role in intensifying meaning and guiding reception, while irony and symbolism enhance the sharpness of criticism and deepen the connotations related to the themes of duality and multiple masks.

The findings demonstrate that the brevity of the stories in "Two Faces and Other Faces" is not merely a formal characteristic but a crucial factor that transforms the reader from a passive recipient into an active partner in the process of meaning construction and uncovering the multiple "faces" presented by the collection. This highlights the ability of this literary genre to create a profound impact with few words.

**Keywords:** Pragmatic discourse, very short story, Dorria Farhat, speech acts, conversational implicature, context, presupposition, duality.

## المقدمة

تُمثِّل القصَّة القصيرة جدًّا في الأدب العربيِّ المعاصر جنسًا أدبيًّا يفرض إيقاعًا خاصًّا في التلقّي، ويستدعي من القارئ مشاركة فاعلة في استخلاص المعنى من عتبات نصيّة مكثفة. فبعيدًا من الإسهاب، يعتمد هذا الجنس الأدبيُّ على الإيجاز الشّدِيد، ما يجعل كلّ كلمة أو جملة افتتاحيّة ذات دلالة، أو يشكّل العنوان مفتاحًا يفتح آفاقًا واسعة للتأويل. تتجاوز هذه النصوص السرد المباشر لتركّز على إحداث صدمة دلاليّة أو ومضة معرفيّة في مساحة سرديّة موجزة، ما يجعلها ميدانًا خصبًا للدراسات التي تتجاوز التحليل السرديّ التقليديّ نحو مقاربات أكثر عمقًا، لا سيما تلك التي تُعنى بكيفية بناء المعنى وتلقّيه. وفي هذا السياق، تبرز مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» للكاتبة دريّة فرحات، وهي مجموعة تتوزّع على تسع كوكبات، كلّ منها يضمّ عددًا متنوعًا من القصص القصيرة جدًّا، لنقدّم نموذجًا مكثفًا يتناول ثيمات الازدواجيّة، التناقض بين الظاهر والخفي، وتعدّد الألقعة التي يرتديها الإنسان في حياته اليوميّة.

إنّ استكشاف الأبعاد الخفيّة لهذه المجموعة القصصيّة يتطلب منهجًا تحليليًّا قادرًا على سبر أغوار الدلالات غير المصرح بها، وهنا يبرز المنهج التداوليّ أداة تحليليّة محوريّة. فالنّداوليّة تقدّم إطارًا نظريًّا ومفاهيميًّا غنيًّا لفهم آليات بناء الدلالة في القصّة القصيرة جدًّا، لا سيما تلك التي تركّز على المفارقات الإنسانيّة والاجتماعيّة.

تهدف هذه الدّراسة إلى تحليل «الخطاب التداوليّ» في مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» ككلّ، مع التّركيز على مجموعة من الظواهر النّداوليّة المحوريّة؛ وهي: الأفعال الكلاميّة التي تشكّل أبعادًا وظيفيّة للنّصّ، والاستلزام الحواريّ الذي يُسهم في توليد المعاني الضمنيّة، ودور المقام والافتراض المسبق في توجيه التلقّي. وذلك من خلال تتبع تجلّيات هذه الظواهر عبر قصص المجموعة، من مختلف كوكباتها، للكشف عن كيفية بناء المعنى، وتأثير الكاتبة في القارئ، وكيف أنّ إيجاز هذه القصص يضاعف من أهميّة هذه الأبعاد النّداوليّة في كشف «الوجوه» المتعدّدة للشخصيّات والمواقف.

الإشكالية البحثيّة: كيف توظّف الكاتبة الظواهر النّداوليّة (الأفعال الكلاميّة، الاستلزام الحواريّ، المقام، الافتراض المسبق) في بناء المعنى المكثّف للقصّة القصيرة جدًّا ضمن مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» وما الأثر الذي تحدّثه هذه الظواهر في تفاعل القارئ

مع النصّ وتلقيه للدلالات الضمنية المتعلقة بثيمات الازدواجية وتعدّد المظاهر؟

## 1. الإطار النظري

يُعدّ المنهج التّداولي (Pragmatics) أحد أبرز المناهج اللّسانية الحديثة الذي يُعنى بدراسة اللّغة في سياق استخدامها الفعليّ، متجاوزاً التّحليل البنيويّ للّغة بمعزل عن مستعملها. فبينما يهتم النّحو والصّرف بدراسة بنية الجملة والكلمة، وعلم الدّلالة بدراسة المعنى الحرفيّ للألفاظ، يركّز المنهج التّداوليّ على المعنى الذي يقصده المتكلّم أو الكاتب، وكيف يفهمه المتلقي في ضوء السّياق والمقام. (سعيد، 2005، ص. 45) إنّه يدرس العلاقة بين اللّغة ومستعملها، وكيف تُستخدم اللّغة لإنجاز أفعال معينة وتحقيق أغراض تواصلية. (سيرل، 1969).

تُشكّل مفاهيم تداوليّة عدّة ركائز أساسيّة لهذا المنهج، وتُعدّ ذات أهمية خاصّة عند تحليل النّصوص الأدبيّة، لا سيما القصّة القصيرة جدّاً التي تعتمد على الإيجاز والتّكثيف في بناء دلالاتها، إذ تفرض طبيعتها المكثفة على الكاتبة توظيف هذه المفاهيم ببراعة لضغط المعنى، وتحفيز القارئ، وتجاوز حدود ما هو مصرح به.

## 1. الأفعال الكلاميّة (Speech Acts)

يُعدّ مفهوم الأفعال الكلاميّة، الذي طوّره الفيلسوف اللّغويّ جون أوستن (J.L. Austin) ومن بعده جون سيرل (J.R. Searle)، من أبرز مفاهيم التّداوليّة. يفترض هذا المفهوم أنّ اللّغة ليست مجرد وسيلة لوصف العالم، بل هي أداة لإنجاز أفعال. (Austin، ص. 12) فعندما نتحدّث أو نكتب، فإنّنا لا نقول شيئاً فحسب، بل نفعل شيئاً. تُصنّف الأفعال الكلاميّة عادة إلى:

- الفعل الإنجازيّ (Locutionary Act): وهو فعل القول نفسه، أي المعنى الحرفي للكلمات.

- الفعل الإنجازيّ بالقوة (Illocutionary Act): وهو القصد أو الغرض من القول، أي ما يفعله المتكلّم بقوله (مثل: الإخبار، الأمر، الوعد، السّؤال، التّعبير عن المشاعر).

- الفعل الإنجازي بالأثر (Perlocutionary Act): وهو الأثر أو النتيجة التي يحدثها القول على المتلقي (مثل: الإقناع، الإخافة، الإضحاك).

في القصة القصيرة جداً، تُستخدم الأفعال الكلامية بكثافة وتركيز، وغالباً ما تكون ضمنية، حيث يُترك للقارئ استنتاج القصد من الأفعال اللغوية للشخصيات أو الراوي. فإيجاز النص يدفع الكاتب إلى توظيف أفعال كلامية ذات قوة إنجازية عالية، تحدث أثراً كبيراً في مساحة صغيرة. إن تفضيل الكاتب للأفعال الكلامية الضمنية في هذا الجنس الأدبي لا يأتي من قبيل الصدفة؛ بل هو اختيار واعٍ يهدف إلى تفعيل قدراته التأويلية لفك شيفرة القصد الخفي، ما يجعل التجربة القرائية أكثر عمقاً وإشراكاً.

## 2. الاستلزام الحواري (Conversational Implicature)

قدم الفيلسوف اللغوي بول جرايس (H.P. Grice) هذا المفهوم لشرح كيف يمكن للمتكلم أن يوصل معنى أكثر مما يقوله حرفياً. يعتمد الاستلزام الحواري على مبدأ التعاون (Cooperative Principle) وقواعده الأربع (الكم، الكيف، العلاقة، والأسلوب) يفترض هذا المبدأ أن كل مشارك في عملية التواصل يسعى لتقديم مساهمة مفيدة وملائمة، إذ يفهم كل طرف أن الطرف الآخر يتعاون معه لإيصال المعنى، وعندما ينتهك المتكلم إحدى هذه القواعد عمداً، فإنه لا يرتكب خطأ، بل يُنشئ استلزاماً حوارياً يدفع المتلقي إلى استنتاج معنى ضمني. يتجاوز المعنى الحرفي للكلمات.

في القصة القصيرة جداً، يُعد الاستلزام الحواري أداة جوهرية لبناء المعنى. فالكاتب، بحكم إيجازه، غالباً ما «ينتهك» عمداً قاعدة الكم (لا يقول كل شيء صراحة) أو قاعدة الأسلوب (يستخدم لغة رمزية ومكتفة)، ما يُجبر القارئ على تفعيل قدراته الاستنتاجية لملء الفراغات الدلالية، واستخلاص المعاني العميقة التي لم تُصرح بها الكلمات مباشرة. هذا التكتيف يُحمل القارئ مسؤولية كبرى في فك الشفرات الدلالية، ويجعل من القصة القصيرة جداً حقلاً خصباً للتأويلات المتعددة، إذ لا يُقدم المعنى بشكل جاهز، بل يُبنى بالتعاون الضمني بين الكاتبة والقارئ.

### 3. المقام (Context)

يشكل المقام البيئة التي تُنتج فيها اللغة وتُفهم. وهو يتجاوز المعنى اللغوي ليشمل مجموعة من العوامل غير اللغوية التي تؤثر في فهم الخطاب. يمكن تقسيم المقام إلى:

- المقام اللغوي (Linguistic Context): وهو ما يحيط بالعبارة من نصوص سابقة أو لاحقة.

- المقام الموقفي (Situational Context): وهو الظروف المحيطة بالقول، مثل الزمان والمكان، العلاقة بين المتحدثين، الموضوع، والغرض من التواصل.

- المقام المعرفي (Cognitive Context): وهو المعرفة المشتركة بين المتحدثين أو بين الكاتب والقارئ.

في القصة القصيرة جداً، يؤدي المقام دوراً حيوياً في تكثيف المعنى. فإيجاز النص يعني أن الكاتب لا يستطيع تقديم تفاصيل كثيرة عن الزمان والمكان أو الخلفيات. لذا، يعتمد على إشارات موجزة في المقام الموقفي، أو على معرفة القارئ المسبقة (المقام المعرفي) لتوجيهه نحو فهم الدلالات المطلوبة، ما يجعل كل كلمة أو إشارة ذات وزن تداولي كبير. تتداخل هذه الأبعاد السياقية بشكل معقد في النصوص الأدبية، وتستفيد الكاتبة من هذا التداخل ببراعة لتصنع دلالات غنية، إذ قد يكفي ذكر كلمة واحدة أو إشارة عابرة لتحيل القارئ إلى عالم كامل من المعاني المفترضة ضمن مقام معين.

### 4. الافتراض المسبق (Presupposition)

يشير الافتراض المسبق إلى المعلومات التي يفترض المتكلم أنها معروفة أو مُسلم بها لدى المتلقي قبل بدء عملية التواصل. هذه الافتراضات لا تُصرّح بها صراحة، ولكنها ضرورية لفهم المعنى الكامل للعبارة. في القصة القصيرة جداً، يُستخدم الافتراض المسبق بكفاءة عالية لضغط المعلومات. فالكاتب يفترض معرفة معينة لدى القارئ بالثقافة، أو التاريخ، أو التجارب الإنسانية العامة، ما يسمح له بالإيجاز الشديد دون فقدان المعنى. هذا المفهوم يُساهم في إثراء النص بالدلالات دون الحاجة إلى الإطناب، ويبرز العلاقة التشاركية بين الكاتب والقارئ في بناء المعنى. إن قدرة الكاتبة على تفعيل الافتراضات المسبقة لدى القارئ هي ما تمكنه من خلق نصوص مكثفة وغنية بالدلالات التي تقرأ «

ما بين السّطور» ما يجعل القارئ طرفاً أساسياً في استكمال المعنى المقصود.

## 5. المؤلف الضمني والقارئ الضمني (Implied Author and Implied Reader)

يعدّ مفهوم المؤلف الضمني والقارئ الضمني اللذان بلورهما الناقد الأدبيّ وأين سي. بوث (Wayne C. Booth) من المفاهيم التّداوليّة الأساسيّة التي تُعزز فهمنا لعملية التّواصل الأدبيّ. فالمؤلف الضمنيّ ليس الكاتب الحقيقيّ بشخصه. بل هو الصّورة التي يبنّيها النّصّ عن مؤلفه، أو النّسخة المثاليّة للكاتبة كما تُقدّمها في عملها الأدبيّ نفسه. إنّ الصّوت الذي يحدّد قيم النّصّ ومعتقداته وتوجهاته، وهو ما يُدركه القارئ من خلال اختيارات الكاتب الأسلوبية، والبلاغية، والسردية.

في القصّة القصيرة جدّاً، تُصبح أهمية هذين المفهومين مضاعفة، نظراً لإيجاز النّصّ وتكثيفه، فالكاتبة تبني نصوصها بطريقة تتطلّب من القارئ تفعيل قدرات استنتاجيّة وتأويليّة عالية، وملء الفراغات الدّلاليّة، والنقاط الإشارات الخفيّة. إنّ القصص المكثّفة في مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» لا تتحدّث إلى أي قارئ، بل تستدعي قارئاً واعياً بضرورة البحث عن المعاني غير المصرح بها، واستكشاف التناقضات الكامنة بين الظاهر والخفي، وفهم الأقنعة التي تقدّمها الشّخصيّات والمواقف. هذه العلاقة التشاركيّة بين المؤلف الضمنيّ والقارئ الضمنيّ هي ما يُثري تجربة التلقّي ويجعل النّصّ يُفصح عن «وجوه» متعدّدة من خلال التفاعل المستمر بين النّصّ ومتلقّيه الماهر.

تُعدّ هذه المفاهيم التّداوليّة أدوات أساسيّة في تحليل مجموعة «وجهان ووجوه أخرى»، إذ ستمكّننا من سبر الأبعاد الخفيّة للخطاب، وكشف كيفية بناء المعاني المتعلّقة بالازدواجيّة والتناقض بين الظاهر والخفي، وفهم الأثر الذي يتركه الكاتب في المتلقّي من خلال إيجازه وتكثيفه اللّغويّ.

بعد استعراض المفاهيم الأساسيّة للمنهج التّداوليّ، سنتناول في الجزء التالي كيفية تجلّي هذه المفاهيم في نصوص مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» ذلك لسبر أغوار دلالاتها المكثّفة وأبعادها المخفيّة.

## II . التّحليل التّطبيقي

يُسهم المنهج التّداولي في كشف الطّبقات الدّلاليّة الخفيّة في نصوص القصّة القصيرة جدّاً ضمن مجموعة «وجهان ووجوه أخرى»، إذ تتجلّى العلاقة الوثيقة بين البنية اللّغويّة للقصّة وغرضها التّواصلي وتأثيرها في المتلقي. إنّ إيجاز هذا الجنس الأدبيّ يدفع الكاتب إلى توظيف آليات تداوليّة مكثّفة لضغط المعنى، وإثارة الفضول، ودفع القارئ إلى المشاركة الفاعلة في بناء الدّلالة.

### 1. الأفعال الكلاميّة في «وجهان ووجوه أخرى»

تمثّل الأفعال الكلاميّة القوة الإنجازيّة الكامنة وراء كلّ جملة، فكل قول هو فعل. في مجموعة «وجهان ووجوه أخرى»، لا تقتصر الأفعال الكلاميّة على الحوارات الصّريحة (التي قد تكون نادرة أصلاً في هذا الجنس)، بل تتجسّد بقوة في السرد نفسه، وفي الأفعال التي تقوم بها الشّخصيّات أو تُوصف بها. يغلب على هذه المجموعة ثلاثة أنواع رئيسية من الأفعال الكلاميّة:

أ- الأفعال الإخباريّة (Assertives): هي الأفعال التي تهدف إلى وصف حالة من العالم، أو تقديم معلومات، أو التّعبير عن اعتقاد. وهي مهيمنة في القصص القصيرة جدّاً بشكل عام لأنّها تقدّم المشهد أو الحدث الأساسي بإيجاز.

- في قصّة «زهو»: «انتظر دوره وسط الزحام وقطرات العرق على جبهته ليحصل على نسخة من الرواية ذائعة الصّيّة... خرج من القاعة رافعاً رأسه مزهواً». هذه الأفعال الإخباريّة (انتظر، خرج) لا تقدّم معلومات فحسب، بل توحى بحالة نفسيّة للبطل. فالإخبار عن «قطرات العرق» و«الخروج مزهواً» يُخبر عن تناقض داخلي (قلق وفخر)، ما يُعدّ فعل إخبار يكشف عن صفة شخصيّة.

- في قصّة «حياة»: «أكياس طحين مكدّسة في زاوية... هي فتحت عينيها أختها بقربها». هذه الأفعال الإخباريّة (مكدّسة، فتحت، بقربها) تُخبر عن واقع مؤلم ومصير محتوم. الإخبار بـ «بقربها» يحمل صدمة ويكشف عن عنف التّضحية.

- في قصّة «نجاح»: «دعي إلى حضور مؤتمر مهم... وصل متأخراً عن موعد جلسته. طلب منه اختصار مداخلته... للتوجه للاحتفاء بغداء جماعيّ بنجاح المؤتمر.»



هذه الأفعال الإخبارية (دُعي، وصل، طلب) تُخبر عن تسلسل أحداث تكشف عن سطحية الحدث، فالمعلومات المقدمة تتصاعد لتُخبر عن تحوّل الهدف من المعرفة إلى المظاهر الاحتفالية.

- في قصة «وجهان»: «كان يرفع على الأكتاف في المظاهرات، يصدع صوته بحقوق المواطنين. حصل على إجازته الجامعية بمهارته في الغش.» الأفعال الإخبارية هنا (يرفع، يصدع، حصل) تقدم تناقضًا صارخًا بين المظهر العلني البطل والواقع الشخصي للغشاش، كاشفة عن ازدواجية في الشخصية.

ب- الأفعال التعبيرية (Expressives): هي الأفعال التي تُعبر عن مشاعر المتكلم أو حالته النفسية (مثل: الشكر، الاعتذار، التهنئة، الحزن، الفرح). غالبًا ما تكون هذه الأفعال ضمنية في القصة القصيرة جدًّا، ويترك للقارئ استنتاج المشاعر من الأوصاف أو النتائج.

- في قصة «زهو»: «قطرات العرق على جبهته... خرج من القاعة رافعًا رأسه مزهواً». بالرغم من عدم وجود فعل كلامي صريح يُعبّر عن القلق أو الفخر، إلّا أنّ الأوصاف الجسدية («عرق»، «رافعًا رأسه») تُعد أفعالًا تعبيرية ضمنية عن توتره وامتلأه بالفخر بعد الاعتراف.

- في قصة «أدوار»: «بائع الشاي يحسد العابر، والعابر يغبط بائع الشاي على ابتسامته المشرقة.» الأفعال هنا (يحسد، يغبط) هي أفعال تعبيرية صريحة تُظهر المشاعر الداخلية المتناقضة للشخصيات، وتكشف عن عدم الرضا العام رغم اختلاف الظاهر.

- في قصة «احتراف»: «تصبب العرق من جبينه، زاغت عيناه... تعلو وجهه علامات الثقة.» هذه الأوصاف تُعبّر عن حالتين نفسيّتين متباينتين للغشاشين (قلق وخوف مقابل ثقة وارتياح)، وهي أفعال تعبيرية ضمنية تُظهر الفرق بين الغشاش المبتدئ والمحترف.

- في قصة «عاجي»: «سرح خياله بعظمة ما يقول، حلّق ببرجه العاجي يسمع تصفيح الجماهير تغلغل. عاد إلى واقعه. رأى القاعة فارغة.» الأفعال التعبيرية هنا

ضمنية تمامًا، حيث تُعبّر عن شعور الزّهو والوهم الذي يعيشه المتحدث، ثم صدمة الخيبة عند عودته للواقع.

ج- الأفعال الإعلانية (Declarations): هي الأفعال التي تُحدث تغييرًا في الواقع بمجرد قولها (مثل: إعلان الزواج، الحكم في المحكمة، التسمية). قد لا تكون هذه الأفعال شائعة بوضوح في القصة القصيرة جدًا، لكنها قد تظهر بشكل رمزي أو نتيجة فعل ما.

- في قصة «نجاح»: «طلب منه اختصار مداخلته، لإنهاء الجلسات والتوجّه للاحتفاء بغداء جماعي بنجاح المؤتمر». الطّلب هنا (فعل توجيهي) يُحدث فعلًا إعلانيًا غير مباشر: إلغاء أهمية المحتوى وإعلان نجاح المؤتمر بناءً على إتمامه الشكلي، وليس جودته.

### خلاصة الأفعال الكلامية:

يُلاحظ أنّ الكاتبة درية فرحات في مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» تميل إلى توظيف الأفعال الإخبارية بكثافة لتقديم المشهد أو الحدث، ثم تدعمها بأفعال تعبيرية ضمنية (من خلال الوصف الدقيق للحالات الجسدية أو النفسية) للكشف عن المشاعر المعقدة، بينما الأفعال الإعلانبة قد تأتي على شكل نتائج حاسمة تنهي القصة وتغيّر من واقع الشخصيات بشكل جذري. يتجلى من خلال هذا التوظيف كيف أنّ الأفعال الكلامية، حتى في إيجازها، تُسهم في كشف الازدواجية الكامنة في الشخصيات والمواقف، وتُظهر التباين بين ما يُقال صراحة وما يُضمر، مؤكدة طبيعة «الوجهين» الذين تتناولهما المجموعة. هذا التكتيف في استخدام الأفعال الكلامية يعدّ أساسًا لعمل آليات تداولية أخرى كالاستلزام الحوارية، الذي يعتمد على قدرة القارئ على استنتاج المعنى الخفي.

إذا كانت الأفعال الكلامية تُبرز القصد والضمني في نصوص الكاتبة، فإنّ الاستلزام الحوارية يذهب أعمق ليكشف عن المعاني الكامنة التي تُبنى عبر خرق متعمد لقواعد التواصل، مما يُشرك القارئ في عملية فكّ الأسرار الدلالية.

## 2. الاستلزام الحوارية وبناء المعنى الضمني

يُعدّ الاستلزام الحوارية من أهم الأدوات التي يعتمد عليها الكاتب في القصة القصيرة جدًا

لبناء المعنى الضمني وتكثيف الدلالة، وذلك بانتهاك مقصود لمبدأ التعاون الغرابسي، خاصة قاعدة الكم (عدم الإفصاح عن كل شيء) وقاعدة الأسلوب (توظيف الإيجاز والرمزية). يدفع هذا الكاتبة القارئ إلى المشاركة الفاعلة في سدّ الفجوات الدلالية واستنتاج ما لم يُصرح به.

كيف تسهم خاصية «الإيجاز» في القصة القصيرة جداً في توليد الاستلزام الحواريّ بكثافة؟

- إنّ القصة القصيرة جداً بطبيعتها تُجبر الكاتب على حذف الكثير من التفاصيل والسياقات، ما يخلق فجوات نصيّة يملؤها القارئ من خلال استنتاجاته. هذا الحذف المتعمد هو في حدّ ذاته انتهاك لقاعدة الكم، ما يولد استلزمات حوارية متعددة. القارئ لا يتلقى معلومات جاهزة، بل يُحفز لإعمال فكره لفك شيفرة النصّ.

ما هي أنواع المعلومات التي تفضل الكاتبة تركها ضمنيّة؟

- غالباً ما يترك الكاتب ضمنيّاً: الدوافع الحقيقية للشخصيات، الخلفيات التاريخيّة أو الاجتماعيّة للحدث، المشاعر العميقة غير المصرّح بها، والنقد اللاذع للمجتمع أو الظواهر الإنسانيّة. هذا يمنح القصة عمقاً ويتيح تفسيرات متعدّدة.

- في قصة «زهو»: «خرج من القاعة رافعاً رأسه مزهواً، يحمل الرواية بأطراف أصابعه تبللت من العرق، تكاد تقع.»

- الاستلزام الحواريّ: انتهاك قاعدة الكيف (لا يقول الحقيقة كاملة حول مشاعره). القارئ هنا يستلزم أنّ الزهو الخارجي لهذا الشاب ليس نابعاً من ثقة حقيقيّة بالنفس، بل يختلط بقلق أو توتر شديد (التعرق والخوف من سقوط الرواية). هذا يفتح الباب لاستلزام أنّ النّجاح الخارجي قد يكون مصحوباً بضغوط داخلية أو شعور بعدم الاستحقاق.

- في قصة «نجاح»: «طلب منه اختصار مداخلته، لإنهاء الجلسات والتوجّه للاحتفاء بغداء جماعيّ بنجاح المؤتمر.»

\* الاستلزام الحواريّ: انتهاك قاعدة العلاقة (التركيز على الغداء بدلاً من المحتوى العلمي).

\* الاستلزامات: يُستلزم أن «نجاح المؤتمر» لم يكن مرتبطاً بعمق الأوراق البحثية أو تبادل المعرفة، بل بإتمامه الشكليّ، وأنّ المظاهر الاجتماعية والاحتفالات طغت على الجوهر العلمي. يولّد هذا استلزاماً ساخراً ونقداً ضمنياً لسطحية بعض الفعاليات الأكاديمية.

- في قصّة «أدوار»: «بائع الشاي يحسد العابر، والعابر يغبط بائع الشاي على ابتسامته المشرقة.»

\* الاستلزام الحواريّ: انتهاك لقاعدة الكم (لا يشرح لماذا يحسد هذا أو يغبط ذاك).

\* الاستلزامات: يُستلزم أن السعادة والرّضا لا يرتبطان بالضرورة بالمظاهر الخارجية للنّروّة أو المكانة. الكاتبة تترك للقارئ استنتاج أن كلّ طرف يرى ما ينقصه في حياة الآخر، وأنّ الأدوار الاجتماعية قد تكون قشوراً تخفي مشاعر داخلية معقّدة من عدم الرّضا أو البحث عن السّكينة.

- في قصّة «وجهان»: «كان يرفع على الأكتاف في المظاهرات، يصدع صوته بحقوق المواطنين. حصل على إجازته الجامعية بمهارته في الغش. حصل له مستقبل باهر.»

\* الاستلزام الحواريّ: انتهاك لقاعدة الكيف (لا يقول الحقيقة كاملة حول مصدر نجاحه)، وتناقض صريح.

\* الاستلزامات: الكاتبة تدفع القارئ لاستنتاج أن «المناضل» هو في الحقيقة انتهازي، وأنّ شعاراته مجرد قناع. «مستقبل باهر» يُستلزم أنّه تحقق بطرق غير مشروعة، ممّا يولّد نقداً لاذعاً للازدواجية الأخلاقية في المجتمع الذي قد يكافئ الفاسدين.

خلاصة: إنّ إيجاز القصّة القصيرة جدّاً يدفع الكاتبة في مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» إلى استخدام الاستلزام الحواريّ ركيزة أساسية لبناء المعنى. فهي لا تقدّم للقارئ الدّلالة جاهزة، بل تتركه يستنتجها من خلال الفجوات النصّية والتناقضات الظّاهرية، وتُجبر القارئ على كشف الوجوه المتعددة من خلال إشارات مكثفة تُوجّه القارئ لاكتشاف الخفايا، فهذه الأدوات تُبرز الشّراكة المعرفية بين الكاتب والقارئ في بناء الصّورة الكاملة، ما يعمق تجربة القراءة ويجعلها أكثر تفاعلية.

## 2. دور المقام والافتراض المسبق

يؤدي المقام (Context) بأبعاده المختلفة اللغوي، الموقفي، والمعرفي دورًا محوريًا في القصة القصيرة جدًا، فهو البيئة التي تُولد فيها الدلالة وتُستنتج. نظرًا لإيجاز هذه النصوص، لا تُقدم الكاتبة تفاصيل كثيرة عن الزمان أو المكان أو الخلفيات، بل تعتمد على إشارات مكثفة، وعلى ما يفترضه من معرفة مشتركة مع القارئ (الافتراض المسبق)، لتوجيهه نحو المعاني المطلوبة.

### - دور المقام (الزمان والمكان والظروف)

المقام الموقفي في بناء الثيمة:

- في قصة «زهو»: «انتظر دوره وسط الزحام وقطرات العرق على جبهته ليحصل على نسخة من الرواية ذائعة الصيت... خرج من القاعة رافعًا رأسه مزهواً». المقام هنا هو «قاعة» توزيع (أو بيع) «رواية ذائعة الصيت» وسط «زحام». هذا المقام يوحي بحدث ثقافي مهم، ويسعي حثيث خلف الشهرة أو التّجّاح. إنّ حرارة المكان و«العرق» يشدّدان على قيمة هذا السعي، بينما «رفع الرأس» بعد الخروج يؤكّد تحقيق الهدف الظّاهري في هذا المقام. هذا المقام يبني ثيمة التباهي بالانتماء لتيار ثقافي سائد.

- في قصة «حياة»: «أكياس طحين مكدّسة في زاوية... ثلاثة أكياس كبار هاربة تسارعت في الطريق». المقام المكاني (الزاوية، الطريق) هو مكان هامشي ثمّ مكان للحركة المجهولة المصير. «الزاوية» توحى بالإهمال، بينما «الطريق» يشير إلى مسار لا مفر منه. هذه الأمكنة، مع فعل «نزفت طحينها»، تضع القصة في مقام تراجيديّ وجوديّ يدور حول التّضحية والحنمية.

- في قصة «نجاح»: «مؤتمر مهم يتناول قضية نقدية... وصل متأخرًا عن موعد جلسته... لإنهاء الجلسات والتّوجه للاحتفاء بغداء جماعي بنجاح المؤتمر». المقام هو «المؤتمر» الذي يُفترض أنّ يكون جادًا وذا قيمة علمية. لكن الإشارة إلى «اختصار المداخلة» لأجل «الغداء الجماعي» يحوّل هذا المقام من مكان للمعرفة إلى مكان للمظاهر الاجتماعية، ما يؤثّر على فهمنا لـ «نجاح» المؤتمر نفسه، ويعمق السّخرية.

- في قصة «احتراف»: «قاعات الامتحان». هذا المقام يفرض قواعد صارمة تتعلق بالنزاهة والتقييم. الكشف عن أنّ الغش يحدث في هذا المقام بالذات، ويُمارس بـ «احتراف»، يزيد من حدة المفارقة الأخلاقية ويجعل النقد أكثر مرارة.

- في قصة «عاجي»: «أعلى المنبر... القاعة فارغة». المقام هو مكان الخطاب العام والقيادة والتأثير. التناقض بين «أعلى المنبر» (المكان الذي يرمز للسلطة والتأثير) و«القاعة الفارغة» (المكان الذي يرمز للعزلة والوهم) يُسهم في بناء المعنى الجوهري للقصة حول الغرور والانفصال عن الواقع.

\* الافتراض المسبق في ضغط المعنى:

تعتمد الكاتبة بشكل كبير على افتراض معرفة القارئ بخلفيات ثقافية، اجتماعية، أو حتى نفسية معينة، لتقديم قصصها بإيجاز.

- في قصة «زهو»: «رواية ذائعة الصيت». تفترض الكاتبة أنّ القارئ يدرك معنى «ذائعة الصيت» وما تثيره من ضجة أو رغبة في الامتلاك، وأنّ امتلاكها يمثل نوعاً من «الزهو» الاجتماعي المرتبط بالموجة الرائجة، حتى لو كان ذلك على حساب الجودة الشخصية أو الراحة.

- في قصة «حياة»: «أكياس طحين مكّسة». يفترض القارئ أنّ الطحين هو أساس الحياة والقوت. وعندما «تنزف» الأكياس، يُستفاد من هذا الافتراض المسبق لفهم معنى الفناء.

- في قصة «نجاح»: «مؤتمر مهم يتناول قضية نقدية». تفترض الكاتبة أنّ القارئ يدرك القيمة المفترضة للمؤتمرات النقدية، وأهمية الأوراق البحثية، وأنّ «الغداء الجماعي» عادة ما يكون ثانوياً بالنسبة إلى الجانب العلمي. هذا الافتراض المسبق يُسهم في تعزيز المفارقة والسخرية من تحول الأولويات.

- في قصة «أدوار»: «بائع الشاي يحسد العابر، والعابر يغبط بائع الشاي على ابتسامته المشرقة». تفترض الكاتبة أنّ القارئ يدرك الفروقات الطبقيّة والاجتماعيّة التي تجعل «العابر بسيارته الفاخرة» يبدو وكأنّه الأوفر حظاً، وأنّ «بائع الشاي» هو الأقل مكانة. هذا الافتراض يُستخدم ليُفاجئ القارئ بتناقض المشاعر، فيثبت أنّ

الظاهر ليس دائماً هو الحقيقة، وأنَّ السَّعادة قد لا ترتبط بالتَّراء.

- في قصَّة «وجهان»: «يرفع على الأكتاف في المظاهرات، يصدع صوته بحقوق المواطنين. حصل على إجازته الجامعيَّة بمهارته في الغش.» تفترض الكاتبة أنَّ القارئ يمتلك افتراضات مسبقة عن «المظاهرات» كفعل نضالي من أجل مبادئ نبيلة، وعن «الجامعة» كمكان للنزاهة العلميَّة. هذا التناقض بين الافتراضات المسبقة عن هذه الأماكن والأفعال، وبين السلوك الفعليِّ للشَّخصيَّة (الغش)، هو ما يُحدث الصَّدمة ويكشف «الوجهين».

- في قصَّة «اختلاف»: «تخفيف المعطى المطلوب... أنموذج لائق بالمستوى، حفاظاً منه على الغد، ومحبة للوطن. امتلأت القاعة الأولى بالطَّلاب.» يفترض الكاتب أنَّ القارئ يدرك أهمية الجودة التَّعليميَّة، وأنَّ التَّسهيل المبالغ فيه قد يؤثر سلباً في «الغد» و«الوطن». القارئ يستند إلى هذا الافتراض المسبق ليفهم مرارة امتلاء القاعة التي تبنت التَّهيج الأسهل، وأنَّ هذا الامتلاء قد لا يكون بالضرورة دليلاً على الأفضلية الجوهرية.

### خلاصة

تستخدم الكاتبة في «وجهان ووجوه أخرى» المقام والافتراض المسبق ببراعة لضغط المعنى. فهي توفر إشارات سياقيَّة محدودة لكنَّها قويَّة، وتفترض معرفة مشتركة لدى القارئ، ما يسمح لها بتمرير دلالات عميقة ومعقَّدة حول المفارقات الإنسانيَّة والاجتماعيَّة في مساحة نصيَّة ضيقة. هذه المفاهيم التَّداوليَّة تحول القارئ من متلقي سلبيٍّ إلى مشارك فعَّال في فكِّ شفرة النصِّ، وإدراك «الوجوه» المتعدِّدة للواقع.

### 4. الجوانب التَّداوليَّة الأخرى

إلى جانب الأفعال الكلاميَّة، والاستلزام الحواريِّ، ودور المقام والافتراض المسبق، تُوظَّف مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» آليات تداوليَّة أخرى تُسهم في تعميق الدَّلالة وإثراء تجربة التَّلقي، أبرزها السَّخرية والمفارقة، والرَّمزيَّة المكثَّفة.

## أ- السّخريّة والمفارقة (Irony and Sarcasm):

تُعدّ السّخريّة أداة تداوليّة قويّة تُستخدم لقول عكس ما يُقصد حرفيّاً، أو للكشف عن تناقضات مؤلمة أو مضحكة في الواقع. يعتمد الكاتب على السّخريّة والمفارقة للكشف عن الزّيف، والنّفاق، والسّطحيّة، أو عبثيّة بعض المواقف الإنسانيّة والاجتماعيّة. تُولد السّخريّة هنا من انتهاك مقصود لقاعدة الكيف (قول ما هو غير حقيقي أو مضلل ظاهريّاً)، ما يدفع القارئ إلى استنتاج المعنى الحقيقي (السّاخر).

- في قصّة «نجاح»: «طلب منه اختصار مداخلته، لإنهاء الجلسات والتوجّه للاحتفاء بغداء جماعيّ بنجاح المؤتمر.» تكمن السّخريّة هنا في ربط «نجاح المؤتمر» بإنتامه الشكلي وتناول الغداء، وليس بعمق المحتوى أو الأوراق البحثيّة. فتبرز السّخريّة من المظاهر التي تغطي على الجوهر في الفعاليّات الأكاديميّة أو المهنيّة، ويوحى بأنّ الهدف الحقيقي أصبح اجتماعيّاً لا علميّاً.

- في قصّة «وجهان»: «كان يرفع على الأكتاف في المظاهرات، يصدع صوته بحقوق المواطنين. حصل على إجازته الجامعيّة بمهارته في الغش. حصل له مستقبل باهر.» السّخريّة هنا لازدواجيّة ومريّة. فالبطل الذي يرفع شعارات النضال من أجل «حقوق المواطنين» هو نفسه من يحصل على «مستقبل باهر» ب «مهارته في الغش». الكاتبة تسخر من النّفاق الاجتماعيّ والسّياسيّ، وتوحى بأنّ النّجاح في هذا الواقع قد يُبنى على الفساد والازدواجيّة الأخلاقيّة.

- في قصّة «احتراف»: «جلس الآخر في المقعد الأمامي، تعلو وجهه علامات النّقة، أتقن نقل الإجابات. خرج مزهواً بنجاحه.» السّخريّة هنا تكمن في وصف «الغش» ب «الاحتراف» وربطه ب«النّقة» و«النّجاح». الكاتبة تسخر من نظام يكافئ الغشاش المتقن، ويوحى بأنّ المهارة قد تُستخدم في أغراض غير أخلاقيّة وتُحقق النّجاح الظّاهريّ على حساب النّزاهة.

- في قصّة «أدوار»: «بائع الشّاي يحسد العابر، والعابر يغبط بائع الشّاي على ابتسامته المشرقة.» المفارقة السّاخرة هنا تكشف أنّ كلّ طرف يرى النّقص في حياته ويكملها بما يظنه موجوداً عند الآخر، ما يسخر من فكرة أنّ الثّراء يجلب السّعادة



بالضرورة، ويوحى بأن الرضا قد يكون أندر من الماديات.

## ب- الرّمزية والإيحاء (Symbolism and Suggestion):

تُعَدّ الرّمزية أداة تداولية حيوية في القصة القصيرة جدًّا، إذ تُستخدم الكلمات أو الأشياء أو الأفعال للدلالة على معانٍ أعمق وأوسع من معناها الحرفي. تعتمد الكاتبة على الرموز لتكثيف الدلالة، وإثارة التأمل، وترك مساحة واسعة لتأويل القارئ. غالبًا ما تعمل الرّمزية جنبًا إلى جنب مع الاستلزام الحواري والافتراض المسبق، إذ يُفترض أن القارئ يمتلك المعرفة الثقافية أو الإنسانية اللازمة لفك رموز هذه الإشارات.

- في قصة «عاجي»: «خلق ببرجه العاجي يسمع تصفيح الجماهير تغلغل. عاد إلى واقعه. رأى القاعة فارغة.» «البرج العاجي» يرمز إلى العزلة، الانفصال عن الواقع، والغرور الذي يدفع الشخص للعيش في عالم من الأوهام الذاتية. رؤية «القاعة الفارغة» ترمز إلى صدمة العودة إلى الواقع وكشف زيف هذه الأوهام.

- في قصة «التجاة»: «خلع نعله البالي، رمى أدوات عمله التي عفا عليها الزمن. وظلّ يحلم...» «النعال البالية» و«أدوات العمل التي عفا عليها الزمن» ترمز إلى أعباء الماضي، الروتين المنهك، والقيود المادية. التخلّص منها يرمز إلى التحرر الروحي والنفسي، و«الحلم» يرمز إلى الملاذ الأخير والخلاص من واقع قاسٍ.

- في قصة «دموع»: «آبت ضاحكة وفي عينيها دموع التماسيح»، «دموع التماسيح» هي رمز شائع للخداع، الدموع الزائفة، والتلاعب العاطفي. استخدام هذا الرمز يكشف بوضوح عن حقيقة نوايا الشخصية المخادعة، ويوحى بأن المظهر العاطفي قد يكون قناعًا يخفي سرًا.

## الخاتمة

لقد سعت هذه الدراسة إلى الكشف عن آليات توظيف الكاتبة «درية فرحات» للظواهر التداولية في بناء المعنى المكثف ضمن مجموعتها القصصية «وجهان ووجوه أخرى» وبيان الأثر الذي تحدثه هذه الظواهر في تفاعل القارئ وتلقيه للدلالات الضمنية المتعلقة بثيمات ازدواجية وتعدد المظاهر.

لقد كشف التحليل التطبيقي أنّ الكاتبة تستثمر ببراعة الأفعال الكلامية، سواء الصريحة منها أو الضمنية (بخاصة الإخبارية والتعبيرية) لتقديم مشهد مكثف ينطوي على دلالات نفسية واجتماعية عميقة تفوق المعنى الحرفي. كما تبين أنّ الاستلزام الحوارية يُعدّ ركيزة أساسية في بناء المعنى الضمني، إذ تدفع الكاتبة القارئ إلى المشاركة الفاعلة في سدّ الفجوات النصية واستنتاج ما لم يُصرّح به، وذلك عبر انتهاك مقصود لمبادئ التعاون، ما يُعمّق تجربة القراءة ويجعلها أكثر تفاعلية.

على نحو متوازٍ، أظهرت الدراسة الدور الحيوي الذي يؤديه المقام بأبعاده المختلفة (اللغوي، الموقف، المعرفي) في تكثيف الدلالة وتوجيه التلقي، فإشارات المقام الموجزة والافتراضات المسبقة التي تعتمد عليها الكاتبة على معرفة القارئ تُمكنها من تمرير رسائل معقدة في مساحة نصية ضيقة. كما عززت السخرية والمفارقة من حدة النقد اللاذع للظواهر الاجتماعية السلبية كالازدواجية والتناق. بينما أسهم الإيحاء والرمزية في إثراء النصوص بدلالات أعمق تتجاوز الواقع المباشر.

تُظهر هذه الدراسة أنّ إيجاز القصة القصيرة جداً في مجموعة «وجهان ووجوه أخرى» ليس مجرد سمة شكلية، بل هو محفّز لتوظيف آليات تداولية مكثفة تُحوّل القارئ من متلقٍ سلبي إلى شريك فعال في عملية بناء الدلالة. فالنصوص لا تقدّم «الوجوه» جاهزة، بل تُدفع القارئ إلى فكّ شيفرتها واستنتاج حقيقتها الخفية، مما يُعطي من قيمة التفاعل التواصلي ويبرز قدرة هذا الجنس الأدبي على إحداث تأثير عميق بكلمات قليلة.

ختاماً، تقدّم هذه الدراسة إضاءة على الأبعاد التداولية الغنية في نصوص الكاتبة درية فرحات، وتُسهّم في إثراء فهمنا لكيفية عمل الخطاب الأدبي المكثف في القصة القصيرة جداً. واقترح آفاقاً بحثية مستقبلية، ومنها دراسة الجوانب التداولية في أعمال أخرى للكاتبة، أو إجراء دراسات مقارنة بين نصوصها ونصوص أخرى من جنس القصة القصيرة جداً لكشف تنوّع الأساليب التداولية في هذا الفن الأدبي.

## المصادر والمراجع

1. -براون، ج. ب، و يول، جورج (1997). تحليل الخطاب. (م. ل. الزليطي و م. التريكي، مترجمون). جامعة الملك سعود (نُشر العمل الأصلي 1983).
2. -بلانشيه، ف. (2007). التداولية من أوستين إلى غوفمان. (ترجمة ص. الحباشة). دار الحوار للنشر والتوزيع.
3. - الزبيدي، أ. (2010). القصة القصيرة جداً: طبيعتها وخصائصها. مجلة الآداب، (25(3)، 112-130.
4. - سعيد، ج. (2005). مفاهيم في علم اللغة التطبيقي. دار الكتب العلمية.
5. -الشهري، ع. هـ. ب. ظ. (2004). استراتيجيات الخطاب.. دار الكتاب الجديد المتحدة.
6. -صحراوي، م. (2005). التداولية عند العلماء العرب. دار الطليعة للطباعة والنشر.
7. -علوي، ح.إ. (2014). التداولية علم استعمال اللغة. عالم الكتب الحديث.
8. - العلي، م.، والناصر، س. (2020). نظرية التداولية وتطبيقاتها. دار الشروق.
9. - فرحات، درية. (2025). وجهان ووجوه أخرى. دار النهضة العربية.
01. -نحلة، م. أ. (2002). آفاق في البحث اللغوي المعاصر. دار المعرفة الجامعية.
11. -يول، ج. (2010). التداولية. (ق. العتّابي، مترجم) الدار العربية للعلوم ناشرون دار الأمان.
- 12-Austin, J. L. (1962). How to do things with words. Harvard University Press.-
- 13- Brown, P., & Levinson, S. C. (1987). Politeness: Some universals in language usage. Cambridge University Press, 7(2), 295-326
- 14- Searle, J. R., & Vanderveken, D. (1985). Foundations of illocutionary logic. Cambridge: Cambridge University Press
- 15- Grice, H. P. (1975). Logic and conversation. In P. Cole & J. L. Morgan (Eds.), Syntax and semantics, Vol. 3: Speech acts (pp. 41-58). Academic Press.

## قراءة في غلاف «يوميات أمي» لجوزف لبس<sup>1</sup>

A Reading into the Cover of “My Mother’s Diaries” by Joseph Lebbos

مريم محمود سرور<sup>2</sup>

Mariam Mahmoud Srour

تاريخ القبول 2025 /6/29

تاريخ الاستلام 2025 /5/30

### الملخص

هذا البحث قراءة في غلاف كتاب «يوميات أمي» لجوزف لبس، توقفت عند مكونات الغلاف من صورة وألوان وعناصر بصرية، بوصفها عتبة تأويلية تسبق النص وتؤسس لتلقي محتواه. وتحاول القراءة أن تكشف عمق العلاقة بين الشكل والمضمون، من خلال تحليل الرموز اللونية ودلالات الصورة، وربطها بسيرة الأم جاكين - صاحبة صورة الغلاف - التي تشكل محور الكتاب. كما يضيء البحث على كيفية تحويل الغلاف إلى مساحة بصرية تعبّر عن الحضور العاطفي والفني للأُم، وتجعل من الغياب مادة للذاكرة والاحتفال.

الكلمات المفتاحية: يوميات - غلاف - تأويل - الرموز - مساحة بصرية

### Abstract

This study is a reading of the cover of My Mother’s Diaries by Joseph Lebbos, focusing on its visual elements image, colors, and design as an interpretive threshold that precedes the text and shapes the reader’s reception of its content. The reading aims to uncover the deep connection between form and meaning by analyzing color symbolism and the visual implications of the image, linking them to the life of Jacqueline—the woman depicted on the cover—who stands at the heart of the book as both its subject and inspiration. Furthermore, the study sheds light on how the

1- جوزف طانيوس لبس: كاتب وباحث وأستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية وجامعة القديس يوسف. حائز على دكتوراه في اللغة العربية وآدابها من الجامعة اللبنانية. له مؤلفات في الجمالية، وأدب الرحلة، وأدب السيرة، وتاريخ الأدب.

2- مريم محمود سرور: أستاذة لغة عربية، حائزة على ماستر في اللغة العربية وآدابها من الجامعة اللبنانية.

cover transforms into a visual space that expresses the emotional and artistic presence of the mother, turning absence into a medium for memory and celebration.

**Keywords:** diary – cover – interpretation – symbols – visual space

### المقدمة – الكلمة حين تقاوم الغياب

في قلب الكتابة، كثيرًا ما تتجاوز الحياة والموت، الذكرى والفقد. وبين دفّتي كتاب «يوميات أمّي» للدكتور جوزف طانيوس لبّس، الصادر عن الدار العربيّة للعلوم – بيروت في الأوّل من آب في العام 2024 أي في الذكرى الأولى لرحيل أمّ الكاتب، تلتقي هذه الأضداد في نسيجٍ ناعم، محكم، تتسجّه يدٌ تسعى بالكتابة إلى تثبيت ملامح الغائبة، واستحضار حضورها في كلّ ما خطّته يده: في العبارة، في اللون، وفي التفاصيل الصغيرة. حيث تغدو جاكين ماري أنطون الأشقر لبّس، في هذا العمل، أكثر من أمّ، وأكثر من امرأة ارتبطت بعائلتها وفنّها. هي رمزٌ يتجاوز الخصوصية الفردية ليصبح نموذجًا للأمومة الخلّاقة، وللحبّ الصامت، وللنور الذي لا يخبو حتى بعد الغياب. تظهر الأمّ لا بوصفها موضوعًا للحنين، بل بوصفها مركزًا للمعنى، ينبثق منه النصّ ويتكوّن، وتتحرّك من خلاله لغة الابن، لا بوصفها لغة عاطفيّة فحسب، بل كفعل مقاوم للنسيان، وكتابة في وجه العدم. وفي هذا الإطار، لا تقف اليوميات عند حدّ التسجيل الزمنيّ، بل تتجاوزه إلى منطقة تأملية عميقة، حيث تُصبح لحظات المرض والرحيل، محفّزًا على التأمل في معنى الوجود، والعلاقة التي لا تتفصم بين الصّورة والكلمة، بين ما نرثه وما نكتبه. فالكتابة هنا ليست فعلًا توثيقيًا بقدر ما هي إعادة خلقٍ لشخصٍ تحوّل من جسدٍ حيّ إلى طيفٍ خالد، يسكن الذاكرة واللغة واللون، بل ويهيمن على الغلاف كما يهيمن على الروح. ويضاف إلى قوّة هذه اليوميات بُعدٌ بصريّ لافت، خطّ بريشة الراحلة، حيث يتشابك الأصفر الذهبيّ – لون الشمس والدفء – مع الأبيض – رمز الصفاء والغياب النقيّ – ليكونا معًا مشهدًا لا يُقرأ بالعين فقط، بل يُستبطن بالقلب. إنّ اللون في هذا العمل لا يزيّن، بل يعبّر؛ لا يجمّل، بل يكشف، فيستحيل الغلاف لغة بحدّ ذاته، ويصبح اللون نصًّا موازيًا للكتابة.

## أولاً: في اليوميات - الكتابة في مهبط الرحيل

من عنوان الكتاب نبداً «يوميات أمي»، فالعنوان أحد المفاتيح الرئيسة لاكتشاف النص وتفسير محمولاته الفنية والدلالية (المناصرة، 2015، ص 10). يرى الباحث الفرنسي فيليب لوجون (Philippe Lejeune) أن اليوميات «حكاية سرديّة بالضرورة، لكنّها ليست حكايات، بل تتمثّل في تعاقب آثارٍ محدّدة زمنياً، قد تكون أفكاراً أو أوصافاً» (علي، 2020، فقرة 2). والكتاب غير متعلّق بيوميات الكاتب - كما يشير العنوان - إنّما بيوميات أمّه التي غادرت هذه الحياة في الأول من آب 2023، فيكون تاريخ نشر الغلاف على هذه الصفحة هو تاريخ الذكرى السنويّة الأولى.

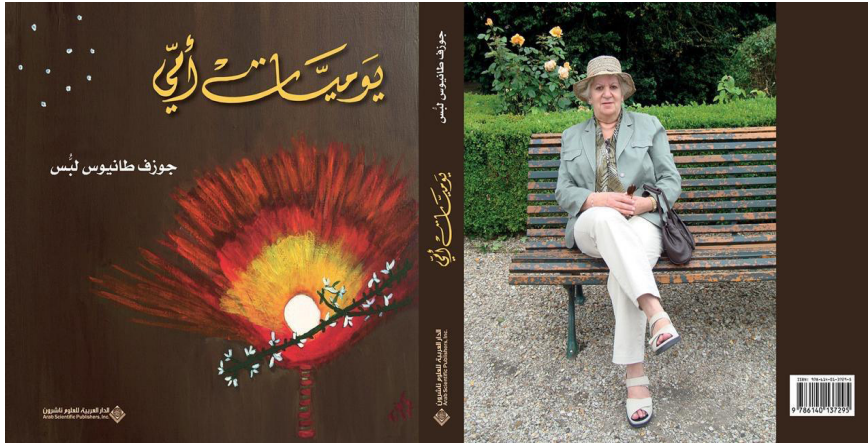
اشتهرت في العصر الحديث يوميات عدد من الكتاب والفنانين، مثل «يوميات تولستوي»، و«يوميات كافكا». وعلى الصّعيد العربيّ، «يوميات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم، و«يوميات غسان كنفاني» التي لم تُنشر في حياته (1936-1972). كتب القديس أوغسطينوس كتاب الاعترافات، وهو أول سيرة ذاتيّة غربيّة (400 م). وأول من شرع في كتابة اليوميات هو المؤرّخ الإنكليزيّ وليام دو جديل (William Dugdale) (1605-1686) الذي كتب في يومياته خمساً وأربعين سنة من حياته، لكنّها لم تُنشر إلّا بعد وفاته (البغدادى، 2016، ص 206).

تشبه اليوميات فنّ السيرة الذاتية من جهة، إذ تتعلّق بحياة كاتبها، وتختلف عنها في أوجهٍ أخرى. تمتاز اليوميات بعدم تتبّع نمطٍ فنيّ معيّن، ولا يفسح الكاتب في المجال لعمل الخيال، فاليوميات مسوّدة تفنّقر إلى البناء المنطقيّ، وشذرات مجرّاة كمراحل الحياة (لبس، 2009، ص 60-59). إنّها آثار كاتبٍ يبدو وكأنّه يحيا بيومياته، ومثله مثل فنّان متفرّع يتمرّن يومياً كي يرتقي بفنّه أبداً... ولعلّ أكثر ما يزيل الالتباس بين اليوميات والسيرة الذاتية أنّ كتاب اليوميات يدوّنون الأيام ولا يسردون الحياة، وهم عوضاً عن أن يتحدثوا إلى النّاس عن نفوسهم، يناجون نفوسهم في كثيرٍ من الرّفق والهدوء واليسر، مناجاةً عذبةً لكنّها عميقة دقيقة ساكنة، وحيّة خصبة (ص 61).

بدأ المؤلّف بكتابة اليوميات في الأول من أيلول، أي الشهر التّالي على وفاة أمّه 1 أيلول 2023). وحين نقرأ هذه اليوميات، لا سيّما فترة مرض الأمّ، والتّقلّب بين البيت

والمستشفى، نشعر بتشابه الأمّهات وآلامهنّ ومعاناة العائلة، فكلّ ما في أمّه في أمّهاتنا، وكلّ ما في أمّهاتنا في جاكين، أمّه، وهذا ما عبّر عنه الكاتب نفسه في مقدّمة كتابه: «في أمّي شيء من كلّ الأمّهات، وفي الأمّهات شيء من أمّي» (2024، ص 7). عبارة تختصر حكاية إنسانيّة كبرى، تنقلنا من الخاصّ إلى العامّ، من حكاية أمّ واحدة إلى حكاية كلّ من تألم، وانتظر النبا نفسه، وصلى الصلاة ذاتها بصوتٍ خافتٍ مرتجف. النصّ لا يُقرأ، بل يُحسّ... كأنّه يضعنا في قلب لحظةٍ يعرفها كلّ من حمل الحبّ والخوف والدعاء في آنٍ واحد. ويرى المؤلّف أنّه لا يهدف في كتابه هذا إلى التّحليل أو السّرد، وإلاّ لانتظر وقتاً أطول يتيح مجال التّفكير والتّخمين والبناء، بيد أنّه عاجزٌ في الوقت الرّاهن إلاّ عن الكتابة الشّذريّة، من غير انتظام أو ترتيبٍ أو تأويل (ص 11).

ثانياً: في صورة الغلاف - رمزيّة الغلاف وديناميّة التّلقّي



حينما نتلقّى الصّورة، فإنّ عدّة عمليّات سريعة تجري في ذهننا، قبل أن نتعرّف ما في الكتاب من موضوعات. في لحظة التّلقّي البصريّ الأولى، تبدأ القراءة من دون أن تُفتح الصفحات، وتتسارع في الذّهن عمليّات دقيقة، لا نعيها تماماً، لكنّها ترسم انطباعاتاً أوّلياً يسبق المعنى المكتوب؛ فالصّورة تستدعي ما اختزناه من صورٍ ذهنيّةٍ لا تنتمي إلى مربّع خاصّ من حيث الزمان والمكان، بل تنبع من حصيلة ما قمنا بتجريدته وتكوينه عبر ثقافتنا البصريّة وتجاربنا وذاكرتنا العاطفيّة. لذلك لا نتلقّى الصّورة بعينٍ حياديّة، بل بوعيٍ ملوّن بانفعالاتنا السابقة، وإيحاءاتٍ تتجاوز الظاهر إلى المخبوء. الصّورة ليست

مجرد شكلٍ أو إطارٍ فنيّ، بل انعكاسٌ للذات المتلقية، تمنح الغلاف سلطة استباقية في تشكيل توقّعاتنا، أو حتى تحيّزاتنا، تجاه مضمون الكتاب. فالصورة لا تشرح بل تلمّح، لا تُخبر بل تُثير، وهذا ما عبّر عنه الناقد المغربي سعيد بنكراد (2012، ص 131): «إنّ الإدراك لا يتمّ دفعةً واحدة من دون وسائط، فالصورة لا تحضر في الذهن باعتبار وجودها المخصوص، بل تأتي إلى العين من خلال خطاطة يطلق عليها البنية الإدراكية»؛ وهكذا فإننا نشعر ونحن ننظر إلى الصورة، كأنّ الأنامل الماهرة التي رسمت هذه الشمس في توهجها وتوقّدها، ألهمت الأمّ الفنانة السيدة جاكليين الأشقر لبس، أو كما عبّر الدكتور محمد توفيق أبو علي في شهادة مثبتة في كتاب حدائق الألوان، وهو ألبوم ضمّ ستين من لوحاتها: «كلّما اقتربت إليها، أدركت أنّ النور فيها سجيّة وسليقة، وأنّه أقوى من ظلام التراب، وهذا النور عينه هو الذي فتح الكوى للإبداع اللونيّ، وأفسح له في المجال كي يتماهى مع صاحبه، فينقلها لوحة متجدّدة الدلالات» (الأشقر لبس، 2017، ص 31)، فنسجت هذه اللوحة بدقّة التصوير ما بين «شروق وغروب»، أو ضوء «يتشعشع ألوانًا وورود» (ص 36). الشّاع موسيقى هذه اللوحة، ومبعث الحياة فيها، فكلّ ما فيه يتنفّس بلون: الحبّ أحمر، والنقاء أبيض، والنوّقد أصفر، فما أروع العاشق حين يرى الكون متناغمًا في ألوانه، كذلك الأيام تتلونّ؛ فالיום الجميل نبدأه بالبياض وتشيع فيه تحية الصّباح، صباح الفلّ، لتشرق من رحم الألوان باقةً شمسٍ أزهرت والتفت ببرعمٍ انسلّ من خيوط الدّجى، وتفتّح وردًا وياسمين... وتصبح علامات الكون أحداثًا جديرةً بالتأمّل، بقدر ما هي تدوينات يومية، فلا تخلو اليوميات من الذات ومن الآخرين، من الأحداث والأشياء، لتصل إلى عالم الإبداع الفنّي المتمثّل في حدائق ألوانٍ تتراقص سنابلها على أنامل خُضرٍ ساحرة.

**وللكتاب غلافان:** أوّل ما يُطالعنا فيه تلك اللوحة المتوهّجة التي تشعّ ألوانًا من النّور والحبّ، إنّها لوحة «الشّروق»، اللوحة الخامسة والثلاثون من كتاب حدائق الألوان، الصّادر في العام 2017. هذه اللوحة لم تكن مجرد عمل فنيّ عابر، بل بصمة من روح الأمّ، رسمتها بيدها في العام 2012، لتجسّد من خلالها شروق الشمس، كأنّها زهرة من زهرات حدائق الحياة، تفتّحت من بين أصابعها، لتنتثر الدفء والأمل على صفحات الزمن. في هذه اللوحة، يتجلّى الشّروق لا كمشهد طبيعيّ فقط، بل كحالة وجدانية، كرمز



لبعث الحياة بعد العتمة، وكأنّها تكتب باللون ما تعجز الكلمات عن قوله.

أمّا صورة الغلاف الثانية، فهي صورة فوتوغرافية التقطت للأمّ، السيّدة جاكولين الأشقر لبس، في حديقة النحات الفرنسي الشهير أوغست رودان (Rodin) في بلدة ميدون (Meudon) الفرنسيّة، وذلك في العام 2008. تظهر الأمّ جالسة بوقارٍ هاديٍّ، متّسحة بأناقة ناعمة، ونظرةً ثابتة تشبه تأملات النحات في منحوتاته الخالدة. في ملامحها ينعكس حضور عميق، وابتنسامة بيضاء كقلب طفلة، تتقدّ بنقاءٍ وطمأنينة، وكأنّها تقول الكثير بصمتها، وتهمس بما لا يُقال. وهكذا، فإنّ شمس الغلاف الأوّل ما هي إلّا طيف هذه الأمّ، تجلّيها النورانيّ، إشراقها التي لا تغيب، وهي - في بُعديها الفنيّ والروحيّ - امتداد لصورتها الحيّة في الغلاف الثاني. الغلاف الأوّل مرآة للروح، والغلاف الثاني مرآة للجسد الحيّ الذي جسّد تلك الروح. الأوّل إشراق، والثاني حضور، الأوّل رمزٌ، والثاني حقيقة، وبينهما يتجلّى المعنى الخفيّ الذي يجمع الحضور والغياب، الضوء والظلّ، الفنّ والحنين. وهكذا، يتحوّل الغلاف الثاني إلى مفتاح سرّ الغلاف الأوّل، وإلى المعنى الذي يُبرّر الشّاع، إلى الجذر الذي أنبت الزهرة، وإلى الأمّ التي ما زالت، رغم الغياب، تُضيء الحياة بألوانها.

### ثالثاً: في الألوان - وما بينها من ضوء وحنين

تُعَدُّ الألوان من الظواهر الطبيعيّة التي اكتسبت مع الأيام دلالاتٍ ثقافيّة وفنيّة ونفسيّة واجتماعيّة، يعبر بواسطتها الفنّان عن انفعالاته وقيمه، وجعلها رموزاً متنوعة تتوّع آلامه وآماله: الحياة والموت، الأمل والخيبة، الحزن والفرح، النور والظلام (عبد الغني، 2013، ص 9-10)؛ فالألوان، في يد الفنّان، لا تكتفي بأن تكون انعكاساً للطبيعة، بل تتحوّل إلى لغة صامتة، تُفصح عن الحياة والموت، عن الأمل والخيبة، عن الحزن والفرح، عن النور والظلام. هي مفاتيح سرّيّة لقراءة الحالات الوجدانيّة التي لا تُقال، تُعبر عن كلّ ما يتجاوز قدرة الكلمات على البوح. وتختلف هذه الدلالات بحسب السياق الثقافيّ والزمنيّ، فتكتسب الألوان أدواراً ومعاني تتعدّد بتعدّد نظرات الإنسان إلى العالم.

وهكذا، فإنّ اللون في العمل الفنّي لا يُقاس بجماليّته البصريّة فقط، بل بنقله الرمزيّ ودوره في بناء الرسالة الفنّيّة. وبذلك يصبح اللونُ شاهداً على الداخل، مرآةً للمكنون، وجسراً بين الفنّان والمتلقّي، يتبادلان عبره المشاعر والإيحاءات بلغةٍ تتخطّى المنطق لتلامس الروح.

يقول المؤلف في كتاب اليوميات (ص23): «أحبّت أمي الطبيعة، فرسمتها ولوّنتها... لونها المفضّل؟ كلّ الألوان! يشهد على ذلك أزيائها ولوحاتها». وبالتّظر إلى ألوان هذه اللّوحة المشرقة، واستتطاق دلالاتها، نرى عنوان الكتاب «يوميات أمي» كُتب بلون الذهب، ذهب الشّمس الذي يمزّق الظلام، ليشعّ نورًا في السّماء الحالكة، فاليوميات هو هذا الوهج الأصفر اللّامع الذي بدّد ظلمة السّماء، كما بدّد عتمة اللّيلي، فكانت الأمّ في حياتها ومماتها الضّوء في حياة الكاتب، والأصفر هذا، هو الأكثر دفئًا، الأكثر بوحًا وتأنّجًا واتّقادًا بين الألوان، يصعب إخماده أو تخفيّه، يتجاوز الطّوق الذي يتوخّى احتواءه. ولون نواة الشمس، هو اللون الأبيض، كقلبٍ نقيّ ناصع البياض، لون الفجر والعبور، فهو كالسّكون المطلق يؤثّر في أرواحنا، هذا الصّمت ليس موتًا، إنّّه يفيض بإمكاناتٍ حيّة، ويلفّ الشّمس برعمًا أخضر، تفتّحت وروده البيض، كالياسمين العابق بألوان السّلام، ياسمين يفوح عطره في الأرجاء، يتراقص مع نور الشمس وظلالها. من نورها يكتسب لونه البهيّ، ومن دفئها يستمدّ حياته؛ فيمثّل شروق الشّمس هذه طيفُ الأمّ الذي يبعث النّور، ويكون الهداية في الأوقات المظلمة، إذ لا حياة للورود من دون الشمس، ولا معنى لحياة الأبناء من دون الأمّ. ما الشروق إذن إلّا صاحبة هذه اليوميات، إنّّه طيف الأمّ الحاضر الخالد، حتّى بعد الغياب. وبالأبيض أيضًا خطّ اسم الكاتب، وهو ابنها البكر «جوزف طانيوس لبّس»، ليكون في منزلة قلبها، واللّون نفسه في النّقاط التّسع البيضاء أعلى الغلاف، فكأنّها نجوم لامعة، عددها لأمرٍ ما تسعة. كأنّ هذه اللوحة تتّم عن روح الفنّانة، إذ رسمت حياتها العائليّة، فأطلّت علينا هذه الشمس بجمالها وبهائها، بعطائها ودورها، فالكلّ يستمدّ الحياة من وهجها، والأبناء ما هم إلّا فلذة من كبّد هذه الأمّ النّقيّة، حبّات قلبها، فقدت بعضهم في حياتها، فأحييت حضورهم في سمائها، لتكون كالملاك الحارس. وهكذا أتت هذه اللّوحة نابضة بالحياة. وهيهات للأمّ أن ينطقى حضورها في القلوب، وهيهات لهذا الإرث النابض بوهج الحياة والفنّ إلّا أن تدوم لحظاته وسكينته.

وتتداخل هنا الألوان لتشكّل أداة تبوح بالجمال، فيطغى على لوحة الشروق هذه اللون الأحمر بدرجاته، ويعدّ الأحمر بعمامة الرّمز الأساس لمبدأ الحياة بقوّته وقدرته ولمعانه، فهو لون الدّم والنّار. والأحمر بتدرّجاته ينعكس في لوحة الغلاف: فالأحمر القاتم سرّ

يمثل غموض الحياة، وهو لون الروح والقلب، والمعرفة. واللون البرتقالي، بين الذهب السماوي، والأحمر الظلامي، يرمز إلى نقطة التوازن في الروح (عبد الغني، 2013، ص129).

هذه هي جاكليين ماري أنطون الأشقر لبس (1937-2023) الأمّ الفنانة التي خرجت من إطار التاريخين، وانخرطت في زمن عابرٍ للتاريخ (لبس، 2024، ص 64)، لتكون الملهمة لتدوين هذه اليوميات، كتاب هو صفحات من حياة أمّ فنانة بقلم ابنِ فنان. الفنّ دهشة وحيرة، والفنان لا بدّ أن يكون رائعًا ونبيلًا لأنّ من يُعجب بالجمال، لن يفتقر إليه.

### الخاتمة – الأمّ أفق لا يغيب

في يوميات أمّي، لا نقرأ فقط سيرة أمّ، بل نواجه أثرًا إنسانيًا متجاوزًا، كتبه استاذنا الذي عاش التجربة بكلّ تفاصيلها: العطاء، المرض، الفقد، الذاكرة. من خلال هذه اليوميات، تتحوّل جاكليين ماري أنطون الأشقر لبس الأمّ إلى مرآة للوجود: نقرأها فنانة ترسم الحياة بصبر الأمومة، ونلمسها إنسانة تحفظ عائلتها بالحبّ، وتواجه المرض بكرامة وهدوء داخليّ يليق بالكبار. كلّ ما في النصّ يشهد على أنّ الفقد يُقاس بما يخلفه الغياب من أثرٍ، ومن كتابةٍ تحاول أن تحتفظ بالحضور في وجه النسيان. لقد كتب جوزف لبس عن أمّه لا ليودّعها، بل ليُبقيها حيّة في الحروف، وفي الذاكرة، وفي القراء. حمل قلمه كما تُحمل شمعة في العتمة، وسار في درب الكتابة لا ليوثّق الألم فحسب، بل ليُعيد تشكيل صورة الأمّ كما يراها: فاضلة، نبيلة، صلبة، فنانة وإن كان لها معرضٌ يتيم (كاليري زمان للفنون – الحمراء، كانون الأوّل 2013)، قديسة وإن لم تُعلن. ليست هذه اليوميات مجرد تسجيل لحياةٍ عبرت، بل فعلٌ مقاوم للنسيان، وعمل وفاء نادر في زمن سريع التقلّب. وهي في الآن ذاته، دعوة مفتوحة إلى كلّ قارئ أن يرى في «جاكليين» شيئًا من أمّه، ومن ذاته، ومن المعنى الذي نبحت عنه حين نفقد من نحبّ. وهكذا، تختتم هذه الصفحات لا كمرثاة، بل كاحتفال هادئ بحياةٍ عميقة، وبأمّ لا تزال تُثير الدرب – لا من فوق المنبر، بل من بين السطور، وفي قلبِ كتّابٍ لئلا تموت الأمّ مرّتين.

## المصادر والمراجع

1. الأشقر لبس، جاكليين (2017). **حدائق الألوان**. بيروت: دار أوراق الزمن.
2. البغدادي، عبد المجيد (2016). «فنّ السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي». **مجلة القسم العربي** (23)، 206.
3. بنكراد، سعيد (2012). **السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها** (ط3). اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
4. عبد الغني، خالد محمد (2015). **سيكولوجية الألوان**. عمان: مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع.
5. لبس، جوزف (2009). **الحب والموت من منظور السيرة الذاتية بين مصر ولبنان**. بيروت: دار المشرق.
6. \_\_\_\_\_ (2024). **يوميات أمي**. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
7. المناصرة، حسين (2015). **القصة القصيرة جداً: رؤى وجماليات**. إريد: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.

# تجليات الثورة في الشعر النسوي: نازك الملائكة وفدوى طوقان أنموذجين

## The Manifestations of Revolution in Feminist Poetry: Nazik Al-Malaika and Fadwa Tuqan as Models

الدكتور محمد حبص<sup>1</sup>

Mohammad Hoblos

تاريخ القبول 2025/5/30

تاريخ الاستلام 2025 / 5 / 4

### ملخص البحث

يستكشف هذا البحث تجليات الرمز الشعري في نتاج نازك الملائكة وفدوى طوقان، بوصفهما من أبرز الأصوات النسوية في الأدب العربي الحديث، حيث شكّل شعرهما مرآة عاكسة للتحوّلات الاجتماعية والسياسية التي عصفت بالعالم العربي خلال القرن العشرين. وقد تبين من خلال المنهج الوصفي التحليلي والمقارنة بين التجريتين أنّ الرمز الشعري لم يكن مجرد أداة جمالية، بل تحول إلى وسيلة تعبيرية فاعلة عن الثورة والتحرّر، وعن هموم المرأة والمجتمع على حدّ سواء.

أظهرت الدراسة أنّ نازك الملائكة وظفّت الرمز بأسلوب مباشر وتحريضي، يجسّد أصداء الثورات الاجتماعية والقومية، فيما انطلقت فدوى طوقان من ذاتها وواقعها الفلسطيني لتشييد عالم رمزي يمتزج فيه الخاصّ بالعام، ويفتح على أبعاد إنسانية ووطنية عميقة. وقد أسهم هذا التنوع في إبراز ثراء التجربة النسوية العربية، وتعدّد أشكال استجابة الشعراء للأحداث المفصلية في تاريخ الأمة.

إنّ نتائج البحث تؤكد أنّ الرمز في شعر الملائكة وطوقان يتجاوز حدود النصّ ليصبح أداة في صناعة الوعي الجمعي والوطني، ودليلاً على الدور المحوري للشعر النسوي في التعبير عن قضايا الحرية والكرامة والتمرد على الاستبداد؛ وبذلك يسهم هذا البحث في إثراء الدراسات الأدبية والنسوية معاً، ويبرز قدرة الشعر العربي الحديث على مواكبة التحوّلات الكبرى عبر أفق رمزي واسع وفاعل.

1- أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الفرع الثالث:

mouhamadhoblos1964@gmail.com

الكلمات المفتاحية: القومية – الشيوعية – فلسطين – الثورة – الرمز.

## Abstract

This research investigates the manifestations of poetic symbolism in the works of **Nazik Al-Malaika** and **Fadwa Tuqan**, two of the most prominent feminist voices in modern Arabic literature. Their poetry reflects the profound social and political transformations that swept across the Arab world during the twentieth century. Adopting a descriptive–analytical approach and a comparative perspective, the study demonstrates that poetic symbolism was not merely an aesthetic feature but a dynamic medium of expression for revolution, liberation, and the collective concerns of both women and society.

The analysis reveals that Nazik Al-Malaika employed symbolism in a direct and provocative manner, embodying the spirit of social and nationalist revolutions. In contrast, Fadwa Tuqan drew on her personal experiences and the Palestinian reality to construct a symbolic universe where the personal intertwines with the collective, opening onto profound human and national dimensions. This diversity highlights the richness of Arab feminist poetry and the multiplicity of responses to the defining events of the Arab nation's modern history.

The findings affirm that symbolism in the poetry of Al-Malaika and Tuqan transcends textual boundaries to serve as a tool for shaping collective and national consciousness. Moreover, it underscores the pivotal role of feminist poetry in articulating issues of freedom, dignity, and resistance to oppression. In doing so, this research contributes to the enrichment of both literary and feminist studies, while emphasizing the ability of modern Arabic poetry to engage with major historical transformations through a broad and dynamic symbolic horizon.

**Keywords:** Nationalism – Communism – Palestine – Revolution – Symbolism

## المقدمة

في مسيرة الأدب العربي الحديث، كان للشعر النسوي حضور بارز تأثر بالتغيرات الاجتماعية والسياسية العميقة التي شهدتها المجتمعات العربية خلال القرن العشرين؛ ولعلّ أبرز ما ميّز هذا الشعر هو تبنيّه لقضايا الثورة والتحرّر، خاصّة في إطار الصّراعات القوميّة والوطنية التي مثّلت محطات فارقة في التاريخ العربي الحديث. يتجلّى هذا بوضوح في شعر نازك الملائكة وفدوى طوقان اللّتين شكّلت تجاربهما الشعريّة منطلقاً خصباً للتعبير عن المآسي الوطنية والاجتماعية، وعكستا بوعي رمزيّ عميق تجربة المرأة والشاعر المناضل في آنٍ معاً.

تكمّن أهميّة هذا البحث في استكشاف دلالات الرّمز الشعري وديناميته في ضوء التحوّلات الاجتماعية، وكيف تجلّت هذه الديناميكية في خطاب نازك الملائكة وفدوى طوقان اللّتين قدّمتا نماذج متميّزة عن الثّورات في شعر المرأة العربية؛ ذلك أنّ دراسة البنية الرّمزية في شعرهما تتيح فهماً أعمق لمدى تأثر الشعر النسوي بالأحداث السياسية والاجتماعية، وتكشف عن اختلافات في الرّؤى والمواقف التي تتبناها كلّ من الشاعرتين في تعبيرهما عن الثورة والتحرّر.

يطرح البحث إشكالية رئيسة: كيف تجلّى الرّمز الشعريّ في شعر نازك الملائكة وفدوى طوقان كأداة تعبير عن الثّورات الاجتماعية والسياسية؟ وكيف انعكست هذه التّجليات في الاختلاف البنيوي والدلاليّ بينهما، لا سيّما في سياق الثّورات الشيوعية والقومية والفلسطينية؟

ولنتناول هذه الإشكالية، يتبع البحث المنهج الوصفيّ التحليلي، وذلك لدراسة الرّمز الشعريّ في شعر نازك الملائكة وفدوى طوقان من خلال تحليل النّصوص الشعريّة ودراسة بنياتها اللّغوية والدلالية، مع التّركيز على السّياق الاجتماعيّ والسياسيّ الذي أفرز هذه النّصوص. كما يعتمد البحث على منهج المقارنة بين نتاج الشاعرتين لتسليط الضّوء على الفروقات والنّقاط في معالجة موضوع الثورة ورمزيّتها في شعرهما.

## المبحث الأول: ديناميّة الرّمز الشعريّ في ضوء التحوّلات الاجتماعيّة للشعر العربيّ الحديث

إنّ المجتمع العربيّ في الجاهليّة، وفي عصور الخلافة الإسلاميّة المتنوّعة، وصولاً إلى زماننا الحاضر، مليءٌ بمشاهد الحروب بين العرب، وهي حروبٌ قبليّة، وحزبيّة سياسيّة ومذهبيّة، وبين العرب والعدوّ الأجنبيّ الذي كان يغزو بلادهم لأهداف استعماريّة وطمعاً بثرواتهم، وقد سجّل الشعر العربيّ هذه الحروب في كلّ مراحلها، فهو يعدّ «ضرباً من السحر»<sup>1</sup>؛ فلا نكاد نجد حقبة من تاريخ العرب لم يواكب الشعر أحداثها، ويصوّر بعضاً من مشاهد حروبها، ومن البداهة إذن أن يحفل الشعر العربيّ في كلّ العصور بمشاهد الدّم والقتال في المعركة، وهذه البداهة المفترضة نجدها حقيقة ماثلة في الشعر الجاهليّ المصبوغ بصبغة الفروسيّة والحرب والطعن والنّار والدّم.

ومع تعاقب العصور، تغيّر الأسلوب الشعريّ في تصوير هذه المشاهد، تبعاً لاختلاف البيئة التّاريخية والاجتماعيّة والفكريّة، حتّى جاء العصر الحديث الذي ينتمي إليه موضوع بحثنا، فحمل معه روح الحداثة وأساليبها في التّعبير. وقد استطاع الشعراء المحدثون أن ينقلوا وقائع الحروب والثّورات بأسلوب فنيّ مبتكر ينسجم مع روح الحداثة، يجمع بين التّصوير الخارجيّ للمعركة، وما يعتمل في أعماق الشّاعر من مشاعر الأسى والألم تجاه المآسي الإنسانيّة التي ترافقها...

ولم يكن هذا التطوّر في التّعبير ليتحقّق لولا لجوء الشعراء إلى لغة الرّمز، بوصفها أداة إيحائيّة قادرة على احتواء المعنى العميق وتجسيده في صورة شعريّة مكثّفة، إذ يشكّل الرّمز في التّجربة الشعريّة المعاصرة أداةً فنيّة يتجاوز بها الشّاعر حدود المعنى المباشر إلى فضاءات أرحب من التّأويل، مستعيناً بالسياق الاجتماعيّ والسياسيّ والثّقافيّ لتكثيف دلالاته، وليربطه في الوقت نفسه بقضايا العصر وهموم الإنسان.

فالرّموز الثّوريّة في الشعر الحديث لم تنشأ من فراغ، بل تكاد دلالتها تكون عالميّة منتشرة بين الشّعوب كافّة، فقد وظّف الشعراء العرب هذه الرّمزيّة في شعرهم للدّلالة على رمزيّة الجهاد والكفاح، ورمزيّة الدّم الذي يسيل مسفوكاً في سبيل الأرض والوطن والكرامة.

1- رد، هريرت (Herbert Red): الفنّ والمجتمع؛ ترجمة فارس متريّ ضاهر، ص 19.



ولم يكن أهل الحداثة المبتكرين الأوائل للرّمزية الثّوريّة، إذ ثمة من سبقهم إلى هذه الرّمزية الثّورية من شعراء النّهضة، حيث اندلعت الثّورات في تلك الحقبة ضدّ الغزاة الأوروبيّين، الإنكليز والفرنسيّين، فثار العرب على الاحتلال الذي اغتصب الأرض والسّلطة العربيّتين مقتنعا بقناع الانتداب والرّعاية هادفاً إلى تمزيق جسد العروبة وجعلها أقطاراً ضعيفة متناحرة غير متضافرة، وقد وصل الاحتلال إلى هدفه بمكره وقوة آتته الحربيّة التي اخترعتها الثّورة العلميّة في أوروبا، في حين كان العرب قد خرجوا ضعفاء من تحت سلطة الاحتلال العثمانيّ، لا يملكون حولاً ولا قوّة، ولكنّهم على الرّغم من ضعفهم ثاروا على الإحتلال الإنكليزيّ والإحتلال الفرنسيّ في الأقطار العربيّة كلّها، وقدموا قوافل الشّهداء فداءً للوطن والحرّيّة.

لقد واكب الشّعـر العربيّ النّهضويّ هذه الثّورات فمجّدها، وصوّر كرم الثّوار وبسالتهـم، وفي طليعة الشّعراء النّهضويّين الذين كتبوا الشّعـر الثّوريّ الجهاديّ، هو أميرهم أحمد شوقي، حيث حفلت قصيدته الشهيرة (نكبة دمشق) بالمعاني الثّوريّة الجهاديّة، وفيها جعل اللون الأحمر رمزاً للثّورة والشّهادة والحرّيّة:

دم الثّوار تعرّفه فرنسا                      وتعلّم أنّه نورٌ وحقٌّ  
وللحرّيّة الحمراء بابٌ                      بكلّ يدٍ مضرّجةٍ يُدقُّ<sup>(1)</sup>

تظهر واضحةً العلاقة القويّة، في هذين البيتين، بين اللون الأحمر والدم والثّورة والحرّيّة، إنّ الثّورة الحقيقيّة المنتجة هي الثّورة التي تبذل الدّماء في ميدان البطولة؛ لأنّ الدّماء هي التي تحرّر الأرض وتصون العِرض وتصنع الحرّيّة، لهذا تبدو الحرّيّة - كما وصفها شوقي - مصبوغةً بدم الشّهداء، فنراه في هذين البيتين من قصيدته (نكبة دمشق) يضع المبادئ التي ينبغي أن يلتزم بها الشّعب، في أيّ مكان أو زمان، إذ ما أراد صناعة الحرّيّة.

إنّ الحرّيّة التي يؤمن بها شوقي هي حرّيّة موصوفة لا تشوبها شائبة، وغير خاضعة للتأويل، وإلّا فتكون مزيفة، هي لا تفتح بابها إلّا إذا طرقت يد مضرّجةً بالدّماء، وإلّا فهي تُفضّل أن تظلّ غائبة عن الأعين؛ إنّها لا تعرض جمالها إلّا إذا دُفِعَ ثمن إطلالتها غالباً، إلّا إذا دُفِعَ دماءٌ ومُهْجاً.

1- شوقي، أحمد: ديوان شوقي؛ قصيدة (نكبة دمشق).

وهكذا، يُحْكَمُ شوقي الرِّبَط بين الحرِّيَّة من جهة والثَّوْرَة والدِّم من جهة أخرى، فكلُّ ثورة غير حمراء لا تصنع حرِّيَّةً حمراء، وقد وَفَّق شوقي في توظيف اللَّون الأحمر، فيما سبق، ونشهد له بأنَّه قد لفت انتباه جماعة الحداثة إلى الدَّلالة الثَّوْرِيَّة الكامنة فيه، فاستثمروا هذه الدَّلالة في قصائد كثيرة لمآرب ثوريَّة وتحرَّريَّة ذات مضامين وطنيَّة وقوميَّة وإنسانيَّة، مختلفين عن شوقي في أسلوب الكتابة وصولاً إلى الغاية نفسها، وهذا الاختلاف أمرٌ بدَّهيٌّ؛ إذ إنَّ كلَّ شاعر يُظهر في شعره سمات عصره، فلا يمكن للشَّاعر أن يخرج من مجتمعه، ويتجاوز حدود عصره، فاللَّغة «تكون كلاً واحداً، إنَّها نظام، وقيمة كلِّ عنصر لا تتعلَّق به بسبب طبيعته أو شكله الخاصِّ ولكن بسبب مكانه وعلاقاته ضمن المجموع»<sup>(1)</sup>.

فشعراء النّهضة يشتركون جميعاً في لغة نهضويَّة مع اختلاف في السِّياق الشعريِّ الذي به يُعرف الشَّاعر ويميِّز عن أقرانه؛ وكذلك جماعة الحداثة يشتركون جميعاً في لغة الحداثة، لغة الرَّمز، ويختلفون في السِّياق الشعريِّ؛ والدَّلِيل أنَّ شعراء الحداثة جميعاً وظَّفوا الرَّموز في شعرهم بيد أنَّ هذه الرَّموز أدَّت وظائف مختلفة وفاقاً لاختلاف سياقاتها، فكثيرون، على سبيل المثال، قد وظَّفوا في شعرهم رمزيَّة الفينيقي، وعشتار، وتمَّوز، ولكنَّ رمزيَّة هذه الأساطير لم تأتِ نفسها، بل تغيَّرت دلالتها وفاقاً لاختلاف الموضوع والسِّياق والغاية التي رمى إليها الشَّاعر، وكذلك رمزيَّة الألوان تختلف من شاعر إلى آخر، فاللون الأحمر قد يرمز عند شاعر إلى الحبِّ وعند آخر إلى الثَّوْرَة؛ فالكلمة «هي وجود وحضور له كيان وجسم، وهي قطعة من الوجود أو وجه من وجوه التجربة الإنسانيَّة، ومن ثمَّ فإنَّ لكلَّ كلمة طعماً ومذاقاً خاصّاً»<sup>(2)</sup>.

والثَّوْرَة ليست هي هي عند الشعراء جميعاً فثمة ثورة وطنيَّة، وأخرى قوميَّة، أو ثورة مصبوغة بصبغة أيديولوجيَّة، ثمَّ إنَّ الشاعر يوظِّف رموزه الشعريَّة فيما يخدم أفكاره ومبادئه، ولا يمكن أن يكتب أحدٌ ما يخالف عقيدته، وإن حصل، فهو حينئذٍ يصير دجَّالاً، منافقاً وتنتفي عنه صفة الشَّاعر والأديب.

إنَّ الاختلاف في دلالة الرَّمز الواحد، مردهُ إلى اختلاف المبادئ والعقائد عند الشعراء، وهذا الاختلاف الدَّلالي في وظيفة الرَّمز نفسه، هو دليل ساطع على الطَّاقة الدَّلاليَّة

1- جبرو، ببير: علم الدَّلالة؛ ترجمة منذر عياشي، ص 129.

2- إسماعيل، عزَّ الدين: الشعر العربي المعاصر قضايا وظواهره الفنيَّة والمعنويَّة، ص 182.

الكامنة في الرّموز، وهذه الطّاقة هي التي بعثت لغة الشّعْر من بلادها، وأعطتها قدرة على الإحاطة بالأحداث؛ فالرّمز، مهما كان نوعه، يولّد طاقات إيحائية لما يرمز إليه ويحمله من رؤى، سواء أكانت تتطلّع إلى مفاهيم فكرية أم جمالية؛ ولكي يُشحن بدلالات خصبة يحتاج الرّمز إلى تأسيس في إطار لغة النّصّ الشّعريّ، وبصورة أدقّ إلى تركيبه في سياق ينتظم فيه زمانياً ومكانياً، ويكون منه مركز الإشعاع في الصّورة»<sup>1</sup>.

## المبحث الثاني: البنية الرّمزية في خطاب نازك الملائكة الشّعري بين التّحريض والتّمرد

### أولاً: المعاناة والثّورة في الرّمز الشّعريّ عند نازك الملائكة

إنّ الشّاعر حين يعيش من دون معاناة يعيش من دون قضية؛ فأيّ قضية هي انبثاق من واقع اجتماعيّ بيئيّ يعيش فيه الشّاعر، مدرّكاً ما يجري حوله من أحداث متألّماً ومتحسّراً؛ فإنّ الشّعْر الهادف ينبثق من الألم، من المعاناة، ولا ينبثق من الفرح والتّرف؛ والأمثلة على أنّ الشّعْر يولد من رحم المعاناة كثيرة في الأعمال العربيّة والأجنبيّة، وليس الشّعْر وحده يولد هذه الولادة، بل الإبداع في كلّ شيء لا يتكوّن إلّا في بيئة الألم والعذاب، ولهذا نجد أنّ الكثير من المبدعين العرب وغيرهم التصقوا بالقضية الفلسطينيّة، وعبروا عنها في مجالات مختلفة، فهم وجدوا في معاناة الشّعب الفلسطينيّ ما يلامس أفئدتهم ويثير شعورهم الإنسانيّ، ويحفّز ملكة الإبداع فيهم على العطاء.

مثلاً التصق المبدعون بمعاناة الشّعب الفلسطينيّ، التصقوا كذلك بمعاناة الشّعوب الأخرى غير مهتمّين بالقوميّات والأديان، بل اهتمّوا فقط بما يحرك فيهم إنسانيّتهم، ويُدّمي قلوبهم، ويُبكي أعينهم، وبما أنّ الثّورة في جوهر معناها هي جهاد وشقاء ومعاناة، فقد التصق المبدعون بكلّ ثورة من ثورات الشّعوب؛ فهي «ظاهرة اجتماعيّة ذات هدف سياسيّ، وظاهرة إيديولوجيّة (سياسيّة) ذات هدف اجتماعيّ يتمثّل بتغيير المجتمع (...) ومن الثّورات ما حدث ببطء وسلام تحت تأثير التّقدّم العلميّ والخلقيّ، ومنها ما حدث فجأة عقب اضطرابات وسفك دماء مقودة إمّا بمغتصب أغرى فئة من النّاس على تحقيق مطامعهم، وإمّا محرّكة بإرادة الأمّة كلّها»<sup>2</sup>، ويمكن «أن ننظر إلى التّمرد كحلقة أولى

1- مجناح، جمال: الرّمز في شعر محمود درويش، ص 42.

2- ذبيان، سامي وآخرون: قاموس المصطلحات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، ص 177- 276.

في العملية الثورية، بالنّبة إلى الفرد أو المجتمع، ولكنّ التّمرد لا يكون منطقياً ولا يكون إنسانياً إن لم تكمله الثورة<sup>1</sup>؛ ولأنّ هذه الثّورات، كالثّورة الفلسطينية، تسعى إلى الحقّ والحرية والعدالة، تسعى إلى هذه القيم الحيائية التي لا يمكن أن يحيا الإنسان من دونها حرّاً وكريماً. وتدوم الثّورات ما دامت الحياة؛ لأنّ الحياة لا يمكن أن تخلو من الظلم والظالمين؛ لهذا يلجأ المستضعفون في أصقاع الأرض وأقطارها إلى الثورة على الظالم والطاغية.

وفي القرن العشرين، قرن الثّورات العربيّة في العراق ومصر وسوريا، وقرن الثّورات العالميّة، تحمل نازك الملائكة رمزية الثّورة الشيوعيّة، ويتجلّى احمرار هذه الثّورة في قصيدتها (ثلاث أغنيات شيوعيّة)، إذ حملت رموزها بعداً تحريضياً يوقظ الوعي الجمعيّ، وتمرداً على أنماط القول الموروثة؛ لتعيد صياغة العلاقة بين الشّاعر والواقع في بنية لغويّة مشحونة بالإيحاءات؛ تقول:

تحية شقائق النعمان

يا أختنا الحمراء

يا شفة ساخنة الألوان

مترعة دماء

أختاه أنتِ أشرف الورود

رمز الدّم المراق

يا لون ما تضر من حقود

محرقة الأشواق<sup>2</sup>.

إنّ رمزية شقائق النعمان إلى الدّماء لم تولد عند الملائكة من العدم، بل ترجع جذورها التاريخية إلى الميثولوجيا البابلية، فهي ترمز إلى دماء تمّوز القتيّل الذي افترسه الخنزير البرّي، فسقت دماؤه الأرض فأنبئت شقائق حمراء، وقد وظّفت الملائكة شقائق النعمان في سياق شعريّ رمزيّ جديد، وجعلت حُمرة الشّقائق رمزاً إلى راية الثّورة الشيوعيّة وإلى

1- البياتي، عبد الوهاب: مجلّة الآداب البيروتية، ص 198.

2- الملائكة، نازك: ديوان نازك الملائكة؛ قصيدة (ثلاث أغنيات شيوعيّة)، 2/ 568.

دماء الثَّوار الشَّيْوعِيِّينَ، معلنة حبَّها للثَّورة وللرفاق الذين تجمعها بهم أخوة النِّضال وأخوة الدِّماء بالمعنى الثَّوريّ وليس بالمعنى العرقيّ.

إنَّ الثَّورة الشَّيْوعِيَّة هي أخت الشَّاعرة وكذلك الثَّوار الشَّيْوعِيَّون هم إخوتها، وشقائق النِّعمان هي عندها أشرف الورود: (أختاهُ أنتِ أشرف الورود)، وهذا الشَّرَف العظيم الذي تفوز به الشَّقائق على الورود كلّها في تعبير الملائكة ليس لأنّها الأجمل، وليس لأنّها حمراء متجرّدة، بل لأنّها تحمل رمزيّة الدِّماء، لأنّها مترعة دماء: (يا شفةً ساخنة الألوان/ مترعة دماء).

وبدهيُّ أن تكون الشَّقائق مترعة دماء؛ لأنّ رمزيّتها الدِّمويّة في ذاكرة الشَّاعرة وثقافتها متّصلة بالتَّاريخ البابليّ الميثولوجيّ، وبدهيُّ كذلك وجود الميثولوجيا Mitologique في شعر الملائكة، فهي من الشَّعراء الأوائل الذي وضعوا الدمايك الأولى للحداثة في الشعر العربيّ، فكان الاتِّجاه إلى الرِّموز في الأساطير والتَّاريخ الواقعيّ من أجل تخصيب لغة الشعر وبَعثها خضراء مثمرة بعد مدّة طويلة من اليباس والعقم، وكان الاتِّجاه كذلك إلى تجاوز النِّظام العروضيّ الخليّليّ، وابتكار نظام النِّقيلة وجَعْلِهِ نظاماً جديداً لكتابة الشعر.

وقد كتبت نازك الملائكة قصيدتها (ثلاث أغنيات شيوعيّة) تطبيقاً لهذا النِّظام؛ فلا نلاحظ في قصيدتها المذكورة التي ندرسها هنا حضوراً للنِّظام القديم، إذ لا توجد فيها وحدة البيت والرويّ، بل ثمة جملٌ شعريّة حلّت محلّ الأبيات وهذه الجمل تؤلّف المقاطع، وفي كلّ مقطع نلاحظ الرّويّ المتنوّع، والمقطع الشعريّ السَّابق هو مثال هذا النِّتّوع:

النِّعمان/ الحمراء/ الألوان/ دماء/ الورود/ المراق/ حقود/ الأشواق.

ونلاحظ كذلك كيف تحطّم البناء القديم في كتابة الشعر، إذ نسفت الشَّاعرة البيت ذا الشَّطرين، والتزمت الجملة الشعريّة، فلم تساو في عدد النِّقيلات:

تحية شقائق النعمان

○ ○ / ○ / ○ // ○ // ○ // ○ // ○ //

يا أختنا الحمراء

○ ○ / ○ / ○ // ○ / ○ /

الجملة الأولى تتألف من تفعيلتين وجزء من الثالثة، والجملة الثانية تتألف من تفعيلة وجزء من الثانية؛ وكما التنوع في الروي، كذلك نلاحظ التنوع في التفعيلات، فلم تلتزم الشاعرة تفعيلة واحدة، بل استعملت في القصيدة نفسها تفعيلة المتقارب والرجز والسريع والرمل.

ثانياً: الثورة الشيوعية في البنية الرمزية لشعر نازك الملائكة

إضافة إلى التحديث في اللغة والعروض ثمة التحديث الأفعال، وهو التحديث في المضمون؛ حيث طرقت نازك الملائكة موضوعاً حديثاً في ذاك الزمان وهو الثورة الشيوعية التي كان لها صداها في أقطار العالم، ومن بينها العراق الذي انتشر الفكر الشيوعي بين مثقفيه، وفي طليعتهم الملائكة والسيّاب والبياتي؛ ونحن «لو أمعنا النظر في حقيقة الفن من حيث هو تعبير إنساني وجدناه من البداية شديد الارتباط بالعقيدة»<sup>1</sup>.

إنّ هذه القصيدة التي ندرسها هنا ما هي إلا تأكيد على دويّ الشيوعية، في نفوس المثقفين العراقيين، وتنحو الملائكة في هذه القصيدة منحىً تعبيرياً مفعماً عنفاً وقسوةً وتطرفاً دفاعاً منها عن الثورة والتزاماً بمبادئها:

يا حمرة القتل لك الدماء

فاغرة الجراح

إن تظمأي فبالدم المنعش أخطأه لا نبخل

هيهات يا حمراء أن تعطشي وثم من نقتل

من أجل هذا اللون نجزي النجيع

1- إسماعيل، عز الدين: الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، ص 377.

## جداولاً تتثال

وباسمه نقتل حتى الربيع.

ونذبح الأطفال<sup>1</sup>.

تغلو الملائكة في هذا المقطع الشعري، وهي تعبّر عن التزامها بالثورة الحمراء، إنها ورفاقها الشيوعيين عازمون على قتل الربيع بما يمثل من جمال وبراعم ترمز إلى الحياة والأمل، فالربيع يرمز إلى «التجدد والأمل، يرتبط- وخصوصاً الناصر منه- بالنماء، ويرمز للحياة والوفرة والخير»<sup>2</sup>، والشعرة ورفاقها الشيوعيون عازمون على ذبح الأطفال الذين يمثلون البراءة والحب والسلام دفاعاً عن الثورة الحمراء التي كانت في أيامها أمل الكادحين والفقراء، وأمل المثقفين الثوريين بحياة كريمة.

إن نازك الملائكة تعلن التزامها بالمبادئ الشيوعية، واستعدادها لبذل الدماء في سبيل تحقيقها، و«مهما استخفى الشاعر وراء الرّمز والاستعارة والعلاقات اللغوية المتكررة التي تنتمي إلى العالم الشعري فإنه يظلّ حاضراً، ويظلّ لحضوره فعالية خاصة، واستبعاده من إطار رؤيتنا يفوت علينا بُعداً من أهمّ أبعاد القصيدة»<sup>3</sup>.

وتخاطب الشاعرة الثورة داعيةً إياها إلى عدم الخوف من الأيام القادمة على مصيرها واستمرار اشتعالها؛ لأنّ الشيوعيين حاضرون لإنعاشها حين تحتاج الإنعاش- بالدم الذي يجري في عروقهم، ثم ينسف على أرض الفداء؛ لتبقى الثورة حيّة في النفوس، وحاضرون، كذلك، لإزالة عطشها بدماء الأعداء، وفي هذه الصورة الدموية إشارة من نازك الملائكة إلى أنّ الشيوعيين سيُسرفون في سفك دماء أعدائهم بغير رافة ولا رحمة، وإشارة إلى قوة التزامها بالثورة ومبادئها. والحق، أنّ «الفن سيظلّ - كما كان دائماً - عمل الفرد المبدع، ولكن هذه الخاصة الفردية لا تتعارض - كمت لم تتعارض من قبل - مع العقيدة الجماعية»<sup>4</sup>.

إنّ الشاعرة تشارك رفاقها ثورتهم، وتخوض معهم معركة النضال بصلابة شديدة وإيمان ثابت بمبادئ الثورة الشيوعية، ولا يمكن التمييز والإيثار بين الثوار، وإن اختلفت لديهم

1- الملائكة، نازك: ديوان نازك الملائكة؛ قصيدة (ثلاث أغنيات شيوعية)، 2/ 569.

2- محمد علي، إبراهيم، اللون في الشعر العربي قبل الإسلام - قراءة ميثولوجية، ص 112.

3- إسماعيل، عزّ الدين: الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، ص 392.

4- م. ن.، ص 379 - 380.

أسلحة الكفاح الثوري، فليس ثمة فرق بين من يقاتل بفكره وفنّه، ومن يقاتل ببندقية؛ لأنّ الثورة الناجحة هي كلّ متماسك لا يتجزأ في الميدان، وإذا دخلنا في التجزئة والتّمييز بين الأجزاء، فإنّنا حينئذٍ نجعل الثورة ترتبك وتتعثّر؛ فإنّ كلّ عضوٍ من أعضاء الثورة هو بحاجة وظيفيّة وفعلية إلى العضو الآخر، وتتشارك الأعضاء جميعاً في الأداء فيكون العمل النّاجح ويتحمّ النصر؛ وكما لا يمكننا التّمييز بين الأعضاء في الوظيفة؛ كذلك لا يمكننا أن نعدّ الوظيفة التي يؤدّيها هذا العضو هي أكثر خطراً وشقاءً من تلك التي يؤدّيها عضو آخر.

إنّ الشّاعرة شريكة في الثورة كما سائر أبناء أمّتها؛ فالعامل بثورته ينتج أعمالاً، والشّاعر بثورته يخلق شعراً، والعالم يثور بفكره وعلمه... لكلّ مجاله الذي يجسّد فيه صوته الثوري، غير أنّهم جميعاً يلتقون في نهرٍ واحد هو حركة الثورة الكبرى. يمارس الشّاعر ثورته بالكلمة، وإن أمكن له أن يجسّدها بالفعل، كما يمارس العامل ثورته بالكدح، وإن استطاع أن يترجمها شعراً.

هذه الوحدة الثورية المتكاملة التي لا تقبل التّجزئ، في رأي أدونيس، شبيهة بالسيمفونية التي تقدّم للجمهور وحدة موسيقية متكاملة لا تقبل التّفكيك، ويشترك في أدائها أعضاء مختلفون في الوظائف، ولكن لكل عضو تميّزه في الإبداع. وعلى الرّغم من عدم التّفصيل بين أعضاء الثورة في القيمة الثورية، بيد أنّ للشّاعر ما يميّزه في الأدب، إذ إن أدواته في كتابة الشعر هي التي تحدّد ثورته.

لكنّما «الأدوات التي ينتجها العامل في المصنع، تلبي حاجات نفعية يومية في الحياة العملية، من ضمن علاقات إنتاج معينة؛ فهي لا توجّه إلى وعي الجماهير، بل تدخل في نظام علاقات الإنتاج والاستثمار. أمّا الأدوات التي ينتجها الشّاعر باللغة، فمن المفروض أنّها تتوجّه إلى الوعي لتغييره فهي تؤدّي دوراً مزدوجاً، داخل وعي الجماهير من ناحية، وداخل حركة الشّعر في الوقت نفسه»<sup>(1)</sup>، وبقدّر ما يُبدع الشّاعر في صناعة الأدوات يُبدع في كتابة القصيدة؛ وتختلف الأدوات المنتجة في كتابة الشعر عند الشّعراء فلكلّ شاعر أدواته التي يعبر بها عن موضوعاته التي يختارها، ومثالُ هذا الرّأي موضوع الثورة في الشعر العربي الحديث، حيث نجد أنّ هذا الموضوع عبّر عنه بأدوات مختلفة؛

1- دكروب، محمّد: الأدب الجديد والثورة - كتابات نقدية، ص 151.



فمن الشعراء مَنْ عبّر عنه تعبيراً رمزياً، ومنهم مَنْ عبّر عنه تعبيراً ليس فيه للرمز وظيفة. والواقع، أنّ «اللّغة أشبه بحقل فارغ خصب، والشّاعر هو الفلاح الموهوب الذي يستتبت منه أشجار الرّمان والمشمش والليمون»<sup>1</sup>.

وكذلك تختلف الرموز عند الشعراء في التعبير عن موضوع الثّورة، فنازك الملائكة وظفّت اللون الأحمر في التعبير عن الثّورة الشيوعيّة وثمة من يشاركها هذا التّوظيف الرّمزيّ، وثمة من يخالفها، وقد وُفقت نازك الملائكة في اختيارها اللون الأحمر رمزاً للتّعبير عن الثّورة الشيوعيّة، فهذا الرمز يدلّ على الرّاية الشيوعيّة (الرّاية الحمراء)، ويدلّ كذلك على دماء الشهداء الذين يموتون على أرض معركة الثّورة فداءً للأهداف التي يناضلون في سبيلها، و«يتميّز اللون الأحمر عن بقية الألوان بأنّه يُستخدم بكثرة في إشارات التّحذير والإنذار؛ والسّبب في ذلك أنّه لونٌ ملفت للانتباه، حيث يكوّن استجابة للإنذار أكثر من أي لون آخر لدى العقل البشريّ، فإنّ اللون الأحمر يُشعر الشّخص بأنّه في وضع يحتمّ عليه الحذر أو التّأهّب»<sup>2</sup>.

إنّ اللون الأحمر في قصيدة نازك (ثلاث أغنيات شيوعيّة) يحمل رمزيّة مزدوجة: رمزيّة المبادئ، ورمزيّة الممارسة الثّوريّة على أرض المعركة ضدّ الطّغاة الذين يسخّرون الشّعوب ويضطهدونهم، الذين يسلبونهم تعبهم وحقوقهم، ويقتلون أحلامهم الصّغيرة؛ ليقبوا هم أهل السّلطة والبذخ، يعيشون في القصور منعمين، ولا يبالون بمن يعيشون في الأكواخ معدّبين متألّمين؛ لهذا نحت نازك في قصيدتها منحىً عنيفاً في التعبير عن الثّورة الشيوعيّة:

«من أجل هذا اللون نجزي النجيع

جداولاً تنثالُ

وباسمه نقتل حتّى الربيع

ونذبج الأطفال<sup>3</sup>

1- نازك الملائكة، الأعمال النثرية الكاملة، 323/ 1.

2- Red Color psychology and Meaning. www.colorpsychology.org, Retrieved 17-10-2018 Edited.

3- الملائكة، نازك: ديوان نازك الملائكة؛ قصيدة (ثلاث أغنيات شيوعيّة)، 569/ 2.

إنّ هذا المنحى يعبر عن رغبة الشاعرة الجامعة بالقتل وسفك الدماء، رغبة لا تستثني الأطفال، ويؤكد حقدّها على أعداء الثورة؛ ثم إنّ هذه الرغبة الدّمويّة عند نازك الملائكة ترتقي بعلوّها إلى مستوى الرغبة الدّمويّة الكامنة في نفوس الصّهائنة الذين عبروا عنها قولاً وعملاً.

ونقول: لا تستطيع الملائكة أن تسوّغ رغبتها بقتل الأطفال دفاعاً عن الثورة مهما تكن أهدافها عظيمة ونافعة؛ لأنّ قتل الطّفولة البريئة جريمة تُلغي كلّ أضرار القاتل وتُبطل حججه، فقتل الأطفال أو الدّعوة إلى قتلهم عارٌّ على رجال الحرب، فكيف إذا عبرت شاعرة، وهي التي ينبغي أن تتّصف بالرفّة والرّافة أكثر من الرّجل، عن رغبتها بسفك دماء الأطفال.

ولا شك أنّ هذا التعبير سيحدث صدمة صاعقة في التّفنّس الإنسانيّة، وإنّ الشاعرة نازك الملائكة كان عليها ألاّ تصل إلى هذا المستوى من الغلوّ الثّوريّ الذي صبغها بصبغة الإجرام والانحراف وتجاوز المألوف والأعراف؛ وجعلها تصبّ لعناتها على العرب جميعاً حينما رأت حلمها الأحمر يتهاوى أمام عينيها:

«وتهاوى حلمي الأحمر للأرض تراباً لاعتنا تسعين مليون محباً

عربياً عربياً عربياً»<sup>1</sup>.

إنّ شاعرتنا الملائكة تصبّ نار ثورتها الشيوعيّة الحمراء غاضبة لاعتنة على كلّ العرب لم تستثن أحداً منهم، وهذا غلوٌّ منها غير مبرّر، إذ لا يجوز أن يحمل العرب كلّهم أوزار فشل الثورة على الأنظمة الرّجعيّة المتخلّفة- كما كانت تلك الأنظمة توصف بلغة ذاك العصر- بل في كلّ أمة هناك مناضلون مخلصون متفانون في سبيل قضايهم الوطنيّة القوميّة، وهناك متخاذلون ومأجورون لا همّ لهم سوى أن يعيشوا الحياة ولو كانت حياة ذلّ وصغار، ثم إنّ نازك الملائكة كان عليها ألاّ تعظّم المبادئ الشيوعيّة الماركسيّة وتحقّر العنف؛ إنّ هذا السلوك سلوكٌ ملتوٍ، إذ لا يمكن لفكر مهما عظم شأنه أن يلغي الرّوح القوميّة عند الأمم، والرّسالات السّماويّة لم تقم بهذا الفعل الإلغائي؛ لهذا كان من الواجب «أن يتعلّم الماركسيّون العرب من ماركسيي الأمم الأخرى أنّ المعارك الكبرى هي دائماً معارك قوميّة: معارك بين أمم وجماعات، وأنّ الوطن أهمّ من النظام، وأنّ

1- الملائكة، نازك: ديوان نازك الملائكة؛ قصيدة (ثلاث أغنيات شيوعيّة)، 2/ 572.

الأمة أعظم من العقائد والإيديولوجيات»<sup>1</sup>.

### المبحث الثالث: التحوّلات الدلالية للرمز الثوري في نتاج فدوى طوقان

#### أولاً: الحرّية والرمز الوطني في شعر فدوى طوقان

إذا كانت نازك الملائكة قد قدّمت في شعرها خطاباً رمزياً مشحوناً بروح التمرد والتحريض، فإنّ التجربة الشعريّة لفدوى طوقان تبرز هي الأخرى كصوتٍ أنثويٍّ متمردٍ، لكنّ تمردّها لا ينطلق من رؤية فلسفيّة مجردة أو من موقف أيديولوجيٍّ أمميٍّ، بل يتخذ بعداً وطنياً وجودياً، يستمدّ قوّته من صميم المعاناة الفلسطينية الفردية والجماعية على حدّ سواء. هذا البعد الوجودي لا ينفصل عند طوقان عن بعدها الوطني، إذ تتشابك تجربة الذات مع تجربة الأرض والشعب، حتّى تصبح الحرّية التي تتشدها هي ذاتها حرّية فلسطين بأكملها.

ومثال ذلك نجده جلياً في قصيدتها «حرّية الشعب»، حيث تصف علاقتها بحرّيتها المتوهّجة في أعماق نفسها، فتجعلها هدفاً نضالياً محفوراً في كلّ زاوية من الوطن، على الجدران، في الأبواب، في شرف المنازل، بل في أماكن العبادة والمزارع والطرقات، وفي السجون والمشانق. هذا الانتشار المكانيّ للحرّية في النّصّ يشي بأنّها ليست فكرةً معنويّة مجردة، إنّها كيان حيّ مغروس في التراب والحجارة وأروقة البيوت، يتنفس مع أنفاس النّاس ويشاركهم آلامهم وآمالهم؛ تقول:

سأظلُّ أحفر اسمها، وأنا أناضلُ

في الأرض في الجدران في الأبواب

في شُرف المنازل

في هيكل العذراء في المحراب في طرق المزارع

في كلّ مرتفعٍ ومنحدرٍ ومنعطفٍ وشارعٍ

في السّجن في زنزانة التعذيب.

في عود المشانق

1- يازجي، رجا: «حركة المقاومة ومشكلة التنظير العقائدي»، ص 58.

رغم السلاسل رغم نسف الدور  
 رغم لظى الحرائق  
 سأظلُّ أحفر اسمها حتى أراه  
 يمتدّ في وطني ويكبر  
 ويظلُّ يكبرُ  
 حتى يغطّي كلّ شبرٍ في ثراه  
 حتى أرى الحرّية الحمراء  
 تفتح كلّ باب  
 والليل يهربُ والضياءُ  
 يدكُ أعمدة الضباب<sup>1</sup>

لا ريب في أنّ الشاعرة فدوى طوقان تحاكي شوقي في وصفها حرّيتها، إذ صبغتها بصبغة اللون الأحمر واستحضرت الباب الذي جعله شوقي مدخلاً للحرّية الحمراء، وهو - كما وصفه - بابٌ موصد لا يدقّه إلّا اليد المضرجة بالدماء الثوريّة، بيد أنّ طوقان لم تجعل محاكاتها شوقي نقلاً وتقليداً، بل أخذت من أمير الشعراء (الحرّية الحمراء والباب) ووضعتهما في سياق نصّي جديد وولدت منهما معنىً جديداً لا نلاحظه عند سابقها، إذ إنّ الحرّية الحمراء عند شاعرتنا طوقان هي الحلم الفلسطينيّ العامّ الذي يتمنّى تحقيقه كلّ فلسطينيّ، هي الحرّية التي تحلم الشاعرة أن تراها تفتح كلّ باب لببيت على أرض وطنها، و«الحرّية الحمراء عند طوقان، تلدها الثورة التي لا تتجاوز رفض الواقع إلى محاولة تقويضه وبناء واقع جديد»<sup>2</sup>؛ وهنا، نلاحظ اختلاف الغاية الشعريّة بين شوقي وطوقان إذ تبدو الحرّية عند شوقي ذات باب مغلق أمّا عند فدوى طوقان، فهي تفتح أبواب المضطهدين والمستعبدين.

1- طوقان، فدوى: ديوان فدوى طوقان؛ قصيدة (حرية الشعب)، 1978.

2- البياتي، عبد الوهاب، مجلة الآداب البيروتية، ص 198.

فالحريّة الحمراء عند شوقي رمزٌ عامّ، مفتوح على كلّ قضية إنسانيّة، غير محصور بحدود ولا مصبوغ بصبغة، بيد أنّها عند طوقان الحلم الفلسطينيّ المشترك، محدودة بحدود الوطن ومصبوعة بصبغة فلسطين الجريحة، الأسيرة، المتألّمة، وهي الخلاص الذي تنتشه الجماعة من الاحتلال، وهي النور الذي يفتح الأبواب المغلقة في وجه المضطّهدين والمستعبدين. هذا التّحديد المكانيّ والوجدانيّ يجعل من الحريّة في شعرها قيمة مرتبطة بالأرض والبيت والذاكرة، لا بفكرة مجردة عابرة للحدود.

وعلى خلاف شوقي الذي جعل الحريّة باباً مغلقاً ينتظر من يسعى لفتحه، فإنّ طوقان ترى أنّ هذه الحريّة هي التي تسعى إلى عشاقها في وطنها فلسطين، تفتح أبوابهم في ثورة فلسطينيّة مشتعلة، معلنة تحرير الأرض المغتصبة من قيود الغزاة؛ لتعلن بداية التّحرير وزوال القيود. هنا، تتحوّل صورة الباب من رمز للعقبة إلى رمز للانفتاح، ويتحوّل اللون الأحمر من مجرد دلالة على التّضحية إلى هويّة كاملة للثورة الفلسطينيّة.

إنّ الفرق بين الرّؤيتين يكمن في أنّ شوقي يقدّم خطاباً إنسانياً عامّاً، في حين تقدّم طوقان خطاباً وطنياً ذا خصوصيّة، ممهوراً بدماء الجرح الفلسطينيّ، ومرهوناً بذاكرة الاحتلال والمقاومة، وكأنّها تقول إنّ الحريّة الحمراء لا يمكن أن تكون حياديّة أو مجردة حين تكون فلسطين هي الميدان.

### ثانياً: رموز الثورة والمقاومة في شعر فدوى طوقان

إذا كانت الحريّة الحمراء قد شكّلت في شعر فدوى طوقان الرّمز الأبرز لتطلّعات الشّعب الفلسطينيّ في الخلاص والتّحرّر؛ لأنّها تتّصل بالقضيّة الفلسطينيّة وتعبّر عن حلم الفلسطينيّين بالحريّة والعودة، وتزرع البشري في نفوس المعتقلين واللّاجئين من أبناء الشّعب الفلسطينيّ المستضعف والمعدّب، فإنّ نصوصها تزخر برموز أخرى لا تقلّ قوّة في التّعبير عن روح الثورة والمقاومة. وهذه الرّموز، التي تستمدّ جذوتها من الطّبيعة والتّاريخ والذاكرة الشّعبية، تمثّل ملامح الخطاب النّضاليّ في شعرها، وتكشف عن رؤيتها لدور الكلمة في معركة التّحرير؛ ها هي تقول:

حرّيتي:

حرّيتي!

حرّيتي!

صوتٌ أرّده بملء فم الغضب

تحت الرّصاص وفي اللّهب

وأظلّ رغم القيد أعدو خلفها

وأظلّ رغم اللّيل أقفو خطوها

وأظلّ محمولاً على مدّ الغضب

وأنا أناضل داعياً حرّيتي!

حرّيتي! حرّيتي!

ويردّد النّهر المقدّس والجسور

حرّيتي!

والضّفّتان تردّدان: حرّيتي!

ومعابر الرّيح الغضوب

والرّعد والإعصار والأمطار في وطني

تردّدها معي:

حرّيتي! حرّيتي! حرّيتي!<sup>1</sup>

إنّ فلسطين طبيعةٌ وإنساناً تغني مع الشّاعرة نشيد الحرّية، فحرّية الشّاعرة حرّية فلسطينيّة، قد اكتسبت هويّتها من ألم الأرض ومعاناة اللاّجئين والمعتقلين القابعين في سجون الغزاة الظّالمين، اكتسبت هويّتها من الحالمين بتحرير فلسطين والعودة إلى البستان والدّار.

1- طوقان، فدوى: ديوان فدوى طوقان؛ قصيدة (حرّية الشعب)، ص 554 - 555.

إنّ فدوى طوقان في هذه القصيدة هي الشاعرة الصّادقة المرتبطة بالوطن تراباً وإنساناً تصوّر معاناته ووجعه، ولا قيمة للشعر أو لأيّ نوع من أنواع الأدب، إن لم يرتبط بالإنسان والحياة. إنّ وظيفة الأدب هي أن تصوّر الحياة، و«يما كانت أول عبارة في تاريخ النظر النقديّ قد أحكمت الرّبط بين الأدب والحياة هي العبارة المأثورة عن النّاقّد والشاعر الإنكليزيّ كولردج التي يقرّر فيها أنّ الأدب نقد للحياة»<sup>1</sup>.

وتُغنّي طوقان نشيد الحرّية الفلسطينيّة في سياق نصّيّ حافل بمعاني الثّورة ودلالاتها؛ فالنّهر المقدّس بضفتيه الشّرقية والغربيّة يغنيّ معها نشيد الحرّية ويشاركها الثّورة، والنّهر المقدّس في هذا السّياق يحمل دلالة دينيّة وتاريخيّة تدحض مزاعم اليهود أنّ أرض فلسطين هي أرضهم التّاريخيّة، فالنّهر المقدّس الذي تعمّد بمائه السيّد المسيح عليه السلام هو شاهدٌ دينيّ وتاريخيّ على كذب اليهود وادعاءاتهم الباطلة، ولم توظّف الشاعرة النّهر المقدّس صدفةً في قصيدتها، بل هي أرادت أن تؤكد أنّ فلسطين ليست إسرائيليّة، فاعتمدت البرهان التّاريخيّ في لغة شعريّة.

ثمّ إنّ الشاعرة قدّمت برهانها في سياق ثوريّ - كما بيّنا آنفاً - لتوضّح أنّ الحقيقة التّاريخيّة تحتاج فعلاً ثورياً لإظهارها وحمايتها حين أوردت في السّياق النصّيّ بعض عناصر الطّبيعة التي تحمل دلالة الثّورة والغضب:

«والضّقتان تردّدان: حرّيتي! ومعايير الرّيح الغضوب/ والرّعد والإعصار والأمطار في وطني تردّدها معي»<sup>2</sup>

تستعين الشاعرة بعناصر الطّبيعة الدّالة على الثّورة؛ لتعبّر بواسطتها عن شعورها الثّوريّ المتفاعل في وجدانها، فوظيفة الرّيح الغضوب والرّعد دلاليّاً تبشّيرٌ بهبوب الثّورة ضدّ الوجود الصّهيونيّ على أرض فلسطين العربيّة، ووظيفة الإعصار والأمطار دلاليّاً تأكيدٌ على اقتلاع جذور الغزاة وإزالة دولتهم المزيّفة.

ولعلّ الشاعرة استنبطت دلالة المطر على الدّمار والخراب من القرآن الكريم، حيث ورد المطر في آيات كثيرة حاملاً الدّلالة على العقاب الشّديد وخراب حياة المجرمين، وهذه الدّلالة نلاحظها في قول الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا﴾ (٨٤) ﴿٨٤﴾

1- إسماعيل، عزّ الدين: الشعر العربيّ المعاصر قضاياها وظواهره الفنّيّة والمعنويّة، ص 373.

2- طوقان، فدوى: ديوان فدوى طوقان؛ قصيدة (حرّية الشعب)، ص 555.

(الأعراف: 84)، وكذلك نلاحظ المطر يحمل الدلالة ذاتها في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء: 173)

إنّ هذا الدمار الشامل الذي تصفه الشاعرة في قصيدتها الذي تعد به المجرمين الصّهاينة، هو نتيجة حتمية لثورتها المشتعلة؛ ثورة تحلم بأن تحقّق لها الحرّية الحمراء المضرجة بدماء الشّهداء الأبطال، وترسم لنفسها مستقبلاً يُزال فيه الظلم والعدوان؛ وهكذا يتّخذ اللون الأحمر عند شاعرتنا طوقان رمزاً للثورة الوطنيّة الفلسطينيّة التي تختلف في جوهرها ومضمونها عن ثورة نازك الملائكة ذات المبادئ الشيوعيّة التي تهدف إلى تحقيق الاشتراكيّة في المجتمع، وجعلها نظاماً سياسياً يقود الدولة.

إنّ هدف نازك الملائكة المروم - كما بدا في قصيدتها السابقة - هدفٌ أمميّ، لا يعير اهتماماً للقضايا الوطنيّة والقوميّة؛ أمّا هدف طوقان فهو هدفٌ وطنيّ هويّته فلسطينيّة، وفي الحقيقة أنّ الهدف الوطنيّ في كلّ زمان وفي كلّ حال يسمو على كلّ الأهداف والغايات، فهو الأجلّ والمتقدّم دائماً؛ لأنّه مرتبطٌ بوجودان الإنسان وعاطفته وذاكرته، بل بكيونته ووجوده؛ لهذا أخفق الشعراء العرب الذين آمنوا بالفكر الشيوعيّ حين شغلوا شعرهم بالتعبير عن القضايا الأمميّة ونسوا القضايا الوطنيّة التي ينبغي أن تبقى الأصل الثابت عند كل إنسان مهما كانت عقيدته، فها هو وهج الشيوعيّة الذي بلغ ذروته في النّصف الأوّل وبداية النّصف الثّاني من القرن العشرين قد خفت وتضاءل كنور قنديل نصب زينه بيد أنّ الوهج الوطنيّ استعاد قوّته، وهو اليوم متوهّج في كلّ أقطار العالم، حيث تتسابق الأمم وتتنازع من أجل تحقيق مصالحها الوطنيّة والقوميّة.

إنّنا في السّياق الشعريّ عند طوقان، نلاحظ دعوة إلى محاربة الأعداء الصّهاينة الذين يريدون طمس تاريخ القدس العربيّة بغية الاستيلاء عليها، وهذا التّوجّس ليس توجّساً خيالياً، بل هو نبوءة شعريّة ورؤية ثاقبة كاشفة صادقة، وها هي القدس اليوم قد وصلت إليها النّار ويشتدّ خطر لهيبها، والحكومات العربيّة صامتة خاضعة منهزمة، وبعضها أقام مع الصّهاينة علاقات طبيعيّة متناسياً قُدْر القدس في وجدان الأمة وعقلها.

ها هي القدس اليوم تتعرّض للاعتداء من قبل اليهود الصّهاينة الذين ينتهكون حرمتها ويقتحمون بين حين وآخر ساحات المسجد الأقصى المبارك. وليس هذا فحسب، بل جعلوا المدينة العربيّة المقدّسة عاصمة لكيانهم الغاصب. وكأنّ القصيدة السياسيّة «في



يوم فلسطين» تعكس واقع العرب اليوم، وتدلّ على أن العرب قد خانوا رسالة الأمة العربيّة الدّينيّة والحضاريّة؛ لأنّهم لم يبذلوا جهداً حقيقياً من أجل التّغيير؛ وقد فاتهم تنبيه الله لهم وللناس جميعاً في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).

إنّ الشّاعرة تفخر بالجهاد والتّضحية بالدّماء إيماناً منها بأنّ الحرّيّة لا تصل إليها أمةٌ إلّا إذا بذل أبنائها دماءهم مهراقاً على أرض الأجداد، أرض التّاريخ والعزّة؛ وبهذه الرّمزيّة الشّعريّة تحضّ المجاهدين على الاستبسال والإقدام في معركة الكرامة معرّزة ثقافة الجهاد بين أبناء عصرها آنذاك.

إنّ قصيدة طوقان يوافق مضمونها واقع الأمة العربيّة؛ لأنّ العرب تكاسلوا ووهنوا ورضوا الدّلّ والهوان؛ وبما أنّ لكلّ سببٍ نتيجة، يمكن القول: إنّ العرب هم صنعوا سبب ذلّهم وانهزامهم، وقد ثبت ذلك من خلال تجارب العرب في اعتماد مفاوضات السّلام مع الاحتلال الصّهيونيّ، وقد أبرموا معه معاهدات سلام حسب زعمهم؛ ولكنّها لم تُقض سوى إلى الدّلّ والهوان والتّخلّي عن الحقوق القوميّة في الأرض المقدّسة والتّاريخ والحضارة؛ وفي مقابل تجارب العرب الاستسلاميّة هناك تجارب المقاومة والثّورة وقد أثبتت نجاحها الباهر في لبنان، فأدّت إلى التّحرير، وفي غزّة أدّت إلى كسر جبروت العدوان وجعل الصّهاينة يدركون أنّ ثمة ثورة جبّارة تقارعهم، وعليهم أن يحسبوا لها ألف حساب وما عادوا كما الماضي يقتلعون جذور العربيّ الفلسطينيّ من ترابه وتاريخه.

لقد أثبت العربيّ الفلسطينيّ أنّه إنسانٌ حيٌّ على أرض أجداده وليس إنساناً ميتاً وفاقاً لعقيدة الصّهاينة وأفكارهم السّوداء؛ إذ يرون أنّ العربيّ الصّحيح الجيّد هو العربيّ الميت؛ لأنّه يريحهم من وجوده ودلالته الوطنيّة والقوميّة والتّاريخيّة، ويُفسح أمامهم المجال للتّوسّع في الاحتلال والاستيطان وتغيير معالم التّاريخ وملامح الأرض.

لقد أثبتت تجارب العرب مع الصّهاينة في الصّراع والمفاوضات أنّ اليهود الصّهاينة لا يعترفون بوجود أحد من العرب إلّا العربيّ القويّ؛ إنهم لا يعترفون بوجود أمة من بين الأمم إلّا بالأمة القويّة ولا غرابة، فهذه هي طبيعة الإنسان عامّة والصّهيونيّ خاصّة.

إنّ الخوف في طبع الصّهاينة لا يملكون جرأة المواجهة، ولا يُغيرون إلّا إذا كانوا معرّزين بالسّلاح الفتاك المتطور الذي لا يملكه عدوّهم، وصفة الخوف هذه قد ألصّقتها الله تعالى بهم في قوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر: 14).

إنّ اليهود الصّهاينة عظمت قوّتهم وعظم بطشهم بسبب تقهقر العرب وفرقتهم وتخليهم عن الرّسالة السّماوية التي أمرتهم بالوحدة، وبأن يقاتلوا العدوّ معنصمين بحبل الله جميعاً غير متفرّقين. وإنّ العرب- وأعني قادتهم وأولي الأمر منهم- قد خانوا الرّسالة وضيعوا الأمانة وسعوا وراء زخرف الحياة الدّنيا، وهذا الفساد في الحاكمين العرب هو الذي أدّى إلى ضعف الأمة العربيّة وقوّة أعدائها، ولكنّ الشّعب العربيّ يبقى المسؤول الأوّل عمّا وصلت إليه حال الأمة من ضعف وهوان وتقهقر؛ لأنّه يمثّل القوّة العاتية، وهو السّيل الجارف الذي يستطيع أن يُزيل سلطان الظّالمين والفاستدين، إن هو أراد التّغيير وأراد العزّة، بيد أنّ الشعب العربيّ استسلم لسلطة حاكميه الخائنين إلّا فئة منه أبت الدّلّ ومشت على طريق الكفاح والبسالة والشهادة، هي فئة المجاهدين الذين يسقون تراب فلسطين العطشان من دمائهم الرّكيّة، وهم على الرّغم من قلّتهم يُقلّقون العدوّ ويجعلونه في خوف دائم من الزمن القادم.

ورؤية طوقان رؤية واعية صادقة حين رأت في المجاهدين آنذاك القوّة الحقيقيّة التي يجب أن يُقاتل العدوّ بها، وأنّ اليد الحمراء التي ضرّجها دم الشّهداء هي التي سيفرّ البغي من هزّاتها، هي التي ستضعف الاحتلال صفعاً مدوية تجعله يدرك أنّ اليقظة العربيّة حصلت وأنّ زمن النّوم والرّضا بالهزيمة قد ولى، ورؤية طوقان الشّعريّة هي رؤية الشّاعر الأصيل ذي التّجربة السّياسيّة والاجتماعيّة المتنوّعة والغنيّة، هي رؤية الشّاعر المثقّف البصير الذي التصق بال جماهير ونبت في البيئة الشّعبيّة، وأدرك أنّ ما يؤخذ غصباً لا يرجع ليئلاً وما، يؤخذ في الحرب لا يرجع في السّلم.

إنّ الثّقافة العامّة التي تمتاز بها طوقان هي ثقافة التّضحية والمقاومة بالدم والنّار، فالشّاعر الأصيل هو رهين تجربته العامّة في الحياة، ولا يمكنه أن يكتب بمعزلٍ عنها، إنّه يظلّ لصيقاً بها متأثراً بأحداثها، وقد يحدث له أن يكتب قصيدة خارج إطار تجربته العامّة- كقصيدة المناسبة- ولكنّه يعود سريعاً إلى جذوره والبيئة التي نبت فيها.

## الخاتمة

لقد أسهم هذا البحث في الكشف عن ثراء الرّمز الشعريّ وديناميّته في شعر المرأة العربيّة المعاصرة، من خلال دراسة تجلّيات الثّورة في نتاج نازك الملائكة وفدوى طوقان، كنموذجين مميّزين يمثلان مشهداً شعريّاً متفاعلاً مع التّحوّلات الاجتماعيّة والسياسيّة في العصر الحديث؛ فالرّمز لم يكن مجرد صورة جماليّة جامدة، بل صار وعاءً حيويّاً ينبض بأصوات الثّورة والتمرد، ويتجلّى في نصوصهما كصرخة واضحة ضد الظلم والاستبداد، وكتعبير عن الوجدان الجمعي للمرأة والشّعب معاً.

لقد تبيّن أنّ نازك الملائكة وظفّت الرمز بأسلوب تحريضيّ مباشر يعكس حالة الثّورة الاجتماعيّة والماديّة، في حين اتّخذت فدوى طوقان رموزها من عالمها الخاصّ متداخلة مع الوجدان الوطنيّ الفلسطينيّ، فأضفى على شعرها عمقاً إنسانياً وانتماءً تاريخياً مميّزاً. وهذه الاختلافات تعكس تنوّع التجربة النسويّة في مواجهة الواقع السياسيّ والاجتماعيّ، وتكشف عن تعدّد أدوات التّعبير الشعريّ وأفقها الرّحب.

إنّ فهم هذه التّجلّيات الرّمزيّة في شعر نازك الملائكة وفدوى طوقان لا يثري المكتبة الأدبيّة فقط، بل يفتح أفقاً معرفيّاً لفهم الدور الحيويّ للشّعر النسويّ في صناعة الوعي الوطنيّ والثّوريّ، ويؤكد على قدرة الرّمز الشعريّ على استيعاب التّحوّلات المجتمعيّة وتجاوز حدود النّصّ إلى فعل اجتماعي فاعل.

ختاماً، يبقى الرّمز الشعريّ عند نازك الملائكة وفدوى طوقان مرآة تعكس أحلام الثّورة وآلامها، ورسالة تثبت أنّ الشّعر النسويّ هو صوت مقاومة متواصل، يتحدّى الزّمان والمكان، ويحتفي بالحرّيّة والكرامة.

## المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. إسماعيل، عزّ الدين: الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنيّة والمعنويّة. دار الفكر العربي، ط 3، 2013م.
3. البياتي، عبد الوهّاب: مجلّة الآداب البيروتية، عدد 1، مارس 1966م.
4. جبرو، ببيير: علم الدلالة؛ ترجمة منذر عياشي. دار طلاس، دمشق، 1992م.
5. دكروب، محمّد: الأدب الجديد والثّورة- كتابات نقدية. دار الفارابي، بيروت، ط3، 1990م.
6. ذبيان، سامي وآخرون: . قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. رياض الرئيس للنشر، لندن، ط1، 1990م.
7. رد، هربرت (Herbert Red): الفنّ والمجتمع؛ ترجمة فارس متري ضاهر. دار القلم، بيروت، ط 1، 1975م، ص 19.
8. شوقي، أحمد: الشّوقيّات. دار الصّفا للنّشر والتّوزيع، دمشق، لا ط، لا تا.
9. طوقان، فدوى: ديوان فدوى طوقان. دار العودة، بيروت، ط1، 1978.
10. مجناح، جمال: «الزّمن في شعر محمود درويش». من أحد فصوله المنشورة في مجلّة الطّريق، العدد الثّالث، أيار - حزيران، 2002م.
11. محمد علي، إبراهيم، اللّون في الشعر العربيّ قبل الإسلام، قراءة ميثولوجيّة: جروس برس، بيروت، ط 1، 2001م.
12. الملائكة، نازك: ديوان نازك الملائكة. دار العودة، بيروت، ط2، 1970م، المجلّد الثّاني.
13. نازك الملائكة، الأعمال النّثريّة الكاملة- قضايا الشعر المعاصر، سايكولوجيّة الشعر. المجلس الأعلى للثقافة، الجزء الأوّل.
14. يازجي، رجا: «حركة المقاومة ومشكلة التنظير العقائديّ». مجلة (مواقف) العدد 8، السّنة الثّانية، آذار - نيسان، 1970م.

## المراجع الإلكترونيّة

1. Red Color psychology and Meaning. [www.colorpsychology.org](http://www.colorpsychology.org), Retrieved 17-10-2018 Edited.

# **Les effets des crises sur les entreprises libanaises**

واقع الشركات اللبنانيّة في ظلّ الأزمات المتتالية

Mélissa El Khoury

مليسا غازي الخوري

**Sous la direction du Prof. Audine Salloum**

تاريخ القبول 2025/7 /14

تاريخ الاستلام 2025 /6 /1

## **Résumé**

Les entreprises libanaises ont traversé une période de crise continue sans précédent. La pandémie, connue sous la COVID-19, a imposé la fermeture prolongée des sociétés, réduisant la consommation, tandis que le manque d'infrastructures numériques a freiné leur adaptation et leur improvisation dans le but de maintenir l'activité commerciale. L'explosion du port de Beyrouth en août 2020 a détruit des infrastructures essentielles, a entraîné des pertes économiques massives et a accéléré l'exode de talents qualifiés vers l'étranger. La dévaluation continue de la livre libanaise a aggravé la situation, augmentant les coûts d'importation et réduisant le pouvoir d'achat des consommateurs. À cela s'ajoute l'impact régional de la guerre du 7 octobre 2024, qui a perturbé les importations et accentué l'instabilité politique, décourageant les investisseurs étrangers. Ces crises ont conduit à une contraction significative dans des secteurs clés comme le tourisme, l'industrie et le commerce, contraignant de nombreuses petites et moyennes entreprises

à cesser leurs activités. En d'autres termes, ces crises qui se suivent ont conduit à l'effondrement économique du pays conduisant à son tour à l'application des termes de la faillite à certaines entreprises.

### Mots clés :

Crise, entreprises libanaise, faillite, impécuniosité

### الملخص

تحمّلت الشركات اللبنانية مرحلة غير مسبوقة من الأزمات المتواصلة. فقد فرضت جائحة كوفيد-19 إغلاقات طويلة الأمد، ما أدّى إلى تراجع الاستهلاك، في حين أعاق غياب البنية التحتية الرقمية قدرة الشركات على التكيف والاستمرار في العمل. كما أدّى انفجار مرفأ بيروت في آب 2020 إلى تدمير البنى التحتية الحيوية، وتكبيد الاقتصاد خسائر جسيمة، وتسريع وتيرة هجرة الكفاءات إلى الخارج. وزادت الأزمة تعقيداً مع استمرار تدهور قيمة الليرة اللبنانية، ما أدّى إلى ارتفاع كلفة الاستيراد وتراجع القدرة الشرائية للمواطنين. وتفاقمت هذه التحديات مع النداءات الإقليمية لحرب 7 تشرين الأول 2024 التي تسببت في تعطيل سلاسل التوريد وزيادة حالة عدم الاستقرار السياسي، ما نفّر المستثمرين الأجانب. وقد أدّت هذه الأزمات المتلاحقة إلى انكماش كبير في قطاعات أساسية مثل السياحة والصناعة والتجارة، وأجبرت العديد من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة على الإغلاق. وباختصار، دفعت هذه الأزمات المتتالية البلاد إلى حافة الانهيار الاقتصادي، وأجبرت العديد من الشركات على الدخول في إجراءات الإفلاس. الكلمات المفتاحية: أزمة، الشركات اللبنانية، إفلاس، عجز مالي.

### Introduction

1. Les entreprises libanaises luttent pour se reconstruire après la COVID, l'explosion du 4 août à Beyrouth, l'inflation du dollar américain et la guerre du 7 octobre 2024.



**2.**La pandémie, soit la COVID-19, a marqué le début d'une période de bouleversements économiques sans précédent, durant laquelle les entreprises libanaises ont dû faire face à des fermetures prolongées. Les confinements successifs ont entraîné une interruption des activités commerciales. Et avec la réduction de la consommation et l'absence de touristes internationaux, de nombreuses sociétés ont enregistré des pertes significatives, alors que celles basées au niveau d'autres pays ont rapidement adopté des modèles numériques qui n'étaient pas présents au Liban. De nombreuses entreprises libanaises n'avaient ni l'infrastructure ni les ressources nécessaires pour se moderniser comme tel.

**3.**L'explosion du port de Beyrouth le 4 août 2020 a aggravé les difficultés financières et économiques des entreprises localisées sur le territoire libanais et ceci par la destruction des infrastructures qui étaient proches du port, qui abritaient des dizaines d'entreprises, par les dommages directs qui ont été estimés à plusieurs milliards de dollars, et qui ont affecté directement les sociétés commerciales et les chaînes d'approvisionnement et enfin, par le fait que l'explosion a accéléré l'émigration de nombreux professionnels qualifiés, privant les entreprises locales de talents essentiels.

**4.**La crise monétaire, exacerbée par la dévaluation continue de la livre libanaise vis-à-vis du dollar américain, a créé une hausse des coûts d'importation, les entreprises dépendantes des biens importés ont vu leurs charges augmenter de manière significative. De plus, il y a eu une réduction du pouvoir d'achat,

les consommateurs, touchés par cette crise, ont sévèrement réduit leurs dépenses et enfin, l'accès aux crédits bancaires en devise libanaise ou étrangère est devenu presque impossible pour la plupart des entreprises commerciales et même pour les profanes.

5. Suite à toutes ces crises, à impact financier, susmentionnées, un dernier événement devrait être mentionné et celui-ci est la guerre du 7 octobre 2024. Bien que la guerre ne se déroulait pas initialement et directement sur le territoire libanais, ses conséquences régionales affectent le pays. Le Liban, fortement dépendant des importations, souffre des perturbations régionales dues au conflit. L'instabilité politique est mise en relief et cette guerre a augmenté les tensions internes rendant toute réforme économique encore plus difficile mettant en place une atmosphère d'instabilité géopolitique décourageant, ainsi, les investisseurs internationaux et limitant les capitaux disponibles pour la relance financière.

6. Suite à l'élévation rapide, ces événements ont eu de profondes implications économiques, notamment une contraction significative dans des secteurs principaux tels que le tourisme, l'agriculture, l'industrie manufacturière, le commerce et d'autres services. Le dérèglement des activités commerciales et des chaînes d'approvisionnement, les bombardements directs et la baisse de la demande des consommateurs ont contraint une grande partie des entreprises, en particulier les micro-entreprises et les petites et moyennes entreprises, à mettre fin à leurs activités commerciales ou à les suspendre. Le PNUD





(Programme des Nations unies pour le développement) estime que la hausse du taux de chômage affectera environ 1,2 millions de travailleurs dans le pays atteignant ainsi un chiffre alarmant de 32,6 % d'ici la fin de l'année<sup>1</sup>. Alors, quels seront les effets de l'impact des crises sur les entreprises libanaises? En premier lieu, il faudra s'attarder sur la notion d'effondrement économique de ces entreprises (TITRE I) et en second lieu, il faudra étayer l'idée de la gestion des faillites dans le cadre libanais (TITRE II).

### **Titre 1<sup>er</sup> : la notion d'effondrement économique des entreprises libanaises**

7. Les effets des crises susmentionnées sont significatifs. En cinq ans, la livre libanaise a perdu plus de 98 % de sa valeur vis-à-vis du dollar américain, aboutissant, ainsi, à une inflation importante qui a rendu les produits de base hors de prix pour une part des citoyens. Afin de tenter d'enrayer le phénomène et d'en dissuader profiteurs de cette situation, le ministre de l'Économie libanais a lancé une application mobile pour dénoncer des hausses de prix trop importantes mais tous ces efforts n'ont abouti. Dans un pays coincé, la Banque mondiale estime le taux de pauvreté absolue, soit une part de la population soit 50% vit avec moins de 1,90 dollar par jour. En 2023, le taux de chômage a atteint 30%. Sans emploi et sans perspective de viabilité, les nouvelles générations choisissent l'exode et

---

(1) SWEID M., UNDP, « Escalade des hostilités au Liban : le Programme des Nations Unies pour le développement met en garde contre une crise socio-économique », < <https://www.undp.org/lebanon/press-releases/escalade-des-hostilites-au-liban-le-programme-des-nations-unies-pour-le-developpement-met-en-garde-contre-une-crise-socio>>, 24 octobre 2024, visité le 26-12-2024.

ont arrêté d'y croire<sup>1</sup>. L'effondrement économique n'a pas eu, uniquement, un impact direct sur les profanes. En effet, les entreprises localisées sur le territoire libanais ont eu leur part de ces crises.

8. Selon le cabinet de statistiques Information International, le Liban a vu partir 175.500 de ses citoyens en 2023, près de 200 % de plus que l'année précédente. Cette fuite des cerveaux ternit encore un peu plus l'avenir de ce pays<sup>2</sup>. Sans main-d'œuvre pour reconstruire une économie enfoncée et menacée par une guerre totale, le futur du pays s'annonce de plus en plus sombre. De ce fait il serait intéressant de discuter du contexte économique des entreprises libanaises (A) pour qu'ensuite donner des exemples de secteurs commerciaux vivement touchés (B).

### **A-Le contexte économique des entreprises libanaises**

9. Le Liban se trouve dans une situation de blocage institutionnel et d'impasse économique aggravés par un environnement régional marqué par une forte instabilité politique. Les perspectives de stabilisation financière à court et moyen terme demeurent très incertaines, en grande partie conditionnées par l'évolution du conflit au Sud du pays. Les réformes économiques et les négociations avec le FMI (Fond Monétaire International) restent paralysées, et les indicateurs macroéconomiques affichent une

(1) THOMAS P-L., Le particulier Figaro, « L'économie libanaise s'enfoncé un peu plus dans le chaos », < [\(2\) Ibid.](https://www.lefigaro.fr/conjoncture/l-economie-libanaise-s-enfonce-un-peu-plus-dans-le-chaos-20240928#:~:text=Dans%20la%20soci%C3%A9t%C3%A9%20les%20effets,une%20partie%20de%20la%20population>”, 28 septembre 2024, visité le 26-12-2024.</a></p>
</div>
<div data-bbox=)



dégradation en permanence. Le PIB (Produit Intérieur Brut), qui a été réduit de 60 % par rapport à 2018, s'est stabilisé en 2022 autour de 20 milliards de dollars. Bien que l'inflation a été ralentie, elle reste présente et significative, atteignant environ 70% au début de l'année 2024. Certains signaux, tels que le niveau des importations et l'indice PMI (Purchasing Manager's Index—indice des directeurs des achats), laissent observer une reprise partielle de l'économie réelle, désormais largement soutenue par la diaspora libanaise par le transfert de fonds et les retours des saisonniers par exemple et l'expansion de l'économie informelle<sup>1</sup>.

**10.** Le secteur bancaire libanais reste largement dysfonctionnel, affrontant des défis majeurs de solvabilité et de liquidité, exacerbés par des pertes estimées à 75 milliards de dollars. Le déséquilibre des bilans commerciaux est préoccupant, ils affichent un passif de 90 milliards de dollars de dépôts clients, contre un actif de 84 milliards de dollars de dépôts auprès de la Banque centrale, en grande partie disparus comme par magie. La dévaluation de la livre libanaise a anéanti la valeur des fonds propres aux banques, compromettant leurs stabilités juridique et financière. Jusqu'en 2023, le secteur bancaire parvenait à générer des profits principalement grâce aux opérations de change sur la plateforme صيرفة et à l'investissement de liquidités offshore à des taux élevés. Cependant, l'arrêt de la plateforme en question a fragilisé davantage le modèle

---

(1)Ministère de l'économie, des finances et de l'industrie, «Direction générale du trésor », <<https://www.tresor.economie.gouv.fr/Pays/LB/cadrage-general#:~:text=Entre%202019%20et%202023%2C%20les,par%20les%20d%C3%A9penses%20de%20fonctionnement>>, 27 juin 2024, visité le 27-12-2024.

économique dessiné, en l'absence d'octroi de crédits, et des indications suggèrent que certains dépôts en dollars pourraient être utilisés pour financer les dépenses courantes de certaines institutions bancaires, soulevant des enjeux de conformité et de transparence. En parallèle, une montée en puissance rapide d'un secteur financier non bancaire commence à voir le jour, faiblement ou non régulé, qui constitue un défi pour la supervision juridique et accroît les risques de non-conformité, notamment en matière de lutte contre le blanchiment d'argent. Par ailleurs, la dollarisation croissante de l'économie et l'expansion d'un secteur informel opérant en espèces accentuent les risques juridiques et économiques. Le recours accru à une économie en espèce, qui est passé de 4,5 milliards de dollars en 2020 à 9,9 milliards de dollars en 2022, représentant désormais 46 % du PIB, a des répercussions juridiques significatives. Cette tendance réduit l'efficacité de la collecte fiscale, compliquant le contrôle fiscal et augmentant les risques de criminalité financière, tels que le blanchiment d'argent et le financement illicite. Pour remédier à cette situation, une réforme législative et réglementaire du secteur financier est impérative, afin de restaurer la confiance, renforcer les mécanismes de conformité et limiter l'économie parallèle. L'absurdité de la situation et son imposition soudaine n'a pas préparé les mentalités commerciales, les mettant, ainsi, dans une situation de déni malgré que tous les indices pendant des décennies dévoilaient les répercussions que le pays traverse en ce moment.



## **B. Les secteurs commerciaux touchés par les crises**

**11.** Les crises successives au Liban ont profondément impacté les secteurs commerciaux, mettant en danger leur fonctionnement et leur continuation. Le secteur bancaire, autrefois pilier de l'économie, a été gravement affaibli par des pertes massives, des restrictions sur les dépôts et l'incapacité à octroyer des crédits, privant ainsi les entreprises de liquidités essentielles.

**12.** Le commerce de détail a également été fortement touché. La baisse du pouvoir d'achat a réduit la demande intérieure, fragilisant particulièrement les petits commerces. La hausse des prix des biens importés et la concurrence accrue de l'économie informelle ont exacerbé leurs difficultés.

**13.** Le secteur touristique, déjà affecté par les tensions politiques, a subi un déclin marqué avec la pandémie de COVID-19 et l'instabilité sécuritaire. Les hôtels et restaurants fonctionnent au ralenti, dépendant principalement des expatriés libanais en visite saisonnière.

**14.** L'immobilier et la construction, autrefois moteurs de croissance, ont été paralysés par le manque de financements, la baisse des investissements et le manque accru de liquidité. Les projets en cours ont été suspendus et la valeur des biens immobiliers a considérablement baissé.

**15.** Le secteur médical fait face à des pénuries critiques de médicaments et de fournitures, aggravées par les difficultés d'importation et de marchés noirs. Les hôpitaux et les pharmacies peinent à répondre à la demande croissante tout en subissant une hausse des coûts.

**16.**L'industrie manufacturière a également souffert de la flambée des coûts des matières premières, des coupures d'électricité et de l'instabilité monétaire, limitant sa production et sa compétitivité.

**17.**Les pénuries de carburant ont lourdement impacté les secteurs de l'énergie et des transports, augmentant les coûts logistiques et provoquant des interruptions dans les chaînes d'approvisionnement sans oublier la hausse des prix facturée à toute sorte d'entreprises.

**18.**Le secteur technologique, bien que plus résilient, a été freiné par les coupures d'électricité et l'exode des talents qualifiés, limitant ainsi son développement et son évolution.

**19.**Autrement dit, ces crises ont conduit à des fermetures massives d'entreprises, une montée du chômage et à une perte de confiance des investisseurs. La relance de ces secteurs dépendra de réformes structurelles et législative, d'un accès accru au financement et à un environnement juridique stable pour favoriser la reprise économique.

**20.**S'intéressant spécifiquement aux entreprises à portée et visée commerciales, les chiffres de défaillance de celle-ci sont globalement dans la moyenne de ce qui peut s'observer au sein des autres domaines d'activité. Avec une hausse mesurée par nombre de secteurs, montrant ainsi la résilience des commerçants, dont l'activité a pourtant été particulièrement perturbée par l'inflation en 2023. Les magasins multi-rayons (épiceries, superettes, supermarchés) enregistrent ainsi une hausse limitée tout comme le commerce de détail alimentaire

(boulangeries-pâtisseries, boucheries, charcuteries...)¹.

**21.** Au Liban et partout dans les alentours, les crises qui sont survenues l'une à la suite de l'autre ont impacté considérablement le secteur commercial et financier qui a tout de même essayer de se relever mais parfois en vain.

### **Titre 2<sup>nd</sup>: La gestion de la faillite au Liban**

**22.** La gestion de la faillite au Liban est confrontée à de nombreux défis, reflétant les failles structurelles du cadre juridique et économique du pays. Le système actuel repose sur des lois obsolètes, largement inspirées du droit français du début du XX<sup>e</sup> siècle, qui ne répondent plus aux besoins des entreprises modernes et développées. Ces lois manquent de mécanismes efficaces pour permettre la restructuration des entreprises en difficulté, les contraignant souvent à opter directement pour une liquidation désordonnée. Notant que le droit de la faillite libanais en cours en ce moment date de 1942.

**23.** Les tribunaux commerciaux, chargés de superviser ces procédures, souffrent d'un manque de spécialisation et de ressources légales et financières, ce qui entraîne des retards et un manque de transparence. Par ailleurs, l'absence de hiérarchisation claire des créances complique la protection des droits des créanciers, notamment les banques, dont la récupération des fonds n'est pas garantie. Cette situation accentue les fermetures brutales et soudaines des sociétés commerciales, entraînant, ainsi, des pertes d'emplois massives

---

(1) MAUREL L., «Commerces en faillites : quels sont les secteurs les plus impactés?», < <https://lecommerce.fr/faillites-dentreprises-quels-sont-les-secteurs-du-commerce-les-plus-impactes/>>, 23 janvier 2024, visité le 28-12-2024.

et une baisse de la confiance des investisseurs.

**24.**En l'absence d'un cadre adapté, de nombreuses entreprises formelles disparaissent, alimentant la croissance de l'économie informelle. Ce secteur, non régulé et échappant aux obligations fiscales, aggrave les distorsions économiques et les difficultés de collecte de recettes publiques.

**25.**Pour remédier à cette situation, il est crucial de moderniser le cadre juridique en introduisant des lois inspirées des meilleures pratiques internationales. Celles-ci devraient inclure des procédures de redressement, de restructuration et de liquidation ordonnées. Par conséquent, il est essentiel de renforcer les tribunaux commerciaux en formant des juges spécialisés en la matière et en améliorant leur efficacité technique. La mise en place de mécanismes alternatifs de résolution des litiges, tel que l'arbitrage, pourrait également faciliter les négociations entre entreprises et créanciers mais ceci demande également un travail législatif acharné.

**26.**Une hiérarchisation claire des créances, garantissant une répartition équitable des actifs en cas de liquidation des biens, est nécessaire afin de protéger les droits des créanciers. Enfin, il est indispensable de créer des fonds de soutien pour accompagner les entreprises viables mais temporairement en difficulté, tout en luttant contre l'économie informelle par des incitations fiscales et réglementaires. De ce fait, il sera important d'étudier spécifiquement la notion de faillite (A) pour qu'ensuite pouvoir s'attarder sur la notion d'impécuniosité à l'égard de celle de la faillite (B).



## A.La notion de faillite en droit libanais

27.Le système de la faillite a été défini depuis le Moyen Âge, avec des débuts dans les villes commerciales du nord de l'Italie. Ses règles revêtaient alors un caractère punitif et répressif. On parlait de « banca rotta » ou de « banqueroute », terme provenant de l'idée que « le banc du vendeur est brisé ». Ensuite, le terme a élargi son sens pour inclure l'idée de faillite, mais il désignait également les actes criminels commis par le commerçant failli, qui étaient punis selon leur gravité, soit par des peines légères si la faillite était mineure, soit par des peines criminelles si elle était frauduleuse<sup>1</sup>.

28.Quant au mot « faillite » en arabe, il dérive du mot «فلوس», qui désigne l'état d'un homme n'ayant plus d'argent, c'est-à-dire passant de la prospérité à la détresse. Il en découle que l'idée de faillite est étroitement liée à celle des biens, et plus précisément à celle de la responsabilité financière des individus. Les biens sont le pivot principal de la plupart des systèmes juridiques, et le législateur, à chaque étape, s'efforce de garantir l'intérêt financier des individus, que ce soit par le droit pénal ou même à travers les règles du droit commercial. Conscient des besoins observés pour dynamiser l'activité des commerçants, le législateur a consacré les principes de confiance et de rapidité dans les transactions commerciales, cherchant à assurer l'efficacité de ces deux principes dans chaque disposition du code de commerce, en établissant un système de faillite visant à créer un cadre légal pour les obligations du failli. La faillite

---

(1) س. جلول، نظام الإفلاس وخصائصه بعد تعديل قانون التجارة 2019 (مع الاجتهاد الحديث)، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت-لبنان، 2023، ص 5.

libanaise est donc une stigmatisation qui frappe le débiteur, ternissant son dossier commercial et altérant ainsi les contours de sa vie professionnelle. Le législateur a, par le biais des textes légaux, cherché à rendre le système de faillite plus fonctionnel, afin d'éviter que le commerçant n'y ait recours par tous les moyens possibles, compte tenu des conséquences néfastes qu'elle entraîne tant pour le débiteur que pour les créanciers.

**29.** De plus, la faillite se distingue des actions juridiques, comme l'action directe, l'action indirecte ou l'action paulienne, consacrées dans le droit civil, car ces dernières nécessitent de nombreuses conditions dont les effets ne se répercutent que sur la personne qui les a engagées. Le créancier qui initie une action bénéficie seul de ses résultats. Ainsi, le créancier qui intente sa demande en premier en tire profit, récupérant l'intégralité de sa créance avant les autres créanciers<sup>1</sup>, laissant aux autres créanciers la seule option d'intenter une nouvelle action pour recouvrer la valeur de leur créance à partir des actifs restants du débiteur. Par conséquent, le législateur a estimé que cette situation ne s'accordait pas avec la nature des transactions commerciales, et il était donc nécessaire de mettre en place des règles spécifiques et un système particulier pour les commerçants et les transactions commerciales, en adéquation avec la rapidité et la confiance qui caractérisent

(1) Aux termes de l'art. 268 COC, « Le créancier a un droit de gage général, non pas sur les biens de son débiteur, isolément envisagés, mais sur le patrimoine même de ce débiteur, considéré dans sa généralité.

Ce droit, qui fait du créancier l'ayant-cause à titre universel de son débiteur, ne lui confère, par lui-même, ni droit de suite, ni droit de préférence: tous les créanciers chirographaires sont, en principe, placés sur le même plan, sans distinction tirée de la date de la naissance de leurs droits, et réserve faite des causes légitimes de préférence procédant de la loi ou de la convention ».

les relations commerciales. Ainsi, un système de faillite actuel, utilisé a été établi. La faillite est donc un moyen d'exécution collective visant à maintenir l'égalité entre tous les créanciers, permettant de vendre les biens du commerçant en cessation de paiement et de distribuer le produit de cette liquidation entre les créanciers sans aucune préférence, sauf si l'un d'eux bénéficie d'un privilège ou d'un gage<sup>1</sup>.

**30.** Ainsi, le commerçant, débiteur, se trouvant dans une situation désespérée, est soumis à une action collective visant à préserver l'égalité des droits des créanciers<sup>2</sup>. Ainsi, en droit libanais, la faillite n'est qu'une procédure d'exécution visant à organiser les obligations du failli par rapport à ses actifs, où les éléments d'actifs et de passifs sont déterminés puis liquidés afin d'essayer de restituer au mieux les créances dues à échéance. Le droit civil, quant à lui, ne comporte pas de système de liquidation collective des biens du débiteur qui a manqué à ses obligations de paiement, et par conséquent reconnaît le principe de la poursuite individuelle, où chaque créancier a le droit de se retourner contre son débiteur et de saisir ses biens, bien qu'il permette aux autres créanciers, en cas de présence, de participer à l'exécution.

## **B. La relation entre l'impécuniosité et la faillite**

**31.** La notion d'impécuniosité est relative au manque ou à l'absence de liquidités ou de ressources financières, Autrement dit, le manque d'actif. Un failli est considéré comme impécunieux

(1) س. جلول، نظام الإفلاس وخصائصه بعد تعديل قانون التجارة 2019 (مع الإجتهد الحديث)، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت-لبنان، 2023، ص 7.

(2) LECUYER H., « La faillite de l'entreprise en droits libanais et français », CEDROMA, 2004, p. 165.

lorsqu'il ne dispose pas de moyens financiers nécessaires afin de subvenir à ses besoins qui se traduisent par la restitution des dettes des créanciers intéressés. Cette impécuniosité peut résulter de différents facteurs, tels que des difficultés économiques, des pertes financières, des dettes importantes, un manque d'actif ou de revenus insuffisants pour couvrir les dépenses courantes et les dettes dues. Elle peut toucher aussi bien le débiteur, personne physique ou morale. Par conséquent, quand le débiteur est considéré impécunieux, ceci ne s'arrête pas au niveau de cette description, comme ça a été mentionné ci-dessus. En réalité, diverses implications juridiques significatives, notamment dans le cadre de la faillite en droit libanais peuvent survenir entraînant, ainsi, la création d'un facteur déterminant pour les décisions qui seront prises concernant la gestion des actifs, le remboursement des dettes, ou l'octroi de mesures de protection ou d'aide financière. L'impécuniosité du débiteur serait, donc, un facteur indispensable et qui devrait être pris en compte dans le cadre d'une faillite car il met en relief les décisions concernant l'ouverture de la procédure, la gestion des actifs et l'élaboration de celle-ci, tout respectant, tant que possible, les intérêts des créanciers et des parties prenantes impliquées. Autrement dit, le pouvoir financier du débiteur permettra de guider les intéressés et le juge compétent dans leurs observations tout en permettant à ce dernier de mettre en place la bonne démarche à suivre en notant que l'impécuniosité irréversible aura de forts impacts

**32.** En ce qui concerne le droit libanais, la cessation de paiement est l'arrêt de paiement des dettes commerciales venues à

échéance. Il n'est pas nécessaire que le commerçant cesse de payer toutes ses dettes commerciales dues, mais il suffit qu'il en arrête le paiement d'une seule, quelle qu'en soit son importance ou sa priorité. La créance non payée doit toutefois être de nature commerciale ou relative à des besoins commerciaux, et non civile, comme celles en rapport avec les besoins personnels, familiaux ou domestiques du commerçant afin que le sujet de faillite soit entamé. Une personne physique ou morale ne peut être déclarée en faillite, même s'elle est insolvable, tant qu'elle s'acquitte de ses dettes commerciales à leur échéance, à condition que les moyens de paiement utilisés soient licites. Le commerçant est également considéré comme en cessation de paiements s'il ne maintient pas la confiance financière en lui, sauf à l'aide de moyens manifestement illicites<sup>1</sup>. La dette dont le paiement est interrompu doit être commerciale à la date de la cessation de paiements. Il appartient au juge pénal d'évaluer si le commerçant est en état de cessation de paiements de ses dettes commerciales.

**33.**La décision du tribunal commercial concernant la cessation de paiement et la déclaration de faillite ne lie pas le juge pénal, qui peut reconnaître le commerçant coupable de faillite, même si le tribunal commercial a conclu à l'absence des conditions de la faillite. Si, au cours d'un procès civil, commercial ou pénal, il apparaît que le commerçant est manifestement en état de faillite, le tribunal peut appliquer les dispositions de la faillite, même si celle-ci n'a pas été officiellement déclarée, conformément à

---

(1) وفقاً للمادة 489 من قانون التجاري اللبناني: مع الاحتفاظ بتطبيق أحكام الباب السابق يعدّ في حالة الإفلاس كلّ تاجر ينقطع عن دفع ديونه التجاريّة، وكلّ تاجر لا يدعم الثقة الماليّة به الا بوسائل يظهر بجلاء أنّها غير مشروعة.

l'article 498 du Code de commerce libanais<sup>1</sup>. La cessation de paiement des dettes commerciales peut être prouvée par tous moyens de preuve et laissés à l'appréciation du juge saisi du litige. Donc, en d'autres termes, en droit libanais, il faut que le débiteur soit en arrêt de paiement et pas besoin de prouver qu'il y a plusieurs défaillances de paiement il suffit qu'il n'ait restitué au moins une dette commerciale et qu'il soit en détresse financière afin qu'il soit nommé failli. Enfin, en droit libanais, au débiteur de déclarer son impuissance économique<sup>2</sup> et ceci relève de sa responsabilité et à défaut il sera suivi pénalement.

**34.** L'impécuniosité a été un facteur déterminant dans la faillite de nombreuses entreprises libanaises suite aux crises successives. Les restrictions bancaires ont privé ces sociétés de l'accès à leurs liquidités, indispensables pour couvrir leurs charges courantes telles que les salaires, les loyers ou le paiement des fournisseurs. En parallèle, la dévaluation massive de la livre libanaise a entraîné une hausse des coûts des matières premières et des produits importés, compliquant davantage la gestion financière des entreprises. La baisse du pouvoir d'achat de la population a réduit la demande intérieure, impactant directement les revenus des entreprises. De plus, la migration d'une partie importante de la population active et des investisseurs a encore aggravé cette chute de la consommation. Face à cette situation

(1) وفقاً للمادة 498 من قانون التجاري اللبناني: إذا ظهر للمحكمة عرضاً في أثناء محاكمة مدنية أو تجارية أو جزائية أن التاجر في حالة إفلاس ظاهرة فيحق لها، وإن يكن الإفلاس لم يعلن، أن تطبق أحكام الإفلاس الأساسية كما هي محددة في هذا الكتاب.

(2) وفقاً للمادة 491 من قانون التجاري اللبناني: يجوز أن ترفع القضية إلى المحكمة بتصريح من التاجر نفسه، ويجب عليه أن يقوم بهذا التصريح في خلال عشرين يوماً من تاريخ انقطاعه عن الدفع والا استهدف لارتكاب جنحة الإفلاس التقصيري وعليه أن يودع في الوقت نفسه موازنة مفصلة ومصدق على كونها مطابقة لحالة موجوداته والديون المطلوبة منه.



économique, de nombreuses entreprises ont dû s'endetter davantage, souvent à des taux d'intérêt significatif, ce qui a entraîné leur fragilité économique. L'impossibilité de rembourser leurs dettes à échéance a souvent conduit à des litiges juridiques ou à la faillite. L'absence de cadre juridique efficace pour la réorganisation des dettes ou la protection contre la faillite a accentué les difficultés. Les entreprises se sont retrouvées soumises à leurs créanciers sans possibilité de négocier des solutions viables. De plus, la montée de l'économie informelle, opérant en dehors des règles législatives fiscales et sociales, a créé une concurrence déloyale qui a fragilisé davantage les entreprises. En somme, le manque de liquidités, l'effondrement de la demande, l'endettement accru et l'absence de soutien juridique ont formé un cercle vicieux conduisant à la fermeture de nombreuses sociétés à visée commerciale. La mise en place de réformes juridiques et économiques est essentielle dans le but de restaurer la confiance, soutenir les entreprises et relancer l'économie libanaise.

### **Conclusion**

**35.** Les crises que le Liban essaie de surmonter ne sont pas uniquement basées sur des faits économiques. En revanche, elles ont révélé la fragilité des entreprises locales face à ce contexte économique dévastateur. Dans le but de surmonter cette atmosphère une réforme juridique, en premier lieu, doit voir le jour. Celle-ci permettra, peut-être de donner une nouvelle chance au système financier libanais essayant, ainsi, de le redresser dans la mesure du possible.

**36.** Les entreprises locales, qui constituent le cœur de l'économie, se retrouvent particulièrement exposées et mises en relief dans ce contexte de crise. En effet, leurs fragilités s'expliquent par des problèmes tels que la dépendance excessive au système bancaire, le manque de diversification économique, et la faiblesse juridique. Cette vulnérabilité a été exacerbée par la dévaluation de la livre libanaise, l'hyperinflation et les restrictions bancaires, qui ont limité leurs capacités à opérer efficacement.

**37.** Afin de surmonter cette situation, ou au moins dans le but d'y essayer, une réforme juridique est impérative. Celle-ci doit inclure plusieurs démarches. En premier, il faut qu'il y ait un renforcement de la transparence et de la responsabilité et ceci en mettant en place des lois plus strictes pour lutter contre la corruption et favoriser la transparence dans les activités commerciales. En second, la protection des investisseurs et des entreprises devrait être une priorité en modernisant le cadre juridique dans l'objectif d'offrir un environnement plus favorable aux investissements, locaux et étrangers, et dans le but, aussi, de protéger les petites et moyennes entreprises (PME) contre les crises économiques et financières. En troisième, la restructuration du secteur financier devrait être mise en place et établissant une législation qui facilite la restructuration du secteur bancaire et l'amélioration de la confiance au sein de ce système. Cela inclura la garantie des dépôts et des mécanismes clairs pour gérer les défaillances bancaires. Enfin et le plus important, serait la mise en place sérieuse de l'ancien droit de la faillite datant de 1942. Ce droit n'est plus d'actualité et ne répond plus au demande du marché. Il faudra le restructurer et



l'élaborer afin de construire un cadre juridique qui permettra aux entreprises en difficulté de se réorganiser ou de liquider leurs actifs de façon équitable.

**38.** Avec l'adoption d'une telle réforme juridique, le Liban pourrait commencer à stabiliser son système financier et à redonner confiance aux investisseurs et aux acteurs économiques. Cette étape cruciale, bien qu'insuffisante à elle seule, constituerait un point de départ essentiel pour la reconstruction et la résilience du pays face à ses multiples défis.

### **Bibliographie**

#### **Ouvrage:**

H. LECUYER, « La faillite de l'entreprise en droits libanais et français », CEDROMA, 2004, p. 165.

#### **Webographie**

–SWEID M., UNDP, « Escalade des hostilités au Liban : le Programme des Nations Unies pour le développement met en garde contre une crise socio-économique », < <https://www.undp.org/lebanon/press-releases/escalade-des-hostilites-au-liban-le-programme-des-nations-unies-pour-le-developpement-met-en-garde-contre-une-crise-socio>>, 24 octobre 2024.

–THOMAS P-L., Le particulier Figaro, « L'économie libanaise s'enfoncé un peu plus dans le chaos », < <https://www.lefigaro.fr/conjoncture/l-economie-libanaise-s-enfonce-un-peu-plus-dans-le-chaos-20240928#:~:text=Dans%20la%20soci%C3%A9t%C3%A9%20les%20effets,une%20partie%20de%20la%20population>>, 28 septembre 2024.

–Ministère de l'économie, des finances et de l'industrie, « Direction générale du trésor », < <https://www.tresor.economie.gouv.fr/Pays/LB/cadrage-general#:~:text=Entre%202019%20et%202023%2C%20les,par%20les%20d%C3%A9penses%20de%20fonctionnement>>, 27 juin 2024.

–MAUREL L., « Commerces en faillites : quels sont les secteurs les plus impactés ? », < <https://lecommerces.fr/faillites-dentreprises-quels-sont->

les-secteurs-du-commerce-les-plus-impactes/>, 23 janvier 2024.

بيبليوغرافيا

المؤلفات العامة

س. جلول، نظام الإفلاس وخصائصه بعد تعديل قانون التجارة 2019 (مع الاجتهاد الحديث)، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت-لبنان، 2023.

# A Multimodal analysis of Two Commercial and CSR Online Bank Advertisements in Lebanon

## Authors

تحليل متعدد الوسائط لإعلانين مصرفيين عبر الإنترنت في لبنان: إعلان تجاري وإعلان المسؤولية الاجتماعية

Samar El Hachem<sup>1</sup>

سمر الهاشم

Advisor: Prof. Talal Wehbe<sup>2</sup>

Co-advisor: Dr. Rabih Nabhan<sup>3</sup>

تاريخ القبول 2025 /7/24

تاريخ الاستلام 2025 /7 /3

## Abstract

In today's digital landscape, bank advertisements have become increasingly complex, necessitating a deeper understanding of their various components. This research seeks to fill a gap in existing studies by investigating how multimodal analysis frameworks may be applied to Lebanese bank advertisements to uncover the underlying strategies and use of semiotic resources. Specifically, it examines two online advertisements from Creditbank prior to 2019, encompassing both sales and non-sales content. It employs concepts from Kress and Van Leeuwen's metafunctions, Cheong's Generic Structure Potential (GSP), and the text-image relations proposed by Martinec and Salway to analyze the persuasive and visual strategies used in these ads. While previous research has underscored the significance of understanding how

(1) Holy Spirit University of Kaslik, USEK

Email: alhashem.samar@gmail.com

(2) Holy Spirit University of Kaslik, USEK

Email: talal\_wehbe@baylor.edu

(3) Holy Spirit University of Kaslik, USEK

Email: rabihnabhan@usek.edu.lb

various semiotic resources interact in ads, there has been limited examination of Lebanese bank ads. Thus, this study seeks to evaluate the relevance of the theoretical frameworks mentioned and illustrate how Creditbank's ads engage and persuade their target audience. The findings contribute significantly to the analysis of multimodal discourse, particularly in the context of the Lebanese banking sector.

**Keywords:** Multimodal analysis, Lebanese bank ads, Creditbank, visual grammar, semiotic resources

### الملخص

في المشهد الرقميّ الزّاهن، أصبحت إعلانات البنوك أكثر تعقيداً، مما يستدعي فهمًا أعمق لمكوناتها المتعدّدة. يسعى هذا البحث إلى سدّ فجوة في الدّراسات الحالية من خلال دراسة كيفية تطبيق أطر التّحليل متعدّد الوسائط على إعلانات البنوك اللّبنانيّة، للكشف عن الاستراتيجيات الكامنة واستخدام الموارد الدّلاليّة فيها. على وجه الخصوص، يفحص البحث إعلانين إلكترونيين من بنك الاعتماد اللّبنانيّ قبل العام 2019، ويشمل ذلك محتوىّ ترويجيّاً وغير ترويجيّ. يستعين البحث بمفاهيم الوظائف اللّغويّة لكريس وفان ليوين، وإمكانات البنية العامة لتشيوغ، وعلاقات النّص-الصّورة التي وضعها مارتينيك وسالوي لتحليل الاستراتيجيات الإقناعيّة والبصريّة في هذه الإعلانات. رغم أنّ الأبحاث السّابقة أكّدت أهمية فهم تفاعل الموارد الدّلاليّة المختلفة في الإعلانات، فإنّ الدّراسات التي تناولت إعلانات البنوك اللّبنانيّة تظلّ محدودة. لذا، يهدف هذا البحث إلى تقييم مدى ملائمة الأطر النّظريّة المشار إليها وبيان كيفية جذب إعلانات بنك الاعتماد اللّبنانيّ لجمهورها المستهدف وإقناعه. تسهم النّتائج إسهاماً مهمّاً في تحليل الخطاب متعدّد الوسائط، لا سيما في سياق القطاع المصرفيّ اللّبنانيّ.

### الكلمات المفتاحيّة

التّحليل متعدّد الوسائط، إعلانات البنوك اللّبنانيّة، بنك الاعتماد اللّبنانيّ، قواعد الصّورة البصريّة، الموارد الدّلاليّة

## 1. Introduction

Multimodal advertisements have become an industry standard, combining visuals and words to convey ad messages more effectively (Kress & van Leeuwen, 2006). The integration of resources is crucial in advertising as it impacts consumer perception and behavior (Macagno & Souza Pinto, 2021). This study investigates the meaning connections between words and images in Lebanese bank ads from Creditbank, focusing on a commercial ad promoting the Visa Signature card and a CSR ad supporting the Movember campaign for men's health. Representing two distinct types of ads—commercial and CSR—both are analyzed using semiotic approaches specific to each.

Using multimodal discourse analysis frameworks, including Kress and van Leeuwen's metafunctions (2006), Cheong's Generic Structure Potential (2004), and Martinec and Salway's text-image relations (2005), this comparative study aims to shed light on the semiotic practices characterizing these two types of ads. While ads like the Visa Signature are quintessentially promotional, CSR initiatives exist with missions to raise awareness and sensitize people to social issues (Njoku & Mbagwu, 2023). This research compares the two, thus broadening the knowledge on how semiotic resources are co-participated in meaning making and how the producers of multimodal advertising texts attempt to manipulate the audience's perceptions and behavior (Macagno & Souza Pinto, 2021). Creditbank's ads were selected due to their dual focus on exclusivity and social responsibility, reflecting broader trends in financial advertising. While other banks also

have relevant ads, Creditbank was chosen for its well-regarded status, the availability of suitable ads, and a preference for its specific approach. This choice ensures the analysis includes representative commercial and CSR ads from the pre-2019 period, without implying that other banks lack similar options.

## **2. Research and findings**

### **2.1 Background of the Problem**

In the banking realm, advertising appeals are employed to grab and retain consumers' attention. This trend is most noticeable in multimodal ads that combine text, image, color, and gesture to communicate a range of messages within a single condensed piece of text (Kress & Van Leeuwen, 2006). These ads harmoniously integrate multiple modes to create compelling stories. Macagno and Souza Pinto (2021) assert that the process of reconstructing the multimodal arguments in an ad requires the involvement of pragmatics and argumentation theory, aiding in understanding how the visual and verbal features shape viewers' perceptions based on the advertisers' intentions. The two ads under study are analyzed using multimodal discourse frameworks and are presented in Figures 1 and 2.

Even if the body of literature on multimodal advertisements, in general, is growing, the analysis of Lebanese bank ads regarding their multimodal elements appears to be an area that has not been adequately researched. Recent studies, such as that by Macagno and Souza Pinto (2021), have emphasized the importance of analyzing the interplay between visual and verbal elements in ads. However, their study overlooked the Middle Eastern perspective.



Njoku and Mbagwu (2023) applied verbal picture decoding in the analysis of multimodal aspects— such as images, bold prints, and the use of figures of speech— of internet ads. Nonetheless, their study addressed only Nigerian banks, which indicates the lack of advertisement research regarding Lebanese banks. Moreover, Kress and Van Leeuwen's metafunctions, Cheong's Generic Structure Potential, and Martinec and Salway's text-image relations, to name a few, have not been applied to Lebanese bank ads as much as researchers would have liked. Cheong (2004) asserts that it is of utmost importance to dissect the structural elements of an ad in order to account for its persuasive effectiveness. In addition, Martinec and Salway (2005) offer an account of the interdependence in multimodal texts through the use of combined codes within the verbal and visual continuum. Using these theoretical frameworks, this study aims to bridge such gaps by providing a detailed analysis of a commercial and non-commercial ad of Creditbank that existed before the year 2019.

## **2.2 Statement of the Problem**

The advancement in technology has greatly enhanced people's understanding of the multifaceted aspects of advertising. Particularly with regard to the banking sector, the breadth of advertisements has evolved to a more sophisticated degree in recent years. Research has demonstrated the significance of understanding the coherent integration of communication modes in ads (Macagno & Souza Pinto, 2021). However, there is a notable gap in the literature regarding the application of these

frameworks to Lebanese bank ads. The current study seeks to bridge this gap by offering an analysis of two of Creditbank's pre-2019 online commercial and non-commercial ads. In particular, it seeks to investigate the verbal and visual composition using Kress and van Leeuwen's theory on metafunctions, Cheong's Generic Structure Potential (GSP), as well as Martinec and Salway's concepts concerning the relation between text and images.

### **2.3 Justification of the Study**

Analyzing commercial and non-commercial ads, this research intends to establish the differences in the strategies of communication and their effects on decision-making and the trust of consumers. Even though this study focuses on advertising before the economic crisis, it is important to profile the current banking issues and their potential influence on advertising models. The ongoing crisis, driven by poor management, growing debt, and political instability, continues to put immense pressure on banks (Uwaydah & Kassir, 2024). Christo and Shustova (2018) note that financial advertisers have increasingly turned to fear-based strategies to engage audiences during uncertain times. They argue that effectively engaging target audiences requires a deep understanding of the semiotic and communicative aspects of ads.

Therefore, the insights from this analysis may inform future advertising strategies and provide a baseline for assessing shifts in advertising discourse and public trust over time. The findings may offer actionable insights for advertisers navigating Lebanon's





evolving economic landscape.

### 3. Materials and Methods

This study utilized qualitative multimodal discourse analysis (MDA) to examine how Creditbank utilizes visual and verbal components in its commercial and corporate social responsibility (CSR) ads. Qualitative MDA was selected since it can provide insight into the complex meanings formed by the interaction of images, text, and colors and allows a deep understanding of how different elements work together to communicate messages (Jewitt & Oyama, 2001). With this MDA approach, the semiotic strategies that quantitative analysis may overlook can be closely examined. The semiotic components in this study are highlighted in Table 1 and Table 2 for the Visa signature and Movember ads respectively (See tables at the end of the document).

The analysis focused on two of Creditbank's advertising strategies: an ad for Visa Signature and another for Movember's corporate social responsibility. They were chosen due to their representation of distinct advertising strategies—commercial and CSR—allowing for a comparative analysis. The Visa ad, sourced from Creditbank's official website: Creditbank. (2017). Visa Signature campaign [Advertising campaign]. Creditbank. <https://www.creditbank.com/-/media/Creditbank/Advertising-Campaigns/Visa-Signature-Campaign-2017.ashx>, emphasizes luxury and exclusivity to appeal to affluent consumers, reflecting common commercial strategies (Okonkwo, 2009). The Movember ad, obtained from Creditbank's Facebook page

Creditbank. (2017, November 2). Movember campaign: Raising awareness for men's health [Post]. Facebook. <https://www.facebook.com/creditbank/beirut>, highlights health awareness and community support, typical of CSR advertising (Chakraborty & Jha, 2019). Together, both offered insight into the genre-specific strategies commonly used in the financial services sector.

Three MDA frameworks were applied in the analysis, and tables were used to organize findings for clarity and comparison. The analytical process involved the following steps:

- Kress and van Leeuwen's metafunctions framework examines the representational, interactive, and compositional aspects of multimodal texts. It looks at how the subjects and themes are represented (representational), how the content engages the audience (interactive), and how the visual and verbal elements are structured (compositional) (Kress & van Leeuwen, 2021).
- Cheong's Generic Structure Potential (GSP) identifies structural components, including the Lead, Display, Emblem, and Announcement (Cheong, 2004), to show how Creditbank designs its ads to highlight either product exclusivity or social advocacy.
- Martinec and Salway's text-image relations framework complements the previous frameworks by examining the logico-semantic and status relations between text and images, highlighting how these elements work together to enhance the overall communicative effect of the ads (Martinec & Salway, 2005).

## 4. Results and Discussion

### 4.1 Visa Signature Advertisement

The Visa Signature ad discussed here is presented in Figure 1, and its semiotic components are summarized in Table 3 (Refer to the end of the document). The analysis of this ad draws upon the theoretical frameworks selected for this study. The Visa Signature ad focuses on a salable product, a premium credit card offering privileges and perks. Given its intent and message, it focuses on premium branding, luxury, and exclusive aspirations as depicted by the headline, the imagery, and color scheme. The image of a man dressed in formal attire and barely illuminated stands out as the Lead (Locus of Attention – LoA) to capture the audience’s attention. Clad in a suit, he exudes confidence, which correlates with the glamorous and high standard of living that the ad aims to portray about the Visa Signature card. The Display and Enhancer are represented by the card and the Visa and PayWave components respectively, which serve as a primary visual feature, underscoring the product’s brand identity and premium appeal. The Creditbank logo is included twice—on the card itself and again in the corner—reinforcing brand awareness and helping build trust with viewers (Lyu et al., 2024). The Announcement, formulated in the Arabic headline which translates to “A Card for Exclusivity” and the preceding words “Visa Signature,” implies exclusivity and high standards, reinforcing the ad’s emphasis on setting the product apart from others. At the bottom of the advertisement, the Call-and-Visit area provides information and invites potential clients to visit Creditbank. This section acts as a channel through which potential customers who need more

details about the Visa Signature card can reach the bank. It is noteworthy to mention the flipped–page effect which enhances the hierarchical flow by directing the viewers’ attention from the LoA to the emblem in the lower right of the ad, perhaps to unveil the advertised high–end experience and create a sense of continuity and movement via the bank.

## 4.2 Movember Advertisement

The Movember ad discussed here is presented in Figure 2, and its semiotic components are summarized in Table 4 (Refer to the end of the document). The analysis of this ad draws upon the theoretical frameworks selected for this study. The Movember ad seeks to raise awareness of different health issues and rally support for a social cause without directly promoting any brand or product. It centers on a young man with a large mustache, creating a jovial portrayal through his interesting, playful expression and the prominent facial features, which together serve as the Lead (Locus of Attention – LoA), gesturing with a lighthearted thumb up for the campaign about men’s health awareness. The Display is symbolized by the man’s bushy mustache, representing men’s participation in Movember, which uses facial hair as a visible marker to raise awareness about men’s health issues (Movember Foundation, 2023). The Emblem is the Creditbank logo, positioned at the lower right of the ad within a blue flipped–page effect, further reinforcing the bank’s association with health awareness. “Movember. Keep that smile healthy” serves as the Announcement, encapsulating the central message; it incorporates the word “smile” to focus on health awareness through the positivity



of happiness. This is complemented by the caption, “November calls for Men’s Health Awareness,” which contextualizes the campaign’s purpose within the Movember initiative and its timing in November. In the same way as other CSR advertisements, there is no clear Call-and-Visit Information that encourages the audience to make direct transactions with Creditbank. Rather, such a call to action is tangential and is directed toward making people aware of men’s health rather than promoting a particular banking product. This aligns with findings by Chae (2021), who highlights that CSR messages often prioritize indirect engagement over explicit calls to action.

### **4.3 Comparative Analysis**

Table 5 provides a comparative analysis of the two advertisements (see Tables at the end of the document). The Movember and the Visa Signature ads have different goals, yet they display some similar semiotic design features. Both use high modality in depicting visuals to enhance credibility and relatability. Additionally, both employ direct gaze, yet this feature drives audience interaction in different ways: The Visa ad inspires aspiration, and the Movember ad creates approachability.

The Call-and-Visit Information highlights a major difference. The Movember ad focuses on raising awareness of men’s health rather than explicitly calling for banking services, while the Visa Signature ad provides direct contact information to encourage instant engagement with the bank’s services.

The core message of the ads is reinforced by the green color, which represents trust and growth in both scenarios (Singh, 2006).

Despite their shared use of color, the ads' target audiences differ. The Movember ad caters to the general public, particularly men, emphasizing relatability and health consciousness, while the Visa Signature ad targets wealthy, aspirational consumers who appreciate exclusivity and luxury.

In terms of text–image relations, both ads employ Equal Status between the Primary Announcements and the men's figures (LoAs), as they are equally prominent in conveying exclusivity and relatability. In other words, the Announcements "Visa Signature – A Card for Exclusivity (translation from Arabic)" and "Movember. Keep that smile healthy" work in tandem with the portrayed men's images to communicate the themes of exclusivity and health respectively.

As for the logico–semantic relations, ads use Enhancement since the Primary Announcements in them reinforce the meanings of the images. However, the Movember ad uniquely incorporates Extension to contextualize the timeframe (November) and purpose (health awareness), adding a layer of meaning absent from the Visa Signature ad.

Finally, the flipped–page effect is also used in the framing of both ads to represent the advertised experiences. Together, these features show how Creditbank's branding approach balances exclusivity and friendliness to reach diverse audiences.

## **5. Conclusion**

The results of this analysis demonstrate that commercial and CSR ads employ different semiotic resources to fulfill their respective objectives while also revealing shared design elements that reflect



broader advertising practices in the financial services sector. The emphasis on exclusivity (as in the Visa Signature ad) and the focus on socially responsible marketing (as in the Movember ad) are prevalent in commercial and CSR advertising techniques across the financial services sector, and are not exclusive to a single brand. Upshaw and Amyx (2017) explore various forms of exclusivity in marketing, highlighting its widespread application beyond luxury goods. Additionally, Adewole (2024) examines how CSR initiatives can enhance brand reputation and consumer behavior, indicating a sector-wide adoption of socially responsible marketing initiatives

The findings suggest that the semiotic resources identified in this study—through the application of Kress and Van Leeuwen’s metafunctions, Cheong’s Generic Structure Potential, and Martinec and Salway’s text–image relations—can serve as valuable indicators for categorizing similar commercial and CSR ads. These insights can help advertisers and marketers in the banking sector to design more effective campaigns by leveraging the identified semiotic resources.

By examining the common and different features of Creditbank’s two ads, the study shows how multimodal strategies can be customized for various purposes, such as promoting a sense of exclusivity in commercial ads or fostering community trust in CSR campaigns.

For future research, it would be valuable to study ads from other banks or ad categories to further support these findings. Additionally, exploring how logico–semantic relations are employed

across different ad categories could expand understanding of how multimodal ads shape brand identity and audience perceptions.

Figure 1: Creditbank 2017 Visa Signature Ad Figure 2: Creditbank 2017 Movember Ad



## Tables

Table 1: Analysis of Semiotic Components in the Visa Signature Advertisement Using Cheong's Generic Structure Potential (GSP)

| Text                                                                                                                                                                                                                          | Image                                                                                                                 |
|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p><b>The Primary Announcement :</b></p> <p>"VISA Signature" and "الإمتياز بطاقة" (A Card for Exclusivity)</p>                                                                                                                | <p><b>The Lead</b><br/>(LoA)</p>  |
| <p><b>Status: Equal and Complementary:</b></p> <p>Both the text and image reinforce the theme of exclusivity. The text emphasizes the product's prestige, while the image visually represents sophistication and success.</p> |                                                                                                                       |
| <p><b>Logico-Semantic Relation: Enhancement</b></p> <p>The text enhances the image by explicitly tying the visual of the man to the product's exclusivity message.</p>                                                        |                                                                                                                       |



|                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                             |                                                                                                                                                                                                               |                                                                |                                                                                                                                                                                                               |
|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p><b>The Primary Announcement:</b></p> <p>“VISA Signature” and “للإمتياز ببطاقة” (A Card for Exclusivity)</p>                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              | <p><b>The VISA Signature card<br/>(Explicit Display)</b></p>                                                                 |                                                                |                                                                                                                                                                                                               |
| <p><b>Status:</b></p> <p>Equal and Complementary: The text and image share equal importance. The text names and describes the card’s exclusivity, and the card visually represents the promoted product.</p>                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                |                                                                                                                                                                                                               |                                                                |                                                                                                                                                                                                               |
| <p><b>Logico–semantic relations:</b></p> <p>Enhancement: The text reinforces the exclusivity and prestige of the card.</p> <table border="1" data-bbox="151 728 1117 1064"> <tr> <td data-bbox="151 728 717 1064"> <p><b>Enhancer</b></p> <p>The Visa and PayWave on the card</p> </td><td data-bbox="717 728 1117 1064"> <p><b>Lead<br/>(LoA) and<br/>Complement<br/>to Locus of<br/>Attention<br/>(Comp. LoA–<br/>the dark<br/>background)</b></p>  </td></tr> </table> |                                                                                                                                                                                                               | <p><b>Enhancer</b></p> <p>The Visa and PayWave on the card</p> | <p><b>Lead<br/>(LoA) and<br/>Complement<br/>to Locus of<br/>Attention<br/>(Comp. LoA–<br/>the dark<br/>background)</b></p>  |
| <p><b>Enhancer</b></p> <p>The Visa and PayWave on the card</p>                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              | <p><b>Lead<br/>(LoA) and<br/>Complement<br/>to Locus of<br/>Attention<br/>(Comp. LoA–<br/>the dark<br/>background)</b></p>  |                                                                |                                                                                                                                                                                                               |
| <p><b>Status: Unequal but Complementary</b></p> <p>The Visa and PayWave on the card provide functional and symbolic value, while the image remains dominant in conveying aspirational success.</p>                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |                                                                                                                                                                                                               |                                                                |                                                                                                                                                                                                               |
| <p><b>Logico–Semantic Relation: Enhancement</b></p> <p>The Visa and PayWave on the card enhance the portrayal of the man’s success, suggesting the product as the enabler.</p>                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |                                                                                                                                                                                                               |                                                                |                                                                                                                                                                                                               |
| <p><b>Emblem</b></p> <p>The Creditbank logo (linguistic element) in the corner of the ad.</p>                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                               | <p><b>The Lead<br/>(LoA)</b></p>                                                                                          |                                                                |                                                                                                                                                                                                               |

**Status: Unequal but Complementary**

The Creditbank logo does not hold equal weight but complements the man's success by establishing the bank's credibility and trustworthiness.

**Logico–Semantic Relation: Elaboration**

The logo elaborates on the man's portrayal of sophistication and success, linking his confidence to the bank's credibility.

**Table 2: Analysis of Semiotic Components in the Movember Advertisement Using Cheong's Generic Structure Potential (GSP)**

| Text                                                                                                                                                                                                                                                     | Image                                                                                                                                                          |
|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p><b>The Primary Announcement \:</b></p> <p>"Movember. Keep that smile healthy."</p>                                                                                                                                                                    | <p><b>The Lead</b></p> <p>(LoA)</p>                                         |
| <p><b>Status: Equal and Complementary</b></p> <p>Both the text and image work together to communicate the health message. The text clarifies the purpose (Movember's focus on men's health awareness), while the image adds humor and visual appeal.</p> |                                                                                                                                                                |
| <p><b>Logico–Semantic Relation: Enhancement</b></p> <p>The text enhances the image by providing the health-related context behind the playful visual.</p>                                                                                                |                                                                                                                                                                |
| <p><b>Enhancer</b></p> <p>"November calls for Men's Health Awareness."</p>                                                                                                                                                                               | <p><b>Lead (LoA) and Complement to LoA (Comp. LoA– the white background)</b></p> <p>Background is simple and white, which draws focus to the man and text.</p> |

**Status: Unequal**

The text is subordinate to the image, clarifying the broader purpose of the campaign (“Movember” and men’s health awareness).

**Logico–Semantic Relation: Extension**

The text extends the meaning by adding the specific timeframe (November) and campaign focus (health awareness).

Emblem (Linguistic)

Creditbank logo in the bottom–right corner.

**The  
Lead**  
  
(LoA)

**Status: Unequal but Complementary**

The image (main visual and mustache) is dominant, while the emblem provides context about the sponsor.

**Logico–Semantic Relation: Elaboration**

The logo adds detailed information about the organization behind the campaign, linking it to Creditbank’s support.

**Table 3: Commercial Ad – Visa Signature Card**

| Component                        | Analysis                                                                                                                                                                                 |
|----------------------------------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <b>Lead (Locus of Attention)</b> | Image of a man in formal attire representing the ideal customer—confident, sophisticated, and affluent                                                                                   |
| <b>Display</b>                   | The Visa Signature card image, emphasizing the product and brand exclusivity                                                                                                             |
| <b>Emblem</b>                    | Creditbank logo reinforcing brand recognition and trustworthiness with a flipped page effect, to unveil the advertised high–end experience and create a sense of continuity and movement |
| <b>Announcement</b>              | Arabic headline translating to “A Card for Exclusivity,” directly promoting the exclusivity of the card                                                                                  |

|                                   |                                                                                                                                                                                                             |
|-----------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <b>Enhancer</b>                   | The Visa and PayWave logos on the card emphasize global usability, innovative features, and convenience, reinforcing the card's aspirational appeal.                                                        |
| <b>Call-and-Visit Information</b> | Contact information at the bottom left, providing a call-to-action for direct engagement                                                                                                                    |
| <b>Gaze &amp; Social Distance</b> | Direct gaze from the man invites viewers to identify with his status; medium-close shot creates aspiration                                                                                                  |
| <b>Color Scheme</b>               | Dark colors for exclusivity, white for clarity, green for trust and growth (logo), and blue for dependability and professionalism (Cheong, 2004; Ignyte, 2024; Palmateer, 2019; ColorPsychology.org, 2024). |
| <b>Framing</b>                    | Integrated composition—elements are not distinctly separated, connecting the product with the aspirational lifestyle.                                                                                       |
| <b>Target Audience</b>            | Affluent, aspirational consumers who value exclusivity and luxury.                                                                                                                                          |

**Table 4: CSR Ad – Movember Campaign for Men's Health Awareness**

| <b>Component</b>                 | <b>Analysis</b>                                                                                                                                     |
|----------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <b>Lead (Locus of Attention)</b> | Image of a young man holding a playful mustache prop, representing the lighthearted Movember initiative                                             |
| <b>Display</b>                   | The mustache prop symbolizing Movember and men's health awareness                                                                                   |
| <b>Emblem</b>                    | Creditbank logo in the bottom corner with a flipped page effect, unveiling the advertised experience and symbolizing a sense of continuity movement |
| <b>Announcement</b>              | "Movember. Keep that smile healthy." promoting health awareness rather than a product                                                               |
| <b>Enhancer</b>                  | "November calls for Men's Health Awareness" caption adds context, connecting the message to the Movember movement                                   |

|                                   |                                                                                                                                                                                                                                                                                                       |
|-----------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <b>Call-and-Visit Information</b> | No explicit call-to-action for banking services; instead, the ad encourages social engagement                                                                                                                                                                                                         |
| <b>Gaze &amp; Social Distance</b> | Direct, friendly gaze from the man; medium-close shot fosters relatability, making the ad accessible                                                                                                                                                                                                  |
| <b>Color Scheme</b>               | Black (mustache) for boldness and Movember's symbolic representation, white for simplicity and clarity, green (logo) for health and growth, blue for trust and reliability, and brown (shirt) for dependability (Movember Foundation, 2023; ColorPsychology.org, 2024; Ignyte, 2024; Palmateer, 2019) |
| <b>Framing</b>                    | Open composition; the flipped page effect suggests continuity, and an ongoing health initiative.                                                                                                                                                                                                      |
| <b>Target Audience</b>            | Broad public appeal, especially men, emphasizing health awareness and relatability.                                                                                                                                                                                                                   |

**Table 5: Comparative Analysis of the Commercial and CSR Ads**

| Feature                           | Similarities                                                                                                                  | Differences                                                                                                                                                                               |
|-----------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <b>Lead (Locus of Attention)</b>  | Both use a central figure to represent the core theme of the ads.                                                             | The Visa ad features a formal, confident man; the Movember ad uses a cheerful man with a mustache prop.                                                                                   |
| <b>Display</b>                    | Both ads prominently feature visual elements that are central to the message.                                                 | The Visa ad showcases the card; the Movember ad uses a mustache prop.                                                                                                                     |
| <b>Emblem</b>                     | Both ads feature the Creditbank logo prominently, reinforcing the brand identity.                                             | The Visa ad places the logo on the card and on the bottom right corner; Movember uses it once, in the bottom right corner.                                                                |
| <b>Announcement Text</b>          | Both include text to emphasize the advertisement's core message.                                                              | The Visa ad focuses on exclusivity; the Movember ad promotes health awareness.                                                                                                            |
| <b>Enhancer</b>                   | Both ads utilize Enhancers to emphasize key messages.                                                                         | The Visa ad uses Visa and PayWave; the Movember ad uses a health-awareness caption.                                                                                                       |
| <b>Call-and-Visit Information</b> | Both encourage engagement with the ad's message.                                                                              | The Visa ad provides contact information; Movember focuses on awareness without direct contact details.                                                                                   |
| <b>Gaze and Social Distance</b>   | Both ads use a direct gaze with a medium-close shot to engage viewers.                                                        | The Visa ad's gaze creates aspiration and positions the viewer at the same level as the aspirational figure; the Movember ad's gaze fosters relatability, creating a friendly connection. |
| <b>Color Scheme</b>               | Both use green to signify health and growth, blue to evoke trust and reliability, and white to convey simplicity and clarity. | The Visa ad uses black for exclusivity; The Movember ad also incorporates brown (shirt) to symbolize dependability, which is absent in the Visa ad.                                       |

|                             |                                                                                                                                                                                                     |                                                                                                                                                                                   |
|-----------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <b>Framing</b>              | Both use a flipped page effect to symbolize continuity and movement                                                                                                                                 | The Visa ad integrates composition to connect the product with aspirational lifestyles. The Movember ad's open composition reinforces inclusivity and ongoing health initiatives. |
| <b>T a r g e t Audience</b> | Both target specific audience segments.                                                                                                                                                             | The Visa ad targets affluent consumers, while the Movember ad targets a broader public, especially men.                                                                           |
| <b>Purpose</b>              | Both aim to establish a strong connection with the audience through meaningful themes.                                                                                                              | The Visa ad positions the card as a mark of exclusivity and high status, while the Movember ad promotes men's health awareness and social responsibility.                         |
| <b>Text-image relations</b> | Both ads use Enhancement to link the Primary Announcements and Leads; both feature equal status between the Primary Announcements and Leads; and both use Elaboration to Link the Emblems and Lead. | Movember incorporates Extension to add context about timeframe and health awareness.                                                                                              |
| <b>Brand Image Emphasis</b> | Both reinforce Creditbank's reputation by appealing to audience values.                                                                                                                             | The Visa ad highlights exclusivity and an upper-crust lifestyle, while the Movember ad positions Creditbank as a socially responsible organization.                               |

## References

1. Adewole, O. (2024). Translating brand reputation into equity from the stakeholder's theory: An approach to value creation based on consumer's perception & interactions. *Journal of Sustainable Business*, 9(1).
2. Chae, M. (2021). Driving consumer engagement through diverse calls to action in corporate social responsibility messages on social media. *Sustainability*, 13(7), 3812. <https://www.mdpi.com/2071->

[1050/13/7/3812](#)

3. Chakraborty, A., & Jha, A. (2019). Corporate social responsibility in marketing: A review of the state-of-the-art literature. *Journal of Social Marketing*, 9(4), 418–446. <https://doi.org/10.1108/JSOCM-01-2019-0005>
4. Cheong, Y. Y. (2004). The construal of ideational meaning in print advertisements. In K. L. O'Halloran (Ed.), *Multimodal discourse analysis: Systemic functional perspectives* (pp. 163–195). Continuum.
5. Christo, K., & Shustova, E. (2018). Fear appeals in marketing communications of banks and insurance companies in the continuum of dramatic–tragic situations: The semiotic perspective. *Russian Journal of Communication*, 10(3), 256–272. <https://doi.org/10.1080/19409419.2018.1529338>
6. ColorPsychology.org. (2024). The impact of colors on consumer behavior. Retrieved from <https://www.colorpsychology.org>
7. Creditbank. (2017). Visa Signature campaign [Advertising campaign]. Creditbank. <https://www.creditbank.com/-/media/Creditbank/Advertising-Campaigns/Visa-Signature-Campaign-2017.ashx>
8. Creditbank. (2017, November 2). Movember campaign: Raising awareness for men's health [Post]. Facebook. <https://www.facebook.com/creditbank/beirut>
9. Ignyte. (2024). The psychology of color in branding. Ignyte. Retrieved from <https://www.ignytebrands.com/the-psychology-of-color-in-branding>
10. Jewitt, C., & Oyama, R. (2001). Visual meaning: A social semiotic approach. In T. van Leeuwen & C. Jewitt (Eds.), *Handbook of visual analysis* (pp. 135–156). SAGE Publications.
11. Kress, G., & van Leeuwen, T. (2006). *Reading images: The grammar of visual design* (2nd ed.). Routledge.
12. Lyu, L., Abidin, S. B. Z., Shaari, N. B., Yahaya, M. F. B., & Jing, L. (2024). Logo Impact on Consumer's Perception, Attitude, Brand Image and Purchase Intention: A 5 Years Systematic Review. *International Journal of Academic Research in Business and Social Sciences*, 14(3), 861–900.
13. Macagno, F., & Souza Pinto, R. B. W. (2021). Reconstructing multimodal



- arguments in advertisements: Combining pragmatics and argumentation theory. *Argumentation*, 35(2), 141–176. <https://doi.org/10.1007/s10503-020-09525-z>
14. Martinec, R., & Salway, A. (2005). A system for image–text relations in new (and old) media. *Visual Communication*, 4(3), 337–371. <https://doi.org/10.1177/1470357205055928>
  15. Movember Foundation. (2023). About Movember: Raising awareness through the power of the mustache. <https://movember.com>
  16. Njoku, N. C., & Mbagwu, U. R. (2023). A multimodal discourse analysis of five selected online bank advertisements. *Shodh Sanchayan: An International Multidisciplinary Journal*, 14(2), 14–29.
  17. Okonkwo, U. (2009). The luxury brand strategy challenge. *Journal of Brand Management*, 16(5–6), 287–289. <https://doi.org/10.1057/bm.2008.53>
  18. Palmateer, R. (2019). The psychology of design: The color blue in marketing & branding. *IMPACT*. Retrieved from <https://www.impactplus.com>
  19. Singh, S. (2006). Impact of color on marketing. *Management Decision*, 44(6), 783–789. <https://doi.org/10.1108/00251740610673332>
  20. Upshaw, D., & Amyx, D. (2017). The nature of exclusivity. *Journal of Marketing Development and Competitiveness*, 11(2), 46–63.
  21. Uwaydah, L., & Kassir, A. (2024). Perceptions of stakeholders on the financial and economic crisis in Lebanon: An in–depth analysis. *Review of Middle East Economics and Finance*, 20(2), 153–202.

## The impact of teaching stoichiometry using Phet simulation on the learning outcomes of grade 10 students in chemistry

تأثير تدريس علم الحساب الكيميائي باستخدام محاكاة PHET على نتائج التعلّم  
لطلاب صف العاشر (الأول الثانوي) في مادة الكيمياء

Ali Abdullatif Baydoun

علي عبداللطيف بيضون<sup>1</sup>

تاريخ القبول 2025 /7/23

تاريخ الاستلام 2025 /7 /4

### Abstract

There has been an increasing need for strategies that increase teaching effectiveness while encouraging students to participate more actively in the context of changing educational practices. The purpose of this study was to investigate how well Phet Interactive Simulations teach stoichiometry and enhance students' chemistry performance in comparison to more traditional teaching methods. For three weeks, 59 Grade 10 students from a southern suburb mixed private school in Beirut, Lebanon participated in the study, which used a quasi-experimental design. Twenty students were in the control group, which received traditional instruction, and 39 students were in the experimental group, which received instruction based on Phet simulations. The study included the use of pre- and post-tests as well as primary quantitative data. Phet simulations considerably improved students' comprehension of stoichiometry, according to statistical analysis, and the experimental group's performance

(1) ماجستير بحثي في تعليم الكيمياء للمرحلة الثانوية- أستاذ كيمياء في التعلّم الثانوي - باحث تربويّ متخصص في طرائق تدريس الكيمياء للمرحلة الثانوية.

showed significant improvements in their learning outcomes. The findings, which show a p-value of 0.026, validate that Phet simulations performed better than traditional methods, indicating that they are a suggested tool for teaching difficult chemistry subjects.

### Key words

Phet Interactive Simulations, Stoichiometry, Chemistry Education, Simulation-based Learning, Educational Technology

### الملخص

لقد زادت الحاجة إلى استراتيجيات تعزز فعالية التعليم بينما تشجع الطلاب على المشاركة بشكل أكثر نشاطاً في سياق التغيرات في الممارسات التعليمية. كان هدف هذه الدراسة هو التحقق في مدى فعالية محاكاة Phet التفاعلية في تعليم علم الحساب الكيميائي وتحسين أداء الطلاب في مادة الكيمياء مقارنة بأساليب التدريس التقليدية. لمدة ثلاثة أسابيع، شارك 59 طالباً من الصف العاشر من مدرسة خاصة مختلطة في ضواحي بيروت الجنوبية في الدراسة التي استخدمت تصميمًا شبه تجريبي. كان هناك 20 طالباً في مجموعة التحكم، التي تلقت التعليم التقليدي، و39 طالباً في المجموعة التجريبية التي تلقت التعليم باستخدام محاكاة Phet. شملت الدراسة استخدام اختبارات قبلية وبعديّة، بالإضافة إلى البيانات الكمية الأساسية. أظهرت التحليلات الإحصائية أنّ محاكاة Phet قد حسّنت بشكل كبير من فهم الطلاب لعلم الحساب الكيميائي، وأظهرت نتائج أداء المجموعة التجريبية تحسّناً كبيراً في نتائج النّعلّم. وأكّدت النّتائج، التي أظهرت قيمة  $p$  تبلغ 0.026، أنّ محاكاة Phet كانت أكثر فعالية من الأساليب التقليدية، ما يشير إلى أنّها أداة موصى بها لتدريس المواضيع الكيميائية الصّعبة.

**الكلمات المفتاحية:** محاكاة Phet التفاعلية، علم الحساب الكيميائي، تعليم الكيمياء، النّعلّم المعتمد على المحاكاة، التّكنولوجيا التعليميّة.

## Chapter I: Introduction

The topic examines the role of technology in modern education, particularly how interactive tools like Phet Simulations can enhance learning outcomes.

Traditional teaching methods, which frequently fail to properly engage students, are a concern for education systems around the world, including Lebanon. With the help of these interactive resources, students can investigate difficult ideas through practical applications, providing a dynamic learning environment. Teachers can create a more dynamic and cooperative learning environment that promotes critical thinking and problem-solving abilities by incorporating such technologies into the curriculum. This change not only makes learning more interactive, but it also gets students ready to use what they've learned in the real world. In the end, integrating technology into the classroom can result in better academic achievement and a more thorough comprehension of the material.

The use of technology in the classroom has changed traditional teaching strategies over the last few decades, moving away from lecture-based, passive learning and toward more dynamic, engaging and student-centered methods. A notable advancement in this revolution may be seen in tools such as Phet Simulations, which provide dynamic, experiential learning opportunities that let students engage with complicated scientific concepts in real time.

In the context of Lebanon's education system, which faces challenges like outdated methodologies and a lack of student



engagement, this technological shift holds promise. By integrating advanced simulation tools, educators can better captivate students' attention, deepen their understanding, and provide real-world applications of abstract concepts like stoichiometry in chemistry. These innovations not only make learning more interactive but also promote critical thinking, problem-solving, and analytical skills needed in the 21st century.

The goal of this quantitative-method study is to assess the overall impact of teaching chemistry concepts using simulation tools on students learning outcomes, and ultimately mastery of chemistry concepts, starting with the fact that one of the most basic requirements of teaching and learning chemistry is the engagement of students in the learning process. The integration of technology (simulation tools) helps in the development of the 21 century skills and competences. In their article, Sam Ramaila<sup>1</sup> & Anwar Junior Molwele highlighted that: In the teaching and learning of life sciences, technology integration was thought to support the development of 21st century skills and capabilities. Teachers specifically mentioned that using technology helps students develop abilities including problem-solving, communication, critical thinking, teamwork, and computational thinking. Furthermore, it was believed that integrating technology into the classroom created an engaging atmosphere that improved students' academic performance and motivation. (Ramaila & Molwele, 2022)

Chemistry is an active, evolving science that has vital importance to our world in both the realm of nature and the realm of society,

where knowledge and understanding of its concepts depends on the perception of the chemical and physical phenomena.

A key idea in chemistry, stoichiometry. The words “stoicheion,” which means element, and “metron,” which means measure, combine to form the term “stoichiometry,” which has its origins in ancient Greek. The fundamental idea of stoichiometry, which is all about measuring and quantifying the components and compounds that contribute to a chemical reaction, is clearly shown by this language history. In short, stoichiometry aids chemists in determining the precise amounts of starting materials required as well as the amounts of products produced. Stoichiometric calculations serve as the cornerstone of chemical science, providing a crucial framework for understanding and predicting the outcomes of chemical reactions. (Hussain, Safdar, & Özarslan., 2023)

Stoichiometry allows students to forecast the quantities of reactants and products in chemical reactions by bridging the gap between theoretical knowledge and quantitative problem-solving. However, the abstract nature of the subject and the mathematical calculations required make it difficult for many grade ten students to comprehend stoichiometric principles. This has led to lower academic achievement in chemistry and widespread misconceptions and a lack of confidence in learning chemistry. (Musyoki, (2022)).

Technology integration in science instruction has improved student engagement and conceptual understanding in recent years, with encouraging outcomes. The Phet Interactive Simulations, created



by the University of Colorado Boulder, is one such resource that provides interactive and visual experiences to improve students' understanding of difficult scientific ideas.

The Phet Interactive Simulations project at the University of Colorado Boulder, which was founded in 2002 by Nobel Laureate Carl Wieman, produces free interactive scientific and math simulations. Based on a wealth of educational research, Phet simulators involve students in an easy-to-use, game-like setting where they may learn by doing. (Boulder), 2025)

Students may find it difficult to grasp stoichiometry, a crucial chemical topic, because of its intricate mathematical ideas. It is frequently difficult for traditional teaching techniques, such as lectures and textbook exercises, to hold students' attention and promote in-depth comprehension. Even if these methods have value, they might not always give students the interactive, practical experience they want to completely understand the subject.

Educational technology has made it possible to improve the learning experience in innovative ways in recent years. In particular, Phet simulations provide a visual and participatory way to explore scientific ideas. These simulations provide students a greater understanding of concepts like stoichiometry by letting them change variables and see the outcomes in real time. Students can investigate and visualize chemical topics in a hands-on way by using interactive simulations like Phet, which could provide an engaging and helpful option.

By contrasting the learning outcomes of students who use simulations with those who rely on traditional methods of teaching, this study investigates how well Phet simulations teach stoichiometry to grade 10 students. The objective is to investigate whether using these simulation resources might help students learn stoichiometry in a more interesting and efficient manner.

### 1.1 Statement of the Problem

Today, in Lebanon, it is a fact that conventional or traditional learning is no longer deemed to meet the needs of students. From the pandemic situation passing to the financial ones and even the social class inequality between regions, many causes have negatively affected education and the ways of learning in Lebanon, and hence Lebanon's education system has been severely harmed (Abourjeili, 2020).

For many students in grade 10, stoichiometry is still a difficult subject, despite its significance in the study of chemistry. Traditional methods of teaching, such as lectures, and textbook exercises, frequently fall short of capturing students' attention and may not provide them enough chances to visualize and engage with the difficult ideas being covered. Because of this, students could find it difficult to fully comprehend stoichiometric principles, which are crucial for understanding more complex chemical concepts.

With an increasing integration of technology in the classroom, interactive resources like Phet simulations have the potential to enhance student learning outcomes. These dynamic, practical learning experiences offered by these simulations may improve





students' comprehension and application of stoichiometry. Nevertheless, not much research has been done on how well Phet simulations work to enhance students' comprehension and performance in stoichiometry, especially when compared to more traditional methods of teaching.

### **1.2 Purpose of the Study**

The purpose of this study is to investigate how students' understanding and achievement are impacted when stoichiometry is taught via Phet simulations. The objective is to determine whether interactive simulations, as opposed to traditional teaching techniques, may improve students' understanding of stoichiometric concepts. The study will attempt to determine whether Phet simulations enhance students' problem-solving skills and overall learning outcomes in stoichiometry by comparing the outcomes of students who use these simulations with those who are taught in the traditional way. This study also helps to provide insight into the potential for improving science education through the use of modern technology into the curriculum. The following research question and hypothesis were proposed on the basis of the preceding.

### **1.3 Research Question**

- 1.** How does the use of Phet simulations in teaching stoichiometry impact grade 10 students' understanding and performance in chemistry compared to traditional teaching methods?

### **1.4 Research Hypothesis**

The exploration of simulation-based learning methods in

chemistry teaching reveals a significant relationship between instructional strategies and student outcomes. By focusing on the independent variable “Phet simulation”, this study aims to observe its direct impact on both grade 10 students’ understanding of stoichiometry and their overall performance in chemistry. The use of interactive simulations is expected to enhance students’ conceptual comprehension and problem-solving skills, potentially leading to improved academic outcomes and more positive attitudes toward learning chemistry.

- **Independent Variable (IV):** Teaching method—simulation-based (Phet simulation-based learning) vs. traditional.
- **Dependent Variable (DV):** Student’s outcome

**Hypothesis  $H_1$ :** The use of simulation-based learning has a positive influence on students out comes compared to traditional teaching methods.

**Null hypothesis  $H_0$ :** The use of simulation-based learning method does not influence students’ outcomes compared to traditional teaching methods.

## Chapter II: Literature Review

### 2.1 Theoretical framework

The use of interactive simulations to improve student learning, especially in complicated disciplines like stoichiometry, is supported by a number of important educational theories, which form the basis of this work. For that this study is grounded by: the cognitive load theory, experiential learning theory, and constructivism.



**1. Constructivism** (Piaget, Vygotsky): Suggests that students actively acquire knowledge through social interactions and experiences. Students learn best when they are able to manipulate and experiment with concepts in a hands-on setting, according to Piaget. (Piaget, 1952). Vygotsky highlighted the importance of social interaction and the Zone of Proximal Development (ZPD) in education, where students gain from working together and receiving advice from teachers or peers who possess greater knowledge. (Vygotsky, 1978). This theory is supported by Phet simulations, which offer an interactive environment for students to experiment visually with stoichiometric ideas. Students can actively build their understanding of stoichiometry by investigating the links between reactants and products in chemical reactions through these simulations.

**2. Experiential Learning Theory** (Kolb): The experiential learning cycle developed by Kolb places a strong emphasis on learning by doing. Students move through four phases in this model: active exploration, abstract conception, reflective observation, and tangible experience. (Kolb, 1984). Phet simulations give students the opportunity to participate in concrete activities, which supports Kolb's experiential learning cycle. Students increase their grasp of stoichiometry by participating in the active experimentation phase, which involves experimenting with various variables and viewing the results in real-time.

**3. Cognitive Load Theory** (Sweller): According to the

cognitive load theory, students' ability to comprehend information is limited. Cognitive overload can result from traditional teaching approaches that overload students with information when they are learning complicated subjects like stoichiometry. (Sweller, 1988). Phet simulations provide a visual and interactive presentation of these ideas, which reduces cognitive load. The simulations reduce cognitive overload by helping students understand the abstract ideas of stoichiometry by letting them change variables and see results right away.

Several studies in chemistry theory and practice have looked into the problems students face in appropriating objects of knowledge related to chemistry ideas. Similarly, research has been conducted on the use of simulation-based learning in the teaching of most chemistry topics.

## 2.2 Conclusion

- Constructivism offers a solid theoretical basis for the study's use of Phet simulations. The simulations' interactive and practical engagements provide support to the idea that students might get a deeper and more significant understanding of stoichiometry by actively participating and working together in groups. The theory backs up the idea that students' comprehension and performance in chemistry will be enhanced by employing Phet simulations.
- Kolb's theory supports the idea that allowing students to actively engage with the material will help them grasp stoichiometry more deeply. Students can progress through



Kolb's experiential learning cycle by using Phet Simulations to see stoichiometric ideas in action. The study's justification of the use of Phet Simulations is strengthened by this link to experiential learning, which emphasizes how learning by doing can result in better learning outcomes and a deeper conceptual understanding.

- The use of Phet Simulations in the study is justified by Cognitive Load Theory, which explains how these resources reduce mental strain and improve students' ability to concentrate on comprehending stoichiometric concepts. Phet Simulations help students better understand abstract topics by lowering cognitive overload, which enhances learning results. The study builds on this idea by arguing that students who are taught using simulations will outperform those who are taught through traditional methods.

## **2.3 Related studies**

### **2.3.1 Concept of Chemistry**

The notion of “central science” is frequently applied to chemistry. Its significance to every other science is where it gets its name. One of the most significant fields of study in science is chemistry. The study of matter's structure, composition, and transformations is known as chemistry. Everything that is mass-containing and takes up space is considered matter. Like all scientific disciplines, chemistry is a process that aims to organize and simplify. Each thing we might think of is a distinct bit of matter, and there are many different kinds of matter. In addition to matter's composition, chemistry also studies matter's structure—or how its constituent

parts interact with one another. ( Myers, 2003)

### 2.3.2 Introduction to Stoichiometry and Its Importance in Chemistry Education

One of the most crucial topics in general chemistry is stoichiometry. Usually, it is introduced after talking about unit conversions and atom components. Although it's not hard, the word's complicated sound turns off a lot of students. This makes it possible to introduce it as "mass relations." It relates to the masses of reactants, products, and components in a chemical reaction

This field is important in chemistry in different lessons such as balancing chemical equations, determining the limiting reactant, and calculating theoretical yields (Helmenstine, 2023)

### 2.3.3 Challenges in Teaching Stoichiometry

A study under the title of Recurrent Difficulties: Stoichiometry problem-solving was done in January 2018 showed that: Lack of comprehension of the mole concept, inability to balance chemical equations, use of inconsistent stoichiometric relationships, identification of the limiting reagent, determination of theoretical yields, and identification of substances in excess were the six main challenges found in the findings. In contrast to the traditional lecture approach, the study also discovered that problem-solving education was successful in resolving the issues that were found. It was highly advised that chemistry teachers examine and comprehend the challenges faced by their students in order to help them develop into competent and self-assured problem



solvers. (Shadreck & Ochonogor, 2018)

#### **2.3.4 Simulation–Based Learning in Education**

The study of Samar Thabet Jallad aimed to examine the effectiveness of simulation–based learning on the educational practice of communication skills, satisfaction, and self–confidence among undergraduate nursing students. The results showed that: Among first–year nursing students ( $n = 112$ ) who took part, 91.1% expressed great satisfaction with their simulation–based learning experiences. The posttest showed increased mean scores for self–confidence, student satisfaction, and communication skills. The practices of communication skills, satisfaction, and self–confidence were found to be suggestively correlated with simulation–based education. (Jallad, 2024)

In 2023, a study done on a sample of 42 undergraduate students studying International Relations at a university in Northern Colombia. The purpose of this study was to look into how Simulation–Based Learning (SBL), particularly in the context of the Model United Nations (MUN), might improve academic performance and foster critical thinking. Results showed that using simulations greatly increased students’ comprehension, which in turn produced better learning results. ( Rico, Pacheco, Pabon, & Portnoy, 2023)

Another study done in 2018; supports the expanded usage of computer simulations in lab courses as teaching tools. The study’s hypothesis was that students may be encouraged to learn analytically and creatively by using the time they would have

saved by playing with realistic computer simulations. (Whitworth, Leupen, Rakes, & Bustos, 2018)

Among 142 chemistry students, 134 physics students, and 12 teachers, a study conducted in Kayonza District, Rwanda. The study addressed common misunderstandings about chemistry and physics. Researchers noted in their results that the abstract nature of physics and chemistry topics was successfully diminished by simulation-based learning. The mean scores of both subjects significantly improved between the pre- and post-tests, with the post-test findings clearly demonstrating an advantage. (Iyamuremye, et al., 2023)

### 2.3.5 Phet Simulations in Chemistry Education

Evangeline Omoy in his article: "Phet Interactive Simulations: A Tool in Improving Academic Performance of Grade 10 Students in Balancing Chemical Equations" which was published in 2023 in Philippines, evaluated how well the Phet interactive simulation worked as a tool to help students improve their academic performance in the fourth quarter of grade 10 science, specifically in the area of balancing chemical equations, which is the least mastered skill. The results showed that it was clear that using Phet interactive simulations was a useful strategy for improving students' academic achievement. It is a useful intervention or remediation tool for helping students become proficient in solving equations. This suggests that Phet interactive simulation is a useful tool for improving students' proficiency in balancing chemical equations, which in turn improves academic achievement. (Omoy, 2023)





The impact of Phet interactive simulations on students' perceptions and learning outcomes in a General Chemistry II course at the City College of New York was investigated in the study "Examining the Use of Phet Simulations on Students' Attitudes and Learning in General Chemistry II" by Issa I. Salame and Jana Makki (2021). 158 students who had used Phet simulations during their lab sessions participated in the study. The study revealed that students' attitudes and perspectives regarding learning chemistry were generally improved by Phet simulations. The simulations, according to the students, helped them acquire a conceptual comprehension of chemical concepts and content. It has been discovered that Phet simulations assist students to learn and comprehend complex ideas that are frequently difficult to grasp in traditional laboratory settings. (Salame & Makki, 2021)

Another study done in 2024, evaluated the effectiveness of a guided inquiry learning model integrated with Phet simulations in enhancing students' critical thinking abilities and comprehension of reaction rate concepts. The results showed that students using Phet simulations for guided inquiry significantly outperformed students in traditional discovery learning environments in terms of both critical thinking and conceptual knowledge. These results highlight how simulation-supported guided inquiry can be used to build a dynamic and captivating learning environment that encourages deeper cognitive processing and retention. (Drastisianti, Dewi, & Alighiri, 2024)

Similarly, Ganasen and Shamuganathan (2017) highlighted the role of Phet in addressing misconceptions in chemical

equilibrium. In their article:” The Effectiveness of Physics Education Technology (Phet) Interactive Simulations in Enhancing Matriculation Students’ Understanding of Chemical Equilibrium and Remediating Their Misconceptions”. According to the study’s findings, the students in the treatment group outperformed the students in the comparison group in terms of achievement. Additionally, fewer students in both groups had misconceptions, although the experimental group outperformed the comparison group. ( Ganasen & Shamuganathan, 2017)

## 2.4 Summary

The literature review emphasizes the theoretical underpinnings of constructivism, experiential learning, and cognitive load theory—three important educational theories—that support the use of Phet simulations in stoichiometry instruction. The goals of employing interactive simulations to enhance student outcomes are in line with these theories, which place an emphasis on active involvement, experiential learning, and lowering cognitive overload.

The review also covers a number of studies that have investigated the efficacy of simulation-based learning in different educational contexts. These studies show how simulation technologies, such as Phet, have enhanced chemistry students’ understanding, problem-solving abilities, and engagement. Phet simulations’ capacity to improve academic performance is further supported by specific research on their use in chemistry education, particularly in areas like understanding abstract concepts and balancing chemical equations.



This literature offers a convincing rationale for using Phet simulations in your study, arguing that they can enhance students' learning results overall and assist in addressing the challenges they encounter while comprehending stoichiometry. The study aims to bridge the gap between more interactive, student-centered learning experiences and traditional teaching methods by implementing Phet simulations.

### **Chapter III: Methodology**

#### **3.1 Introduction**

This study is aimed at determining the impact of teaching stoichiometry using Phet simulation on students learning outcomes. This chapter presented a general outline of the methodology to be used in conducting the study.

#### **3.2 Methodology Selected**

This study will employ a **quantitative approach** to assess and investigate the relationship between two variables: the teaching method (Phet simulations vs. traditional teaching) and students' outcome in stoichiometry.

An essential component of evidence-based decision-making is quantitative research. Its significance is unambiguous: quantitative approaches offer empirical rigor, allowing practitioners (business), policymakers (government), and preachers (academic) to extract useful insights from data. (Lim, 2024)

#### **3.3 Sample**

The study sample was selected using the purposive sampling

method, which is one of the types of non-probability samples. Purposive sampling also called judgment sampling enabled focused selection, ensuring that the participants were well-suited to answering the study questions at hand ( Etikan, Musa, & Alkassim , 2016,).

The current study's participants were students from my class, divided into three grade 10 sections (of total number 59 students.). The study was carried out in a mixed private high school in the academic year 2024–2025; the school's name will not be mentioned due to ethical considerations. Chemistry is the main topic of the study. The school offers the Lebanese curriculum in Arabic and English for students in kindergarten through grade twelve. The school administration granted all approvals for the study's application. Each student's name and academic standing will be kept private thanks to the dedication to confidentiality, which enables them to concentrate on their studies undisturbed and without influencing their final grades Students in grade 10 vary from 15 to 16 years old. They were divided into a one control group (20 students) and two experimental groups (39 students). Both groups were specifically chosen to meet the goals of the study and come from the same socioeconomic background. The educational level of students at the school does not vary significantly from section to section, providing a more controlled environment in which to perform the study. With this kind of sample, the researcher can choose participants according to particular traits that support the study's objectives. In this case, the homogeneity of the academic levels of the two groups served as the basis for student selection. This kind of

sample offers a thorough grasp of the phenomenon under study in the particular context of the study, despite the fact that it could restrict or limit the generalizability of its results.

### 3.4 Research Design

This study used a quasi-experimental control group design (Cambell & Stanley, 1963), with a pre-test, post-test. Both the experimental group and the control group were taught differently. Two groups were used in the study: the control group (CG) and the experimental group (EG) for the students in grade 10, The control group (CG) was taught concepts using the traditional method ( $X_0$ ), while the experimental group (EG) was exposed to the Phet simulations teaching as treatment (X). The quantitative data collected from the post-test were analysed using SPSS.

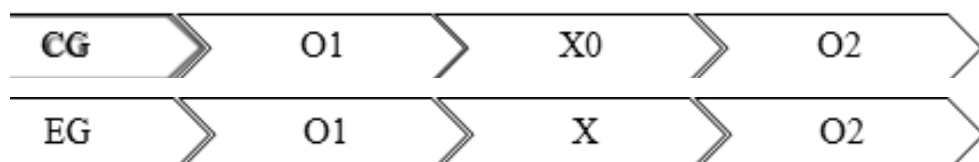


Figure :1 Research design Diagram

#### Legend:

- EG1 = Experimental Group
- CG = Control Group
- X= Phet simulation-based learning
- X0= Traditional Method of learning
- O1=pre-test
- O2 = post-test

### 3.5 Procedure

Both the control and experimental groups were taught by the researcher, a chemistry teacher with many years of experience and an excellent relationship with his students.

For three weeks starting from 7th March, the students in grade 10 were taught the concepts of stoichiometry in two groups (control group (CG) and the experimental group (EG) through 50-minute sessions held three times a week. The control group (CG) learned the concepts of stoichiometry: stoichiometric mixture, non-stoichiometric mixture limiting and excess reagent using traditional learning such as textbooks, whiteboard explanations, PowerPoint presentations, and PDF resources), while the experimental group (EG) learned the same concepts using Phet-simulation and the white board). For both groups the same educational content was delivered but with different learning strategies in order to effectively compare the two methods and their effects on students' outcome. Each idea was explained in great detail in this lesson, which was then followed by practice exercises and sample problems.

Before the intervention, the researcher gave the students introductory notes. To help students feel at ease and confident utilizing the program, these notes helped them on how to use the Phet simulation platform as well as provided troubleshooting advice for typical technical problems.

Students in the experimental group participated in nine sessions where they were split up into groups and used tablets to work with the Phet simulation under the guidance of the lectur-



ers. They examined various stoichiometric ideas simulation in real life. Throughout the lessons, the teacher led the class, explaining everything and promoting group discussions following each simulation exercise. The 50-minute session was broken down as follows: the teacher introduced the topic for around 10 to 15 minutes, and then students engaged with the simulation for 25 to 30 minutes. This gave them a chance to explore the concepts in a dynamic, visual setting. A debriefing and group discussion are then held to make sure everyone understood and to clear up any misunderstandings that might have occurred during the simulation.

Following these three weeks the post test was held.

The assessment's results were examined to determine if the Phet simulation-based method and traditional stoichiometry learning produced significant differences in learning outcomes. Furthermore, the information gathered was intended to provide light on the teaching methods that helped students grasp stoichiometry principles more deeply.

### **3.6 Research instrumental tool**

The instruments used are:

- Pretest.
- Post (achievement) test.

#### **3.6.1 Pretest**

The teacher used their average grades in term 1 and the formative assessments that the students underwent as comparison data to show that these sections are similar and homogeneous, and this

was referred to as the pre-test. This method enabled the teacher to create a baseline for comparison, guaranteeing that the chosen issues could be evaluated cohesively.

### **3.6.2 Post (achievement) test**

Following the lesson and the intervention, the students in both groups completed the post-test. The purpose of this test is to evaluate the student's academic performance in the selected lesson. As a result, multiple Bloom's taxonomy levels will be tested. One of the most important ways to evaluate students' academic performance and comprehension of the subject matter is to provide a post-test after instructional interventions. Different levels of Bloom's taxonomy can be used by educators to assess students' application, analysis, and synthesis skills in addition to their retention of knowledge. ( Bloom, 1956)

The following procedures were taken into account when preparing the post-test (achievement) First, using the current curriculum (Lebanese) as a guide, teaching objectives were established for the topics targeted in the class. To ascertain which strategy was more effective, their outcomes would be contrasted with those of the control group, which was instructed using traditional lecture-based strategy.

The posttest duration was 45 minutes, and it was made up from two exercises.

### **3.7 Validity of the post-test**

Before any pre- or post-test is considered as a trustworthy instrument for gathering data, it must be validated. (TECH, 2007)





Chemistry coordinator and two teachers confirmed the validity of the instruments (curricular specialists approved). They looked over the tests and explained the questions, including whether they were testing and what they were supposed to test, they highlighted some changes

that led to a few slight modifications and remarks. They also made sure the items were clear to prevent ambiguity. They verified that the questions were suitable for the students in the study. They looked for any potential errors in the instrument and recommended fixes. Additionally, enough time was provided for answering the instrumental tests.

## **Chapter IV: Result and Discussion**

This chapter presents the findings of the study, which aimed to investigate the impact of using Phet simulations in teaching stoichiometry on Grade 10 students' learning outcomes. Descriptive statistics, tests of normality, paired sample t-tests, and Mann–Whitney U tests were employed to assess students' performance across control and experimental groups before and after the intervention.

### **4.1 Test of Normality**

To determine the appropriate statistical tests, the normality of students' grade tests (Kolmogorov–Smirnov and Shapiro–Wilk) were performed for both the control and experimental groups to examine whether the data met the assumption of normality.

**Table 1:**  
**Tests of Normality (Shapiro–Wilk) for students’ Grades**

| Group              | Kolmogorov-Smirnov <sup>a</sup> |    |                   | Shapiro-Wilk |    |       |
|--------------------|---------------------------------|----|-------------------|--------------|----|-------|
|                    | Statistic                       | df | Sig.              | Statistic    | df | Sig.  |
| Control Group      | 0.148                           | 20 | .200 <sup>*</sup> | 0.956        | 20 | 0.459 |
| Experimental Group | 0.151                           | 39 | 0.026             | 0.928        | 39 | 0.016 |

The Shapiro–Wilk test showed that the control group’s data was normally distributed ( $W = 0.956$ ,  $p = .459$ ). However, the experimental group data significantly deviated from normality ( $W = 0.928$ ,  $p = .016$ ), justifying the use of non–parametric tests for inter–group comparisons involving the experimental group.

## 4.2 Findings from Pre and Post–tests

This section presents the changes in student performance within and between groups based on pre–test (Term 1 average grades) and post–test scores.

### 4.2.1 Homogeneity of the groups before the intervention

To examine the homogeneity of the groups before the intervention, the Term 1 average grades were analysed (Table 2). The control group (Class A) had a mean of 12.73 ( $SD = 3.48$ ), while the combined experimental group (Classes B and C) had a mean of 12.55 ( $SD = 3.62$ ). The difference between the groups was minimal (1.01%), suggesting that students had comparable academic levels before the treatment phase, thus supporting the validity of the comparative analysis conducted post–intervention.

**Table 2:**  
**Baseline Comparison of Student Performance**

|                | Control Group |         | Experimental Group |             |
|----------------|---------------|---------|--------------------|-------------|
|                | Class A       | Class B | Class C            | Class A & B |
| N              | 20            | 19      | 20                 | 39          |
| Mean           | 12.73         | 12.66   | 12.45              | 12.55       |
| Std. Deviation | 3.48          | 3.77    | 3.56               | 3.62        |

### 1.1.2 Control Group

Analyses of the intra-group test results for the control group were performed using paired samples tests to compare performance before (pre-test) and after (post-test) the intervention. The results are presented in the tables below.

**Table 3:**  
**Descriptive Statistics for Pre- and Post-Test Scores in the Control Group**

| Test Type |                | N  | Mean  | Std. Deviation |
|-----------|----------------|----|-------|----------------|
| Pretest   | Section A (CG) | 20 | 12.73 | 3.48           |
| Posttest  | Section A (CG) | 20 | 13.40 | 3.61           |

The control group showed a slight improvement in performance from pre-test ( $M = 12.73$ ,  $SD = 3.48$ ) to post-test ( $M = 13.40$ ,  $SD = 3.61$ ).

**Table 4:**  
**Paired Sample T-Test for Control Group**

| Paired Samples Correlations |                                                                                  |    |             |       |
|-----------------------------|----------------------------------------------------------------------------------|----|-------------|-------|
|                             |                                                                                  | N  | Correlation | Sig.  |
| Pair 1                      | Mean Pretest Control Group (Section A) & Mean Posttest Control Group (Section A) | 20 | 0.998       | 0.000 |

| Paired Samples Test |                                                                                                             |                    |                    |                                                 |          |          |         |    |                    |
|---------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--------------------|--------------------|-------------------------------------------------|----------|----------|---------|----|--------------------|
| Mean                |                                                                                                             | Paired Differences |                    |                                                 |          |          | t       | df | Sig.<br>(2-tailed) |
|                     |                                                                                                             | Std.<br>Deviation  | Std. Error<br>Mean | 95% Confidence<br>Interval of the<br>Difference |          |          |         |    |                    |
|                     |                                                                                                             |                    |                    | Lower                                           | Upper    |          |         |    |                    |
| Pair 1              | Mean<br>Pretest<br>Control<br>Group<br>(Section<br>A) – Mean<br>Posttest<br>Control<br>Group<br>(Section A) | -0.67500           | 0.24468            | 0.05471                                         | -0.78951 | -0.56049 | -12.337 | 19 | 0.000              |

The paired-sample t-test revealed a statistically significant improvement,  $t(19) = -12.34$ ,  $p < .001$ , indicating a modest yet significant learning gain through traditional instruction. The effect size, Cohen's  $d = 2.76$ , indicates a very large impact of the traditional method.

#### 4.2.3 Experimental Group

Analyses of the intra-group test results for the experimental group were performed using Mann-Whitney U tests to compare performance before (pre-test) and after (post-test) the intervention. The results are presented in the tables below.

**Table 5:**  
**Experimental Group Pre and Post-test Scores**

| Grades Report |                           |         |                           |         |                        |         |
|---------------|---------------------------|---------|---------------------------|---------|------------------------|---------|
|               | Section B (EG1)<br>(N=19) |         | Section B (EG2)<br>(N=20) |         | All Sections<br>(N=39) |         |
| Pretest       | M=12.66                   | SD=3.77 | M=12.45                   | SD=3.56 | M=12.55                | SD=3.62 |
| Posttest      | M=15.39                   | SD=2.83 | M=15.53                   | SD=2.67 | M=15.46                | SD=2.71 |

Both experimental sections (B and C) showed improvement, with combined post-test scores averaging  $M = 15.46$  ( $SD = 2.71$ ), compared to pre-test scores  $M = 12.55$  ( $SD = 3.62$ ).

**Table 6:**  
**Mann-Whitney U Test for Experimental Group Pre- and Post-Test Comparisons**

| Descriptive Statistics |    |       |                |         |         |             |                  |       |
|------------------------|----|-------|----------------|---------|---------|-------------|------------------|-------|
|                        | N  | Mean  | Std. Deviation | Minimum | Maximum | Percentiles |                  |       |
|                        |    |       |                |         |         | 25th        | 50th<br>(Median) | 75th  |
| Grades                 | 78 | 14.01 | 3.50           | 7.00    | 20.00   | 11.50       | 14.00            | 17.00 |
| Test Type              | 78 | 1.50  | 0.503          | 1       | 2       | 1.00        | 1.50             | 2.00  |

| Mann-Whitney Test               |          |           |              |         | Test Statistics <sup>a</sup> |          |
|---------------------------------|----------|-----------|--------------|---------|------------------------------|----------|
| Ranks                           |          |           |              |         |                              | Grades   |
| Test Type                       | N        | Mean Rank | Sum of Ranks |         | Mann-Whitney U               | 403.500  |
| Grades                          | Pretest  | 39        | 30.35        | 1183.50 | Wilcoxon W                   | 1183.500 |
|                                 | Posttest | 39        | 48.65        | 1897.50 | Z                            | -3.575   |
|                                 | Total    | 78        |              |         | Asymp. Sig. (2-tailed)       | 0.000    |
| a. Grouping Variable: Test Type |          |           |              |         |                              |          |

The Mann–Whitney U test indicated a statistically significant improvement in the experimental group,  $U = 403.5$ ,  $Z = -3.575$ ,  $p < .001$ .

#### 4.2.4 Comparison between the control and the experimental groups Post–test results

The descriptive statistics of the variables measured in the post–tests for both groups (control group and experimental group) as well as the analysis of the intra–group test results for both groups performed using Mann–Whitney U tests to compare their performance after the intervention (post–test). The results are presented in the tables below:

**Table 7:**  
**Descriptive Statistics for Post–Test Scores Across Groups**

| Post–Tests Grades Report |               |                    |         |             |
|--------------------------|---------------|--------------------|---------|-------------|
|                          | Control Group | Experimental Group |         |             |
|                          | Class A       | Class B            | Class C | Class B & C |
| N                        | 20            | 19                 | 20      | 39          |
| Mean                     | 13.40         | 15.39              | 15.53   | 15.46       |
| S t d . Deviation        | 3.61          | 2.83               | 2.67    | 2.71        |

The experimental group scored significantly higher ( $M = 15.46$ ,  $SD = 2.71$ ) than the control group ( $M = 13.40$ ,  $SD = 3.61$ ) in the post–test.

**Table 8:**  
**Mann–Whitney U Test Comparing Post–Test Scores Between Groups**

| Descriptive Statistics |    |       |                |         |         |             |               |         |
|------------------------|----|-------|----------------|---------|---------|-------------|---------------|---------|
|                        | N  | Mean  | Std. Deviation | Minimum | Maximum | Percentiles |               |         |
|                        |    |       |                |         |         | 25th        | 50th (Median) | 75th    |
| Grades                 | 59 | 14.76 | 3.17           | 7.00    | 19.50   | 12.5000     | 15.0000       | 18.0000 |
| Group                  | 59 | 1.66  | 0.48           | 1       | 2       | 1.00        | 2.00          | 2.00    |

| Mann–Whitney Test           |                    |    |           |              |                              |         |
|-----------------------------|--------------------|----|-----------|--------------|------------------------------|---------|
| Ranks                       |                    |    |           |              | Test Statistics <sup>a</sup> |         |
| Group                       |                    | N  | Mean Rank | Sum of Ranks |                              | Grades  |
| Grades                      | Control Group      | 20 | 23.08     | 461.50       | Mann–Whitney U               | 251.500 |
|                             | Experimental Group | 39 | 33.55     | 1308.50      | Wilcoxon W                   | 461.500 |
|                             |                    |    |           |              | Z                            | –2.223  |
|                             |                    |    |           |              | Asymp. Sig. (2-tailed)       | 0.026   |
| a. Grouping Variable: Group |                    |    |           |              |                              |         |

Results revealed a statistically significant difference in post–test scores favouring the experimental group,  $U = 251.5$ ,  $Z = -2.223$ ,  $p = .026$ . The effect size ( $r = 0.29$ ) suggests a small to medium educational impact.

## Chapter V: Discussion and Conclusion

### 5.1 Discussion of the Findings

The study aimed to answer the research question: How does the use of Phet simulations in teaching stoichiometry impact grade 10 students' understanding and performance in chemistry compared to traditional teaching methods?

To address this, student performance was compared across three groups: a control group taught using traditional methods and two experimental groups taught using Phet simulations.

The results showed a statistically significant difference in performance between the groups:

The experimental group showed greater improvement in post-test scores ( $M = 15.46$ ,  $SD = 2.71$ ) compared to the control group ( $M = 13.40$ ,  $SD = 3.61$ ).

A Mann–Whitney U test confirmed this difference was statistically significant ( $U = 251.5$ ,  $p = .026$ ).

Additionally, within-group comparisons revealed that the experimental group had significant learning gains from pre-test to post-test ( $Z = -3.575$ ,  $p < .001$ ), while the control group also improved, but to a lesser extent ( $t(19) = -12.337$ ,  $p < .001$ ).

These findings confirm that simulation-based learning using Phet tools significantly enhances students' understanding of stoichiometry compared to traditional teaching approaches. The results support constructivist learning theory, which emphasizes interactive, student-centered learning environments that promote conceptual change and deeper understanding.

## 5.2 Validation of the Hypothesis

The hypothesis proposed that the use of simulation-based learning has a positive influence on student outcomes compared to traditional methods. The statistically significant improvement observed in the experimental group supports this hypothesis. Therefore, the findings affirm that Phet simulations enhance con-





ceptual understanding and student performance in chemistry.

### 5.3 Implications for Practice

Educators are encouraged to integrate Phet simulations into their instructional practices, especially when teaching abstract scientific concepts. Training and support should be provided to ensure teachers can effectively use these tools to enrich the learning experience.

### 5.4 Limitations

The study was limited to a single school with a relatively small sample size. Moreover, the absence of a delayed post-test limits the assessment of long-term learning retention.

- **Sample Size and Generalizability:** Only 59 students from a single private school contributed to the study's relatively small sample size. This makes it more difficult to generalize the results. To improve the generalizability of the findings, future research should include a bigger sample size from a variety of educational settings or schools.
- **Single school:** Context of a Single School: The study was conducted in a single school, which might have limited the range of instructional concepts, student backgrounds, and technology resources.
- **Lack of Long-Term Follow-up:** A delayed post-test to evaluate long-term retention of stoichiometry concepts following the intervention was not included in the study.
- **Insufficient utilization of technology Tools:** Although Phet simulations are an excellent form of educational technology,

they are the sole focus of this study.

## 5.5 Recommendations for Future Research

Future research should include a larger and more diverse sample and assess long-term retention of concepts. Comparative studies between different educational technologies (e.g., Phet vs. AR) may also be valuable. A delayed post-test or follow-up research might also be used to evaluate how well stoichiometry ideas are retained over time and ascertain whether the gains made using Phet simulations were worthwhile. Finally, other studies might look into how well Phet simulations teach biology or physics, among other science courses. This would give a more thorough grasp of the various fields in which this technology can be used.

## 5.6 Conclusion

This study concludes that teaching stoichiometry using Phet simulations significantly improves student understanding and performance. Such technology-enhanced learning tools offer effective alternatives to traditional methods and should be adopted more widely in science education.

## References

- Abourjeili, S. A.-R. (2020, october 20). The Deteriorated Educational Reality in Lebanon: Towards "Another" Critical Approach. Retrieved from Arab Reform Initiative (ARI): <https://www.arab-reform.net/publication/the-deteriorated-educational-reality-in-lebanon-towards-another-critical-approach/>
- Bloom, B. S. (1956). "Taxonomy of Educational Objectives: The Classification of Educational Goals, Handbook I: Cognitive Domain". New York, NY.: David McKay Company.

Boulder), U. o. (2025, July 7). PhET Interactive Simulations. Retrieved from PhET Interactive Simulations (hosted by the University of Colorado Boulder): <https://phet.colorado.edu>

Cambell, D. T., & Stanley, J. C. (1963). Experimental and quasi-experimental designs for research. Chicago: Rand McNally & Company.

Drastisianti, A., Dewi, A. K., & Alighiri, D. (2024). Effectiveness of Guided Inquiry Learning With PhET Simulation to Improve Students' Critical Thinking Ability and Understanding of Reaction Rate Concepts. *International Journal of Pedagogy and Teacher Education*, 8(2), 235–252. Retrieved from <https://doi.org/10.20961/ijpte.v8i2.93924>

Etikan, I., Musa, S. A., & Alkassim, R. S. (2016,). Comparison of Convenience Sampling and Purposive sampling. *American Journal of Theoretical and Applied Statistics*, 5(1), 1–4. doi:10.11648/j.ajtas.20160501.11

Ganasen, S., & Shamuganathan, S. (2017, march). The Effectiveness of Physics Education Technology (PhET) Interactive Simulations in Enhancing Matriculation Students' Understanding of Chemical Equilibrium and Remediating Their Misconceptions. *Overcoming students' misconceptions in science: Strategies and perspectives from Malaysia*, 157–178. doi:10.1007/978-981-10-3437-4\_9

Helmenstine, A. M. (2023, april 5). "Stoichiometry Definition in Chemistry.". Retrieved from thoughtco: <https://www.thoughtco.com/definition-of-stoichiometry-605926>

Hussain, S., Safdar, M., & Özarslan., M. (2023). STOICHIOMETRY CALCULATIONS WITH CHEMICAL FORMULAS. In J. A. Akaito, Y. E. Usheunepa, & Y. E. Usheunepa, *Chemistry for the Life* (pp. 39–65). Turkey,Istanbul : ISRES Publishing.

Iyamuremye, A., Hagenimana, F., Mbonyubwabo, J. P., Mbonyirivuze, A., Butera, M., Niyonderera, P., & Ukobizaba, F. (2023, october). Enhancing Understanding of Challenging Chemistry and Physics Concepts in Secondary Schools of Kayonza District through Computer Simulation–

Based Learning. *Journal of Classroom Practices*, 2(2), 1–28. Retrieved from <https://doi.org/10.58197/prbl/THRF5883>

Jallad, S. T. (2024). Effectiveness of Simulation-Based Education on Educational Practices of Communication Skills, Satisfaction, and Self-Confidence Among Undergraduate Nursing Students. *Sage Journals*, 31(2), 135–143. Retrieved from <https://doi.org/10.1177/10784535241301115>

Kolb, D. A. (1984). *Experiential learning: Experience as the source of learning and development*. Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice Hall.

Lim, W. M. (2024). What Is Quantitative Research? An Overview and Guidelines. *Australasian Marketing Journal*, 33(2), 1–9. Retrieved from <https://doi.org/10.1177/14413582241264622>

Musyoki, A. ((2022)). Stoichiometry and Balancing Reactions: An Overview. *Modern Chemistry & Applications*, 10(4), 1–2. Retrieved from <https://doi.org/10.35248/23296798.22.10.350>

Myers, R. (2003). A Brief History of Chemistry. In R. Myers, *The Basics of Chemistry* (pp. 7–13). London: Greenwood Press.

Omoy, E. Q. (2023, 2 26). PhET Interactive Simulations: A Tool in Improving Academic Performance of Grade 10 Students in Balancing Chemical Equations. *International Journal of Formal Sciences: Current and Future Research Trends*, 18(1), 1–11.

Piaget, J. (1952). *THE ORIGINS OF INTELLIGENCE IN CHILDREN*. New York, NY: New York: International University Press.

Ramaila, S., & Molwele, A. J. (2022). The Role of Technology Integration in the Development of 21st Century Skills and Competencies in Life Sciences Teaching and Learning. *International Journal of Higher Education*, 11(5 (2022)), 9–17. Retrieved from <https://www.sciedupress.com/journal/index.php/ijhe/article/view/21623>

Rico, H., Pacheco, M. A., Pabon, A., & Portnoy, I. (2023). Evaluating the impact of simulation-based instruction on critical thinking in the Colombian Caribbean: An experimental study. *Cogent Education*, 10(2). Retrieved



from <https://doi.org/10.1080/2331186X.2023.2236450>

Salame, I., & Makki, J. (2021, may 21). Examining the Use of PhET Simulations on Students' Attitudes and Learning in General Chemistry II. *Interdisciplinary Journal of Environmental and Science Education*, 17(4). Retrieved from <https://doi.org/10.21601/ijese/10966>

Shadreck, M., & Ochonogor, C. E. (2018). Recurrent Difficulties: Stoichiometry problem-solving. *African Journal of Educational Studies in Mathematics and Sciences*, 14, 25–31.

Sweller, J. (1988). Cognitive Load During Problem Solving: Effects on Learning. *Cognitive Science*, 12(2), 257–285.

TECH, I. (2007, March 20). go2itech. Retrieved from Guidelines for pre-and post-testing. Technical Implementation Guide #2.: [https://www.go2itech.org/HTML/CM08/toolkit/tools/print/tools/skills/TIG\\_Guidelines\\_Pre\\_Post\\_Test.pdf](https://www.go2itech.org/HTML/CM08/toolkit/tools/print/tools/skills/TIG_Guidelines_Pre_Post_Test.pdf)

Vygotsky, L. (1978). *Mind in society: The development of higher psychological processes*. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.

Whitworth, K., Leupen, S., Rakes, C., & Bustos, M. (2018, august 24). Interactive Computer Simulations as Pedagogical Tools in Biology Labs. *CBE life sciences education*, 17(3). Retrieved from <https://doi.org/10.1187/cbe.17-09-0208>